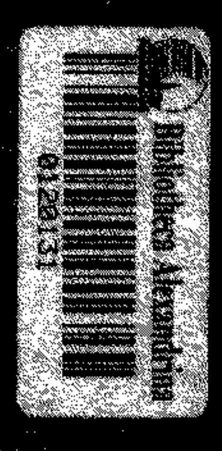
جوستاين غاردر

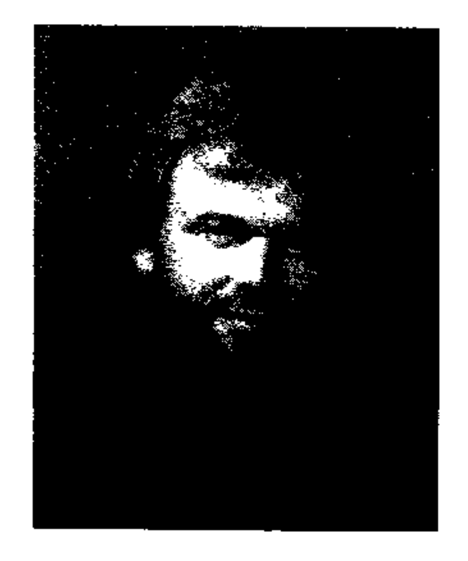
عالم صوفي

رواية

حول تاريخ الفلسفة







جوستاين غاردر، كاتب نرويجي ولد في عام ١٩٥٢، ويعمل أستاذاً في الفلسفة وتاريخ الفكر وبهذا يمارس الأدب والتعليم معا.

روايته الثالثة «سر الصبر» هي التي جعلته معروفاً لدى الجمهور النرويجي. اذ حقق هذا العمل الذي امتدحته الصحافة بشدة، نجاحاً كبيراً في المكتبات، واستحق مؤلفه عليه جائزة النقد الكبرى.

لكن «عالم صوفي» هو الذي حقق له شهرة عالمية مدوية. حيث ترجم الى اكثر من ثمان وثلاثين لغة، وكان يثير حماساً كبيراً في كل مكان، خاصة في المانيا حيث تعدت مبيعاته المليون نسخة.

عالم صوفي


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

جوستاين غاردر

عالم صوفي

رواية

حول تاريخ الفلسفة

النص العربي بقلم:
حياة الحويك عطية



دار المنى

Original first published in 1991 by H. Aschehoug & Co, Oslo, Norway,
under the title "Sofies verden"

** Published with a translation grant from NORLA*

ISBN 91 88356 11 6

Cover: Quint Buchholz
Printed in Sweden

Dar Al-Muna
Box 127, S-182 05 Djursholm, Sweden

الذي لا يعرف أن يتعلم دروس الثلاثة آلاف سنة الأخيرة، يبقى في العتمة.

غوته


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

حديقة عدن

... في لحظة محددة كان لا بد
أن ينبثق شيء من العدم...

عادت صوفي امندسون من المدرسة، وكانت قد قطعت شوطا من الطريق برفقة جورون. تحدثتا عن الإنسان الآلي. وكانت جورون ترى أن الدماغ البشري هو جهاز منظم متطور أما صوفي فتشعر أنها لا توافقها الرأي. لا يمكن أن تحصر الكائن البشري بمجرد آلة. اليس كذلك؟

عند الوصول الى مقربة من المركز التجاري، ذهبت كل واحدة منهما الى جهة. فقد كانت صوفي تسكن زقاقا في آخر حي سكني، وتحتاج تقريبا، لضعفي الوقت الذي تحتاجه جورون للذهاب الى المدرسة. منزلها يبدو وكأنه في آخر العالم، ذاك أنه ما ان تنتهي الحديقة حتى تبدأ الغابة.

انعطفت الى زقاق النفل. وكان في آخره منعطف على شكل زاوية قائمة، «منعطف القبطان»، الذي لا يُصادف فيه عابر إلاّ أيام السبت والآحاد.

كان اليوم هو الأول من أيار. وفي بعض الحدائق، يتكاثف النرجس عند أقدام الأشجار المثمرة، وتكتسي أشجار الحور بوشاح من الأخضر الطري.

ألم يكن من الغريب رؤية كيف يأخذ كل شيء في النمو، في هذه المرحلة من السنة؟ ما الذي يسمح لمجموع النبات بالانبثاق من الأرض الجامدة لمجرد أن يجلو الطقس، وتختفي آخر آثار الثلج؟

عند عبورها باب الحديقة، ألقت صوفي نظرة على صندوق البريد. الذي عادة ما يكون محشوا بنشرات اعلانية اضافة الى بضع مظاريف مُرسلة الى أمها. وعادة ما كانت تضع ذلك كله على طاولة المطبخ. قبل

أن تصعد الى غرفتها للقيام بواجباتها، وكان يحصل، من وقت لآخر، أن تصل كشوفات بَنكيّة باسم أبيها. لكن لا بد من القول انه لم يكن أبا كسائر الآباء. فهو قبطان على ناقلة نفط، مما يجعله غائبا كل أيام السنة، تقريبا. وعندما كان يمضي بعض الأيام على اليابسة، كان يتسكع بالبابوج ويحاول أن يكون مفيدا .. لكنه يصبح، عندما يبحر، شخصية بعيدة جداً.

هذا اليوم لم يكن في صندوق البريد إلاّ رسالة صغيرة، وكانت موجهة لصوفي. كانت الرسالة معنونة ببساطة:

صوفي امندسون

٣ – *زقاق النفل*.

لاشيء آخر. أية اشارة عن المرسل، حتى ولا طوابع.

استعجلت صوفي اغلاق البوابة خلفها وفتحت المغلف. فلم تجد في داخله إلاّ ورقة صغيرة، لا تتجاوز مساحتها مساحة الظرف، وعليها، جملة واحدة فقط: من *أنت*؟

لم تكن الورقة تقول صباح الخير، ولا من طرف من أُرسلت. فقط هاتان الكلمتان وبعدهما ثلاث علامات استفهام.

نظرت من جديد الى المغلف. لكن اذا كانت هذه الرسالة قد وُجهت اليها ... فمن الذي دسها في صندوق البريد؟

ركضت صوفي نحو المنزل ذي الخشب الأحمر، وقبل أن تقفل الباب بالمفتاح. كان الهر شيريكان قد قفز، كالعادة، من بين الأدغال، وانسل حتى درج المدخل، واستطاع أن يندس الى الداخل

– بسْ ، بسْ

عندما تكون أم صوفي متعكرة المزاج، قد يحصل أن تنعت المنزل بالحظيرة الحقيقية. والحظيرة هنا مجموعة من حيوانات مختلفة، وبهذا المعنى كانت صوفي فخورة بحظيرتها. فقد أُعطيت أولا وعاء زجاجيا فيه ثلاث سمكات حمراء: القرط الذهبي، ليلى الحمراء وبطرس القرصان، ثم

حصلت على كري كري وغري غري، وبعدهما السلحفاة جوفيندا، وأخيرا الهر شيريكان، وهو هر أحمر مرقط كالنمر. لقد قُدمت لها كل هذه الحيوانات تعويضا عن غياب أمها التي تعمل الى وقت متأخر، وأبيها البعيد دائما، في الطرف الآخر من العالم.

تخلصت صوفي من حقيبتها المدرسية، وقدمت الطعام لشيريكان. ثم جلست في المطبخ والرسالة الغامضة في يدها.

– *من أنت؟*

أي سؤال أبله! وكأنها لا تعرف أنها صوفي أمندسون! ولكن من هي صوفي هذه في النهاية؟ انها لا تعرف الكثير، وبدقة، عن ذلك.

ولو أنهم أطلقوا عليها اسما آخر؟ أن كنوتسن، مثلا، هل كانت ستكون شخصا آخر؟

تذكرت فجأة أن أباها أراد أن يسميها سينوف. وحاولت أن تتخيل الوضع، وهي تمد يدها مقدمة نفسها باسم سينوف امندسون. لكن لا، لا تسير الأمور على ما يرام هكذا. انها في كل مرة فتاة مختلفة.

نزلت عن كرسيها الصغير، وذهبت الى الحمام حاملة الرسالة الغريبة في يدها. وقفت أمام المرآة ونظرت مباشرة في عينيها ثم قالت:

– أنا صوفي أمندسون،

لم تجب الفتاة التي في المرآة، حتى ولا بتكشيرة. عبثا حاولت صوفي أن تفعل ذلك، فقد كانت الأخرى تفعل الشيء نفسه بالضبط. حاولت صوفي أن تفاجئها بأن تتحرك بسرعة كبيرة، لكن الأخرى تحركت بمثل سرعتها.

وسألت: *من أنت؟*

لم تحصل على جواب أفضل من الذي حصلت عليه قبل لحظات، لكنها، ولجزء من الثانية، لم تعرف من التي طرحت السؤال هي أم تلك التي في المرآة.

وضعت صوفي سبابتها على الأنف الذي رأته في المرآة، قائلة:

– *أنت، أنا.*

وعندما لم تحصل، أيضا على جواب، قلبت ترتيب الجملة:

– أنا أنت

لم تتقبل صوفي أمندسون صورتها دائما، غالبا ما يقال لها ان لها عينين لوزيتين، وذاك بدون شك تجنبا لملاحظة أن أنفها صغير جدا، وفمها كبير قليلا. اضافة الى أن أذنيها قريبتان جدا من عينيها. لكن الأسوأ هو شعرها المنسدل تماماً، مما يجعل تسريحه مستحيلا. أحيانا يمرر أبوها يده في شعرها وهو يناديها بـ «ذات الشعر القطني». لقد كان الكلام سهلا بالنسبة له، فهو غير محكوم طوال حياته بهذا الشعر الطويل المنسدل الناعم. اذ لم يكن أي نوع من المستحضرات يثبت على شعر صوفي.

كانت ترى رأسها بشعا جدا الى الحد الذي يجعلها تتساءل أحيانا عما اذا كانت قد ولدت مع تشوّه خلقي. على أية حال، لقد قالت لها أمها إن ولادتها كانت صعبة. لكن هل تحكم ولادتنا مظهرنا الى الأبد؟

أليس من المستغرب أنها لا تعرف من تكون؟ أليس من غير العدل ألا نستطيع اختيار مظهرنا الخارجي؟ انه يُفرض علينا هكذا. نحن نستطيع أن نختار أصدقاءنا لكننا لم نختر أنفسنا. انها حتى لم تختر أن تكون كائنا بشريا.

ما هو الكائن البشري؟

رفعت صوفي من جديد عينيها الى الفتاة التي في المرآة، معتذرة لها بقولها:

– أعتقد أنني سأصعد لأقوم بواجباتي المدرسية في علم الأحياء

بعد لحظة كانت في الممر، ثم عادت ففكرت

«لا. في النهاية، أنا أفضل الذهاب الى الحديقة.»

– بس، بس

دفعت صوفي الهر الى السلم، وأعادت اقفال الباب وراءها ...

عندما وصلت الى الممر المرصوف بالحصى وهي لا تزال تحمل الرسالة الغامضة في يدها، اجتاحها احساس غريب: لكأنها كانت حتى الآن دمية، وجاءت ضربة عصاة سحرية تدفع فيها الحياة.

لكم كان غريبا أن تجد نفسها في العالم، منشغلة بقصة غير مألوفة

الى هذا الحد!

قفز شيريكان في الممر، واختفى وراء بعض أشجار المشمش الكثيفة. هرٌ حيوي جدا، من أصغر شعرة بيضاء في رأسه، حتى نيله المتدلي في آخر جسده الأملس. كان موجودا أيضا، في الحديقة، لكنه لا يعي ذلك كصوفي.

وكلما كانت تعي أكثر أنها تحيا، كلما كانت فكرة أنها لن تظل هنا الى الأبد، تتسرب الى نفسها.

أنا موجودة الآن - فكرت - لكنني في يوم ما، لن أعود هنا.

هل هناك حياة بعد الموت؟ من المؤكد أن هذا السؤال لا يمنع الهر من النوم.

لم يكن قد مضى وقت طويل على موت جدة صوفي ومع ذلك فإن صوفي تشعر كل يوم تقريبا، ومنذ ستة أشهر، بأنها تفتقدها كثيرا. أليس من الظلم أن يتوجب على الإنسان أن يموت يوما؟

ظلت صوفي فترة في الممر تتأمل. كانت تحاول أن تقنع نفسها بوجودها هي، كي تطرد فكرة أنها لن تعيش الى الأبد. لكن عبثا، فما تكاد تركز تفكيرها على حياتها حتى تتخيل نهاية هذه الحياة. العكس أيضا كان صحيحا: فعندما كانت تتقبل فكرة أنه يمكن لحياتها أن تنتهي يوما، كانت تشعر على الفور وكما لم تشعر أبدا من قبل، أي حظ استثنائي أن تكون حية!

لكأن الأمر يشبه وجهين لقطعة واحدة، لا تتوقف عن تقليبها في يدها. ولم يكن من شأن ما يظهر واضحا على أحد الوجهين إلا أن يقوي الوجه الآخر. ان الحياة والموت يلتصقان ظهرا لظهر.

فمن المستحيل أن نشعر أننا أحياء اذا لم نفكر أيضا بأننا سنموت يوما، كما أننا لا نستطيع التفكير بموتنا، دون أن نحس، وفي اللحظة نفسها، بالمعجزة الغريبة، معجزة كوننا على قيد الحياة.

تذكرت صوفي أن جدتها قالت شيئا مماثلا يوم أخبرها الطبيب بخطورة مرضها. «لم أنتبه، إلاّ الآن، الى أي مدى هي الحياة جميلة.» هكذا قالت.

ألم يكن من المحزن أن نلحظ أن أكثرية الناس، يجب أن يصابوا بالمرض كي يعرفوا قيمة الحياة؟ أو انه يجب عليهم أن يتلقوا رسالة غامضة؟

ربما عليها أن تبحث عما اذا كان هناك شيء آخر في الصندوق؟

اندفعت صوفي باتجاه البوابة، فتحت الصندوق الأخضر. واذا بها تقفز عندما تكتشف رسالة مشابهة في داخله. فقد كانت واثقة من انها تفحصته جيدا، لتوها، عندما أخذت الرسالة الأولى.

على هذا المغلف أيضا، كان اسمها مكتوبا. فتحته، وأخرجت منه ورقة صغيرة مماثلة تماما للأولى، مكتوب عليها عبارة:

– *من أين جاء العالم؟*

ليس لدي أية فكرة عن ذلك، قالت صوفي لنفسها، لا أحد يستطيع أن يعرف هذا النوع من الأشياء! ومع ذلك فإن السؤال يستحق الطرح. ولأول مرة في حياتها، رأت أنه لا يمكن العيش دون *التساؤل* عن الأصول، على الأقل.

لقد أعطتها الرسالتان الغامضتان قدرا من النشوة جعلها تقرر الجلوس بهدوء في كوخها.

هذا الكوخ، كان الملجأ السري لصوفي. لم تكن تذهب اليه إلاّ عندما تغضب كثيرا، تحزن كثيرا أو تسر كثيرا. لكنها لا تعرف اليوم أين هي من هذا كله.

كان المنزل ذو الخشب الأحمر يقع وسط حديقة كبيرة، فيها كثير من الزهور الكثيفة، الشجيرات، والأشجار المثمرة. وتمتد أمامه مرجة كبيرة، فيها أرجوحة وصيوان صغير، بناه الجد الجدة يوم فقدت وليدها الأول بعد أيام من ولادته. يومها أطلقوا على تلك الطفلة اسم ماري، وعلى قبرها حفروا العبارة التالية: «لقد ألقت علينا ماري الصغيرة التحية، خطت ثلاث خطوات صغيرة، ثم ذهبت.».

في آخر الحديقة، في زاوية منها، وراء شجرة الخوخ، تمتد منسقة كثيفة تمنع الزهور والشجيرات المثمرة من النمو. لقد كانت في الأساس سياجا قديما يفصل الحديقة عن الغابة، لكنه تحول الى عيص حقيقي لا

يمكن اختراقه، وذلك لأن أحدا لم يعتن به طوال العشرين سنة السابقة.

وكانت جدة صوفي قد أخبرتها أن هذا السياج كان يعيق – خلال الحرب – مهمة الذئاب التي تلاحق الدجاجات التي تُركت حرة في الحديقة.

الجميع، باستثناء صوفي، كانوا يرون أن هذا السياج عديم الفائدة، مثله مثل قفص الأرانب العتيق الذي تُرك في مكان قصي في الحديقة. لقد كانوا يرون ذلك لأنهم لا يعرفون سر صوفي.

دائماً، عرفت صوفي بوجود ممر صغير في السياج، يكفيها أن تزحف منه، لتنفذ الى بقعة واسعة طلقة، بين الأدغال، كأنها كوخ حقيقي. في هذا المكان يمكنها أن تثق بأن أحدا لن يكشف مخبأها، أو يخرجها منه.

قطعت الحديقة جريا، وهي لا تزال تضم رسالتيها في يدها، دبت على يدها ورجليها واندست تحت السياج. كان كوخها كبيرا بما يكفي للوقوف، لكنها اليوم، تفضل الجلوس على جذور ضخمة. ومن مكانها هذا، تستطيع أن تراقب كل شيء من خلال فتحات صغيرة بين الأغصان والأوراق وحتى لو ان أيا من هذه الفتحات لا يتجاوز حجم القرش، فإنها تكفي لمراقبة الحديقة كلها. عندما كانت أصغر سنا، كان يمتعها أن تراقب أبويها وهما يبحثان عنها خلف الأشجار.

لقد أحست صوفي دائما بأن الحديقة عالم قائم بذاته. وكلما كانت تسمع حديثا عن جنة عدن، وعن الخلق، تتخيل نفسها جالسة في كوخها تراقب جنتها الخاصة.

من أين جاء هذا العالم؟

انه السؤال! تعرف صوفي أن الأرض ليست سوى كرة صغيرة في قلب الكون الشاسع. ولكن، من أين جاء هذا العالم؟

لا شك انه يمكن افتراض وجود الكون منذ الأزل، مما يسمح بتجاهل والغاء هذا السؤال من أصله. ولكن هل يمكن لأي شيء أن يكون موجودا منذ الأزل؟ شعرت أنها ليست موافقة على هذه الفكرة، يجب أن يكون لكل شيء بداية. أليس كذلك؟ اذن لا بدّ أن يكون الكون قد خلق

انطلاقا من شيء آخر.

ولكن اذا كـان مـصدر الكون في شيء آخر، فـلا بد أن هـذا الشيء أيضا، قد خلق يوما. وانتبهت صـوفي الى أنها لم تفعل أكثر من نقل المسـألة. لا بد، انه في لحظة ما، قد انبثق شيء من العدم. ولكن هل هذا معقول؟ أليس تخيله مستحيلا بقدر استحالة تخيل فكرة عَالَمٍ موجود منذ الأزل؟

في المدرسة، علموها ان الله قد خلق العالم، وهـا هي تحاول أن تجد بعض العزاء في هذا التفسير. لكنه لا يكفيها تماما.

جيدا! الله خلَق العالم. ولكن. الله اذن؟

هل كان قد خُلِق هو الآخر انطلاقا من لا شيء؟

هذا أيضا غير مفهوم. فإذا اعتبرنا أن الله يستطيع أن يخلق ما يريد، فلا بد أنه كان شيئا ما قبلا، كي يستطيع خلق نفسه. لم يتبقَّ إلا حل واحد:

أن الله كان دائما موجودا. لكن هذا التأكيد بالذات هو ما رفضته! فلا بد من أن تكون لكل موجود بداية.

فتحت المظروفين مرة أخرى.

- من أنت؟

- من أين جاء العالم؟

الحقيقة، ان طرح أسئلة كهذه، ليس لعبا! ومن أين جاءت هاتان الرسالتان؟ ان هذا أيضا سر.

من الذي سحب صوفي من حياتها الهادئة ليضعها أمام أحاجي الكون الكبرى؟

للمرة الثالثة، ذهبت صوفي تنظر في صندوق البريد. كان ساعي البريد قد مر لتوه. وعندما مدت يدها، خرجت برزمة من الصحف، والكتيبات الإعلانية، وبعض الرسائل الموجهة لأمها. وبطاقة بريدية عليها صورة شاطىء شمالي. قلبت البطاقة، وإذا الطوابع نرويجية، واشارة الإرسال تقول: « الحامية النرويجية للأمم المتحدة.» أهي من والدها؟ انه اذن في لبنان، بينما كانت تعتقد أنه في مكان آخر من العالم ... لكن

الخط لم يكن خطه ..

أخذت دقات قلبها تتسارع وهي تقرأ اسم المرسل اليه:

«هيلد مولر كناغ بوساطة صوفي أمندسون»

٣ زقاق النفل

كانت بقية العنوان صحيحة، والرسالة تقول:

عزيزتي هيلد

أتمنى لك أشياء كثيرة جيدة في عيد ميلادك الخامس عشر.

وكما تعلمين، أنا أحرص على أن أقدم لك هدية تجعلك تكبرين.

سامحيني اذا كنت أرسل البطاقة لصوفي. فذاك ملائم أكثر.

أقبلك،

أبوك

عادت صوفي الى البيت راكضة، ودخلت الى المطبخ، كانت تغلي استنكارا.

من هي اذن «هيلد» هذه التي تسمح لنفسها ببلوغ الخامسة عشرة قبل شهر واحد من عيد ميلادها هي؟

في المدخل راحت صوفي تبحث في دليل الهاتف، كان فيه أكثر من واحدة تحمل اسم مولر أو كناغ، لكن ليس بينهن من تحمل مولر كناغ.

من جديد أخرجت البطاقة البريدية .. لا .. انها بطاقة حقيقية، بطوابع حقيقية وختم مركز بريدي حقيقي ..

ما هو هدف أب ما، من ارسال بطاقة معايدة على عنوان صوفي، في حين من الواضح أن المقصود فتاة أخرى؟ أي أب تراوده هذه الفكرة السيئة: حرمان ابنته من بطاقة عيد ميلادها، بإرسالها الى عنوان آخر؟

ولماذا كان الأمر ملائما أكثر هكذا؟ والأهم من ذلك، كيف يمكن العثور على هيلد هذه؟

مشكلة أخرى، تقع على رأسها. حاولت أن ترتب أفكارها قليلا.

خلال فترة بعد الظهر أي خلال أربع ساعات فقط. وجدت صوفي

نفسـهـا أمـام ثلاث أحـاجي. تتـمـثل الأولى في مـعـرفـة من الذي وضـع المظروفين الأبيضـين في صندوق بريدها. والثـانيـة فـي السؤالين الدقـيقين اللذين تطرحـهما الرسـالتان. أما الثالثة فـهي مـعرفة من هي هيلد مـوللر كنا غ، ولماذا كانت صوفي هي التي تلقت بطاقتها عوضا عنها.

وراودها حـدس بأن هذه الأحـاجي الثـلاث مـترابطة بشكل أو بآخـر. ذاك أنها كانت تعيش، حتى هذا اليوم، حياة تافهة.

القبعة العالية

... إن الميزة الوحيدة اللازمة لكي يصبح الإنسان فيلسوفا جيدا هي قدرته على الدهشة ...

لم تكن صوفي تشك في أن صاحب الرسالتين المقفلتين سيحاول الاتصال بها من جديد. ولكن حتى ذلك الحين. عليها أن تضغط لسانها.

بدأت تجد صعوبة في تركيز انتباهها في الصف. فلم يكن الأستاذ يتحدث إلاّ عن أشياء دون فائدة. لماذا لا يتحدث عن طبيعة الإنسان، والعالم وأصله؟

فجأة انتبهت الى أن الناس، سواء في المدرسة أو خارجها، يهتمون بأشياء عابرة تماما. رغم وجود مسائل أخرى، أكثر أساسية وصعوبة من مسائل البرنامج المدرسي!

من كان يعرف أن يجيب عن أسئلة كهذه؟ أو أن يفكر فيها؟ على أية حال. فذاك شيء مختلف عن قضاء الوقت في ترداد وحفظ المواد عن ظهر قلب.

ما ان انتهت الحصة الأخيرة، حتى اندفعت خارجة، بسرعة اضطرت جورون الى الركض لتلحق بها. سائلة:

– هل سنلعب الورق هذا المساء؟

هزت صوفي كتفيها

– أعتقد أن لعب الورق لم يعد يثير اهتمامي.

لم تصدق جورون أذنيها

– آه. حسنا. هل تفضلين اللعب بالريشة الطائرة.

ركزت صوفي نظرها طويلا في الأرض، ثم نظرت الى صديقتها

– أعتقد أنه حتى الريشة الطائرة، لم تعد تثير اهتمامي أيضا.

– حسنا. اذا كان الأمر هكذا!

لم تخف على صوفي نبرة الأسف في صوت صديقتها التي أضافت:

– ربما استطعت أن تقولي لي ما الذي تجدينه مهما، اذن؟

– هزت صوفي رأسها بحركة خفية

– انه .. انه سر

– كما تحبين!

مشت الصديقتان برهة طويلة صامتتين وعندما وصلتا الى ملعب كرة القدم، قالت جورون:

– حسنا، سأختصر الطريق باجتياز الملعب.

«قَطْعُ الملعب» هو اختصار للطريق، لكن جورون لم تكن تسلكه إلاّ عندما يتوجب عليها أن تصل في موعد محدد للزيارة أو للذهاب الى طبيب الأسنان.

لامت صوفي نفسها لأنها آذتها. ولكن بماذا كان عليها أن تجيبها؟ بأنها ترغب أن تعرف الآن من هي، وكيف خُلق الكون، لذلك لم يعد لديها وقت للعب الريشة الطائرة؟ لا تثق بأن جورون كانت ستفهمها.

لماذا يجعل الاهتمام بهذه الأسئلة الأساسية، والتافهة في النهاية، الحياة صعبة جدا؟

أحست بقلبها يخفق بشدة أكبر وهي تفتح صندوق البريد. لم تر إلاّ رسالة من المصرف، وبعض المظاريف الصفراء الكبيرة .. لا. لقد تمنت صوفي بشدة أن تجد رسالة ثانية من مجهولها.

لكنها فوجئت وهي تقفل البوابة، بوجود اسمها على أحد المظاريف الكبيرة. وعندما أرادت فتحه قرأت على ظهره الكلمات التالية: درس في *الفلسفة المعالجة بعناية كبيرة.*

جريا، صعدت زقاق الحصى، ووضعت حقيبتها المدرسية على درج المدخل، دست الرسالة الأخرى تحت ممسحة الأرجل، ثم ركضت في الحديقة الى خلف المنزل لتلجأ الى كوخها. هناك فقط سيكوَن لها الحق في فتح الرسالة الكبيرة.

لقد تبعها شيريكان، ولكن ليكن .. فهي تثق من أنه لن يروي شيئا.

كان في الملف أربع أوراق كبيرة مطبوعة على الآلة الكاتبة، وملمومة بشكلة. وأخذت صوفي تقرأ:

ما هي الفلسفة؟

عزيزتي صوفي

ان للناس كل أنواع الإهتمامات، فبعضهم يجمع القطع القديمة أو الطوابع، وبعضهم يهتم بالأعمال اليدوية أو اصلاح أشياء قديمة بينما يكرس آخرون كل أوقات فراغهم لهذه الرياضة أو تلك. كثيرون يفضلون القراءة لكن كل شيء يتوقف على ماذا نقرأ. يمكن الاكتفاء بقراءة الصحف، أو الأفلام المصورة، ويمكن ألا نحب إلاّ الروايات أو أن نفضل كتبا متخصصة بمواضيع مختلفة كعلم الفلك، حياة الحيوانات أو الاكتشافات العلمية.

اذا كنت أهوى الخيول أو الحجارة الكريمة فلا يمكن لي أن أطلب من الآخرين أن يقاسموني هذا الهوى. واذا كنت لا أدع تقريرا رياضيا تلفزيونيا يفوتني، فذاك لا يعطيني الحق في أن أنتقد الذين يجدونْ الرياضة مملة.

واذا كان يوجد – رغم ذلك – شيء، من طبيعته أن يهم كل الناس، شيء يخص كل كائن بشري، بصرف النظر عن هويته وعرقه؟ أجل، عزيزتي صوفي، هناك قضايا يجب أن تشغل كل الناس. وهذا النوع من القضايا هو الذي يشكل موضوع درسي.

ما هو الشيء الأهم في الحياة؟

اذا ما وجهنا هذا السؤال لرجل لا يجد ما يشبع جوعه، سيجيبنا انه الطعام. الذي يرتجف بردا سيقول انها الحرارة، أما الذي يعاني من الوحدة فسيجد أنها صحبة البشر الآخرين.

لكن، هل يوجد، رغم كل شيء، أبعد من هذه الحاجات الأولية، ما يحتاجه أيضا جميع الناس؟ الفلاسفة يعتقدون أن الجواب نعم. انهم يؤكدون أن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده. لا شك أن كل الناس يحتاجون الطعام، وهم يحتاجون أيضا الى الحب والحنان. لكن هناك شيء آخر نحتاجه كلنا: هو أن نعرف من نحن، ولماذا نعيش؟

اذن، ليست الرغبة في معرفة لماذا نعيش، اهتماما «عارضا»

كالاهتمام بجمع الطوابع. والذي يطرح على نفسه هذا النوع من الأسئلة يلتقيْ بذلك مع اهتمامات كل الأجيال التي سبقته. ان أصل الكون، الأرض، والحياة، هي قضية أكثر أساسية من معرفة مَن الذي حصل على أكبر عدد من الميداليات الذهبية في آخر أيام الألعاب الأولمبية.

ان أفضل وسيلة لمقاربة الفلسفة هي طرح عدة أسئلة فلسفية:

كيف خُلق الكون؟ هل وراء كل ما يحدث ارادة أم حس؟ هل توجد حياة أخرى بعد الموت؟ ودون أن ننسى هذا كله، كيف يجب أن نعيش؟

لقد طرح البشر، في كل العصور، على أنفسهم هذه الأسئلة. وحسبما نعرف، فلا توجد أية ثقافة لا تهتم بمعرفة من هو الإنسان، وكيف خُلق العالم.

في الواقع، ليس هناك الكثير من الأسئلة الفلسفية، ما عدا هذا. لقد رأينا الأهم منها. لكن التاريخ يقدم لنا اجابات مختلفة لكل من هذه الأسئلة.

انه لمن الأسهل جدا طرح أسئلة فلسفية من الإجابة عنها. واليوم أيضا، على كل منا أن يجد اجاباته عن الأسئلة نفسها. لا فائدة من البحث في موسوعة علمية عما اذا كان هناك إله، أو حياة بعد الموت. كذلك فإن الموسوعة لا تدلنا الى الطريقة التي يجب علينا أن نعيش بها حياتنا، لكن قراءة ما فكر به الآخرون، يمكن أن تساعدنا على تشكيل حكمنا الخاص على الحياة.

ويمكن مقارنة الصيد، بحقيقة الفلاسفة، وبرواية بوليسية. بعضهم يعتقد أن دوبون هو المجرم، بينما يعتقد بعضهم الآخر انه دوران، ولكن عندما يكون هناك تحقيق بوليسي حقيقي، تنتهي الشرطة يوما الى حل اللغز. من المؤكد انه يمكن لنا أن نفكر بأنها قد لا تتوصل لذلك أبدا. لكن، في كل الحالات يظل هناك حل.

كذلك يمكن لنا أن نفكر أيضا انه حتى لو كان من الصعب الإجابة عن سؤال، فإن هناك جوابا جيدا واحدا. فإما أن حياة أخرى توجد بعد الموت وإما لا.

لقد انتهى العلم الى حل عدد كبير من الألغاز القديمة. ثمة زمان كان

فيه وجه القمر سرا كبيرا. لم يكن الجدال يؤدي الى شيء، وكان كل يطلق العنان لخياله. لكننا بتنا اليوم، نعرف تماما ماذا يشبه الوجه الآخر من القمر. ولم نعد نستطيع الاعتقاد بأنه مسكون وانه قطعة من الجبن.

فيلسوف اغريقي قديم، عاش قبل ألفي عام كان يعتقد أن الفلسفة ولدت بفضل دهشة البشر. وكان يقول ان كون الانسان حي، هو شيء من الغرابة بحيث تظهر الأسئلة الفلسفية، من تلقاء نفسها.

وكما لو أننا نحضر جلسة شعوذة، نجدنا لا نفهم ما دار أمام أعيننا. وعندها نسأل: كيف حوّل الساحر بضعة مناديل حريرية الى أرنب حي؟ كثيرون يعتقدون ان العالم غير قابل للفهم، كخروج الأرنب من القبعة الرسمية التي كان يُظنّ انها فارغة. فيما يخص الأرنب، من المعروف انه خيل لنا أننا نراه ولكن كيف فعل ذلك؟ هنا يكمن كل السؤال. نحن نعرف ان العالم ليس حلقة شعوذة، ذاك اننا نعيش على هذه الأرض ونشكل جزءا منها. وانما نحن الأرنب الذي أُخرج من القبعة، مع فارق كون الأرنب الأبيض لا يعي أنه يشارك في حلقة شعوذة. أما نحن فأمر مختلف، نحن نشعر أننا نشارك في السّر ونحب كثيرا أن نعرف كيف تشابك كل هذا.

ملاحظة: فيما يخص الأرنب الأبيض، تكون المقارنة مع الكون أكثر دقة. ولا نصبح نحن إلاّ دويبات صغيرة ملتصقة في فراء الأرنب. أما الفلاسفة فيحاولون أن يتسلقوا قامة شعرة دقيقة كي ينظروا في عيني الساحر.

هل ما زلت تتابعينني يا صوفي؟

البقية في العدد القادم.

كانت صوفي قد أصيبت بدهشة عميقة. انها نسيت أن تتنفس، وهي تقرأ!

من الذي أرسل الرسائل؟ من؟ من؟

لا يمكن أن يكون هو نفسه من أرسل بطاقة المعايدة لهيلد مولر

كناغ، فتلك البطاقة كانت تحمل طوابع وختم البريد. بينما وضع المظروف الأصفر في صندوق بريدها مباشرة، وكذلك المظروفان الأبيضان.

نظرت صوفي الى ساعتها. لا تزال الساعة الثالثة إلاّ ربعاً، أي انه لا يزال هناك ساعتان حتى موعد عودة أمها.

خرجت دَبّاً على يديها ورجليها، وركضت نحو صندوق البريد ... وإذا كان لا يزال فيه شيء بعد؟؟

أجل، لقد وجدت ظرفا أصفر يحمل اسمها. نظرت حولها، لكنها لم تر أحدا. ركضت حتى حدود الغابة لترى ما إذا كان ثمة أحد في الممر.

لا وجود لحي هناك.

خيل لها أنها سمعت تَكَسُّر بعض الأغصان اليابسة، هناك، بعيدا في الغابة.

لكنها لم تكن متأكدة، وعلى أية حال ما الفائدة من الركض وراء شخص يحاول الهرب؟

عادت صوفي الى المنزل، وضعت حقيبتها المدرسية وبريد والدتها. صعدت الى غرفتها وأخرجت علبتها الحديدية الجميلة، التي تحفظ فيها مجموعتها من الأحجار الجميلة، وقلبتها أرضا، لتضع مكانها الظرفين الكبيرين. ثم خرجت الى الحديقة متأبطة العلبة، لم تكن تنسى في السابق، تحضير الطعام لشيريكان.

- بِسْ، بِسْ

في كوخها، فتحت الظرف وأخرجت منه عدة أوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة، وراحت تقرأ.

مخلوق غريب

ها نحن من جديد. وكما تلاحظين، فإن درس الفلسفة الصغير هذا، يملك قطعا صغيرة غير عسيرة الهضم، على ما أتمنى. هذه بعض الملاحظات التمهيدية الأخرى.

هل قلت لك سابقا ان الميزة الوحيدة اللازمة، لكي يصبح الواحد فيلسوفا جيدا، هي قدرته على الدهشة؟ ان لم أكن قد قلتها فانا أعيدها الآن: ان الميزة الوحيدة اللازمة لتصبح فيلسوفا هي أن تندهش.

كل الأطفال يملكون هذه الملكة. لكن لا تكاد بضعة أشهر تمضي، حتى يجدون أنفسهم مقذوفين في واقع جديد. ويبدو أن ملكة الدهشة هذه تضعف مع الكبر. لماذا؟ هل تعرف صوفي أمندسون، الجواب الصحيح، بالمصادفة؟

لنعد: لو ان مولودا صغيرا عرف أن يتكلم، لكان عبّر بالتأكيد عن دهشته من الوقوع في عالم غريب. وحتى لو انه لا يستطيع أن يتكلم، فيكفي رؤيته يشير بإصبعه الى كل الأشياء ويمسك بفضول كل ما يقع تحت يده.

مع بداية كلامه. يتوقف، ويروح يصيح عو، عوا، بمجرد أن يرى كلبا. أما نحن الأكثر تقدما في السن، فننظر اليه في عربته، ونشعر بأن هذه الحماسة الفائضة تتجاوزنا. ونضيف بنبرة ضجرة: «أجل. نعرف انه عوعو . لكن يكفيك الآن .. كن عاقلا» اننا لا نقاسمه تهلله، فقد سبق لنا ورأينا كلبا.

ربما يتكرر انفلات صرخات الفرح هذه مئات المرات، قبل أن يصل الطفل الى أن يلتقي كلبا دون أن يضطرب. وكذلك الأمر أمام فيل أو بقرة أو نهر الخ ..

ولكن قبل أن يصبح الطفل قادرا على التكلم بشكل صحيح – وقبل أن يتعلم التفكير بطريقة فلسفية – يكون الكون قد أصبح عادة.

أقصد ان عليك ياعزيزتي صوفي ألاّ تصبحي جزءا من أولئك الذين يتقبلون العالم كحتمية. ولذا سنلجأ، من باب التدابير الاحترازية، الى بعض التمارين الفكرية الصغيرة، قبل أن نبدأ دروس الفلسفة، بمعنى الكلمة.

تخيلي أنك تتنزهين في الغابة، ذات يوم مشمس، وفجأة ترين أمامك على الطريق، سفينة فضائية، هبط منها، مخلوق فضائي من سكان المريخ، ويقف متسمرا أمامك، متفرسا في وجهك ..

ما الذي يخطر، عندئذ، في بالك؟ آه. ليس الأمر مهما في النهاية. ولكن ألم تصعقك فكرة أن تكوني أنت مخلوقا مريخيا؟

أعترف، أن إمكانية العثور على كائنات من كوكب آخر، هي إمكانية ضعيفة. بل اننا لا نعرف ما اذا كانت الحياة ممكنة على كواكب أخرى. لكننا نستطيع أن نتخيل أنك تقفين أمام نفسك. قد يحصل أن تتوقفي قليلا ثم تشعرين فجأة انك اختلفت كليا.

يمكن أن يحصل هذا، بالتحديد، خلال جولة في الغابة.

– انني كائن غريب .. مخلوق خرافي، تقولين في نفسك.

لكأنك، مثل «الجميلة النائمة في الغابة»، تستيقظين من غفوة طويلة. وتسألين نفسك؟ من أنا؟ أنت تعرفين فقط أنك تزحفين على هذه الكرة، في الكون، ولكن .. الكون .. ما هو الكون؟

اذا رحت تدركين نفسك بهذه الطريقة، تكونين قد اكتشفت شيئا لا يقل سحرا عن المخلوق المريخي الذي كنا نتحدث عنه. ولا تكونين قد رأيت واحدا من هذه الكائنات التي تسكن الكون، بل تكونين قد شعرت بعمق أنك، أنت نفسك، واحدة من هذه المخلوقات الغريبة.

ها ما زلت تتابعينني، يا صوفي؟ حسنا، سنقوم بتجربة أخرى:

انه الصباح. الأم، الأب، وتوماس الصغير يتناولون طعام الإفطار في المطبخ. تنهض الأم .. وعندها .. يستفيد الأب من كونها تدير لهما ظهرها ليرتفع في الهواء، ويطير أمام عيني توماس الجالس مكانه.

ما الذي سيقوله توماس، برأيك؟ ربما أشار بإصبعه الى أبيه قائلا: «أبي يطير!»

لا شك في أن ذلك سيفاجئه قليلا لكنه لن يثير عنده استغرابا فائق الحد. فالأب يقوم، على أية حال، بأعمال غريبة كثيرة، مما لا يجعل دورة تحليق في الهواء، تغير شيئا في نظره. فهو يراه كل يوم يحلق ذقنه بآلة غريبة، كما يراه أحيانا يتسلق السطح ليغير اتجاه هوائي التلفزيون، أو يدخل رأسه في محرك السيارة، ليخرجه بعد قليل أسود قاتما.

الآن نأتي الى الأم. لقد سمعت ما قاله توماس، فاستدارت بحزم. فكيف ستكون، برأيك، ردة فعلها على منظر الأب محلقا في الهواء؟

لا شك أنها ستُقْلت اناء المربى، مطلقة صرخة قوية. وربما لزم الأمر استدعاء الطبيب، بعد أن يعود الوالد الى كرسيه.

لماذا كانت ردتا فعل الأم وتوماس مختلفتين، بنظرك؟

انها قصة عادة. (احفظي هذا جيدا) لقد تعلمت الأم أن الناس لا يستطيعون الطيران، بينما لم يتعلم توماس ذلك. انه لا يعرف، بعد، جيدا ما هو الممكن عمله في هذا العالم، أو لا؟

ولكن، ماذا بشأن العالم نفسه يا صوفي؟ هل تجدين انه كما يجب؟ انه يحلق في الفضاء، هو أيضا.

المحزن، اننا نتعود، ونحن نكبر، على أشياء كثيرة غير جاذبية الأرض. ونخلص لأن نرى كل شيء طبيعيا.

ويبدو أنه مع العمر، لا يظل هناك ما يدهشنا. لكننا نفقد بذلك شيئا أساسيا هو ما يحاول الفلاسفة ايقاظه بداخلنا. ذاك ان صوتا في عمق أعماقنا، يقول لنا، ان الحياة لغز كبير. وهذا ما جربناه قبل أن يعلمونا اياه بكثير.

ولنحدد. مع ان الأسئلة الفلسفية، تخص كل البشر، إلاّ انهم لا يصبحون كلهم فلاسفة. لأن أكثر الناس، ولأسباب مختلفة، مشغولون بحياتهم اليومية، الى حد لا يترك لهم وقتا ليندهشوا أمام الحياة. (واذا شئت، نقول، انهم يغوصون في فرو الأرنب، ويستقرون هناك نهائيا، مرتاحين جدا).

أما بالنسبة للأطفال فإن العالم – وكل ما فيه – هو شيء جديد جذريا، يصيبهم عميقا بالدهشة. وليس ذلك هو الحال مع جميع البالغين، إذ إن أكثرهم لا يجدون في العالم شيئا من الغرابة.

هنا. يشكل الفلاسفة استثناء مشرفا. فالفيلسوف هو انسان لم يستطع يوما أن يتعود على العالم. والعالم يظل، بالنسبة له شيئا غير قابل للتفسير، شيئا غريبا، ملغزا. وهكذا يمتلك الفلاسفة، والأطفال، صفة كبيرة مشتركة ويمكننا القول ان الفلاسفة يحافظون، طوال حياتهم، على جلد رقيق، كجلد الأطفال.

لك أن تختاري. عزيزتي صوفي: هل أنت طفل لم يكبر بعد، بما يكفي

ليصبح متعودا على العالم؟ أم أنت فيلسوف يستطيع أن يقسم على عدم الوقوع أبدا في هذا المطب؟

اذا كنت تهزين رأسك، رافضة التطابق مع الطفل أو مع الفيلسوف، فذاك لأنك صنعت لنفسك عشا صغيرا طريا، فلم يعد العالم يدهشك. في هذه الحالة هناك حاجة ملحة. ولذا تتلقين هذه الدروس في الفلسفة. وسيلة اختبار كونك لست على الطريق الخاطىء. أنا لا أريد أن تكوني واحدة من البشر المائعين أو اللامبالين. أريدك أن تعيشي مفتحة العينين.

ستكون الدروس كلها مجانية. لن نستوفي شيئا اذا لم تتابعيها. اذا شئت التوقف لن يكون هناك ما يمنعك. لا تحتاجين لأكثر من كلمة تضعينها في صندوق البريد. أو أن تضعي لي ضفدعا خضراء. شرط أن تكون خضراء بلون الصندوق، كي لا تخيف الساعي.

باختصار: ان أرنبا أبيض يخرج من قبعة الساحر. ولأنه أرنب ضخم، فإن جلسة السحر هذه، ستحتاج الى مليارات السنين. وكل أطفال البشر يولدون على طرف الشعرات الدقيقة في فروته، مما يجعلهم يدهشون، مباشرة، من جلسة الشعوذة المستحيلة. ولكنهم يكبرون ويغرقون أكثر فأكثر في عمق فروة الأرنب. حيث يمكثون، ويشعرون بالراحة بحيث لا يعودون أبدا الى امتلاك شجاعة تسلق الشعرة.

وحدهم الفلاسفة يمتلكون شجاعة السير في الرحلة الخطيرة التي تقودهم الى أقصى حدود اللغة والوجود. بعضهم يعود الى الوقوع في القاع، لكن آخرين يتشبثون بشعرات الأرنب، ويشجعون كل البشر، الذين لا يفعلون شيئا في الأسفل، إلاّ الشرب، وملء الكأس من جديد، على اللحاق بهم.

– سيداتي، سادتي. نحن نطوف في الفضاء. هكذا يعلنون.

لكن أحدا لا ينتبه الى تحذيرات الفلاسفة.

– أف لهؤلاء. كم يستطيعون أن يقرقعوا آذاننا!

هذا ما تصرخ به أصوات غارقة في دفء الفروة. لا تلبث أن تتابع:

– آه. هل تسمح وتناولني صحن الزبدة؟ ما هي أحوال البورصة؟ كم سعر البندورة اليوم؟ هل تعلم أن الليدي ديانا حامل؟

عندما عادت الأم، آخر النهار كانت صوفي لا تزال تحت تأثير الصدمة. لقد خبأت، بعناية فائقة، في كوخها، العلبة التي تحتوي رسائل الفيلسوف المجهول. عبثا حاولت أن تكتب واجبها المدرسي، إلاّ أن فكرها لم يكن يتوقف عن التساؤل عمّا قرأته.

غريب أنها لم تفكر أبدا بكل هذا قبل اليوم! انها لم تعد طفلة. لكنها ليست أيضا شخصا بالغا. الآن أدركت صوفي أنها كانت قد بدأت تغرق في فروة الأرنب الذي خرج من قبعة الكون.

لكن الفيلسوف جاء يوقف غرقها. انه – أو إنها – قد أمسك بها من جلدة عنقها، ووضعها حيث كانت تلعب وهي طفلة. ومن هذا المكان، من على طرف الشعرة الدقيقة، استعادت نظرة جديدة الى العالم.

لقد أنقذها الفيلسوف. هذا ما لا شك فيه، لقد سحبها الشخص المجهول، من لامبالاة اليومي.

عندما عادت أمها، قرابة الساعة الخامسة، جرتها صوفي الى غرفة الاستقبال، ودفعتها الى إحدى الأرائك.

– أمي، ألا ترين أنه من الغريب أن نحيا؟

فوجئت الأم بحيث لم تجد ما تجيب به. فهي معتادة على أن تجد صوفي، لدى عودتها من العمل، منكبة على واجباتها المدرسية.

ـ آه، أحيانا .. قالت:

– أحيانا؟ لكن ما أردت قوله ... ألا تجدين أنه من الغريب أن يوجد عالم؟

– ولكن .. ما الذي جرى لك يا صوفي، لتتحدثي هكذا؟

– ولم لا؟ هل تجدين أنت أن العالم طبيعي تماما؟

– أجل، على الأقل في خطوطه العريضة.

أدركت صوفي أن الفيلسوف كان على حق. البالغون يرون أن كل شيء في العالم يتم من تلقاء نفسه. لقد غرقوا نهائيا، في الخدر الذهني الهادىء لروتينهم اليومي.

– لقد اعتدت على رفاهيتك الصغيرة، بحيث لم يعد يدهشك شيء في العالم.

– ماذا تخرفين؟

– أقول إنك ضجرة كثيرا. وبتعبير آخر أنت مفلسة تماما.

– أنا أمنعك من التحدث الي بهذه اللهجة.

– اذن فلنقل إنك أخذت مكانك الدافيء في داخل شعيرات فروة أرنب أبيض خرج من قبعة الكون.

لكن. صحيح. نسيت. عليك أن تضعي البطاطا على النار. ثم عليك أن تقرئي صحيفتك. وبعد قيلولتك لنصف ساعة، عليك أن تستمعي الى الأخبار.

غام وجه الأم. ونهضت الى المطبخ، ووضعت البطاطا على النار. ثم عادت الى قاعة الجلوس. حيث أجبرت، بدورها، صوفي على الجلوس.

– لدي ما أقوله لك.

أدركت صوفي من نبرة صوت أمها، أنها تريد أن تقول شيئا جادا.

– قولي لي يا حبيبتي. ألم تجربي المخدرات بعد؟

أحست صوفي برغبة في الضحك. لكنها فهمت لماذا تتناول أمها هذا الموضوع بالتحديد، الآن وعلقت:

– هل أنت جادة فيما تقولين؟ لو كان ذلك، لما كنت بهذا النشاط الفكري.

بعدها. لم تذكر كلمة واحدة عن المخدرات أو الأرنب الابيض.

الأساطير

... توازن هش بين قوى الخير
وقوى الشر ...

لم يحمل صباح اليوم التالي أية رسالة لصوفي.

في المدرسة، أحست طوال النهار بالضجر، وتعمدت أن تكون لطيفة مع جورون خلال الاستراحات.في طريق العودة قررتا أن تذهبا الى الغابة بمجرد أن تجف الأرض قليلا، ومعهما خيمتهما.

ثم وجدت نفسها أمام صندوق البريد. فتحت أولا رسالة صغيرة مرسلة من مكسيكو. كان فيها بطاقة من والدها. انه يشعر بالحنين الى الوطن، وانه غلب، لأول مرة، شريكه في لعبة الشطرنج، ويضيف أنه قد استنفذ الكيلوغرامات العشرين من الكتب، التي حملها معه من سفرته الأخيرة.

وجدت أيضا ظرفا أصفر كبيرا يحمل اسمها! فأسرعت تضع حقيبتها والبريد في البيت، ثم تقفل الباب خارجة، لتجري الى كوخها. تخرج أوراقا أخرى مطبوعة على الآلة الكاتبة، وتشرع في القراءة:

التصور (التمثل) الأسطوري للعالم

مرحبا صوفي ! كل شيء جاهز. فلنبدأ دون تأخير.

إن مصطلح فلسفة يطلق على أسلوب في التفكير، رأى النور في اليونان نحو ٦٠٠ ق.م وكان جديدا بشكل جذري. قبل ذلك، كانت عدة ديانات قد أخذت على عاتقها الإجابة عن كل الأسئلة التي طرحها الإنسان. وكانت هذه التفسيرات الميثولوجية، تنتقل من جيل الى جيل بصورة أساطير.

فالأسطورة هي قصة موضوعهاالآلهة، تحاول أن تفسر الظواهر

الطبيعية والإنسانية.

وطوال آلاف السنين، عرف العالم كله ازدهار التفسيرات الأسطورية للمسائل الفلسفية. الى أن جاء الفلاسفة الإغريق، يحاولون البرهنة انه على البشر ألا يثقوا بهذه الأساطير.

لذا، علينا أن نمتلك تمثلا أسطوريا للعالم، كي نفهم سلوك الفلاسفة الأوائل. ويكفينا لذلك أن نتفحص بعض الأساطير، ولتكن أساطير شمالية (فالأفضل ان أتحدث عما أعرفه جيدا).

لا شك أنك سمعت شيئا عن (تور) (TOR) ومطرقته. حيث كان أهل النرويج، قبل المسيحية يعتقدون أن (تور) يعبر السماء في عربة يجرها تَيْسان، وكلما كان يدق مطرقته، كان يثير العاصفة، والصاعقة، وتعني الكلمة النرويجية توردون (العاصفة) وتتركب من مقطعي (تور-دون) أي «ضجيج تور». أما في اللغة السويدية فالكلمة التي تعني العاصفة هي (اوس – آكا)، ومعناها الحرفي «رحلة الاله» في السماء.

الحديث عن البرق والرعد، يعني الحديث عن المطر، حيث كانت كل هذه الأفعال، ضرورية وحيوية في عصر الفايكنز. لذا كان (تور) يُعبد كإله للخصب أيضا.

وتقول الأسطورة إن (تور) كان يرسل المطر، بطرقة من مطرقته. وإذ ينزل المطر ينمو كل شيء، وتكون المحاصيل جيدة.

لم يكن ممكناً أن يُفهم فعل نمو كل شيء من الأرض وإثماره، كفعل تلقائي. لكن المزارعين أدركوا أن لذلك علاقة بالمطر. وكغيرهم كانوا يعتقدون أن (تور) هو اله المطر، لذلك كان واحدا من أهم آلهة الشمال.

سبب أخر، كان يجعل من تور الها مهما، سبب متعلق بنظام العالم.

كان الفايكنز يرون أن العالم المأهول هو أشبه بجزيرة تهددها باستمرار مخاطر خارجية. وكانوا يسمون هذا الجزء المأهول (ميدغارد). كلمة معناها امبراطورية الوسط. كان (ميدغارد) يضم (اسغارد) أي مقر الآلهة. وعلى اطراف (ميدغارد) تأتي (أوتغارد) أي الإمبراطورية التي تقع خارجا. وفيها يسكن الجبابرة الخرافيون الخطرون، الذين يحاولون بحيل ماهرة أن يدمروا العالم. ويطلق على هذه

الشياطين الشريرة اسم «قوى الفوضى.» (JOTNARNA).

وهكذا فإن البشر قد استشعروا، سواء في الأدب النرويجي أم في سواه، التوازن الهش بين قوى الخير وقوى الشر.

ولتدمير ميدغارد يحاول الجبابرة مثلاً، أن يخطفوا آلهة الخصب فريًا. وفي حال نجاحهم فإن شيئا لا ينبت في الأرض، ولا تعود النساء قادرات على الحمل. لذلك كان من الأساس أن تحبط آلهة الخير سعيهم.

هنا، أيضا يلعب (تور) دورا كبيرا. فمطرقته ليست فقط لاستدعاء المطر، وإنما تشكل بذاتها سلاحا ممتازا في الصراع ضد آلهة الفوضى، لأنها تؤمّن له القدرة المطلقة. يكفيه أن يرميها على الجبابرة الخرافية، لتموت فورا.

أما هو فلم يكن يخاف الخسارة أبدا، لأن هذه المطرقة تعود دائما الى صاحبها.

هكذا كان التصور الأسطوري للظواهر الطبيعية، والصراع الأبدي بين الخير والشر. وهذا النوع من التفسير، هو بالتحديد ما يرفضه الفلاسفة.

لكن ثمة شيء آخر، أبعد من هذه الاختلافات.

لا يمكن للبشر أن يظلوا جالسين، مكتوفي الأيدي، منتظرين تدخل الآلهة، كلما وقع لهم شر، سواء بشكل قحط أو وباء. ان مسؤوليتهم أن يبادروا، ويمسكوا بزمام الأمور، ويخوضوا معركتهم ضد قوى الشر. وقد كان هذا يتم بأساليب مختلفة؛ ممارسات دينية أو طقوس.

الممارسة الدينية الأكثر شيوعا لدى قدماء السكندينافيين، هي عادة التضحية. فتقديم الضحية لإله، يجعله أقوى. ولذا فعلى البشر أن يقدموا ضحاياهم لإله الخير، كي يتمكن من الانتصار على قوى الفوضى. ومن أجل هذا الهدف غالبا ما يضحى بحيوان. لـ تور كان يُقدم تيس أو كبش، أما لِ (أودين) فقد تُقدم أحيانا ضحايا بشرية.

لقد وصلتنا الأسطورة الأكثر شيوعا في النرويج، عن طريق قصيدة (تريمسكفيدا). التي تخبرنا أن تور قد استيقظ يوما، ليكتشف أن مطرقته قد سُرقت منه. غضب غضبا شديدا، جعل يديه ترتجفان ومثلهما لحيته.

بصحبة صديقه لوكي، ذهب الى فريّا، ليستعير أجنحتها لـ لوكي، كي يتمكن من الطيران الى (جوتنهيمن) (أي بيت الجبابرة) ويتحقق مما اذا كان الجبابرة هم المذنبون.

يلتقي (لوكي) بـ (تريم) ملك الجبابرة الذي يؤكد له الفعلة الشنعاء، متباهيا بأنه خبأ المطرقة، على عمق ثمانمئة متر تحت الأرض. وأضاف:- لن تسترجع الآلهة المطرقة، إلا اذا تزوج هو من (فريّا).

أما زلت معي يا صوفي؟

اذن. لقد وجد آلهة الخير أنفسهم أمام مأساة، احتجاز رهينة. إن سلاحهم الدفاعي الرئيس، هو بيد الجبابرة. وهم في وضع مأزق حقيقي. فطالما ظل الجبابرة يمتلكون مطرقة تور، ستظل لهم السلطة المطلقة على عالم الآلهة والبشر، يطالبون بفريّا، مقابل المطرقة، لكن ذلك مستحيل، فبدون آلهة الخصب التي تحمل كل حياة، يجف العشب في الحقول، ويموت البشر والآلهة. ليس ثمة مخرج. (ليس عليك إلا أن تتخيلي فريقا من الإرهابيين، يهدد بتفجير قنبلة وسط باريس أو لندن، اذا لم تلب مطالبهم الخطرة. لتفهمي ما أريد قوله).

تستمر الأسطورة مع عودة لوكي الى اسغارد، حيث يرجو (فريّا) أن ترتدي أجمل ما عندها من حلي العروس، لأنها ستزف هناك. (يا للمسكينة!). تغضب فريّا، وتعلن أنها ستمسخ نفسها الى مغيلم، اذا قبلت الزواج من أحد الجبابرة.

هنا جاء الإله هيمدال، فكرة عبقرية: فقد عرض أن يتنكر الإله تور عروسا، ويكفي، لذلك، أن يوضع له شعر طويل، وحجران مكان الثديين، ليبدو في هيئة امرأة. لم ترق الفكرة لـ (تور)، لكنه فهم أنه مجبر على الأخذ بنصيحة (هيمدال)، اذا أراد استعادة المطرقة.

أخيرا لبس تور ثوب العروس، وتبعه لوكي وصيفه قائلا: «لتمضِ المرأتان على طريق جوتنهيمن».

وبلغة أكثر معاصرة، يمكننا القول إن تور ولوكي شكلا «عصابة مقاومة الإرهاب». فبتنكرهما على شكل نساء، سيتسللان الى قلعة الجبابرة، ويحرران مطرقة تور.

وما أن وصلا الى جوتنهيمن، حتى هيأ الجبابرة مائدة عرس. التهم خلالها تور ثورا كاملا، وثلاث سمكات سلمون وشرب ثلاثة براميل بيرة. مما أثار تعجب تريم، وكاد يكشف حقيقة عصابة مقاومة الإرهاب، لولا أن لوكي أنقذ الوضع بإدعاء أن فريًا لم تأكل منذ ثمانية أيام، لفرحها بفكرة المجيء الى جوتنهيمن.

رفع تريم، غطاء وجه العروس ليقبلها، ففوجيء بقسوة نظرة تور. وعندها أيضا تدخل لوكي لإنقاذ الموقف، بقوله إن العروس لم تنم منذ ثمانية أيام لفرحها بالزواج. واذ اطمأن (تريم)، أمر بأن تحضر المطرقة، وتوضع على قدمي العروس في أثناء الاحتفال.

ويقال، إن تور قد انفجر في ضحكة مجنونة بمجرد أن وضعت المطرقة على ركبتيه. ثم نهض فقتل تريم ومن بعده كل أسرة الجبابرة. هكذا انتهت المأساة الرهيبة، نهاية سعيدة. وانتصر (باتمان) أو (جيمس بوند) الآلهة على قوى الشر.

هذه هي الأسطورة بروايتها، صوفي. ولكن ما هي دلالتها؟

هي لم تكتب، للتسلية فقط. ان لها رسالة. وفيما يلي واحد من التفسيرات الممكنة:

عندما كان القحط يصيب بلدا ما، كان الناس يحسون بحاجتهم الى فهم سبب انحباس المطر. فهل يكمن السبب في استيلاء الجبابرة على مطرقة تور؟

طبيعي أن تحاول الأساطير تفسير دورة الفصول: في الشتاء تكون الأرض ميتة لأن مطرقة تور في جوتنهيمن، لكنه سيعيدها في الربيع. وهكذا تحاول الأسطورة أن تقدم جوابا عمًا لا يستطيع الإنسان فهمه.

لكن دور الأسطورة لا ينحصر في التفسير. حيث كان الناس يمارسون طقوسا دينية مختلفة، ذات علاقة بالأسطورة، كجعل أحد شباب القرية يتنكر في زي عروس، (ويوضع له حجران مكان الثديين) وذلك كي تعود مطرقة تور. كانوا يشعرون بأنهم يفعلون شيئا يستسقي المطر ليعود ويخصب الحقول.

ونحن نعرف أمثلة كثيرة، في أجزاء أخرى من العالم، يقوم فيها الناس، بتمثيل أساطير الفصول، لتسريع أفعال الطبيعة.

كما أننا لم نقدم إلا لمحة من الميثولوجيا الشمالية. فهناك عدد لا يحصى من الأساطير حول تور واودين، فريّ وفريّا، هيدر وبالدر. وكثيرين غيرهم. وقد كانت هذه الأساطير شائعة في العالم عندما قرر الفلاسفة أن يتفحصوها عن قرب. فقبل الفيلسوف الأول كان للإغريق أيضا تصورهم الأسطوري للكون. وطوال عصور عديدة، تناقلوا تاريخ آلهتهم التي كانت تحمل اسم زيوس، ابولون، أثينا، ديونيسيوس، اسكليبوس، وهرقل، وهيرا الخ ....

في نحو العام سبعمئة قبل الميلاد قام هوميروس، وهزيود، بإعادة تسجيل عدة أساطير اغريقية، مما خلق وضعا لا سابق له. فعندما تنام الأسطورة على ورقة، يمكن أن تصبح موضوعا للمناقشة.

وانتقد الإغريق الأوائل مجمع الآلهة الهوميري، لأنه يشبه كثيرا عالم البشر، وآلهته يماثلونه في الأنانية وعدم الاستقرار. لقد ظهر، لأول مرة أن الأسطورة، لا تمثل إلا البشر.

أول نظرة ناقدة للأسطورة، نجدها عند الفيلسوف كزينوفان، الذي عاش في نحو ٥٧٠ ق.م. وقال: «لقد خلق الناس الآلهة على صورتهم. وهم يعتقدون أن الآلهة ولدت بجسد يرتدي الملابس، وتتكلم مثلنا. الاثيوبيون يقولون ان آلهتهم ذات أنف أفطس، ولون أسمر بينما يقول التراكر (THRAKER) إن آلهتهم زرقاء العيون، حمراء الشعر. ولو أن الثيران والخيول والأسود عرفت أن ترسم، لرسمت الآلهة على شكل عجل، حصان، أو أسد.»

وإلى هذه المرحلة بالتحديد، يعود تاريخ تأسيس الإغريق للمدن، في اليونان، ولمستعمرات في جنوبي ايطاليا، وآسيا الصغرى.

كان العبيد يقومون بكل الأعمال اليدوية، مما يترك فراغا كاملا لدى المواطنين الأحرار للاهتمام بالحياة الثقافية والسياسية.

وهكذا رأينا، أسلوبا جديداً في التفكير، يولد في المدن الكبرى. اذ كان للفرد الواحد، الحق في التساؤل حول تنظيم المجتمع. وبالطريقة نفسها كان بإمكان كل واحد أن يطرح على نفسه أسئلة فلسفية، دون العودة الى تقليد الأساطير.

نقول اذن، إننا قد عبرنا من نمط من التفكير الأسطوري، الى نمط من التفكير المبني على التجربة والعقل. والواقع أن هدف الفلاسفة الإغريق الأوائل، كان ايجاد *أسباب طبيعية* للظواهر الطبيعية.

أخذت صوفي تذرع الحديقة الكبيرة، محاولة أن تنسى كل ما تعلمته في المدرسة، خصوصاً ما علموها اياه في العلوم الطبيعية.

لو انها كبرت في هذه الحديقة، دون أن تعرف شيئا عن الطبيعة، فبأية عقلية كانت ستتلقى مجيء الربيع؟

هل كانت ستتخيل سيناريو كاملا، لتفسر المطر؟ وستخترع قصة لتبرر اختفاء الثلج، وحركة الشمس الصاعدة في السماء؟

بكل تأكيد. لقد كانت مقتنعة بذلك. وهنا بدأت تطلق لخيالها العنان:

كان الشتاء يمسك كل البلدان سجينة يده الجليدية لأن موريات الشرير رمى الأميرة الجميلة سيكيتا، في مخبأ جليدي. لكن الأمير الشجاع (برافاتو) جاء يحررها.

وعندها راحت سيكيتا ترقص فرحا في البراري منشدة لحنا ألفته في سجنها الجليدي. مما أثار مشاعر الأرض والأشجار الى حد جعل الثلج يذوب دموعا. وتصعد الشمس في السماء فتجفف كل الدموع. رددت العصافير نشيد سيكيتا، وعندما مشطت الأميرة الجميلة شعرها، سقطت بضع خصل على الأرض وتحولت الى زنابق حقول...

لم يكن لدى صوفي تفسيرات أخرى لتغير الفصول، وإلا لكانت انتهت -دون أدنى شك- الى تصديق ما ألفته لتوها.

فهمت، أن الناس قد أحسوا دائما، بالحاجة الى تفسير الظواهر الطبيعية.

ربما لم يكن باستطاعتهم الاستغناء عن ذلك؟

اذن، وبما أن العلم لم يكن موجودا، فقد اخترعوا الأساطير.

فلاسفة الطبيعة

... لا شيء يولد من العدم...

عندما عادت الأم، من العمل، بعد الظهر. كانت صوفي تتأرجح في الحديقة وتحاول أن تقيم رابطا بين درس الفلسفة، وهيلد موللر كناغ، التي لن تتلقى أبدا بطاقة المعايدة المرسلة من أبيها.

من بعيد صرخت الأم:- صوفي هناك رسالة لك!

ارتعشت! لقد استلمت بريدها لتوها، لا يمكن أن تكون هذه الرسالة إلا ضربة فيلسوف. ماذا ستقول لأمها؟

ببطء، تركت الأرجوحة وذهبت تحضر رسالتها.

– ليس عليها طوابع. أراهن أنها رسالة حب.

أخذت صوفي الرسالة.

– ألن تفتحيها؟

ماذا عساها تجيب؟

– وهل رأيت أحدا يفتح رسالة حب أمام أمه؟

لا بأس. فلتتركها تعتقد ما تريد. أحست صوفي بانزعاج هائل. اذ إنها في وضع نقيض لتلقي رسائل حب. لكن الأمور ستكون أسوأ لو عرفت أمها أنها تتلقى دروسا في الفلسفة، من شخص مجهول، يلعب معها، اضافة الى ذلك، لعبة القط والفأر. كانت الرسالة واحدة من تلك الظروف البيضاء. وفي غرفتها قرأت صوفي ثلاثة أسئلة جديدة على الورقة التي بداخله.

– *هل يوجد مبدأ أول ينتج عنه كل شيء؟*

– *هل يمكن للماء أن يتحول الى خمر؟*

– *كيف يمكن للتراب والماء أن يصبحا ضفدعا حيا؟*

اعتبرت صوفي، في أول الأمر، أن هذه الأسئلة سخيفة. لكنها ظلت في رأسها طوال السهرة. وفي اليوم التالي، في المدرسة، أعادت تقييم

الأسئلة الثلاثة واحدا اثر الآخر، بالترتيب.

اذا كان ثمة «مبدأ أولي» ينتج عنه كل شيء؟ واذا اعتبرنا أنه توجد «مادة» في أساس كل ما هو موجود على الأرض، فكيف يمكن تفسير اتخاذها شكل زر ذهبي مثلا، لا شكل فيل؟

الملاحظة نفسها تنطبق على السؤال الثاني. كانت صوفي تعرف، بالتأكيد، قصة السيد المسيح الذي حول الماء الى خمر. لكنها لم تأخذها أبدا بحرفيتها. وإذا كان يسوع قد نجح رغم كل شيء في تحويل المياه الى خمر، فقد كانت تلك معجزة. أي شيئا مستحيلا في الواقع الطبيعي! ولا تفيد معرفة أن الخمر يحتوي على الكثير من الماء، كما هي الحال في الطبيعة كلها. وإذا كانت حبة الخيار تحتوي على ٩٥٪ ماء، فلا بد أن فيها عنصرا آخر، يجعل منها خيارة لا ماء فقط.

أما بالنسبة لهذه الضفدعة ... فيبدو أن أستاذها يهوى الضفادع! فقد تقبل صوفي، في آخر المطاف، فكرة كون الضفدعة مكونة من تراب وماء، لكن لا يمكن أن يكون التراب –في هذه الحالة– مؤلفاً من مادة واحدة. وإذا كان التراب مؤلفاً من مواد مختلفة، فيمكننا تخيل أن ينتج ضفدع من اتحاد التراب والماء، دون أن ننسى أنه لا بد من المرور بمرحلة البيضة ثم مرحلة الشرغوف. اذ لا يمكن أن ينبت الضفدع هكذا في حديقة الخضار، مهما رويناها بعناية.

عندما عادت صوفي بعد الظهر من المدرسة، كان بانتظارها في صندوق البريد ظرف ضخم، ذهبت تفتحه في كوخها، كما في الأيام السابقة.

مشروع فيلسوف

ها أنت!

سنبدأ مباشرة بدرس اليوم دون المرور بالأرانب البيضاء، ومقدمات أخرى من هذا النوع.

سوف أوضح لك الخطوط العريضة للطريقة التي فكر بها الإنسان في

المسائل الفلسفية، قديما وفي أيامنا. لكن لكل شيء وقته.

ولأن الفلاسفة كانوا يعيشون في حقبة أخرى – وربما في ثقافة أخرى مختلفة تماما عن ثقافتنا – ليس من السطحي أن نحاول تحديد مشروع كل واحد منهم. لذلك سنحاول أن نحصر مراكز اهتمام الفيلسوف المعني. فقد يهتم هذا الفيلسوف بأصل النباتات والحيوانات، ويهتم آخر بوجود الله أو بخلود الروح.

وعندما نصل الى تحديد هذا المشروع، يصبح فهم منهج الفيلسوف، أكثر سهولة. ذاك أن الفيلسوف لا يهتم بكل المسائل الفلسفية مرة واحدة.

أقول «فيلسوف» ولا أقول فيلسوفة، لأن تاريخ الفلسفة محصور بالرجال. فقد كانت النساء مقموعات، كنساء، وككائنات مفكرة. مما يؤسف له، لأننا خسرنا بذلك شهادات كثيرة. ولم تستطع المرأة أن تأخذ مكانها في تاريخ الفلسفة، إلا في القرن العشرين.

– لن أعطيك واجبات منزلية، على أية حال ليست هناك مسائل صعبة كمسائل الرياضيات– أما قائمة الأفعال الشاذة عن القاعدة في اللغة الإنكليزية، فلا تهمني. كل ما سأعطيك اياه، هو تمرين تطبيقي، من وقت لآخر.

اذا قبلت هذا الشرط نستطيع أن نبدأ:

فلاسفة الطبيعة

أطلقت على فلاسفة الإغريق الأوائل تسمية «فلاسفة الطبيعة» لأنهم كانوا يهتمون بشكل أساسي بالطبيعة وظواهرها.

لقد سبق وتساءلنا عن أصل العالم.

كثيرون يعتقدون اليوم أن شيئا قد انبثق من العدم في لحظة معينة. لكن هذه الفكرة لم تكن منتشرة لدى الإغريق. هم كانوا يصرون على أن «شيئا ما» كان موجودا منذ الأزل.

ولا تشكل مسألة كيف تولّد كل شيء من العدم أساس المشكلة.

بالمقابل كان الإغريق يتساءلون كيف أمكن للماء أن يتحول الى سمكة حية، وكيف تنبت الأرض الجامدة شجرة كبيرة، ويلد رحم المرأة انسانا.

وجد الفلاسفة أمام عيونهم التغيرات المستمرة للطبيعة. لكن ما هو تفسيرها؟ كيف يمكن للمادة أن تغير طبيعتها، وتصبح شيئا مختلفا تماما، شيئا حيا، على سبيل المثال؟

كان الفلاسفة الأوائل يعتقدون بوجود مادة أولية، كامنة وراء كل شكل يتخلق في الطبيعة. يجب أن يكون في أصل كل شيء «شيء ما» اليه تعود كل الأشياء.

يجب أن تحظى الإجابات المختلفة التي توصل اليها الفلاسفة الأوائل، باهتمامنا كثيرا. ما يهمنا هو معرفة أية أسئلة كانوا يطرحون، وأي نمط من الإجابات كانوا يأملون التوصل اليه.

سنعمل اذن على التركيز على طريقتهم في التفكير أكثر مما نركز على المضمون الدقيق لفكرهم.

يمكننا أن نؤكد أنهم كانوا يتساءلون عن التغيرات المرئية داخل الطبيعة. ويحاولون صوغ بعض القوانين الطبيعية الأبدية. يريدون أن يفهموا الأحداث التي تحصل في الطبيعة، دون العودة الى الأساطير التي كانوا يعرفونها. مما يعني، إذن، دراسة الطبيعة نفسها، لفهم كل الظواهر الطبيعية بشكل أفضل. وذاك شيء مختلف عن جعل الآلهة مسؤولة عن حدوث العاصفة أو المطر.

مع الوقت، لم يتبق لنا، إلا القليل مما فكر به فلاسفة الطبيعة أو قالوه. وهذا القليل هو ما نقله لنا ارسطو، الذي عاش بعدهم بعدة عصور. والذي اكتفى بتلخيص النتائج التي توصلوا اليها، مما لا يسمح لنا، وللأسف، بمعرفة كيفية توصلهم اليها ... لنقل إن «مشروع» الأوائل يدور حول «المبدأ الأول» وتحولاته في داخل الطبيعة.

فلاسفة ميلي الثلاثة

أول فيلسوف سمعنا به هو طاليس. وأصله من (ميلي) التي كانت

مستعمرة يونانية في آسيا الصغرى. كان يسافر كثيرا ويقال إنه قاس ارتفاع أحد أهرامات مصر بقياس ظله على الأرض، في لحظة معينة، يتساوى فيها قياس الجسم وظله. كذلك تنبأ بحصول خسوف في الشمس عام ٥٨٥ ق.م.

كان طاليس يعتقد بأن الماء أساس كل الكائنات. ولا نعرف بالتحديد ماذا كان يقصد بذلك. ربما قصد أن كل حياة تبدأ في الماء، وكل شيء يعود الى الماء. وبوجوده في مصر، لاحظ أن ترسبات النيل تجعل سهول الدلتا أكثر خصوبة. وربما لاحظ أن الضفادع وديدان الأرض، تخرج الى الحياة، عند هطول المطر. ربما يكون طاليس قد لاحظ تحول الماء الى ثلج، أو الى بخار قبل أن يعود ماء. ويُنسب الى طاليس التأكيد على أن «كل شيء مليء بإله». هنا أيضا لا نستطيع أن نفهم قصده بالتحديد. إلا أنه رأى تلك الأرض، السوداء التربة، في اساس كل شيء، من الزهرة الى حقل القمح، مرورا بالحشرات وبنات وردان؟

كان يعتقد أن الأرض مليئة «ببذور حياة» صغيرة، لامرئية. ومن الواضح أنه لم يكن يعني آلهة هوميروس.

الفيلسوف الثاني الذي نعرفه هو اناكسيماندر، وكان هو الآخر، يعيش في ميلي. لم يكن عالمنا بالنسبة له إلا واحدا من عوالم كثيرة. كان يرى أنها تظهر ثم تختفي فيما يسميه «المطلق» أي اللامحدود. من الصعب تحديد قصده بوضوح. لكنه لم يقصد أبدا عنصرا معينا كطاليس. كان يريد دون شك أن يعبر عن فكرة تقول إن كل شيء يُخلق يجب أن يختلف عن خالقه، لا يستطيع المبدأ الأول اذن أن يكون مجرد ماء؛ بل شيئا يصعب تحديده.

الفيلسوف الثالث، في ميلي، يحمل اسم (اناكسيمانس) نحو ٥٧٠ — ٥٢٦ ق.م وكان يدعي أن الهواء والضباب هما أصل الأشياء.

كان أناكسيمانس يعرف دون شك نظرية طاليس بخصوص الماء.

لكن من أين أتى الماء؟ يرى أناكسيمانس أن الماء هواء مركز. فنحن نرى الماء يخرج من الهواء عندما تمطر. وعندما يُضغط الماء أكثر يصبح ترابا. لا شك أنه رأى الثلج يذوب ويتحول الى رمل وتراب. في السياق ذاته لم تكن النار، برأيه، إلا هواء مخففا. ان للماء والتراب والنار أصلا واحدا هو الهواء.

إن المسافة التي تصل التربة بالنبتة ليست بعيدة، وربما اعتقد أناكسيمانس ان التراب والهواء والنار والماء هي أساس لخلق الحياة؛ لكن نقطة البداية نفسها كانت الهواء أو الضباب. ويلتقي مع طاليس في الاعتقاد بأن مادة واحدة تقع في أصل جميع الأشكال في الطبيعة.

لا شيء يولد من لا شيء

كان فلاسفة ميلي الثلاثة يعتقدون بوجود مادة أولية في أصل العالم. لكن كيف يمكن لمادة واحدة أن تتخذ هذا القدر من الأشكال المختلفة؟ سنطلق على هذه المسألة تسمية: قضية التغير.

نحو ٥٠٠ ق.م كان بضعة فلاسفة يعيشون في مستعمرة ايلي اليونانية الواقعة في جنوبي ايطاليا. وكان هؤلاء الإيليون يخوضون في هذا النوع من الأسئلة. الأكثر شهرة بينهم كان يدعى بارمينيدس (نحو ٥٤٠ – ٤٨٠ ق.م).

كان يرى أن كل ما هو موجود، قد وجد منذ الأبد. وكانت هذه الفكرة منتشرة بقوة لدى اليونان. فليس هناك ما هو أكثر طبيعية من كون ما هو موجود في العالم، أبديا. فلا يولد شيء من لا شيء، برأي بارمينيدس. وما ليس موجودا لا يمكن أن يصبح شيئا.

لكن بارمينيدس مضى الى أبعد مما مضى اليه الآخرون. فليس هناك تحول حقيقي –برأيه– لأن ما من شيء يستطيع أن يصبح شيئا آخر مما هو عليه. لقد كان واعيا لكون الطبيعة تقدم أشكالا تتغير باستمرار.

كانت أحاسيسه، تلحظ كيفية تحول الأشياء. لكن عقله، يقدم له خطابا آخر. وأمام اضطراره للاختيار بين الحواس و العقل، فضل الركون الى عقله.

أنت تعرفين التعبير القائل: «لا تصدق شيئا قبل أن تراه بعينيك»! هذا مجرد هراء. فالحواس بالنسبة لبارمينيدس لا تعطي إلا صورة كاذبة للعالم، صورة لا تتفق مع ما يقوله العقل. و هكذا تركز عمله كفيلسوف في تأكيد خيانة الحواس، بكل أشكالها.

هذا الإيمان الوطيد بعقل الإنسان، هو ما نسميه العقلانية. والعقلاني هو الذي يؤمن أن العقل هو مصدر كل معرفة في العالم.

كل شيء يجري

فيلسوف آخر، عاش في الحقبة ذاتها التي عاش فيها بارمينيدس، هو هيراقليطس (٥٤٠ – ٤٨٠ ق.م) الذي يعود أصله الى افسس في آسيا الصغرى.

وكان يعتقد أن كل الأشياء في الطبيعة تُغير شكلها باستمرار. ولذا نستطيع أن نتكهن، منذ البداية، أن هيراقليطس كان يثق، أكثر من بارمينيدس بالحواس.

«كل شيء يجري» يقول هيراقليطس» كل شيء متحرك، وليس هناك ما هو أبدي. لذلك «لا نستطيع أن ننزل مرتين الى النهر نفسه ذاك أنني عندما أستحم للمرة الثانية يكون النهر قد تغير، وأنا أيضا».

كذلك ركز هيراقليطس على التناقضات المتلازمة في العالم. اذا لم نصب أبدا بالمرض، لا نعرف معنى الصحة. واذا لم نكن قد عانينا قط من الجوع لا نعرف فرح امتلاك الطعام. ولو لم تكن الحرب، لما عرفنا القيمة الحقيقية للسلام. ولو لم يوجد الشتاء، لما استطعنا أن نشارك ونبتهج بتفتح الربيع.

إن للخير كما للشر، مكانه الطبيعي في نظام الأشياء. وبرأي هيراقليطس، بدون هذه اللعبة الإلزامية بين هذه الأضداد، لا يعود للعالم وجود.

«الله هو النهار والليل، الصيف والشتاء، الحرب والسلم، الجوع والشبع.»

هكذا يقول هيراقليطس، مستعملا كلمة «الله» لكنه لا يقول بانه لا يقصد أبدا هنا آلهة الأساطير. فالله أو الإلهي، هو بالنسبة له، شيء يشمل العالم كله. ويظهر تحديدا في تحولات وتناقضات الطبيعة.

وغالبا ما يستعمل كلمة (لوغوس) الإغريقية، بدلا من مصطلح «الله». ويعني هذا العقل. فرغم أننا، نحن البشر، لا نفكر بالطريقة ذاتها، ولا نمتلك كفاءة القوى العقلية ذاتها، إلا أنه لا بد من وجود نوع من «العقل الكوني» يحكم كل ما يحدث في الطبيعة – برأي هيراقليطس– هذا «العقل الكوني» أو «القانون الكوني» هو واحد ومشترك، وعلى كل انسان أن يحتكم إليه. في حين أن كلا، يتصرف بحسب عقله هو. وكما ترين يا صوفي، فإن هيراقليطس لم يكن يكنّ احتراماً وتقديراً كبيرين للأفراد «ان اراء معظم الناس تشبه ألعاب الأطفال.» – بحسب قوله –

وراء كل هذه التحولات والتناقضات في الطبيعة، كان هيراقليطس يرى وجودا واحدا أو كليا. وهذا الشيء الذي يقع في أصل جميع الأشياء هو ما كان يسميه «الله» أو «لوغوس».

العناصر الأربعة البدئية

كان بارمينيدس وهيراقليطس يتبنيان فرضيتين متناقضتين تماما. العقل لدى بارمينيدس يفسر كون لا شيء يتغير. بينما تؤكد تجارب الحواس لهيراقليطس أن الطبيعة في تحول دائم. فأي منهما كان على حق؟ هل علينا أن نصدق ما يقوله لنا عقلنا، أو نثق بحواسنا؟

كل منهما كان يؤكد على فكرتين، هما لدى بارمينيدس:

١- لا شيء يستطيع أن يتحول.

٢- نتيجة لذلك، فإن حواسنا خادعة.

بينما يدافع هيراقليطس عن:

١- ان كل شيء يتحول: «كل شيء، يجري».

٢- ان حواسنا موثوقة.

من الصعب أن يكون اثنان أكثر تضادا! ولكن، من منهما على حق؟

هنا جاء امفيدوكليس (٤٩٤ - ٤٣٤ ق.م) المولود في سيسيلي، ليخرج الفلسفة من هذا المأزق؛ كل من الاثنين على حق في نقطة من الطرحين، اللذين أصر عليهما، وعلى خطأ في النقطة الثانية.

يرى امفيدوكليس، أن السبب في كل الخلط الحاصل، هو الافتراض الذي انطلق منه الاثنان، أي اعتبار وجود مادة واحدة في أصل كل شيء. فإذا كان هذا صحيحا، تصبح الهوة بين ما يقوله العقل، من جهة، و«ما نراه بأم أعيننا» من جهة ثانية، هوة لا يمكن ردمها.

لا يمكن للماء أن يصبح سمكة أو فراشة. وفي الواقع لا يمكن أن تتغير طبيعة الماء. الماء النقي يظل الى الأبد ماء نقيا. اذن فبارمينيدس على حق في تأكيده على أن «لا شيء يستطيع أن يتغير.»

من جهة أخرى كان امفيدوكليس متفقا مع هيراقليطس في ثقته بالحواس. علينا أن نصدق ما نراه. ونحن نرى بوضوح أن الطبيعة في حالة تغير مستمر.من هنا وصل امفيدوكليس الى استنتاج أنه يتوجب رفض وجود مادة واحدة وأولى. فلا الهواء ولا الماء يستطيعان وحدهما التحول الى وردة أو الى فراشة. لقد كان من المستحيل أن تقوم الطبيعة على «عنصر» واحد.

كان امفيدوكليس يعتقد أن الطبيعة تمتلك أربعة عناصر أساسية يطلق عليها مصطلح «الجذور» وهي: *التراب، الماء، الهواء والنار.*

وكل ما يتحرك في الأرض يعود الى امتزاج أو انفصال هذه العناصر الأربعة. ذاك أن كل شيء مكون من ماء وهواء ونار وتراب، والذي يختلف هو النسبة فقط. وليس موت حيوان أو زهرة، إلا انفصال

هذه العناصر من جديد، مما تمكن مراقبته بالعين المجردة. لكن الماء والهواء والتراب والنار، تظل غير متغيرة في ذاتها. انها في منجى من كل هذه التحولات.

ليس من الصحيح القول إن «كل شيء يتحول». ففي العمق، في الأساس، لا شيء يتغير. كل ما يحصل أن أربعة عناصر تتحد وتنفصل قبل أن تعود لتتحد من جديد.

يمكن لنا أن نقارن هذا بعمل رسام. فإذا لم يكن في يده إلا لون واحد، الأحمر مثلا، يكون من المستحيل له أن يرسم أشجارا خضراء. أما إذا كان أمامه أيضا الأصفر والأخضر والأزرق والأسود، فإنه يستطيع أن يرسم مئات الألوان المختلفة، بأن يغير، كل مرة، نسب المزيج.

مثل آخر. المطبخ. أكون ساحرا اذا استطعت أن أطهو كعكة بالطحين وحده. أما إذا كان لدي البيض، والحليب والسكر، فإنني أستطيع أن أحضّر أصنافا لا حصر لها من الكعك، انطلاقا من هذه المواد الأولية نفسها.

لم يكن من قبيل المصادفة أن يعتقد امفيدوكليس بأن «جذور» الطبيعة هي الماء والنار والهواء والتراب. فقد حاول فلاسفة سبقوه أن يبرهنوا على أن المادة الأولى هي واحد من هذه العناصر. وكان طاليس وأناكسيمانس على قناعة من أن الماء والهواء هما عاملان مهمان في الطبيعة. كذلك كان الإغريق يعتقدون أن النار أساسية: يكفي أن نلاحظ أهمية الشمس للحياة النباتية ونفكر بحرارة الجسم البشري أو الحيواني.

ربما رأى أمفيدوكليس قطعة خشب تشتعل. ثمة أشياء تتفتت، الخشب يقرقع ويزأر: انه الماء. ثمة شيء يتصاعد دخانا:انه الهواء. أما النار فهي أمام أعيننا. وأخيرا ثمة شيء يبقى بعد خمود النار، انه الرماد، التراب.

إلا أن أمفيدوكليس، وهو يبرهن على أن كل تحول في الطبيعة عائد الى اتحاد أو انفصال العناصر الأربعة، قد أغفل شيئا مهما: ما هو

السبب الذي يجعل هذه العناصر تجتمع لتكون الحياة؟ ما الذي يقع في أصل انفصالها، في حال الزهرة مثلا؟

يرى امفيدوكليس أن قوتين مختلفتين، تعملان في الطبيعة: الحب والكره. ما يوحد الأشياء هو الحب، ما يفرقها هو الكره.

من المهم هنا ملاحظة أنه يميز بين «العنصر» و«القوى».

ففي أيامنا هذه يميز العلم بين «المواد الأولية» و«القوى الطبيعية».

حيث يعتقد العلم الحديث أنه يمكن رد كل الظواهر الطبيعية الى اتحاد بين المواد الأولية وعدد قليل من القوى الطبيعية.

كذلك طرح امفيدوكليس، أيضا قضية ظاهرة الرؤية. كيف أستطيع أن «أرى» زهرة، على سبيل المثال؟ ما الذي يجري بالتحديد؟

هل فكرت يوما بهذا يا صوفي؟ إما أن تفعلي الآن أو لا تفعلي أبدا!

ان عيوننا، حسب امفيدوكليس، مكونة من ماء وهواء وتراب ونار، ككل شيء في الطبيعة. لذا فإن التراب الذي في عيني يرى التراب فيما أراه. الهواء يرى عنصر الهواء، النار عنصر النار والماء عنصر الماء. وإذا كان ينقص عيني أيٍّ من هذه العناصر فإنني لا أستطيع أن أرى الطبيعة بكليتها.

جزء من الكل في الكل

فيلسوف آخر لم يستطع أن يتقبل فكرة تمكن مادة أولى واحدة، الماء مثلا، من التحول الى كل ما نرى. كان اسمه انكزاغوراس (٥٠٠ – ٤٢٨ ق.م) لكنه لم يستطع أن يتقبل أيضا فكرة أن الماء والتراب والهواء والنار يمكن أن تتحول الى عظم ودم.

وهو يرى أن الطبيعة مؤلفة من جزيئات صغيرة لا تُرى بالعين. ويمكن أن ينقسم كل جزء الى جزيئات أصغر. لكن يظل في كل منها جزء من الكل. وإذا كان يمكن للجلد والشعر أن يتحولا الى شيء آخر، فذاك يعني أن في الحليب الذي نشرب والطعام الذي نأكل، جلداً وشعراً!

بضعة أمثلة حديثة، ستسمح لنا بفهم فكر انكزاغوراس بشكل

أفضل. لقد بتنا قادرين مع التقنيات الحديثة في مجال الليزر، من انتاج أجهزة Hologrammes فإذا أنتج أحدها سيارة، مثلا، ثم دمرنا جزءا منه، تظل أمامنا، رغم ذلك صورة للسيارة بكاملها. حتى ولو لم يتبق من Hologrammes إلا الجــزء الذي يمثل واقي الصــدمــات. وذلك، ببساطة، لأن التصميم بكامله، موجود في أصغر الأجزاء.

ان جسدنا أيضا مبني بطريقة معينة، حسب رسم تخطيطي. فإذا أخذت خلية من اصبعي، أجدها تكشف ليس فقط عن حالة وطبيعة جلدي، بل عن حالة وطبيعة عيني أيضا، شعري الخ ......

إن كل خلية من جسمي تحمل المعلومات التفصيلية لتركيبة الخلايا الأخرى. «جزء من الكل» تمتلكه كل خلية. والكلية موجودة في كل جزئية مهما تكن صغيرة.

كان انكزاغوراس يطلق على هده «الأجزاء الصغيرة» التي تحمل «شيئا من الكلية» تسمية «البذور» أو «الحبوب».

وهنا نذكر أن امفيدوكليس كان يعتقد بأن الحب يوحد الأجزاء المختلفة، لتشكل أجساما كاملة. أما انكزاغوراس فكان يرى نوعا من القوة التي «تُشَكّل» الحيوانات، البشر، الزهور، والأشجار، وتعطيها شكلها. هذه القوة هي ما كان يسميه «القوة العاقلة» أو «الذكاء».

سبب آخر يجعل انكزاغوراس يثير اهتمامنا: انه الفيلسوف الأول في أثينا (حسب ما وصلنا). صحيح أنه جاء من آسيا الصغرى، لكنه استقر في أثينا عندما بلغ الأربعين. الى أن اتهم بالإلحاد، وأجبر على ترك المدينة. ذاك أنه تجرأ في أشياء كثيرة، منها القول «إن الشمس ليست الها وانما هي حجر محمّى حتى البياض، ويتجاوز حجمه بكثير حجم شبه جزيرة بيلوبونيز».

كان انكزاغوراس مغرما بعلم الفلك، ويؤيد مقولة أن كل الأجسام السماوية مكونة من مادة الأرض نفسها. وهذا هو الاستنتاج الذي توصل اليه بعد أن تفحص حجرا نَيْزَكياً. لذلك لم يكن يستبعد وجود بشر على كواكب أخرى. لاحظ أيضا أن القمر لا يضيء بذاته، واعتقد أنه يستمد نوره من الأرض، كما فسر ظاهرة كسوف الشمس.

ملاحظة:

أشكرك يا صوفي، على انتباهك. لا شك بأنك ستقرئين هذا الفصل عدة مرات قبل أن تفهميه جيدا. فالعلم يستحق أن نتعب من أجله. ولا أظن أنك سوف تقدرين صديقة تنجح في أية مادة دراسية، دون أن يكون ذلك قد كلفها أدنى جهد. أم أنني مخطىء؟

عليك الانتظار الى الغد، لتحصلي على الجواب بخصوص المادة الواحدة، وعلى التحولات الحاصلة في الطبيعة. ستتعرفين أيضا إلى ديمقريطس. ولن أقول لك أكثر.

أزاحت صوفي أشواك العليق الكثيفة قليلا، وألقت، عبر الفتحة الصغيرة، نظرة إلى الحديقة. يلزمها أن تعيد ترتيب أفكارها قليلا بعد كل ما قرأته.

كان واضحا أن الماء لا يمكن أن يتحول الى شيء غير الثلج والبخار. كان من غير الوارد أن يكون تحول الماء الى بطيخ، ممكنا، حتى ولو أن لغات كثيرة تطلق عليه اسم «شمام الماء» ذاك ان البطيخة مركبة من أشياء أخرى كثيرة غير الماء. لكن أليس مرد قناعتها الشديدة بذلك، الى أنهم قد لقنوها ذلك؟ هل كانت ستعرف أن الثلج ليس إلا ماء، لو لم يعلموها ذلك؟ ألم يكن عليها أن تدرس بدقة ظاهرة تحول الماء الذي يأخذ بالتجلد، قبل أن يذوب ويعود ماء.

حاولت صوفي أن تفكر لوحدها دون أن تعود الى ما تعلمته.

لقد رفض بارمينيدس الاعتراف بكل أشكال التحول. كلما فكرت بذلك أكثر، كلما اكتشفت أنها مضطرة لقبول كونه على حق في كل ما يقول والعقل السليم يمنعها من قبول فكرة أن «شيئا ما» يمكن أن يصبح بلمحة واحدة «شيئا مختلفا تماما». لم تنقصه الجرأة، لأنه كان مضطرا لأن يدحض، في الوقت نفسه، الظواهر الطبيعية التي يستطيع كل واحد أن يلاحظها بنفسه. لا بد أن كل الناس قد سخروا منه.

امفيدوكليس، كان أيضا بالغ الفطنة ليؤكد أن الكون ليس مركبا من عنصر واحد وانما من عدة عناصر. وبهذه الطريقة يصبح كل تحول في

الطبيعة ممكنا دون تحويل أي شيء.

لقد توصل الفيلسوف الإغريقي القديم الى هذه الاستنتاجات، عن طريق التفكير ودراسة الطبيعة، ولكن دون أن يتمكن من اجراء تحاليل كيماوية كما يفعل علماء اليوم.

لم تكن صوفي تعرف بوضوح ما اذا كان عليها أن تصدق أن الماء والهواء والنار والتراب، هي في أساس كل ما في الطبيعة. ولكن ما أهمية ذلك؟ ان امفيدوكليس لم يخطىء من حيث المبدأ. فالإمكانية الوحيدة التي تجعلنا نقبل كل التحولات التي تراها أعيننا دون أن نفقد الصواب، هي ادخال أكثر من عنصر أولي.

وجدت صوفي أن الفلسفة، هي حقا، شيء عبقري، ذاك أنها تستطيع أن تتابع كل هذه الأفكار بعقلها هي، دون أن تسترجع ما تعلمته في المدرسة. ووصلت الى استنتاج مفاده أن الفلسفة ليست شيئا يمكن تعلمه، وإنما يمكن تعلم *التفكير*، بطريقة فلسفية.

ديمقريطس

... اللعبة الأكثر عبقرية في العالم...

أقفلت صوفي العلبة الحديدية التي تحتوي على كل دروس الفلسفة التي يرسلها استاذها المجهول. تسللت خارج كوخها ووقفت تتأمل الحديقة برهة. عاد الى ذهنها فجأة ما حصل بالأمس، حين مازحتها أمها بخصوص «رسالة الحب»، فأسرعت تتفقد صندوق البريد كي لا يتكرر المشهد ذاته. اذ إن تَلقّي «رسالة حب» أمر يمكن أن يمر، ولكن ليس ليومين على التوالي ...

من جديد، وجدت ظرفا صغيرا أبيض! وبدأت تلاحظ؛ منهجا معينا في المراسلة: ظرف كبير أصفر يصلها بعد ظهر كل يوم، وبينما تنهمك هي بقراءته، يندس الفيلسوف خلسة ويضع ظرفا صغيرا أبيض.

هذا يعني أن بإمكانها أن تكتشفه بسهولة. لكن .. لماذا لا تكون امرأة .. من يدري؟ ليس أمام صوفي إلا أن ترابط على نافذتها، فمن هناك يمكنها مراقبة صندوق البريد بشكل جيد، وستتوصل بكل تاكيدإلى الإمساك بهذا الشخص السري. فلا شك في أن الظروف البيضاء لا تأتي وحدها.

اتخذت قرارا بوضع خطتها موضع التنفيذ غدا. فغدا الجمعة، وستكون أمامها كل اجازة نهاية الأسبوع.

صعدت الى غرفتها لتفتح الظرف: اليوم لا تحمل الورقة إلا سؤالا واحدا، لكنه يبدو أكثر صعوبة من الأسئلة الثلاثة التي حملتها «رسالة الحب» أمس.

لماذا تكون لعبة «الليغو» اللعبة الأكثر عبقرية في العالم؟

بدايةً، ليست صوفي موافقة على أن لعبة الليغو هي اللعبة الأكثر

عبقرية في العالم.

وعلى أية حال فإنها لم تلمسها منذ سنوات. اضافة الى أنها لا ترى أية علاقة بين الليغو والفلسفة.

لكنها طالبة مطيعة. ولذا راحت تفتش في أعلى دولاب ملابسها في خزانة العابها الى أن وجدت أخيرا كيسا مليئا بقطع الليغو، من كل الأحجام والأشكال.

منذ أمد طويل لم تلمس هذه القطع. وما ان بدأت تلعب بها، محاولة تركيب شيء ما، حتى راحت تفكر بخصوصية هذه القطع.

كان الأمر بالغ السهولة في البداية. فأيا تكن أحجامها وأشكالها، نستطيع جمعها. ثم ان هذه القطع لا تتلف، هل رأينا يوما قطعة ليغو مستهلكة؟ فهذه قطعها تبدو جديدة كما كانت عندما تلقتها قبل سنوات. والأهم أننا نستطيع أن نركب ما نريد انطلاقا من هذه القطع. نستطيع أن نفك ونعيد التركيب بشكل مختلف تماما.

ما هو المطلوب، أكثر من هذا؟ حقا لقد اقتنعت صوفي أخيرا أن الليغو تستحق لقب اللعبة الأكثر عبقرية في العالم. ولكن. ما هي علاقتها بالفلسفة؟ هذا أيضا سر وأحجية.

أخذت تركب بيتا للعبة. ولم تجرؤ على الاعتراف بأنها لم تعش، منذ وقت طويل متعة كهذه. لماذا نتوقف عن اللعب عندما نكبر؟

دخلت أمها، وعند رؤيتها ما تفعله صوفي، قالت بفرح:

– يسعدني أن أرى أنك ما زلت تعرفين أن تلعبي كطفلة صغيرة.

– لا. إنني أمارس بعض التجارب الفلسفية الصعبة.

تنهدت الأم بعمق. لا شك أنها فكرت بقصة الأرنب الأبيض وقبعة الساحر المجوفة.

في الغد. وعند عودتها من المدرسة، تلقت صوفي ظرفا كبيرا أصفر. حملته الى غرفتها، فقد كانت تريد قراءته، ومراقبة صندوق البريد عبر النافذة.

نظرية الذرة

مرحبا صوفي! اليوم سنحدثك عن آخر فلاسفة الطبيعة. كان يدعي ديمقريطس (٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م) وأصله من مدينة عبديرا على الشاطيء الشمالي لبحر ايجه. اذا كنت قد توصلت الى حل أحجية الليغو، فلن تجدي صعوبة في فهم نظرية هذا الفيلسوف.

كان ديمقريطس متفقا مع سابقيه في كون التغيرات المنظورة في الطبيعة، ليست نتيجة «تحول» حقيقي. وهو يفترض بأنه لا بد أن يكون كل شيء مركبا من عناصر صغيرة جدا، كل عنصر بمفرده هو دائم وأبدي. وكان ديمقريطس يسمي هذه الأجزاء البالغة الدقة: ذرات، أي «غير قابل للتجزئة».

وكأن ديمقريطس يريد أن يؤكد على أن العناصر التي يتركب منها الكون لا يمكن أن تستمر في الانقسام على نفسها الى ما لا نهاية. لأنه لا يمكن في هذه الحالة استعمالها كعنصر بناء. ولو كان ممكنا للذرات أن تستمر في التكسر، والتجزئة الى أجزاء أصغر فأصغر، لانتهى الأمر الى أن تفقد الطبيعة كل كثافتها وقوامها وتصبح أشبه بشوربة أكثر فأكثر ميوعة، وشعشعة.

من جهة أخرى يجب أن تكون عناصر تشكيل الطبيعة، أبدية، لأن لا شيء يولد من العدم. وحول هذه النقطة يلتقي ديمقريطس مع بارمينيدس والايليين.

كان يعتقد بأنه لا بد أن تكون كل الذرات صلبة وكثيفة دون أن تكون متماثلة. ذاك أنه اذا كانت كل الذرات متماثلة، فلن يكون هناك تفسير مُرضٍ لتنوع الأشكال المختلفة فيما بينها: كالبنفسجة الزيتونية، جلد الماعز أو شعر الإنسان ...

كان ديمقريطس يعتقد بوجود عدد لا متناهٍ من الذرات في الطبيعة. بعضها مستدير وأملس، وبعضها الآخر خشن ومعقوف. وهي تستطيع أن تتجمع في كيانات مختلفة، لا حد لها، لأنها، تحديدا، تمتلك أشكالا مختلفة. لكنها رغم كونها كذلك وكونها غير محدودة العدد، تجتمع في

كونها كلها أبدية، غير قابلة للتلف والزوال، وغير قابلة للتجزئة.

وعندما يموت جسد ما، شجرة أو حيوان مثلا، فإن الذرات تتفكك من جديد؛ تتبعثر، ويمكن أن تعود فتتجمع لتشكل أجسادا جديدة. الذرات تطوف في الفضاء، لكن بعضها يمتلك «علاّقات» أو «أسناناً» مما يجعلها تشتبك، بعضها ببعض، وتشكل الأشياء المحيطة بنا.

الآن فـهمتِ مـا أردتُ قوله بقطع الليغو. أليس كذلك؟ فكلها تمتلك، بنسـبة أو بأخرى، الصـفات التي يعطيـها ديمقـريطس للذرات، ولذلك تسمح لنا بأن نبني أي شيء نريد. انها أولا غير قابلة للتجزئة، ثم انها تختلف فيما بينها بالأشكال والحجم، وهي متماسكة وكثيفة. كما انها تمتلك هذه «الأسنان» أو «العلاّقات» التي تسمح لها بالتماسك لتشكيل ما نريد. ثم ان هذا النمط من التثبيت، قابل للتفكيك بسهولة، لإعطاء المجال لبناء شيء آخر بالعناصر ذاتها.

إن إمكانية إعادة استخدام الليغو الى ما لا نهاية، هو الذي يفسر النجاح والرواج اللذين لقيتهما هذه اللعبة منذ ابتكارها. فالعناصر التي شكلت سيارة، يمكن أن يُركب بها نفسها قصر في اليوم التالي. حتى لنكاد نقول ان اجزاء الليغو هذه «أبدية». ألم نر الأطفال يلعبون بالقطع التي لعب بها أباؤهم وأمهاتهم عندما كانوا في سنهم؟

يمكن أيضا، تشكيل أشكال مختلفة بوساطة الطين، لكننا لا نستطيع إعادة عجنه عدة مرات متلاحقة، لأنه يتفتت، ويتلف، ويصبح من المستحيل تشكيل شيء منه خلال وقت قصير.

اليوم. نستطيع أن نؤكد أن نظرية ديمقريطس حول الذرة كانت صحيحة. فالطبيعة مكونة، حقا، من ذرات مختلفة، تتجمع وتتفكك. وربما تكون ذرة الهيدروجين، موجودة في طرف أنفي الآن، قد شكلت جزءا من خرطوم فيل ما، في يوم من الأيام.

ومن يدري ما إذا كانت ذرة كربون، موجودة اليوم، في عضلة قلبي، قد كانت يوما على ذيل ديناصور؟

لكن العلم قد برهن -مع الأيام- بأن الذرة قابلة للتجزئة الى أقسام صغيرة «جزيئات أولية» وتسمى البروتون، النيوترون، والالكترون. ربما

توصل العلم يوما الى تجزئة هذه بدوره .. لكن علماء الفيزياء متفقون على أنه لا بد من حد نهائي. لا بد من وجود «جزيئات بالغة الدقة» تتكون منها الطبيعة كلها.

لم يكن لديمقريطس أن يستفيد من الأجهزة الإلكترونية الموجودة في عصرنا. لقد كان العقل أداته الوحيدة، التي لا تترك له خيارا. واذا انطلقنا من مبدأ أن لا شيء يتغير، ولا شيء يولد من العدم ولا شيء يختفي أبدا، فيجب أن نقبل فكرة كون الطبيعة مركبة من عدد لا متناه من عناصر التكوين الدقيقة التي تتجمع، ثم تتفرق، ثم تتجمع من جديد.

لم يلجأ ديمقريطس الى أية «قوة» أو «روح» لتفسير الظواهر الطبيعية. فكل ما يعمل هو الذرة والفراغ. وبما أنه لم يكن يؤمن إلاّ بما هو «مادي»، فإننا نسميه *المادي*.

لا توجد أية «نيّة» في حركة الذرات، بل ان كل ما في الطبيعة يتم بطريقة ميكانيكية. لكن هذا لا يعني أن الأمور تحدث مصادفة، بل انها تتبع القوانين الحتمية في الطبيعة. فبرأي ديمقريطس أن وراء كل هذه الظواهر سبباً طبيعياً، سبباً كامناً في الأشياء نفسها. وقد أعلن مرة أنه يفضل أن يكتشف أحد القوانين الطبيعية، على أن يصبح ملك الفُرْس.

كذلك تفسر نظرية الذرة، برأي ديمقريطس، قضية الرؤية. إننا نرى الأشياء بسبب حركة الذرات في الفراغ. عندما أرى القمر، فذاك لأن «ذرات القمر» تلامس عيني.

ولكن. ماذا بشأن الروح؟ هل نستطيع أن نحصرها بذرات، أي «بأشياء» مادية؟ أجل. فبرأي ديمقريطس ان الروح مؤلفة من بضع ذرات مستديرة وملساء «ذرّات الروح». وعند موت الإنسان، تهرب الذرات في كل الاتجاهات. وربما تعود فتتجمع من جديد مشكِّلة روحا جديدة.

هذا يعني أن روح الإنسان ليست خالدة. وهذه فكرة يؤيدها الكثيرون من مفكري عصرنا، حيث يعتقدون بأن «الروح» مرتبطة بالدماغ، واننا لا نستطيع الاحتفاظ بشكل من أشكال الوعي، عندما يتفكك الدماغ.

هكذا شطب ديمقريطس، بنظريته حول الذرة، شطبا نهائيا، فلسفة الطبيعة عند الإغريق. وقد كان يعتقد، كهيراقليطس، أن كل شيء

«يجري» في الطبيعة. لكن، وراء هذه الأجسام المتغيرة باستمرار، يوجد عنصر أبدي ودائم، لا «يجري» أبدا. هذا ما كان يسميه «الذرّة».

لم تنس صوفي، وهي تتابع القراءة، أن تلقي نظرة تلو أخرى، من النافذة، لترى ما اذا كان الشخص المجهول سيقترب من صندوق البريد. ظلت جالسة في هذا الوضع وهي تراجع في ذاكرتها ما قرأته لتوها.

كل ما فعله ديمقريطس انه فكر، ووصل الى فكرة عبقرية: الى حل للمشكلة المستعصية بين «المادة الوحيدة»، و «تحول» العالم. بعدما وقف الفلاسفة أجيالا طويلة أمام هذا الجدار الصعب. أخيرا وصل ديمقريطس الى الحل، مستعملا عقله فقط.

أوشكت صوفي أن تنفجر ضحكاً. انه لمنطقي جدا، في النهاية، أن تكون الطبيعة مؤسسة على بضعة عناصر صغيرة، لا تتغير أبدا. من جهة أخرى لم يكن هيراقليطس على خطأ عندما قال ان كل عناصر الطبيعة في حالة تبدل مستمر. ذاك أن كل البشر والحيوانات يموتون. حتى سلسلة الجبال، يصيبها التآكل.

ما يجب حفظه: هو أن سلسلة الجبال هذه مؤلفة من جزيئات صغيرة غير قابلة للانقسام ولا للدمار.

لكن ديمقريطس أثار أسئلة أخرى. فعندما يقول مثلا إن كل شيء يتم بعقل قوى آلية، يرفض فكرة وجود قوى روحية في الكون، التي يقول بها امفيدوكليس وانكزاغوراس. اضافة الى أنه يعتقد بأن الروح الإنسانية ليست خالدة.

هل هو على حق في هذه النقطة؟

هي لا تعرف الجواب الدقيق. انها لم تكد تبدأ دروسها في الفلسفة.

القَدَر

... العرّاف يحاول أن يفسر شيئا
يفلت بطبيعته من كل تفسير ...

لم تتوقف صوفي عن النظر الى الحديقة وهي تقرأ عن ديمقريطس. لكنها، وليطمئن قلبها، قررت أن تنزل لتتفقد صندوق البريد، ولشد ما كانت دهشتها حين فتحت باب المدخل، و رأت ظرفا أبيض، في الممر، وعليه اسمها.

آه. لقد سخر منها! ففي اليوم الذي جلست فيه تراقب صندوق البريد، تسلل الفيلسوف السري، عبر طريق أخرى، وراء المنزل، واكتفى بأن يضع الرسالة عند المدخل، ثم يختفي في الغابة. هكذا اذن!!

كيف حزر أن صوفي تراقب اليوم صندوق البريد. هل رآها على النافذة؟ حسنا. على الأقل استطاعت أن تأخذ الرسالة قبل عودة والدتها.

عادت صوفي بسرعة الى غرفتها وفتحت الظرف. كانت زوايا الظرف مبللة قليلا، وتحمل آثارا كأنها آثار أسنان. كيف حصل هذا؟ والسماء لم تمطر منذ عدة أيام.

على الورقة:

هل تؤمنين بالقدر؟
هل المرض هو عقاب من الله؟
أية قوى تحكم مسيرة التاريخ؟

هل تؤمنين بالقدر؟ للوهلة الأولى قالت لا. لكنها تعرف كثيرين يؤمنون به. كثيرات من صديقاتها يقرأن الأبراج في المجلات. واذا كانت تؤمن بعلم الفلك، فلا بد أن تؤمن بالقدر، ذاك أن علماء الفلك يعتقدون أن موقع النجوم في الفضاء يؤثر على حياة الناس على الأرض.

وإذا كنا نؤمن أن هرا أسود يعبر الشارع هو علامة شؤم، فلا بد أن نؤمن بالقدر. أليس كذلك؟ كلما كانت تفكر بذلك أكثر، كانت تجد أمثلة أخرى. لماذا نقول مثلا «امسك الخشب»؟ ولماذا يعتبر يوم الجمعة في الثالث عشر من الشهر يوم شؤم؟ لقد سمعت صوفي أن بعض الفنادق تلغي الرقم ١٣ من أرقام غرفها. مما يثبت أن هناك بشرا كثيرين متطيرين.

أليست كلمة «التطير» كلمة سخيفة في العمق. اذا كنت مسيحيا أو مسلما يقال إن لديك «ايمان». أما إذا آمنت بعلم الفلك أو بشؤم الجمعة ١٣، تصبح متطيرا!

من يملك حق وصف ايمان الآخرين بـ «التطير»؟

في كل الأحوال، كانت صوفي على ثقة من شيء واحد: لم يكن ديمقريطس يؤمن بالقدر. لم يكن يؤمن إلاّ بالذرة والفراغ.

حاولت صوفي أن تفكر بالأسئلة الأخرى المطروحة على الورقة.

هل ان المرض عقاب من الله؟ من يستطيع أن يؤمن بشيء كهذا في أيامنا؟ هذا يعني ان نطلب مساعدة الله لنشفى، أي أن لله كلمته في شأن صحة ومرض كل منا.

كان الموقف من السؤال الثالث أشد صعوبة. فلم يسبق لصوفي أن فكرت أبدا، في من يحكم التاريخ. أهُمُ الناس؟ ولكن اذا كان الله أو القدر موجودين، فإن الناس لا يستطيعون أن يمارسوا ارادتهم بحرية.

هذه الفكرة: فكرة ممارسة الإرادة بحرية، وضعت صوفي على سكة جديدة. فلماذا تقبل بأن يلعب معها الفيلسوف الغامض، لعبة القط والفأر؟ لماذا لا تكتب بدورها رسالة لهذا المجهول؟ لا بد انه، (أو انها) سيأتي لوضع ظرف أصفر آخر في صندوق البريد، فلتضع له هي، بدورها، رسالة مقابلة!

مباشرة، بدأت التنفيذ، لم يكن من السهل أن تكتب لشخص لم تره أبدا. حتى انها لا تعرف ما اذا كان رجلا أو امرأة! ما اذا كان شابا أو مسنا. ربما يكون شخصا تعرفه؟

أخيرا، كتبت الرسالة التالية:

حضرة الفيلسوف المحترم،

بتقدير كبير، يثمن هذا البيت، عطاءك الكريم، بتقديم دروس في الفلسفة، بالمراسلة. لكن ما يضايق، كوننا لا نعرف من أنت. ولذا نرجوك أن تتقدم وتكشف عن هويتك.

وبالمقابل، ندعوك بمودة لتناول فنجان قهوة في المنزل. والأفضل أن يكون في أثناء غياب أمي. انها تعمل من الساعة السابعة والنصف صباحا الى الخامسة مساء، كل يوم، من الاثنين الى الجمعة. أما أنا فأذهب، خلال هذا الوقت، الى المدرسة. غداً يوم الخميس، حيث أعود في الثانية والربع بعد الظهر. أؤكد أنني أعرف تحضير القهوة جيدا. ولك الشكر، مسبقا.

مع تحيات واحترام
تلميذتك المخلصة
صوفي ١٤ سنة

في أسفل الورقة كتبت: *رجاء الإجابة.*

رأت صوفي أن الرسالة رسمية جدا. لكنه لم يكن من السهل ايجاد الكلمات للكتابة الى شخص لم تر وجهه.

دست الورقة في ظرف وردي، وكتبت عليه: *الى الفيلسوف.*

كانت المشكلة تتمثل في كيفية وضع الرسالة في الصندوق، دون أن تراها والدتها. اذن، يجب أولا أن تضعها بعد عودة أمها في المساء. ثم أن تذهب لتفقدها في الصباح الباكر. وإذا لم تتلق رسالة جديدة في المساء أو الليل، تصبح مضطرة لاستعادة الظرف الوردي.

لماذا وجب أن تكون الأمور معقدة هكذا؟

هذا المساء، ذهبت صوفي مبكرا الى النوم، رغم أنه مساء الجمعة. حاولت أمها استبقاءها، عارضة عليها طبق بيتزا ومشاهدة المسلسل البوليسي المفضل لديهما، *(ديريك)*. لكن صوفي ادعت أنها متعبة وتريد

القراءة في السرير.

واغتنمت فرصة انشغال أمها بالشاشة الصغيرة، لتنسل الى الخارج، وتضع رسالتها في صندوق البريد.

كان واضحا أن أمها قلقة. فقد أخذت تحدثها بشكل مختلف منذ قصة الأرنب والقبعة. لم تكن صوفي تحب ازعاجها. لكن عليها، بالتأكيد، أن تراقب صندوق البريد.

عندما صعدت الأم إلى غرفتها، مع دقات الثانية عشرة، كانت صوفي لا تزال مسمرة على النافذة تراقب الشارع.

– هل تراقبين صندوق البريد؟ سألتها أمها

– ان لي الحق في أن أنظر الى ما أريد.

– أعتقد أنك واقعة في الحب. ولكن اذا كنت تنتظرين رسالة جديدة. فإنني لا أعتقد أنه سيأتي في منتصف الليل، ليضعها.

أه. كانت صوفي تكره قصص الحب الخيالية هذه. ولكن ما العمل؟ الأفضل أن تترك أمها في ظنها الخاطىء.

– أهو من حدثك عن الأرنب، وقبعة الساحر؟ تابعت الأم.

وأجابت صوفي موافقة:

– انه ... انه لا يتعاطى المخدرات، على الأقل؟

إنها تشعر حقا بالإشفاق على أمها، لكنها لا تستطيع أن تتركها فريسة لقلقها. كانت، فعلا، مجانبة لحقيقة الأمور! أن يأخذها التفكير الى المخدرات لمجرد أن ابنتها تجد متعة في إعمال عقلها قليلا ... كم يكون الكبار معتوهين أحيانا! ...

– أمي أعدك بأنني لن ألمس أبدا هذه الأشياء ... قالت وهي تستدير نحوها. أما هو .. فإنه لا يتناول المخدرات أبدا. بل انه على العكس من ذلك، يهتم كثيرا بالفلسفة.

– أهو أكبر منك سنا؟

هزت صوفي رأسها انكارا

– أهو في مثل سنك؟

هزت رأسها ايجابا هذه المرة.

– وتقولين انه يهتم بالفلسفة؟

أشارت صوفي بالموافقة، من جديد

– انه اذن لطيف جدا، اذهبي الآن. أعتقد أن عليك أن تحاولي النوم.

لكن صوفي ظلت على النافذة واستمرت تراقب الشارع. عند الساعة الواحدة، غلبها النعاس الى حد جعل عينيها تغمضان. كادت تمضي الى الفراش عندما رأت فجأة شبحا يخرج من الغابة.

كان الليل معتما، في الخارج، لكنه مقمر بقدر سمح لها بأن تميز شكل رجل، أحست أنه كبير السن، أكبر منها على أية حال! ويضع طاقية على رأسه.

بدا وكأنه رفع نظره لحظة نحو المنزل، لكنها كانت قد أطفأت الأنوار. اتجه الى صندوق البريد، دس فيه ظرفا ضخما. وفي هذه اللحظة وقعت عيناه على الظرف الوردي فتناوله.

خلال ثانية كان قد ابتعد، وبخطى سريعة جدا سلك طريق الغابة، ليختفي في لمحة عين.

أخذ قلب صوفي يخفق بشدة. كان عليها أن تتبعه بثياب النوم ... لو انها ... لا ... لا تجرؤ على الركض وراء شخص مجهول، وسط الليل. لكن يجب أن تخرج الآن لأخذ الظرف الجديد.

انتظرت لحظة. ثم هبطت السلم بحذر، وأدارت المفتاح بهدوء، لتخرج الى الصندوق. في أقل من دقيقة كانت في غرفتها، وظرفها بيدها. جلست على حافة السرير، تلتقط أنفاسها. وبعد مرور عدة دقائق، دون حدوث أي شيء، فتحت الرسالة وبدأت تقرأ.

مؤكد أنها لا تنتظر الآن جوابا عن رسالتها، هذا يأتي غدا.

القدر

مرحبا، هذا أنا، عزيزتي صوفي!

لإجراء ما يلزم، أنبهك تحديدا، إلى أنه عليك ألا تحاولي أبدا

التجسس علي. سوف نلتقي يوما، لكنني أنا من يحدد متى وأين.

ها أنا أنبهك، ولن تكوني غير مطيعة، أليس كذلك؟

لنعد الى فلاسفتنا. لقد رأينا كيف حاولوا تفسير التحول في الطبيعة. قديما كان كل شيء يتضح عبر الأسطورة.

لكنه كان على المعتقدات القديمة أن تخلي الساحة في مجالات أخرى: وسنرى ذلك عندما نتناول موضوع المرض و الصحة. وكذلك السياسة. ففي هذين المجالين، ظل الإغريق، يؤمنون بالقدر، حتى المرحلة التي وصلنا اليها في درسنا.

الإيمان بالقدر يعني أن كل ما سيحدث مقرر سلفا. ونحن نجد هذا المفهوم في العالم كله. منذ العصور الأكثر قدما، حتى أيامنا هذه. ففي الشمال مثلا اعتقاد متجذر في «القَدَر» كما يظهر في حكايات الميثولوجيا الإيسلندية القديمة.

عند الإغريق، كما في أجزاء أخرى من العالم، نجد فكرة أن الناس يستطيعون معرفة قدرهم، أو مصيرهم بوساطة أشكال متعددة من الوسطاء الكهنة، أو العرافين. مما يعني أنه يمكن أن يفسر مصير انسان أو بلد بطرائق مختلفة.

هناك أيضا من يعتقدون بقراءة البخت «بسحب الأوراق» أو «بقراءة النجوم».

هناك أيضا قراءة فنجان القهوة. ربما شكلت بقايا القهوة على جدران الفنجان، رسوما أو صورا محددة، ويكفي بالتالي امتلاك القليل من الخيال. اذا كان الرسم يشبه شكل سيارة، مثلا، فهذا يعني أن الشخص المعني سيقوم برحلة في السيارة.

هكذا يبدو أن العرّاف يحاول أن يفسر شيئا، يفلت بطبيعته من كل تفسير. وينطبق هذا على كل فنون التنبؤ. وما «نفسره» هو غامض لدرجة لا نستطيع معها أن نعارض العرّاف.

إذا ما ألقينا نظرة إلى النجوم، لن نرى إلاّ فوضى من النقاط المضيئة. رغم ذلك فإن أناسا كثيرين، في كل العصور، قد آمنوا بأن النجوم تستطيع أن تخبرنا عن حياتنا على الأرض. ولا يزال هناك الى

أيامنا هذه، رؤساء لأحزاب سياسية، يستشيرون منجمين، قبل أن يتخذوا قرارا هاما.

عرّافة دلفي

كان الإغريق يعتقدون أنهم يستطيعون معرفة مصائرهم بوساطة عرّافة دلفي. وكان أبو لون (Apollon)، إله العرّافة. يتكلم بوساطة كاهنته (Pythia). التي تعتلي عرشا فوق شق في الأرض. كانت تنبعث منه غازات تجعل العرّافة شبه غائبة عن الوعي. وهي حالة ضرورية لتصبح الناطقة بلسان أبو لون (Apollon).

عند الوصول الى دلفي، كان الإنسان يطرح السؤال على الكهنة، المقيمين هناك، لينقله هؤلاء بدورهم الى العرّافة (Pythia). التي تجيب بكلام غير مفهوم، وغامض، بحيث يضطر الكهنة الى تفسيره لصاحبه. وكان الإغريق يعتقدون أنهم يستفيدون بهذا، من حكمة أبو لون، الذي يعرف كل شيء عن الماضي وعن المستقبل.

لم يكن كثير من الحكام يتجرؤون على الدخول في حرب، أو اتخاذ قرارات خطيرة، قبل استشارة عرافة دلفي. ومن هنا كان كهنة أبو لون يقومون بدور الديبلوماسيين، والمستشارين، لأنهم يعرفون البلاد والشعب جيدا.

فوق معبد دلفي، حفرت العبارة التالية: إعرف نفسك بنفسك! مما يذكر الإنسان بأنه زائل وأن أحدا لا يستطيع أن يفلت من قدره.

وقد ألف عدة شعراء اغريق، قصائد تتحدث عن الناس الخاضعين لأقدارهم. مما أصبح موضوعا لسلسلة من المسرحيات التراجيدية التي تقدّم هذه الشخصيات «المأساوية» على المسرح. وأشهرها قصة الملك أوديب.

العلم وتاريخ الطب

لا يكتفي القدر بتحديد حياة كل فرد، فقد كان الإغريق يعتقدون أن

مصير العالم كله بين يدي القدر وقد يتوقف مصير حرب ما على الآلهة. حتى اليوم، يعتقد كثير من الناس أن الله أو قوى روحية أخرى تحكم مصير العالم.

لكن، وفي الوقت الذي كان فيه فلاسفة الإغريق يحاولون ايجاد تفسير عقلاني للظواهر الطبيعية. كان علم جديد هو «علم التاريخ» يترسخ. ومهمته ايجاد الأسباب الطبيعية الكامنة وراء مسيرة التاريخ. وهنا لم تعد خسارة حرب، تُرد الى مجرد انتقام الهي فقط. وأشهر هؤلاء المؤرخين هيرودوت (٤٨٤ – ٤٢٤ ق.م) وتوسيديد (٤٦٠–٤٠٠ق.م).

المرض أيضا، كان بالنسبة للإغريق، فعل الآلهة. حيث انها تسلط على الناس أمراضا معدية، لتعاقبهم. ولذا فإنها من جهة أخرى، قادرة على شفائهم. بشرط واحد، هو تقديم الضحايا، حسب القواعد الدقيقة.

ليس هذا المعتقد اغريقياً فقط، فقبل مجيء الطب الحديث، كان المرض يعتبر، في كل مكان تقريبا، ظاهرة فوق الطبيعة. وتسمية فلو Flue بالإنكليزية أو انفلونزا Influenza بالنرويجية التي تطلق على الرشح، تعني في الأساس الوقوع تحت التأثير Influence السيء للنجوم.

حتى في أيامنا، نجد الكثيرين ممن يعتقدون أن مرضا كالإيدز مثلا هو عقاب من الله. كما نجد كثيرين يعتقدون بإمكانية الشفاء عن طريق قوى تفوق الطبيعة.

وهكذا، فإنه في الوقت الذي كان فيه فلاسفة الإغريق يفتحون الطريق أمام نمط جديد في التفكير، كانت تولد أيضا رؤية جديدة للطب، تحاول أن تفسر المرض والصحة بطريقة طبيعية. ويعتبر هيبوقراطس الذي ولد في جزيرة كيوس عام ٤٦٠ ق.م، مؤسس الطب الإغريقي.

الوقاية المثلى من المرض – برأي هيبوقراطس – تتمثل في الحياة ببساطة، وبحساب. فالحالة الصحية الجيدة هي الحالة الطبيعية لدى الإنسان. وعندما نقع مرضى، يكون قطار الطبيعة قد خرج عن سكّته، بسبب فقدان توازن، جسدي أو روحي. والطريق التي تقود الى الصحة،

هي طريق الإعتدال، و«الروح السليمة في الجسم السليم».

في أيامنا، لا يتحدثون إلاّ عن «أخلاقيات مهنة الطب» وهي تعني أنه على الطبيب أن يمارس الطب محترما عدة قوانين أخلاقية. فهو لا يمتلك مثلا حق كتابة وصفة طبية لناس أصحاء.

كذلك هو ملزم بسر المهنة، أي أنه لا يمتلك حق نقل تقارير مريض بخصوص مرضه. كل هذا يعود الى هيبوقراطس. فهو يفرض على طلابه أن يؤدوا القسم التالي:

أقسم بالإله الطبيب، واهب الصحة والشفاء، على انه –على قدر استطاعتي وتقديري– سأتمسك بهذا القسم وهذا الميثاق. بأن أرى المعلم في هذه الصناعة بمنزلة آبائي، وأن أقاسمه ما أمتلك حينما يكون في حاجة إلى ذلك، وأن أرى أبناءه بمنزلة اخوتي، وأن أعلمهم هذه الصناعة ان هم أرادوا ذلك، بلا أجر أو مساومة وأنه بالتعليم والمحاضرة وكل وسيلة من وسائل التثقيف، سأفضي بتلك الصناعة لأبنائي وأبناء من علموني، ولتلامذتي، وليس لأحد غيرهم، مرتبطاً بالميثاق والقسم على اطاعة قانون الطب، وأقصد بقدر طاقتي، منفعة المرضى عما يضرهم أو يسيىء اليهم، وألا أعطي دواءً قتالاً أو أشير به، أو لبوساً مسقطاً للجنين. وأحفظ نفسي على النزاهة والطّهارة، وأحافظ على السرّ الطبي، وألا أجري عمليات للمصابين بالحصى، وأن أترك ذلك للمتمرنين فيه. وأن أدخل البيوت لمنفعة المرضى، متجنباً كل ما يسيىء اليهم، وألا أخادع أو أهتك عرضاً للنساء أو الرجال، أحراراً كانوا أو عبيداً وألا أفشي ما يجب أن يبقى سراً بالنسبة لما أرى وأسمع من الناس، سواء ذلك ما يتصل بمهنتي أو ما يخرج عنها. وما دمت مبقياً على هذا العهد، فلاستمتع بالحياة، ولأمارس مهنتي بين الناس. فان نكثت هذا الميثاق فليكن نقيض ذلك من نصيبي.

ما إن استيقظت صوفي صباح السبت، حتى قفزت من سريرها. هل كان ذلك حلما أم أنها *رأت* الفيلسوف فعلا؟

مدت يدها تحت السرير، لتتأكد. كانت الرسالة التي أتى بها هذه الليلة لا تزال هناك. ولا تزال صوفي تتذكر كل كلمة قرأتها عن ايمان الإغريق بالقدر. لم يكن ذلك حلماً، اذن.

مؤكد أنها رأت الفيلسوف. والأهم أنها رأته بعينيها يأخذ رسالتها هي.

دبت على يديها ورجليها وسحبت كل الأوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة. ولكن ... ما هذا اللون الأحمر الذي يلتمع على الجدار؟ منديل؟

زحفت تحت السرير، ثم خرجت وبيدها منديل أحمر: كانت واثقة من أنه ليس لها.

عندما تفحصت المنديل عن قرب، ندت منها صرخة تعجب، وهي ترى أن ثمة كلمة مكتوبة بخط كبير أسود، على الحاشية «*هيلد*».

هيلد! من تكون *هيلد* هذه؟ لماذا تتقاطع طريقاهما هكذا؟

سقراط

... الأكثر ذكاء هي التي تعرف
أنها لا تعرف...

ارتدَتْ صوفي ثوبا صيفيا وأسرعت الى المطبخ. كانت أمها هناك، تدير ظهرها، منشغلة بتحضير الفطور. وقررت صوفي ألا تتحدث عن منديل الحرير. لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال:

– هل نزلتِ لإحضار الصحيفة اليومية

– لا. لو تحضريها لي، من فضلك.

نزلت صوفي مسرعة، الى الصندوق الأخضر.

لم يكن فيه إلاّ الصحيفة. لم يمض وقت كاف لاستلام جواب عن رسالتها، لكن بضعة أسطر على الصفحة الأولى للجريدة، استوقفتها بشدة. انها تتحدث عن الوحدة النرويجية في قوات الأمم المتحدة.

الوحدة النرويجية للأمم المتحدة ... أليس هذا ما كان مكتوبا على البطاقة التي جاءت باسم هيلد؟ لكن الطوابع التي كانت عليها نرويجية. ربما يكون للجنود النرويجيين بريدهم الخاص.

عندما عادت الى المطبخ، فاجأتها أمها ساخرة:

– غريب كم صرت تهتمين بالصحيفة!

لحسن الحظ، لم تعد الأم الى ذكر صندوق البريد ورسائله خلال الإفطار، وطوال النهار. وما ان خرجت لرياضتها الصباحية، حتى حملت صوفي الرسالة التي تتحدث عن الإيمان بالقَدَر الى كوخها.

خفق قلبها وهي ترى ظرفا صغيرا أبيض قرب العلبة التي تحتوي على رسائل أستاذ الفلسفة. كانت متأكدة من أنها ليست هي من وضعه هناك.

كانت زوايا ظرف هذه الرسالة مبللة أيضا. وعلى الورق آثار عميقة هي الآثار ذاتها التي كانت عليه رسالة البارحة.

اذن، فقد جاء الفيلسوف الى هنا؟ انه يعرف سرّها؟ ولكن لماذا كان الظرفان مبللين؟

حيّرتها كل هذه الأسئلة. لكنها فتحت الظرف وقرأت:

عزيزتي صوفي

قرأت رسالتك باهتمام بالغ، ولكن بقلق أيضا. وأنا أسف لاضطراري لأن أخيب أملك في القدوم لتناول القهوة. سيأتي يوم نلتقي فيه، ولكن لا يزال الوقت مبكرا جدا على ظهوري في «زقاق النقل، منعطف القطبان».

من جهة أخرى، لن أوصل الرسائل بنفسي بعد اليوم، ففي ذلك مخاطرة كبيرة، ستصلك رسائلي بوساطة رسولي الصغير، الذي سيضعها في خلوتك السرية في آخر الحديقة.

بإمكانك أن تتصلي بي كلما أحسست بالحاجة الى ذلك. وفي هذه الحالة ضعي في ظرفك الوردي قطعة بسكوت أو سكر. عندها سيفهم الرسول ويحمل الرسالة الي.

ملاحظة:

ليس من اللياقة أبدا أن نرفض دعوة فتاة شابة لتناول القهوة، لكننا نكون أحيانا مضطرين.

ملاحظة أخرى:

إذا كنت قد وجدت منديلا حريريا أحمر، فأرجوك العناية به. فقد يحصل أحيانا أن تصل أشياء الى غير أصحابها، عن طريق الخطأ، خصوصاً في المدرسة أو في أماكن مشابهة. ولا تنسي أننا في مدرسة فلسفة.

مع صداقتي

البرتوكنوكس

كثيرا ما تلقت صوفي طوال سنيّها الأربع عشرة، رسائل كثيرة: في عيد الميلاد، في عيدها هي، في بضع مناسبات خاصة، لكن رسالة كهذه هي شيء فريد من نوعه.

لم يكن عليها طوابع، لم تُرْسَل بالبريد، وانما وُضِعَت مباشرة في مخبأها الخفي. الشيء الآخر انها مبللة، والوقت صيف.

لكن الأكثر غرابة، هو موضوع منديل الحرير. ان للأستاذ طالبة أخرى، وهذه الأخرى أضاعت منديلها، لكن كيف وصل هذا المنديل الى تحت سرير صوفي؟

و .. البرتو كنوكس هذا ... أي اسم غريب! على أية حال، لقد أوضحت لها الرسالة أن ثمة علاقة بين هيلد موالر كناغ وأستاذ الفلسفة. ولكن ما يظل غير مفهوم، هو أن يخلط والد هيلد أيضا بين العنوانين.

قلبت صوفي الموضوع من مختلف وجوهه، لتصل الى تبيين العلاقة بينها وبين هيلد هذه. إلاّ أنها أطلقت أخيرا زفرة استسلام. لقد قال الرجل المجهول أنه سيلتقيها يوما. ولكن هل ستلتقي هيلد أيضا؟ قلبت الورقة، لتجد على الوجه الآخر بضع جمل:

هل هناك حياء طبيعي؟
الأكثر ذكاء هي التي تعرف أنها لا تعرف.
المعرفة الحقيقية تأتي من الداخل.
الذي يعرف الصح يفعله أيضا.

فهمت صوفي أن هدف هذه الجمل القصيرة، المكتوبة على الظرف الأبيض، هو تهيئتها لما في الملف الكبير. ولمعت في رأسها فكرة: لماذا لا تنتظر رسولها هنا، طالما انه سيأتي مباشرة الى الكوخ؟ ستجعله يتكلم، ولن تتركه قبل أن تعرف أكثر عن هذا الفيلسوف. قالت الرسالة انه «صغير» فهل يكون طفلا؟

هل هناك حياء طبيعي؟

كانت صوفي تعرف أن «حياء» هي كلمة قديمة تعني مثلا، الإحراج الذي يسببه لنا الظهور عراة أمام الناس. ولكن، هل من الطبيعي، في العمق، أن نشعر بالانزعاج لذلك؟ ان شيئا طبيعيا، هو تحديدا، الشيء المشترك بين كل الناس.

لكن العُري شيء طبيعي، في أجزاء أخرى من العالم. فهل المجتمع هو الذي يحدد المقبول وغير المقبول؟ لقد كان من غيرالمقبول، أيام جدة صوفي، كشف الثديين للشمس، لاكتساب اللون البرونزي، في حين أصبح ذلك عاديا اليوم ... ذلك عندنا، لأنه لا يزال أمرا ممنوعا في مجتمعات أخرى. هرشت صوفي رأسها حائرة. ما دخل الفلسفة في كل هذا؟

انتقلت الى الجملة الثانية: *الأكثر ذكاء هي التي تعرف أنها لا تعرف.*

أكثر ذكاء ممن؟ اذا كان الفيلسوف يقصد أن الذي يعي أنه لا يعرف كل شيء بين السماء والأرض، هو أكثر ذكاء من الذي يعرف أشياء قليلة، ويتخيل أنه يعرف الكثير، فهي متفقة معه، بالتأكيد. لم يحصل أبدا أن نظرت صوفي الى الأمور من هذه الزاوية، ولكنها كلما فكرت بذلك الآن، كلما بدا لها أن ادراك الإنسان لجهله هو شكل من أشكال المعرفة. وما يرعبها هو هؤلاء الناس الذين يصخبون دائما دون أن يعرفوا عما يدور الحديث.

ثم تأتي قصة هذه «*المعرفة الحقيقية*» التي تأتي «*من الداخل*». لكن لا بد لكل معرفة أن تأتي من الخارج قبل أن تدخل رأس البشر؟ من جهة أخرى، تتذكر صوفي أنها مرت بحالات، كانت فيها عصية تماما على الاختراق، أمام ما أرادت أمها أو أساتذتها تلقينها اياه. انها لم تستطع أن تتعلم شيئا إلاّ بأن وضعت فيه شيئا مما عندها. فجأة تأكدت من ذلك، وأدركت أنه هو ما نسميه «الحدس».

أخيرا، خرجت من تمارينها الذهنية هذه بحصيلة لا بأس بها. غير أنها لم تتمالك نفسها من الضحك أمام الجملة التوكيدية الأخيرة: *من يعرف الصح يفعله.*

هل يعني هذا أن لصا يسرق بنكا لا يستطيع أن يفعل غير ذلك؟ لم تكن صوفي متفقة مع الفيلسوف. بل انها - على العكس من ذلك - تعتقد بأن الأطفال والكبار يقعون في هفوات وأخطاء لا يلبثون أن يندموا عليها. وكثيرا ما يتصرفون على عكس قناعاتهم.

وبينما هي غارقة في تفكيرها هذا، سمعت تكسر أغصان في أرض

الغابة. أهو الرسول قادم؟ كاد قلبها يتوقف، وأحست بموجة خوف تغمرها. ها هي تسمع خطواته تقترب، وأنفاسه تشبه أنفاس حيوان. وما هي إلا لحظات حتى خرج من الغابة كلب ضخم، دخل كوخها حاملا بين أسنانه ظرفا كبيرا أصفر رماه على ركبتيها ومضى. حدث كل شيء بسرعة لم تترك لها وقتا للتصرف. بل انها انهارت تحت وقع الصدمة فأخذت وجهها بين راحتيها، وغرقت في البكاء.

لم تدر كم مضى من الوقت قبل أن ترفع وجهها.

اذن هذا هو الرسول، ولهذا كانت الظروف مبلولة وتحمل آثار أسنان. كيف لم تنتبه الى ذلك قبلا؟ على الأقل فهمت الآن، لماذا عليها أن تضع قطعة سكر أو بسكوت في رسالتها.

لم يتبق لها إلاّ أن تقول وداعا لفكرتها في جعل الرسول يحدثها أين يقيم البرتو كنوكس. فتحت الملف وراحت تقرأ.

الفلسفة في أثينا

عزيزتي صوفي

مع هذه الرسالة، تعرفت الى هرمز انه كلب، لكنه لطيف جدا، وأكثر تعقلا من بعض الناس، انه، على الأقل، لا يدعي كونه أكثر ذكاء مما هو عليه.

ستلاحظين، بالمناسبة، انني لم أختر اسمه مصادفة. فقد كان هرمز رسول آلهة الإغريق. كما انه كان اله البحارة. لكن لندع هذا جانبا الآن، فكلمة هرمز هي من أصل يوناني وتعني «المخبأ» أو الذي لا يمكن الوصول اليه. انها صورة جيدة للوضع الذي يؤمنه لنا هرمز، بعيدين واحدنا عن الآخر.

هذا بالنسبة الى الرسول. انه يطيع تماما عندما نناديه، وله عادات ممتازة.

لنعد الى الفلسفة، لقد رأينا الجزء الأول من الدرس. وأقصد فلسفة

الطبيعة، والقطيعة مع التصور الأسطوري للعالم. الآن سنتناول الفلاسفة الثلاثة الأكثر أهمية في العالم القديم: سقراط، أفلاطون وأرسطو. الذين أثّر كل منهم – وعلى طريقته – في الفلسفة الأوروبية.

هكذا أطلقت على فلاسفة الطبيعة تسمية «ما قبل السقراطية». صحيح ان ديمقريطس قد مات بعد سقراط بسنوات، لكن فكره كله ينتمي الى المرحلة ما قبل السقراطية. ولا يعتبر سقراط علامةً، وفاصلا زمنيا، وإنما يمثل أيضا تغيرا مكانيا، لأنه الفيلسوف الأول الذي وُلد، وعاش، ومارس فلسفته في أثينا. وهكذا كان حال تلامذته بعده. ربما تتذكرين أن أناكزاغوراس عاش مدة في هذه المدينة لكنه طُرد منها لأنه قال ان الشمس كرة من نار. (وسترين أي مصير ينتظر سقراط بدوره).

منذ سقراط، تركزت الحياة الثقافية في أثينا. لكن لا بد من تسجيل تحول جذري في طبيعة المشروع الفلسفي؛ يفصل سقراط عن مرحلة ما قبله.

وهنا لا بد، قبل تناول سقراط، من الحديث عن السفسطائيين، وهم الذين كانوا يَطبعون الصورة الثقافية لمدينة أثينا قبل عصر سقراط.

اسحبي الستارة! ان تاريخ الفكر هو دراما مسرحية من عدة فصول.

الإنسان مركز كل شيء

منذ ٤٥٠ ق.م، أصبحت أثينا العاصمة الثقافية للعالم اليوناني. وهكذا عرفت الفلسفة منعطفا جديدا.

فقد كان فلاسفة الطبيعة علماء يهتمون بالتحليل الفيزيائي للعالم، وبهذه الصفة، يحتلون مكانا مهما في تاريخ العلوم. لكن دراسة الطبيعة، استبدلت في أثينا، بدراسة الإنسان وموقعه في المجتمع.

وشيئا فشيئا بدأ شكل من أشكال الديمقراطية، يرى النور. وكان أحد الشروط الضرورية لإقامة الديمقراطية، أن يصبح الشعب مستنيرا ليستطيع المساهمة في المشروع الديمقراطي.

ولقد رأينا في أيامنا هذه، كيف تحتاج ديمقراطية فتية الى نوع من

التربيـة الشـعـبيـة. عند الإثينيين، كـان من الأسـاس اتقـان فن الحـوار (الجدل).

وبسـرعـة غـمـرت أثينا مـوجـة من أسـاتذة الفلسـفـة القـادمـين من المستعمرات الإغريقية، الذين أطلقوا على أنفسهم لقب *«السفسطائيين»* ويعني تعبير *«سفسطائي»* رجلا مثقفا وكفوءا. وبسـرعـة أيضـا، أصبح تعليم المواطنين الأثينيين، مصدر رزق السفسطائيين.

ثمـة رابط مـشـترك بين السـفـسطائيين وفـلاسـفـة الطبيـعـة: نقـدهـم للميـثولوجيا. لكنهم في الوقت ذاته، كانوا يرفضـون مـا يبدو لهم مـجرد تأمل دون مـوضـوع مـحـسـوس. وكـانوا يعـتـقـدون بأنـه حـتى لو وجـدت إجابات عن الأسئلة الفلسفية، فإن الإنسان لا يستطيع الوصول الى يقين فيما يخص ألغاز الطبيعة والكون. وجهة النظر هذه، هـي ما يسمى في الفلسفة بـ «الإرتيابية».

لكن إذا لم يكن ضمن قدرتنا حل ألغاز الطبيعة، فإننا نعرف، على الأقل، أننا بشـر علينا أن نتـعلم كـيف نعـيش مـعـا. ولهـذا اهتم السفسطائيون بالإنسان وموقعه في المجتمع.

«الإنسـان هو مـقـيـاس كل شيء» هذا مـا كـان يقـوله السـفـسطائي *بروتاغوراس* (٤٨٧ – ٤٢٠ ق.م). وكان يقـصد بذلك ان الصح والخطأ، الخير والشر، كلها يجب أن تحدد بحسب حاجات الكائن البشري.

وعندما سئل عما إذا كان يؤمن بآلهة الإغريق اكتفى بالإجابة: «انها مسألة دقيقة، وحياة الإنسان قصيرة». ان الذي لا يستطيع ابداء رأيه بوضـوح حـول وجـود أو عـدم وجـود اله، يسـمى *«اللا ادري»* ومـذهـبـه *«اللاادرية»*.

كان السفسطائيون يحبون التجول في العالم، ومقارنة أنماط متعددة من الحكومات. فلاحظوا فوارق ضـخـمة في العادات، والتقاليد، وقوانين المدن. ومن هنا أطلقوا الجدل حول ما حددته الطبيعة، وما حدده المجتمع من جهة أخرى. وأرسوا بذلك، قواعد نقد اجتماعي، في الديمقراطية الاثينية.

بهذه الطريقة استطاعوا أن يوضحوا أن تعبير «الحياء الطبيعي» لا يتفق دائما مع الواقع. ذاك أنه اذا كان من «الطبيعي» أن تكون «حيياً» فذاك يعني أنه شيء فطري. فهل هو كذلك في الواقع أم أنه تأثير المجتمع؟ الجواب يبدو بسيطا، بالنسبة لأي شخص سافر قليلا: ليس من «الطبيعي» أو «الفطري» أن نخاف الظهور عراة. وليس الخجل أو عدمه إلاّ مفاهيم مرتبطة بعادات وأعراف المجتمع.

كما ترين، أثارَ السفسطائيون جدلا كبيرا داخل المجتمع الاثيني، بإنكارهم وجود «معايير» بالمعنى الدقيق، فيما يخص الخير والشر. في حين حاول سقراط –على العكس منهم– أن يبرهن على أن بعض المعايير مطلقة، ومناسبة للجميع.

من هو سقراط؟

لا شك في أن سقراط (٤٧٠ – ٣٩٩ق.م) هو الشخصية الأكثر اشكالية في تاريخ الفلسفة. لم يكتب سطرا واحدا، ومع ذلك فإنه واحد من أكثر الذين أثروا في الفكر الأوروبي. وقد ساهم في ذلك، موته التراجيدي.

نعرف أنه ولد في أثينا، وأنه كان يمضي معظم وقته مع الناس الذين يلتقيهم في الشارع، أو في ساحة السوق. اذ كان يكرر عادة: «ليس بإمكان الأشجار في الجبل أن تعلمني شيئا.» كما أنه كان يمتلك قدرة البقاء ساعات طويلة غارقا في تفكيره.

في حياته، أُعتبر واحدا من أكثر الأشخاص غموضا. وبعد موته أُعتبر مؤسّسا لعدة مدارس فلسفية مختلفة فيما بينها. ذاك أن غموضه، وسريته، سمحا لاتجاهات فلسفية مختلفة، أن تدعي نسبتها اليه.

ويعود الفضل في معرفتنا لحياة سقراط الى تلميذه *أفلاطون*، الذي أصبح بدوره فيلسوفا كبيرا. اذ كتب عدة *محاورات*، أو حوارات فلسفية، مُنطلقا فيها سقراط.

لكن، عندما يضع أفلاطون كلاما على لسان سقراط، فإننا لا نمتلك أية وسيلة للتاكد مما اذا كان قد قال ذلك حقا. من الصعب التمييز بين دروس سقراط، وكلام أفلاطون نفسه. انها مشكلة تبرز كلما كنا لا نملك أثرا مكتوبا للشخصية التاريخية. وذلك يحصل أكثر مما تتصورين. فالمثل الأكثر شهرة هنا هو مثل السيد المسيح. فكيف نتأكد أن «المسيح التاريخي» قد قال الأقوال ذاتها التي ينقلها عنه متى أو لوقا؟ وها نحن في حالة مشابهة أمام «سقراط التاريخي».

لكن، معرفة سقراط، كما كان في الحقيقة، ليست على درجة كبيرة من الأهمية. لأن ما ألهم المفكرين الأوروبيين طوال ٢٥٠٠ سنة هو سقراط كما نقله أفلاطون.

فن الحوار

يكمن سر الفعالية لدى سقراط في أنه لم يكن يحاول تعليم الناس. بل على العكس، كان يعطي الانطباع بأنه يريد أن يتعلم من محدّثه. لم يكن يعمل كأستاذ رديء ... على العكس كان يناقش *ويجادل*.

مؤكد، أنه لو اكتفى بمحاورة الناس لما أصبح فيلسوفا مشهورا. ولكن ... لما كان حكم عليه بالإعدام، أيضا. في الواقع، كان يبدأ بطرح الأسئلة. *متظاهرا* بأنه لا يعرف شيئا، ثم يرتب الحوار بشكل يجعل المحاور يكتشف شيئا فشيئا مثالب تفكيره، الى أن يجد نفسه أخيرا محصورا بحيث يضطر الى التمييز بين الخطأ والصواب.

يقال ان أم سقراط كانت قابلة، وإنه كان يقارن بين الفلسفة وفن توليد النساء. فليست القابلة هي التي تضع المولود، وإنما هي التي تقدم مساعدتها، كي يخرج حيا الى الحياة. هكذا، تتمثل مهمة سقراط في «توليد» العقول أفكارا صحيحة. اذن فالمعرفة الحقيقية لا تأتي إلا من داخل كل منا دون أن يستطيع أحد قذفنا بها.

هنا أحرص على التحديد: ان ولادة طفل هي شيء طبيعي تماما. كذلك فإن بإمكان كل الناس التوصل الى الحقائق الفلسفية، اذا قبلوا أن

يستعملوا عقولهم. فعندما يبدأ الإنسان بالتفكير، يجد أجوبته داخل نفسه.

لقد كان سقراط، بتظاهره عدم المعرفة، يجبر الناس على التفكير. كان يعرف أن يلعب دور الجاهل أو على الأقل دور من هو أكثر غباء. وهذا ما يسمى «سخرية سقراط» وبذا كان في مقدوره أن يكشف مواطن الضعف في تفكير الاثينيين. وكثيرا ما كان يحصل هذا المشهد في وسط السوق أي بين الناس. حيث كانت مصادفة سقراط في الشارع تعني خطر الوقوع في فخ السخرية، والتحول الى اضحوكة المدينة.

ولذا لا يمكن أن نعجب من كون الكثيرين باتوا يجدونه مزعجا ومنفّراً، خصوصاً أولئك الذين كانوا يمتلكون سلطة ما في المجتمع.

«تشبه أثينا حصانا كسولا. وأنا أشبه ذبابة تحاول ايقاظها وابقاءها حية.» هكذا كان يقول.

(فما الذي يفعله الناس بذبابة كبيرة تلسعهم؟ هل بإمكانك أن تجيبيني يا صوفي؟)

صوت الهي

غير أن هدف سقراط في لسعه الدائم لمواطنيه، لم يكن ازعاجهم. بل انه كان مدفوعا بشيء لا يترك له خيارا. كان يؤكد أنه يسمع «صوتاً الهيا» داخله. وكان يرفض، على سبيل المثال، المشاركة في حضور تنفيذ حكم الإعدام بحق مواطن. كذلك كان يرفض كشف أسماء المعارضين السياسيين. فكلفه ذلك، في النهاية، حياته.

في عام ٣٩٩ ق.م اتهم بأنه «أدخل آلهة جديدة» و«أفسد الناشئة». وأدين بأكثرية ضئيلة، أمام محكمة من خمسمئة عضو.

كان بإمكانه أن يطلب الرحمة. بل كان بإمكانه على الأقل أن ينجو بنفسه لو قبل مغادرة أثينا. لكنه لو فعل لما كان سقراط. كان يضع ضميره والحقيقة في موقع أهم وأعلى من حياته. مُؤكِّدًا أنه كان يعمل

لأجل الصالح الإجتماعي. ومع هذا حُكم عليه بالإعدام. وبعد وقت قليل جرع كأس السم بحضور أقرب أصدقائه. ووقع ميتا.

لماذا يا صوفي؟ لماذا كان على سقراط أن يموت؟ ومنذ ٢٤٠٠ سنة حتى اليوم لا يزال السؤال مطروحا؟ لكنه ليس الرجل الوحيد الذي خالف التقليد ودفع حياته ثمنا. لقد ذكرت السيد المسيح، وهناك نقاط مشتركة كثيرة بين المسيح وسقراط. سأذكر لك بعضها:

لقد اعتبرهما معاصروهما شخصيتين ملغزتين. وكلاهما لم يتركا أثرا مكتوبا على رسالتيهما. مما يجعلنا نعتمد كليا على الصورة التي نقلها الينا تلامذتهما. ونعرف أن كليهما كانا خبيرين في فن الحوار. وانهما كانا يتحدثان بثقة عالية تجعل الآخر، إما أن يقع تحت تأثيرهما، وإما مستفزاً. والأهم أن كلا منهما كان يشعر بأنه يحمل الى الناس شيئا أكبر منهم. كانا يتحديان النظام القائم، وينتقدان الظلم وغياب العدالة، واساءة استعمال السلطة، بكل أشكالها، وبدون الخوض في التفاصيل: كلفهما ذلك حياتهما.

كذلك تتشابه محاكمتا المسيح وسقراط، بشكل مؤثر. كل منهما كان بإمكانه طلب العفو، وانقاذ حياته. لكنهما كان يعتبران انهما مكلفان برسالة، يخونانها اذا لم يمضيا الى النهاية.

كذلك، فإن كيفية مواجهتهما الموت بهدوء وكرامة، لا حدود لهما، أدى الى جمع آلاف المؤمنين بعد موتهما.

وإذا كنت أشير الى هذه التشابهات، فليس لأقول أنهما متشابهان. بل لأن كلا منهما كان يحمل رسالة يؤديها، غير منفصلة عن شجاعته الشخصية.

ورقة جوكر في أثينا

آه. سقراط! نحن لم ننه الكلام عنه. يا صوفي تحدثنا عن منهجه. ولكن ماذا بشأن مشروعه الفلسفي؟

عاش سقراط في المرحلة ذاتها التي عاشها السفسطائيون. ومثلهم

كان يهتم بالإنسان والحياة البشرية أكثر من اهتمامه بالقضايا التي طرحها الطبيعيون. وبعده بقرون، أعلن فليسوف اغريقي أخر، هو شيشرون أن سقراط «أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض، وتركها تعيش في المدن، تدخل البيوت، مجبرة الناس على التفكير بالحياة، بالتقاليد، بالخير والشر».

لكن سقراط يختلف عن السفسطائيين في نقطة أساسية: لم يكن يعتبر نفسه سفسطائيا، أي رجلا مثقفا وعالما. مما يجعله يرفض – على عكس السفسطائيين – تقاضي مالاً مقابل تعليمه. لم يكن يعتبر نفسه فيلسوفا بالمعنى الحقيقي للكلمة. (فيلو – زوف Philo - Sophe) تعني «الذي يبحث عن بلوغ الحقيقة.»

هل أنت جالسة بتنبه يا صوفي؟ مهم بالنسبة لبقية الدرس، أن تفهمي جيدا الفرق بين السفسطائي والفيلسوف. كان السفسطائيون يقبلون أخذ أجر لقاء تعليقاتهم المتراوحة في دقتها. وهؤلاء موجودون في كل زمان. وأذكر بالتحديد كل هؤلاء الأساتذة أو الذين يعطون دروسا، وهم إما مكتفون تماما بما يعرفون، وإما متبجحون بمعرفتهم لِكَمّ من الأشياء التي لا يملكون أدنى فكرة عنها في الحقيقة. ولا بد أنك التقيت بعضا من هؤلاء السفسطائيين في سنواتك القليلة ..... أما الفيلسوف الحقيقي يا صوفي، فشيء أخر. انه النقيض تماما. الفيلسوف هو الذي يعي دائما أنه يعرف القليل القليل، ولهذا السبب يحاول باستمرار أن يبلغ المعرفة الحقيقية. وسقراط كان واحدا من هؤلاء البشر الاستثنائيين، يعي أنه لا يعرف شيئا عن الحياة والعالم، والأهم أنه يتعذب حقيقة بسبب هذا الجهل.

الفيلسوف، اذن، هو واحد يعترف بأنه يفهم القليل، ويعاني من ذلك. ومن هذه الزاوية نجده يقدم دليلا على ذكائه لا يقدمه أولئك الذين يتبجحون بمعرفة كل شيء. ألم أقل لك أن *الأكثر ذكاءً هي التي تعرف أنها لا تعرف*.

سقراط يؤكد أنه لا يعرف إلا شيئا واحدا: «*انه لا يعرف*». احفظي جيدا هذه القاعدة. ذاك أن هذا الاعتراف نادر حتى عند الفلاسفة. زد

على انه من الخطر إعلان ذلك على العامة، لأنه قد يكلف صاحبه حياته. فالذين يطرحون الأسئلة هم دائما الأكثر خطرا. أن تجيب ليس شيئا مريكا. لأن سؤالا واحدا يمكن أن يفجر ما لا يفجره مئة جواب.

هل سمعت عن ملابس الإمبراطور الجديدة؟ لقد كان عاريا كدودة، لكن أحدا من معاونيه لم يجرؤ على قول ذلك. فجأة صرخ طفل: انه عارٍ. هذا طفل جريء يا صوفي. مثله تجرأ سقراط وأعلن عاليا كم هي معرفتنا للأشياء ضئيلة، نحن البشر. ألم نشر قبلا الى مدى التشابه بين الأطفال والفلاسفة.

لنكن أكثر دقة: تواجه البشرية عددا من الأسئلة، التي لا تجد أي جواب كاف. اذن فأمامنا خيار: أما أن نخدع أنفسنا كسائر الناس، بالتظاهر بمعرفة ما يجب معرفته، وأما أن ننغلق على القضايا الكبرى ونتخلى نهائيا عن الأمل في التقدم. هكذا تنقسم البشرية الى قسمين: في الغالب، يتظاهر الناس بمعرفة كل شيء، أو يقفون لا مبالين. (هذان النوعان يدبان ويزحفان في عمق فروة الأرنب. أتذكرينها؟) انه أشبه باقتسام أوراق اللعب بين لاعبين: هنا الأوراق الحمراء وهناك السوداء. لكن من وقت لآخر يبرز جوكر: أي ورقة ليس قلبا (كبّا) ولا مربعا (ديناري) ولا زهرة نفل (سباتي) ولا رمحا قصيرا (بستوني). كان سقراط واحدا من هؤلاء الجواكر في اثينا. لا يدّعي معرفة كل شيء، ولا هو مبال. كان يعرف فقط انه لا يعرف شيئا. هكذا أصبح فيلسوفا، أي شخصا لا يتوقف عن الاهتمام؛ شخصاً يبحث دون الكل للوصول الى المعرفة الحقيقية.

يروى أن رجلا سأل عرافة دلفي، عمن هو الرجل الأكثر ذكاء في أثينا، وأجابته العرافة بأنه سقراط. لكن هذا الأخير تعجب كثيرا عند سماعه النبأ (أعتقدُ أن ذلك أضحكه!) وذهب الى المدينة يبحث عن رجل يعتبر نفسه، ويعتبره الآخرون، شديد الذكاء. لكن هذا الرجل عجز عن اعطاء أجوبة وافية عن الأسئلة التي طرحها سقراط. عندها اضطر فيلسوفنا الى الاعتراف بأن العرافة قد تكون على حق.

كان يهمه جدا، ايجاد قاعدة صلبة لمعرفتنا، وبرأيه أن هذه القاعدة

تكمن في عقل الإنسان. ايمانه هذا، يجعل منه فيلسوفا «*عقلانيا*».

الرؤية الصحيحة للأشياء تقود الى فعل صحيح

لقد ذكرت سابقا أن سقراط كان يدعي أنه سمع صوتا الهيا بداخله. وان هذا «الضمير» يقول له ما هو الصواب. *الذي يعرف الخير يفعل الخير أيضا*. هذا ما كان يكرره معتبرا أن الرؤية الصحيحة للأشياء تقود الى الأفعال الصحيحة. فالذي يفعل الصواب هو فقط «الإنسان الصحيح» وعندما نتصرف بشكل سيىء، فذاك لأننا على خطأ. لذلك يصبح من المهم استكمال معارفنا. وكان يحرص على أن يحدد نهائيا وبوضوح كل ما هو صحيح وكل ما هو خاطىء. وعلى عكس السفسطائيين اعتقد بأن القدرة على التمييز بين الخير والشر تكمن في عقل الإنسان، لا في المجتمع.

قد يكون من الصعب عليك هضم كل هذا يا صوفي. سأقوم بمحاولة جديدة: بالنسبة لسقراط، من المستحيل أن يكون الإنسان سعيدا اذا تصرف على عكس قناعاته. والذي يعرف كيف يكون سعيدا يفعل كل شيء ليكونه. لذلك فإن الذي يعرف الصواب يفعل الصواب. اذ من هو الإنسان الذي يتمنى أن يكون بائسا؟

وأنت. ما رأيك بذلك؟ هل يمكن لك أن تكوني سعيدة، اذا كنت تفعلين دائما ما تشعرين في أعماقك بأنه غير صحيح؟ هناك من يمضون أوقاتهم في السرقة والكذب والنميمة والافتراء على الآخرين. ألا تعتقدين انهم لا يعرفون في أعماقهم ان هذا سيىء، أو أنه غير مبرر على الأقل؟ أتعتقدين أن هذا يجعلهم سعداء؟

سقراط لم يكن يعتقد ذلك.

عندما انتهت صوفي من قراءة الرسالة التي تتحدث عن سقراط، خبأتها بسرعة في العلبة وخرجت من كوخها، تريد أن تكون في المنزل قبل أن تعود أمها من رياضتها، كي لا تضطر لأن تقول أين كانت.

اضافة الى أنها قد وعدت بغسل الأطباق.

لم تكد تفتح الماء حتى دخلت والدتها ومعها كيسان كبيران، من المؤن، وضعتهما على الطاولة وهي تقول:

– صوفي أنت لست في وضعك الطبيعي.

دون أن تدري السبب، أجابت صوفي مباشرة:

– انه سقراط

– *سقراط*

– المؤسف، انه اضطر أن يكفر عن ذلك بموته .. تابعت صوفي الغارقة في أفكارها.

– اسمعي يا صوفي. أنا لم أعد أعرف بماذا أفكر.

– سقراط، كذلك، لم يكن يعرف إلاّ شيئا واحدا، هو انه لا يعرف. ومع ذلك كان الرجل الأكثر ذكاء في أثينا.

صمتت الأم ذاهلة، ثم حاولت أن تسأل:

– أهو شيء علموك اياه في المدرسة؟

هزت صوفي رأسها بعنف

– اف .. لا. ليس هناك .. أنا لا أتعلم شيئا مهما في المدرسة ألا ترين أن الفارق الكبير بين معلم المدرسة والفيلسوف الحقيقي يكمن في أن المعلم يعرف كمّاً من الأشياء لا يتوقف عن تعليمها لطلابه بالقوة، بينما يحاول الفيلسوف أن يجد اجابات عن الأسئلة التي يطرحها بالمشاركة مع تلاميذه.

– آه. هل تريدين أن تحدثيني أيضا عن قصة الأرنب الأبيض. أتعرفين؟ بتُّ أستعجل لقاء صديقك. يبدو لي انه شخصية غريبة.

توقفت صوفي لحظة عن غسل الأطباق، استدارت نحو امها والفرشاة بيدها:

– ليس هو الغريب. انه أشبه بذبابة الخوذي التي تحاول أن تزعج الآخرين، لتجبرهم على الخروج من كسلهم الفكري.

– حسنا. هذا جيد. ولكن من يظن نفسه هذا؟

خفضت صوفي رأسها وتابعت غسل الأ طباق.

– انه ليس عالما ولا مدعيا، بل يحب فقط التوصل الى معرفة حقيقية. هذا هو الفارق بين الجوكر وسائر أوراق اللعب.

– قلت «جوكر»

هزت رأسها بنعم. متابعة:

ألم تسائلي نفسك لماذا يوجد هذا العدد من المربعات والرماح، والقلوب والنفلات في أوراق اللعب، بينما لا يوجد إلاّ جوكر واحد؟

– (ويعدين) ماذا تخرفين؟

– وأنت أيضا. ألا تكفّين عن الأسئلة؟

كانت الأم قد انتهت من ترتيب مشترياتها، فأخذت صحيفتها وذهبت الى قاعة الجلوس. وأحست صوفي أنها صفقت الباب خلفها بشيء من العنف.

أما هي فما ان انتهت من الأطباق، حتى صعدت الى غرفتها. كانت قد وضعت المنديل الأحمر فوق الخزانة قرب علبة الليغو، فتناولته، وتفحصته بعناية. هيلد .....

أثينا

... عدة مبان عالية، ارتفعت
مكان الأطلال ...

في أول السهرة، ذهبت الأم لتزور احدى صديقاتها. وما ان خرجت حتى نزلت صوفي الى الحديقة، فإلى كوخها داخل العيص العتيق. هناك كان في انتظارها طرد كبير. بسرعة، مزقت الورقة واذا هو شريط فيديو.

شريط فيديو! لتركض الى المنزل. ولكن كيف عرف الفيلسوف ان لديهم جهاز فيديو؟ ماذا تراه يحمل هذا الشريط؟

وضعت الشريط في الجهاز، فظهرت على الشاشة مدينة كبيرة. فهمت صوفي مباشرة انها أثينا، لأن الصورة بدأت بـ «زووم» طويل على الاكروبول الذي كثيرا ما شاهدته على التلفزيون.

كانت الصورة حية، فبين الأطلال يعج السياح بملابسهم الخفيفة، وكاميراتهم المدلاة في أعناقهم، حتى إن بينهم واحدا يرفع لافتة، لافتة؟! كأنها ... ايه ... على هذه اللافتة اسم «هيلد»!

بعد قليل ظهرت صورة رجل في الأربعين، قصير القامة قليلا، ذي لحية سوداء مرتبة، وعلى رأسه طاقية زرقاء. لم يلبث ان نظر مباشرة الى الكاميرا قائلا:

– مرحبا بك في أثينا، صوفي. لا شك أنك حزرت أنني البرتو كنوكس صاحب الرسالة. اذا لم تكوني قد حزرت بعد، فإنني أكرر أن الأرنب الأبيض قد خرج من قبعة الكون المجوفة. نحن الآن في الاكروبول. وهي كلمة تعني «قَصْرُ المدينة» أو «المدينة على المرتفعات». هنا عاش البشر منذ العصر الحجري، بفضل الموقع المميز للمدينة، فارتفاعها يجعل الدفاع عنها أمرا ميسورا، كما انه يشرف على منظر جميل لواحد من أفضل مرافىء البحر المتوسط. وشيئا فشيئا، راحت أثينا تنمو على خاصرة الجبل، وظل الاكروبول قلعة ومعبدا. في النصف

الأول من القرن الخامس ق.م، حصلت حرب شرسة مع الفرس. وفي عام ٤٨٠ ق.م، دخل ملك الفرس Xerxes أثينا، فنهبها، وأحرق كل المباني الخشبية على الاكروبول. لكن الفرس عادوا فهُزموا في العام التالي، ليشكل هذا التاريخ بداية العصر الذهبي لأثينا. فأعيد بناء الاكروبول بشكل أكثر فخامة وجمالا، وأصبح مخصصا للعبادة فقط. في هذه المرحلة بالذات، كان سقراط يتجول في الشوارع وساحة السوق، ويتحاور مع الأثينيين. مما سمح له بأن يتابع عن قرب إعادة بناء الأكروبول، وكل المباني المهيبة المحيطة بنا. أي موقع كان هذا المكان! ورائي ترين المعبد الأكبر، ويسمى البارتيون أي «مسكن العذراء»، وقد بني تكريما للآلهة أثينا، انه مبنى كبير من الرخام، ليس فيه أي خط مستقيم حيث إن الزوايا الأربع مدورة قليلا، مما يعطي البناء حيوية أكثر. كذلك فإنه لا يبدو ثقيلا رغم مبانيه الضخمة، ذاك أن كل هندسته تستند الى ايهام بصري .. الأعمدة منحنية قليلا نحو الداخل، ويمكن أن تشكل هرما بعلو ألف وخمسمئة متر، اذا امتدت لتتلامس في نقطة واحدة فوق الهيكل. الشيء الوحيد الذي كان موجودا داخل هذا المبنى الضخم هو تمثال للآلهة أثينا بعلو اثني عشر مترا. أما الرخام الأبيض الذي كان مطليا بعدة الوان صارخة، فقد استخرج من جبل يقع على بعد ستة عشر كيلومترا ...

جلست صوفي متيبسة. أهو فعلا أستاذ الفلسفة، يحدثها على شريط الفيديو؟ هي لم تشاهده إلا خيالا، وللمحة في الظلام ... لتستطيع التعرف إليه، في الرجل الذي يحدثها من على قمة الاكروبول.

بعدئذ انتقل بمحاذاة واجهة المعبد الطويلة، والكاميرا ترافقه، ثم اتجه نحو طرف الجبل وأشار بإصبعه الى المشهد المجاور .. لتقترب الكاميرا (زووم) من هيكل قديم على أقدام الاكروبول.

– هذا المسرح القديم، مسرح ديونيسيوس –تابع الرجل ذو الطاقية– والأرجح انه أقدم مسرح في أوروبا. وعليه، قُدمت، في أيام سقراط، التراجيديات الكبرى *لاخيليوس سوفوكليس و يوربيديوس*. لقد ذكرت لك سابقا مأساة الملك المسكين أوديب. لكن مسرحيات أخرى، ملَهاة، كانت

تقدم هنا أيضا. وكان أشهر كتاب الكوميديا يدعى *اريستوفانوس* وقد كتب مسرحية كوميدية تمتدح الرجل الاثيني الغريب، سقراط. ترين هناك في آخر المسرح، الجدار الحجري الذي كان الممثلون يقفون عنده. كانت يطلق عليه تسمية «سكين» والتي تولدت منها كلمة «سين» باللغات اللاتينية والتي تعني «مشهد». كذلك فإن كلمة «مسرح»، تأتي، في هذه اللغات، من كلمة اغريقية بمعنى «انظر». لكننا سنعود الآن الى الفلسفة. صوفي، لندُرْ حول البارتيون، ولننزل الى المدخل ....

جال الرجل القصير القامة في البارتيون، مشيرا الى عدة معابد أقل أهمية، على يمينه. ثم راح ينزل الممرات بين أعمدة عالية. وعند وصوله الى أسفل الاكروبول، صعد الى أكمة صغيرة، وقال، وهو يشير بإصبعه الى أثينا:

– اسم هذه الأكمة التي أقف عليها *اريوباج*، هنا كانت المحكمة العليا في أثينا تعلن أحكامها في القضايا الجرمية. وبعدها بقرون، وقف القديس بولس، يبشر بالمسيحية، مرددا عبارات السيد المسيح – سنعود اليه في مناسبة قريبة –. في الأسفل، والى اليسار ترين أطلال سوق أثينا. ما عدا المعبد الكبير المكرس لـ (*هيفايستوس*)، حيث لم يتبق منه إلا بضعة ألواح من الرخام. لننزل الآن ...

بعد لحظة، عاد معبد أثينا المهيب، يطل من بين الأنقاض، مشرئبا في الفضاء، وعلى شاشة تلفزيون صوفي. ويظهر الفيلسوف جالسا على أحد الحجارة، وجهه للكاميرا، وهو يقول:

– نحن الآن أمام ساحة السوق القديمة. ليس هناك شيء يذكر أمامنا اليوم. لكن المكان كان محاطا قديما بعدة هياكل فخمة، بمحاكم، ومبان عامة أخرى، بمخازن، بقاعة موسيقى وحتى قاعة جيمنازيوم ... حيث تحيط كل هذه بالمكان، وفق شكل هندسي مربع تماما ... هذا المكان المهدم، هو مهد الحضارة الأوروبية كلها. وكلمات كثيرة من مثل: «السياسة»، «الديمقراطية»، «الاقتصاد»، «التاريخ»، «البيولوجيا» «الفيزياء»، «الرياضيات»، «المنطق» «اللاهوت»، «الفلسفة»، «علم النفس»، «المنهج»، «النسق»، «الفكر» الخ ..... جاءتنا من شعب صغير كانت

حياته تتركز حول هذه الساحة.

هنا كان سقراط يتنزه، ويتحدث الى الناس الذين يلتقيهم، ربما أوقف عبدا يحمل جرة زيت زيتون، ليطرح عليه سؤالا فلسفيا. ذاك أن العبد، بنظر سقراط، يمتلك القدرة ذاتها على التفكير، التي يمتلكها الرجل النبيل. ربما كان يتناقش بحدة مع أحد سكان المدينة، أو يتحدث بصوت خافت الى تلميذه أفلاطون. انه لمن الغريب أن نفكر الآن بكل هذا. اننا نتابع الحديث في الفلسفة «السقراطية» أو «الافلاطونية» لكنه احساس مختلف أن نكون «سقراط» أو «أفلاطون».

كانت صوفي تجد أنه من الغريب فعلا أن نتخيلهما في موقعهما، وسياقهما. لكن ما يساوي ذلك غرابة، هو أن يتوجه اليها الفيلسوف، فجأة، عبر شريط فيديو، يحمله كلب طريف الى كوخها السري.

أخيرا، نهض الفيلسوف، من على قطعة الرخام، واستأنف بصوت منخفض:

– يجب أن أتوقف هنا. صوفي. لقد حرصت على أن أقدم لك أطلال أثينا الاكروبول، وساحة السوق القديم. لكنني لست واثقا من أنك استطعت أن تدركي العظمة التي كان عليها المكان قديما، لذلك يغريني أن أمضي الى ما هو أبعد من الكلام، متجاوزا حقوقي. لكنني أثق بك، كي يبقى الأمر سرا بيننا، وعلى أية حال، فسيعطيك ذلك فكرة ... صمت الرجل محدقا في الكاميرا لفترة طويلة، ثم ظهرت على الشاشة صورة أخرى، ارتفعت فيها مبان عالية، مكان الأطلال. لكأنما كل هذه قد بنيت من جديد، بفعل خاتم سحري. في البعيد بدا الاكروبول لكنه كان ملتمعا جديدا مثله مثل المباني المحيطة بساحة السوق، المطلية بالذهب، والملونة بألوان صاخبة. كذلك فإن رجالاً بملابس اغريقية (توجة) ملونة يتنزهون في الساحة المربعة، بعضهم يحمل حربة، وبعضهم الآخر ابريقا على رأسه، في حين يتأبط واحد لفة من ورق البردى. تعرفت فيه صوفي الى أستاذها. انه يضع طاقيته ذاتها على رأسه. لكنه يلبس مثل الآخرين ثوبا اغريقيا (توجة) أصفر. تَوجّه الى صوفي مع ثبوت الكاميرا على المشهد:

– اذن. ها نحن في أثينا القديمة. أرغب لو تأتين هنا شخصيا، هل تفهمين؟ نحن في العام ٤٠٢ ق.م أي قبل ثلاث سنوات من موت سقراط. آمل أن، تتمني هذه الزيارة النادرة. فلم يكن ادخال كاميرا فيديو، أمرا سهلا.

أحست صوفي بالنشوة. كيف استطاع هذا الرجل أن يتواجد في أثينا قبل ٢٤٠٠ سنة؟ كيف يمكن لها أن تشاهد تسجيل فيديو، لمرحلة بهذا القدم؟ انها تعرف جيدا أن الفيديو لم يكن موجودا في تلك الأيام، أهو فيلم اذن؟ لكن كل المباني الرخامية تبدو حقيقية! هل أعيد بناء كل المدينة والاكروبول لمجرد تصوير فيلم، علما بأن كل الديكورات كانت مهدمة؟! وكل هذا فقط ليحدثوها عن أثينا؟

نظر اليها الرجل ذو الطاقية، من جديد:

– أترين الرجلين اللذين يتناقشان هناك تحت الأعمدة؟

كان هناك رجل مسن قليلا يرتدي (توجة) في حالة سيئة، له لحية طويلة مشعثة، أنف أفطس، عينان زرقاوان براقتان، وذقن طويلة معقوفة، الى جانبه شاب جميل.

– انهما سقراط وتلميذه أفلاطون. هل فهمت الآن، صوفي؟ لحظة. سأقدمهما لك؟

اتجه استاذ الفلسفة نحو الرجلين الواقفين تحت خيمة عالية. وعند اقترابه منهما، رفع طاقيته، وانحنى مرددا كلمات لم تفهمها –لا بد انها كلمات اغريقية– قبل أن يستدير الى الكاميرا قائلا:

– قلت لهما انك فتاة ترغب بالتعرف اليهما. ويرغب أفلاطون أن يطرح عليك بضعة أسئلة، لتفكري بها. لكن علينا أن نفعل ذلك قبل أن يمسك بنا الحراس.

أخذ قلب صوفي يخفق، اذ إن الشاب تقدم بضع خطوات ونظر الى الكاميرا:

– مرحبا بك في أثينا يا صوفي.

(قال بصوت هادئ)

ثم تحدث تاركا فسحة صمت قصيرة بين الكلمة والأخرى:

– اسمي أفلاطون، وسأعطيك أربعة واجبات:

أولا عليك أن تتساءلي كيف يستطيع صانع الحلوى أن يصنع خمسين كعكة متشابهة تماما؟

ثم تتساءلين لماذا تتشابه كل الجياد؟

بعدها تحاولين معرفة ما اذا كان للإنسان نفس خالدة

وأخيرا ما اذا كان الرجال والنساء متساوين عقليا.

حظا سعيدا.

بعد ثانية، اظلمت الشاشة وحاولت صوفي تسريع الشريط، لكن لم يعد عليه شيء.

حاولت أن تجمع أفكارها، لكنها لم تكن تصل الى التركيز على فكرة، حتى تنتقل بسرعة الى أخرى، قبل أن تنتهي من أمر الأولى.

أن يكون أستاذ الفلسفة، أستاذا مختلفا، خاصا، لشيء تأكدت منه صوفي منذ فترة، ولكن أن يمضي به الأمر إلى حد استعمال وسائل تعليمية تتحدى كل القوانين الطبيعية، فذاك ما تجده صوفي تجاوزا كبيرا.

هل الرجلان اللذان رأتهما على التلفزيون هما حقا سقراط وأفلاطون؟ الجواب هو النفي بكل تأكيد. ولكن المؤكد أن ما رأته ليس رسوما متحركة. سحبت الشريط من الجهاز، وصعدت الى غرفتها، حيث خبأته قرب قطع الليغو على الخزانة.

ثم ارتمت على السرير منهكة ولم تلبث أن غفت.

بعد ساعات دخلت الأم الى الغرفة، لتهزها قائلة:

– ماذا بك يا صوفي؟

– اف ...

– لقد نمت بثيابك.

بالكاد فتحت احدى عينيها، مهمهمة:

– لقد ذهبت الى أثينا ...

لم تستطع أن تضيف كلمة أخرى، قبل أن تستدير وتغرق في النوم من جديد.

أفلاطون

... حنين لإيجــــاد المسكن
الحقيقي للروح ...

في صباح اليوم التالي، استيقظت صوفي مذعورة، نظرت الى ساعتها، لم تكد الساعة تبلغ الخامسة، لكنها لا تشعر بالنعاس، لذلك استوت في سريرها.

لماذا لم تخلع ثوبها؟ ثم عاد كل شيء الى ذاكرتها، فقفزت، تصعد فوق كرسي وتنظر فوق الخزانة. كان شريط الفيديو لا يزال حيث وضعته. انها لم تحلم اذن، ليس كليا على أية حال.

ولكن، ألم تر سقراط وأفلاطون؟ آه لقد بدأ تاثير الأمور يصبح واضحا! ربما كانت أمها على حق عندما قالت لها انها على حافة الإعياء.

عبثا تحاول النوم من جديد! لماذا لا تذهب الى الكوخ، ربما يكون الكلب قد وضع فيه رسالة جديدة؟ نزلت السلم على رؤوس أصابعها، لبست حذاء الرياضة، وخرجت.

في الحديقة. كان كل شيء هادئاً وصامتاً باستثناء العصافير التي تزقزق متناجية، وتبعث على الابتسام. على العشب، يلتمع ندى الصباح كحبيبات من البلور.

فوجئت بأنها تلحظ من جديد، الى أي مدى يشكل العالم معجزة خارقة.

كانت الأرض لا تزال رطبة قليلا داخل الكوخ، وليس ثمة رسالة من الفيلسوف. فمسحت صوفي أحد الأغصان وجلست عليه.

تذكرت أن أفلاطون قد أعطاها، على شريط الفيديو، واجبا لتقوم به. أولا: كيف يستطيع صانع الحلوى أن يصنع خمسين كعكة متماثلة؟

فكرت طويلا، ووجدت أن الأمر ليس بالسهولة التي تصورتها. ففي

المرات القليلة التي حاولت فيها أمها أن تصنع قطعا صغيرة من الكعك، لم تكن أية واحدة منها مشابهة للأخرى. وبما انها لم تكن خبيرة بالحلوى، فإن الأمر كان يتخذ أحيانا منحى مأساويا. ولكن ... حتى الكعكات التي نشتريها من السوق، ليست متماثلة تماما، طالما أن الحلواني يجهزها واحدة واحدة. أفلتت من صوفي ابتسامة رضى، اذ تذكرت يوما اصطحبها فيه أبوها الى السوق، بينما كانت أمها تحضر كعكة الميلاد. وعندما عادا، وجدت صوفي حشدا من القطع على شكل رجال، موزعين على طاولة المطبخ. لم تكن التماثيل الصغيرة متقنة بشكل تام، لكنها كانت متشابهة الى حد ما. كيف حصل ذلك؟ لأن أمها استخدمت القالب ذاته في صنعها كلها.

أحست صوفي بالرضى عن تحليلها لقصة شخوص الحلوى، الى درجة جلعتها تعتبر أنها أنهت التمرين الأول من واجبها. عندما يجهز الحلواني خمسين كعكة متماثلة، فذاك لأنه يستعمل القالب ذاته فقط.

بعدئذ، نظر أفلاطون الى الكاميرا وسأل:

لماذا تتشابه كل الجياد؟

رغم ذلك فما من حصان يشبه الآخر، كما انه ما من انسان يشبه الآخر.

كادت أن تتجاهل هذا السؤال، لولا انها عادت ففكرت بأسلوب التحليل الذي اتبعته مع شخوص الكعك. لم يكن أي منها يشبه الآخر تماما، ذاك أن بعضها أكبر من بعض أو أكثر انخفاضا، ومع ذلك فالجميع يتفق على أنها «متماثلة تماما». ربما أراد أفلاطون أن يسأل: لماذا يظل الحصان حصانا، ولا يصبح أبدا حيوانا هجينا بين الحصان والخنزير، مثلا؟ ذلك أنه اذا كان بعض الجياد أبيض كالخراف، وبعضها أسود كالقردة، فإن شيئا مشتركا يظل يجمعها.

كم تتمنى أن ترى كيف يكون شكل الحصان، لو كانت له ثماني قوائم مثلا؟

لكنه من المؤكد أن أفلاطون لم يقصد أن يقول إن سبب ذلك كون الجياد قد صنعت في قالب واحد! ثم إنه طرح سؤالا مهما وصعبا

للغابة:

هل للإنسان نفس خالدة؟ هذا ما تشعر صوفي بالعجز عن الإجابة عنه. كل ما تعرفه أن الجثث الميتة تحرق أو تدفن تحت الأرض، وأنه ليس لها أي مستقبل بحد ذاتها. فإذا كان للإنسان نفس خالدة، يجب القبول بأنه مكون من جزئين مختلفين جذريا:

جسد يستهلك ويتفتت بعد عدة سنوات، وروح تتابع بشكل أو بآخر تطورات الجسد. لقد سمعت جدتها يوما تؤكد أن جسدها فقط هو الذي يشيخ، أما في داخلها فهي تشعر أنها لا تزال الشابة ذاتها التي كانتها يوما.

تعبير الفتاة الشابة هذا قاد صوفي الى السؤال الأخير: *هل الرجال والنساء متساوون عقليا؟* انه لمن الصعب جدا الإجابة عن هذا السؤال، لأنها تتوقف على ما يقصده أفلاطون بكلمة «عاقل».

عندها تذكرت ما قاله أستاذ الفلسفة عن سقراط، من انه يعتقد بأن كل الناس قادرون على اكتشاف حقائق فلسفية، شرط أن يستعملوا عقولهم. فالعبد يمتلك، برأيه، القدرة ذاتها التي يمتلكها الرجل الحر، على التفكير بالمسائل الفلسفية وايجاد الحلول لها. أما صوفي فمقتنعة بأن الرجال والنساء قد منحوا العقل بالتساوي.

واذ هي غارقة في تأملاتها هذه، سمعت قرقعة أغصان على أرض العيص، ولهاثا قويا يشبه صوت قاطرة بخارية. ثوان .. ودخل الكلب الكبير الأحمر، كوخها، كالمجنون، حاملا في فمه ظرفا كبيرا أصفر.

– هرمز! آه، شكرا. صرخت صوفي

وضع الكلب الظرف على ركبتيها فراحت تداعب رقبته، هامسة:

أنت كلب طيب يا هرمز! أتعرف؟

استكان الكلب لمداعباتها بضع دقائق، ثم، نهض عائدا على عقبيه ... لكن صوفي كانت تتبعه، هذه المرة ...

كان يدب بخطى ثقيلة باتجاه الغابة .. وهي تتبعه من بعيد. من وقت لآخر يلتفت اليها مهمدراً، لكن، بما لا يكفي لجعلها تخاف. أخيرا ستعرف أين يختبيء الفيلسوف. هل سيكون عليها أن تذهب حتى أثينا؟

ضاعف الكلب سرعته، وسلك ممرا صغيرا. وعندما فعلت مثله، ارتد اليها وراح ينبح بشدة ككلب حراسة حقيقي. لكنها لم تتراجع، بل استفادت من توقفه لتقترب بضعة أمتار.

عندها انطلق هرمز كالسهم، تاركا صوفي ذاهلة، وقد فقدت أي أمل باللحاق به. سمعته يبتعد في الغابة ... ثم ساد الصمت.

جلست على جذع شجرة كبيرة، في فسحة مشمسة، فتحت الظرف وراحت تقرأ:

أكاديمية أفلاطون

سعيد بلقياك من جديد يا صوفي، بعد زيارة أثينا، حيث استطعت أن أقدم لك أفلاطون، وتمكنت من التعرف الي. اذن فلنتابع دون تأخير.

كان أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ق.م) في التاسعة والعشرين من عمره، عندما جرع سقراط السم.

كان تلميذا له لسنوات طويلة، وتابع باهتمام كبير محاكمة أستاذه. انه لحدث رهيب أن تتمكن أثينا من الحكم بالموت على الرجل الأكثر نبوغا وسموا في المدينة. لم يطبع بتأثيره حياة أفلاطون كلها، فحسب وانما حدد كل توجه سلوكه الفلسفي.

كان موت سقراط، بالنسبة لأفلاطون، التعبير الأكثر حدة عن التناقض بين الظروف الموجودة واقعيا في المجتمع، وما هو حقيقي ومثالي. وكان أول عمل قام به أفلاطون كفيلسوف، هو نشر مرافعة سقراط. أي أقواله أمام جمهور القضاة.

أذكرك بأن سقراط لم يكتب شيئا. (وذلك على خلاف الفلاسفة الذين سبقوه، لكن أعماله لم تصلنا – للأسف – حيث تلفت وضاعت) أما أفلاطون، فنعتقد أن أعماله الرئيسة قد حُفظت كلهاحيث وصلتنا، اضافة الى مرافعة سقراط، عدة رسائل، وخمس وثلاثون محاورة فلسفية كاملة. ويعود الفضل في الحفاظ عليها، الى كون أفلاطون قد أنشأ مدرسته

الفلسفية خارج أثينا. وذلك في حديقة كانت تحمل اسم البطل الإغريقي *أكاديموس* ومن هنا سميت بـ «الأكاديمية». ومنذها عرف العالم عددا لا يحصى من «الأكاديميات» وها نحن نتحدث اليوم عن «الأكاديميين» والمواضيع «الأكاديمية» قاصدين بها الجامعية.

في أكاديمية أفلاطون، درست الفلسفة والرياضيات، والرياضة البدنية. وليست كلمة «درست» بدقيقة هنا. لأن صراع الأفكار والجدل كانا يشكلان الشرارة التي تشعل الأكاديمية، لذا لم يكن من المستغرب أن يكون الحوار هو النمط الأدبي المفضل لدى أفلاطون.

الحقيقي، الجميل والخيّر

في بداية دروسنا قلت لك إنه من المفيد التساؤل عن مشروع كل فيلسوف. من هنا أطرح عليك السؤال:

ما الذي كان يحاول أفلاطون اكتشافه؟

يمكننا القول – في الخطوط العريضة – إنه يهتم بالعلاقة بين ما هو أزلي، وغير فانٍ من جهة، وما هو آني وزائل من جهة أخرى، (اذن هو في صف ما قبل السقراطية!).

لقد اتفقنا على أن السفسطائيين وسقراط قد تخلوا عن فلسفة الطبيعة ليتجهوا نحو الإنسان والمجتمع، ولكن ذلك لا ينفي أنهم قد اهتموا أيضا بالعلاقة بين الأزلي والفاني، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالأخلاق، وبالمثل والفضائل الاجتماعية. ويمكننا تبسيط ذلك بالقول ان السفسطائيين كانوا يعتقدون بأن مفاهيم الخير والشر، الخطأ والصواب، هي نسبية، ويمكن أن تتغير حسب العصور. اذن. ليس ثمة شيء من المطلق في مسألة الخير والشر. هذا المفهوم بالذات، هو ما كان سقراط يرفضه تماما.

كان مقتنعا بوجود بعض القواعد الأبدية الخالدة، غير الآنية، فيما يخص الخير والشر. أما بالنسبة لنا، ولعقلنا، فإنه بإمكاننا، بلوغ هذه المعايير الثابتة، اذا ما استعملنا عقلنا، ذاك أن العقل دائم وأزلي.

هل تتابعينني، صوفي؟ هنا يأتي أفلاطون، ويهتم بما هو دائم، ثابت وأزلي، في الطبيعة، في الأخلاق، والحياة الاجتماعية، في آن واحد، انه يضع كل هذا في سلة واحدة. كان يحاول أن يمسك بـ «واقع» نقي، أزلي وثابت.

ولنعترف، بأن هذا هو المطلوب من الفلاسفة. فليس دورهم أن ينتخبوا ملكة جمال العالم، أو أن يدلونا من أين نشتري البندورة الأقل ثمنا. (ربما، لهذا السبب لا نستمع اليهم إلاّ قليلا) الفلاسفة يحاولون أن يجردوا هذا النوع من الأسئلة الخفيفة، و«الراهنة» بنظر بعض الناس؛ انهم على العكس من ذلك، يبحثون عما هو «حق» و«جميل» و«خيّر» الى الأبد.

بهذا نكون قد رسمنا الخطوط العريضة لفلسفة أفلاطون. ومن هنا ننطلق في محاولة فهم هذا الفكر الاستثنائي، الذي طبع بعمق، الفلسفة الأوروبية كلها.

عالم الأفكار

كان ديمقريطس وامفيدوكليس قد برهنا على أن كل الظواهر الطبيعية تخضع للتحول، لكن، وبالرغم من ذلك، يوجد شيء ما، أساسي، لا يتغير أبدا. (العناصر الأربعة، أو الذرات) كان أفلاطون يوافقهما في اعتباره للقضية، لكنه يطرحها بطريقة أخرى.

فهو يرى أن كل ما هو محسوس في الطبيعة، قابل للتحول، خاضع لتأثير الزمن، ومصيره التراجع والزوال. لكن كل شيء مخلوق في «قالب» غير آني، غير قابل للفناء وأزلي.

أرأيت؟ لا .. حسنا ..

لماذا تتشابه الجياد يا صوفي؟ ربما تفكرين أن هذا ليس حقيقة. لكن هناك واقع أن بين الجياد شيئاً مشتركاً، يجعلنا نتعرف اليها كجياد، بشكل قطعي. وإذا كان كل واحد منها يخضع بمفرده، لمسيرة تطور تقوده في النهاية الى الموت، فإن ذلك لا يمنع أن «قالب الحصان» يظل،

هو، أبديا، وغير زائل.

الأزلي، وغير الزائل، ليس بالنسبة لأفلاطون اذن «مادة أولى» فيزيائية، وانما مبادىء ذات صفة روحية، وبالتالي مجردة.

لنكن أكثر دقة: لقد طرح فلاسفة ما قبل السقراطية تفسيرا جذابا للتحولات الحاصلة في الطبيعة، لا يقول بحصول تغير حقيقي في الواقع. لأنهم يعتقدون بوجود عناصر جزئية، في دورة الطبيعة، غير قابلة للفناء!. الى هنا .. والأمر مفهوم! لكنهم لم يعطوا أي تفسير مقنع لفهم كيف أن هذه الجزئيات التي شكلت، في الماضي، حصانا، تعود فتلتقي بعد عدة قرون، لتشكل حصانا جديدا! أو لتشكل فيلا أو تمساحا. ما كان يريد أفلاطون الوصول اليه هو أن ذرات ديمقريطس لا يمكن أن تنتج أبدا «تمسف» أو «احيل» (في مزج لكلمتي تمساح وفيل). وهذا ما شكل نقطة الانطلاق في تفكيره.

اذا كنت قد فهمت هذا، يمكنك تجاوز الفقرة التالية. لكن من يدري؟ اذن سأعيد: لديك قطع ليغو تركبين بها حصانا، ثم تفككينها كلها وتعيدين جمعها في علبة. هنا لا يكفيك أن تهزي العلبة ليتركب معك حصان جديد. هل تستطيع قطع الليغو أن تصل الى ذلك وحدها؟ لا. عليك أنت، أن تعيدي تشكيل الحصان. وإذا نجحت فلأن في ذهنك صورة واضحة لشكل الحصان. ان حصان الليغو هذا، يشكل ،اذن، وفق نموذج يظل هو هو من حصان الى آخر.

وهنا، هل حلت مشكلة الكعكات الخمسين المتماثلة تماما؟ لنفترض أنك تقعين من السماء، ولم تري دكان الكعك – والحلوى في حياتك، ومصادفة، تجتذبك الحلويات المعروضة في الواجهة، فتدخلين، وتشاهدين خمسين قطعة متشابهة تماما على شكل شخوص، عندها ستهرشين رأسك، وتتساءلين، بالتأكيد، كيف أمكن تحقيق هذا التشابه. لا شك أن يدا تنقص هنا، وقطعة من الرأس هناك، وقد تكون هناك كرة من الكريما على ذاك. لكنك تلاحظين بعد تفكير ناضج، أن الشخوص تمتلك جميعا ملمحا مشتركا. وتدركين أن لها مصدرا واحدا، حتى ولو لم يكن بينها

واحد كامل الإتقان. وستفهمين أن هذه الكعكات قد صنعت كلها في قالب واحد. الأكثر من ذلك، صوفي، انك ستشعرين بالرغبة في رؤية هذا القالب، قائلة في نفسك انه لا بد أن يكون أكثر كمالا، واذن أكثر جمالا، بما لا يعرف الحدود، من كل هذه النسخ الهشة.

اذا نجحت في تنفيذ هذا الواجب بمفردك، تكونين قد حللت، في الواقع، قضية فلسفية، تماما، كما حلها أفلاطون انه - كأكثر الفلاسفة- قد «وقع من السماء» (وجلس على طرف شعرة الأرنب)، تعجب من رؤية كم التشابه الموجود بين الظواهر الطبيعية، واستنتج من ذلك، انه لا بد من وجود عدد لا محدود من «القوالب» هي «فوق» أو «وراء» كل ما يحيط بنا. هذه القوالب هي ما أسماه «الأفكار». فوراء كل الجياد، كل الخنازير، كل البشر، توجد «فكرة حصان»، أو خنزير أو انسان. (وكما ان دكان الحلوى يستطيع أن يصنع العدد الذي يريد من الشخوص والجياد، بوساطة عجينة، فإن دكانا جيدا يمتلك غالبا، أكثر من قالب حتى ولو كان قالب واحد يكفيه، لكل نوع من أنواع الكعك).

الخلاصة: ان افلاطون يقول بوجود حقيقة أخرى وراء عالم الحواس.. هذه الحقيقة هي ما أسماه، الأفكار. وهناك توجد «المثل» الأبدية والثابتة، القائمة في أساس الظواهر الطبيعية. ويشكل هذا المفهوم الخصوصي نظرية الأفكار.

معرفة أكيدة

حتى الآن، انت تتابعينني. أليس كذلك؟ لكنك تتساءلين: هل كان أفلاطون يعتقد هذا بجدية؟ هل كان يقصد أن نماذج كهذه موجودة في واقع آخر؟

يجب ألا نأخذ الأمور بهذه الحرفية. (رغم أنه يجب قراءة العديد من محاوراته، على ضوء هذا الفهم). لنحاول أن نتابع حججه.

الفيلسوف يحاول أن يكشف ما هو أزلي وغير فان. فلا قيمة لبحث

فلسفي عن وجود فقاعة صابون، لسبب بسيط هو أننا لا نكاد نبدأ بدراستها حتى تنطفىء وتزول. ثم من الذي سيكلف نفسه جهد شراء أطروحة فلسفية عن شيء لم يره أحد، ولم يكن موجودا إلاّ لدقائق؟

بالنسبة لأفلاطون، كل ما حولنا في الطبيعة أشبه بفقاعة صابون. فلا شيء، من موجودات عالم الحس، يدوم. وأنا لن أقدم جديدا اذا قلت إن كل البشر والحيوانات ستموت عاجلا أم آجلا. حتى كتلة الرخام، فانها تتآكل تدريجيا (لقد بات الاكروبول اطلالا، يا صوفي. فضيحة! لكنها الحياة .. هكذا!). اذن فمن المستحيل تكوين معرفة أكيدة لما هو في تحول دائم. فكل ما نستطيعه بالنسبة لكل ما ينتمي الى عالم الحواس، ما يمكن لمسه أو شمه، هو أن نقدم تفسيرات غير أكيدة، وافتراضات. وحده العقل، الذي يعمل على ما يراه هو، يمكّننا من المعرفة الحقيقية.

انتظري، سوف أشرح شيئا: يمكن أن يفشل صنع احد شخوص الحلوى، سواء بسبب العجينة، أو الخميرة، أو الخبز، بحيث لا يستطيع أحد التكهن بشكل قالبه. ولكننا نستطيع ذلك بثقة بعد ان نرى عشرين او ثلاثين من الشخوص المتشابهة الجيدة. حتى ولو لم نكن قد رأينا القالب أبدا. بل انه ليس من المؤكد ان ثمة ما يستحق بذل الجهد، لرؤيته بأعيننا. اذ كيف يمكن الوثوق بالحواس؟ ان عملية الرؤية تختلف من انسان الى آخر. في حين نستطيع أن نثق بعقلنا لأنه هو هو لدى جميع البشر.

اذا كان معك في الصف ثلاثون طالبا، وسألكم الأستاذ: ما هو أجمل ألوان قوس قزح؟ فلا شك أنه سيحصل على عدة اجابات مختلفة. أما إذا سألكم كم يساوي ضرب ثلاثة في ثمانية، لحصل على جواب واحد. ذاك أن العقل هو الذي أعطى حكمه، والعقل في تعارض جذري مع الشعور والرؤية. بإمكاننا التأكيد على أن العقل أزلي وكوني، لأنه يعمل على أشياء أزلية وكونية.

من المعروف أن أفلاطون كان يهتم كثيرا بالرياضيات. وذاك ببساطة لأن العلاقات الرياضية لا تتغير أبدا. لذلك نستطيع أن ندعي معرفة حقيقية في هذا المجال. ولنأخذ مثالا على ذلك: تخيلي أنك وجدت في

الخارج كوزا مستديرا من الصنوبر، ربما شعرت أنت بأنها مستديرة تماما، في حين رأت جورون أنها مسطحة قليلا من احدى جهاتها. (تبدآن تتناقشان!) ولا تستطيعان الخروج بمعرفة حقيقية مما تراه عيونكما. بالمقابل انتما تستطيعان القول، بثقة وتأكيد، ان مجموع الزوايا في الدائرة هو ٣٦٠ درجة. وانتما تعودان هنا الى فكرة الدائرة، التي قد لا توجد في الطبيعة، لكنكما قادرتان على تمثلها تماما في داخلكما. (الآن نتكلم عن قالب الشخص الصغير من الحلوى، وليس عن واحد من التي في المطبخ).

نلخص: ان مشاهداتنا لا تسمح لنا بأن نرى إلا تفسيرات غامضة. لكن ما نراه من داخلنا، بفضل العقل، يقودنا الى المعرفة الحقيقية. فمجموع زوايا المثلث يظل الى الأبد ١٨٠ درجة. كذلك فإن «فكرة الحصان»، تسير على أربع قوائم، حتى ولو كانت كل الجياد الموجودة في العالم عرجاء.

نفس خالدة

لقد رأينا كيف كان أفلاطون يقسم الواقع الى قسمين:

الأول مشكل من عالم الحس الذي يعطينا معرفة تقريبية، وغير كاملة، باستخدامنا الحواس الخمس، التي هي الأخرى، بطبيعتها تقريبية وغير كاملة. عالم الحواس هذا، هو دائما في حالة *تحول*، وليس فيه شيء دائم. لا شيء يوجد فيه نهائيا، هناك دائما أشياء تولد وتختفي.

القسم الثاني مكون من عالم الأفكار الذي يسمح لنا بالوصول الى المعرفة الحقيقية، عن طريق استعمال العقل. عالم الأفكار هذا، هو عالم مستعص على الحواس. وبالتالي فإن الأفكار – أو المثل – هي أزلية وثابتة.

ويرى أفلاطون أن الإنسان أيضا، مركب من جزئين: جسد يخضع التحولات، مرتبط ارتباطا لا ينفصل بعالم الحواس، وله المصير نفسه الذي للأشياء الدنيا (فقاعة صابون مثلا). وبما أن كل حواسنا مربوطة بالجسد، فهي غير موثوق بها. لكننا نملك نفسا خالدة هي مقر العقل. ولأنها ليست مادية، فهي تستطيع أن ترى عالم الأفكار.

لقد قلت لك كل شيء تقريبا. لكن لا يزال هناك الكثير، أكرر يا صوفي:

كان أفلاطون يعتقد أن النفس موجودة قبل أن تأتي لتسكن جسدا. حيث كانت سابقا في عالم الأفكار (كانت موجودة هناك في الأعلى، بين قوالب الكعك) لكنها ما إن تستيقظ لتجد نفسها في جسد بشري، حتى تنسى الأفكار الكاملة، وتبدأ، عندئذ، مسيرة غريبة. فكلما أخذ الإنسان يدرك، بوساطة حسه، الأشياء المختلفة المحيطة به، تنبعث في النفس، ذكرى غريبة. يرى الإنسان حصانا، لكنه حصان غير كامل (ربما حصان من عجينة حلوى) ويكفي ذلك لإيقاظ ذكرى الحصان الكامل، الغامضة، التي عرفتها النفس قديما في عالم الأفكار. من هنا تنبع الرغبة في استعادة المسكن الحقيقي للروح. ويطلق أفلاطون على هذه الرغبة تسمية يونانية هي «ايروس» ومعناها: الحب. فعلى أجنحة الحب، تعود النفس الى مسكنها في عالم الأفكار، اذ تتحرر من «سجن الجسد».

هنا أحرص، بسرعة، على أن أحدّد أن أفلاطون يصف هنا دورة كاملة من الحياة المثالية. ذاك أن الناس لا يتركون النفس، تفلت بحرية لتنضم الى عالم الأفكار! فأكثرية الناس تتعلق بـ «انعكاسات» الأفكار التي يرونها في عالم الإحساس. يرون حصانا ثم حصانا آخر، لكنهم لا يرون الأصل الذي يختبيء وراء كل نسخة سيئة. ان أفلاطون يصف طريق الفيلسوف بمعنى ان كل فلسفته يمكن أن تقرأ كوصف للسلوك الفلسفي.

عندما تشاهدين ظلا يا صوفي، تقولين إن شيئا ما قد أعطى هذا الظل. ظل حيوان مثلا: ربما يكون حصانا، لكنك لست على ثقة تامة من

ذلك. عندها تستديرين لتنظري الى الحصان بذاته، الذي يكون أجمل، وذا ملامح أكثر دقة من ظله.

يرى أفلاطون أن كل الظواهر الطبيعية ليست إلاّ ظلال الأشكال أو الأفكار الأبدية. كما يلاحظ أن الأغلبية العظمى من الناس تكتفي بالعيش بين الظلال. معتقدين أن هذه الظلال، هي الشيء الوحيد الموجود، ولا يعون انها ليست سوى صور. وفي هذا الواقع، ينسون الطبيعة الخالدة لنفوسهم.

طريق الخروج من عتمة الكهف

يروي أفلاطون رمزا يجسد تماما ما أقول: انه *مثال الكهف*. وسأرويه لك بلغتي:

تخيلي رجالا يسكنون كهفا. يجلسون وظهرهم للضوء، اليدان والقدمان مضمومتان، بشكل يحكمهم بالاّ يروا إلاّ الحائط الذي أمامهم. وراء ظهورهم ينتصب حائط آخر، يمشي وراءه عدد من الرجال ملوحين بأشكال متعددة من فوق الحائط. ولأن نارا توجد وراء هذه الصور، فإن هذه تلقي ظلالها على الحائط الآخر الواقع في آخر الكهف. ان كل ما يستطيع سكان الكهف أن يروه في هذه الحالة، هو «مسرح من الظلال» انهم لم يتحركوا منذ ولدوا، ويعتقدون أن هذه الظلال هي الحقيقة الوحيدة في العالم.

تخيلي، بعدئذ، أن واحدا من سكان هذا الكهف استطاع أن يتحرر. انه سيتساءل أولا: من أين تأتي هذه الظلال البادية على جدار الكهف. وماذا تظنين سيحصل عندما يكتشف الأشكال الحقيقية التي وراء الجدار؟ في البدء، سوف تبهره الأنوار الساطعة، لكنه سيبهر أيضا بالأشكال، لأنه لم يكن قد رأى، حتى الآن، إلاّ الظلال. ولنفترض أنه نجح في تسلق الجدار، وتجاوز النار، ليجد نفسه في الهواء الطلق، فسيكون عندها مبهورا أكثر. لكنه، وبعد أن يفرك عينيه قليلا، سيؤخذ بجمال كل ما يحيط به .. وسيميزه، للمرة الأولى، ألوانا وحدودا واضحة،

سيرى الأزهار والحيوانات على حقيقتها، هو الذي لم يكن قد رأى منها إلاّ ظلالها الباهتة. سيتساءل من أين جاءت كل الحيوانات والأزهار. وعندما يرى الشمس يفهم انها هي التي تعطي الحياة للزهور والحيوانات على الأرض، كما ان النار الموجودة في الكهف، تسمح برؤية الظلال.

الآن يستطيع، الساكن السعيد في الكهف، أن ينطلق في الطبيعة وينعم بحريته المستعادة. لكنه يفكر بكل أولئك الذين لا يزالون هناك. لذا يريد أن يعود ليحاول اقناعهم بأن ما يرونه على الجدار ليس إلا ظلالا باهتة لأشياء حقيقية. لكن أحدا منهم لا يصدقه. بل يشيرون بأصابعهم الى الجدار مصرين على أن ما يرونه هو الحقيقة الوحيدة. وأخيرا يصل بهم الأمر الى أن يقتلوه.

ما أراد أفلاطون التعبير عنه في مثال الكهف، هو طريق الفيلسوف الذي يمضي من التمثيلات غير الأكيدة الى الأفكار الحقيقية التي تختبىء وراء الظواهر الطبيعية. ولا شك أنه قصد سقراط، الذي قتله «سكان الكهف» لأنه جاء يربك ويزعج *رؤاهم* المألوفة. وهكذا يصبح *مثال* الكهف مجازا لشجاعة الفيلسوف، ولمسؤوليته ازاء الآخرين، على الصعيد العقائدي.

لقد أراد أفلاطون أن يبرهن على أن التناقض بين ظلام الكهف، والطبيعة خارجه، هو التناقض نفسه القائم بين عالم المحسوس وعالم الأفكار، دون أن يعني هذا أن الطبيعة قاتمة وحزينة، لكنها كذلك بالمقارنة مع عالم الأفكار. كما أن صورة فتاة جميلة، ليست قاتمة وحزينة، بل العكس. لكنها ليست على أية حال سوى صورة.

المملكة الفلسفية

يأتي *مثال* الكهف لدى أفلاطون ضمن المحاورة التي تحمل عنوان «*الجمهورية*» والتي يلمّع الفيلسوف فيها وجه «دولة مثلى» أي دولة نموذجية أو «يوتوبية». وملخص ذلك أنه ينادي بدولة يحكمها الفلاسفة.

وبرهانه على صحة هذا الرأي، الجسد الإنساني.

فهو يعتبر أن الجسم البشري مقسم الى ثلاثة أقسام: الرأس، الجذع، وأسفل الجسد. ويقابل كل من هذه الأجزاء، صفة من صفات النفس: الرأس هو مقر العقل، الجذع مقر الإرادة، وأسفل الجسد، مقر الرغبات والشهوات. ويقابل كل صفة من صفات النفس هذه، مثال أو فضيلة. فهدف العقل يجب أن يكون الحكمة. والإرادة يجب أن تقدم الدليل على الشجاعة. وأخيرا يجب أن يضبط الإنسان شهواته ليدلل على اعتداله. ولا يمكن أن نحصل على انسان متناغم متوازن إلا عندما تعمل أقسامه الثلاثة معا لتشكل كلا واحدا. يجب أن يتعلم الأطفال في المدرسة كيف يضبطون رغباتهم، ثم كيف ينمون شجاعتهم، وأخيرا يجب أن يقودهم العقل الى الحكمة.

انطلاقا من هذا، يتصور أفلاطون دولة تبنى على مثال الإنسان، وصورة الأجزاء الثلاثة. فكما الرأس والقلب والبطن، للدولة حراسها، مقاتلوها (أو جنودها)، وعمالها (كالفلاحين مثلا).

من الواضح أن أفلاطون يعتمد هنا على الطب الإغريقي. فكما ان الإنسان الذي يعمل جسده وعقله جيدا، يكون متوازنا ومنضبطا، كذلك المدينة الفاضلة هي التي يكون فيها كل في موضعه، ليشكل الجميع كلا واحدا.

ان فلسفة أفلاطون في الدولة تقع، ككل فلسفته، تحت عنوان العقلانية. فالمهم في مدينة فاضلة، أن يحكمها العقل. وتماما كما يحكم الرأس الجسد، يجب أن يناط بالفلاسفة حكم المدينة.

لننظم جدولا مبسطا للتقابل بين أجزاء الجسد والمدينة:

جسد	نفس	فضيلة	مدينة
رأس	عقل	حكمة	حراس
قلب	ارادة	شجاعة	محاربون
بطن	حاجات	اعتدال	عمال

قد تُذكِّرنا المدينة الفاضلة لدى أفلاطون بنظام الطبقات المغلقة، القديم، في الهند، حيث لكل عمله الخاص، لمصلحة المجموع. وفي عصر أفلاطون كان هذا النظام يضم في الهند: طبقة الحكام (طبقة الكهنة)، طبقة المحاربين، طبقة التجار والمزارعين، وأخيرا طبقة الحرفيين والخدم.

أما اليوم، فتميل الى تسمية المدينة التي حلم بها أفلاطون بالدولة الشمولية (التوتاليتارية). لكنه من الملاحظ، انه يجوز للنساء أن تصل الى طبقة الحكام، كالرجال. ذاك أنه على الحكام أن يحكموا المدينة، بعقولهم، والنساء يتمتعن، بنظر أفلاطون بالقوى العقلية ذاتها التي يتمتع بها الرجال، شرط أن يتربين مثلهم، ولا يحصرن بالأعمال المنزلية ورعاية الأطفال. كان أفلاطون يريد الغاء الأسرة، والملكية الفردية بالنسبة لرؤساء المدينة وحراسها. ويرى أن تربية الأطفال شيء أخطر من أن يترك لتقدير كل بمفرده. (كان أول فيلسوف طالب بإنشاء رياض الأطفال، والمدارس المشتركة).

بعد أن واجه أفلاطون احباطات كثيرة على الصعيد السياسي، كتب محاورته الشهيرة *«القوانين»* حيث يصف المدينة التي تحكمها القوانين بأنها المدينة «العادلة» بعد المدينة «الكاملة». وحيث يتراجع فيما يخص موضوع الملكية الفردية، والروابط الأسرية. مقلصا، من جديد، حدود حرية المرأة، مع استمراره على التركيز على أن مجتمعا لا يعلم، ويشغل النساء، هو أشبه بإنسان يستعمل يده اليمنى فقط.

بشكل عام: كانت لأفلاطون رؤية ايجابية، فيما يخص المرأة، على الأقل، اذا ما وضعناها ضمن السياق السائد في أيامه في المحاورة، هي امرأة، الكاهنة الأسطورية ديوتيما، التي منحت سقراط عبقريته الفلسفية.

بينما كانت صوفي تقرأ هذا الفصل عن أفلاطون وهي جالسة على جذر ضخم، كانت الشمس قد صعدت من وراء التلال المكورة، في الشرق .. وظهر القرص الناري في اللحظة التي كانت صوفي تقرأ فيها مقطع الرجل الذي خرج من الكهف، وهو يفرك عينيه مبهورا بالضوء

القوي الذي في الخارج.

أحست هي الأخرى، كأنها تخرج من كهف. فبعد قراءة أفلاطون، أصبحت ترى الطبيعة كلها من زاوية أخرى. كأنها كانت مصابة بعمى الألوان ... أما الظلال، فقد رأتها كثيرا ... وأما الأفكار فيبدو لها أنها لم ترها أبدا بكل بريقها.

رغم ذلك، فإن أفلاطون لم يقنعها تماما بتفسير النماذج، لكنها تجد ذلك فكرة جميلة: أن نفكر بأن كل ما هو حي ليس إلاّ نسخا ناقصة لأشكال أبدية في عالم الأفكار. أليست الزهور والأشجار والحيوانات، بل والبشر، كائنات غير كاملة؟

كان كل ما يحيط بها جميلا وحيا، مما جعلها تفرك عينيها. لكن شيئا منه لن يدوم. ومع ذلك، فبعد مئة عام، ستكون هنا زهور، وحيوانات، وأشجار جديدة، مشابهة. وإذا كان كل حيوان وكل زهرة وكل شيء محكوم بالموت والإندثار والنسيان، فإن ثمة شيئاً ما، في مكان ما، «يتذكرها» كلها.

أخذت تتأمل ما حولها، هنا سنجاب يتسلق قفزاً شجرة صنوبر، يدور مرات حول الجذع، ثم يختفي بسرعة بين الأغصان.

أنت ... لقد رأيتك سابقا! قالت في نفسها. تعرف جيدا أنه لن يكون السنجاب ذاته الذي رأته في المرة الماضية، لكنه «الشكل» ذاته ربما كان أفلاطون على حق -اذا كان لها أن تحكم- بتأكيدها على أنها رأت الشكل الأزلي للسنجاب، قبل أن تتجسد روحها في جسدها.

هل من الممكن أن تكون قد عاشت حياة سابقة؟ هل كانت نفسها موجودة قبل أن تجد جسدا تتجسد فيه؟ هل من الممكن أن في داخلها قطعة ذهب أو جوهرة، لا يملك الزمن سلطة عليها. نفس تستمر حية عندما يصبح جسدها، يوما، عجوزا، ثم لا يعود له وجود؟

شاليه مايجور

... الفتاة في المرآة تغمز
بعينيها معاً ...

كانت الساعة لا تزال السابعة إلا ربعا. اذن ليس ثمة سبب للإسراع في العودة الى المنزل. لا شك أن أمها تحب أن تنام بضع ساعات أخرى. فهي تحب استرخاء صباح الأحد.

ماذا لو توغلت في الغابة بحثا عن البرتو كنوكس؟ حسنا. ولكن لماذا راح الكلب ينبح بشدة عندما رآها تتبعه؟

نهضت صوفي، وعادت الى الطريق الذي سلكه هرمز، وفي يدها الظرف الأصفر الذي يحتوي على كل أوراق درس أفلاطون. وكلما كانت تواجه تشعبا في الطريق كانت تسلك الممر الأكثر أهمية.

كانت أصداء زقزقة العصافير تترجّع في الغابة: في الأشجار، في الهواء، في الشجيرات والخمائل الكثيفة. صحيح ان العصافير لا تميز بين يوم الأحد، وسائر الأيام، لكن، من الذي علّم العصافير أن تفعل كل ما تفعله؟ هل ثمة منظم في رأس كل منها، نوع من «البرمجة المعلوماتية» التي تملي عليها ما تفعله؟

أفضى الممر الى أكمة صغيرة قبل أن ينحدر بقوة بين أشجار عالية من الصنوبر. وهنا أصبحت الغابة كثيفة بحيث لم يعد بإمكان صوفي أن ترى أكثر من بضعة أمتار أمامها.

فجأة رأت بقعة مضيئة بين جذوع الصنوبر. لا بد أنها بحيرة. ورغم أن الطريق كان مستمرا من الجهة الأخرى، إلاّ أنها سلكت خطا مستقيما عبر الأشجار. لم تعرف لماذا فعلت ذلك، لكن قدميها قادتاها اليه.

كانت البحيرة بمساحة ملعب كرة قدم، ومن الجهة الأخرى، اكتشفت بيتا صغيرا (شاليه)، مصبوغاً بالأحمر، على قطعة أرض محاطة بجذوع

أشجار الحور البيضاء، والدخان الكثيف ينبعث من مدخنته.

مشت صوفي حتى حافة البحيرة، على الشاطىء الرطب، لكنها أبصرت قاربا مسندا الى حافة اليابسة وفيه مجذافان.

نظرت حولها. لا يمكنها بلوغ الشاطىء الآخر دون أن تبتل قدماها. وبإصرار توجهت نحو القارب دفعته الى الماء، صعدت اليه، أنزلت المجذافين، وابتعدت عن الشاطىء. بعد لحظات كانت عند الضفة الأخرى. قفزت الى اليابسة، وحاولت أن تجر القارب اليها أيضا.

كانت الأرض أكثر انحدارا في هذه الضفة منها في الضفة الأخرى.

استدارت، ثم صعدت الى الشاليه. لم تصدق جرأتها. كيف تجرأت؟ هي نفسها لا تعرف، لكأنما «شيء ما، آخر» يقودها.

اتجهت الى الباب وقرعته. انتظرت فترة، لكن أحدا لم يأت لفتحه. عندها أدارت المقبض ودخلت.

– هيه! هل هناك أحد في الداخل؟

وعندما لم تلق جوابا دخلت الى صالة كبيرة، دون أن تجرؤ على اغلاق الباب وراءها.

واضح أن المنزل مأهول. فالنار تشتعل في موقد قديم. لا بد أن الذين يسكنون هنا قد ذهبوا للتو.

على طاولة كبيرة، رأت آلة كاتبة، بضعة كتب، وأقلاماً وورقاً كثيراً. وأمام النافذة المطلة على البحيرة، طاولة وكرسيان. لم يكن في الغرفة أي أثاث آخر، لكن أحد الجدران مغطى بالكتب. وفوق منضدة بيضاء، مرآة مستديرة كبيرة داخل اطار من النحاس، يبدو عتيقا جدا.

على جدار آخر علقت لوحتان: الأولى تصور منزلا أبيض، بالقرب من مرفأ صغير، ومرأب قارب مرسوماً بالأحمر. وبين المنزل والمرآب تمتد حديقة منحدرة قليلا، فيها شجرة تفاح وبضع شجيرات كثيفة، وبضعة صخور. فيما تنسج أشجار الحور المتراصة، تاجا، حول الحديقة. كان اسم اللوحة «بجركلي» ومعناها (في ظل الحور).

اللوحة الأخرى كانت تمثل رجلا عجوزا، يجلس على مقعد، وعلى ركبتيه كتاب. أما الخلفية فخليج صغير وأشجار وصخور. كان اسم

اللوحة «بيركلي» ويبدو واضحا أن عمرها قرون عدة. أما رسامها فقد وقع اسمه: سميبرث.

بجركلي و بيركلي ، أية مفارقة غريبة!؟

تابعت صوفي تفقد الشاليه، ثمة باب في الصالة يقود الى مطبخ صغير، حيث أطباق وكؤوس مرصوفة على فوطة قطنية، لا تزال رطبة، وعلى بعضها بقايا صابون، اذن فقد غسلت للتو. على الأرض قصعة تحتوي على بقايا طعام. اذن ففي البيت كلب أو هرّ.

عادت الى الصالة، ومن باب آخر دلفت الى غرفة النوم، حيث تتكوم بضعة أغطية أمام السرير، ولفت نظر صوفي وجود شعيرات حمراء عليها. انه الدليل الذي تبحث عنه.انهما هما: البرتو كنوكس وهرمز، ساكنا هذا البيت.

عند عودتها الى الصالة، وقفت صوفي أمام المرآة المعلقة على الحائط: كان بلورها كامدا، وغير مستو. أخذت تجرب تكشيرات وحركات من وجهها، كما تفعل أحيانا في حمامها، وكانت المرآة ترد عليها بكل ما تفعل .. أمر طبيعي تماما .. لكن شيئا غريبا حصل فجأة، اذ لاحظت صوفي أن الفتاة تغمز بعينيها معا. فتراجعت مذعورة، فإذا كانت قد غمزت بعينيها معا .. فكيف استطاعت اذن أن *ترى* الأخرى تفعل ذلك؟ ليس هذا فقط، وانما بدا لها أن الفتاة الأخرى غمزت صوفي كأنما لتقول لها: أناأراك. أنا هنا، في الجهة الأخرى.

خفق قلبها بشدة، وفي اللحظة ذاتها سمعت نباح كلب بعيد. انه هرمز بالتأكيد! عليها أن تهرب وبسرعة.

وقعت عيناها على محفظة خضراء على المنضدة، أمام المرآة. أخذتها وفتحتها بحذر. لتجد داخلها قطعة من فئة الخمسة كورونات، وأخرى من فئة الخمسين ... وشهادة مدرسية، عليها صورة فتاة شقراء الشعر، واسم: *هيلد موللر كناغ* ومدرسة *ليلساند الاعدادية*.

أحست صوفي ببرودة في ظهرها. لكن الكلب عاد ينبح. عليها أن تغادر المكان بسرعة.

وإذ مرت بالقرب من الطاولة، تبينت بين الكتب والأوراق المكدسة،

ظرفا كبيرا أبيض وعليه اسم: صوفي.

وبدون أن تضيع وقتا في التفكير، تناولته، دسته في الظرف الذي تحمله وفيه درس أفلاطون، وخرجت مسرعة، مغلقة الباب وراءها.

كان نباح الكلب يقترب، ولا بد أنه سيصل بين دقيقة وأخرى. لكن الأسوأ من ذلك أن القارب قد اختفى. ومضت دقيقة ربما اثنتان قبل أن تهتدي اليه يعوم وسط البحيرة، وأحد مجذافيه يعوم قريبا منه.

كل ذلك، لأنها لم تستطع أن تجره الى اليابسة، عندما وصلت. أخذ نباح الكلب يقترب من الجهة الأخرى للبحيرة ورأت شيئا يتحرك بين الأشجار.

أحست بفراغ كبير في رأسها، ثم بالدوار. قفزت الى الأدغال التي وراء الشاليه، ورغم أن طريقها كان مستنقعا، غاصت فيه، عدة مرات حتى فخذيها. إلاّ أنه لم يكن أمامها خيار آخر. عليها أن تركض اذا أرادت العودة الى البيت.

أخيرا وجدت ممرا. أهو ذاته الذي جاءت منه؟ توقفت قليلا، عصرت ثوبها المبتل، فراح الماء يجري قطرات صغيرة، على امتداد الممر. عندها فقط أخذت في البكاء ... كيف استطاعت أن تكون غبية الى هذا الحد؟ وقصة القارب؟ لا تستطيع أن تمنع نفسها من تذكر مشهده في وسط البحيرة والمجذاف يعوم بعيدا عنه. هذه المغامرة كلها، رديئة النتيجة، ومدعاة للندم!

في ساعة محددة، سيأتي الفيلسوف الى الشاطيء، ويحتاج لقاربه كي يعود الى بيته! أحست صوفي بأنها عملت مقلبا سيئا. في حين لم يكن ذلك قصدها أبدا!

والظرف! ربما يكون أمره أسوأ! لماذا أخذته عن الطاولة؟ حقا ان اسمها كان عليه، وانها قالت لنفسها انه لها، لكنها تحس، رغم ذلك، بأنها سارقة. اضافة الى أنها دلت، بهذه الحركة، على حضورها.

أخرجت ورقة صغيرة من الظرف، وقرأت عليها:

من الذي يأتي قبلا؟ الدجاجة أم فكرة الدجاجة؟

هل لدى الإنسان أفكار فطرية؟

ما هو الفرق بين نبتة، وحيوان، وانسان؟
لماذا ينزل المطر؟
ما الذي يحتاجه الإنسان ليعيش حياة سعيدة؟

لم تكن صوفي قادرة على التفكير بهذه الأسئلة مباشرة. افترضت أنها تتعلق بالفيلسوف المقبل. أليس اسمه ارسطو؟

ان رؤية خميلة حديقة المنزل، بعد قطع عدة كيلومترات جريا في الغابة، هي أشبه ببلوغ الشاطىء بعد الغرق. ثم ان رؤيتها من الجهة الأخرى، يخلق احساسا غريبا. ما ان زحفت الى كوخها، حتى نظرت الى ساعتها –لم تكن قد فعلت ذلك طوال المغامرة – كانت العاشرة والنصف صباحا. ضمت الظرف الكبير في علبة الكعك الكبيرة التي تحتفظ فيها بأوراقها، باستثناء الكلمة الصغيرة من الأسئلة الجديدة، فقد دستها في جواربها.

عندما دفعت باب المنزل، كانت أمها تتحدث على الهاتف. وما ان رأت صوفي حتى وضعت السماعة:

– صوفي، من أين خرجت هكذا؟

– كنت ... لقد قمت بجولة في الغابة .. ردت متلعثمة.

– هكذا اذن! كأن الأمر ليس واضحا!

لم تجب صوفي، وكان فستانها يرشح ماء.

– الآن كنت أهاتف جورون

– جورون؟ ....

قامت الأم تجلب لها ملابس جافة، وكادت أن تكتشف أسئلة أستاذ الفلسفة، المخبوءة في جواربها. ثم انتقلتا الى المطبخ حيث هيأت لها كأساً من الشوكولاته الساخن.

– هل كنت معه؟ سألتها

– معه؟

– أجل معه هو، «أرنبك» هذا ...

أشارت صوفي برأسها أن لا.

– ولكن ... ماذا تفعلان عندما تكونان معا؟ لماذا أنت مبلولة هكذا؟

لم ترفع صوفي نظرها عن الطاولة. لكنها أحست في أعماقها بأن الوضع مضحك قليلا. يا لأمي المسكينة! أهذا هو اذن سبب قلقها؟

هزت رأسها مرة ثانية بالنفي، مما أثار سيلا من الأسئلة الجديدة.

– الآن أصر على معرفة الحقيقة. لقد خرجت في الليل. أليس كذلك؟ لماذا نمت بفستانك؟ لماذا نزلت وتسللت الى الخارج بمجرد أن غفوت أنا؟ أتنسين أنك لم تتجاوزي الرابعة عشرة من عمرك. أريد أن أعرف مع من تخرجين؟

هنا انفجرت صوفي في البكاء. ثم راحت تشرح لها كل شيء. كانت لا تزال تحت تأثير الخوف. وغالبا ما نقول الحقيقة عندما نخاف.

روت لها كيف استفاقت مبكرا، وكيف ذهبت تتنزه في الحديقة. تحدثت عن الشاليه وعن المركب، دون أن تنسى المرآة الغريبة. لكنها نجحت في اخفاء كل ما يتعلق بدروس الفلسفة. كما انها لم تقل شيئا عن المحفظة الخضراء. دون أن تدري السبب. لكنها كانت تشعر في أعماقها أن عليها أن تبقي قصتها مع *هيلد* سرا.

طوقت الأم ابنتها بحنان، وعندها فهمت صوفي، انها قد صدقتها، أخيرا.

– ليس لدي صديق – قالت وهي تبكي – لكنني قلت لك ذلك لأنك كنت قلقة مما أرويه عن الأرنب الأبيض.

– اذن، هكذا! لقد ذهبت الى شاليه مايجور، اذن ... قالت الأم ذلك ساهمة، مما جعل صوفي تسأل مندهشة:

– شاليه مايجور؟

– أجل. البيت الصغير الذي اكتشفته في الغابة، يحمل اسم شاليه مايجور، أو ماجورستوجا (Majorstugan)، لأن مايجور، قد عاش فيه، منذ زمن بعيد. كان غريب الأطوار .. لنقل مجنونا قليلا. ولكن. لماذا نفكر به الآن؟ فمنذ دهر لم يسكن أحد الشاليه.

– هذا ما تظنينه. ولكن هناك فيلسوف يسكنها حاليا.

– اسمعي: لا تتركي خيالك يحملك مرة أخرى.

مكثت صوفي في غرفتها تفكر بكل ما حصل لها. كان رأسها يضج كسيرك في عز حركته بفيلته الثقيلة، ومهرجيه الظرفاء، ببهلوانييه الجريئين، وقروده المدجنة. ثمة صورة لم تتوقف عن ملاحقتها: صورة القارب الصغير في وسط البحيرة والمجذاف العائم في مكان آخر منها ... فهناك من يحتاجهما ليعود الى منزله.

هي تعرف أن أستاذ الفلسفة لن يسيء اليها، وانه سيسامحها، اذا عرف أنها هي من دخل الى منزله. لكنها خَنثت بالعهد. أهكذا نكافيء انسانا على تدريسه لنا الفلسفة؟ كيف تعوض عن حماقة كهذه؟

هنا أخرجت ورق الرسائل الوردي وراحت تكتب:

عزيزي الفيلسوف،

أنا، من جاء الى الشاليه في وقت مبكر من صباح الأحد. كنت أرغب بشدة أن التقيك لنتناقش بدقة أكثر في بعض وجهات النظر الفلسفية. أنا حاليا من أنصار أفلاطون، لكنني غير مقتنعة بانه على حق في اعتقاده بأن الأفكار أو نماذج الصور، موجودة في واقع آخر. انها، بكل تأكيد موجودة، في نفوسنا. لكن هذه قصة أخرى، برأيي المتواضع والتوقعي. كما أن علي أن أعترف لك بأنني غير مقتنعة تماما بأن روحنا خالدة. فليست لدي، شخصيا، أية ذكريات من حيوات سابقة. وإذا استطعت أن تقنعني بأن روح المرحومة جدتي، سعيدة في عالم الأفكار، فسأكون شاكرة لك.

الحقيقة، ان الحديث في الفلسفة لم يكن دافعي لكتابة هذه الرسالة، التي سأضعها في ظرف وَرْدي ومعها قطعة سكر.

بل أردت، بالضبط، أن أرجوك أن تغفر لي عصياني. لقد حاولت أن أجر القارب الى الشاطيء لكنني لم أكن قوية بما يكفي. وربما تكون موجة قوية، هي التي جرته من جديد الى البحيرة.

آمل أن تكون قد نجحت في العودة الى المنزل دون أن تبتل. وإلاّ، فاعلم -اذا كان من شأن هذا أن يعزيك- أنني قد عدت مبلولة، وقد يصيبني رشح قوي، لكنني أستحقه.

أنا لم ألمس شيئا في الشاليه، لكنني ضعفت أمام اغراء أخذ الظرف الذي يحمل اسمي. ليس لأنني أردت أن أسرق أي شيء. بل لأن وجود اسمي على الظرف جعلني أتوهم للحظات انه ملكي. أرجوك أن تسامحني، وأعدك بألاّ أخيب ظنك مرة أخرى.

ملاحظة: سوف أفكر مباشرة بالأسئلة المكتوبة على الورقة.

ملاحظة أخرى: هل المرآة التي فوق المنضدة، مرآة عادية، أم انها مرآة سحرية؟ أنا أطرح هذا السؤال لأنني لم أعتد رؤية عيناي في المرآة تغمزان معا.

تلميذتك المهتمة بصدق

صوفي

قرأت صوفي الرسالة مرتين قبل أن تدسها في الظرف، وبدت لها أقل رسمية من الرسالة السابقة. وقبل أن تنزل الى المطبخ لأخذ قطعة سكر، أخرجت الورقة التي تحمل التمارين الفكرية:

من الذي سبق، الدجاجة أم فكرة الدجاجة؟

للوهلة الأولى بدا السؤال عويصا كسؤال الدجاجة والبيضة. فلا بيضة بدون دجاجة،لكن لا دجاجة بدون بيضة. فهل من باب التعقيد ذاته، ايجاد الجواب عن قصة أسبقية الدجاجة أم فكرة الدجاجة؟

كانت صوفي تفهم جيدا رأي أفلاطون في ذلك: ان فكرة الدجاجة موجودة في عالم الأفكار، قبل أن توجد أية دجاجة في عالم الحواس. وبحسب أفلاطون فإن النفس قد «رأت» فكرة الدجاجة قبل أن تتجسد هذه في جسد. ولكن أليست هذه النقطة هي التي لا توافق أفلاطون عليها؟ كيف يستطيع انسان لم يسبق له أن رأى دجاجة أو صورة دجاجة، أن يكوّن «فكرة» عما هي «الدجاجة»؟ ويقودها هذا الى السؤال التالي:

هل لدى الإنسان أفكار فطرية؟ لا شيء أقل جلاء من ذلك. فمن جهة، نحن لا نستطيع أن نقول بوجود أفكار واضحة لدى طفل وليد. ولكننا، من جهة أخرى، لا نستطيع أن نحسم ذلك، لأن كون هذا الطفل لا يستطيع الكلام، لا يعني، بالضرورة، أن رأسه فارغ. ومع ذلك يجب أن نرى الأشياء، أولا، قبل أن نعرف شيئا عنها.

ما هو الفارق بين نبتة، حيوان، وانسان؟

الفوارق تقفز أمامنا، فصوفي لا تعتقد، مثلا، بأن لإحدى النباتات

حياة عاطفية. هل سمعنا يوما عن متاعب قلب بنفسجة؟ فالنبتة تنمو، تمتص الغذاء، ثم تنتج بذورا صغيرة، تتوالد وتتجدد بوساطتها. أما ما عدا ذلك فليس ثمة شيء يذكر. لكن صوفي انتبهت الى أن هذا يمكن أن يقال عن حيوان أو عن انسان. لا شك أن للحيوان صفات أخرى، فهو يستطيع التحرك (هل رأينا مرة وردة تركض؟).

أما الفوارق بين الحيوان والإنسان، فتحديدها أكثر صعوبة. البشر يستطيعون أن يفكروا، لكن أليست الحيوانات قادرة على ذلك أيضا؟ انها مقتنعة بأن هرها شيريكان يستطيع التفكير. فهو يعرف أن يتصرف بطريقة محسوبة. ولكن هذا بعيد جدا عن طرح أسئلة فلسفية ... هل يتساءل هر عن الفارق بين النبات والإنسان والحيوان؟ مؤكد أن، لا. صحيح أنه يمكن للهر أن يظهر سعادته أو اكتئابه، ولكن، هل يتساءل ما اذا كان الله موجودا، وإذا كانت له هو روح خالدة؟ فكرت صوفي بالأمر، وتوصلت الى أن ذلك توقّع ضعيف جدا. لكن يجب هنا تبني التحفظات ذاتها التي أبديت على السؤال السابق. اذ تستحيل مناقشة هذه القضايا سواء مع هرّ أو مع مولود جديد.

لماذا تمطر؟ رفعت صوفي كتفيها. هذا ليس سؤالا سحريا: انها تمطر لأن البحر يتحول الى بخار، ثم تتجمع الغيوم، لتهطل مطرا.

هي تعرف ذلك منذ الصفوف الابتدائية. كذلك نستطيع القول انها تمطر كي يمكن للنباتات والحيوانات ان تنمو، ولكن هل هذا صحيح؟ هل لقوس قزح هدف؟

للسؤال الأخيرعلاقة بالاستهداف:

ما الذي يحتاجه الإنسان ليعيش حياة سعيدة؟ لقد تحدث استاذ الفلسفة عن ذلك في بداية الدروس: كل الناس يحتاجون للغذاء، للدفء، للحب وللحنان، هذا ما يمكن أن يشكل الشرط الأول لعيش حياة سعيدة. ثم قال انهم يحتاجون جميعا الى جواب عن بعض الأسئلة الفلسفية. اضافة الى ذلك، يبدو أن العمل في مهنة نحبها، هو عنصر هام. فإذا كان أحدهم يكره التجول، يجب عليه ألا يعمل سائقا، وإذا كان لا يجب أن يقوم بواجباته بدقة، يجب ألا يصبح أستاذا.

صوفي تحب الحيوانات، وترى أنها ستكون سعيدة اذا أصبحت بيطرية. لا نحتاج أبدا لربح الجائزة الكبرى في اليانصيب، كي نعيش بسعادة. بل العكس. أليس هناك مثل يقول: «البطالة أمّ الرذائل»؟

ظلت صوفي وحدها في غرفتها، الى أن نادتها أمها للغداء. وكانت الوجبة ضلعا مع البطاطا، هه. أية وليمة! لقد أشعلت الأم شموعا أيضا، وهناك أيضا، حلوى من الكريما مع العنب.

تحدثتا عن كل شيء وعن لا شيء. سألتها كيف تنوي الاحتفال بعيد ميلادها الخامس عشر .. فلم يبق على الموعد إلا بضعة أيام.

هزت صوفي كتفيها، وأعادت الأم السؤال:

– هل دعوت أحدا؟ أقصد هل ستقيمين حفلة؟

– ربما ...

– يمكن أن ندعو مارث، وآن ماري .. وهيغ، وجورون، بالتأكيد ... وربما يورجن ... لكنني أترك لك وحدك تقرير ذلك. أتدرين؟ أنا أذكر جيدا عيد ميلادي الخامس عشر. لا يبدو لي بعيدا جدا ... كنت قد أصبحت أحس نفسي ناضجة، في حينها. أليس ذلك غريبا، صوفي؟ في الواقع، لا أحس أنني تغيرت كثيرا.

– لا. صحيح. لا شيء «يتغير»، أنت تفتحت، فقط، أصبحت أكثر نضجا.

– هم ... ها أنت تتحدثين كبالغة! أحس أن الوقت قد مرّ بسرعة كبيرة ...

أرسطو

... رجل موسوس بالتفاصيل
يعيد ترتيب مفاهيمنا ...

بينماكانت الأم تأخذ قيلولتها، ذهبت صوفي الى كوخها. لقد دست قطعة سكر في الظرف الوردي، وكتبت عليه *«الى البرتو»*.

لم تجد رسالة جديدة. لكنها لم تلبث أن سمعت خطى الكلب تقترب. وصرخت:

– هرمز!

كالبرق دخل الى الكوخ، حاملا ظرفا أصفر في فمه.

– أيها الكلب الطيب.

لفت ذراعها حوله، وكان يلهث بعنف. وضعت الظرف الوردي في فمه، فانطلق خارج الكوخ عائدا نحو الغابة.

متوترة راحت تفتح الظرف. هل سيقول شيئا بخصوص الشاليه والقارب؟

في الظرف، كانت الأوراق المألوفة، مجموعة بشكلة، ومعها أيضا رسالة صغيرة على ورقة منفصلة:

عزيزتي الآنسة الشرطية السرية، أو بتعبير أدق الآنسة اللصة.

لقد أخذت الشرطة علما بالسرقة الحاصلة ... لا لست غاضبا حقا.

وإذا كنت تبدين الحماسة ذاتها في حل المسائل الفلسفية، يكون الأمر جيدا. الإزعاج الوحيد، هو أنني أجد نفسي مضطرا لتغيير سكني.

انه خطأي في نهاية الأمر، لقد كان علي أن أشك في أنك ستغوصين وراء الأشياء.

مع صداقتي

أطلقت صوفي زفرة ارتياح. اذن، فهو غير غاضب. ولكن لماذا يبدل سكنه، والحال هذه؟

حملت الأوراق الجديدة وركضت الى غرفتها. فالأفضل أن تكون في المنزل عندما تستيقظ والدتها، وراحت تقرأ عن ارسطو.

فيلسوف ورجل علم

عزيزتي صوفي، لا شك أن نظرية أفلاطون قد فاجأتك. ولست الوحيدة في ذلك. لا أعلم إذا كنت «قبضتِ» كل ذلك، أم أن لديك بعض الاعتراضات. اذا كان الجواب نعم، فثقي انها اعتراضات ارسطو ذاتها (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الذي كان تلميذا لأفلاطون في أكاديميته، لأكثر من عشرين سنة.

لم يكن أرسطو نفسه أثينيا، بل مقدونيا .. التحق بأكاديمية أفلاطون، وعمر هذا الأخير واحد وستون سنة. كان أبوه طبيبا معروفا وعالما.. مما يساعدنا، بداية، على فهم المشروع الفلسفي للابن.

فقد ركز اهتمامه على الطبيعة الحية، وبهذا لم يكن، فقط، آخر فيلسوف في اليونان، بل، أيضا، أول عالم أحياء في أوروبا.

وإذا صورنا الوضع كاريكاتوريا نقول إن أفلاطون قد ركز اهتمامه على عالم «الأفكار» الى حد جعله لا يعطي أي اهتمام بالظواهر الطبيعية، التي نستطيع أن نسميها «دورات الحياة».

وإذ نمضي، الى أبعد من ذلك، نقول إن أفلاطون قد أدار ظهره لعالم الحواس، ليذهب الى ما وراء كل ما يحيط بنا (كان يريد أن يخرج من المغارة؛ أن يرى عالم الأفكار الخالد!).

أرسطو فعل العكس تماما: لقد انحنى على يديه ورجليه ليدرس الأسماك، والضفادع، الورود والبنفسج.

لم يكن أفلاطون يستعمل إلا عقله - إن أردت - بينما استعمل ارسطو حواسه أيضا.

كذلك تبدو الفوارق واضحة بين أسلوبيهما في الكتابة، حيث كان أفلاطون شاعرا، ومبدع أساطير، بينما تتسم كتابات ارسطو بالجفاف والوصفية، كأنها قاموس، اضافة الى إن أكثر كتاباته تستند إلى أبحاث

ميدانية.

تذكرُ المصادر القديمة مئة وسبعين عنوانا، كتب فيها أرسطو. لم يُحفظ منها إلا سبعة وأربعون فقط. وليست هذه العناوين كتبا مكتملة، اذ إن أكثر كتاباته هي على شكل ملاحظات، معدة لمحاضراته. ولا ننسى أن الفلسفة كانت في عصر أرسطو، نشاطا شفويا.

ان الثقافة الأوروبية مدينة لأرسطو بتبلور لغة علمية خاصة بكل علم. وليس هذا بالشيء البسيط! لقد كان المنهجي الكبير الذي أسس ونظم مختلف العلوم.

وبما أن ارسطو قد كتب في كل العلوم، فاكتفي بذكر المجالات الأهم. وبما انني حدثتك كثيرا عن أفلاطون فلا بد أن تعرفي رأي أرسطو بنظريته، بعد أن نرى معا كيف طوّر فلسفته الخاصة. لقد بدأ أرسطو بتلخيص ما قاله فلاسفة الطبيعة، ثم أخذ ينظم مفاهيمنا، وأسس المنطق كعلم. وأخيرا سأحدثك قليلا عن مفهوم أرسطو عن الإنسان والمجتمع.

اذا كنت تقبلين هذه الشروط، فلنشمر عن سواعدنا ونبدأ العمل.

لا فكرة فطرية

كالفلاسفة الذين سبقوه، أراد أفلاطون أن يحدد شيئا أزليا وثابتا، وسط جميع التحولات، وهكذا اخترع فكرة الأفكار الكاملة، التي تحلق فوق عالم الحواس. وكان يعتقد انها أكثر واقعية من الظواهر الطبيعية. فهناك أولا فكرة الحصان، ثم تأتي كل جياد العالم، ظلالا صينية على جدار الكهف. وفكرة الدجاجة تأتي قبل الدجاجة والبيضة، معا.

أرسطو. وجد أن أفلاطون قد طرح المسألة بالمقلوب. فهو يوافق أستاذه على أن كل جواد، بمفرده، «يجري» وأن ما من جواد يعيش الى الأبد. وهو يعترف أيضا بأن شكل الجواد أبدي وثابت. لكن فكرة الحصان هي مجرد مفهوم كوّناه نحن البشر بعد أن رأينا عددا من الجياد. ففكرة الحصان أو «شكله» ليست شيئا موجودا بذاته. ان ما يكوّن «شكل» الحصان، برأي أرسطو، هو الميزات الخاصة بالحصان،

أي ما نسميه بتعبير آخر «نوع» الحصان.

لنحدد أكثر: عندما يستعمل أرسطو مصطلح «شكل» يعني به ما هو مشترك بين الجياد. وهنا لا تعود صورة قوالب الكعك صالحة. ذاك أن هذه القوالب موجودة بشكل مستقل عن شخوص الكعك التي تصنع بوساطتها. وبرأي أرسطو أنه لا وجود لقوالب كهذه، مجمعة على رف خارج الطبيعة. وأن «الأشكال» حاضرة في الأشياء، كمجموع لميزاتها الخاصة.

وعليه لا يوافق أرسطو أفلاطون على قوله إن فكرة الدجاجة تسبق الدجاجة. فما يسميه أرسطو «شكل» الدجاجة، هو موجود في كل دجاجة. وهو خصائصها المميزة في مثل كونها تبيض، ومن زاوية الرؤية هذه تصبح الدجاجة، و«شكلها» غير قابلين للانفصال، كما الجسد والروح.

بهذا نكون قد لخصنا أهم ما في نقد أرسطو لنظرية أفلاطون. مع تسجيلنا لملاحظة كوننا نقف في لحظة مفصلية من تاريخ الفكر. فأفلاطون يرى أن أعلى درجات الواقع تتألف مما «نفكر» بوساطة عقلنا. بينما يرى أرسطو، أن أعلى درجات الواقع هي قطعيا، ما «ندركه» بوساطة حواسنا. أفلاطون يرى أن كل ما نراه حولنا ليس إلاّ انعكاسا لشيء ما في عالم الأفكار، وبالتالي في النفس الإنسانية. بينما يرى أرسطو العكس: ان ما هو موجود في النفس البشرية، ليس إلاّ انعكاسا لأشياء الطبيعة. فالطبيعة، والطبيعة وحدها هي ما يشكل العالم الحقيقي. ولذا فإن أرسطو يعتقد أن أفلاطون يظل أسير العالم الأسطوري حيث يعرض الإنسان تصوراته ويحلها محل العالم الواقعي.

ويحسب أرسطو فإن ما من شيء يمكن أن يوجد في الوعي، قبل أن يدرك بوساطة الحواس. كان أفلاطون يقول انه ما من شيء في الطبيعة، لم يوجد قبلا في عالم الأفكار. ورأى أرسطو أن أستاذه «يضاعف بهذا عدد الأشياء» فقد كان يفسر الحصان الصغير بالعودة الى عالم الأفكار.

ولكن أي نوع من التفسير هذا، يا صوفي؟ فمن أين أتت اذن فكرة الحصان؟ ربما يكون هناك حصان ثالث، ليست الفكرة إلا نسخة منه؟

كان أرسطو يعتقد بأن كل أفكارنا تجد أصلها فيما نرى ونسمع. لكننا نولد أيضا وفينا عقل. أكيد انه لا تكون لدينا أفكار فطرية بالمعنى الذي قصده أفلاطون، لكن قدرة فطرية على تصنيف انطباعات الحواس في فصائل مختلفة، تكون موجودة دون شك. وهكذا تنبثق مفاهيم الأشياء: «حجر» «نبتة» «حيوان» «رجل» «حصان» أو «كنار».

لا ينكر أرسطو أبدا كون الإنسان يولد ومعه العقل، بل على العكس، يعتبر أرسطو أن العقل هو العلاقة المميزة للإنسان. لكنه يكون فارغا قبل أن تبدأ الحواس بإدراك الأشياء. وبالتالي فإنه لا أفكار فطرية لدى الكائن البشري، بحسب أرسطو.

ان شكل شيء ما، هو مجموع خصائصه المميزة

بعد أن حقق موقفه من نظرية أفلاطون، اعتبر أرسطو أن الحقيقة مكونة من أشياء مختلفة، اذا ما أُخذ كل منها منفصلا، وجد مكونا – هو نفسه – من *شكل* و *مادة*. المادة هي ما كوّن منه الشيء، أما الشكل فمجموع ميزاتها الخاصة النوعية.

تخيلي يا صوفي دجاجة تصفق بجناحيها. ان «شكل» الدجاجة يفسر كونها تصفق بجناحيها، تقاقي، وتبيض. انه يغطي الميزات الخاصة بنوعها، أو ما *تفعل*، ان شئت.

عندما تموت الدجاجة، وتتوقف عن المقاقاة، يتوقف «*شكلها*» عن أن يكون موجودا. وكل ما يتبقى هو «*مادة*» الدجاجة (نعم ان هذا محزن!....) ولكنها لا تعود دجاجة بكل معنى الكلمة.

وكما قلت لك سابقا، كان أرسطو يهتم بالتحولات الحاصلة في الطبيعة: المادة تحمل في ذاتها دائما، امكانية الوصول الى شكل ما. ويمكننا القول انها تميل الى جعل امكانية كامنة واقعا. وهكذا يفسر

أرسطو كل تغير أو تحول، بعبور المادة من «الممكن» الى «الواقع».

انتظري، دعيني أشرح لك: سأحاول أن أوضح أكثر بوساطة قصة سخيفة: مرة، كان هناك نحات ينكبّ على قطعة من الغرانيت. وفي كل يوم ينحت ويرسم فيها خطا جديدا، الى أن زاره يوما ولد صغير: «عما تبحث؟» سأله الولد.

– انتظر وسترى – أجابه النحات. بعد أيام عاد الولد ووجد الحجر قد تحول الى حصان رائع. نظر اليه مندهشا، ثم تحول الى النحات، وسأله:

– كيف عرفت انه كان مخبّأً داخل الحجر؟

حقا. كيف فعل؟ لقد رأى النحات – بشكل أو بآخر – شكل الحصان في لوح الغرانيت. ذاك أن هذا اللوح كان يحمل في ذاته امكانية التحول الى حصان. وكان أرسطو يعتقد، بالطريقة ذاتها أن كل أشياء الطبيعة تحمل امكانية التحول الى «شكل» ما، وتحقيقه.

لنعد الى الدجاجة والبيضة .. ان بيضة الدجاجة هي دجاجة «بالقوة»، مما لا يعني ان كل البيضات ستصبح دجاجات، ذاك أن كثيراً منها ينتهي على مائدة الإفطار بشكل بيضة مسلوقة أو قرص عجة أو بيضة مقلية الخ ... دون أن يصبح الشكل المفترض، واقعا. لكن لا يمكن في أية حال أن تولد وزة من بيضة الدجاجة. ذاك أن هذه الإمكانية لم توجد فيها أصلا. ان «شكل» شيء ما يدلنا عما يمكن أن يصبحه هذا الشيء، لكنه يرسم لنا حدوده أيضا.

عندما يتحدث أرسطو عن «الشكل» و«المادة» لا يقصد الأجسام الحية فقط، فكما انه في «شكل» الدجاجة ان تقاقي، ان تصفق بأجنحتها وأن تبيض، فإنه من طبيعة الحجر أن يسقط أرضا. وكما لا تستطيع الأولى أن تمنع نفسها من المقاقاة، لا يستطيع الثاني أن يمنع نفسه من السقوط. لا شك أنك تستطيعين أن ترمي الحجر في الهواء، ولكن بما انه من طبيعته أن يسقط، فإنك لا تستطيعين رميه حتى يبلغ القمر. (انتبهي اذا قمت بهذه التجربة، لأن الحجر قد يحاول الانتقام، فيعود الى الأرض بأسرع ما يمكن. وحذار لمن يكون في طريقه!).

السبب الغائي

قبل أن ننتهي من هذا «الشكل» الذي تمتلكه كل الأشياء الحية والجامدة، والذي يكشف ما هي عليه «بالقوة»، أود أن أضيف أن أرسطو كان يمتلك مفهوما مدهشا لظواهر السببية في الطبيعة.

عندما نتحدث عن *«السبب»*، نحاول أن نفهم كيف حصل هذا الشيء أو ذاك. لقد كُسر زجاج النافذة لأن بيتر رماه بحجر. وأصبح الحذاء حذاءاً لأن الإسكافي قد خاط قطع جلد ببعضها. لكن أرسطو كان يعتقد بوجود عدة أنواع من العلل في الطبيعة. وهو يميز منها أربعاً. ومن المهم جدا أن نفهم ماذا كان يقصد بـ «السبب الغائي» أو «العلة الغائية». عندما نتحدث عن الزجاج المكسور، يكون من المشروع أن نسأل: *لماذا* رماه بيتر بحجر؛ نريد أن نعرف نيته. إما أن يدخل الهدف أو «الخطة» في تصنيع حذاء، فذاك شيء بديهي. لكن أرسطو يطبق هذه «النيّة» على الظواهر الطبيعية. وسيضيء لنا المثال التالي هذه النقطة الأخيرة:

لماذا تمطر السماء يا صوفي؟ لا شك أنك درست في المدرسة انها تمطر لأن بخار الماء الموجود في الغيوم، يبرد ويتكثف في نقاط تسقط على الأرض بفعل قانون الجاذبية. لم يجد ارسطو ما يقوله غير ذلك. لكنه أضاف ان ثلاثة علل تبرز غير هذا التفسير: «العلة المادية» وهو أن بخار الماء الحقيقي (الغيوم) كانت موجودة في مكانها، عندما برد الجو. «العلة الفاعلة» وهو أن بخار الماء يبرد. «العلة الشكلية» وهو أن من «شكل» أو طبيعة الماء السقوط على الأرض. وإذا كنت تكتفين بهذا، فإن أرسطو قد يضيف اليه: انها تمطر لأن النباتات والحيوانات تحتاج ماء المطر كي تنمو وتكبر، وهذا ما يسميه «الغائية». هكذا يعطي أرسطو لقطرات الماء غائية في الحياة، «خطة».

قد يراودنا ان نقلب المسألة ونقول ان النباتات تنمو بسبب وجود الرطوبة. هل التقطت الفرق، صوفي؟ أرسطو يعتقد أن لكل شيء في الطبيعة منفعته. المطر يسقط كي تستطيع النباتات أن تنمو، وأشجار

البرتقال والعنب تنمو كي يستطيع الإنسان أن يأكل.

في أيامنا، بات العلم يفكر بطريقة مختلفة. فنحن نقول ان الرطوبة والغذاء شرطان لحياة الإنسان والحيوان. ولو لم يتوافرا لما استطعنا أن نعيش. لكن الماء، والبرتقالة لا يملكان قصدية تغذيتنا.

أما في ما يتعلق بمفهومه للعلل، فإننا نكاد نؤكد أنه أخطأ. لكن حذار من الخروج باستنتاجات متسرعة. كثيرون يعتقدون أن الله قد خلق الكون بهذا الشكل كي يستطيع الناس والحيوانات أن يعيشوا. وإذا ما انطلقنا من هذا المبدأ نقول ان الماء موجود في الأنهار لأن الناس والحيوانات يحتاجونه ليعيشوا. لكننا في هذه الحالة نتحدث عن نية، أو خطة *الله*. فليست قطرات الماء أو مياه الأنهار، هي التي تريد لنا الخير.

المنطق

يلعب الفارق بين «الشكل» و«المادة» دورا هاما، عندما يصف أرسطو كيفية تمييز الإنسان للأشياء في العالم.

نحن نصنف الأشياء التي ندركها، في مجموعات أو فصائل مختلفة، أنا أرى حصانا، ثم آخر فآخر. ليست الجياد متشابهة تماما، ولكنّ ثمة شيء مشترك بينها كلها. عنصر التشابه هذا هو بالتحديد «شكل» الحصان. أما ما يميز حصانا عن آخر فيعود الى «مادة» الحصان.

هكذا نجول العالم ونحن نفصل الأشياء ونصنفها. نضع الأبقار في الحظيرة، الجياد في الإسطبل، الخنازير في مكانها والدجاج في القن. هذا هو بالضبط ما تفعله صوفي امندسون عندما ترتب غرفتها. فهي تضع الكتب على الرف، كتب المدرسة في الحقيبة، المجلات في درج المنضدة، تطوي الملابس بعناية وترتبها في الخزانة، القمصان على رف، السترات على ثانٍ والجوارب في درج منفصل. هذا ما نفعله في رؤوسنا: نميز بين الأشياء الحجرية، الصوفية والبلاستيكية. نميز الأشياء الحية من الجامدة، نميز بين النبات والحيوان والإنسان.

صوفي. أما زلت تتابعينني؟ كان أرسطو يريد أن يعيد ترتيب

الصبية التي هي الطبيعة. واهتم بأن يبرهن بأن كل الأشياء الموجودة في الطبيعة تنتمي الى مجموعات مختلفة، مقسمة بدورها الى مجموعات أصغر. (ان هرمز كائن حي، وبتحديد أكثر: حيوان، بتحديد أكثر: حيوان فقري، أكثر: حيوان لبون، أكثر: كلب، أكثر: كلب لابرادور، أكثر: لابرادور ذكر).

اصعدي الى غرفتك يا صوفي. خذي بيدك أي شيء عن الأرض، يمكنك أن تأخذي ما تشائين، وستجدين انه ينتمي الى مجموعة ما، فصيلة ما، وإذا ما وصلت يوما الى أن تجدي شيئا غير قابل للتصنيف، سيكون ذلك صدمة لك. اذا ما وجدت مثلا قطعة صغيرة، ولم تتمكني أن تعرفي ما اذا كانت تنتمي الى عالم الحيوان، أو النبات، أو المعادن، فاقسم لك إنك لن تتجرأي على لمسها.

لقد تحدثت عن عالم النبات والحيوان والمعادن. وأفكر الآن بتلك اللعبة التي نخرج فيها شخصا من الجلسة الى الممر، لنتفق على شيء في غيابه، يكون عليه أن يحزر ما هو، عندما يعود.

يتفق الفريق الصغير على الهرّ (مونز) الموجود في حديقة الجيران. ويعود الشخص المسكين يطرح أسئلته الأولى. وليس له أن يسمع جوابا إلاّ «نعم» أو «لا». أما اذا كان المسكين ارسطاطاليا (وعندها لا يكون مسكينا) يمكننا أن نتخيل الحوار التالي:

– أهو ملموس؟ (نعم!)
– أهو من عالم المعادن؟ (لا!)
– أهو كائن حي؟ (نعم!)
– أهو من عالم النبات؟ (لا!)
– أهو حيوان؟ (نعم!)
– عصفور؟ (لا!)
– لبون؟ (نعم!)
– حيوان؟ (نعم!)
– هر؟ (نعم!)
– أهو: مونز؟ (نعم)

لقد ابتكر أرسطو اذن، هذه اللعبة الاجتماعية. ونترك لأفلاطون اكتشاف لعبة «الغماية» في الظلام. أما ديمقريطس فقد سبق وشكرناه على فكرة (الليغو).

كان أرسطو رجلا منظما، أراد أن يرتب مفاهيم البشر. وبهذا كان من أسّس *«المنطق»* كعلم. حيث حدد عدة قواعد دقيقة، تجعل الاستنتاجات والبراهين مقبولة منطقيا. وسنأخذ مثالا على ذلك: اذا أكدت أن الكائنات الحية تموت (هذه مقدمة أولى) وأكدت أن هرمز كائن حي (هذه مقدمة ثانية) فإن النتيجة التي أخرج بها هي أن هرمز يموت.

يدل هذا المثال على أن منطق أرسطو يقوم على العلاقات بين المفاهيم؛ العلاقة بين مفهوم الحياة ومفهوم الموت، هنا. لكن حتى لو أردنا أن نعترف بأن أرسطو كان على حق في استنتاجه المنطقي، فيجب أن نعترف بأنه لم يخبرنا شيئا مهما، لأننا نعرف منذ البداية أن هرمز يموت (هو كائن حي وكل الكائنات الحية تموت بعكس قمم الجبال) أهذا ما تقولينه يا صوفي؟

أجل، الى هنا ولا شيء جديد. لكن العلاقات بين المفاهيم المختلفة ليست دائما واضحة وقطعية هكذا. وقد يبدو من الضروري أن ننظم مفاهيمنا قليلا.

هنا أيضا، نأخذ مثالا آخر: هل صحيح أن الفئران الصغيرة ترضع من أثداء أمهاتها كالخراف والعجول؟ أعرف أن الأمر قد يبدو مضحكا، ولكن لنتمهل قليلا: ثمة شيء أكيد: الفئران لا تبيض. وهي تلد كائنات صغيرة، مثلها مثل الغنمة أو البقرة. والحيوانات التي تلد تسمى «لبونة» ومعنى لبونة: أن ترضع من ثدي أمها.

ها نحن نحمل الجواب في أنفسنا. لكن علينا أن نفكر لحظة، نفكر بالسؤال. ففي غمرة حماستنا نسينا أن الفئران ترضع من أمهاتها، ربما لأننا لم نر أبدا فأرة ترضع، كون الفئران تنزعج من ارضاع صغارها أمامنا.

سلم الطبيعة

عندما ينشغل أرسطو «بترتيب منزل» الوجود، يبدأ بالقول ان كل ما في الطبيعة يمكن أن يقسم الى فريقين رئيسين: *الجمادات* كالحجارة وقطرات الماء وتراب الأرض؛ وهذه لا تملك بذاتها امكانية التحول الى شيء آخر، وانما يمكن أن تتحول، فقط، بتدخل عوامل خارجية. من جهة أخرى هناك *الأحياء* وهي تحمل بذاتها امكانية التحول.

يقسم أرسطو «الأشياء الحية» الى فريقين: *النباتات الحية* (أو النباتات) *والكائنات الحية*، ومن ثم تنقسم الكائنات الى قسمين *الحيوانات، والإنسان*.

لنقل ان هذا التصنيف واضح وبسيط.فالفرق بين الكائن الحي المتحرك والجماد، أساسي، كذلك بين الحيوان والنبات. وأضيف أن الفارق واضح أيضا بين الحصان والإنسان. ولكن لو أردنا أن نكون أكثر دقة لسألنا: أين تكمن هذه الفوارق؟ هل بإمكانك أن تجيبيني؟

للأسف ليس لدي متسع من الوقت لأنتظر جوابك كتابة بعد أن تدسي قطعة سكر في الظرف الوردي، لذلك أجيب بنفسي: عندما يفصل أرسطو الظواهر الطبيعية الى فصائل مختلفة، فهو انما ينطلق من صفات الأشياء .. وبتعبير أكثر دقة، مما تستطيع الأشياء *أن تفعله* أو مما *تفعله*. فكل الكائنات الحية تتغذى، وتكبر وتنمو من تلقاء ذاتها. كل الكائنات الحية من حيوان وانسان تمتلك القدرة على إدراك العالم المحيط بها، وعلى التحرك في الطبيعة. وكل البشر يمتلكون، اضافة الى ذلك، القدرة على التفكير؛ أي على تصنيف إحساسات حواسهم في فصائل ومجموعات مختلفة.

من هذه الزاوية، لا تظل هناك حدود واضحة في الطبيعة. اذ ننزلق من الأكثر بساطة الى الأكثر تعقيدا سواء بالنسبة للنبات أو الحيوان. وفي أعلى هذا السلم يقف الإنسان، الذي تختصر حياته، برأي أرسطو، حياة الطبيعة كلها. فالإنسان يكبر ويتغذى كالنبات، ويمتلك القدرة على

إدراك العالم، والتحرك فيه كالحيوان، اضافة الى كونه الوحيد الذي يمتلك قدرة استثنائية، هي القدرة على التفكير العقلاني.

بهذا يمتلك الإنسان جزءا من العقل الإلهي، أجل يا صوفي. قلت: الهي .. فأرسطو يقول في مقاطع كثيرة انه لا بد من وجود اله وضع الكون كله في حالة حركة، وبهذا يكون الله هنا في أعلى سلم الطبيعة.

كان أرسطو يعتقد أن حركة النجوم والكواكب تسيطر على الحركة على الأرض، ولكن لا بد من وجود قوة تسيطر على حركة الفضاء والكواكب والنجوم. وهذه القوة هي ما يسميه أرسطو «المحرك الأول» أو «الله» والمحرك الأول لا يتحرك، لكنه هو «العلة الأولى» لحركة المجرة، مصدر كل حركات الطبيعة.

علم الأخلاق

لنعد الى الإنسان، يا صوفي، ان «شكل» الإنسان برأي أرسطو هو انه يمتلك «نفس نبات» (نفساً نباتية) و«نفس حيوان» (نفساً حسية) و«نفساً من عقل» (نفساً فكرية) ولذا يتساءل: كيف يتوجب على الإنسان أن يعيش؟ ما الذي يلزم الإنسان ليعيش حياة متفتحة؟

سأجيب بجملة واحدة: لا يكون الإنسان سعيدا إلا إذا نمّى كل القدرات التي يملكها بالقوة.

كان ارسطو يميز ثلاثة أنواع من السعادة: الشكل الأول هو الحياة في المتعة والتسلية. الشكل الثاني هو أن تعيش كمواطن حر ومسؤول. الشكل الثالث هو أن تعيش عالما وفيلسوفا.

ويؤكد أرسطو على أن هذه الشروط الثلاثة يجب أن تجتمع، كي يعيش الإنسان حياة سعيدة. ويرفض كل أشكال التحيز. لكنه، لو عاش في أيامنا، لكان انتقد الذي لا ينمي إلاّ جسده وحده أو عقله وحده. ففي الحالين يكون الأمر تطرفا ليس إلاّ، تعبيرا عن نمط حياة غير متوازن.

فيما يخص العلاقة بالبشر الآخرين، حدد أرسطو الطريق الأفضل:

يجب ألا نكون جبناء، ولا متهورين، وانما *شجعانا*. فالقليل من الشجاعة جبن، والكثير منها وقاحة لا فائدة منها. كذلك يجب ألا نتصرف كبخلاء ولا كمبذرين، وانما *ككرماء*. هنا أيضا القليل من الكرم يكون بخلا، والكثير منه يكون مثل رمي النقود من النافذة.

القاعدة ذاتها تطبق على الطعام. فمن الخطر أن ناكل كثيرا، ومن الخطر أن ناكل قليلا. ويذكرنا علم الأخلاق لدى أرسطو – كما لدى أفلاطون – بالطب الإغريقي: العيش بتوازن واعتدال، هو الوسيلة الوحيدة للإنسان كي يعرف السعادة أو «التناغم».

السياسة

في مفهوم أرسطو للمجتمع تتبدى من جديد فكرة انه يجب على الإنسان ألاّ يتوقف عند مظهر واحد من مظاهر الأشياء. فالإنسان «حيوان اجتماعي» كما يقول: وبدون المجتمع حولنا لا نكون بشرا حقيقيين. فالأسرة والقرية تغطيان حاجاتنا الأساسية للحياة، كالغذاء، الدفء، الزواج وتربية الأطفال. أما الشكل الأعلى للمجتمع، فلا يمكن أن يكون إلاّ الدولة.

اذن، كيف تنظم الدولة؟ (لا شك أنك تذكرين مدينة أفلاطون). يعدد أرسطو ثلاثة أشكال ناجحة للدولة: *الملكيّة*، وهي التي لا يكون فيها إلا رئيس واحد، وكي يكون هذا الشكل صالحا يجب ألا تخضع «للطغيان» أي لسيطرة رجل واحد يوجه الأمور لمصلحته الشخصية. الشكل الآخر هو الأرستقراطية، حيث نجد عددا متفاوتا من المسؤولين، ويجب الحرص على عدم تحول هذا الشكل الى لعبة في يد مجموعة من الحكام، ما نسميه اليوم «الطغمة العسكرية». أما الشكل الثالث فهو ما يسميه أرسطو (بوليتي) أي *الديمقراطية*. لكن لهذا الشكل أيضا محاذيره، حيث انه من الممكن أن تتحول ديمقراطية الى دولة شمولية.

صورة المرأة

أخيرا، نأتي الى رؤيته لموضوع المرأة. وللأسف انها ليست سامية كرؤية أفلاطون. حيث لم يكن أرسطو بعيدا عن الاعتقاد بأن ثمة ما ينقص المرأة. انها «رجل غير كامل». ففي عملية الإنجاب تكون المرأة سلبية وتتلقى، في حين يكون الرجل ايجابيا ويعطي. ولا يرث الطفل، بحسب أرسطو، إلاّ صفات أبيه. اذ كان يعتقد أن كل صفات الطفل تكون كاملة، مكتملة في مني الرجل. فالمرأة كالأرض تكتفي بتلقي البذار وجعله ينمو، في حين ان الرجل كالفلاح الذي يبذر. وبمصطلح أرسطو الرجل يعطي «الشكل» والمرأة تعطي «المادة».

انه لمن العجيب والمؤسف أن يخطىء رجل ذكي كأرسطو، هذا الخطأ الجسيم في فهم العلاقة بين الرجل والمرأة. لكن هذا يبرهن على شيئين: أولا انه لم تكن لأرسطو خبرة بحياة النساء والأطفال. ثانيا: كم هو خطير أن يظل الرجال مسيطرين تماما على الفلسفة والعلوم.

لقد كان خطأ أرسطو فيما يخص المرأة، كارثة، ذاك أن نظريته – لا نظرية أفلاطون – هي ما ساد حتى القرون الوسطى، حتى في أوساط الكنيسة، التي لم تستند في موقفها الى الإنجيل. حيث إن السيد المسيح لم يكن عدوا للمرأة!

الى هنا أتوقف. الى أن تصلك أخباري لاحقا.

عندما انتهت صوفي من قراءة درس أرسطو، جمعت الأوراق في الظرف الأصفر، والقت نظرة على غرفتها، ففوجئت بالفوضى التي تسودها، فالأرض مزروعة بالكتب والدفاتر، ومن الخزانة تطل الجوارب والقمصان والسراويل، في حين تتكدس على الكرسي كومة ملابس للغسل.

أحست برغبة قوية في ترتيب الأشياء، وكان أول ما فعلته أنها أفرغت كل أدراج الخزانة، ومددت كل شيء على الأرض. كان من المهم أن تبدأ من الصفر. ثم أخذت تطوي ملابسها قطعة قطعة بعناية، وتعيدها الى

الرفوف، التي كان عددها سبعة: فخصصت واحدا لملابس السباحة والقمصان، وواحدا للجوارب والملابس الداخلية، واحدا للسراويل الخ .... وانتهت الى ملئها كلها بسهولة، حيث كانت تعرف بدقة أين تضع كل شيء. ثم دست الملابس الوسخة في كيس بلاستيكي.

توصلت الى ترتيب كل شيء إلاّ جوربا نصفيا أبيض؛ كان الوحيد من نوعه اضافة الى أنه ليس لها.

تفحصت كل حشاياه علها تجد حرفا أو اسما، وعندما لم تجد، وضعته أعلى الخزانة، قرب الليغو، والمنديل الحريري الأحمر.

ثم جاء دور المكتبة، فأنزلت صوفي كل ما فيها من الكتب والدفاتر والصور والملصقات، وعندما انهت ترتيبها كلها - كما قال أستاذ الفلسفة في كلامه عن أرسطو - انتقلت الى ترتيب السرير، ثم المكتب.

أخيرا جمعت أوراق فصل أرسطو، وأعادت ترتيبها، في ملف دسته على الخزانة قرب الليغو والجورب الأبيض. وقررت أن تذهب خلال النهار، لإحضار العلبة التي في الكوخ.

من الآن فصاعدا ستكون كل الأشياء منظمة، ولا ينطبق هذا على الغرفة فقط، فقد فهمت أنه من المهم تنظيم مفاهيمنا وأفكارنا. المكان الوحيد الذي ظل خارج النظام هو هذا الرف الأعلى الذي خصصته للأشياء المختلفة.

نزلت صوفي السلم، وقبل أن توقظ أمها، حرصت على اطعام حيواناتها.

في المطبخ انحنت فوق حوض السمك.. كانت احدى السمكات سوداء، والثانية برتقالية، والثالثة حمراء وبيضاء، ولذا أسمتها صوفي: (بيتر السوداء) و (قرط الذهب) و(ليلى الحمراء). راحت ترمي لها الطعام المكون من ديدان الماء، قائلة:

- أنت تنتمين الى عالم الأحياء في الطبيعة؛ لذا بإمكانك أن تتغذي، تكبري، وتنمي. وبتحديد أكثر: أنت تنتمين الى عالم الحيوان، بإمكانك أن تتحركي وتنظري حولك. وبدقة أكثر: أنت سمكة تستطيعين أن تتنفسي بوساطة الخياشيم، وأن تسبحي في ماء الحياة في كل الاتجاهات.

أغلقت صوفي علبة الديدان، وأحست بالرضى عن موقع السمكة الحمراء في الطبيعة، وعن تعبير «ماء الحياة»، وهي تخاطبها:

كري كري، غري غري، يا عزيزتي! لقد خرجتما من بيضتين صغيرتين، لتصبحا ببغاوين رائعتين. ولأن من طبيعة هذه البيضة أن تعطي درّة (أي أنثى الببغاء)، فأنتما لستما ببغاوين ذكرين ثرثارين.

انتقلت صوفي الى الحمام. هناك تعيش، في صندوق كبير، سلحفاتها الكسولة. كثيرا ما تسمع أمها تصرخ – وهي تأخذ حمامها – بأنها ستقتلها يوما.. لكن ذلك يظل مجرد تهديد. أخرجت صوفي ورقة خضراء، ووضعتها في قاع الصندوق الكرتوني.

– عزيزتي جوفيندا! لا يمكننا القول انك تشكلين جزءا من الحيوانات الأكثر سرعة، لكنك حيوان له مكانه الصغير في عالمنا الكبير، وإذا كان هذا يمكن أن يعزيك، قولي لنفسك انك لست الوحيدة التي تحاول أن تسبق.

أما شيريكان، فلا بد انه ذهب يصطاد الفئران حسب طبيعته كهر. في طريقها الى غرفة نوم أمها، عبرت الصالة، حيث كانت على الطاولة مزهرية مليئة بالنرجس، وأحست بأن الزهور الصفراء انحنت لها باحترام، فتوقفت لحظة تداعب بأصابعها التويجات الملساء.

– أنت أيضا تنتمين الى عالم الأحياء في الطبيعة – قالت لها – من هنا تمتلكين أفضلية على الإناء البلوري. للأسف أنت غير قادرة على إدارك ذلك.

أخيرا دخلت غرفة أمها، التي كانت تزال تغط في نوم عميق، فوضعت كفها على رأسها قائلة:

– أنت واحدة من أسعد المخلوقات هنا، ذاك أنك لست فقط حية كزهور النرجس في الحقل، ولا كائنا حيا كشيريكان وجوفيندا. أنت كائن بشري: أي أنك تملكين قدرة نادرة: القدرة على التفكير.

– ماذا تقولين يا صوفي؟

ها هي تستيقظ بأسرع قليلا من المعتاد.

– أقول إنك تشبهين سلحفاة رائعة. ثم، وإذا كان الأمر يهمك، فللعلم:

انني رتبت غرفتي، وقمت بهذه المهمة كتطبيق فلسفي.

استوت الأم في السرير:

– انتظري. سأنهض. هل بإمكانك أن تهيئي لي فنجانا من القهوة؟

نفذت صوفي الطلب، وفي المطبخ جلستا حول القهوة والشوكولاته وعصير الفواكه لتقطع صوفي الصمت بقولها:

– هل تساءلت يوما يا أمي: لماذا نحيا؟

– آه، أنت حقا لن تدعيني وشأني!

– بلى، لأنني أملك الجواب الآن: ان بشرا يعيشون على هذه الأرض، كي يكون هناك من يتجول عليها معطيا اسما لكل شيء هنا.

– آه! أنا لم أفكر بهذا أبدا.

– اذن لديك مشكلة كبيرة. ذاك أن الإنسان كائن مفكر.. وإذا كنت لا تفكرين، لا تكونين انسانا.

– صوفي!

– تخيلي لو لم يكن على الأرض إلا نبات وحيوان، لما كان هناك من يميز القطط من الكلاب، والنرجس من الورد، فالحيوان والنبات أحياء مثلنا، لكننا وحدنا من يستطيع تصنيف الطبيعة في فصائل مختلفة.

– أنت فتاة غريبة فعلا. علقت الأم

– آمل ذلك! ردت صوفي. كل البشر غريبون بنسبة أو بأخرى. وأنا بشر، اذن أنا غريبة. وأنت ليس لك إلا ابنة واحدة، اذن من الطبيعي أن أبدو لك «ابنة غريبة».

– كل ما أريد قوله: إنك تخيفينني بكل هذه ... الجدالات ...

– ايه! لا يحتاج الأمر للكثير لإخافتك!

في فترة ما بعد الظهر ذهبت صوفي الى كوخها، لأخذ العلبة، ونجحت في نقلها الى غرفتها دون أن تراها الأم.

بدأت بتنظيم الأوراق وفق الترتيب الزمني، ثم جمعتها في الملف مع درس أرسطو، ورقمتها، في أعلى الصفحة على اليمين. أصبح لديها أكثر من خمسين، وإذا هي، في الواقع، تجمع كتابها الأول في الفلسفة. صحيح انها ليست هي من كتبه، ولكنه كُتب لها خصيصا.

لم تكن قد وجدت بعد وقتا للتفكير بالواجبات المدرسية، ليوم الاثنين. قد تواجه امتحانا خطيا في الدين.. لكن الأستاذ طالما ردد أنه يتمنى اتخاذ الموقف الفكري، وابداء الرأي الشخصي. وهي تعي بأنها بدأت تعرف كيف تقيم الحجة.

الهللينية

... قبس من النار...

كان أستاذ الفلسفة قد أخذ يرسل الرسائل مباشرة الى الكوخ القديم، لكن صوفي ظلت - بفعل العادة - تلقي نظرة على صندوق البريد، كل يوم اثنين.

كان الصندوق فارغا. ولا بد من توقع ذلك. عندها نزلت عبر زقاق النفل .. وفجأة .. رأت على الأرض صورة فوتوغرافية لسيارة جيب بيضاء وعليها علم يحمل أحرف «UN» أليس هذا علم الأمم المتحدة؟

قلبت صوفي الصورة وإذا هي بطاقة بريدية مرسلة الى «هيلد مولر كناغ/ عن طريق صوفي أمندسون ....».

كانت الطوابع التي تحملها نرويجية، والختم ختم «وحدة الأمم المتحدة» بتاريخ ١٥ حزيران ١٩٩٠

١٥ حزيران! انه عيد ميلاد تاريخ صوفي!

أما النص المكتوب على البطاقة فيقول:

عزيزتي هيلد

أفترض ان عيد ميلادك لم يمر، وألاّ يكون موعده غدا! أتمنى أن تصلك بطاقتي في اليوم ذاته. وليس المهم معرفة، كم من الوقت ستستفيدين من هذه الهدية، لأن ذلك سيدوم طوال حياتك. اذن دعيني أتمنى لك عيدا سعيدا! أعتقد انك فهمت لماذا أرسل البطاقات الى صوفي، لأنني على ثقة عميقة بأنها ستنقلها لك.

ملاحظة:

قالت لي أمك، انك أضعت محفظتك، وأعدك بأن أعطيك ١٥٠ كوروناً سويدياً لشراء غيرها. أما بالنسبة لبطاقتك المدرسية، فيمكنك أن تحصلي من المدرسة بسهولة، على بدل منها ، قبل العطلة الصيفية.

والدك الذي يقبلك بحنان

وقفت صوفي ذاهلة، كأنّ قدميها مسمرتان بالإسفلت. ما هو التاريخ الذي كان مثبتا على البطاقة السابقة؟ ثمة شيء ما داخلها يقول انه ذاته التاريخ الذي على هذه: ١٥ حزيران. رغم أنها لم تنتبه يومها الى ذلك.

نظرت الى ساعتها .. ثم انطلقت بسرعة عائدة الى البيت. لا بأس في أن تتأخر قليلا عن موعد خروجها ..

في غرفتها وجدت البطاقة السابقة تحت المنديل الحريري. واكتشفت ان تقديرها في محله: ١٥ حزيران: عيد ميلاد صوفي. وآخر أيام الدوام المدرسي قبل العطلة الصيفية.

لم تتوقف أفكارها عن التدافع وهي تعدو للقاء جورون في المركز التجاري.

من هي هيلد؟ كيف يكو ن والدها واثقا من أن صوفي ستهتدي اليها؟ على أية حال، انه لأمر عبثي تماما، أن يرسل الأب البطاقات اليها بدلا من ارسالها مباشرة الى ابنته! أهي مزحة أم ماذا؟ هل أراد مفاجأة حلوة لابنته، باستخدام فتاة مجهولة للعب دور الرسول؟ الهذا السبب كانت البطاقات مؤرخة قبل شهر؟ هل كان يتخيل انه، باستخدام صوفي كرسولة، يقدم لابنته صديقة جديدة، هدية في عيد ميلادها؟ أهي، هذه الهدية التي ستدوم «طوال الحياة»؟

وإذا كان هذا الأب الغريب موجوداً في لبنان، فكيف حصل على عنوانها؟ على أية حال، هناك شيء مشترك بين هيلد وصوفي: فهما مولودتان في اليوم نفسه، وأبواهما بعيدان يجوبان العالم.

أحست صوفي انها تقاد الى عالم سحري. يبدو ان الإيمان بالقدر، ليس أمراً مستنكراً. لكن عليها ألاّ تتسرع في الخروج باستنتاجات.

لا بد أن هناك تفسيرا. لكن، كيف حصل أن وجد البرتو كنوكس محفظة هيلد، التي تسكن في ليلساند، على بعد عدة كيلومترات من الشاليه؟ ولماذا وجدت صوفي البطاقة البريدية على الأرض؟ هل سقطت من حقيبة ساعي البريد، قبل أن يصل الى صندوق بريد صوفي؟ وفي هذه الحال، لماذا سقطت هذه البطاقة بالذات؟

– لا! ألم تنظري الى ساعتك؟

صرخت جورون عندما رأت صوفي، تصل الى المركز التجاري
– أعرف ...
حدجتها جورون بنظرة قاسية كأنها نظرة أستاذ مدرسة.
– آمل أن عندك عذرا مقبولا.
– نعم .. ولكن لنؤجل الحديث عن ذلك الآن.
– حسناً.. أنت مغرمة، أليس كذلك؟
ثم أسرعتا تعدوان الى المدرسة بأسرع ما يمكن.
في الحصة الثالثة، جاء امتحان الدين الذي توقعته صوفي دون أن تجد وقتا لمراجعة مادته، وكان التالي:

مفهوم الحياة والتسامح

١) ضعي قائمة بما يجب أن يعرفه الإنسان، ثم قائمة بما يجب أن يؤمن به.
٢) أذكري بعض العوامل التي تحدد مفهوم حياة انسان.
٣) ما المقصود بـ «ضمير»؟ وهل أن الضمير هو هو لدى الجميع، برأيك؟
٤) ما المقصود بـ «سلم القيم»؟

ركزت صوفي تفكيرها طويلا قبل أن تكتب السطر الأول. هل كان بإمكانها أن تستعمل شيئا من الذي تعلمته من البرتو كنوكس؟ في الواقع، كانت مجبرة على ذلك، وبدأت الأفكار تتدفق من قلمها.

كتبت اننا نعرف أن القمر ليس قرصا كبيرا من الجبن، وان ثمة أشياء كثيرة مجهولة، على الصفحة المخفية للقمر. ان سقراط والسيد المسيح حكما بالموت. إن كل الكائنات البشرية ستموت يوما ما، ان المعابد الكبيرة على الاكروبول قد دمرت خلال الاجتياح الفارسي نحو ٤٠٠ ق.م. وان العرافة الرئيسة لدى الإغريق كانت عرافة دلفي. وكمثال على ما يمكن ان نعتقده فقط، أوردت مسألة وجود الحياة على الكواكب

الأخرى: مسألة وجود الله، وجود حياة بعد الموت، وما اذا كان المسيح ابن الله أو مجرد انسان عبقري.

«وعلى أية حال، فإننا لا نستطيع ان نعرف أصل العالم». يمكننا أن نقارن الكون بأرنب كبير يخرج من قبعة الساحر. بينما يحاول الفلاسفة تسلق شعرة دقيقة ليتمكنوا من النظر في عيني الساحر الكبير. تُرى هل سيتوصلون الى ذلك يوماً؟ ذاك هو السؤال. ولكن، إذا صعد كل منهم على ظهر الآخر، فإنهم سيبتعدون أكثر فأكثر عن الفروة الرخوة. وباعتقادي انهم سينجحون يوماً.

ملاحظة:

«في الكتاب المقدس حكاية عما يمكن أن تكون احدى هذه الشعيرات الملساء. انها برج بابل الذي اندثر لأن الساحر الكبير لم يتقبل ان يطمح أناس صغار في الارتفاع الى حد الإفلات من الأرنب الأبيض الذي خلقه.»

انتقلت صوفي الى السؤال الثاني: *«أذكري بعض العوامل التي تساهم في تحديد مفهوم حياة انسان.»* معروف ان المحيط والتربية يلعبان دوراً أساسياً. فالذين عاشوا في عصر أفلاطون، امتلكوا رؤية ومفهوماً مختلفين للحياة، وذلك، ببساطة، لأنهم عاشوا في حقبة ومحيط مختلفين. كذلك تلعب التجارب دوراً هاماً. أما العقل، فلا علاقة له بالمحيط، لأنه مشترك بين جميع البشر. ربما كنا نستطيع أن نقارن المحيط والظروف الإجتماعية بالوضع الذي تخيله أفلاطون داخل الكهف، حيث يسمح العقل للفرد، بأن يترك، زاحفاً، عتمة الكهف، لكن مشروعاً كهذا يتطلب جرعة كبيرة من الشجاعة الذاتية.. كحال سقراط الذي يشكل مثالاً جيداً لشخص استطاع أن يتجاوز الآراء السائدة في زمنه، عن طريق تحكيم عقله.

كل هذا جعل صوفي تصل الى الاستنتاج التالي: «في أيامنا، أصبح البشر من بلدان وثقافات مختلفة، يتمازجون أكثر فأكثر، حيث نستطيع أن نجد في عمارة واحدة: مسيحيين، ومسلمين وبوذيين. ولذا يصبح أكثر أهمية أن يحترم كل واحد معتقدات الآخر، من أن يتساءل لماذا لا يماثله

في معتقداته.»

هكذا وجدت صوفي أن لا بأس في افادتها مما تعلمته من أستاذ الفلسفة. يكفيها أن تضيف بعض الملاحظات هنا وهناك، وأن تستعيد بعض الجمل التي قرأتها أو سمعتها في سياق آخر.

بعدئذ انتقلت إلى السؤال الثالث: «*ماذا نقصد بكلمة ضمير؟ وهل الضمير هو هو بالنسبة لجميع البشر؟*» انه موضوع كثيرا ما نوقش في الصف، وعنه كتبت صوفي: «المقصود بالضمير، بشكل عام، قدرة البشر على التصرف ازاء الصواب والخطأ. وبرأيي أن كل الناس يمتلكون هذه القدرة. أو بتعبير آخر نقول ان الضمير فطري في البشر. وذاك ما كان سيقوله سقراط. لكن الضمير قد يختلف كثيرا من شخص لآخر. ومن المشروع التساؤل، عمّا إذا لم يكن السفسطائيون على حق في هذا المجال. انهم يعتقدون بأن التمييز بين الخطأ والصواب يتعلق قبل كل شيء بالمحيط الذي يتربى فيه الفرد، في حين يعتقد سقراط بأن الضمير فطري ومشترك لدى جميع البشر. انه لمن الصعب القول أيهما على حق، ذاك انه إذا كان بعضهم لا يمنعه ضميره من الظهور عاريا، فإن أكثرية الناس، يُتعبهم ضميرهم إذا أساؤوا للآخرين. وهنا يجب أن نحدد بدقة أن ثمة فارقاً بين أن يكون لنا ضمير وأن نستعمله. وربما بدا لنا أن بعض الناس يتصرفون دون أية روادع، لكن لدى هؤلاء –برأيي– ضمير حي، حتى ولو كان مخبّأً. كما أن بعض الناس يبدون محرومين من العقل، لكن الواقع أنهم لا يستخدمون عقلهم.

ملاحظة:

أن العقل، كالضمير، يشبهان عضلة، اذا لم نستعملها تضعف شيئا فشيئا.

لم يتبق لصوفي إلاّ السؤال الأخير:

«ماذا نقصد بسلم القيم؟». انه موضوع (على الموضة). فليس أفضل من معرفة قيادة السيارات، للانتقال بسرعة من مكان الى آخر. لكن السيارات تساهم في موت الغابة وفي تلويث البيئة، مما يجعلنا في مواجهة قضية أخلاقية. كتبت صوفي تقول ان غابة سليمة، وطبيعة

نظيفة، لأهم من الوصول بسرعة الى المكان المقصود. عددت أمثلة أخرى لتخرج بنتيجة: «ان رأيي الشخصي هو ان الفلسفة أهم من قواعد اللغة الإنكليزية. وعليه يكون من باب احترام سلم القيم أن نأخذ بعضا من ساعات اللغة الإنكليزية، كي ندخل الفلسفة في البرنامج.».

خلال الاستراحة، انتحى الأستاذ بصوفي جانبا.

– لقد صحّحت امتحانك. انه ذو مستوى عال.

– أرجو أن يكون قد أسعدك.

– هذا ما أردت أن أحدثك بشأنه. فمن جهة أجبت بنضج كبير؛ أجل نضج مذهل، وذاتي جدا.. ولكنك لم تراجعي الدرس، أليس كذلك؟

ردت صوفي مدافعة.

– أنت قلت لنا إنك تتمنى الآراء الشخصية.

– ليكن .. لكن هناك حدود.

نظرت صوفي في عيني أستاذها .. كانت تجد، أن من حقها أن تسمح لنفسها بذلك، بعد كل ما تعيشه.

– أنا أدرس الفلسفة. وهذا يعطيني أسسا جيدة لتكوين آرائي الشخصية.

– لكنه يجعل تقييم امتحانك صعبا. فإما أن أضع لك علامة كاملة، وإما صفرا.

– أي أن ما كتبته هو إما صحيح تماما وإما خاطىء تماما؟

– اطمئني.. لنقل علامة كاملة، على ألا يمنعك ذلك من مراجعة دروسك في المرة القادمة!

عندما عادت صوفي من المدرسة الى البيت، رمت حقيبتها على السلم وركضت الى الكوخ، فوجدت ظرفا أصفر كبيرا على الجذر الضخم.

كانت زواياه جافة تماما، مما يعني أن هرمز قد جاء به منذ وقت طويل.

حملت الظرف الى المنزل. وبعد ان قدمت الطعام لكل حيواناتها، صعدت الى غرفتها، حيث تمددت على سريرها، فتحت الظرف وراحت تقرأ:

الهللينية

كيف تسير أمورك، صوفي؟

لقد سبق وحدثتك عن فلاسفة الطبيعة؛ عن سقراط وأفلاطون وأرسطو، وبهذا تكونين قد وضعت يدك على أسس الفلسفة الغربية. ولذا سنتخلى من الآن فصاعدا، عن الأسئلة، التي أعطيك اياها واجبا بين الدرس والآخر، لتتأملي، والتي أرسلها في ظرف أبيض، فلديك ما يكفيك من الواجبات في المدرسة.

سأحدثك عن المرحلة الطويلة الممتدة من أرسطو الى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وحتى بداية القرون الوسطى أي نحو ٤٠٠ ب.م. تلاحظين أننا نؤرخ ق.م . و ب.م، ذاك أن الميلاد مرحلة مفصلية، حصل فيها شيء أساسي وغريب: المسيحية.

مات أرسطو عام ٣٢٢ ق.م، وذلك تاريخ انحسرت فيه هيمنة أثينا. فكان ذلك نتيجة المتغيرات السياسية الكبيرة، وفتوحات *الإسكندر الكبير* (٣٦٥ - ٣٢٣ ق.م).

كان الإسكندر الكبير ملك مقدونيا. وأرسطو أيضا من مقدونيا، بل انه كان مرشدا للإسكندر الفتى. وكان الإسكندر هو الذي حقق الانتصار الحاسم على الفرس، وحقق شيئا آخر هاما: اذ ربط، بوساطة جيشه الكبير، مصر والشرق كله، حتى الهند، بالحضارة الإغريقية.

انه الدخول في عصر جديد من التاريخ الإنساني، يولد فيه مجتمع دولي جديد، تلعب فيه اللغة والثقافة الإغريقيتان دورا مهيمنا. هذه المرحلة التي دامت ٣٠٠ سنة هي ما أطلق عليه اسم «*الهللينية*» ويغطي مصطلح *الهللينية*، المرحلة المذكورة، كما يغطي الثقافة التي غلب عليها الطابع الإغريقي، والتي تفتحت في الممالك الثلاث الكبرى: مقدونيا، مصر، وسوريا.

ابتداءً من العام ٥٠ ق.م، انتقلت السيطرة العسكرية والسياسية الى يد روما. حيث استطاعت القوة الجديدة ان تضم المقاطعات الهللينية واحدة اثر أخرى، وبذلك جاء دور الثقافة اللاتينية، في التوغل عميقا

داخل آسيا، وفي الامتداد غربا حتى اسبانيا. كان هذا بداية *العصر الروماني*، أو ما نسميه *العصور القديمة المتأخرة*. لكن يجب أن نسجل شيئا هاما: عندما نجح الرومان في احتلال العالم الهلليني، كانت روما قد أصبحت مقاطعة من مقاطعات الثقافة الإغريقية. مما يفسر استمرار الثقافة الإغريقية، ومنها الفلسفة الإغريقية، في لعب دور هام، رغم أن الإغريق لم يعودوا، على الصعيد السياسي، إلا مجرد ممثلين للحمة.

دين فلسفة وعلم

تميزت الهللينية بسيادة النمط الإغريقي الذي كان يتجاهل الحدود بين الشعوب وثقافاتها. فقد كان الرومان المصريون، البابليون، السوريون، والفرس، يعبدون الهتهم في اطار ما نستطيع ان نطلق عليه «ديانة قومية». ومع الهللينية راحت الثقافات المختلفة تذوب فيه عشوائيا، كل المفاهيم الدينية والفلسفية، والعلمية.

لقد حل المسرح العالمي مكان الساحة العامة. وحتى هذه الساحة، راحت تترجّع في أرجائها أصوات تبيع كل أنواع البضائع والأفكار. الجديد أن الأسواق صارت تغص بالمحاصيل والأفكار القادمة من كل أنحاء العالم، وتُسمع فيها كل لغات العالم.

أن يكون الفكر الإغريقي قد وجد في هذه الأسواق مكانه المفضل، حتى وراء حدود المقاطعات الهللينية، فذاك ما ذكرناه سابقا. وقد ساعد عليه كون آلهة المشرق كانت تُعبَد على كل شواطىء المتوسط. وكثيرا ما ظهرت ديانات جديدة، اقتُبست آلهتها من ديانات أمم قديمة.. ذاك ما أطلقت عليه تسمية *التوفيقية* أو مزيج الأديان.

لقد كان الناس قديما شديدي الارتباط بشعوبهم ومدنهم، ومع إزالة الحدود والتخوم، أحس الكثيرون بالشك، في رؤيتهم للحياة. وهكذا كان يخيم على العصور القديمة المتأخرة جو الشك، وانهيار القيم الثقافية والتشاؤم. ومقولة: «ان العالم شيخ».

تشترك جميع الديانات التي رأت النور في العصر الهلليني في نقطة

هي: معرفة تعليم يحرر البشر من الموت. وغالبا ما كان هذا التعليم سريا. فبممارسة بعض الطقوس يستطيع الإنسان أن يأمل خلود الروح والحياة الأبدية. لكن امتلاك معرفة حدسية، بالطبيعة الحقيقية للكون، لم يكن يقل أهمية عن احترام الممارسات الدينية الهادفة الى خلاص النفس.

هذا، فيما يخص الديانات الجديدة، صوفي. لكن الفلسفة، اتجهت أيضا أكثر فأكثر نحو السلام وصفاء الحياة. لم تعد قيمة الفكر الفلسفي، بذاته، بل بقدرته على جعل الإنسان يتحرر من قلق الموت والتشاؤم. وبهذا أصبحت الحدود بين الفلسفة والدين، رقيقة جداً.

ولا نخطيء اذا قلنا إن الفلسفة الهللينية لا تلتمع بجدّتها. فليس في أفقها أي سقراط أو أفلاطون أو أرسطو. ومع ذلك فإن فلاسفة أثينا الثلاثة الكبار، قد ساهموا بقوة في الهام عدة تيارات فلسفية، سأوضح لك خطوطها العريضة.

كذلك تميز *العِلم* الهلليني بكونه مزيج تجارب الثقافات المختلفة. ولعبت مدينة الإسكندرية دورا أساسيا بوصفها نقطة التقاء الشرق والغرب. وفي حين ظلت أثينا عاصمة الفلسفة، بمدارسها الفلسفية الموروثة عن أرسطو وأفلاطون، أصبحت الإسكندرية عاصمة العلم. وبمكتبتها الاستثنائية، أصبحت هذه المدينة مركز علم الرياضيات وعلم الفلك وعلم الأحياء والطب.

يمكن مقارنة الثقافة الهللينية بعالمنا اليوم، حيث إن القرن العشرين يتميز أيضا بكونه مجتمعا مفتوحا للمؤثرات الخارجية. مما تسبب في انقلابات كثيرة في مجال الدين ورؤية الحياة. وكما كان يمكن أن نجد في روما القديمة، معابد لآلهة اليونان والمصريين والشرقيين، فإننا نجد اليوم، في كل عاصمة أوروبية، أتباعاً ومعابد لكل الديانات المعروفة في العالم.

ويمكننا أن نلاحظ وجود خليط من الديانات القديمة والحديثة، من الفلسفة والعلوم، تظهر من جديد، تحت أشكال مختلفة، طارحة خيارات حياة تدعي أنها جديدة. ولنحذر من هذا الإدعاء، لأن هذه المعارف ليست

في الواقع إلاّ بعثا لمعارف قديمة، تعود الى أحقاب، منها الهللينية.

كما قلت سابقا، لقد عملت الفلسفة الهللينية على تعميق الأسئلة التي طرحها سقراط وأفلاطون وأرسطو. حيث كانت القضية الأساسية بالنسبة لهم، تحديد الطريقة المثلى التي يحيا بها الإنسان ويموت. وبذا أصبح *علم الأخلاق* المشروع الفلسفي الأكثر أهمية في المجتمع الجديد: كل القضية، هي معرفة أين تكمن السعادة الحقيقية، وكيف نبلغها؟

سنقوم الآن بدراسة أربعة من هذه التيارات الفلسفية.

الكلبيون

يُروى أن سقراط توقف يوما أمام حانوت يعرض بضائع مختلفة، فصرخ «كم من الأشياء التي لا أحتاجها!»

هذا التصريح، يصلح كلمة سر لدى *الكلبيين*. الذين وضع *(انتيستانس)* أسس فلسفتهم في أثينا نحو ٤٠٠ ق.م. حيث كان تلميذا لسقراط، وحفظ درسه.

كان الكلبيون، يركزون على أن السعادة لا تأتي من الأشياء الخارجية كالرفاه المادي، السلطة السياسية، والصحة الجيدة. بل ان السعادة الحقيقية هي التوصل الى الاستقلال عن هذه الظروف الخارجية، العابرة والمتقلبة. ولأن السعادة لا تتوقف على هذه العناصر، فهي في متناول الجميع. وإذا ما بلغناها فلن تزول.

الفيلسوف الكلبي الأكثر شهرة هو ديوجين الذي كان تلميذا لانتيستانس. ويروى أنه كان يعيش في برميل، لا يملك إلاّ معطفا وعصاه، وكيسا لخبزه. (من الصعب في هذه الظروف منعه من أن يكون سعيدا!) وفي أحد الأيام، بينما كان يقف أمام برميله يستمتع بحرارة الشمس، جاءه الإسكندر الكبير زائرا، وعندما سأله ما اذا كان بحاجة الى شيء؟ أجاب الحكيم: «أجل. ان تزيح، جانبا، قليلا، كي لا تحجب عني الشمس.» وبهذا برهن أنه أغنى وأسعد من الفاتح الكبير، لأنه يملك كل ما يتمنى.

كان الكلبيون يعتقدون بأنه على الإنسان ألا يشغل نفسه إلا بصحته، لا بالألم، ولا بالموت. كما أن عليهم ألا يتأثروا من آلام الآخرين.

ولذا فإن مصطلح «كلبي» و«كلبية» بات يستعمل للتعبير عن عدم الرأفة بالآخرين.

الرواقيون

كان للكلبيين أهمية كبرى في نشوء الرواقيين، الذين ولدت فلسفتهم في أثينا نحو ٣٠٠ ق.م. على يد زينون، المولود في قبرص، والذي انضم الى الكلبيين بعد أن جنحت سفينته على شاطئهم. وقد عرف بالرواقي لأنه اعتاد أن يجمع تلامذته في رواق. أثرت فلسفته تأثيرا عظيما على الثقافة الرومانية من بعده.

كان الرواقيون يعتقدون – كهيراقليطس – أن كل البشر يشكلون جزءا من العقل الكوني ال «logos»، وأن كل فرد هو عالم مصغر «عالم صغير» يشكل انعكاسا لـ «العالم الأكبر» الكون. مما يسمح بإقامة قانون يصلح لكل الناس، هو «القانون الطبيعي» المبني على العقل الأزلي للإنسان وللكون، الذي لا يتغير بحسب الزمان والمكان. وبهذا وقف في صف سقراط ضد السفسطائيين.

القانون الطبيعي واحد لكل الناس، حتى العبيد، برأي زينون، الذي لم يكن يرى في كتب القوانين المختلفة إلا نسخا باهتة من «قانون» الطبيعة.

وكما كان الرواقيون يلغون الفارق بين الفرد والكون، فانهم كانوا يلغون أيضا أي تعارض بين «المادة» و«الروح». فليس هناك برأيهم الا طبيعة واحدة. وتطلق على هذا المفهوم تسمية «الأحدية» أي وحدة الوجود (على عكس «ثنائية» أفلاطون. أي الطابع المزدوج للواقع).

وكأولاد بررة لمرحلتهم، كانوا أيضا «عالميين» حقيقيين، منفتحين على ثقافات عصرهم أكثر من الكلبيين، «فلاسفة»، يركزون على الطابع الاجتماعي للإنسانية، ويهتمون بالسياسة التي لعب كثيرون منهم أدوارا

هامة فيها، مثل الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٨٠ – ١٢١ ق.م). وساهموا في نشر الثقافة والفلسفة الإغريقيتين في روما. كما فعل الفيلسوف والخطيب شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق.م) الذي ابتكر مفهوم «الإنسانية» كفلسفة، مركزها الإنسان، كما أعلن بعده الرواقي الآخر سينيك: «إن الإنسان شيء مقدس للإنسان». عبارة أصبحت شعار الفلسفة «الإنسانية» في كل المراحل التالية.

كذلك لاحظ الرواقيون ان كل الظواهر الطبيعية – كالمرض والموت – تتبع القوانين الدائمة للطبيعة. لذا على الإنسان أن يتصالح مع قدره. فلا شيء يحصل مصادفة، برأيهم. كل ما يحصل هو ثمرة الضرورة. ولا فائدة من التذمر والشكوى عندما يدق القدر الباب. كذلك يجب أن يتلقى الإنسان الحوادث السعيدة في الحياة، أيضا، بأكبر قدر من الهدوء. هنا يبرز تقارب مع الكلبيين، الذين ادعوا أن لا أهمية ولا تأثير لكل ما هو خارجي. ويطلق اليوم تعبير «هدوء رواقي» على الإنسان الذي لا ينجرف مع عواطفه.

الإبيقوريون

كان سقراط يتساءل، كما قلنا، كيف يمكن للإنسان أن يعيش سعيدا؟ ووجد الكلبيون والرواقيون الجواب: الحل يكمن في التحرر من الرفاه المادي. لكن تلميذا آخر لسقراط يدعى *اريستيبوس*، خالفهم معتبرا أن هدف الحياة يجب أن يكون تحقيق أكبر قدر ممكن من المتعة. «ان الخير المطلق هو المتعة، والشر المطلق هو الألم»، ولذا أراد أن ينمي فن حياة يتمثل في تجنب كل أشكال الألم. (كان هدف الكلبيين والرواقيين، *تقبل* الألم بكل أشكاله. وذلك عكس محاولة تجنب الألم بأي ثمن).

في نحو ٣٠٠ ق.م. أسس *ابيقور* (٣٤١ – ٢٧٠ ق.م) مدرسة فلسفية في أثينا. طورت نظرية المتعة عند اريستيبوس، بدمجها مع نظرية الذرات عند ديمقريطس.

يقال ان الابيقوريين كانوا يلتقون في حديقة ولذا كان تطلق عليهم تسمية «فلاسفة الحديقة». ويقال ان عبارة حفرت فوق باب الحديقة، تقول: «أيها الغريب: هنا ستعامل جيدا! هنا المتعة هي الخير الأسمى».

كان أبيقور يركز على أن اشباع رغبة يجب ألا ينسينا التأثيرات الجانبية التي يمكن أن تنتج عنه. وإذا كنت قد عانيت يوما - صوفي - من نوبة في الكبد بسبب المبالغة في أكل الشوكولاته، فستفهمين ما يعني. وإلاّ فسأعطيك التمرين التالي:

«خذي كل النقود التي اقتصدتها، واشتري بها شوكولاته، ثم كلي كل ما اشتريته.. ولن تمضي نصف ساعة إلاّ وأنت تعانين مما يسميه أبيقور «العوارض الجانبية».

لذا يجب على الإنسان - برأي أبيقور - أن يقيم موازنة بين اشباع رغبة آنيّة، وامكانية تحقيق رغبة أكثر ديمومة، أو أكثر كثافة على المدى البعيد. (تخيلي أنك تحرمين نفسك من الشوكولاته طوال سنة كاملة، لتقتصدي نقودك لشراء دراجة جديدة، أو للقيام برحلة الى الخارج). حيث إن الإنسان، يختلف عن الحيوان، بكونه يمتلك القدرة على تخطيط حياته؛ على «برمجة» مُتعه. صحيح أن الشوكولاته الشهية شيء هام. ولكن الدراجة، والرحلة الى الخارج هما كذلك أيضا.

وعليه، كان أبيقور يميز بين المتعة وارضاء الحواس. فثمة قيم موجودة أيضا، كالصداقة، والمتعة الفنية. لذا فإن مثل الفلسفة الإغريقية القديمة - كضبط النفس، والاعتدال، والهدوء الداخلي - هي حاسمة وضرورية للإنسان كي يستمتع كليا بالحياة. ويجب السيطرة على الرغبات لأن ذلك يساعد على تحمل الألم بشكل أفضل.

هكذا كان الذين يعذبهم قلق الآلهة، يجدون ملجأ في حديقة أبيقور. وتشكل نظرية ديمقريطس في الذرات دواءً فعالا ضد الدين والخرافة والتطير. ذاك أنه لا بد من التغلب على الخوف من الموت كي نستطيع أن نعيش حياة سعيدة. وفي هذه النقطة بالتحديد، استعمل أرسطو نظرية ديمقريطس حول «ذرات الروح». أنت تذكرين أن هذا الأخير لم يكن يؤمن بوجود حياة بعد الموت، بل ان كل «ذرات الروح» تتبعثر عندها، في

كل الاتجاهات.

«ان الموت لا يعنينا – يؤكد أبيقور – ذاك أنه طالما نحن أحياء، فإن الموت غير موجود. وعندما يأتي الموت، لا نعود نحن موجودين». (صحيح أننا لم نسمع يوما أحدا يشتكي من أنه ميت!).

يقدم أبيقور، بنفسه، تلخيصا لنظريته الفلسفية فيما يسميه «النبتات العلاجية الأربع».

ليس هناك ما يخيفنا من الآلهة.
الموت لا يستحق أن نقلق لأجله.
من السهل بلوغ الخير.
من السهل تحمل المرعب.

في السياق الإغريقي، لم تكن مقارنة واجب الفيلسوف بفن الطبيب، شيئا جديدا. وكانت الفكرة الكامنة وراء هذا الخطاب الفلسفي، ان على الإنسان أن يحمل «صيدلية رحلات فلسفية» تحتوي على هذه النبتات السحرية الأربع.

على عكس الرواقيين، لم يكن الأبيقوريون يهتمون، إلا قليلا، بالحياة السياسية والاجتماعية. «لنعش مختبئين» تلك كانت نصيحة أبيقور. مما يجعلنا نقيم مقارنة بين حديقته، وبعض التجمعات التي يعيش فيها مجموعة من الشباب، بعيدين عن مجتمع لم يحتملوا أحاديثه فبحثوا عن ملجأ، عن مرفأ أمان.

بعد أبيقور، قلص الكثيرون فلسفته، ليحصروها في اشباع رغباتهم تحت شعار واحد: «عش اللحظة الحاضرة!» بحيث أصبح مصطلح «أبيقوري» يستعمل اليوم لوصف انسان «مقبل على الحياة» بشكل مبتذل.

الافلاطونيون الجدد

رأينا أن الكلبيين والرواقيين والابيقوريين، كانوا يعودون ايضاً الى فلاسفة ما قبل السقراطية، مثل هيراقليطس وديمقريطس. والى سقراط

ايضاً. لكن الخط الفكري الأكثر بروزا في العصور القديمة المتأخرة، كان متأثرا بأفلاطون. ولذلك أطلق عليه اسم الأفلاطونية الجديدة.

أبرز فلاسفة هذه المدرسة، هو افلوطين (نحو ٢٠٥ - ٢٧٠ ق.م) الذي درس الفلسفة في الإسكندرية قبل أن يعود ليستقر في روما. ومن المهم ملاحظة أنه درس في الإسكندرية، المدينة التي شكلت نقطة التقاء الفلسفة الغربية والروحانية الشرقية. ومن هناك حمل أفلوطين في حقائبه نظرية شكلت المنافس الأقوى للمسيحية في بداياتها، ثم تركت تأثيرها على اللاهوت المسيحي نفسه.

تذكرين، صوفي، نظرية الأفكار لدى أفلاطون. حيث كان يميز بين عالم الأفكار وعالم الحواس، ويفْصِل بين روح الإنسان وجسده. وهكذا تكون الروح في الكيان الإنساني كأنها قنديل صغير. ثم اذا ابتعدنا أكثر، فإن النور يختفي عنا تماما. وعندما يصبح حولنا ظلام دامس لا يعود بإمكاننا أن نرى أي شيء، لا ظلال ولا خيالات.

تخيلي الحقيقة الآن، كنار المخيم هذه.. ما يشتعل ويضيء هو الله، أما الظلام فهو المادة التي يتكون منها البشر والحيوانات. حول الله تتوزع الأفكار الأزلية التي تشكل رحم أو قالب كل ما هو مخلوق. ان روح الإنسان هي قبل كل شيء «قبس من النار». ومع ذلك فإن كل الطبيعة تتلقى قليلا من الفيض الإلهي. يكفي أن ننظر الى كل الكائنات الحية، حتى الزنبقة أو الوردة، لنرى أن شيئا من النور الإلهي ينبعث منها. وفي الدائرة الأبعد عن الله الحي، تقع الأرض والماء والحجر.

ان كل ما هو موجود يشترك في السر الإلهي. ونحن نرى شيئا يلتمع في أعماق زهرة دوار الشمس، أو زهرة (لا تنسني)، برية. ومثلهما تجعلنا فراشة تطير من زهرة الى أخرى، أو سمكة حمراء تسبح في اناء، نحس بهذا السر الخفي. لكننا نستطيع، بفضل روحنا، أن نقترب أكثر ما يمكن من الله. وعندها نتوحد مع سر الحياة الكبير. وقد يحصل لنا أحيانا أن نشعر بأننا نحن *هذا السر الإلهي ذاته*.

ان صور أفلوطين تذكرنا بقصة الكهف لدى أفلاطون كلما اقتربنا من مدخل الكهف، كلما اقتربنا من أصل كل ما هو موجود. لكن فكر

أفلوطين، وعلى العكس من فكر أفلاطون الذي يفصل الواقع الى قسمين مختلفين، يقع تحت عنوان تجربة كلية. كل شيء واحد لأن كل شيء هو الله. حتى الظلال التي في آخر الكهف تتلقى انعكاسا من الواحد.

أحيانا. كان أفلوطين يحس بأن روحه تذوب في روح الله. وهذا ما نسميه (*تجربة صوفية*) ولم يكن أفلوطين الوحيد الذي أحس بهذا النوع من التجلي. ففي كل الثقافات، وفي كل العصور، هناك أناس تحدثوا عن ذلك. وقد يختلف سردهم لتجربتهم، قليلا، لكن الملامح الأساسية، تظل هي هي في كل أقوالهم. لذا، فلنتفحص بعضها.

التصوف

ان التجربة الصوفية، تعني الإحساس بالتوحد مع الله أو مع «روح الكون». فإذ تُركّز بعض الديانات على الفجوة الموجودة بين الله والخلق، تقدم الصوفية بالتجربة، الدليل على أن هذه الفجوة غير موجودة. حيث «يتوحد» الشخص بالله، «يذوب فيه».

وراء هذا كله تكمن فكرة ان ما نسميه عادة بـ «الانا» ليس الأنا الحقيقية. لأننا في لحظات الإشراق، نمر بتجربة الإنتماء الى أنا، أكثر اتساعا، يسميها بعضهم «الله» وبعضهم الآخر «روح العالم» يتبع «طريق التطهر والإشراق» ليصل الى الله.

ويتمثل هذا الطريق في نمط من الحياة القاسية، وعدة ممارسات تأملية، الى أن يأتي يوم يستطيع فيه الصوفي أن يصرخ: «أنا الله» أو «أنا أنت».

اننا نجد التوجهات الصوفية في كل ديانات العالم. ويبدو من الغريب جدا والمؤثر، أن الوصف الذي يقدمه المتصوفة لتجربتهم هو دائما متشابه، على اختلاف الثقافات. ولا تعود الخلفية الثقافية الكامنة الى الظهور إلاّ عندما يحاول المتصوف ان يقدم تفسيرا دينيا أو فلسفيا لتجربته.

في *التصوف الغربي*، المتأثر بالديانات التوحيدية الثلاث: اليهودية،

والمسيحية والإسلام، يشير الصوفي الى أنه يخوض تجربة لقاء مع اله شخصي. فحتى لو كان الله موجودا في طبيعة وروح كل انسان، إلا انه يظل حائما فوق العالم.

في *التصوف الشرقي* – أي في قلب الهندوسية والبوذية والتاوية – من الشائع الإشارة الى أن المتصوف يدخل تجربة الذوبان الكلي مع الله أو «روح العالم» ويستطيع المتصوف أن يصرخ قائلا: «أنا روح العالم» أو «أنا الله» ذاك ان الله ليس في العالم *أيضا*. انه ليس في أي مكان إلاّ هناك.

وقد عرفت الهند، تحديدا، قبل أفلاطون تيارات صوفية. ويقول *سوامي فيفكانادا*، الذي عرّف الغرب بالفكر الهندي الشرقي: «تماما، كما تطلق بعض الديانات في العالم صفة ملحد على الإنسان، الذي لا يؤمن بوجود اله، خارج شخصه، نقول نحن ان الملحد هو الذي لا يؤمن بذاته، بروعة روحه، هذا ما نسميه الإلحاد».

ان التجربة الصوفية، قد تكتسب أهمية كبرى بالنسبة للمتصوف، كما قال أحد رؤساء الهند القدماء، ويدعى *راداكريسنان*: «عليك أن تحب قريبك كنفسك، لأنك أنت قريبك. والوهم هو الذي يجعلك تعتقد أن قريبك هو شيء آخر غير ذاتك».

هناك أيضا بعض الناس الذين مروا بتجربة صوفية، دون أن يكونوا منتمين لأية ديانة، حيث أحسوا فجأة بشيء أسموه «الوعي الكوني» أو «الإحساس الكوكبي»، أحسوا بأنهم يخرجون من دائرة الزمن ويدخلون تجربة العالم «من زاوية الأبدية»، وغيرهم «الطبيعة الكونية» أو «كلية الكون». في لحظات التجلي، يفقد الصوفي ذاته، يختفي ليذوب في ذات الله، كقطرة ماء تضيع نفسها عندما تندمج بمياه المحيط. هذا ما يعبر عنه أحد المتصوفة الهنود بقوله: «عندما كنت لم يكن الله .. عندما يكون الله لا أكون أنا». أما المتصوف المسيحي *انجيلوس سيليسيوس* (١٦٢٤ – ١٦٧٧م) فيقول إن كل قطرة تصبح هي المحيط عندما تذوب في المحيط، تماما كما تصبح الروح عندما ترتفع وتصبح الله.

قد تفكرين بأنه ليس من الممتع أن «يفقد الإنسان ذاته» وأنا أفهم

تحفظك. لكن فكري بما يلي: إن ما تفقدينه هو أقل قيمة مما تربحينه. انت تفقدين ذاتك في شكلك الحالي، لكنك تكسبين وعي كونك شيئا أكبر الى لا حدود. انت الكون، أجل، أنت صوفي روح العالم، انت الله. وحتى لو كان عليك أن تتخلي عن هذه الأنا التي هي صوفي أمندسون، فعزي نفسك بالقول، إنك كنت ستصلين يوما ما، الى خسارة هذه «الأنا اليومية» المألوفة. أما أناك الحقيقية، التي لا تستطيعين بلوغها إلاّ بالتخلي عن ذاتك، فهي، برأي المتصوفة، تشبه نارا غريبة أبدية الاشتعال.

لكن تجربة صوفية كهذه لا تأتي بسهولة، وتلقائية. بل ان على الصوفي ان يعيش ثنائية: الجسد مركب من التراب والغبار، ككل شيء في عالم الحواس، بينما الروح خالدة. لقد كانت هذه الفكرة منتشرة لدى الإغريق قبل أفلاطون بكثير. كما تعرف أفلوطين الى مفاهيم مماثلة، منتشرة في آسيا.

يرى أفلوطين ان العالم مشدود بين قطبين: فمن جهة هناك النور الإلهي، وذاك ما يسميه «الواحد» وأحيانا «الله».. ومن جهة أخرى هناك الظلام الكلي، حيث لا يستطيع نور« الواحد» أن يدخل. لكن كل عمل أفلوطين انصب على جعلنا نعي أن هذا الظلام غير موجود.. انه غياب النور. أجل، لكنه غير موجود. الموجود الوحيد هو «الله» أو «الواحد». ولكن كما يضعف النور تدريجيا، كلما ابتعدنا عن مصدره، لتضيع أشعته، في النهاية، في الظلمة، كذلك ثمة حدود ما لمدى الإشعاع الإلهي.

وبرأي أفلوطين ان الروح تتلقى اشعاع الواحد، بينما المادة، هي هذه الظلمة التي لا وجود حقيقياً لها. وحتى الأشكال، في الطبيعة، فإنها تتلقى انعكاسا باهتا للواحد.

تخيلي، عزيزتي صوفي، نارا مشتعلة في مخيم ليلا.. ان قبسات تنبعث في كل الاتجاهات، وعلى محيط عريض حول النار يبدو الليل مضيئا، أما على بعد كيلومترات من النار، فنرى الضوء الشاحب لهذه النار البعيدة، واذا ابتعدنا أكثر لا نعود نرى إلاّ نقطة ضوء ضعيفة.

استوت صوفي في فراشها. عليها أن تتأكد انه لا يزال لها جسد.

لقد أخذت تحس وهي تقرأ عن أفلوطين والتصوف، انها تطير في الغرفة، تخرج من النافذة المفتوحة، وتحلق في سماء المدينة. ومن هناك رأت الناس في الساحة الكبرى، ثم تابعت تحليقها فوق الأرض، متجاوزة بحر الشمال، وأوروبا، عابرة فوق الصحراء، الى السهوب الإفريقية الشاسعة.

كأن الأرض أصبحت شخصا حيا واحدا، وكأن هذا الشخص هو صوفي ذاتها. «العالم .. هو أنا» قالت في نفسها. كل هذا العالم الشاسع الذي طالما أحسته بدون بداية، ومقلقا، هو «أناها» ذاتها. الآن لا يزال العالم مهيبا وضخما، لكنها هي أصبحت كبيرة، دون حدود.

لم يلبث هذا الإحساس الغريب أن تبدد بسرعة. لكن صوفي كانت تدرك أنها لن تنساه أبدا. ثمة شيء ما في داخلها، انطلق الى الخارج، وامتزج بمجمل الخليقة. مثل قطرة واحدة من الصباغ الملون، اذ تدخل قنينة ماء، تصبغها كلها بلونها.

عندما تبددت هذه المشاعر تماما، أحست صوفي بأنها تستيقظ من حلم جميل، مع صداع خفيف. وأحبطها قليلا ان تحس بأن لها جسدا يحاول بصعوبة أن يستوي في السرير. ذاك أن بقاءها فترة طويلة منبطحة على بطنها جعل ظهرها يؤلمها. لكن التجربة التي عاشتها، ستبقى محفورة في ذاكرتها.

أخيرا، استطاعت ان تقف على قدميها .. فجمعت أوراقها، ونسقتها في الملف مع الدروس الأخرى، ثم خرجت تتنزه في الحديقة.

كانت العصافير تزقزق، كأن الكون قد خلق لتوه. ووراء قفص الأرانب القديم، تتغاوى خضرة الحور، نقية، كأن الخالق لم ينته بعد من مزج ألوانها.

هل يمكن لها أن تؤمن بأن كل هذا هو «أنا» الهية؟ وان في داخلها روحا هي «قبس من النار»؟ وإذا كان الأمر كذلك، تكون هي، حقا، كائناً الهياً.

البطاقات البريدية

... أنا أفـرض على نفـسي
رقابة قاسية ...

مضت أيام دون أن تتلقى صوفي أية أخبار من أستاذ الفلسفة. يوم الخميس هو ١٧ أيار، أي العيد الوطني، وستمتد العطلة المدرسية الى الجمعة، ١٨ أيار.

الأربعاء، ١٦، سألتها جورون فجأة، وهما خارجتان من المدرسة:

– ما رأيك في رحلة تخييم؟

فكرت صوفي، في كونها لا تستطيع أن تتغيب كثيرا عن البيت. لكنها قالت:

– لا بأس، ان أردت.

بعد بضع ساعات، كانت جورون عند صوفي تحمل حقيبتها الضخمة على ظهرها. وكانت صوفي بدورها قد هيأت خيمتها، ومعها كيس النوم والأغطية العازلة، الملابس الدافئة، قنديل الجيب، ابريق «ترموس» كبير للشاي، وأشياء كثيرة للأكل.

عندما عادت أم صوفي الى البيت، في نحو الخامسة، راحت تلقي عليهما مجموعة توصيات: ما يجب عمله وما لا يجب. كما طلبت أن يحددا لها، بدقة، المكان الذي ستقصدانه. ويقع بالقرب من شيدرتوين.

لم تختر صوفي هذا المكان، مصادفة. اذ اعتقدت أن شيدرتوين لا تبعد كثيرا عن شاليه مايجور. وكان ثمة ما يدفعها لأن تعود الى هناك، لكنها لا تجرؤ على الذهاب بمفردها.

سلكتا الطريق الذي يمر من أمام منزل صوفي. وكانتا تتحدثان عن كل شيء وعن لا شيء. مما أشعر صوفي بمتعة الاسترخاء الكامل والانطلاق، وترك الفلسفة جانبا.

في نحو الثامنة انتهتا من نصب الخيمة فوق سهل مفتوح، بالقرب

من شيدرتوين. ومن اخراج أكياس النوم، وتحضير ما يلزم لليل. وبعد أن تناولتا الساندويش االلذيذ، سألت صوفي صديقتها:

- هل سمعت شيئا عن شاليه مايجور؟

- شاليه مايجور!

- انه شاليه صغير يقع هناك في طرف الغابة، على ضفاف البحيرة. كان يسكنه مايجور غريب ولذا يطلق عليه اسم (شاليه مايجور).

- هل يسكنه أحد الآن؟

- يمكننا أن نلقي نظرة ...

- لكن، أين هو؟

أشارت صوفي الى اتجاه غامض بين الأشجار.

لم تكن جورون متحمسة للذهاب، لكنها استجابت لرغبة صديقتها، وعندما انطلقتا كانت الشمس قد أصبحت عند خط الأفق.

توغلت الفتاتان بين شجرات الصنوبر العالية، ثم شقتا طريقهما عبر الخمائل والأشجار القصيرة، والعيص الكثيف، الى أن وجدتا ممرا. أهو الممر ذاته الذي سلكته في الأسبوع الماضي!

أجل. ها هو الشاليه يلوح من بعيد.

- انه هناك. قالت لصديقتها. التي سألت:

- وهل سنمشي على الماء؟ أم ماذا؟

- لا تتغابي. سنمضي بالقارب.

وأشارت بإصبعها الى الشاطىء، حيث كان القارب مربوطا في مكانه.

- هل سبق لك أن جئت الى هنا؟

أشارت صوفي برأسها نفيا. فالأمر أكثر تعقيدا من أن يُشرح. فكيف يمكنها أن تتحدث عن زيارتها السابقة دون أن تكشف سر علاقتها بالبرتو كنوكس ودروس الفلسفة؟

عبرتا البحيرة بالقارب وهما تلقيان النكات وتضحكان بعمق. وعندما وصلتا، حرصت صوفي على جر القارب جيدا الى الشاطىء. وما هي إلاّ لحظات حتى كانتا أمام الباب، أدارت صوفي المقبض، إلا أنه كان

واضحا أن لا أحد في الداخل.

– انه مغلق ... لا يمكن أن تتخيلي انه مفتوح؟

– انتظري. فقد نجد مفتاحا.

ثم راحت تبحث بين حجارة الحائط لدقائق، قالت جورون بعدها:

– لا. لن تجدي شيئا. لنذهب.

لكن صوفي صرخت في اللحظة نفسها:

– ها هو. لقد وجدته.

سحبت المفتاح منتصرة، أدارته في القفل وانفتح الباب.

كاللصوص. اندست الفتاتان بسرعة داخل البيت كان الجو باردا ومظلما.

– اننا لا نرى شيئا. قالت جورون.

لكن صوفي قد أعدت كل شيء. فأخرجت علبة ثقاب من جيبها وسحبت عودا، كان ضوؤه كافيا ليريهما أن الشاليه فارغ تماما. سحبت عودا آخر، ورأت شمعة صغيرة في شمعدان برونزي على حافة المدخنة، فأشعلتها، واستطاعتا أخيرا أن تريا المكان بأكمله.

– أليس من المدهش، كم تستطيع شمعة صغيرة أن تضيء ظلمة كهذه؟ قالت صوفي.

ووافقتها جورون بحركة من رأسها. فأردفت:

– لكن هناك مكان يضيع فيه النور في الظلمة، والواقع أن الظلمة غير موجودة بذاتها، فهي ليست إلاّ غياب النور.

– ما الذي جرى لك. لتتحدثي هكذا؟ تعالي. فلنذهب.

– لا .. فلننظر الى وجوهنا في المرآة، أولا. أشارت صوفي الى المرآة المعلقة فوق المنضدة فعلقت جورون:

– كم هي جميلة ...

– لكنها مرآة سحرية.

– سحرية؟ «أيتها المرآة السحرية قولي لي أينا الأجمل؟»

– أنا لا أمزح. جورون، أؤكد لك أنك تستطيعين أن تنظري اليها من الجهة الأخرى، وأن تري شيئا.

– اسمعي .. أنت قلت انك لم تأت هنا سابقا. فهل تجدين متعة في اخافتي؟

لم تجب صوفي إلا بكلمة:

– آسفة

جاء دور جورون لتكتشف شيئا متروكا على الأرض؛ علبة. صاحت عندما فتحتها:

– مجموعة بطاقات بريدية.

أطلقت صوفي صيحة صغيرة قائلة:

– لا تلمسيها؟ أسمعتني .. لا تلمسيها.

فوجئت جورون، ورمت العلبة كأنها تحترق، فتبعثرت البطاقات البريدية على الأرض. ثوان، وغرقت الفتاتان في الضحك.

– لكنها ليست إلاّ بطاقات بريدية. جلستا أرضا وراحتا تجمعانها

– هذه من لبنان .. وهذه من لبنان .. هذه أيضا .. كلها من لبنان. قالت جورون.

ولم تستطع صوفي أن تكتم تنهيدة، وكلمة:

– أعرف.

– اذن فقد جئت قبل الآن الى هنا.

أليس كذلك؟

– أجل ..

وقالت في نفسها ان الأمور تكون أكثر بساطة فيما لو صارحت صديقتها بالحقيقة. ثم ما الضرر من اطلاعها على المغامرات الغريبة التي عاشتها في الأيام الأخيرة.

– لم أرغب في أن أحدثك عن ذلك قبل المجيء الى هنا.

كانت جورون تقرأ البطاقات البريدية، فعلقت:

– انها كلها موجهة لواحدة اسمها هيلد مولر كناغ.

– أليس عليها عنوان؟

قرأت جورون بصوت عال:

– الى هيلد مولر كناغ/ عن طريق البرتو كنوكس – لِيلْفاتِّنِتْ –

النرويج.

أطلقت صوفي زفرة ارتياح. فقد كانت تخاف أن يكون في العنوان أيضا: بوساطة صوفي أمندسون. الآن راحت تتفحص البطاقات واحدة واحدة.

– في ٢٨ نيسان ... ٤ أيار .. ٦أيار .. ٩ أيار .. لقد أرسلت كلها قبل أيام!

– ليس هذا كل شيء .. انظري. كل الأختام نرويجية. انظري هنا: «وحدة الأمم المتحدة» الطوابع نرويجية أيضا.

– أعتقد أن هذا طبيعي. فعليهم أن يظلوا محايدين هناك. ولذا لا بد من أن يكون لهم مكتب بريدهم الخاص.

– وكيف يصل بريدهم الينا؟

– ربما بطائرة عسكرية.

أنزلت صوفي الشمعة الى الأرض، وراحت الصديقتان تقرآن. بعد أن رتبتها جورون وفق الترتيب الزمني وأخذت البطاقة الأولى.

عزيزتي هيلد

لا يمكنك أن تعرفي مقدار سعادتي بالعودة الى ليلساند. أعتقد انني سأهبط في كجيفيك في ساعات المساء الأولى من يوم عيد القديس يوحنا. لكم تمنيت أن أكون عندك يوم عيد ميلادك الخامس عشر. لكن لا بد من الانصياع الى الاوامر العسكرية. ولذا حرصت على ترتيب الأمور بحيث تحصلين على هدية جميلة في عيدك.

كل الحنان من أب يفكر
كثيرا بمستقبل ابنته.

ملاحظة:

أرسل، مرفقا، بطاقة مشابهة لهذه الى صديقة نعرفها جيدا نحن الاثنين. ستفهمين ذلك لاحقا يا صغيرتي. أعرف أنني قد أبدو لك الآن غريبا. لكن ثقي بي.

تناولت صوفي البطاقة التالية:

عزيزتي هيلد

نحن نعيش هنا يوما بيوم. فالانتظار المستمر، هو ما سأحفظه من هذه الأشهر التي أقضيها في لبنان، لكنني أفعل كل ما بوسعي كي تحصلي على الهدية الأجمل في عيد ميلادك. لا أستطيع أن أقول شيئا آخر الآن، لأنني أفرض على نفسي رقابة قاسية.

أقبلك

أبوك

حبست الصديقتان أنفاسهما، وهما تتحرقان لمعرفة البقية، دون أن تتجرأ أي منها على أن تقول شيئا.

إبنتي العزيزة

كنت أتمنى أن أرسل لك كلماتي مع حمامة بيضاء، لكن تربية الحمام الأبيض ليست شائعة في لبنان. وإذا كان هناك ما نفتقده بقسوة هنا، في هذا البلد الذي تجتاحه الحرب، فإنما هو الحمائم البيضاء. عسى الأمم المتحدة، تتوصل يوماً إلى إرساء السلام في العالم!

ملاحظة:

ربما استطعت ان تتقاسمي هدية عيد ميلادك مع شخص آخر؟ سننظر في ذلك عندما أعود الى المنزل. أنت لم تفهمي بعد عمن أتكلم.

من انسان يمتلك الوقت للتفكير بنا نحن الاثنين.

هكذا قرأت الصديقتان ست بطاقات ولم يتبَقَّ إلاّ واحدة:

عزيزتي هيلد

مللت من كل هذا التكتم حول هدية عيد ميلادك. بحيث صرت أقاوم رغبة تراودني، عدة مرات في اليوم الواحد، في أن أكلمك هاتفيا، لأوضح لك، أنها شيء لا يتوقف عن النمو، وككل شيء يصبح أكبر فأكبر، فإنه يصبح من الصعب الاحتفاظ به لأنفسنا فقط.

ملاحظة:

ستلتقين يوما بفتاة تدعى صوفي. وكي يكون من الممكن لكما عندئذ أن تتعارفا، بدأت أرسل لها نسخاً مشابهة من البطاقات التي أرسلها لك. ألا تعتقدين أنها تمهد للتقارب بينكما، عزيزتي هيلد؟ حتى الآن هي لا تعرف شيئا أكثر مما تعرفين أنت. لها صديقة تدعى جورون، وقد تستطيع أن تساعدها.

بعد قراءة هذه البطاقة التقت نظرات الصديقتين. ثم أمسكت جورون بيد صوفي وضغطت عليها قائلة:

– أنا خائفة.

– وأنا أيضا

– ما هو تاريخ آخر ختم بريدي؟

– انه .. ١٦ أيار .. اليوم!

– مستحيل ! صرخت جورون.

عادتا الى تفحص الختم. ليس ثمة شك (١٦/٥/٩٠).

– هذا ليس ممكنا. قالت جورون بإصرار. ثم انني لا أستطيع أن أفهم من يمكن أن يكون كاتب هذه البطاقات. انه بالتأكيد شخص يعرفنا. لكن كيف عرف أننا سنأتي الى هنا اليوم؟

كانت جورون هي التي تشعر أكثر بالخوف. فقصة هيلد وأبيها ليست جديدة على صوفي.

– أعتقد أن هذه البطاقات تأتي من المرآة البرونزية.

سرت في جسد جورون ارتعاشة جديدة وهي تقول:

– لن تحاولي اقناعي أيضا، بأن البطاقات تخرج من المرآة، في اللحظة التي تطبع فيها بختم مكتب البريد في جنوب لبنان؟

– هل لديك تفسير آخر؟

– لا .. ولكن ..

– ثمة شيء آخر سري هنا.

نهضت صوفي وقربت الشمعة من اللوحتين المثبتتين على الحائط. وانحنت جوروون معها لتفحصهما.

– بيركلي وبجركلي. ماذا يعني الإسمان؟

– ليست لدي أية فكرة.

الشمعة تكاد تنتهي، وجوروون تقول:

– لنذهب.

– انتظري، أريد أن آخذ المرآة.

قالت صوفي ذلك، وتناولتها عن الحائط رغم اعتراضات جوروون ...

في الخارج كان الجو معتما، أكثر مما تكون عليه ليالي أيار. ولم تكن السماء ترسل من النور إلا ما يكاد يكفي لتمييز ظلال الأشجار والشجيرات. بينما تعكس البحيرة قليلا السماء من فوقها. وراحت الصديقتان تجذفان باتجاه الضفة الأخرى.

لم تكن لأي منهما قدرة على الكلام في طريق العودة. اذ إنهما غارقتان في التفكير. ومن حين لآخر، يطير فوقهما عصفور أو تنوح بومة.

وما أن وصلتا الى الخيمة حتى اندستا في كيس النوم، بعد أن رفضت جوروون بإصرار أن تنام والمرآة في الداخل، رغم توصلهما الى الإتفاق على أنه من الخطير تركها خارجا. وكانت صوفي قد حملت البطاقات البريدية، ووضعتها في جيب جانبي لحقيبتها.

استيقظتا باكرا صباح اليوم التالي. وكانت صوفي أول من غادر كيس النوم. لبست حذاءها وخرجت من الخيمة، الى حيث كانت المرآة البرونزية ترقد بين الأعشاب مغطاة بالندى. فتفحصت كل شيء حولها، ولم تجد، لحسن الحظ، بطاقة جديدة، مختومة في مكتب البريد في لبنان، في يوم وصولها الى النرويج.

على السهل المنبسط، وراء الخيمة، كانت تطوف رقع ضباب، أشبه

بتكايا القطن المندوف، وتزقزق العصافير متناجية، دون أن يبسط أحدها جناحيه.

ارتدت الصديقتان صدريتين صوفيتين وجلستا تتناولان الإفطار أمام الخيمة. وبسرعة اتجه الحديث الى شاليه مايجور والبطاقات البريدية.

بعدها فكتا الخيمة، وقفلتا عائدتين. مرارا توقفت صوفي لاهثة، فهي تحمل مرآتها الثقيلة تحت ابطها، وجورون ترفض ان تساعدها، بل ان تلمس المرآه.

عند الاقتراب من طلائع بيوت المدينة، سمعتا بعض اصوات المفرقعات. وتذكرت صوفي حديث والد هيلد عن لبنان الذي تجتاحه الحرب. مما جعلها تفكر كم هي محظوظة بان تعيش في بلد يعمه السلام.

دعت صوفي جورون لتناول كوب من الشوكولاته الساخنة. وراحت الام تطرح مئة سؤال لمعرفة من اين جاءت المرآة. ادعت صوفي بانها وجدتها امام شاليه مايجور، لكن الام ردت بان احدا لم يسكن هذه الشاليه منذ سنوات طويلة.

بعد ذهاب جورون، استحمت صوفي وارتدت فستانا احمر.

وقائع يوم العيد الوطني تدور كالعادة. وعلى التلفاز، عرض فيلم عن احتفالات الجنود النرويجيين العاملين في وحدات الامم المتحدة، بهذا اليوم العظيم.

ركزت صوفي نظرها على الشاشة، ان واحدا من هؤلاء الجنود هو والد هيلد.

آخر ما فعلته صوفي هذا اليوم ١٧ ايار كان تعليق المرآة على جدار غرفتها. وفي الصباح وجدت ظرفا جديدا اصفر في كوخها. ففتحته وشرعت بسرعة تقرأ ما فيه.

ثقافتان

... هكذا فقط تتجنب العوم في
الفراغ ...

عزيزتي صوفي

سنلتقي قريبا جدا، أعرف أنك ستعودين الى شاليه مايجور، ولذا تركت لك بطاقات والد هيلد. فقد كانت تلك الطريقة الوحيدة لضمان وصولها لها. لا تقلقي بشأن كيفية توصيلها. فمن الآن وحتى ١٥ حزيران تكون أمور كثيرة قد تسهلت.

لقد رأينا كيف نقد فلاسفة المرحلة الهللينية، فلاسفة الإغريق القدامى. وكانت تلك طريقة لطرح أنفسهم كمؤسسين لديانة جديدة. حيث لم يكن أفلوطين بعيدا عن طرح أفلاطون كمخلص للبشرية.

ومع ذلك نعرف أن مخلصا آخر قد ولد في المرحلة ذاتها، في مكان خارج الأراضي الإغريقية الرومانية. أقصد يسوع المسيح. لذا سندرس، هنا، التأثير المتنامي للمسيحية في العالم الإغريقي – الروماني، تماما كما يدخل عالم هيلد تدريجيا في عالمنا.

كان يسوع ينتمي الى الثقافة السامية، بينما الإغريق والرومان الى الثقافة الهندو – أوروبية. مما يجعلنا نؤكد أن للثقافة الأوروبية جذرين. ولنتوقف قليلا عند كل منهما، قبل أن ننتقل الى التأثير المتنامي للمسيحية في الثقافة الإغريقية – الرومانية.

الهندو - اوروبيون

يشمل مصطلح الهندو – أوروبيين جميع البلدان والثقافات التي تستعمل اللغة الهندو – أوروبية. وهي تضم جميع اللغات الأوروبية ما عدا اللغات الفنلندية – الأوغرية (الفنلندية – الاستونية – الهنغارية – اللابونية) ولغة الباسك، كذلك فإن أكثر اللغات الهندية والايرانية تنتمي

أيضا للعائلة الهندو – أوروبية.

قبل أربعة الاف عام، كان الهندو – أوروبيون، يعيشون على ضفاف البحر الأسود وبحر الخزر ثم تحرك عدد منهم نحو الجنوب – الشرقي أي ايران والهند، والجنوب الغربي أي اليونان وايطاليا واسبانيا، ليعبروا أوروبا الوسطى نحو الغرب ويصلوا الى بريطانيا وفرنسا في الغرب، اوروبا الشمالية في الشمال الغربي، وشمالي أوروبا الشرقية، أي روسيا.

وحيثما ذهب الهندو أوروبيون، امتزجوا بالثقافات التي كانت موجودة قبلهم، لكن لغتهم وثقافتهم لم تلبثا أن فرضتا حضورهما بسرعة.

فكتابة الفيداس الهندية، والفلسفة الاغريقية، وربما الميثولوجيا السكاندينافية، كلها كتبت بلغات متقاربة فيما بينها. لكن القرابة لا تنحصر فقط في اللغة، اذ تتلازم هذه مع قرابة فكرية. ولذا نتحدث عن ثقافة هندو – أوروبية.

تتميز هذه الثقافة أولا بالاعتقاد بتعدد الآلهة، وذاك ما يسمى الشرك. وتتكرر أسماء الآلهة، وكثير من التعابير والمصطلحات الدينية في جميع البلدان الهندو – أوروبية. وسأكتفي بذكر بعض الأمثلة:

كان الهنود القدماء يعبدون اله السماء: ديوس. اليونان أطلقوا على هذا الإله اسم زيوس. والرومان جوبيتير (أي اب جوف أو الأب ايوف). والنرويجيون تور. وليست هذه الأسماء كلها، إلاّ الفاظاً تختلف بحسب اللهجات المحلية، لكلمة واحدة.

تذكرين أن الفايكنز الشماليين كانوا يؤمنون بآلهة يطلقون عليها آزير. ونجد هذا المصطلح في كل الأراضي الهندو الأوروبية. ففي السنسكريتية، أي لغة الهند الكلاسيكية، تسمى الآلهة: أزورا وفي الايرانية آهورا. وفي السنسكريتية كلمة أخرى تعني «الله» وهي: ديڤا، وفي الإيرانية دايفا، وفي اللاتينية: دويس، وفي النرويجية: تيڤور.

كذلك كان الشماليون يؤمنون بمجموعة من آلهة الخصب (نجورد، فريّ، فريّا) ويشار اليها باسم خاص: الـ «ڤانير»، ويذكرنا هذا الاسم، باسم آلهة الخصب اللاتينية «ڤينوس». والمصطلح السنسكريتي «ڤاني»

الذي يعني «متعة» أو «رغبة».

وتبرهن الدراسة المقارنة لبعض الاساطير البسيطة، على القرابة الموجودة في كل الساحة الهندو – اوروبية. فعندما يحكي (سنور) عن الآلهة النرويجية، نجد ان اساطيره تذكرنا باساطير هندية تعود الى ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ سنة. لا شك في ان اساطير (سنور) تحمل بصمات طبيعة شمالية، وطابع العلاقة النموذجي معها. كما ان الاساطير الهندية تنبع من طبيعة هندية. لكن لعدد من هذه الاساطير نواة مشتركة، تشهد على قرابتها الاصلية. ونستطيع ان نميز هذه النواة منذ الاساطير الاولى حول الشراب الذي يمنح الخلود، وصراع الآلهة ضد قوى الفوضى.

كذلك نستطيع ان نلحظ نقاط تشابه بارزة، منها: مفهوم الكون كساحة صراع دائم بين قوى الخير وقوى الشر. مما جعل الهندو-اوروبيين يسعون دائماً الى معرفة مستقبل العالم.

يمكننا ان نؤكد، دون اي توقع للخطأ، بأنه ليس من قبيل المصادفة ان ترى الفلسفة الاغريقية النور على ارض هندو – اوروبية. لأن الميثولوجيا الهندية واليونانية والشمالية تشكل قاعدة ممتازة لنشوء تأملات فلسفية او "نظرية".

لقد حاول الهندو – اوروبيون تحقيق "معرفة" ما حول مسيرة العالم. ونستطيع ان نجد مصطلح "المعرفة" او "العلم" في كل الثقافات الهندو – اوروبية. ففي السنسكريتية نقول فيديا Vidya. ويشبه هذا المصطلح المصطلح اليوناني Eidos (فكرة) الذي لعب دوراً كبيراً في فلسفة افلاطون. في اللاتينية نجد مصطلح فيديو Video، وتعني هذه الكلمة في كل الأراضي الرومانية، ببساطة «أنا أرى». وفي الإنكليزية، لدينا مصطلح Wise وايز، و Wisdom (الحكمة). في الألمانية Wissen (يعرف). فجذر مصطلح viten النرويجي اذن، هو ذاته جذر Vidya في الهندية، Eidos في الإغريقية و Video في اللاتينية.

وبشكل عام، نستطيع أن نلاحظ أن الرؤية هي المعنى الأكثر أهمية في الثقافة الهندو – أوروبية. ولذا تميز الأدب لدى الهنود واليونان

والايرانيين والجرمان، بالرؤى الفضائية الكبرى. (أكرر أن مصطلح الرؤية بلفظه (Vision)، قد تشكل من الكلمة اللاتينية (Video)

ملمح آخر يميز الثقافات الهندو - أوروبية، انها نحتت ورسمت قصص آلهتها ونقلتها لنا عبر الأساطير.

وأخيرا، كان للهندو - أوروبيين مفهوم دوري للتاريخ، أي أنهم يعيشون التاريخ تجددا دائما، بدايات متواصلة، تعاقب «دورات» تماما كتعاقب الفصول في الطبيعة. وهكذا لا يعرف التاريخ بداية ولا نهاية، بل ان هناك غالبا عوالم مختلفة، تولد وتختفي في تعاقب أبدي الحياة والموت.

إن للديانتين الشرقيتين الكبريين، البوذية والهندوسية، أصلا هندو - أوروبيا. ومثلهما الفلسفة الإغريقية. مما يسمح لنا باكتشاف بعض نقاط التقارب بين الديانتين المذكورتين من جهة والفلسفة الإغريقية من جهة أخرى. أما اليوم فإن التأمل الفلسفي يسم الديانتين: البوذية والهندوسية.

في الهندوسية والبوذية، يتم التركيز غالبا، على الحضور الإلهي الدائم في كل ما هو «حلولي» وعلى الإمكانية المتوافرة للإنسان للإتحاد بالله عن طريق المعرفة الدينية. (تذكري أفلوطين يا صوفي!) وذاك ما يتم التوصل اليه، غالبا، عن طريق العودة الكبيرة الى الذات، أي التأمل. ونتيجة ذلك، ان موقفا سلبيا ومتحفظا، يمكن أن يشكل -في الشرق - مثالا دينيا. كذلك عند الإغريق، حيث كان الكثيرون يعتقدون أنه على الإنسان أن يعيش منعزلا عن العالم، كي تكون روحه في سلام. إن أفكارا كهذه، تعود الى العالم الإغريقي - الروماني، هي ما يفسر حياة بعض الأديرة في القرون الوسطى.

كذلك نجد أيضا، في عدد من الثقافات الهندو - أوروبية الإيمان بتناسخ الأرواح. فقد ظل هدف الحياة بالنسبة للفرد، طوال أكثر من ٢٥٠٠ سنة، هو التحرر من التناسخ. وقد رأينا سابقا أن أفلاطون كان يؤمن أيضا بالتناسخ.

الساميون

لننتقل الآن الى الساميين، صوفي. وها نحن الآن مع ثقافة مختلفة ولغة مختلفة. جاء الساميون من الجزيرة العربية، لكنهم انتشروا في اصقاع كثيرة من الارض. وانطلق التاريخ والديانة السامية بعيداً جداً عن جذورهما الجغرافية، عن طريق انتشار المسيحية والاسلام.

ان للديانات الثلاث التي تركت تأثيرها في الغرب: اليهودية، والمسيحية والاسلام، اساساً سامياً مشتركاً، كما ان القرآن الكريم لدى المسلمين، والعهد القديم قد كتبا بلغتين ساميتين متقاربتين.

ويعود احد اسماء الله في العهد القديم، الى الجذر ذاته الذي لكلمة الله لدى المسلمين.

فيما يخص المسيحية يبدو الامر اكثر تعقيداً، فلا شك ان الاساس سامي ايضاً. لكن العهد الجديد كتب باليونانية، اضافة الى أن اللاهوت والمعتقد المسيحيين قد تطورا متأثرين باللغة الاغريقية واللاتينية، انطلاقاً من فلسفة المرحلة الهللينية.

كان الهندو - اوروبيون، كما قلنا، يؤمنون بكل أنواع الآلهة .. اما الساميون، فانه لمن المؤثر ملاحظة انهم عبدوا، مبكراً جداً، الهاً واحداً، هذا ما يطلق عليه مصطلح «التوحيد».

فسواء في اليهودية، ام في المسيحية ام في الاسلام، تظل الفكرة الاساسية انه لا وجود إلاّ لإله واحد.

خاصية اخرى تميز الساميين، هي امتلاكهم لرؤية خطية للتاريخ. بمعنى النظر الى التاريخ كخط مستقيم. لكن لا بد من يوم يصل فيه هذا الخط الى نهايته، ويكون هذا اليوم «يوم الحساب الاخير». الذي يعود فيه الله ليحاسب الاحياء والموتى.

ويشكل الدور الذي يلعبه التاريخ، ملمحاً سامياً مشتركاً لدى الديانات الثلاث الموحدة، فالله يتدخل في التاريخ، بل، وبتعبير ادق، ان التاريخ موجود كي يستطيع الله تحقيق ارادته، وقيادة البشر الى «يوم الحساب». وفي هذا اليوم فقط، تمحى كل شرور العالم.

ولأن الاله يتدخل هكذا في مسيرة التاريخ، اهتم الساميون طوال آلاف السنين اهتماماً كبيراً، بكتابة هذا التاريخ. فكانت هذه الجذور التاريخية النواة الحقيقية للكتابات الدينية.

اليوم، تشكل مدينة القدس مركزاً دينياً مهماً لليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء مما يبرهن على القرابة التاريخية بين الديانات الثلاث.

لعل الأمم المتحدة تتمكن يوماً من ارساء السلام في القدس، واعادتها الى قدرها كمكان للقاء الديانات الثلاث .. (نترك هذا التطبيق العملي لدروس الفلسفة، جانباً الآن، فلوالد هيلد ان يضطلع بهذا الدور، ذاك انك فهمت، دون شك، انه مراقب في قوات الامم المتحدة في لبنان، ويمكنني الآن ان اكشف لك انه برتبة مايجور، اذا كان هذا يجعلك تمسكين اذنك، فلا بأس .. لا تستعجلي الأمور ..).

لقد قلنا ان المعنى الأهم لدى الهندو – اوروبيين هو الرؤية، ومن المثير ان نكتشف ان السمع هو الذي يلعب الدور الأساسي لدى الساميين. وليس من قبيل المصادفة ان يبدأ اعتراف الايمان اليهودي بعبارة: «اسمع يا اسرائيل!» ففي العهد القديم ان البشر يسمعون كلام الرب. ويبدأ انبياء اليهود نبوءاتهم بعبارة: «هكذا تكلم يهوه». كذلك المسيحية، تعلق اهمية كبرى على «الاستماع» الى كلام الله .. اضافة الى ان طقوس العبادة في الديانات الثلاث تفرد الحيز الاكبر للقراءة بصوت عال، المسماة: «تلاوة».

لقد تحدثت عن تمثيل الله بالرسم والنحت، ومن ميزات الساميين انهم حرّموا «تمثيل» الله. اي انه من المحرم نحت تماثيل تمثل الله أو كل ما هو الهي. ففي العهد القديم، ينزل بالناس تحريم «خلق» صور لله. ولا يزال هذا سارياً، حتى أيامنا في اليهودية والاسلام. وفي هذا الاخير ثمة حذر كبير من التصوير الفوتوغرافي والفنون البلاستيكية بشكل عام. تحريم تكمن وراءه فكرة انه لا يجوز للانسان أن يدخل في منافسة مع الله «ويخلق» شيئاً.

لكن الكنيسة المسيحية تغص بالصور والمنحوتات التي تمثل الله

والسيد المسيح -تقولين- وانت على حق، صوفي، إلا أن هذا ليس إلاّ مثالاً على تأثير العالم الاغريقي - الروماني على المسيحية. (في الكنيسة الارثوذوكسية، اي في اليونان وروسيا، لا يزال نحت تماثيل تصور قصص الكتاب المقدس، محرماً الى الآن).

وعلى عكس الديانات الشرقية الاخرى، تركز الديانات الموحدة الثلاث على الفجوة الموجودة بين الله والانسان الذي خلقه. أما الهدف فليس تخليص النفس من دورة التناسخ، بل معرفة خلاص البشرية من الخطيئة، في حين ان ما يهيمن على الحياة الدينية، هو الصلاة والوعظ، وقراءة ما كتب، اكثر منه العودة الى الذات والتأمل.

اليهودية

أنا لا أريد الدخول في منافسة مع أستاذ التاريخ. يا صوفي العزيزة. لكنني سأحاول أن ألخص الخلفية اليهودية.

يبدأ كل شيء بخلق الله للعالم، وذاك ما تجدين وصفه في الصفحات الأولى للتوراة. لكن البشر عادوا فتمردوا على الله. وكان العقاب طرد آدم وحواء من الجنة، ثم ظهور الموت على الأرض.

ان عصيان المشيئة الالهية يشكل لازمة على امتداد التوراة. واذا ما تصفحنا التكوين نجد قصة نوح والطوفان.

وفي الألف الاول قبل الميلاد، وقبل ان تكون هنا اية فلسفة اغريقية. تتحدث التوراة عن ملوك اسرائيل الثلاثة. *شاؤول، داود، وسليمان* وبعد أن اجتمع شعب اسرائيل كله تحت ملك داوود وعرف مرحلة مزدهرة على الصعيد السياسي والعسكري.

عندما كان يتم اختيار ملك لليهود، كانت مبايعته من قبل الشعب. وهكذا يعطى له لقب «مسيح » أي الكاهن والملك. إذ إنه كان يعتبر، على المستوى الديني رسول الله الى الشعب. وهكذا له أن يحمل لقب «ابن الله» كما يحمل البلد لقب «مملكة الله».

لكن مملكة اسرائيل لم تلبث ان ضعفت، وانقسمت الى مملكة الشمال

(اسرائيل) ومملكة (يهودا). وفي عام (٧٢٢) ق.م احتل الاشوريون مملكة الشمال، وفقدت تاثيرها السياسي والديني. لم يكن الوضع افضل في مملكة الجنوب سقطت بيد البابليين عام (٥٨٦) ق.م. الذين دمروا الهيكل وسبوا قسماً كبيراً من اليهود الى بابل.

استمر هذا السبي حتى العام (٥٣٩) ق.م. حيث عاد اليهود الى القدس واعادوا بناء الهيكل. لكنهم ظلوا يعيشون تحت السيطرة حتى بداية العصر المسيحي.

لذا راح اليهود يطرحون على أنفسهم السؤال حول سبب انهيار مملكة داود، هذا الانهيار الذي جر وراءه سلسلة من المآسي. رغم ان الله قد وعد بحماية اليهود. وكان الجواب ان اليهود كانوا قد وعدوا الله من جهتهم باحترام وصاياه، ولذا عاقبهم الله على عصيانه.

في نحو (٥٧٠) ق.م نجد لدى اليهود سلسلة من الأنبياء، الذين يتنبؤون بالغضب الإلهي لأن الشعب اليهودي لم يتبع الوصايا التي حددها الرب. وكانوا يبشرون بيوم يأتي، يَمْثُل فيه اسرائيل امام الرب. واطلقت على هذه النبوءات تسمية «نبوءات الحساب».

ونجد ايضاً انبياء آخرين، يبشرون بان الله سوف ينقذ جزءاً من الشعب، يرسل لهم «أميراً للسلام»، اي ملكاً يبشر بالسلام، ويكون من نسل داود. يعيد بناء مملكة داود ويحمل للشعب مستقبلاً مضيئاً.

لنفهم جيداً: كان الشعب العبري يعيش سعيداً تحت حكم داود، وعندما تدهور الوضع، راح الأنبياء يبشرون بمجيء ملك جديد من نسل داود سيخلص الشعب، يعيد هيمنة اسرائيل، ويؤمن مملكة الرب.

المسيح

جيد، يا صوفي. آمل أن تكوني قد توقفت. الكلمات الرئيسة هي «مسيح» «ابن الله» «سلام» «مملكة الرب» .. في البداية كان لها كلها وقع سياسي، حيث كان الجميع يعتقدون -في ذلك الوقت- بأن مسيحاً جديداً سيظهر بشكل قائد سياسي، عسكري وديني، ويكون من مستوى

الملك داود، اذن فـقـد كـان لهـذا المخلص وضـع بطل قـومي يضـع حـداً لعذابات اليهود المحكومين من قبل الرومان.

لكن آخرون قـبلهم كـانوا قـد رأوا ابعد من انوفـهم، فـقبل قـرون من مـجيء المسيح بشر أنبياء آخرون بأن المسيح المنتظر سيكون مـخلص جميع البشر، وهو لن يخلص اليهود فقط من الحكم الاجنبي، بل يخلص البـشر من خطاياهـم واخطائهم، وينتـصـر على الموت، وكـان الامـل في سلام بهذا المعنى، منتشراً في العالم الهلليني.

وجاء المسيح، لم يكن الوحيد الذي اعلن انه المسيح المنتظر، هو ايضاً كان يستعمل تعابير «المسيح» «ابن الله» «مملكة الرب» «السلام»، ووضع نفسه على خط النبوءات السابقة.

دخل أورشليم، وحيّاه الناس على اعتبار انه المخلص. واتّبع الطريقة التي كان الملوك يصعدون بها الى العرش، مقيماً احتفال تتويج، وبايعه الناس ليعلن: «لقد حان الوقت، ان مملكة السماوات قريبة».

علينا أن نحفظ كل هذا، لكن اسمعي البقية جيداً: لقد اختلف يسوع عن كل «مـسـيح» سـبـقـه بأنه اوضح بدقـة: انه ليس قـائداً عـسكرياً أو سياسياً، وان لرسالته مدى اوسع، اعلن سـلام الله، وغفرانه لكل البشر، وهكذا كان يستطيع أن يتجول بين الناس ويقول لكل منهم: «مـغفورة لك خطاياك!».

ان يمنح رسـول غفـران الخطايا هكذا، لشيء ثوري وجديد، بل كـان هناك ما هو اخطر، انه يخاطب الله بأبي «ابتاه!» وفي الأوساط اليهودية، لم يكن احد قـد سـمـع هذا قـبلاً، وبسرعـة تشكل حوله طوق وحصـار، خـصـوصاً من قبل الكتبة. لنكن اكثـر وضوحـاً: كـان الكثـيرون، ايام المسـيح، يعـيـشـون على أمل انتظار مسـيح يعـيـد «مملكة الرب» بقـوة الحراب، وجاء تـعبير «مملكة الرب» ليشكل لازمة في كلام السيد المسيح، ولكن بمعنى مـختلف، واكثـر اتساعاً بكثير، حيث اعلن يسـوع ان مملكة الرب هي محبة القريب، الرحمة بالفقراء والضعفاء، وغفران خطيئة الذين حادوا عن طريق الصواب.

هكذا تتخذ عبارة قديمة شبه سياسية، معنى مـختلفاً كلياً. لقد كان

الشـعب ينتظر قـائد رجال يعلن مملكة الرب. واذا بالمسيح يأتي بثوبه وحذائه البـسيطين، ليعلن أن مملكة الرب هي «عـقد آخـر» «عـهد آخـر» جـديد، مضـمونه ان «عليك أن تحب قـريبك كنفسك!» بل انه يمضي الى ابعد من ذلك، صوفي، اذ يقول ان علينا أن نحب اعداءنا ونغفر للمسيئين الينا. واذا صفعنا احد على خدنا الأيمن، هل نرد؟ لا، بل ندير له الايسر. وانه ليس علينا أن نسامح سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات.

وتدلنا حياة يسوع انه لم يكن يأنف من التحدث الى نساء مومسات، الى عشـارين فاسدين، الى رجال سياسة اعداء للشعب، بل كان يمضي ابعـد من ذلك ويقـول: ان ولداً عـاقـاً بذّر ثروة ابيـه، او عشـاراً فـاسـداً، يصبحـان جـيدين فـي عين الله، اذا مـا عـادا اليـه، وطلبا غـفرانه، فـالله واسع الرحمة، وكريم.

ويمضـي يسـوع قـائلاً ان هـؤلاء «الخُطاة» هـم افـضل في عين الله، ويستـحقون مـغفرته اكثر من الفريسيين المتعـالين، القابعين في رضاهم عن ذاتهم.

ركز يسوع على أن مـا من احد يستطيع ان يجتذب رحمة الله، لأننا لسنا قـادرين على تخليص أنفسنا. (وهذا مـا كـان يعتـقده كثيرون من الاغريق).

وعندمـا عرض يسـوع فروضـه الاخلاقية في موعظة الجبل فـانه لم يفـعل ذلك للتـعريف بمشيـئة الله، فـقط، بل ليـبرهن ان مـا من انسـان صحيح تمامـاً في عين الله، ان رحمة الله لا مـحدودة، شرط أن نتجه اليه بالصلاة، ونطلب مغفرته.

فـيمـا يخص شـخص يسـوع، وهـدف رسالتـه، اترك الكلام لأستـاذ تاريخ الاديان، فـتلك مـهمة صـعبة، وآمل أن يسـتطيع أن يبـرهن لك اية شخصية استثنائية كان، فقد استعمل لغة عصره بشكل عبقري، معطياً لكلمـات وتعابير شائعة معروفة، معنى، اكثر اتسـاعاً بكثير، ومـختلفاً تمامـاً، لذلك لم يكن من الغريب أن ينتهي على الصليب، خـصـوصـاً ان دعـوته الى السـلام كـانت تتناقض كلياً مع مـصـالح ورهانات الطبـقات المسيطرة، والحكام مما اقتضى التخلص منه.

لقد استطعنا أن نلحظ، عندما تكلمنا عن سقراط، كم هو خطير أن نتوجه الى عقل الانسان، وبالنسبة ليسوع، لم تكن الدعوة الى محبة لا حدود لها للقريب، وغفران لا حدود له، بأقل تجرؤاً وخطراً. وفي عالمنا المعاصر نجد أن دولاً قوية، تصبح اكثر من محرجة، عندما تواجه مطالبات بسيطة: كالسلام، والحب، والغذاء للجميع، والتسامح مع معارض النظام.

اتذكرين كم ثار افلاطون لأن سقراط اضطر ان يدفع حياته ثمناً لكونه الرجل الأصلح في أثينا، وبحسب المسيحية، فان المسيح هو الرجل الأصلح من بين كل البشر، رغم ذلك حكم عليه بالاعدام، ومات من اجل البشر. هذا ما نسميه «عذابات المسيح باسم البشر» لقد كان «الخادم الذي يتعذب»، حمل عنا كل خطايانا، كي نتصالح مع الله.

بولس

بعد قليل من صلب المسيح ودفنه، بدأت تدور شائعات تقول انه قد قام، مظهرة انه لم يكن رجلاً عادياً كالآخرين، وانه فعلاً ابن الله.

ويمكننا القول ان الكنيسة المسيحية بدأت صباح احد القيامة، بشائعات القيامة، ذاك ما يلخصه بولس بقوله: اذا لم يكن المسيح قد قام، فان رسالتنا باطلة، وايماننا باطل».

منذها اصبح بامكان كل الناس أن يأملوا بـ «قيامة الجسد»، ذاك ان المسيح صلب لأجلنا.

وهنا، يجب أن يكون حاضراً في ذهنك، عزيزتي صوفي، ان اليهود لم يكونوا يؤمنون «بخلود الروح» و«بالحياة الأبدية»، أو، بأي شكل من اشكال «التقمص» فقد كانت هذه فكرة اغريقية، اي هندو – اوروبية، لكن المسيحية لا ترى في الانسان شيئاً خالداً بذاته، ولا حتى روحه، صحيح ان الكنيسة تؤمن بـ «قيامة الجسد» وبـ «الحياة الابدية»، لكن معجزة الله هي التي تخلصنا من الموت ومن «العذاب الابدي» دون ان يكون لقدرتنا الشخصية أو لأي استعداد فطري اية علاقة بذلك.

هكذا بدأ المسيحيون الأوائل ينشرون «الخبر الطيب» عن الخلاص المتحقق بفضل الايمان بيسوع المسيح، واخذت «مملكة الرب» تبرز الى الوجود بفعل تبشيرها بالخلاص، مما مكن من كسب العالم كله الى الله، (ان كلمة kristus هي ترجمة اغريقية لكلمة مسيح، وتعني «الذي تلقى المسحة»).

بعد سنوات قليلة من موت يسوع، اعتنق بولس المسيحية، ليعطي المسيحية، عبر رحلاته المتعددة في العالم الاغريقي الروماني، وضع ديانة عالمية، وذلك ما تروي لنا اعمال الرسل، مراحله المختلفة. اما رسالة وتعاليم بولس فقد وصلتنا عبر الرسائل التي كان يبعث بها الى التجمعات المسيحية الأولى.

علينا أن نتخيله، يصل اثينا، عاصمة الفلسفة، ويتجه مباشرة الى الساحة العامة، يقال انه «احتدت روحه اذ رأى المدينة مملوءة اصناماً» انه زار الكنيس اليهودي في اثينا، وخاض نقاشات مع الفلاسفة الكلبيين والأبيقوريين، الذين قادوه الى أعلى جبل الاريوباج، حيث سألوه: «هل يمكننا ان نعرف ما هو هذا التعليم الجديد الذي تتكلم به، لأنك تأتي الى مسامعنا بأمور غريبة فنريد أن نعلم ما عسى أن تكون هذه».

هل تتخيلين المشهد يا صوفي؟ يهودي يصل إلى ساحة السوق، ويأخذ في الحديث عن مخلّص صُلب، ثم قام. لا بد هنا أن تتكون لدينا فكرة بسيطة عن الصراع الذي سينشب بين الفلسفة الاغريقية ومفهوم الخلاص في المسيحية، لكنه من الواضح أن بولس نجح في تقديم خطاب مقنع للأثينيين، حيث توجه اليهم، من اعلى الاريوباج، تحت ظلال اعمدة الاكروبول المهيبة، قائلاً:

«أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً. لأنني بينما كنت اجتاز وانظر الى معبوداتكم وجدت أيضاً منبحاً مكتوباً عليه. لإله مجهول. فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به. الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه. هذا اذ هو رب السماء والارض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي. ولا يُخدم بأيادي الناس كأنه

محتاج الى شيء. إذ هو يُعطي الجميع حياةً ونفساً وكل شيء. وصنع من دم واحد كل امة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم. لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه مع انه عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد. كما قال بعض شعرائكم ايضاً لأننا أيضاً ذريته. فاذ نحن ذرية الله لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع انسان. فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع ان يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدّماً للجميع ايماناً اذ اقامه من الأموات».

بولس في أثينا، هكذا نرى يا صوفي كيف تتسلّل المسيحية الى العالم الاغريقي – الروماني، تعاليم مختلفة جذرياً عن الكلبية أو الابيقورية أو الافلاطونية الجديدة، لكن بولس يجد نقطة هامة، تنفعه كمدخل الى هذه الثقافة؛ اذ يقول ان البحث عن الله موجود في اعماق كل البشر، وتلك فكرة غير جديدة على اليونان، غير أن الجديد فيما يقوله بولس، ان الله قد تجلى للناس، وجاء اليهم، فهو ليس «اله فيلسوف» يدركه الانسان بعقله فقط، ولا يشبه صورة ذهبية فضية أو حجرية، كتلك الموجودة بكثرة في الاكروبول أو في الساحة العامة، فالله «لا يسكن في هياكل من صنع البشر» لأنه تجسد ليأخذ مكانه في تاريخ البشر كي يصلب من أجل خلاصهم.

بعد خطبة الاريوباج، اخذ بعض الاثينيين يسخرون من بولس وكلامه عن قيام المسيح، وقال آخرون «سنسمع منك عن هذا»، بينما انضم اليه بعضهم مباشرة واعتنقوا المسيحية، وكانت بينهم امرأة تدعى داماريس . يجب أن تحفظي اسمها.

هكذا استمر بولس يبشر بكلمة الرب، وفي نحو ٨٠ م، كانت قد تشكلت اقليات مسيحية في اكثر المدن الاغريقية الرومانية الكبرى: اثينا، روما، الاسكندرية، كورنثوس، وافسس، ليصبح العالم الهلليني كله

مسيحياً، خلال بضعة قرون.

المجاهرة بالايمان

لم يلعب بولس دوراً مهماً في تاريخ المسيحية، بصفته مبشراً فحسب، وانما مارس تأثيراً قوياً داخل المجموعات المسيحية المختلفة، التي كانت بحاجة كبيرة الى مرشد روحي.

كان السؤال الكبير الذي برز في المرحلة الأولى، هو ما اذا كان يجوز لغير اليهود ان يصبحوا مسيحيين دون أن يمارسوا الطقوس اليهودية، فهل يتوجب على الاغريقي أن يحترم قانون موسى؟ وكان رأي بولس أن ذلك غير ضروري لأن المسيحية تتجاوز كثيراً اطار مذهب يهودي، ولذا كان يتوجه الى كل الناس برسالة خلاص عالمي، حيث الغى يسوع «العهد القديم» بين الله واسرائيل، ليُحِل محله «عهداً جديداً» بين الله وجميع البشر.

لكن المسيحية لم تكن الديانة الوحيدة في تلك المرحلة، فقد رأينا كيف اتسمت الهللينية بمزيج من ديانات مختلفة، لذا كان على الكنيسة أن تقدم ملخصاً صغيراً حول خصوصية المسيحية، وهو ما كان ضرورياً، لتميزها عن الديانات الاخرى، من جهة، ولتفادي انشقاق داخل الكنيسة المسيحية نفسها، من جهة ثانية. هكذا ولدت مجاهرات الايمان الأولى، وتلخص المجاهرة بالإيمان أو اعلانه، القواعد الأساسية أو «العقائد» المسيحية.

احدى هذه العقائد هي ان المسيح اله وانسان، فهو لم يكن ابن الله، بفضل اعماله، فقط وانما هو الله، لكنه كان ايضاً شخصاً حقيقياً، شارك البشر وضعهم وتعذب على الصليب.

قد يبدو هذا متناقضاً، لكن رسالة الكنيسة كانت بالضبط القول إن الله اصبح بشراً، لا إن يسوع نصف اله (نصف الهي، نصف بشري) كأنصاف الآلهة التي كانت شائعة في الديانات الاغريقية والهللينية، وكانت الكنيسة تعلم ان «يسوع هو الله في كماله، والانسان في كماله».

Postscriptum

انني احاول، عزيزتي صوفي، ان افسر لك كيف حصل كل شيء، حيث يترجم ظهور المسيحية في العالم الاغريقي – الروماني باصطدام ثقافتين، لكنه ايضاً منعطف حاسم في تاريخنا.

اننا هنا ندير ظهورنا للعصور القديمة، بعد مرور اكثر من الف سنة على ظهور الفلاسفة الاغريق الأوائل، ونقف عند فجر القرون الوسطى المسيحية التي دامت هي الاخرى الف عام.

لقد قال الشاعر الألماني غوته يوماً:

«الذي لا يعرف ان يتعلم دروس الثلاثة الاف سنة الأخيرة، يبقى في العتمة»، وانا لا أريد لك أن تكوني جزءاً من لعبة اليانصيب هذه، انا افعل كل ما في وسعي لاجعلك تكتشفين جذورك التاريخية، فذاك ما يجعلك كائناً بشرياً، اي شيئاً آخر غير قرد عارٍ، ويجعلك تتوقفين عن العوم في الفراغ.

«هذا فقط ما يجعلك كائناً بشرياً، اي شيئاً آخر غير قرد عار ...»

ظلت صوفي جامدة، لفترة طويلة ونظرها مثبت على الحديقة عبر الثقوب الصغيرة في العيص، لقد بدأت تفهم لماذا تكون معرفة الانسان لجذوره التاريخية مهمة الى هذا الحد.

لم تكن هي نفسها إلاّ كائناً ولد هنا مصادفة، ولكن احساسها بأنها ثمرة المصادفة، اخذ يتناقص، مع وعيها لجذورها التاريخية.

لن تعيش الا بضع سنوات على هذه الارض، ولكن اذا كان تاريخ البشرية هو تاريخها، فان عمرها يكون آلاف السنين.

حملت صوفي كل هذه الاوراق، وتسللت الى خارج كوخها، تغمرها رغبة في القفز فرحاً، وهي تصعد الى غرفتها.

القرون الوسطى

... ألا تقطع إلا جزءا صغيرا من الطريق،
ليس مشابها لأن تضل الطريق ...

مر أسبوع دون أن تحصل صوفي على أية معلومات عن البرتو كنوكس. أو ان تتلقى أية بطاقات من لبنان. لكنها لم تتوقف عن التحدث مع جورون عن تلك التي وجدتاها في الشاليه. وكان ذلك قد هز جورون أكثر من صوفي، غير ان عدم حصول أي جديد، ترك الواجبات اليومية، تنسيها خوفها.

أعادت صوفي، عدة مرات قراءة رسالة البرتو كنوكس، أملا في ايجاد علامة تدلها على هيلد. مما سمح لها بأن تتمثل فلسفة العصور القديمة بشكل أفضل. فلم تعد تخلط بين ديمقريطس، سقراط، أفلاطون وأرسطو.

يوم الجمعة ٢٥ أيار، كانت صوفي تقف في المطبخ، تحضر الطعام لأمها العائدة من العمل. وكانت الوجبة بسيطة ومكونة من حساء السمك، ولحم مع الجزر- وجبة يوم الجمعة.

في الخارج بدأ الهواء يتحرك، وعبر النافذة راحت صوفي تتأمل وهي تحرك الحساء أشجار الحور تتمايل كأنها سنابل قمح.

فجأة سمعت صوت اصطفاق على النافذة. وعندما التفتت وجدت قطعة كرتون ألصقها الهواء بالزجاج، ولم تلبث أن لاحظت أنها بطاقة بريدية معنونة: باسم «هيلد مولر كنا غ/ بوساطة صوفي امندسون»، فتحت النافذة وتناولت البطاقة. ليس الهواء هو الذي حملها من لبنان الى هنا؟

البطاقة تحمل أيضا تاريخ الجمعة ١٥ حزيران. وصوفي ترفع الحساء عن النار وتجلس لتقرأ:

عزيزتي هيلد:

لا أدري ما اذا كنت ستقرئين هذه الرسالة يوم عيد ميلادك. على أية حال، آمل الا تصل بعد موعده بكثير. ومع ذلك فإن مرور أسبوع أو أكثر بالنسبة لصوفي لا يعني الفترة ذاتها عندنا. سأعود مساء عيد القديس يوحنا وسنجلس معاً، وطويلا على الأرجوحة في الحديقة، نتأمل البحر. هيلد .. ان لدينا كلاما كثيرا.

مع صداقتي

والدك، الذي يكتئب لرؤية هذه الحرب

ملاحظة:

أيمكنك أن تنقلي تحية صغيرة مني لصوفي؟ المسكينة، لم تفهم بعد كيف تترابط هذه الأحداث مع بعضها البعض، أما أنت فربما فهمت مكمن خطتي.

مجهدة، وضعت صوفي رأسها بين كفيها صحيح. انها لا تفهم شيئاً من كل هذا. بينما تفهمه هيلد ..

إذا كان والد هيلد يطلب من ابنته أن ترسل لها تحياته. فمعنى ذلك أن هيلد تعرفها، أما هي فلا. انه لأمر معقد! فلتعد الى حسابها ..

لم تكد تعيد الطنجرة الى النار، حتى دق جرس الهاتف. آه لو يكون المتحدث أباها! لو انه يعود فتخبره بكل ما حصل لها خلال هذه الأسابيع الأخيرة ... لكن لن يكون على الخط إلاّ أمها أو جورون ..

– ألو؟

– هذا أنا .. أجابها صوت غريب

كانت صوفي واثقة من ثلاثة أشياء: انه ليس صوت أبيها، لكنه صوت رجل. وهي مقتنعة بأنها سبق وسمعته.

– من يتكلم؟

– أنا البرتو

– آه

أجل، عرفت صوفي فيه الصوت الذي سمعته على شريط الفيديو عن أثينا .. ولم تعرف ماذا تقول.

– هل أنت بخير؟
– .. أجل ..
–من الآن فصاعدا. لن تتلقي رسائل.
– لكنني لم أفعل ما يسيء.
– سنلتقي شخصيا. لقد أصبح ذلك ملحا.
– هل تفهمين؟
– لماذا؟
– لقد صرنا محاصرين من قبل والد هيلد.
– محاصرين؟ كيف؟
– من كل الجهات، صوفي. يجب أن نتعاون الآن. لكن لا يمكنك أن تفيديني بشيء طالما لم أحدثك عن القرون الوسطى. وربما وجدنا وقتنا الحديث أيضا عن عصر النهضة والقرن السادس عشر، وعن بيركلي، الذي لعب دورا حاسما.
– ألم تكن له صورة في شاليه مايجور؟
– أجل. ان المعركة الحقيقية ستبدأ انطلاقا من فلسفته.
– كلامك يوحي وكأن هناك حرباً.
– أجل،حرب أفكار. علينا أن نثير انتباه هيلد، ونضمها الى صف قضيتنا، قبل أن يعود أبوها الى ليلساند.
– أنا لا أفهم شيئا، من هذا.
– ربما فتح الفلاسفة عينيك. تعالي لموافاتي غداء في الساعة الرابعة فجراً، في كنيسة العذراء! وتعالي بمفردك.
– علي أن أجيء في عتمة الليل؟
– تيك ...
– ألو ...
الجبان –لقد أقفل الخط – ركضت صوفي الى المطبخ، حيث يكاد العساء يفور. سكبت قطع السمك والجزر في الطنجرة، وخفضت النار.
في كنيسة العذراء؟ انها كنيسة قديمة من الحجر، تعود الى القرون الوسطى. مخصصة لبعض حفلات الكونسرتو، وبعض الاحتفالات

الدينية. وتفتح أحيانا، في الصيف، للسياح .. ولكن، في الليل!

عندما عادت الأم كانت صوفي قد وضعت البطاقة في مكانها في الخزانة مع بقية أشياء البرتو وهيلد، وبعد تناول الطعام ذهبت لزيارة جورون. ثم استعجلت الصعود معها الى غرفتها، وقالت فور وصولها: علينا ان نرسم خطة صغيرة ..

لتكمل بعد اغلاق الباب:

– عندي مشكلة ..

– قولي ...

– أنا مضطرة لأن أقول لأمي أنني سأنام عندك الليلة.

– هذا لا يزعجني على الإطلاق

– أجل. لكنها ستكون الرواية الرسمية. وأكون أنا في مكان آخر. هل تفهمين؟

– سخيف! أهو شاب ما؟

– لا . بل هيلد.

ندت عن جورون صرخة خافتة، ونظرت صوفي في عينيها قائلة:

– سآتي عندك هذا المساء، لكن علي أن أخرج سرا في الساعة الثالثة فجرا، وعليك أن تغطي غيابي حتى عودتي.

– لكن. أين ستذهبين يا صوفي؟ قولي لي. ماذا ستفعلين؟

– آسفة. لدي أوامر.

لم يكن المبيت عند احدى الصديقات يشكل أية مشكلة بذاته. بل ان صوفي تشعر أن أمها تحب أحيانا أن تشعر بأن البيت لها وحدها. لكنها قبل أن تتركها تذهب ألحّت قائلة:

– لكنني أعتمد عليك كي تكوني في المنزل على الإفطار.

– اذا لم أعد. تعرفين أين تجدينني.

لماذا قالت هذه الجملة؟ أوليست هنا نقطة ضعفها ..

بدأ الليل، ككل الليالي التي نمضيها عند أصدقائنا، بحوار طويل يمتد حتى وقت متأخر. مع فارق واحد، هو أن صوفي علقت المنبه على الساعة الثالثة. عندما قررتا أخيرا النوم، في نحو الواحدة.

وعندما رن جرسه، فتحت جورون، بالكاد، عينا واحدة، مهمهمة:

– كوني حذرة.

سلكت صوفي طريق الكنيسة التي تبعد عدة كيلومترات. ورغم انها لم تنم إلاّ قليلا، فقد كانت متيقظة تماما، كأنها في وضح النهار.

في الأفق بدت غيمة حمراء تطوف فوق الحقول.

عندما وصلت أخيرا، الى الكنيسة الحجرية القديمة، دفعت الباب الضخم. ووجدته مفتوحا!

في الداخل كان الفراغ والصمت ثقيلين، وزجاج النوافذ يرسل شعاعا خافتا أزرق تلتمع فيه جزيئات الغبار المنتشرة في الهواء، مشكلة عدة جسور، تتقاطع في فضاء المكان. جلست صوفي على أحد المقاعد، وراحت تتأمل المذبح باهتمام، رافعة نظرها الى الصليب القديم بألوانه الباهتة.

لحظات .. وانطلق صوت الارغن. لكن صوفي لم تجرؤ على الالتفات، لكأنه مزمور قديم من القرون الوسطى أيضا.

ثم ران الصمت. ولم تلبث أن سمعت صوت خطى تقترب. هل تستدير؟ لا .. بل تُبقي نظرها مثبتا على يسوع والصليب.

تجاوزتها الخطى، ورأت شبح رجل يصعد الممر المركزي، يرتدي ملابس راهب، بنية. بإمكانها أن تقسم انه راهب حقيقي من القرون الوسطى.

أحست بالخوف، وأخذ قلبها يخفق بعنف. أما الراهب، فعندما وصل الى المذبح، صعد الى المنبر بخطى وئيدة، انحنى، نظر الى صوفي، وقال باللاتينية:

Gloria patri et filio et spiriti sancto. Sicut erat in principio et nunc semper in saecola saecolorum.

– ألا يمكنك أن تترجم أيها الأبله؟ صرخت به صوفي. فترجّعت أصداء كلماتها في أرجاء الكنيسة القديمة.

لقد فهمت ان هذا الراهب يجب أن يكون البرتو كنوكس. وندمت على تفوهها بهذه الكلمات غير اللائقة داخل كنيسة. لكنها خائفة، وعندما نخاف، يريحنا أن نفعل ما هو محرم.

– هس!

خفض البرتو يده، كما يفعل الكهنة عندما يشيرون للمصلين بالجلوس.

– كم الساعة، يا بنيتي؟

– الرابعة إلاّ خمس دقائق. أجابت صوفي وقد انحسر خوفها.

– اذن، انه موعدنا. ويمكن أن تبدأ القرون الوسطى.

– هل تبدأ القرون الوسطى في الساعة الرابعة؟ سألت صوفي باستنكار.

– تقريبا. ثم تأتي الخامسة، فالسادسة فالسابعة. وكأن مسيرة الوقت كانت متجمدة. فقد أصبحت الثامنة ثم التاسعة ثم العاشرة، وما زلنا في القرون الوسطى. لا شك انك تفكرين بأن ذلك يكفي للعبور الى مرحلة أخرى. لكنها كانت أشبه بإجازة نهاية الأسبوع، اجازة طويلة بعدها جاءت الساعة الحادية عشرة، الثانية عشرة، ثم الواحدة بعد الظهر. وذاك ما أطلق عليه اسم القرون الوسطى المتأخرة، وهي المرحلة التي بنيت فيها أكبر الكاتدرائيات في أوروبا. في نحو الثانية بعد الظهر، ظهر ديك أو ديكان يعلنان نهاية القرون الوسطى.

– هل دامت القرون الوسطى عشر ساعات؟ سألت صوفي بتعجب.

رمى البرتو طاقية ثوبه الرهباني البني، الى الوراء، ونظر الى جمع المؤمنين الذي تلخص في فتاة شابة في الرابعة عشرة من عمرها.

– أجل. اذا أمكن أن تدوم الساعة مئة عام. يمكننا أن ننطلق من مبدأ أن يسوع ولد في منتصف الليل، وان بولس بدأ يبشر قبل الثانية عشرة والنصف، ومات في روما بعد ذلك بربع ساعة. في نحو الساعة الثالثة كانت الكنيسة المسيحية محظورة، لكن لم تلبث ان نالت اعتراف الإمبراطورية الرومانية في العام ٣١٣م في عهد الإمبراطور قسطنطين، الذي تعمّد على سرير الموت بعد سنوات. ومنذ العام ٣٨٠م أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الرسمي.

– لكن، ألم تنهز الإمبراطورية الرومانية؟

– أجل. وكانت هناك بوادر انذار. انها حقبة مفصلية في تاريخ

الثقافة. حيث كانت روما، في العام ٣٠٠م. تواجه تهديدين خطيرين: شعوب الشمال من جهة، وصراعاتها الداخلية من جهة أخرى. في العام ٣٣٠م نقل الإمبراطور قسطنطين العاصمة الى مدينة القسطنطينية التي أنشأها على مدخل البحر الأسود واعتبرت «روما الجديدة». وفي العام ٣٩٥م، انقسمت الإمبراطورية الى اثنتين: الغربية، وعاصمتها روما، والشرقية، وعاصمتها القسطنطينية.

في العام ٤١٠م اجتاح البرابرة روما ونهبوها، وعام ٤٧٦م انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية كلها. في حين ظلت الإمبراطورية الشرقية صامدة حتى العام ١٤٥٣م، عندما فتحها الأتراك.

– عندها سميت المدينة اسطمبول؟

– أجل. ثم ان هناك تاريخا آخر، عليك بحفظه، انه عام ٥٢٩م، تاريخ اقفال الكنيسة لأكاديمية أفلاطون في أثينا، وتاريخ ظهور أمر منح البركة، الذي اعتبر أول قانون كهنوتي. هكذا اعتبر عام ٥٢٩م رمز وضع يد الكنيسة على الفلسفة الاغريقية. ومذ ذاك سيطر الكهنة على التعليم، والفكر، والتأويل. عقارب الساعة تشير الى الخامسة والنصف.

لم تفهم صوفي، الا متأخرة، ما يقصده البرتو بالساعات. الثانية عشرة ليلاً هي البداية، الساعة الواحدة هي القرن الأول بعد الميلاد، الساعة السادسة ستمئة سنة ب.م، والثانية بعد الظهر هي ١٤٠٠ ب.م ...

واستأنف البرتو كلامه قائلا:

– القرون الوسطى، هو الاسم الذي يطلق على هذه المسافة الزمنية الطويلة الفاصلة بين مرحلتين، وقد ابتكر في عصر النهضة، معبرا عن الإحساس بأن هذه القرون لم تكن إلا «ليلا طويلا من ألف عام» خيم على أوروبا كلها بين العصور القديمة وعصر النهضة. ولا يزال تعبير «وسطي» يستعمل للتعبير بشكل هجائي عن كل ما يعتبر تسلطيا ومتخلفا. غير أن بعضهم اعتبر القرون الوسطى «عملية تخمر دامت ألف سنة». ففي هذه القرون اكتمل النظام الشمسي، وفيه ازدهرت المدارس الأولى في الأديرة. لتظهر بعدها أي في العام ١١٠٠م، مدارس أخرى في الكاتدرائيات، ولتؤسس عام ١٢٠٠م الجامعات الأولى. وفق نظام ما

زال متبعا حتى أيامنا هذه، حيث تحدد مادة التخصص الكلية المختارة.

– ألف سنة. ليست شيئا قليلا.

– لكن المسيحية احتاجت الى وقت طويل كي تصل الى الطبقات العميقة في الشعب. فخلال القرون الوسطى، تشكلت الأمم المختلفة، بمدنها ومواطنيها، بموسيقاها، وشعرها الشعبي. كيف كانت ستكون الحكايات والأغاني الشعبية، لولا القرون الوسطى؟ وأوروبا. يا صوفي؟ هل كانت ستظل مقاطعة رومانية؟ حتى هذا الأساس الألسني الذي نجده في الأسماء: نرويج، انكلترا، ألمانيا .. نحن مدينون به لتلك المرحلة. يمكن للبحر أن يخبىء في أعماق مياهه أسماكا كبيرة وسمينة لا تحظى العين برؤيتها. لقد عاش (سنور) كاتب الـ (ايدا) في القرون الوسطى، ومثله القديسة (بيرجيتا) وابن رشد، وروميو وجوليت، وتريستان وايزولدا. دون أن ننسى قافلة من الأمراء الكبار والملوك العظام، الفرسان الشجعان والسيدات الجميلات، والبناة العباقرة. وكل أولئك الذين مروا بصمت من رهبان ونساء ذكيات.

– نسيت الكهنة

– بالضبط. وصلت المسيحية الى النرويج قبل العام ١١٠٠م بقليل. لكنه من المبالغة القول إن البلاد تنصرت بعد هزيمة (ستيكلستاد). حيث ظل عدد كبير من المعتقدات الوثنية يتحرك تحت غطاء المسيحية، وامتزجت عناصر كثيرة مما قبل المسيحية بالطقوس المسيحية. ولنأخذ مثالا عيد الميلاد النرويجي: فقد امتزجت فيه تقاليد نرويجية، بالتقاليد المسيحية، كما هو الحال في الأعراس، مع ذلك لم تلبث المسيحية أن فرضت رؤيتها للعالم. ولذلك نقول ان القرون الوسطى تندرج تحت عنوان «ثقافة مسيحية موحدة».

– اذن لم تكن هذه المرحلة قاتمة ومظلمة الى حد كبير.

– لا شك أن العصور الأولى التي أعقبت العام ٤٠٠م، شهدت انحطاطا حقيقيا. بعد أن كانت المرحلة الرومانية، مرحلة خصبة للثقافة، بكل تلك المدن الحواضر، وما فيها من قنوات مياه وحمامات ومكتبات عامة، عدا عن المعمار الفخم ... لكن كل هذه الثقافة طارت بلمحة في

بداية القرون الوسطى، ومعها التجارة والمال. وعدنا الى الاقتصاد الأسري، والمقايضة. وسادت *الإقطاعية* النظام الاقتصادي، اذ أصبح نبلاء كبار يمتلكون الأرض التي يعمل فيها الفلاحون عبيدا، ليكسبوا ما يكاد يسد رمقهم. كذلك عرفت هذه القرون الأولى انخفاضا كبيرا في الديموغرافيا. فروما التي كانت تعد، مثلا، مليون نسمة في العصور القديمة، أصبحت لا تضم عام ٦٠٠م إلاّ أربعين الف نسمة! ولنتخيل رجلين أصلعين وثالثاً مجزوز الشعر، يتجولان بين أنقاض المعالم الفخمة التي تعود الى العصر الذهبي للمدينة. ليستعملوها كمواد بناء. وذاك ما يريك اليوم، علماء الآثار، الذين كانوا يفضلون كثيرا لو أن أهل القرون الوسطى تركوا الأنقاض على حالها.

– الكلام سهل. خصوصاً بعد مرور الوقت.

– في نهاية القرن الرابع، لم تعد عظمة روما إلاّ مجرد ذكرى. لكن أسقف روما أصبح رئيس الكنيسة الكاثوليكية كلها، وحمل لقب «البابا» أي الأب، واعتبر الناطق الرسمي باسم يسوع على الأرض. وهكذا ظلت روما مقر البابوية طوال القرون الوسطى، حيث لم يكن أحد – إلاّ القلة – يتجرأ على التمرد عليها .. الى أن أصبح ملوك وأمراء الممالك الجديدة، أقوياء بما يكفي للتمرد على سلطة الكنيسة.

رفعت صوفي عينيها الى الراهب الذي يعرف الكثير:

– قلت ان الكنيسة أقفلت أكاديمية أفلاطون في أثينا. فهل نسي الناس عندئذ كل فلاسفة الإغريق؟

– أجل، ولكن بشكل جزئي فقط. فقد كانت بعض كتابات أرسطو وأفلاطون تُعرف هنا وهناك. إذ إن الإمبراطورية الرومانية، كانت مقسمة الى ثلاثة قطاعات ثقافية: الغربي حيث الثقافة المسيحية، اللغة اللاتينية، والعاصمة روما. الشرقي حيث الثقافة المسيحية، اللغة اليونانية، والعاصمة القسطنطينية، التي حملت فيما بعد اسمها اليوناني: بيزنطة، (لذا نتحدث عن قرون وسطى بيزنطية، في مقابل القرون الوسطى الرومانية). اضافة الى افريقيا الشمالية والشرق الأوسط، التي شكلت جزءا من الإمبراطورية الرومانية، لكن ثقافة اسلامية تفتحت في

أرجائها، بلغة عربية.

ومع وفاة محمد (ص) عام ٦٣٢م، كان الشرق الأوسط وشمالي افريقيا، قد انضويا تحت راية الإسلام، لتتبعهما اسبانيا فيما بعد. وكان للإسلام أماكنه المقدسة، كمدينة مكة، والمدينة المنورة، والقدس، وبغداد. ومن وجهة نظر تاريخية بحت، يبدو مهما أن نسجل أن العرب ضموا المدينة الهللينية الهامة، الإسكندرية .. مما سمح لهم بالاطلاع على العلوم اليونانية. وطوال القرون الوسطى لعب العرب دورا مهيمنا في مجال الرياضيات، الكيمياء، علم الفلك، الطب والفلسفة وفي مجالات كثيرة، تفوقت الثقافة العربية على الثقافة المسيحية. فالكندي الذي عرف باسم فيلسوف العرب (توفي عام ٨٧٠م) كرس جهوده لتحقيق هدفين: اولهما الاحاطة بكل ما قاله الأوائل، وثانيهما اتمام ما لم يتمه الأوائل ووضع كل ذلك باللغة العربية.

وفي المغرب العربي: ظهر ابن باجه بفلسفته الأخلاقية. تأثر به ابن طفيل الذي جاء بعده، واشتهر كثيراً بكتابه «حي بن يقظان»، على ان اهم فلاسفة المغرب هو ابن رشد الذي درس فلسفة المشرق والفلسفة الاغريقية على السواء، ودافع عن الفلاسفة في كتابه «تهافت التهافت» رداً على الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة.»

تُرجم ابن رشد الى كل اللغات وترك الاثر الاكبر على الفلسفة الأوروبية.

أما علم الاجتماع، فهو مدين أساساً للعرب لأن مؤسسه هو الفيلسوف العربي ابن خلدون المعروف بمقدمته الشهيرة التي بنت عليها الحضارة الانسانية كل مفاهيم وأسس علم الاجتماع الحديث.

– أريد الآن أن أعرف، ماذا حصل للفلسفة اليونانية.

– اذن تخيلي نهرا ينقسم الى ثلاثة فروع قبل أن يعود ليجد شكله الأصلي.

– أتخيل ذلك جيدا.

– بإمكانك اذن أن تفهمي كيف انتقلت الثقافة الاغريقية الرومانية، جزئيا، الى الثقافة الرومانية – الكاثوليكية، في الغرب، الرومانية –

الشرقية في الشرق، والعربية في الجنوب. ولتبسيط الأمور أكثر، نقول ان نهر الأفلاطونية الجديدة جرى في الغرب، بينما جرى نهر افلاطون في الشرق، أما ارسطو فنحو بلاد العرب في الجنوب. لكن كلا من فروع النهر الثلاثة، ظلت تحمل بعضا من خصائصه. وفي آخر القرون الوسطى، التقت من جديد في شمالي ايطاليا، حيث جاء التأثير العربي من عرب اسبانيا، والتأثير الإغريقي من اليونان وبيزنطة. مما أدى الى بزوغ عصر جديد اطلق عليه عصر النهضة، وتعني حرفيا الولادة مرة أخرى «البعث» أي العودة الى المصادر القديمة. وبطريقة ما، عَنى ذلك، ان ثقافة العصور القديمة، استطاعت أن تبقى حية، عبر الصحراء التي كانتها القرون الوسطى.

– الآن أفهم أفضل.

– لكن، علينا ألاّ نتسرع. سنتحدث قليلا عن فلسفة القرون الوسطى، يا بنيتي. لكنني لن ألقي عليك خطابا من على هذا المنبر .. انتظري سأنزل.

أحست صوفي برغبة لا تقاوم في النوم، جعلتها تجد صعوبة في الإبقاء على عينيها مفتوحتين. وعندما رأت الراهب الغريب ينزل عن المنبر، ظنت نفسها تحلم.

اتجه البرتو مباشرة الى المذبح، رفع نظره الى الصليب القديم، ثم استدار الى صوفي، ويخطى وئيدة اقترب ليجلس بجانبها على المقعد الخشبي.

أي احساس غريب، ان تكون بجانبه!

واكتشفت صوفي عينين قاتمتين تحت الطاقية؛ عيني رجل متقدم في السن، اشقر الشعر ودقيق اللحية. وفكرت في نفسها:

«من أنت. ولماذا دخلت حياتي؟»

– علينا أن نتعلم كيف نتعارف بشكل أفضل. بادرها الرجل وكأنه قرأ أفكارها.

كان ضوء الفجر، العابر من زجاج النوافذ، يضيء الكنيسة شيئا فشيئا، بينما يتابع البرتو حديثه عن فلسفة القرون الوسطى.

– لقد قبل فلاسفة هذه الفترة أن المسيحية تقول الحقيقة، دون أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة كثيرة. وكانت كل المشكلة تتلخص في معرفة ما اذا كان يمكن الاكتفاء بالإيمان بالتجلي المسيحي، أم يمكن ادراك الحقائق المسيحية بوساطة العقل. أية علاقة كانت بين الفلاسفة الإغريق وتعاليم الإنجيل؟ هل هناك تعارض بين الإنجيل والعقل، أم يمكن اقامة مصالحة بين الإيمان والمعرفة؟ هذه هي القضية التي دارت حولها كل فلسفة القرون الوسطى، تقريبا.

هزت صوفي رأسها متململة. لقد سبق وأجابت عن هذا السؤال حول الإيمان والمعرفة في امتحان الدين.

– سنتبين وجهة نظر فيلسوفين في القرون الوسطى، بدءا بالقديس *أوغسطينوس*، الذي عاش بين ٣٥٤ و ٤٣٠م. والذي تُلخِّص حياتُه وحدها الانتقال من العصور القديمة الى القرون الوسطى.

ولد القديس أوغسطينوس في مدينة (تاغاست) الصغيرة في افريقيا الشمالية، وفي سن السادسة عشرة انتقل الى قرطاجة للدراسة .. بعدها الى روما، فميلانو، لينهي حياته أسقفا في مدينة (هيبو) الواقعة على بضعة كيلومترات غربي قرطاجة. لكن أغسطينوس لم يكن مسيحيا منذ البداية، فقد عرف عدة تيارات دينية وفلسفية قبل أن يعتنق المسيحية.

– مثلا.

– لقد اتبع *المانَويّة* فترة .. والمانوية طائفة دينية ذات صفات مميزة، في العصور القديمة المتأخرة. تتبنى رؤية خاصة للخلاص نصف دينية، نصف فلسفية. فالعالم، برأيهم، منقسم الى قسمين: الخير والشر، النور والظلمة، الروح والمادة، ويجد خلاص نفسه. لكن هذا الفصل القاطع بين الخير والشر، لم يرضه، حيث كانت تشغل المفكر الشاب تلك المسألة التي تطلق عليها عادة «مسألة الشر» أي مشكلة أصل الشر. فاجتذبته فترة أفكار الكلبيين، الذين لا يؤمنون بوجود فاصل بين الخير والشر. لكنه تأثر أكثر بفلسفة العصور القديمة المتأخرة، خصوصاً الأفلاطونية الجديدة .. ومنها تعلّم أن كل ما في الكون هو ذو طبيعة الهية.

– وهكذا أصبح أسقفا، أفلاطونيا جديدا؟

– أجل. بتعبير ما. فقد اعتنق المسيحية، لكن فكره ظل متأثرا بالأفلاطونية. ولذا لا يجوز القول بقطيعة كاملة مع الفلسفة الإغريقية، بمجرد بدء القرون الوسطى، ذاك أن جزءا كبيرا من الفلسفة الإغريقية استمر حيا بفضل بعض أساقفة الكنيسة.

– هل تقصد أن القديس أوغسطينوس كان خمسين بالمئة مسيحيا، وخمسين بالمئة أفلاطونيا – جديدا؟

– لقد كان يعتبر نفسه مسيحيا مئة بالمئة. ولم يكن يرى أي تناقض بين المسيحية وفلسفة أفلاطون. بل كان يجد قرابة كبيرة بين فلسفة أفلاطون وتعاليم المسيح، لدرجة جعلته يتساءل عما اذا كان أفلاطون قد قرأ بعض نصوص الكتاب المقدس. لكن هذه الامكانية تظل ضعيفة جدا. والأصح أن أوغسطينوس قد «نصّر» أفلاطون.

– انه، اذن، لم يدر ظهره كليا للفلسفة بعد تنصره.

– لا. لكنه قال بوضوح، إن في الدين حدوداً لا يمكن للعقل تجاوزها. ويجب ألا ننسى ان المسيحية بالنسبة له، هي سر الهي، لا يمكن ادراكه إلاّ بالإيمان وحده. فبالإيمان ينير الله نفوسنا، ويجعلنا نصل الى معرفته، معرفة فوق الطبيعة. ولأن القديس أغسطينوس قد أحس بحدود الفلسفة، فإنه لم يصل الى سلام النفس إلاّ بعد اعتناقه المسيحية، وذاك ما عبر عنه بقوله: «ان قلبنا قلق طالما انه لم يجد الراحة فيك».

– أجد صعوبة في ادراك الرابط بين المسيحية ونظرية أفلاطون – علقت صوفي، مضيفة – ما هو مصير الأفكار الأزلية هنا؟

لقد تبنى القديس أوغسطينوس فكرة خلق الله العالم من العدم، الواردة في التوراة. في حين كانت الفلسفة الإغريقية تقول ان العالم موجود منذ الأزل. ولكنه كان يرى أن الأفكار موجودة في ضمير الله، قبل أن يخلق العالم. أي أنه كان ينسب «أفكار» أفلاطون الى الله، منقذا بذلك نظرية «الأفكار الأزلية».

– ليس هذا بالرأي التافه!

– انه دليل على بعض التنازلات التي اضطر بعض آباء الكنيسة

لتقديمها، كي يتمكنوا من التوفيق بين الفكر الاغريقي والفكر اليهودي. كذلك فإن القديس أوغسطينوس، يعود الى الأفلاطونية الجديدة في مفهومه للشر: فالشر برأيه، هو كما قال أفلوطين: «غياب الله»، وهو غير موجود بشكل مستقل. لا وجود حقيقيا له. ذاك أن خلق الله هو خير. أما الشر فيأتي من عصيان البشر لله. أو بتعبيره الدقيق: «ان الإرادة الخيرة هي من صنع الله، أما إرادة الشر فهي الابتعاد عن صنع الله».

– هل كان يعتقد بخلود الروح؟

– نعم ولا. فقد كان يقول إن بين الله والإنسان فجوة لا يمكن تجاوزها أو بلوغها، نافيا بذلك نظرية أفلوطين بأن كل شيء واحد. وعليه، فإن الإنسان برأيه، كائن روحي: ان له جسدا ماديا، وبه ينتمي الى العالم الطبيعي، الخاضع للفناء. لكن له أيضا روح، هي التي تستطيع ان تعرف الله.

– وماذا يحصل للروح عندما نموت؟

– يرى القديس أوغسطينوس أن كل البشرية أهلكت بعد السقوط. لكن الله قرر، بالرغم من كل شيء، أن يخلص بعض البشر من الهلاك.

– كان بإمكانه أن يخلص البشرية كلها طالما انه موجود فيها. قالت صوفي معترضة.

– لكن القديس أوغسطينوس يلغي حق أي انسان في انتقاد الله، حول هذه النقطة. ويستند الى ما كتبه القديس بولس في رسالته الى أهل روما: «أيها الإنسان! من أنت الذي تجاوب الله. ألعل الجبلة تقول لجابلها؛ لماذا صنعتني هكذا .. أم ليس للخزاف سلطان على الطين ان يصنع من كتلة واحدة اناءً للكرامة وآخر للهوان؟

– فهل ان الله يتسلى، اذن، فوق، في السماوات بالبشر؟ وما إن لا يعجبه شيء، حتى يرميه في القمامة؟

– ما يحاول القديس أوغسطينوس أن يفهمنا اياه، هو ان ما من انسان يستحق الخلاص بالله، ومع ذلك فإن الله اختار أن يخلص بعض البشر من الضلال. فهو وحده يعرف من سيخلص ومن سيهلك .. كله مقرر سلفا. ونحن أشبه بالطين في يده، معلقون كليا برحمته.

– بتعبير آخر، نعود هنا الى الإيمان القديم بالقدر.

– بعض الشيء. لكن القديس أوغسطينوس لا يلغي عن الإنسان مسؤولية حياته الخاصة .. وكانت نصيحته أن علينا أن نعيش بطريقة تجعلنا نشعر بأننا جزء من المختارين. وهو لا ينفي بأن لكل حريته في الاختيار. لكن الله قرر لنا سلفا، كيف نعيش.

–أليس في هذا بعض الظلم؟

لقد كان سقراط يقول إن الناس يمتلكون الفرص ذاتها لأنهم يمتلكون العقل ذاته. لكن القديس أوغسطينوس يفصل الإنسانية الى قسمين، أحدها ينجو والآخر يهلك.

– أجل، لقد أبعدتنا نظريات القديس أوغسطينوس اللاهوتية، قليلا، عن الفلسفة الإغريقية. لكنه لم يكن هو من قسّم الإنسانية الى قسمين، إذ إنه لم يفعل إلاّ الاستناد الى الفكرة الموجودة في التوراة حول الخلاص والهلاك، معمقا اياها في كتاب حمل عنوان «*عن مملكة الله*».

– أخبرني عنه!

– ان تعبير «مملكة الله» مأخوذ من التوراة ومن الإنجيل. ويتلخص التاريخ، برأي القديس أوغسطينوس، في الصراع بين «مملكة الله» و«المملكة الأرضية». وليست هاتان المملكتان «دولتين سياسيتين» منفصلتين، بل انهما تتصارعان داخل كل فرد بشري. وخارجه تتمثل «مملكة الله» في الكنيسة، بينما تتمثل «مملكة الأرض» في التنظيمات السياسية من مثل الإمبراطورية الرومانية، التي انهارت في عصر القديس أوغسطينوس. وقد تأكد هذا المفهوم عبر مشهد الصراع المستمر على السلطة، بين الكنيسة والإمبراطورية، طوال القرون الوسطى. وهكذا اندمجت «مملكة الله»، الاغسطينية، نهائيا بالكنيسة كبنية منظمة. ولم تظهر اعتراضات على المرور الإلزامي بالكنيسة، للوصول الى الخلاص الأبدي، إلاّ عام ١٥٠٠م.

– لقد تأخر حصول ذلك!

– نلاحظ أن القديس أغسطينوس هو أول فيلسوف أدخل التاريخ في فلسفته. فالصراع بين الخير والشر لم يكن فكرة جديدة بذاتها، لكن

الجديد هو ادراجها ضمن التاريخ .. حيث لا يظل فيها أي تأثير أفلاطوني. ويطبق الرؤية «الخطية» «المستقيمة» للتاريخ، كما في العهد القديم. والفكرة تتمثل في أن الله بحاجة لمسيرة التاريخ كلها، لتحقيق «مملكة الله»؛ التاريخ ضروري لتربية الإنسان، والغاء الشر. وبتعبيره هو: «ان العناية الإلهية تقود تاريخ البشرية، منذ آدم حتى نهاية التاريخ.. كأنه تاريخ فرد واحد يسير ببطء من الطفولة الى الشيخوخة».

نظرت صوفي الى ساعتها:

– انها الثامنة، يجب أن أذهب.

– جيد .. لكن ليس قبل أن أحدثك عن الفيلسوف الثاني المهم، في القرون الوسطى. وإذا أردت ننتقل للجلوس في الخارج؟

نهض البرتو، شبك يديه، واتجه نحو الباب. فنهضت صوفي وتبعته. اذ لم يكن لديها خيار آخر.

في الخارج، لم يكن ضباب الصباح قد تبدد كليا من فوق التلال. فرغم أن الشمس أشرقت منذ وقت طويل. إلاّ انها لم تستطيع اختراق طبقة الضباب الرقيقة. وكانت كنيسة القديس يوحنا تقع في الجهة الأخرى من المدينة.

جلس البرتو على مقعد أمام الكنيسة. وحاولت صوفي أن تتخيل ما قد يحصل لو أن أحدا مر من هناك.

انه لمن الغريب أن تكون جالسة على مقعد كهذا في الثامنة صباحا، ومع راهب من القرون الوسطى، أيضا.

– انها الثامنة. لقد مرت أربعة قرون منذ القديس أوغسطينوس. وهذه بداية يوم طويل.

حتى الساعة العاشرة ظلت الأديرة تسيطر على التعليم .. الى أن تأسست أولى المدارس المرتبطة بالكاتدرائيات، وذلك بين العاشرة والحادية عشرة ظهرا حيث تأسست الجامعات الأولى. هذه الكنيسة، بنيت أيضا عام ١٢٠٠م أي في مرحلة القرون الوسطى المتأخرة، حيث لم يكن الناس هنا يملكون امكانات بناء كاتدرائية تستحق هذا الاسم.

– لم يكن ذلك ضروريا – قالت صوفي معترضة – أنا أكره الكنائس

الفارغة.

-لم تُبنَ الكاتدرائيات الكبيرة، لتأوي رعية كبيرة، فقط، وانما لتمجيد الله، بحيث ترمز بذاتها الى نوع من الصلاة. لكن حدثا مهما بالنسبة لنا نحن الفلاسفة، حصل في آخر القرون الوسطى.

– حدثني!

– لقد بدأ عرب اسبانيا يمارسون تأثيرا كبيرا .. فقد عرفوا التقليد الأرسطي طوال القرون الوسطى، وفي آخر القرن الثاني عشر زار بعض علمائهم ايطاليا الشمالية، بدعوات من أمرائها. وهكذا أعيد اكتشاف بعض كتابات أرسطو، وشيئا فشيئا، راحت تترجم من العربية أو الإغريقية الى اللاتينية .. مما أحيا الاهتمام بالعلوم الطبيعية، وبالعلاقة بين الإيمان المسيحي والفلسفة الإغريقية. ذاك أنه ما ان تطرح العلوم الطبيعية، حتى يصبح من المستحيل تجاهل أرسطو، لكن متى يجب الإصغاء الى الفيلسوف، ومتى يجب التمسك بالكتاب المقدس؟ أترين المشكلة؟

أومأت صوفي بنعم، وتابع الراهب:

– ان أهم وأكبر فيلسوف في القرون الوسطى المتأخرة هو القديس توما ألاكويني، الذي عاش بين ١٢٢٥م و ١٢٧٤م المولود في أكوينو الواقعة بين روما ونابولي والذي علّم في جامعة باريس. لقد أسميته «فيلسوفا»، لكن يمكن أن نقول عنه أيضا «لاهوتيا» ذاك أنه كان من الصعب، في تلك المرحلة، تمييز الفلسفة من اللاهوت. وباختصار، فإن القديس توما «نصّر» أرسطو، كما «نصّر» القديس أوغسطينوس أفلاطون.

– ألم يكن من الصعب عليهما «تنصير» الفلاسفة الذين عاشوا قبل المسيحية بقرون.

– بالتأكيد .. لكن تنصير الفيلسوفين الكبيرين جعل تفسير فلسفتهما غير معادٍ للعقيدة المسيحية. ويقال إن توما الاكويني «أمسك الثور من قرنيه».

– لم أفكر يوما بأن ثمة علاقة بين الفلسفة وترويض الثيران.

– يعتبر توما ألاكويني واحدا من أوائل الذين حاولوا التوفيق بين فلسفة أرسطو والمسيحية. ولذا نقول إنه قام بالجمع بين الإيمان والمعرفة.. وقد نجح في ذلك، بأن انطلق من أرسطو، آخذا فلسفته بالمعنى الحرفي.

– أو من قرنيها، اذا كنت قد فهمت، لكنني لم أنم هذه الليلة، أنا آسفة ... يجب أن توضح لي الأمور أكثر.

– يرى توما الاكويني. انه لا يوجد بالضرورة تعارض بين رسالة الفلسفة أو العقل، من جهة، والرسالة المسيحية أو الإيمان من جهة ثانية. لذلك نصل بوساطة العقل الى الحقائق ذاتها التي يتحدث عنها الإنجيل.

– كيف يمكن ذلك؟ هل يستطيع العقل أن يقول لنا إن الله خلق العالم في ستة أيام؟ أو أن يسوع هو ابن الله؟

– لا .. ليس هذا النوع من الحقائق الدينية، التي لا نبلغها إلا بالإيمان وحده. بل ان ألاكويني أراد أن يقول ان هناك سلسلة من «الحقائق الطبيعية اللاهوتية»، أي حقائق نستطيع ادراكها بالإيمان، بالوحي، وبالعقل الفطري أو «الطبيعي». أولى هذه الحقائق هي مثلا وجود الله. فبرأي القديس توما، هناك طريقان تقودان الى الله: الأولى هي طريق الإيمان والوحي، والثانية طريق العقل وامتحان حواسنا. وواضح أن طريق الإيمان والوحي هي الأكثر ثقة، ذاك أنه من السهل أن نضيع إذا لم نثق إلاّ بالعقل وحده.

لقد أراد القديس توما أن يبرهن على عدم وجود تعارض بين فيلسوف كأرسطو واللاهوت.

– اذن، بإمكاننا أن نتمسك في ذلك بأرسطو كما بالانجيل؟

– لا تقوّليني ما لم أقلْه! لم يَقْطَعْ أرسطو إلاّ جزءا من الطريق، لأنه لم يعرف العقيدة المسيحية. لكن قطع جزء من الطريق يختلف كثيرا عن الضلال عنها. اننا لا نخطىء مثلا عندما نؤكد، أن أثينا في أوروبا، لكن ذلك لا يكون تحديدا دقيقا. واذا ما اكتفى كتاب ما بقول ذلك، فإننا نضطر لمراجعة دليل جغرافي. وهنا نجد كل الحقيقة التي تقول إن أثينا هي عاصمة اليونان، واليونان بلد صغير في جنوبي – شرقي أوروبا.

وقد نجد أيضا معلومة عن الاكروبول، وربما عن سقراط وأفلاطون وأرسطو.

– لكن المعلومة الأولى كانت صحيحة.

– بالضبط .. هذا ما أراد القديس توما أن يصل اليه: ليس هناك إلاّ حقيقة واحدة. وعندما أعلن أرسطو أن ما يعترف به العقل هو صحيح بالضرورة، فإنه لم يناقض بذلك العقيدة المسيحية .. فبفضل عقلنا، وادراك حواسنا، نستطيع الوصول الى جزء من الحقيقة. لكن الله قد كشف لنا، بوساطة الإنجيل، جزءا آخر منها. وفي مجالات كثيرة، يتقاطع العقل والوحي، ليحملا لنا الإجابات ذاتها.

– من مثل واقع وجود الله؟

– تماما .. ففلسفة أرسطو تفترض مسبقا وجود اله – أو العلة الأولى – في أساس كل الظواهر الطبيعية. لكنها لا تقدم أي وصف مفصل أكثر لله. وهنا علينا أن نعود الى الكتب الدينية.

– ولكن كيف نكون واثقين تماما من ان الله موجود؟

– لا شك أن هذا خاضع للمناقشة .. ولكن أكثر الناس، في أيامنا، يتفقون على أن العقل البشري عاجز عن اثبات العكس. أما القديس توما فقد تجاوز ذلك الى القول إن الميتافيزيقيا عند أرسطو، تعطيه مجالا لإثبات وجود الله.

– كم كان شجاعا!

– العقل يقول لنا انه لا بد لكل ما حولنا من «علة أولى». وقد تجلى الله للإنسان عبر العقل، وعبر الوحي. ولذلك، فإن العودة الى «لاهوت موحى به» أفضل لنا من العودة الى «لاهوت طبيعي». وتنطبق القاعدة نفسها على صعيد الأخلاق، حيث حدد لنا الله كيف نعيش، لكنه منحنا أيضا ضميراً يستطيع التمييز بين الخير والشر، بطريقة طبيعية. اذن فهناك طريقان تؤديان الى الحياة الأخلاقية. نحن نعرف أن الإساءة الى الآخرين شر، حتى ولو لم نقرأ في الانجيل أن علينا أن نعامل قريبنا كما نحب أن يعاملنا. وهنا أيضا يبدو الإحتكام الى الضمير وحده أكثر خطورة من الاحتكام الى الانجيل.

– لقد بدأت أفهم – قالت صوفي – ان الأمر يشبه الصاعقة التي نستطيع توقعها اما برؤية البرق أو بسماع الرعد.

– أجل .. هكذا، حتى الأعمى، يمكن له أن يسمع العاصفة، والأطرش أن يراها، دون أن يكون هناك أي تعارض بين ما نراه وما نسمعه. بل ان الإحساسين يتكاملان.

– أفهم ما تريد قوله.

– سأورد مثالا آخر .. عندما تقرأين رواية. «*فيكتوريا*» لـ (كنوت هامسون).

– هذه المرة، تحدثت عن شيء قرأته ...

– هل بإمكانك تكوين فكرة عن الكاتب بمجرد قراءة كتابه؟

– أستطيع أن أفترض أن هناك كاتبا كتب الرواية.

– وماذا أيضا

– انه يمتلك مفهوما رومانسيا للحب.

– هل تسمح لك قراءة الكتاب، بالتنبؤ بطبيعة الكاتب هامسون؟ لا يمكن أن تتوقعي الحصول على معلومات دقيقة عن حياته، هل تستطيعين معرفة في اي عمر كتب روايته، أو أين كان يسكن، أو كم عدد أولاده؟

– بالتأكيد، لا.

– لكنك تجدين كل هذه المعلومات في سيرة حياة الكاتب. فوحدها السيرة الذاتية هي التي تعطيك فرصة معرفة الكاتب ككائن بشري.

– هذا صحيح!

– هكذا نجد العلاقة نفسها بين خلق الله، والانجيل. فبتجولنا في الطبيعة نعرف أن الله موجود، ونرى أنه يحب الأزهار والحيوانات. وإلا فلم خلقها؟ لكن كل ما يخص الله بذاته، نجده في الانجيل أي في «السيرة الذاتية» لله.

– هذا مثال موفق!

– امْ! ..

لأول مرة غرق البرتو حيناً، في تفكير جازفت صوفي بقطعه:

– هل لكل هذا علاقة بهيلد؟

– هل نحن على ثقة من وجود هيلد هذه؟

– لكننا نعرف اثارها هنا وهناك: بطاقات بريدية، منديل أحمر، محفظة خضراء، جورب نصفي ..

حك البرتو رأسه:

– ثمة احساس بان هذه الآثار متعلقة بوالد هيلد .. كل ما نعرفه، أن شخصا ما يرسل لنا كل هذه البطاقات، وكنت أفضل لو تكلم قليلاً عن نفسه. لكن لنا عودة الى كل هذا فيما بعد.

– بات الوقت ظهراً، أنا مضطرة للعودة قبل نهاية القرون الوسطى.

– سأختم ببضع كلمات تفسر لك كيف أن توما الاكويني تبنى فلسفة أرسطو في كل المجالات التي لم تكن تتناقض فيها مع اللاهوت الكنسي.. أي مجالات المنطق الأرسطي، فلسفة المعرفة، وفلسفة الطبيعة. هل تذكرين صورة سلم الحياة المتصاعد، الذي يمضي من النبات الى الحيوان، الى الانسان؟

أومأت صوفي برأسها ايجاباً، فأكمل:

– كان أرسطو يفكر بأن هذا السلم ينتهي بإله، يتركز فيه الوجود الأقصى. وتلك صورة تنطبق تماماً على اللاهوت المسيحي. فبالنسبة للقديس توما، هناك دائماً درجة وجود أرقى من النبات الى الحيوان، من الحيوان الى الانسان، من الانسان الى الملائكة، وأخيراً من الملائكة الى الله .. يشترك الانسان مع الحيوان في انه يمتلك أعضاء حسية، لكنه يمتلك أيضاً عقلاً «مفكراً». أما الملائكة فليس لها جسد مشابه وأعضاء حسية، لكنهم يمتلكون ذكاءً مباشراً وخاطفاً، فلا حاجة بهم للتفكير كالبشر، والخروج بنتائج، انهم يعرفون كل ما يعرفه البشر، دون حاجة لتحصيل معرفة أمور أخرى كما نفعل نحن. ولان الملائكة *لا تمتلك* جسداً، فانها لا تموت، حتى ولو انها *مخلوقة*.

– هذا رائع!

– لكن الله فوق الملائكة، انه يستطيع أن يرى ويفهم كل شيء بنظرة واحدة.

– أهو يراقبنا الآن؟

– ممكن .. ولكن ليس «الآن»، فالزمن غير موجود بالنسبة لله، كما بالنسبة لنا، وليست «الآن» عندنا هي الآن عند الله، ومرور أسابيع علينا لا يعني بالضرورة ان أسابيع قد مرت عند الله.

عند هذا الحد لم تستطع صوفي أن تمنع نفسها من القول:

– هذا يجعل قشعريرة برد تسري في ظهري.

ورفعت يدها تخفي تثاؤبها، ثم تتابع:

– لقد وصلتني بطاقة جديدة من والد هيلد .. كتب فيها، ان أسبوعاً أو اسبوعين لدى صوفي، ليسا بالضرورة أسبوعاً أو اسبوعين لدينا، وهذا يذكرني بما قلته عن الله.

أحست صوفي بأن ملامح البرتو تنقبض تحت غطاء الرأس البني ..

– عليه أن يخجل!

لم تفهم صوفي قصده، لكنه تابع:

– لسوء الحظ، تبنى توما الاكويني موقف ارسطو من المرأة، تذكرين ان هذا الأخير اعتبر المرأة رجلاً غير كامل، كما اعتبر الأطفال لا يرثون إلاّ صفات أبيهم، إذ إن المرأة هي العنصر السلبي والمتلقي، والرجل هو العنصر الفعال والمسؤول عن «الشكل». وقد رأى القديس توما ان هذه الافكار تتوافق مع ما جاء في التوراة، عن تكوّن المرأة من ضلع الرجل.

– أي كلام!

– مهم هنا، أن نعرف أن دراسة التناسل لدى اللبونات، لم تحصل إلاّ عام ١٨٢٧م، ولذا لا يكون من العجب الاعتقاد بأن الرجل هو الذي يخلق ويمنح الحياة. لكن الملاحظة المهمة هي أن القديس توما اعتبر النساء تابعات للرجال، كمخلوقات، ككائنات فقط، أما أرواحهن فمساوية لأرواح الرجال. وفي السماء تسود المساواة الكاملة، لأن كل الفوارق الجنسية والمرتبطة بالجسد، تفنى معه.

– عزاء بسيط. ألم يكن ثمة نساء فيلسوفات في القرون الوسطى؟

– لقد سيطر الرجال على حياة الكنيسة، مما لا يعني بالضرورة، عدم وجود نساء مفكرات، احدى هؤلاء كانت تدعى، مثلاً، هيلد غارد دو بينجان، حملقت صوفي عينيها:

- هل ثمة علاقة بينها وبين هيلد؟

- أي سؤال! ان هيلد غارد، هي راهبة عاشت في وادي الرين بين العامين ١٠٩٨م و ١١٧٩م، ورغم كونها امرأة، فقد بشّرت، كتبت، عالجت المرضى، ودرست النبات والطبيعة، ويمكن اعتبارها رمزاً لواقعية نساء القرون الوسطى واهتمامهن بالطبيعة وطريقة خلقها.

- أردت أن أعرف ما اذا كان لها علاقة بهيلد؟

- لم يكن الله، بحسب مفهوم مسيحي قديم، رجلاً فقط، إن له جانباً انثوياً، «طبيعة أمومية»، ذاك ان النساء أيضاً خلقن على صورته ومثاله. وكان الاغريق يطلقون على هذا الجانب لقب «صوفيا» أو «صوفي» ويعني الحكمة.

هزت صوفي رأسها بغضب: لماذا لم تسمع أبداً شيئاً عن ذلك؟ لماذا لم تفكر يوماً بأن تسأل؟

- كذلك، تابع البرتو، لعبت «صوفيا»، أي الجانب الانثوي في الله، دوراً ما خلال القرون الوسطى في الكنيسة اليونانية الارثوذكسية، أما في الغرب، فسقطت في النسيان .. حتى جاءت هيلد غارد، وادعت أن «صوفيا» ظهرت لها في رؤيا، مرتدية ثوباً مذهباً، مرصعاً بالحجارة الكريمة.

هنا، نهضت صوفي عن مقعدها، لاحت لها فكرة،

- صوفيا ظهرت لهيلد غارد، ربما ظهرت أنا لهيلد.

عادت الى الجلوس، فربت البرتو، للمرة الثالثة، على كتفها.

- سنوضح هذا، لكن الساعة بلغت الواحدة، يجب أن تتناولي فطورك، ثم انها بداية مرحلة جديدة. سأدعوك قريباً الى لقاء مع عصر النهضة، بوساطة هرمز، يأتي بك من حديقة البيت.

عند هذا الحد، وقف الراهب الغريب متوجهاً الى الكنيسة، بينما ظلت هي في مكانها، ورأسها يضج بأفكار تتعلق بهيلد غارد وصوفيا. فجأة أحست بقشعريرة تعبر جسدها، فنهضت بسرعة نحو أستاذ الفلسفة:

- هل كان في القرون الوسطى رجل يحمل اسم البرتو؟

أبطأ الأستاذ خطاه، والتفت الى صوفي قائلاً:

– لقد تتلمذ القديس توما، على يد أستاذ فلسفة يدعى ألبير الكبير ...

قال هذه العبارة، واختفى داخل الكنيسة .. لكن صوفي امتلكت ما يكفي من الشجاعة لتلحق به، غير أنها لم تجد إلاّ قاعة فارغة، كيف تبخر بهذه السرعة كلحظة الفرح؟

لاحظت وهي في طريق الخروج، صورة للسيدة العذراء، اقتربت منها وتفحصتها بانتباه، كان ثمة قطرة تحت العين، أهي دمعة؟

بسرعة انطلقت صوفي خارجاً، وركضت الى بيت جورون ...

عصر النهضة

... أيهـــا الجنس الإلـهي
المتنكر بشرا ...

عندما بلغت، لاهثة، باب الحديقة، وجدت جورون بانتظارها خارجاً.

– مضى أكثر من عشر ساعات على ذهابك.. صرخت بها.

هزت صوفي رأسها قائلة:

– تقصدين أكثر من الف سنة.

– أين كنت؟

– كنت في لقاء قمة مع راهب من القرون الوسطى، انه نموذج غريب من البشر!

– انت مجنونة تماماً. لقد اتصلت أمك منذ نصف ساعة.

– ماذا قلت لها؟

– قلت انك ذهبت تشترين شيئاً.

– وماذا قالت هي؟

– ان عليك أن تتصلي بها فور عودتك، لكن المشكلة الكبرى، كانت مع أبي وأمي، فقد دخلا الغرفة عند الساعة العاشرة، حاملين لنا الشوكولاته الساخنة، ووجدا أحد السريرين فارغاً.

– وماذا قلت لهما؟

– اضطررت لاختراع قصة، قلت اننا تشاجرنا فيما بيننا، مما جعلك تذهبين.

– اذن، علينا أن نتصالح بسرعة، وأن نتدبر الأمر بحيث لا يتكلم أبواك مع أمي لمدة أسبوع على الأقل، هل تعتقدين اننا سننجح؟

هزت جورون كتفيها حائرة، واذا بوالدها يخرج من الحديقة دافعاً أمامه عجلة صغيرة، مرتدياً زي البستاني الأزرق. وبدا واضحاً انه لا يرتاح للاضطرار كل سنة لرفع الأوراق الصفراء المتبقية من السنة الفائتة.

– يالله! ها هي الصغيرة صوفي الى جانب ابنتي الحبيبة، انظرا، أخيراً نظفنا درج الكوخ، لم يعد عليه ورقة واحدة.

– عظيم، قالت صوفي، هكذا نشرب الشوكولاته هناك بدلاً من شربها في السرير.

ضحك الأب بافتعال، وأحست صوفي بارتعاشة .. فالحديث يدور دائماً، بعفوية وانفتاح، في أسرة صوفي، أكثر منه لدى المستشار المالي انجبرستن وزوجته:

– آسفة، يا جورون، لكن لا بد لي من اكمال اللعبة.

– اذن، أخبريني ما جرى؟

– تعالي معي الى المنزل، على أية حال ما سأقوله لا يهم المستشارين الماليين، ولا الدمى السلفية.

– كم انت غير لطيفة! هل ترين أن زواجاً شكلياً، يطير فيه أحد الطرفين بعيداً، هو الأفضل؟

– لا، بالتأكيد، لكن، أنا لم أنم هذه الليلة، وقد بدأت أتساءل، هل ان بامكان هيلد أن ترى كل ما نفعل؟

قالت هذا، وهما تسيران معاً عبر ممر الحور، فأجابتها جورون:

– أهي عالمة بالغيب؟

– من يدري؟ .. ثم ..

كان واضحاً أن جورون غير مقتنعة بكل هذه الأسرار التافهة:

– هذا لا يفسر لماذا يرسل أبوها بطاقات جميلة الى شاليه مهجور، في الغابة.

– أعترف أن في هذا شيئاً غير منطقي.

– الن تقولي لي أين كنت؟

أخيرا «نطقت صوفي بالجوهرة» .. تحدثت عن أستاذ الفلسفة الغامض، لكنها لم تفعل إلا بعد أن جعلت جورون تقسم على كتمان السر.

بعدئذ مشت الصديقتان طويلاً دون أن تنبس احداهما بكلمة، الى أن وصلتا الى ممر النفل الثالث وعندها قالت جورون:

– هذه القصص لا تعجبني ..

– لكن أحداً لم يسألك ذلك، فالفلسفة لم تكن يوماً لعبة اجتماعية، انها تتحدث عمن نكون نحن، ومن أين جئنا، أترين اننا نتعلم ما يكفي من الأشياء في المدرسة؟

– ليس بامكان أحد أن يجيب عن أسئلة كهذه!

– صحيح، ولكننا لا نتعلم، حتى نطرح على أنفسنا مثل هذه الأسئلة.

عندما دخلت صوفي مطبخ منزلها، كان طبق الغداء على المائدة والبخار ما زال يفوح منه، ولم تبد الأم أية ملاحظة بشأن عدم اتصال ابنتها هاتفياً، من منزل جورون.

بعد الغداء، قالت صوفي انها ترغب في قيلولة، مشيرة ضمناً الى أنها لم تنم طوال اليل. وذاك ما يبدو طبيعياً عندما ننام عند صديقة.

قبل أن تنام نظرت في المرآة البرونزية التي كانت قد علقتها على الحائط، في البدء لم تر إلاّ وجهها هي بملامحه المشدودة، ثم لم يلبث أن خيل لها أن وجهاً آخر يرتسم بملامحه الغامضة من خلال وجهها.

تنفست شهقتين بعمق، محاولة أن تبقي رأسها هادئاً.

لكن صورة فتاة صغيرة أخرى، كانت تطل من وراء وجهها الشاحب، المحاط بشعر أسود، لا يتقبل أية تسريحة إلاّ تلك التي منحته اياها الطبيعة، شعر أملس، يتهدل مستقيماً.

بكل طاقتها، راحت الفتاة المجهولة تغمز بعينيها، كأنها تريد بذلك أن تنبه الى حضورها، لحظة، اختفت بعدها بسرعة.

جلست صوفي على سريرها، لا يراودها أدنى شك بأن هذه التي رأتها في المرآة هي هيلد واسترجعت لثوان الوجه الذي رأته على الشهادة المدرسية في الشاليه، انه الوجه ذاته الذي رأته في المرآة ..

أليس من الغريب أن تحصل لها دائماً هذه الأشياء الغامضة عندما تكون في أقصى حالات التعب؟ وانتهت الى التساؤل عما اذا كان كل ما حدث لها حلماً.

وضعت ملابسها على الكرسي الجانبي، واندست في سريرها. لكن حلماً غريباً، دالاً وواضحاً، هز غفوتها.

حلمت بأنها في حديقة واسعة، تطل على مستودع أحمر للقوارب، وعلى رصيف المرفأ، بالقرب من المستودع، تجلس فتاة شقراء تتأمل البحر، اتجهت صوفي نحوها وجلست الى جانبها، لكن الفتاة المجهولة لم تلاحظ وجودها، على ما يبدو، وعندما بادرتها: «هيلد! هذا أنا! صوفي» لم تجبها، لم يكن بامكانها أن تراها أو أن تسمعها. «هيلد، هل تسمعينني؟ أم أنك عمياء وصماء؟» لكن المجهولة لم تفهم كلام صوفي ثم سمعت صوت رجل يقول: «عزيزتي هيلدا!»، وعندها مباشرة نهضت الفتاة راكضة بسرعة نحو المنزل، ليست عمياء، اذن، ولا خرساء، ثمة رجل في متوسط العمر، يرتدي زياً رسمياً وقبعة زرقاء ركض لملاقاتها، تعلقت الفتاة بعنقه، وراح يدور بها في الهواء، وانتبهت صوفي الى أن الفتاة تركت على أرض الرصيف سلسلة وصليباً صغيراً، فأخذتهما .. واستيقظت ..

نظرت الى ساعتها، لقد نامت بضع ساعات، استوت في سريرها تفكر بحلمها الغريب، الذي فرض نفسه بقوة على تفكيرها، بحيث أصبحت تحس أنها عاشته فعلاً. كانت مقتنعة من أن المنزل والرصيف اللذين رأتهما، موجودان في مكان ما .. ألم يكونا مرسومين في اللوحة المعلقة على جدار الشاليه؟ على أية حال، ليست الفتاة الا هيلد موللر كناغ، وليس الرجل إلا أباها العائد من لبنان، والذي بدا في الحلم، شبيهاً بالبرتو كنوكس ..

عندما نهضت أخيراً من سريرها، راحت ترتبه، واذا بها تكتشف تحت المخدة، سلسلة وصليباً، يحمل الأحرف الأولى الثالثة (هـ. م. ك.).

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تحلم فيها بأنها وجدت أشياء ثمينة، لكنها المرة الأولى التي تعود فتجدها فعلاً.

– هذا كثير! .. صرخت متعجبة.

وتملكها غضب شديد جعلها تفتح باب الخزانة وتقذف بالصليب والسلسلة الى الرف الأعلى، حيث المنديل الحريري والجورب النصفي، والبطاقات البريدية المرسلة من لبنان.

صباح الأحد، أوقظت صوفي لتتناول افطار شهي مؤلف من كأس

عصير برتقال، بيضة، سلطة ايطالية، وخبز ساخن، من النادر أن تستيقظ الأم قبل ابنتها أيام الاحاد، لكنها عندما تفعل تهييء افطاراً شهياً.

خلال تناول الفطور قالت لها:

– في الحديقة كلب لا أعرفه، منذ الصباح وهو يدور حول العيص العتيق، اليست لديك فكرة عما يفعل؟

– بلى!

أفلتت الكلمة من صوفي التي لم تلبث أن صمتت مدركة انها تسرعت في الثرثرة.

– هل سبق له أن جاء الى هنا؟

من النافذة رأت صوفي هرمز، يستوي حارساً أمام الباب السري المؤدي الى مقر «القيادة العامة!»

– ماذا تقول: لم تجد وقتاً كافياً للتفكير بالجواب، اذ أصبحت الأم قربها، معيدة السؤال:

– هل قلت انه جاء سابقاً؟

– أجل، ربما دفن عظماً في الحديقة، وعاد الآن لينبشه، فللكلاب ذاكرة أيضا.

– ممكن، فأنت في هذه الأسرة، عالم النفس المختص بالحيوانات.

فكرت صوفي قليلاً قبل أن تتخذ قرارها:

– سأتبعه حتى منزله.

– وهل تعرفين أين يعيش؟

– لا شك أن في عنقه طوقاً يحمل عنوانه.

بعد دقائق كانت صوفي تعبر باب المدخل، وما ان رآها هرمز حتى راح يهز ذيله كالمجنون، ويرقص.

– هرمز، أيها الكلب الطيب ..

كانت تعرف أن أمها تراقبها من النافذة، ودعت الى الله ألاّ يدخل هرمز الى الكوخ! لكن الكلب ركض نحو طريق الحصى، اجتاز الحديقة، وقفز من البوابة.

تابع هرمز طريقه وهو يتقدمها دائماً بضعة أمتار، عبر الممر الملتوي بين الخيم المنصوبة هنا وهناك، فلم يكن هرمز وصوفي المتنزهين الوحيدين في الغابة، هذا الأحد .. حيث خرجت عائلات بكاملها لتمضية الوقت في الغابة، وأحست صوفي بأنها تغبطهم.

كان يحصل أن يتبع هرمز آثار كلب آخر، أو أن يشم شيئاً، فيبتعد عنها قليلاً، لكنها ما ان تنهره «هرمز، تعال الى هنا!» حتى يعود ليقفز حولها.

بسرعة، اجتازا حديقة كبيرة قديمة، ثم ملعباً رياضياً واسعاً، ثم حديقة عامة، لينفذا الى حي أكثر حيوية، ويتابعا سيرهما نحو المدينة عبر شارع عريض تعلوه جسور للقطارات.

ما ان وصلا الى مركز المدينة، حتى عبر هرمز الساحة الكبرى، متجهاً نحو شارع الكنيسة. ليبلغا المدينة القديمة المكتظة بعمارات من القرن الماضي. كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف ظهراً، وها هما في الطرف الآخر من المدينة، مغامرة نادرة قلما خاضتها صوفي، على هذه المسافة .. مرة واحدة فقط تذكر انها زارت عمة عجوزاً لها كانت تسكن في هذه الناحية.

أخيراً وصلا الى ساحة صغيرة تقع بين عمارات قديمة، وتحمل اسم «الساحة الجديدة» – أية غرابة! – في حين ان كل المباني هناك تعود الى القرون الوسطى. أمام المبنى رقم ١٤، انتظر هرمز ان تفتح صوفي الباب، وأحست هي بانقباض في معدتها.

في المدخل لوحة عليها صناديق بريد خضراء، ولاحظت صوفي وجود بطاقة ملصقة على أحد صناديق الصف الأعلى، وعليها ختم مركز البريد، الذي يشير الى أن المرسل اليه لا يسكن المنطقة، أما العنوان فهو: «هيلد موللر كناغ .. ساحة رقم ١٤ ..» والتاريخ: (٦/١٢). لا يزال هناك أسبوعان على هذا الموعد، لكن ساعي البريد لم ينتبه لذلك. انتزعت صوفي البطاقة وراحت تقرأ:

عصر النهضة

عزيزتي هيلد

الآن تصل صوفي الى منزل استاذ الفلسفة .. وستبلغ قريباً الخامسة عشرة من عمرها، في حين بلغتها انت أمس. اذا لم يكن اليوم، صغيرتي هيلد؟ اذا كان اليوم، ففي ساعة متأخرة من النهار، ذاك ان ساعاتنا ليست مضبوطة على التوقيت ذاته، ان جيلا يشيخ بينما يرى جيل آخر النور وخلال ذلك يتابع التاريخ طريقه. هل حاولت مرة أن تقارني مسيرته بمسيرة حياة انسان؟ العصور القديمة هي الطفولة، ثم تأتي القرون الوسطى الطويلة، الشبيهة بيوم مدرسي طويل، ولكن ها هو عصر النهضة: لقد انتهى اليوم الطويل، وها هي أوروبا الشابة تقفز نافدة الصبر ازاء فكرة الارتماء في حضن الوجود. يمكننا أن نقول إن النهضة تقابل سن الخامسة عشرة لأوروبا. نحن في شهر حزيران يا ابنتي، يا الهي، كم هو جميل أن نحيا، وكم هي الحياة جميلة!

ملاحظة:

أنا أسف لخبر ضياع صليبك الذهبي، يجب أن تتعلمي الانتباه أكثر الى أغراضك!

مع صداقتي
والدك .. الذي يقف عند
ناصية الشارع.

كان هرمز يتابع صعود الدرج وهو يهز ذيله بفرح، فحملت صوفي البطاقة وتبعته، قافزة الدرجات بسرعة حتى لا يضيع عن عينيها.

اجتازا الطابق الثاني، فالثالث، فالرابع الى أن وصلا الى درج ضيق أكثر، يتابع الصعود الى أعلى، هل سيصعد بها حتى السقف؟ أخيراً توقف هرمز عند باب ضيق، راح يدقه بمخالبه.

سمعت صوفي خطوات تقترب في الداخل، ثم انفتح الباب وظهر البرتو كنوكس. لقد غير ملابسه، ليتنكر بزي آخر: جوارب نصفيه بيضاء، سروال أحمر منفوخ، وسترة صفراء منفوخة الأكمام، كان أشبه بصورة «الجوكر» في ورق اللعب، لا شك أن هذا هو الزي النمطي لعصر النهضة.

– مهرج! صرخت به صوفي، وهي تزيحه جانبا لتدخل الى الشقة.

من جديد اضطر أستاذ الفلسفة الى أن يستوعب سلوك صوفي الطائش قليلاً، والذي لا يذهب في الواقع الى أبعد ما حصل. ولم تكن البطاقة التي وجدتها بقادرة على اصلاح شيء منه.

– ليس هناك ما يستدعي هذه الحالة، يا ابنتي. قال البرتو وهو يغلق الباب.

– هاك البريد!.. قالت صوفي وهي تمد له يدها بالبطاقة، كأنما تحمله مسؤوليتها.

قرأ البرتو الرسالة، ثم هز رأسه:

– هذا، لا يفوت فرصة! كأنه يستخدمنا للترويح عن ابنته في يوم ميلادها.

قال هذا، وهو يمزق البطاقة ارباً ويرميها في سلة المهملات.

– تقول البطاقة ان هيلد فقدت صليبا ذهبيا.

– اجل. قرأت ذلك.

– وانا وجدت هذا الصليب تحت مخدتي. هل بامكانك ان تفسر لي الأمر؟

– نظر البرتو في عيني صوفي طويلا:

– قد يبدو هذا مؤثرا وغريبا، لكن ليس هناك ما هو أسهل من تنفيذ خدعة كهذه.

الأفضل لنا ان نحاول الاهتمام بالأرنب الأبيض الكبير الذي يخرج من قبعة الكون العالية.

اتجها معا الى قاعة الاستقبال؛ قاعة لم يسبق لصوفي ان رأت بمثل غرابتها، كأنها جزء من سفينة، منحنية السقف والجدران وقد فتحت في السقف كوة للاضاءة، اضافة الى نافذة في الجدار تطل على الشارع، وتسمح للنظر بالامتداد بعيدا، بعيدا عن المباني القديمة.

أما الأكثر غرابة، فهو طريقة تأثيث الغرفة: خليط من الأثاث والأشياء العائدة الى كل العصور، كنبة من الثلاثينات، مكتب من القرن التاسع

عشر، كرسي عمره عدة عصور .. وعلى الرفوف والخزانات تتكوم مجموعة من التحف الضائعة بين اشياء الاستعمال اليومي، ساعات، سكاكين، دمى، ريش إوز، سندات كتب، هاون، قطارة، آلات هندسية، وبارومتر قديم. احد الجدران مغطى كليا بالكتب، لكنها ليست كتباً من النمط الذي يباع في المكتبات، بل مجموعة حقيقية تدل ان صاحبها هاوٍ جمع الكتب النفيسة. وعلى بقية الجدران لوحات كثيرة، منها ما هو حديث جدا ومنها ما هو قديم جدا، تجاور خرائط جغرافية قديمة وتقريبية.

وقفت صوفي ذاهلة. تدير رأسها يمينا ويسارا متفحصة أصغر دقائق الغرفة، قبل ان تقول:

– انت تجمع كل هذه الأشياء القديمة؟

– إن شئت، فهو كذلك. ولكنها عصور التاريخ موجودة هنا .. أنا لا أسميها اشياء قديمة.

– كأنك تدير دكان أثريات، أوْ شيئا من هذا القبيل؟

غطى وجه البرتو ظل من الكآبة:

– كل الناس، لا يعرفون كيف يستسلمون لنهر التاريخ، لذا لا بد من ان يتوقف بعضهم ليلموا ما يبقى على حافة النهر.

– انها طريقة غريبة في النظر الى الاشياء.

– بل إن هذا صحيح يا ابنتي. نحن لا نعيش عصرنا فقط، اننا نحمل تاريخنا كله في ذواتنا. تذكري ان كل ما في هذه القاعة كان يوما متألقا وجديدا. ربما صنعت هذه اللعبة الصغيرة، التي تعود الى القرن التاسع عشر، يوما لعيد ميلاد طفلة في الخامسة.. ربما اهداها اياها جدها العجوز.. ثم اصبح عمرها عشر سنوات، ثم اصبحت شابة، وتزوجت.. ربما رزقت طفلة أعطتها اللعبة بدورها، قبل ان تشيخ وتموت. لقد عاشت حياة طويلة، لكنها انتهت الى الموت. الذي لن تعود منه. في العمق، هي لم تقم الا بزيارة قصيرة الى الأرض.. بينما ظلت لعبتها هنا.. وها هي على الرف..

– عندما تعرض الأمور من هذه الزاوية، يصبح كل شيء مأساويا

ومحبطا.

– لكن الحياة محبطة ومأساوية. تتركنا ندخل عالما رائعا، نتلاقى، نتعارف، نقطع معا جزءا من الطريق، ثم نتوه بعضنا عن بعض، ونختفي بالسرعة ذاتها التي جئنا بها في المرة الأولى.

– هل يمكن لي ان اطرح عليك سؤالا؟

– نحن لا نلعب الغميضة، على ما أظن.

– لماذا قَطَنْتَ شاليه مايجور؟

– كي لا نكون بعيدين واحدنا عن الآخر ونحن نتواصل عبر الرسائل فقط. كنت اعرف ان احدا لم يسكنها منذ وقت طويل.

– اذن، قررت ان تسكنها أنت؟

– أجل وسكنتها.

– وكيف استطاع والد هيلد ان يعرف ذلك؟

– انه يعرف كل شيء، على ما اعتقد.

– على اية حال، لا استطيع ان افهم كيف يمكن جعل ساعي البريد، يوصل رسائل الى قلب الغابة.

ابتسم البرتو برضى:

– هذه الأمور نوع من التفاهات بالنسبة لوالد هيلد، عمل بسيط من اعمال مشعوذ مقتدر .. ربما نكون الشخصين الأكثر عرضة للمراقبة.

أحست صوفي بالاستنكار يغمرها:

– اذا حصل والتقيته، سأقلع عينيه.

مشى البرتو الى المقعد الكبير، واختارت صوفي مقعدا مريحا قريبا منه.

– وحدها الفلسفة، تستطيع ان تقربنا من والد هيلد. اليوم سوف احدثك عن عصر النهضة.

– موافقة.

– بعد سنوات من وفاة القديس توما الاكويني، تصدعت الثقافة المسيحية .. واخذت الفلسفة والعلوم في الانفصال التدريجي عن اللاهوت الكنسي. لكن من نتائج ذلك ان الحياة الدينية اكتسبت علاقة

اكثر حرية مع العقل، وراح بعض المفكرين، يركزون اكثر فاكثر، على استحالة ادراك الله عن طريق العقل، لأن الله بطبيعته مستعص على الادراك الفكري. من هنا يصبح خضوع الانسان للارادة الالهية، أهم من فهم السر الالهي.

– مفهوم!

– اخيرا. تعايشت الحياة الدينية مع العلم، ورأينا بروز منهج علمي جديد، وإيمان ديني جديد، أدّيا الى الانقلابين الكبيرين اللذين عرفهما القرنان الخامس والسادس عشر، اي عصر النهضة والاصلاح.

– لنأخذهما واحدا واحدا.

– النهضة هي حركة تجديد ثقافي كبيرة، حصلت في آخر القرن الرابع عشر .. بدأت في شمالي ايطاليا لكنها لم تلبث ان امتدت وانتشرت بسرعة خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر.

– الم تقل لي مرة ان كلمة النهضة، اي البعث، تعني «الولادة من جديد»؟.

– صحيح، والذي كان يجب ان يولد هو فن وثقافة القرون الوسطى. وهنا ايضا مصطلح «الانسانية» لاننا عدنا ننطلق من «الانسان» في حين القرون الوسطى نظرت الى كل عمل وكل حياة على ضوء «الله».

وهكذا اصبح تعبير «العودة الى الأصول»، اي الى «الانسانية» و«العصور القديمة» .. هو كلمة السر. وبدأ شكل من الرياضة القومية، رياضة نبش المنحوتات والكتابات القديمة. واصبح تعلم اللغة الاغريقية موضة العصر، مثل الدراسات حول الثقافة الاغريقية. وما يستحق الذكر، انه كان لدراسة الفلسفة الانسانية الاغريقية هدف تربوي، اذ ان معرفة اللغات القديمة تعطي «ثقافة كلاسيكية» وتنمي ما اصطلح على تسميته بـ«الميزات الانسانية».

«ان الحيوانات تولد حيوانات، اما الانسان فلا تلده انسانا، بل تربيه ليصبح كذلك». هذا القول كان شائعا في تلك المرحلة.

– تقصد ان التربية هي التي تجعل الانسان انسانا؟

– نعم هذا بشكل عام. لكن، قبل ان ندقق اكثر في افكار انسانية

عصر النهضة، لا بد لنا من كلمة عن خلفيتها الثقافية والسياسية.

نهض البرتو، وراح يذرع الغرفة، الى ان توقف وأشار بأصبعه الى أداة موضوعة على احد الرفوف.

– ما هذا؟ سأل صوفي.

– تبدو بوصلة قديمة.

– تماما.

ثم اشار الى بندقية قديمة معلقة فوق المقعد الطويل.

–وهذه؟

– بندقية قديمة.

– حسنا! وهذا؟

أخذ كتابا قديما من المكتبة.

– هذا كتاب عتيق.

– بدقة اكثر، نقول انه كتاب استهلالي.

– استهلالي؟

– تطلق هذه التسمية على الكتب التي طبعت في اول عهد المطبعة اي قبل القرن الخامس عشر.

– اهو قديم الى هذا الحد؟

– أجل. ان هذه الاشياء الثلاثة (البوصلة، البارود، والمطبعة) ترسي أسس هذه المرحلة الجديدة التي نطلق عليها اسم «النهضة».

– انتظر. انا لم افهم جيداً!

– البوصلة سهلت الابحار، وبذلك كانت في اساس الاكتشافات الكبرى .. ومثلها البارود، حيث ان الأسلحة الجديدة جعلت الأوروبيين افضل تسلحا، بالمقارنة مع الحضارات الأميركية والاسيوية .. في حين كانت المطبعة وراء انتشار الأفكار الانسانية الجديدة التي حملتها النهضة، مما ساهم بقوة، في فقدان الكنيسة لاحتكارها دور مالك المعرفة .. ومن ثم بدأ اختراع آلات وادوات جديدة على قدم وساق، فكان التلسكوب مثلا، آلة بالغة الأهمية، اذ ان علم الفلك انطلق، بفضلها، انطلاقة لا مثيل لها.

– وصلت اخيرا الى اختراع الصواريخ والمركبات الفضائية، الموصلة الى القمر؟.

– لا .. هكذا تحرقين المراحل! يمكن ان نقول ان النهضة تعتبر بداية مشروع أوصل الانسان الى المشي على القمر، أو، من زاوية أخرى، الى هيروشيما وتشيرنوبيل. وقد بدأ كل شيء بسلسلة من التعديلات والتحولات على الصعيد الاقتصادي والثقافي، أولها الانتقال من الاقتصاد العائلي الى الاقتصاد النقدي .. فمع نهاية القرون الوسطى، كانت مدن كبرى قد نمت وفيها يد عاملة حيوية، وتجارة تتناول بضائع جديدة، واقتصاد مبني على المصرف والتبادل النقدي الحر. هكذا نلاحظ تشكل طبقة رأسمالية، تحررت بفضل عملها، من سيطرة الطبيعة. لقد اصبح من الممكن شراء كل ما هو ضروري للحياة، بالمال .. مما شجع اتقان العمل، الخيال والابداع .. واصبح على الانسان، كفرد، أن يواجه تحديات جديدة.

هذا يذكر بتشكل المدن الاغريقية قبل الفي عام.

– أجل، انها ملاحظة جيدة. لقد رويت لك كيف انسلخت الفلسفة الاغريقية عن المفهوم الماورائي للعالم، المرتبط بالثقافة القروية، وبالطريقة ذاتها، أخذ بورجوازيو عصر النهضة يتحررون من الاسياد الاقطاعيين ومن هيمنة الكنيسة. وفي الوقت ذاته، أعيد اكتشاف الثقافة الاغريقية، بفضل الاحتكاك بعرب اسبانيا وبالثقافة البيزنطية.

– من جديد، عادت انهار العصور القديمة الثلاثة لتتحد في مجرى واحد.

– أرى أنك تحفظين دروسك جيداً، حسناً هذا هو سياق عصر النهضة، بشكل عام، ولنتحدث الآن عن الأفكار الجديدة.

– عليك أن تسرع، يجب أن أعود الى البيت وقت الافطار.

– أول ما أدخلته النهضة الى الفكر هو «رؤية جديدة للإنسان» فقد امتلك المفكرون الانسانيون في عصر النهضة، ايماناً جديداً بالإنسان، بقيمته التي تتناقض كلياً مع الموقف الثابت للعصور الوسطى والذي لم يكن يرى فيه إلاّ خاطئاً .. لقد بات الانسان يعتبر شيئاً كبيراً وثميناً.

واحد من كبار شخصيات عصر النهضة يدعى مارسيل فيسين، صرخ قائلاً: «أيها الجنس الالهي المتنكر انساناً، اعرف نفسك!» وفي السياق ذاته كتب بيك دولا ميراندولا «خطاباً حول كرامة الانسان». أليس ذاك ما لم يكن وارداً في القرون الوسطى، حيث ينطلق كل شيء من الله، بينما انطلق «انسانيو» عصر النهضة، من الإنسان ذاته.

– لكن هذا ما فعله الفلاسفة الاغريق أيضاً.

– صحيح، ولذلك نتحدث عن «ولادة ثانية»، للفلسفة الانسانية القديمة، لكن الفلسفة الانسانية في عصر النهضة ركزت أكثر على «الفردية» فنحن لسنا بشراً فقط بل أفراد متميزون. ومن هنا خطورة التملق للعبقرية بصفتها تلك. هكذا يصبح المثال الأعلى، لتلك المرحلة ما يطلق عليه لقب «انسان النهضة» أي انسان يهتم بكل ما له علاقة بالحياة، بالفن وبالعلم. ولم يكن من قبيل المصادفة أن ينشط الاهتمام بطبيعة الجسم البشري، فيعود العلماء كما في العصور القديمة، الى التشريح، وسيلة لفهم تركيبة الجسد البشري، مما أفاد العلوم والفنون على حد سواء. ويعود الفن الى رسم الجسد العاري، فهيأ الانسان من جديد على أن يكون هو ذاته، لم يعد ثمة سبب للخجل.

– كلامك يوحي بنوع من النشوة.

قالت صوفي وهي تنحني فوق طاولة تفصلها عن أستاذ الفلسفة.

– بلا شك، فقد قادت الرؤية الجديدة للإنسان الى «نمط جديد كلياً للحياة» لم يعد الإنسان موجوداً فقط لخدمة الله، فالله قد خلق الناس لأنفسهم، وهو يريد لهم أن يستمتعوا بالحياة، هنا وهناك. وعندما يقيض للانسان ان يتفتح بحرية كاملة، فان طاقاته لا تعرف الحدود، طالما أن هناك دائماً مجالاً للمضي أبعد. هذه النقطة كانت جديدة على الفلسفة الانسانية في العصور القديمة التي كانت تلح على راحة الحواس، على الاعتدال، وضبط النفس.

– هل تقصد أن «انسانيي» عصر النهضة فقدوا ضبط النفس؟

– كل ما نستطيع قوله، انهم لم يكونوا أبطال اعتدال. اذ بدا لهم العالم كله مستفيقاً من نوم طويل. وكانوا يعون مرحلتهم جيدا، مما

جعلهم يطلقون تسمية «القرون الوسطى» على آلاف السنين التي تفصل بينهم وبين العصور القديمة، فشهدنا لديهم تفتحاً استثنائياً في كل المجالات: الفن، المعمار، الأدب، الموسيقى، الفلسفة والعلم. لنأخذ مثالاً: روما القديمة التي حملت لقب «مدينة المدن» و«نواة العالم» في العصور القديمة، سقطت في النسيان خلال القرون الوسطى وانحسر عدد سكانها من مليون نسمة، الى (١٧) الف نسمة عام (١٤١٧)م.

– عدد يساوي تقريباً عدد سكان ليلساند.

– أخذ انسانيو النهضة على عاتقهم، عملية بعث روما، فبوشر بإقامة كاتدرائية ضخمة على قبر القديس بطرس، ودعي عدد كبير من فناني ومعماريي عصر النهضة للمساهمة في المشروع، الذي اعتبر، في عصره، اهم مشروع معماري في العالم، بدأ العمل عام (١٥٠٦)م وامتد مئة وعشرين سنة، ولم ينته بناء الساحة إلاّ بعد خمسين عاماً أخرى.

– لا بد انها كنيسة ضخمة، هائلة!

– طولها (٢٠٠) متر، وارتفاعها (١٣٠) متراً ومساحتها (١٦) الف متر مربع. ألا يقول لنا هذا الكثير عن جرأة رجال النهضة.

من جهة أخرى، جاءت هذه المرحلة بنظرة جديدة الى الطبيعة، فأنْ يشعر الناس بانهم سعداء لكونهم أحياء، وبأن حياتهم ليست مجرد تهيؤ للحياة الأخرى، لشيء هام يغير كل علاقاتهم بالعالم المادي. وتصبح الطبيعة شيئاً ايجابياً، ويصبح الله موجوداً داخلها. فطالما أنه لا محدود، اذن فهو موجود في كل شيء، وفي كل مكان. هذا المفهوم هو ما أُطلق عليه مصطلح «الحلولية». هكذا أُطلق على الطبيعة نعت «الالهية»، بمعنى انها مكان وجود الله. ولا شك ان الكنيسة لم تكن تنظر برضى الى هذه الأفكار الجديدة. وتشكل قصة جيوردانو برونو خير مثال على ذلك: حيث لم يكتف هذا المفكر بالقول ان الله موجود في الطبيعة، بل افترض أيضاً أن الكون ازلي. ادعاءان كلفاه حكماً بالغ القسوة.

– كيف؟

– لقد أُحرق في ساحة السوق في روما عام (١٦٠٠)م.

– هذا مرعب .. وغبي تماماً! أهذا ما تسميه «الإنسانية»؟

– لا، كان برونو هو الانساني، لا جالدوه، فقد برزت في عصر النهضة، حركة مناقضة للنهضة، تتمثل في السلطة القوية للكنيسة وللدولة.

ذاك أن الأخيرة كانت منتشرة كثيراً في تلك المرحلة، بالعنف. لقد كان للنهضة، خلفية أخرى، مظلمة. ليس في التاريخ مرحلة كلها خير أو مرحلة كلها سوء .. وغالباً ما يُنْسَجان معاً. هذا ما ينطبق أيضاً على شيء آخر، اساسي، ندين به لعصر النهضة؛ أي ظهور «منهج علمي جديد».

– هل يعود لهذه المرحلة، بناء المصانع الأولى؟

– ليس مباشرة، لكن النهضة أدخلت علاقات جديدة بالعلم، سمحت بحصول تجديدات وابتكارات تقنية.

– وبم يتمثل هذا المنهاج الجديد؟

– يتمثل أولاً في مراقبة الطبيعة بحواسنا، فمنذ القرن الرابع عشر، بدأ عدة أشخاص يعبرون عن تحفظاتهم ازاء الثقة العمياء بالسلطات القديمة المتمثلة في عقائد الكنيسة وفلسفة الطبيعة لدى أرسطو. وفي حين كانت القرون الوسطى تنادي عالياً بالسلطة المطلقة للعقل، اعتبر هؤلاء انه من الخديعة الإعتقاد بانه يكفي ان نفكر لنحل أية مسألة مهما كانت. وراحوا يطالبون باخضاع كل مشاهدة للطبيعة الى ادراك الحواس، الى تجربتنا، وإلى الاختبار. هذا ما نسميه «المنهج التجريبي».

– ماذا يعني؟

– يعني بناء معرفتنا بالأشياء، على تجربتنا الذاتية وليس على الطرائق القديمة، والخيال. صحيح أن التجريبية قد عُرِفَتْ أيضاً في العصور القديمة وقد قام أرسطو نفسه بعدة تجارب وملاحظات على الطبيعة، لكن القيام بتجارب منظمة ومبرمجة كان شيئاً جديداً كلياً.

– لكنهم لم يكونوا يملكون كل الأجهزة التي نملكها اليوم، أليس كذلك؟

– بالتأكيد لم يكن لديهم موازين الكترونية، ولا آلات حاسبة، لكنهم كانوا يعرفون الحساب، ويمتلكون موازين، وأعطوا أهمية – أكثر من أي

وقت مضى – لإعادة تسجيل الملاحظات العلمية في لغة حسابية، رياضية، دقيقة. «قس ما يقبل القياس، واجعل ما لا يقبل القياس قابلاً له»، يقول غاليلو؛ أحد أهم علماء القرن السابع عشر، الذي كان يرى أن «الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية».

– وفتحت كل هذه التجارب والاختبارات الطريق أمام اختراعات جديدة؟

– كانت المرحلة الأولى، مرحلة تشكل وتوضح هذا المنهج الجديد، الذي أدى الى ثورة تقنية، جعلت الاكتشافات اللاحقة ممكنة، وبتعبير آخر، لقد بدأ الناس يتحررون من هيمنة وسيطرة الطبيعة. لم تعد الطبيعة شيئاً يشكل الانسان جزءا منه فقط. بل أصبحت شيئاً يمكن أن نحتاجه «نستخدمه». «المعرفة هي السلطة»، قال الفيلسوف الانكليزي فرانسيس بيكون، معبراً عن فائدة المعرفة. وكان هذا تجديداً كبيراً، البشر يتعرضون فيه للطبيعة ويصبحون أسيادها.

– ولكن، ليس بطريقة سلبية، أليس كذلك؟

– لا، هنا أيضاً يتشابك الخير والشر في كل افعال البشر، فالقفزة التقنية التي حصلت في عصر النهضة هي سبب اختراع الآلة، وهي سبب البطالة في آن معاً، سبب اختراع أدوية وسبب أمراض جديدة، سبب الزراعة المكثفة، وافقار التربة، سبب الآلات الكهربائية المنزلية المريحة، وسبب التلوث ومشكلة النفايات، وفي كل هذه الحالات لم تكن التقنية بذاتها سبب السيئات، وانما طريقة استعمالها، فكثيرون يرون اليوم في التقنية، عاملاً حاسماً يكمن وراء التهديدات التي يواجهها عالمنا، كما يرى غيرهم أن الإنسان، قام بتشغيل نظام لم يعد قادراً على السيطرة عليه. لكن المتفائلين يعتقدون أن الحضارة التقنية لا تزال في طفولتها، لذا فهي تعاني من أمراض الطفولة، وسيتعلم البشر، تدريجياً، كيف يسيطرون على الطبيعة دون أن يعرضوها لخطر الموت.

– وانتَ. ما رأيك بذلك؟

– في كلٍ من وجهتي النظر شيء من الصحة، فيجب أن يتوقف الناس عن سوء استخدام الطبيعة، في بعض المجالات، لكننا نستطيع،

فيما عدا ذلك، الاستمرار في التصرف بضمير مرتاح، وما هو مؤكد في كل الأحوال، أننا لن نعود الى القرون الوسطى لأن الانسان لم يعد، منذ النهضة، مجرد جزء من الخليقة، بل أخذ يحولها ويشكلها على صورته، مما يعني الكثير عن هذا المخلوق العجيب – الإنسان.

– لقد وطئنا القمر، ولم يكن أحد في القرون الوسطى يظن ذلك ممكناً، أليس كذلك؟

– لك أن تقولي ذلك! وهو يقودنا الى تناول قضية التصور الجديد للأرض، فطوال القرون الوسطى، كان الناس يعيشون تحت السماء، يرفعون أنظارهم الى الشمس والقمر والنجوم والكواكب .. لكن أحداً لم يشك في أن الأرض هي مركز الكون. لم تثر أية ملاحظات الشك في كون الأرض ثابتة و«الأجسام السماوية» تدور حولها، أي ما نسميه «الصورة الجيومركزية للعالم». وكان تصوير الله بانه يستوي فوق كل الأجسام السماوية، يساهم في دعم هذا المفهوم.

– لو تستطيع أن تكون أكثر بساطة!

– في عام (١٥٤٣)م ظهر كتاب في علم الفلك، بعنوان «عن حركة الأجسام السماوية»، لعالم بولوني يدعى نيقولا كوبرنيكوس، مات في يوم صدور كتابه .. في هذا الكتاب قال كوبرنيكوس ان الشمس لا تدور حول الأرض، وانما العكس، وأن مراقبة الأجسام السماوية أكدت له ذلك. عندما كان الناس يعتقدون أن الشمس تدور حول الأرض، كانت الأرض هي التي تدور في الحقيقة، حول محورها. هنا يصبح تفسير كل المشاهدات المتعلقة بالأجسام السماوية، أكثر سهولة، اذا ما انطلقنا من فرضية أن الأرض وسائر الكواكب، تدور في خط منتظم حول الشمس. هذا ما نسميه «تصوراً شمسيّ المركز للعالم» أي أن كل شيء يدور حول الشمس.

– وهل كان هذا المفهوم صحيحاً؟

– ليس كلياً، الطرح الأول فيه، أي دوران الأرض حول الشمس هو صحيح بالتأكيد، لكنه ادّعى أيضاً أن الشمس مركز الكون، وقد بتنا اليوم نعرف ان الشمس ليست إلا نجمة بين النجوم التي تشكل كلها معاً

مجرة من ملايين المجرات الأخرى. كذلك كان كوبرنيكوس يعتقد بأن الأرض والكواكب تتبع خطاً دائريا حول الشمس.

– أليس هذا دقيقا؟

– لا، لأن فكرة هذه الحركات الدائرية، جاءت من المفهوم القديم الذي كان يدعي بان كل الأجسام السماوية كروية، وان حركتها دائرية أيضاً لأنها «سماوية»، ولأن الدائرة والكرة، اعتبرتا، منذ أفلاطون الشكلين الهندسيين الأكمل. وظل الأمر كذلك حتى بداية القرن السابع عشر، عندما جاء فلكي ألماني يدعى جوهانس كيبلر، يعرض نتائج مراقبة طويلة متقدمة، تبرهن على أن الكواكب تتبع مسارات بيضاوية، تشكل الشمس احدى بؤرتيها .. وتتضاعف سرعة هذه الكواكب أو تتناقص كلما اقتربت أو ابتعدت عن الشمس، بهذا كان كيبلر أول من وضع الأرض في صف الكواكب الأخرى، وأكد على أن الكون كله يخضع للقوانين الفيزيائية ذاتها.

– كيف استطاع أن يكون واثقاً الى هذا الحد؟

– لأنه حلّل حركة الكواكب، مُقدماً تفسيراً جديداً لنتائج المراقبة التي قام بها فلاسفة العصور القديمة. كان من معاصري كيبلر العالم الشهير غاليلو، الذي تفحص الأجسام السماوية بالتلسكوب. درس صفات القمر، وأكد قطعياً، وجود جبال ووديان على سطحه، كما اكتشف أن لجوبيتر (المشتري) أربعة أقمار. فليست الأرض وحدها، اذن، التي تمتلك قمراً، لكن الاسهام العلمي الأكبر لغاليلو هو انه أول من اكتشف قانون الجمادية.

– ما هو هذا القانون؟

– لقد صاغه غاليلو كما يلي: «تحافظ السرعة الأصلية للجسم السماوي، بدقة، على نسبتها، طالما لم تتدخل الأسباب الخارجية للبطء أوللتسريع».

– أنا لا أفهم أهمية ذلك.

– بلى، انها ملاحظة هامة! لأن احدى الحجج الرئيسة، التي استُند اليها منذ العصور القديمة، لنفي نظرية دوران الأرض، هي القول انه اذا

كانت هذه النظرية صحيحة، فان حجراً يرمى في الهواء، بشكل مستقيم لا بد أن يقع على بعد عدة أمتار.

– ولماذا لا يحصل ذلك؟

– لو انك كنت في قطار، وتركت تفاحة تقع من يدك، فان كون القطار يسير، لن يجعلها تقع الى الوراء، بل ستسقط وفق خط مستقيم، بسبب قانون الجاذبية الجمادية، وستحافظ على السرعة التي كانت لها قبل أن تسقطيها من يدك.

– بدأت أفهم ..

– صحيح ان القطارات لم تكن موجودة في عصر غاليلو، ولكن لو انك دحرجت كرة على الأرض، ثم أفلتها

–... انها تستمر في التدحرج ...

– ... لأن السرعة بقيت على حالها، حتى بعد أن أفلتها.

– لكنها لا بد أن تتوقف في النهاية، خصوصاً اذا كانت الغرفة كبيرة.

– صحيح! لأن قوى أخرى تكبح سرعتها، فهناك الأرض، وهي غالباً غير مستوية تماماً، ثم الجاذبية التي ستوقف الكرة عاجلاً أم آجلاً. لكن! انتظري، سأريك شيئاً.

نهض البرتو كنوكس، متجهاً نحو خزانة الأدراج القديمة، وأخرج من احدها شيئاً وضعه على الطاولة: قطعة من الخشب تبلغ سماكتها مليمترات في احدى جهتيها، وتتناقص هذه السماكة تدريجياً حتى تتلاشى في الجهة الأخرى. الى جانب القطعة التي غطت كل الطاولة تقريباً، وضع البرتو كرة صغيرة خضراء.

– هذا ما نسميه سطحاً منحنياً. ما الذي سيحدث، برأيك، اذا افلتت الكرة في أول الجهة السميكة، من اللوح؟

تنهدت صوفي بانزعاج:

– أراهنك على عشرة قروش، على كونها ستتدحرج وتقع أرضاً.

– سنرى

أفلت البرتو الكرة. فحصل ما توقعت صوفي، قبل أن تتوقف الكرة

عند عتبة الباب.

– مؤثر! رائع! قالت صوفي.

– أجل. لقد كان غاليلو يهتم تحديداً، بهذا النوع من التجارب البسيطة.

– هل كان حقاً، على هذا القدر من البلاهة؟

– اهدئي! كان يريد أن يختبر كل شيء بحواسه، وليس ما رأيناه إلاّ بداية. هل بامكانك أن تفسري لي لماذا تدحرجت الكرة؟

– بدأت بذلك لأن لها وزناً.

– جيد جداً، والوزن، ما هو الوزن يا صغيرتي؟

– هذا سؤال أبله!

– لا، انه ليس كذلك. بدليل انك غير قادرة على الاجابة. لماذا تدحرجت الكرة على الأرض؟

– ايه! بسبب الجانبية.

– اجل، جاذبية الأرض. ثمة علاقة اذن بين الوزن والجاذبية .. وهذه القوة هي التي حركت الكرة.

كان البرتو قد التقط الكرة، ووضعها من جديد فوق اللوح المنحني.

–راقبي جيدا حركة الكرة.

انحنى وقذف الكرة، محاولا ان يجعلها تسير بخط مستقيم على اللوح. لكن صوفي رأتها تنحرف شيئا فشيئا، وهي تتدحرج الى أسفل اللوح.

– ما الذي حصل؟ سألها البرتو

–لقد تدحرجت مائلة لان السطح منحنٍ

– الآن سأطلي الكرة بصباغ اسود، وبذلك نميز اكثر ما اسميته «ميَلانها».

اخرج قطعة من اللبد صبغ بها الكرة، ثم دحرج هذه الأخيرة مرة ثانية. فتمكنت صوفي من ان تتبين بدقة انزلاقها، بفضل الآثار السوداء التي تركتها على اللوح.

– كيف تصفين حركة الكرة؟ سأل البرتو.

– خط منحن.. يشبه جزءا من الدائرة.

– صح.. لقد قلتها.

نظر اليها البرتو رافعا حاجبيه:

– أخيرا.. انها ليست دائرة بالمعنى الدقيق.. انما نسميها «قطعاً مكافئاً».

– كما تريد.

– لكن. لماذا تتدحرجت الكرة بهذه الطريقة؟

– فكرت صوفي لحظة، خلصت بعدها الى الاجابة:

– لان السطح منحن، انجذبت الكرة الى الأسفل بتأثير قانون الجاذبية.

– جيد! اليس مما يستحق التوقف، انني آتي الى حجري، بفتاة، فتصل منذ التجربة الأولى، الى النتيجة التي وصل اليها غاليلو!

قال البرتو وهو يصفق لصوفي، التي خشيت للحظة، ان يكون قد اصيب بالجنون .. لكنه تابع:

– لقد رأينا التأثير المتقاطع لقوتين على جسم واحد. وقد برهن غاليلو على ان القاعدة ذاتها تنطبق على كرة المدفع مثلا، فهي تطلق في الهواء، وتتابع خطها الى ان تقع على الأرض، راسمة الخط ذاته الذي رسمته الكرة الآن على السطح المنحني.

لقد كان هذا، في عصر غاليلو، اكتشافا هاما وحقيقيا حيث كان ارسطو يعتقد ان جسما يقذف في الهواء، يتبع خطا قليل الانحناء، ثم يسقط على الأرض وفق خط عامودي مستقيم. انها نظرية خاطئة اذن، ولاثبات خطئها كان لا بد لغاليلو من تقديم *البرهنة*.

– لكني لا أرى الفائدة من ذلك.

– كيف؟ انها فائدة هائلة يا ابنتي! فهذا الاكتشاف هو واحد من أهم الاكتشافات العلمية التي عرفتها الانسانية.

– اذن. فسر لي ، لماذا؟

– بعد غاليلو جاء الفيزيائي الانكليزي، *اسحق نيوتن* الذي عاش بين ١٦٤٢ و١٧٢٧م، الذي ندين له بالوصف النهائي للنظام الشمسي وحركة

الكواكب. حيث انه لم يكتف بوصف حركة الكواكب حول الشمس وانما اوضح سبب ذلك. مستخدما آلية غاليلو للوصول الى ذلك.

– هل تشبه الكواكب كرات تتدحرج على سطح منحن؟

– شيء من ذلك .. لكن لا تستعجلي يا صوفي.

– حسنا، على اية حال، ليس لي خيار.

– كان كيبلر قد اشار الى ضرورة وجود قوة تتجاذب الكواكب فيما بينها. مثلا لا بد من ان للشمس قوة تجبر الكواكب على البقاء في مداراتها، وتفسر ايضاً سبب بطء حركة الكواكب كلما ابتعدت عن الشمس. وكان كيبلر يعتقد ايضا ان حركة البحر، اي اختلاف مستوى مياهه، متعلقة بالقمر، وماله من قوة.

– لكن هذا صحيح!

– اجل. لكن غاليلو عارضه في ذلك، بل راح يسخر من كونه «يتبنى فكرة سيطرة القمر على المياه»، ولذا لم يكن غاليلو يعتقد بان قوى الجاذبية هذه قادرة على التأثير على مسافات بعيدة الى هذا الحد، كتلك الموجودة بين الكواكب المختلفة.

– هنا، كان على خطأ.

– أجل أخطأ في هذه النقطة، وذلك لانه كان يهتم، بشكل خاص، بقوة الجاذبية الأرضية، وسقوط الأجسام على سطح الأرض .. كما قدم البرهان القاطع على تقاطع تأثيرات عدة قوى على حركة جسم واحد.

– لكنك ذكرت نيوتن.

– أجل جاء نيوتن يصوغ ما نسميه بـ «قانون الجاذبية الكونية» ومضمونه أن كل جسم يجذب جسماً آخر بقوة متناسبة طرداً مع كثافة الجسم، ومتناسبة عكساً مع مربع المسافة التي تفصلهما.

– بدأت الأمور تتضح لي أكثر، فقوة الجاذبية بين فيلين أكبر منها بين فأرتين، مثلاً، كما ان هذه القوة تكون أكبر بين فيلين في مكان واحد، منها بين فيل في الهند وآخر في افريقيا.

– ها انت فهمت. والآن أصل الى النقطة الأساسية: هذه الجاذبية هي، بحسب نيوتن، كونية .. مما يعني أنها موجودة في كل مكان حتى

بين الكواكب. ويروى أنه وصل الى هذا بينما كان يجلس تحت شجرة تفاح، ورأى فجأة تفاحة تسقط على الأرض، فتساءل، عما اذا كان القمر أيضاً يخضع لتأثير جاذبية الأرض، مما يجعله يدور حولها باستمرار.

– هذا ذكي... رغم ان...

– رغم ان.. ماذا؟

– لو كان القمر يخضع لقوة الجاذبية الأرضية ذاتها، التي تجعل التفاحة تسقط، لسقط هو الآخر، بدلا من ان يستمر في الدوران حول الأرض الى ما لا نهاية.

– هكذا نصل الى قانون نيوتن حول حركة الكواكب. فأنت على حق في نصف ما قلته عن قوة الجاذبية الأرضية على القمر، مما يعني انك على خطأ في النصف الآخر. أتريدين ان تعرفي لماذا لا يسقط القمر يا صوفي؟

صحيح ان الأرض تمارس على القمر قوة جاذبية هائلة، تخيلي اية قوة تلزم لرفع مستوى البحر مترا او اثنين، في حالة المد.

– أنا لا أفهم جيدا.

– فكري في السطح المنحني لدى غاليلو، وفي ما حصل عندما دُحرجت الكرة عليه.

– تقصد ان هناك قوتين مختلفتين تتجاذبان القمر؟

– بالضبط. ففي احد الأيام، في سحيق الأزمان، قذفت قوة رهيبة القمر بعيدا عن الأرض، وهذه القوة هي التي ستحفظه في مكانه الى الأبد، لانه يتحرك في فضاء مفرغ من الهواء، حيث لا يلقى اية مقاومة.

– لكن قانون الجاذبية الأرضية يقضي بأن ينجذب القمر الى الأرض؟

– صحيح، لكن هاتين القوتين ثابتتان، وتوجهان قوتهما بالتناوب. لذلك يستمر القمر في الدوران حول الأرض الى ما لا نهاية.

– هل حقا ان الأمر بهذه البساطة؟

– اجل .. ان هذه البساطة بالتحديد، هي ما حرص نيوتن على اثباته. ويرهن على ان عددا صغيرا من القوانين الفيزيائية، ينطبق على

كل نقطة في الكون. اما فيما يتعلق بحركة الكواكب. فقد اكتفى بتطبيق قانونين طبيعيين كان غاليلو قد كشف عنهما. الأول هو *قانون الجمادية* الذي صاغه نيوتن كما يلي: «يستمر كل جسم في حالته الجامدة او المتحركة في خط متساو، طالما انه لم يجبر على ترك حالته تحت ضغط قوى خارجية». أما الثاني فهو القانون الذي برهنه غاليلو ليطبقه على الكرات المتدحرجة فوق سطح منحنٍ. عندما يخضع جسم ما لتأثير قوتين في آنٍ واحد، فانه يتحرك بشكل اهليلجي.

– وهل استطاع نيوتن ان يفسر بهذا، لماذا تدور كل الكواكب حول الشمس؟

– بالضبط. فكل الكواكب تسير حول الشمس في مدارات هي نتيجة حركتين مختلفتين: الحركة الأولى، وفق خط مستقيم، وهي الحركة التي تلقتها هذه الكواكب عند تشكل النظام الشمسي، والثانية تتجه نحو الشمس وهي نتيجة الجاذبية الكونية.

– هذا عبقري!

– لقد برهن نيوتن على ان هذه القوانين تحكم الكون كله، وبذلك مسح نهائيا كل المعتقدات القديمة الموروثة من القرون الوسطى، والتي كانت تقول إن القوانين التي تحكم «السماء» هي غير التي تحكم الأرض، هكذا تم ايراد تفسير التصور المركزي الشمسي للعالم، واعترف به نهائيا.

عند هذا الحد وقف البرتو، واعاد اللوح المنحني الى الدرج. والتقط الكرة، ليضعها على الطاولة.

أما صوفي فظلت ذاهلة في كل ما توصلت الى استنتاجه من لوح خشبي منحني السطح قليلا، ومن كرة، و اذ راحت تتأمل هذه الكرة الصغيرة الملونة بالأسود، لاحت في ذهنها الكرة الأرضية. فسألت:

– والبشر. هل تقبّل البشر فكرة انهم يعيشون على كوكب ضائع في الكون الفسيح؟

– صحيح .. لقد كان التصور الجديد للعالم، صدمة كبيرة .. اشبه بتلك التي سببتها نظرية داروين فيما بعد، عندما قال ان الانسان متحدر

من الحيوان. ففي الحالين احس الانسان بأنه يفقد شيئا من وضعه المميز داخل الخليقة .. ولذا فان النظريتين اصطدمتا بمعارضة شرسة من قبل الكنيسة.

– لا أجد ذلك غريبا. فما الذي يتبقى من الله بعد كل هذا؟ يجب الاعتراف بأن الأمور كانت اكثر بساطة عندما كانت الأرض مركز العالم، وكان الله والكواكب، يحتلون الطبقة العليا.

– لكن هذا لم يكن الاستفزاز الأكبر، حيث خيل لبعضهم أن نيوتن، يشكك بقدرة الله، اذ يبرهن على كونية القوانين الفيزيائية، في حين ان ذلك الاتهام لم يكن صحيحا، اذ اعتبر نيوتن ان هذه القوانين هي الدليل على القدرة الالهية الكلية. غير ان الأسوأ، هو الصورة التي كانت للانسان عن نفسه.

– ماذا تقصد؟

– منذ عصر النهضة. اخذ الانسان يتعود فكرة أنه يعيش على كوكب ضائع في كون فسيح. رغم ذلك، ألا تعتقدين اننا تعودنا حقا تلك الفكرة، حتى في أيامنا هذه؟ لكن كثيرين، في عصر النهضة، أشاروا الى ان الانسان بات يحتل موقعا اكثر مركزية مما في السابق.

– كيف؟

– في السابق، كانت الأرض مركز الكون، ولكن منذ ان برهن علماء الفلك على عدم وجود مركز مطلق للكون، أصبح هناك عدد من المراكز، بعدد البشر.

– أفهم الآن...

– لقد اقام عصر النهضة *علاقة جديدة مع الله*. وبقدر ما راحت الفلسفة والعلم يبتعدان عن اللاهوت، بقدر ما راح يظهر شكل جديد من أشكال التديّن. اذ تغيرت، مع النهضة، صورة الانسان هي الأخرى، مما ترك آثاره على الايمان الفردي، وامّحت العلاقة مع الكنيسة كتنظيم امام العلاقة الشخصية بين الانسان وربه.

– تقصد صلاة المساء، مثلا؟

– وغيرها .. ففي الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، كانت

الطقوس اللاتينية، والصلوات الطقسية الكنسية، تشكل العامود الفقري في القداس، ولم يكن يستطيع احد، غير الكهنة، قراءة الكتاب المقدس، المكتوب باللغة اللاتينية القديمة فقط. لكنه ترجم، في عصر النهضة، الى اللغات الشعبية، مما شكل مرحلة تأسيسية لما اطلق عليه فيما بعد اسم «*الاصلاح الديني*».

– *مارتن لوثر*؟

– نعم. كان لوثر مهما، لكنه لم يكن المصلح الوحيد، فقد كان هناك مصلحون آخرون اختاروا البقاء ضمن الكنيسة الكاثوليكية، واصلاحها من الداخل. ومنهم *ايراسموس دو روتردام*.

– لقد انفصل لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية، لأنه لم يرد دفع ثمن صكوك الغفران، اليس كذلك؟

– بلى، ولكن هناك ما هو أكثر اهمية .. فبرأي لوثر، ليس الانسان بحاجة للمرور بالكنيسة أو بالكهنة للحصول على غفران الله. فكيف يكون، بالأحرى، بحاجة الى صكوك الغفران التي تبيعها الكنيسة؟

والواقع ان تجارة صكوك الغفران، كانت قد أدينت من داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها، منذ منتصف القرن السادس عشر.

– لا شك ان هذا يسر الله.

– لقد اتخذ لوثر موقفا من عدد كبير من العقائد والطقوس، التي غرقت فيها الكنيسة في القرون الوسطى، وأراد ان يعود الى مسيحية الانجيل فقط، «المكتوب وحده» كما كان يقول. وبذا كان لوثر يريد العودة الى منابع المسيحية، أصولها، تماما كما كان «الانسانيون» يريدون العودة الى المنابع القديمة في مجالات الفن والثقافة. قام بترجمة الكتاب المقدس الى الألمانية، مرسيا أسس اللغة الألمانية المكتوبة، وفاتحا الباب أمام كل انسان لقراءة الانجيل .. إذن فبامكان كل انسان ان يصبح مرشد نفسه.

– مرشد نفسه! اليس ذلك كثيرا؟

– كان يرى ان الكهنة لا يتمتعون بأية علاقة مميزة مع الله، لذلك فان الطوائف اللوثرية لا ترسم قسسا الا لممارسة الأعمال اليومية للكنيسة،

وقراءة الصلاة. وذلك لأن الإنسان لا يحصل على غفران الله، ومحو الخطايا، عن طريق طقوس دينية. فالايمان وحده هو الذي يمنح الانسان خلاصه «مجانا» متوصلاً الى ذلك عن طريق دراسة الكتاب المقدس.

– اذن فلوثر هو نموذج لرجل عصر النهضة.

– نعم ولا. فأحد الملامح المميّزة لعصر النهضة، يتمثل في الموقع المركزي الذي يحتله الانسان الفرد، وعلاقته الشخصية بالله. في سن الخامسة والثلاثين، تعلم لوثر اللغة الاغريقية، وبدأ بترجمة الكتاب المقدس الى الألمانية. إن إزاحة اللغة اللاتينية لمصلحة اللغة الوطنية، هو عمل يكتسي تماما طابع عصر النهضة. مما يعني ان لوثر لم يكن «انسانيا» مثل *مارسيل فيسين او ليوناردو دا فينتشي*، مما جعله يصطدم بمعارضة «انسانيين» آخرين مثل *ايراسموس دو روتردام*، الذي أعتبر ان نظرته للانسان سلبية جدا. ذلك ان لوثر اعتبر ان الانسان اصبح كائنا مدمرا بعد السقوط، وان رحمة الله وحدها، يمكن ان «تنصفه»، ذاك ان الموت هو الثمن الذي يجب عليه دفعه، تكفيرا عن خطيئته.

– ليس هذا كله مما يفرح..

نهض البرتو كنوكس، تناول الكرة ودسها في جيبه. عندها صرخت صوفي:

– آه انها الساعة الرابعة!

– المرحلة القادمة الهامة في تاريخ البشرية هي مرحلة القوطية (الباروك). وسنتناولها في جلسة أخرى، عزيزتي هيلد.

– ماذا قلت؟ صرخت صوفي وهي تقفز من كرسيها، هل قلت «عزيزتي هيلد».

– أخطأت. هذا كل ما في الأمر.

– اننا لا نخطيء صدفة.

– انت على حق .. ربما توصل والد هيلد الى التكلم من خلالنا. اعتقد انه يستغل الوضع، عندما يرانا متعبين، واقل تسلحا للدفاع عن أنفسنا.

– قلت انك لست والد هيلد. هل تقسم لي على ذلك؟

– اشار البرتو برأسه ايجابا، فسألت صوفي:

– وهل هيلد هي انا؟

– انا متعب الآن، صوفي. عليك ان تفهمي ذلك. منذ أكثر من ساعتين ونحن معا، وأنا اتكلم طوال الوقت. الا يجب عليك ان تعودي لتناول وجبة العشاء؟

أحست صوفي أنه يحاول ابعادها. فاتجهت الى الباب وهي تفكر بما جعله يخطىء في لفظ اسمها.

رافقها البرتو وهرمز، الذي توقف قليلا تحت مشجب يحمل كل انواع الملابس التي تشبه ملابس المسرح،، وقال لها الاستاذ.

– سأرسله ليأتي بك مرة أخرى.

– شكرا على درس اليوم. قالت صوفي وهي تقفز لتعانق البرتو، مضيفة:

– انت افضل استاذ فلسفة رأيته في حياتي. وقبل ان تغلق باب المدخل وراءها، سمعته يقول لها:

– سنلتقي خلال وقت قريب يا هيلدا!

هنا تملكها الغضب .. لقد أخطأ مرة أخرى في اسمها. الجبان! رغبة عنيفة في العودة، وقرع الباب، تتملكها، لكنّ ثمة شيئا آخر يمسك بها.

في الشارع انتبهت الى انها لا تحمل نقودا، مما يعني ان عليها ان تعود سيرا على الأقدام. أف ستثير امها مشكلة، اذا لم تصل قبل السادسة.

لكن.. ما ان خطت بضع خطوات حتى رأت قطعة نقود من فئة العشرة كورونات على الرصيف. ممتاز! هذا ثمن بطاقة باص. وهذا هو الموقف، فلتنتظر حافلة تتجه الى الساحة الكبرى ومن هناك تستقل أخرى توصلها الى بيتها.

في الموقف الثاني، في الساحة الكبرى، فكرت في انها كانت محظوظة، اذ وجدت عشرة كورونات، عند حاجتها الماسة اليها.. ولكن.. ماذا لو كان والد هيلد هو الذي رماها متعمدا؟ عندما تتواجد الأشياء في أماكن غير منطقية، يكون ثمة مجال للشك...

لكن.. كيف.. يستطيع ذلك اذا كان صحيحا انه في لبنان؟
ولماذا اخطأ البرتو في لفظ اسمها، ولمرتين؟
أحست صوفي بقشعريرة برد تسري في ظهرها...

القوطية

... قماشة صنعت منها
الأحلام ...

مضت ايام دون ان تتلقى صوفي اي خبر عن البرتو. لكنها كانت تنظر مرات في اليوم، الى الحديقة، لترى ما إذا كان هرمز هناك. وكانت قد قالت لأمها إن الكلب، عاد في ذلك اليوم الى صاحبه، وصاحبه استاذ فيزياء، دعاها لتناول الشاي، وحدثها طويلا عن النظام الشمسي وبروز عِلْم جديد في القرن السادس عشر.

لكنها روت أشياء أكثر لجورون.. حدثتها عن زيارتها لالبرتو، عن البطاقة البريدية في صحن الدرج، وعن العشرة كورونات التي وجدتها في الطريق. لكنها لم تقل اية كلمة عن حلمها بهيلد، او عن الصليب الذهبي.

يوم الثلاثاء ٢٩ ايار بينما كانت صوفي تغسل الاطباق في المطبخ، وتشاهد امها اخبار التلفزيون، في قاعة الاستقبال، واذا بخبر يتحدث عن اصابة مايجور نرويجي في قوات الطوارىء الدولية في جنوب لبنان، بجراح خطرة، نتيجة انفجار قنبلة يدوية.

رمت الفوطة التي كانت بيدها، على طاولة المطبخ، وهرعت الى الصالون، حيث لحقت بآخر لقطة من الخبر، وهي صورة أحد جنود الأمم المتحدة، انتقل بعدها المذيع الى خبر آخر.

– لا: لا! صرخت بهلع.

فاستدارت أمها نحوها معلقة:

– أجل. رهيبة هي الحرب..

لم تكد تلفظ جملتها هذه حتى انفجرت صوفي باكية.

– صوفي، اهدئي، يجب الاّ تتأثري هكذا!

– هل قالوا اسمه؟

– اجل.. ولكن كيف تريدين ان اتذكره؟ اعتقد انه من غريمستاد.

– لكن غريمستاد تقع الى جانب ليلساند، الا يُعقل أن يُخلط بينهما؟

– يكفي.. لا تثرثري بأي كلام!

– حتى ولو جئنا من غريمستاد، يمكننا الذهاب الى مدرسة ليلساند.

هنا توقفت عن البكاء، وجاء دور امها لتنفعل فنهضت من كرسيها، اطفأت التلفزيون وبادرتها:

– ما الذي تقولينه لي، صوفي؟

– لا شيء.

– بلى، أنا ارى الأمور بوضوح! أنت مغرمة وقد بدأت أظن أنه اكبر منك سنا. الآن اجيبيني: هل تحبين رجلا موجودا في لبنان؟

– لا ليس الأمر كذلك تماما...

– اذن، هل التقيت بابن رجل موجود في لبنان؟

– قلت لك لا، انا لم التق حتى بابنته!

– ابنته.. ابنة من؟

– هذا لا يعنيك.

– اتظنين ذلك؟

– الأصح أن لي انا ان أسألك: لماذا يغيب ابي دائما عن المنزل؟ هل انتما من الجبن بحيث لا تتجرأن على الطلاق.. ايه! هل لك عشيق لا نعرفه لا انا ولا ابي؟ أرأيت؟ ان لدي عددا لا بأس به من الأسئلة ان اردت ان ندخل هذه اللعبة..

– اعتقد انه من الأفضل ان نوضح الأمور نهائيا.

– هذه فكرة غير سيئة، لكنني مرهقة الى حد لا استطيع معه الاّ النوم. اضافة الى انني في ايام العادة الشهرية.

قالت هذا، ثم تركت الغرفة والدموع في عينيها.

لم تكد تخرج من الحمام، وتندس تحت اللحاف، حتى دخلت امها الغرفة، الاّ ان صوفي تظاهرت بالنوم، كانت تعرف ان الأمر لم ينطل على امها، التي كانت تعرف بدورها ان ابنتها تعرف ذلك، لكنها تظاهرت بتصديقها، فجلست على حافة السرير وراحت تمسد شعرها ووجهها.

بدأت صوفي تحس بأنه من الصعب ان نحيا حياتين معا، وراحت تأمل في رؤية نهاية دروس الفلسفة.. من يدري فقد تنتهي يوم عيد ميلادها، او يوم عيد القديس يوحنا، عندما يعود والد هيلد من لبنان.

– أنا انوي ترتيب حفلة كبيرة في عيد ميلادي. قالت فجأة.

– فكرة جيدة. من تريدين ان تدعي؟

– اناس كثيرون.. هل استطيع؟

– بالتأكيد، فالحديقة واسعة.. وقد يكون الطقس جميلا، كما كان اليوم.

– أحب ان يكون ذلك عشية عيد القديس يوحنا.

– وأنا اوافق.

–انه يوم هام.. قالت صوفي وهي تفكر بشيء آخر غير عيد ميلادها.

– اجل...

– اشعر انني نضجت كثيرا في الفترة الأخيرة.

– الا تجدين ذلك جيدا؟

– لا ادري.

كانت صوفي قد أبقت رأسها طوال الحوار مدفونا في المخدة. فعادت امها الى السؤال:

– اسمعي. يجب ان توضحي لي لماذا اصبحت غريبة هكذا، في هذه الفترة؟

– وانت. الم تكوني مختلفة عندما كنت في الخامسة عشرة؟

– بلا شك. ولكن، انت تعرفين عما أتكلم.

أدارت صوفي وجهها ببطء نحو أمها وقالت:

– الكلب يدعى هرمز.

– حسنا !؟

– وصاحبه رجل يدعى البرتو.

– آه! انه يسكن في الحي القديم، في اسفل المدينة.

– هل تبعت الكلب حتى هناك؟

– ليس هذا خطرا.

– لكنك قلت ان هذا الكلب جاء عدة مرات الى هنا.

– هل قلت انا ذلك؟

فكرت لحظة.. كانت ترغب في الافصاح عن أشياء أكثر، لكنها رغم ذلك لا تستطيع رواية كل شيء.

– انت دائما غائبة عن البيت. استأنفت الأم.

– لا، لدي مشاغل كثيرة.

– لكن هرمز والبرتو جاءا عدة مرات في السابق.

– لأي سبب؟ هل دخلا الى المنزل ايضا؟

– الا تستطيعين ان تطرحي اسئلتك واحدا واحدا؟ لا لم يدخلا البيت. لكنهما غالبا ما يتسكعان في الغابة، هل تجدين ذلك غريبا؟

– لا. لنرى.

– وككثيرين غيرهما، مرًا امام بوابتنا، في طريقهما، وفي احد الأيام، التقيتهما وانا عائدة من المدرسة، فسلمت على هرمز. هكذا بدأت معرفتي بالبرتو.

– ولكن، ماذا عن كل تلك القصة، قصة الأرنب الأبيض؟

– انها شيء مما قاله البرتو. انه فيلسوف حقيقي. لقد حدثني عن كل الفلاسفة.

– هكذا؟ من فوق سور الحديقة؟

– لا في النهاية صرنا نجلس معا. هل تفهمين؟ لكنه قبل ذلك كتب لي رسائل، رزمة من الرسائل.. كان يضعها احيانا في البريد، او يدسها في صندوقنا وهو في طريق نزهته.

– آه.. هذه هي «رسائل الحب» الشهيرة؟

– غير انها لم تكن رسائل حب.

– الم يحدثك الاّ عن الفلاسفة؟

– هذا يثير استغرابك، ها؟ ولقد تعلمت منها اكثر مما تعلمته في ثماني سنوات في المدرسة. فهل تعرفين مثلا، من هو جيوردانو برونو الذي أحرق عام ١٦٠٠م؟ أو ما هو قانون الجانبية الذي كشفه نيوتن؟

– أعترف بأنني اجهل اشياء كثيرة...

– واعتقد انني لا اخطىء اذ أؤكد انك لا تعرفين لماذا تدور الأرض حول الشمس، رغم انك تعيشين على هذا الكوكب!

– في اي سن هو، تقريبا؟

– لا ادري، فوق الخمسين بالتاكيد.

– ولكن، ما علاقته بلبنان؟

ها هو الوضع ينزلق.. وبسرعة مرت عشر أفكار في ذهن صوفي، انتهت الى اختيار اكثرها معقولية:

– لالبرتو شقيق، مايجور في القوات النرويجية التابعة للأمم المتحدة، وهو من ليلساند. انه هو بالتاكيد الذي سكن، في الماضي، الشاليه الذي اطلق عليه اسم شاليه مايجور!.

– الا تجدين ان اسم البرتو، هو اسم غريب؟

– ممكن.

– كأنه ايطالي.

– اعرف.. لكن كل ارثنا الثقافي يعود اما الى اليونان وإما الى ايطاليا.

– يتحدث النرويجية، على الأقل؟

–أه، بطلاقة.

– هل تعرفين بماذا افكر، صوفي؟ اعتقد ان عليك ان تَدعي صديقك هذا الى البيت.. انا لم التق بفيلسوف حقيقي في حياتي.

– سنرى.

– هل يمكن ان ندعوه الى حفلتك؟ من الممتع وجود عدة اجيال معا. وسيكون لي الحق في حضورها انا ايضا، على الأقل للقيام بالضيافة. ما قولك؟

– اذا كان يرغب في المجيء فلم لا؟ على اية حال سيكون الحديث معه اكثر اثارة وأهمية من التحدث الى صبية المدرسة. ولكن..

– لكن ماذا؟

– سيعتقد الجميع ان البرتو هو صديقك الجديد؟

– ليس عليك الاّ ان تقولي لهم الحقيقة.

– حسنا، سنرى.

– اتفقنا، سنرى.

– صوفي اسمعي.. صحيح ان علاقتي بأبيك لم تكن دائما جيدة، لكنني لم أخنه ابدا...

– دعيني انام الآن، فبطني يؤلمني بشدة.

– أتريدين حبة دواء؟

– أجل.. أجل.

عندما عادت الأم تحمل الحبة وكأس الماء، كانت صوفي قد استسلمت للنوم.

كان يوم ٣١ ايار يوم خميس، وتحملت صوفي برباطة جأش، ساعات الدرس الأخيرة، فمنذ بدأت دروس الفلسفة، وهي تتقدم في مواد كثيرة.. لقد كان تقديرها يتراوح بين «جيد» و«جيد جدا»، اما في الشهر الأخير فقد حصلت على «جيد جدا» لمرتين متعاقبتين، عن واجب علوم اجتماعية، وعن موضوع انشاء، لكن نتائجها في الرياضيات، ظلت متوسطة.

في الحصة الأخيرة، كُلفت الطالبات بكتابة موضوع في الصف، فاختارت صوفي موضوع «الانسان والتكنولوجيا». كتبت فيه كل ما اصبحت تعرفه عن عصر النهضة وتطور العلم، عن الرؤية الجديدة للطبيعة، عن فرانسيس بيكون الذي صرح ان المعرفة هي القدرة، وعن المنهج العلمي الجديد. وحددت بدقة ان المنهج سبق الاختراعات العلمية.

ثم كتبت ما ورد ببالها عن الجوانب السلبية للتقنية.. لتخلص الى ان كل فعل انساني قابل لأن يستغل للخير كما الشر، اذ ان الخير والشر خيطان، ابيض واسود منسوجان معا بحيث يصعب، غالبا، فصلهما.

عندما اعاد الاستاذ الدفاتر للطالبات، رمق صوفي بنظرة غريبة، تخفي وراءها شكا مضمراً.

«ممتاز!» كتب لها، لكنه اضاف تعليقا يقول: «من أين جئت بكل هذا؟»، فأخذت صوفي قلما اسود عريضا وكتبت: «أنا أدرس الفلسفة».

واذ كانت تغلق دفترها، سقط شيء ما من بين صفحاتها: انها بطاقة

بريدية من لبنان. انحنت وراحت تقرأ:

عزيزتي هيلد

عندما تقرئين كلماتي هذه، يكون خبر الحادث المؤلم الذي حصل هنا، قد انتشر.. واني لاتساءل احيانا عما اذا لم يكن ممكنا تجنب الحرب والعنف، فيما لو استعمل البشر ذكاءهم وفكروا أكثر. ربما يكون فصل في دراسة الفلسفة أفضل وسيلة لمقاومة الحرب والعنف. ما رأيك في «ملخص صغير في الفلسفة موجه للأمم المتحدة»، يوزع على جميع مواطني العالم، كل بلغته؟ سأطرح هذه الفكرة على الأمين العام للأمم المتحدة.

في مكالمتك الهاتفية، قلت لي انك بت أكثر انتباها واهتماما بأمورك، وهذا خبر سار لأنك الشخص الأكثر اهمالا من بين من أعرف. قلت لي ان الشيء الوحيد الذي فقدته، منذ المكالمة الأخيرة، هو قطعة نقود من عشرة كورونات. انا لا استطيع البحث عنها لأنني بعيد، لكنني اعرف شخصا عندك، يمكن ان اعتمد عليه.

(واذا وجدتها، اقدمها لك هدية عيد ميلادك).

مع صداقتي
والدك الذي يحس الآن انه
يضع قدمه على
طريق العودة الى البيت

لم تكد صوفي تنتهي من قراءة البطاقة حتى قرع جرس انتهاء الدوام، ورأسها يضج بمئات الأسئلة.

في الملعب، كانت جوورون تنتظرها كالمعتاد، وفي الطريق فتحت حقيبتها، واخرجت لها البطاقة.

– ما هو تاريخ ختم البريد؟ سألت جوورون.

– ١٥ حزيران، دون شك..

– لا . انتظري.. انه ٣٠/٥/١٩٩٠.

– انه امس.. اي غداة حادث لبنان.

– اشك في ان بطاقة بريدية ترسل من لبنان، لا تحتاج الاّ ليوم واحد

كي تصل الينا.

– خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار، العنوان غير العادي، المكتوب عليها «هيلد موللر كناغ/بوساطة صوفي امندسون. مدرسة فوروليا».

– هل تعتقدين بأنها وصلت بالبريد، وأن الاستاذ دسها في دفترك؟

– لا ادري شيئا، ولا اجرؤ حتى على سؤاله عن ذلك. بالمناسبة، سأحيي حفلة كبيرة في حديقتي عشية عيد القديس يوحنا.

– هل سيكون فيها شباب؟

هزت صوفي كتفيها وقالت:

– نعم، ولا حاجة بنا للبلهاء.

– ويورجن، هل ستدعينه؟

– إن أردتِ.. ربما دعوتُ البرتو كنوكس.

– هل جننت تماما، ام ماذا؟

– اعرف...

قالت ذلك وانفصلت الصديقتان امام مدخل السوق.

كان اول ما فعلته صوفي عند عودتها الى البيت، هو تفقد الحديقة، لترى ما اذا كان هرمز ينتظرها، ووجدته فعلا، يدور حول شجرة التفاح.

– هرمز!

تجمد الكلب لحظة! وكانت صوفي تعرف ما الذي سيحصل خلال هذه الثانية: لقد سمع النداء، وتعرف الى صوتها، وسيقرر الذهاب للتأكد عما اذا كانت موجودة في مكان صدور الصوت. وها هو يقفز باتجاهها، ثم تجري قوائمه الأربع وفق ايقاع يشبه عصي الطبل.

يمكن ان تحصل اشياء كثيرة في ثانية واحدة! ركض نحوها وهو يلوّح بذيله، ثم قفز ورمى نفسه عليها.

– هرمز ايها الكلب الطيب! بهدوء.. بهدوء.. لا.. لا تلحسني هكذا، تعال.. اجلس!، ايها الكلب الطيب.

فتحت باب المدخل وكان شيريكان يطل بأنفه من بين الاغصان المتداخلة.. انه حذر من هذا الحيوان الذي لا يعرفه جيدا. لكن صوفي

حضرت له طعامه، كما قدمت بعض الحبوب للعصافير، ووضعت ورقة خس في الحمام للسلحفاة، ثم كتبت ورقة صغيرة لأمها قالت فيها انها ستعود بهرمز الى بيته، وتتصل بها هاتفيا فيما لو تأخرت عن السابعة.

سارا معا، ولم تنس صوفي ان تحمل معها نقودا، هذه المرة، فكرت في ان تركب الحافلة مع هرمز لكنها عادت وقالت في نفسها انه من الأفضل استشارة البرتو في ذلك.

كانت تفكر، وهي تسير وراء هرمز، في طبيعة الحيوان. ما هو الفرق بين حيوان وانسان؟ وتذكرت ما قاله ارسطو بهذا الخصوص.. لقد فسر ان الانسان والحيوان هما كائنان حيّان، يمتلكان الكثير من الملامح المشتركة. لكن هناك فارق رئيس بينهما هو العقل.

كيف يمكن التأكد من هذا الفارق؟

من جهة أخرى، كان ديمقريطس يعتقد ان الانسان والحيوان متشابهان كثيرا، لانهما مركبان، كليهما، من ذرات، وليس لكليهما نفس خالدة. اذ ان النفس، برأيه، مؤلفة من ذرات تتبعثر في كل الاتجاهات، عند الموت. فروح الانسان مرتبطة بشكل لا ينفصم، بالدماغ، بحسب ديمقريطس.

ولكن كيف يمكن ان تتركب النفس من ذرّات؟ انها ليست شيئا يمكن لمسه او شمه كبقية الجسد.. انها بالتحديد شيء «روحي...».

قطعت صوفي وهرمز الساحة الكبرى، ودخلا الحي القديم، وعندما اقتربا من الرصيف الذي وجدت عليه العشرة كورونات، وجدت نفسها تنظر، غريزيا، الى الأرض... وهناك، في المكان ذاته، رأت بطاقة بريدية عليها صورة حديقة مزروعة بأشجار النخيل والتفاح.

انحنت صوفي تلتقطها، لكن هرمز اخذ يهمدر وكأنه لا يتقبل ان تلمس البطاقة.

كانت الرسالة تقول:

عزيزتي هيلد

ليست الحياة الا سلسلة من المصادفات. وليس من المستبعد ان

تظهر قطعة العشرة كورونات التي فقدت، هنا بالضبط. ربما ان امرأة عجوز، تنتظر حافلة كريستيانستاد، تركب القطار لزيارة احفادها، وبعد ساعات وساعات من ذلك، عادت ففقدت العشرة قروش هنا. واذا استمرينا في القصة، نقول انه من الممكن، ان تكون فتاة شابة، تحتاج الى عشرة كورونات لتركب الباص وتعود الى بيتها، قد التقطتها. لا احد يعرف ما اذا كان ذلك صحيحا. ولكن، لو افترضنا انه حصل فعلا، الا يكون في ذلك دليل على وجود عناية الهية.

اقبلك

والدك، الجالس بفكره في
الشارع في ليلساند.

ملاحظة:
لقد كتبت لك، بأنني سأساعدك على العثور على كوروناتك العشرة.

كان العنوان الذي على البطاقة: «هيلد موللر كناغ/بوساطة عابرة سبيل» أما تاريخ ختم البريد ٦/١٥.

اسرعت تحاول اللحاق بهرمز الذي راح يقفز الدرجات بسرعة، وما كاد البرتو يفتح الباب حتى صاحت به:

– تفضل، تبرأ من المسؤولية، انه البريد! وكانت تشعر بأن لديها اسبابا كثيرة للغضب، لكنه تركها تدخل، ومعها هرمز، الذي ذهب ونام تحت المشجب، كما في المرة السابقة.

– هل ترك المايجور، مصادفة، بطاقة جديدة يا بنيتي؟

رفعت صوفي نظرها اليه، وعندها انتبهت الى انه غيّر زيّه. وأول ما لفت نظرها، الباروكة الطويلة، المجعدة التي على رأسه، ثم الملابس الواسعة المكسرة والمغطاة بالدانتيل، والمنديل الحريري المعقود حول عنقه، واخيرا المعطف الأحمر الذي ارتداه فوق كل ملابسه. اما ساقاه فتغطيهما جوارب بيضاء لاصقة، وفي قدميه، حذاء رقيق لماع، مربوط بشرائط حريرية. هذا الزي بكامله، ذكر صوفي بصُوَر من قصر لويس

الرابع عشر.

– اذهب.. أنت مهرج!.. صاحت وهي تمد يدها له بالبطاقة..

– هم.. هم.. وهل وجدت حقا قطعة نقود من فئة العشرة كورونات في ذلك المكان؟

– اجل، بالضبط.

– انه يعتقد ان كل شيء مسموح له. ولكن ربما كان ذلك جيدا.

– كيف؟

– هكذا سنتمكن من كشفه بسهولة أكبر. ولنعد الى موضوعنا، ربما كان في زي المهرج هذا، ما ينفر.. انه يشبه انواع العطور الرخيصة.

– العطور؟

– اجل.. انه يبدو من بعيد، في اقصى حدود الاناقة، لكنه في الحقيقة، مجرد خدعة بصرية.. انه كهذا الرجل الذي يحاول ان يصور لنا أساليبه القذرة، وكأنها تدبير العناية الالهية.

قال البرتو ذلك مشيرا الى البطاقة، ثم تناولها ومزقها مئات القطع. وحرصا منها على عدم اثارة استيائه اكثر، قررت صوفي الاّ تذكر شيئا عن البطاقة الأخرى التي تلقتها في المدرسة.

– تعالي الى قاعة الاستقبال، يا تلميذتي العزيزة. كم الساعة الآن؟

– انها الرابعة.

– حسنا.. سنتحدث اليوم عن القرن السابع عشر.

دخلا معا الى الصالون المسقف، ذي الكوة في السقف، ولاحظت أن البرتو نقل بعض الأشياء من مكانها السابق.

على الطاولة، علبة جواهر تحتوي على مجموعة من العدسات، والى جانبها كتاب مفتوح يبدو قديما جدا.

– ما هذا؟ سألت صوفي

– انها الطبعة الأولى من كتاب ديكارت الشهير «خطاب المنهج»، وهو يعود الى عام ١٦٣٧. انه واحد من اكثر الاشياء التي احرص عليها، من بين ما املك.

– والعلبة؟

- ... تحتوي على مجموعة فريدة من العدسات التي صنعها الفيلسوف الهولندي سبينوزا في القرن السابع عشر. لقد كلفتني ثروة للحصول عليها.. وانا احرص عليها حرصي على بؤبؤ عيني.

- سأفهم افضل لماذا تحرص على كتابك وعدساتك كل هذا الحرص، لو عرفت من يكون سبينوزا وديكارت هذان.

- بالطبع.. ولكن لنحاول قبل ذلك ان ننتقل قليلا الى العصر الذي عاشا فيه. لنجلس هنا.

كالمرة السابقة، جلست صوفي على مقعد قديم مقابل البرتو الذي جلس على الكنبة، وبينهما الطاولة وعليها العلبة والكتاب. بعد ان خلع الاستاذ الباروكة ووضعها على المكتب.

- سنتحدث اذن عن القرن السابع عشر، او ما يسمى العصر القوطي؛ (عصر الباروك).

- عصر الباروك، اي اسم غريب!

- ان مصطلح «الباروك» مشتق من كلمة برتغالية تعني «لؤلؤة غير منتظمة»، ذاك ان الفن القوطي يتميز بالاشكال المتناقضة، عن فن عصر النهضة، الذي كان يبشر بالبساطة والتناغم. ونجد فيه تمجيد الحياة، كما في فن عصر النهضة، لكننا نجد ايضا، الطرف الآخر النقيض، اي نفي الحياة، والزهد في العالم. وسواء في الفن او في واقع الحياة، تفتحت الحياة في هذا العصر بانطلاق ورحابة لم يسبقهما مثيل، في حين كانت الأديرة تدعو للانسحاب من العالم، والزهد فيه.

- باختصار قصور بارزة، واديرة مخفية؟

- في الخطوط العريضة، نعم. فقد كان التعبير اللاتيني «Carpe diem»، الذي يعني «اجني نهارا» يعتبر احد شعارات العصر القوطي، ومثله عبارة «memento mori»، التي تعني: «تذكر انك ستموت يوما». ويتبدى ذلك في الرسم التشكيلي بشكل خاص، حيث يمكن ان تجسد اللوحة عددا من اشكال الحياة.. ونرى في احدى الزوايا في اسفلها، هيكلا عظميا. وقد تميز الباروك، في مجالات كثيرة بـ *العبثية* أو القدرية.. لكن كثيرين كانوا موسوسين بالطابع الزائل للحياة. اي ان كل

الجمال المحيط بنا محكوم بالزوال في يوم ما.

– لكن هذا صحيح. وانا اجد ان التفكير بأن ما من شيء يدوم الى الأبد، مثير للحزن.

– في هذا، انت تفكرين تماما كأهل القرن السابع عشر. على الصعيد السياسي ايضا، كانت المرحلة القوطية، مرحلة صراعات كبرى، حيث مزقت الحروب اوروبا، وكانت أمرّها حرب الثلاثين سنة التي استمرت من ١٦١٨ الى ١٦٤٨م، واجتاحت مناطق كثيرة. ويغطي مصطلح حرب الثلاثين سنة، في الواقع عدة حروب، دمرت المانيا، فكانت واحدة من ابرز نتائجها احتلال فرنسا موقع القوة الأولى في اوروبا.

– لماذا كانت هذه الحرب؟

– هي في ظاهرها حرب بين البروتستانت والكاثوليك، ولكن لا شك في ان لها خلفية سياسية.

ثم تابع حديثه:

– في القرن السابع عشر، كانت الفوارق الطبقية مهمة جدا. لا شك انك سمعت عن النبلاء الفرنسيين، وقصر فرساي، ولكنني غير واثق من انك تعرفين الكثير عن الفقر المدقع الذي كان يعيش فيه الشعب. واذ نتحدث عن انتشار الروعة، نتحدث عن انتشار السلطة، يكفي ان نتذكر الفن والمعمار القوطي، فالمعالم تبدو حائرة بين جميع اشكال الزوايا والاستدارات، كما هي صورة المشهد السياسي حيث تسود وتتشابك الاغتيالات، والحيل، والانقلابات والدسائس.

– اليس هناك ملك سويدي، قتل في احد المسارح؟

– تقصدين غوستاف الثالث، اجل. هذا يجسد ما كنت اقول.. لقد اغتيل هذا الملك عام ١٧٩٢. لكن ظروف قتله تجسد عصر الباروك، لانه قتل في حفل راقص مقنع.

– كنت اعتقد ان ذلك حصل في مسرح.

– كان الحفل في الاوبرا. واعتبر مقتل الملك نهاية عصر الباروك في السويد، ذاك انه كان مثل لويس الرابع عشر، الذي سبقه بقرن، «طاغية مستنيراً». لكنه كان رجلا مدعيا، مولعا بالاحتفالات على الطريقة

الفرنسية، ولذا لم يكن من قبيل المصادفة ان يولع بالمسرح.

– وهذا ما قلته...

– لكن المسرح لم يكن في ذلك العصر مجرد طريقة للتعبير الفني، كان رمزا كاملا.

– رمزا لماذا؟

– للحياة، صوفي. في القرن السابع عشر، كان القول الذي يتردد دائما «ان الحياة مسرح».. وفي المرحلة القوطية، عُرف المسرح الحديث، بكواليسه وآلياته.

وهكذا اصبح المسرح يمثل صورة الحياة اليومية للإنسان.. اذ بامكانه ان يبرهن، مثلا، على ان التكبّر يرتد على صاحبه، وان يعطي صورة مثيرة للشفقة، عن حالة الانسان البائسة.

– هل عاش شكسبير في العصر القوطي؟

– نعم، وكتب اهم مآسيه نحو سنة ١٦٠٠م. لقد كانت حياته في الواقع، همزة وصل بين عصر النهضة وعصر الباروك. وفكرة ان الحياة مسرح موجودة في كل اعماله، اتريدين امثلة؟

– بكل سرور

– في ملهاة As you like it اي (كما يحلو لك) كتب يقول:

العالم كله مسرح،
وليس الرجال والنساء، كلهم، الاّ ممثلين،
لكل دخوله ولكل خروجه،
وبين الاثنين حياتنا، حيث نلعب عدة ادوار.

وفي ماكبث يقول:

ما الحياة الا ظل يمر،
ممثل مسكين، يتحرك، ويستعرض لساعة على المسرح...
ثم لا نعود نسمعه؛ انها قصة، مليئة بالضجيج، بالغضب، يرويها ابله، ولا معنى لها.

– انه متشائم كثيرا.
– كان واعيا جدا لقصر الحياة، لا شك انك تعرفين عبارته الأشهر...
– *أكون أو لا أكون*.. تلك هي المسألة.
– اجل، انه هاملت من يقولها. اليوم نحن على الأرض، وغدا لن نكون.
– شكرا، هل تعرف انني فهمت!؟
– وعندما لم يكن الشعراء القوطيون يقارنون الحياة بمسرح، كانوا يقارنونها بحلم. فقد كتب شكسبير ايضا: «نحن من القماشة التي صنعت منها الأحلام، وحياتنا القصيرة محاطة بالنعاس...».
– هذا شاعري!..
– اما الشاعر الاسباني *كالديرون دولا باركا* الذي ولد عام ١٦٠٠م فقد كتب نصا مسرحيا بعنوان «الحياة حلم» يقول فيه:

«ما هي الحياة؟ جنون،
ما هي الحياة؟ وهم، ظل، خيال،
والخير المطلق قيمة بسيطة، ذاك
ان الحياة كلها ليست سوى حلم...».

– ربما كان على حق.. لقد درسنا في المدرسة نصا مسرحياً بعنوان «جيب على *الجبل*».
– *لودفيغ هولبرغ*، اجل اعرفه.. فهو واحد من اهم الشخصيات الأدبية التي عاشت بين العصر القوطي وعصر التنوير.
– ينام جيب في مغارة.. ليستفيق في سرير البارون.. عندها تخيل انه كان يحلم بأنه فلاح فقير تائه. بعدئذ حمل الى المغارة من جديد، ليستفيق على حاله، وعندها ظن انه كان يحلم بأنه البارون.
– لقد اخذ هولبرغ هذه الفكرة من كالديرون الذي استعارها بدوره من حكايات الف ليلة وليلة العربية. لكننا نجد في الهند وفي الصين، وفي مراحل اسبق، هذه المقارنة بين الحياة والحلم، من مثل هذا النص للحكيم الصيني القديم تشوانغ – تسي نحو (٣٥٠ ق.م):
«حلمت يوما بأنني فراشة، والآن لم اعد اعرف ما اذا كنت فراشة

تحلم بأنها تشوانغ – تسي، أم تشوانغ – تسي الذي يحلم بأنه فراشة».

– لكن معرفة الجواب مستحيلة.

– في النرويج. كان لدينا شاعر قوطي نموذجي، يدعى بيتر *داس*، عاش بين ١٦٤٧ و١٧٠٧م، وهو يصف في شعره الحياة اليومية في عصره، من جهة، ويؤكد من جهة ثانية على ان الله موجود وأزلي.

«ان الله هو الله نفسه، لو كانت الأرض صحراء، والله هو الله نفسه لو مات كل البشر».

–لكنه في القصيدة نفسها، يصف الطبيعة في شمالي النرويج، ويتحدث عن سمك القاروس، والفادس، والنازلي، ونجد في هذا الخليط من الاهتمامات الأرضية المادية، والروحية، ملمحا مميزا من ملامح القوطية، الذي يذكرنا بالتمييز الذي اقامه افلاطون بين عالم الحواس الملموس، وعالم الافكار الثابت والازلي.

– وماذا عن الفلسفة؟

– هي ايضا، اتسمت بصراعات كبرى بين خطوط فكرية مختلفة، لقد رأينا ان بعضهم اعتبر الانسان ذا طبيعة مثالية، او روحية.. ويطلق على وجهة النظر هذه اسم «المثالية» التي تتعارض مع «*المادية*» التي تعيد كل ظواهر الوجود الى اسباب مادية. وقد كان للمادية دعاتها المتحمسون منذ القرن السابع عشر، واكثرهم تأثيرا الفيلسوف الانكليزي *توماس هوبس* الذي اعتبر ان كل الكائنات، بما فيها الانسان والحيوان، مكونة من جزيئات مادية، حتى ضمير الانسان، او روحه، فانهما ينتجان عن حركة جزيئات دقيقة جدا في الدماغ.

– لكنه لم يقل شيئا مختلفا عما قاله ديمقريطس قبل الفي عام.

– *المثالية والمادية* موجودتان عبر كل تاريخ الفلسفة، لكننا نادرا ما رأيناهما تتعايشان معا كما في العصر القوطي. حيث دعمت العلوم الحديثة النظرة المادية.. فأوضح نيوتن ان القوانين الطبيعية من مثل قانون الجاذبية، تنطبق على كل نقطة في الكون، والعالم كله محكوم *بآلية* واحدة، تخضع بدورها لقوانين غير قابلة للانتهاك. لقد وضع نيوتن اللمسة الأخيرة على ما نسميه «*الصورة الآلية للعالم*».

– انه يصور العالم كآلة ضخمة؟

– تماما.. فلفظة «آلي» في اللغات الأوروبية، تأتي من المصطلح الذي يعني آلة. لكنه من المهم ان نلحظ ان *هوبس ونيوتن* لم يريا اي تناقض بين فلسفتيهما المادية وايمانهما بوجود الله. وينطبق هذا على كل فلاسفة المادية في القرنين الثامن والتاسع عشر. فقد نشر الطبيب والفيلسوف الفرنسي *لامتري*، في اواسط القرن الثامن عشر، كتابا بعنوان «الانسان الآلة»، يقول فيه ان كل شيء يمتلك عضلات ليتحرك، فكما الفخذ، يتحرك بحركة عضلاته، كذلك الدماغ يفكر «بعضلاته». اما عالم الرياضيات الفرنسي *لابلاس* فقد تجاوز ذلك الى القول: لو ان ذكاءً ما توصل الى معرفة وضع كل جزيئات المادة، في لحظة معينة، فان «*ما من شيء يظل غامضا بالنسبة له، وينبسط الماضي والحاضر والمستقبل امام عينيه*». والفكرة الأساسية هنا هي ان كل شيء مقرر سلفا؛ «*كل اللعبة مقدرة*». وهذه النظرة للعالم هي ما نسميه «*الحتمية*» أو «*الجبرية*».

– اذن فليست حرية ارادة الانسان الا سرابا؟

– اجل.. فليس كل شيء الاّ نتيجة السيرورة الآلية، حتى احلامنا وافكارنا.

في القرن التاسع عشر، ذهب بعض الماديين الالمان الى القول إن سيرورة الفكر هي بالنسبة للدماغ، كالبول بالنسبة للكلى، والصفراء بالنسبة للكبد.

– لكن البول والصفراء «مادة». أما الافكار فلا!

– انت تضعين اصبعك على شيء هام. سأروي لك قصة تقول الشيء ذاته: ذات مرة كان رائد فضاء وجرّاح دماغ روسيان، يتناقشان في الدين، وكان الثاني مسيحيا والأول لا. قال رائد الفضاء متبجّحاً:

«لقد ذهبت عدة مرات الى الفضاء، ولم التق لا بالله ولا بالملائكة». فأجابه الجراح:

«اما انا فقد اجريت عدة عمليات على ادمغة بشرية ولم اصادف اية فكرة».

– لكن هذا لا يعني ان الافكار غير موجودة.

– وهو يبرهن، على انه لا يمكن تجزئة الافكار الى جزيئات، فجزيئات اصغر. فليس من السهل مثلا طرد فكرة خاطئة لانها تكون قد ترسخت في ذهننا. وهكذا لاحظ فيلسوف كبير من القرن السابع عشر يدعى *ليبنيز*، انه هنا يتضح الفارق بين *المادة والروح*: المادي يمكن ان ينقسم الى ما لا نهاية، بينما لا نستطيع قطع روح الى اثنتين.

– حتما! وبأي سكين؟!

اكتفى البرتو بأن هز رأسه، ثم تابع:

– الفيلسوفان الأهم في القرن السابع عشر هما *ديكارت وسبينوزا*. هما ايضا اهتما بتحديد العلاقة بين الروح والجسد، ويستحقان ان يدرسا بدقة وتفصيل اكثر.

– اذن، ماذا تنتظر؟ لكن يجب ان تتركني أهاتف امي، اذا كنا سنتأخر عن الساعة السابعة.

ديكارت

... كان يريد ان يكنس الساحة...

نهض البرتو، خلع معطفه الأحمر، ورماه على ظهر احدى الكراسي، ثم عاد فجلس باسترخاء على الكنبة.

– ولد رينيه ديكارت عام ١٥٩٦م، وعاش حياة ترحال عبر اوروبا كلها. ومنذ شبابه المبكر، تملكته رغبة حادة في التوصل الى معارف اكيدة بشأن الطبيعة والانسان والكون، لكن دراسته في الفلسفة انتهت الى اقناعه بجهله الكامل.

– تقريبا، كسقراط؟

– نعم، ان شئت. كان يشارك سقراط الاعتقاد بأن العقل وحده هو الذي يسمح لنا بالمعرفة الواضحة، ولا يمكننا ابدا الوثوق بما جاء في الكتب القديمة، كما انه لا يمكننا الوثوق بحواسنا.

– كان هذا رأي افلاطون ايضا.. فهو يؤمن بأن العقل وحده هو الذي يقودنا الى المعرفة.

– صحيح، تماما. هناك خط فكري يمتد من سقراط وافلاطون الى ديكارت مرورا بالقديس اوغسطينوس. فقد كانوا جميعا عقلانيين متشددين يؤمنون بأن العقل هو الأساس الوحيد للمعرفة. وبعد دراسة معمقة، وصل ديكارت الى الاستنتاج بأنه يجب عدم الرجوع الى الافكار الموروثة من القرون الوسطى، مما يذكرنا بسقراط الذي ادار ظهره للأفكار الموروثة، والتي كانت تدور في اثينا.

اذن، ما العمل في حالة كهذه؟ الديك فكرة؟

– نبدأ بفلسفة الأمور بأنفسنا.

– بالضبط. وهكذا قرر ديكارت الترحال عبر اوروبا، كما امضى سقراط حياته في التحادث الى ناسه.. وقال انه يريد البحث عن المعرفة التي سيجدها اما في نفسه، واما في «كتاب العالم الكبير». ولهذا الهدف

انضم الى الجيش، مما مكنه من قضاء مُدَد لا بأس بها في عدة مدن في اوروبا الوسطى. بعدها عاش بضع سنوات في باريس، ثم سافر الى هولندا عام ١٦٢٩م، حيث عمل طوال عشرين سنة على كتاباته الفلسفية. وفي عام ١٦٤٩م، دعته الملكة كريستينا لزيارة السويد، لكن اقامته في «بلد الدببة، والجليد والصخور» على حد تعبيره، تسببت له في التهاب رئوي، ادى الى وفاته في الشتاء التالي اي عام ١٦٥٠م.

– لم يكن قد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره، بعد.

– لكنه أثر تأثيرا كبيرا في الفلسفة، حتى بعد موته. مما جعلنا نؤكد، دون اية مبالغة، بأن ديكارت هو اساس الفلسفة الحديثة.

فبعد اكتشاف الانسان والطبيعة، برزت الحاجة الى جمع افكار المرحلة في منهج فلسفي مترابط. وكان ديكارت اول من بنى منهجا فلسفيا حقيقيا، كما فعل بعده كل من سبينوزا، ليبنيز، لوك، بيركلي، هيوم وكانت.

– ماذا تعني بـ«منهج فلسفي»

– اعني فلسفة تبدأ من الصفر، وتحاول ان تعطي جوابا لكل المسائل الفلسفية. لقد عرفت العصور القديمة منظرين كبيرين هما سقراط وافلاطون، وفي العصور الوسطى حاول القديس توما الاكويني ان يربط فلسفة ارسطو باللاهوت المسيحي. ثم كانت النهضة، مرحلة مضطربة يمتزج فيها الماضي بالحاضر. غير ان الفلسفة لم تحاول ان تجمع الافكار الجديدة، وتنظمها في منهج بالمعنى الدقيق للكلمة، الاّ في القرن السابع عشر. وكان ديكارت رائد ومؤسس هذه المناهج المترابطة للتفكير الفلسفي، اذ حاول قبل كل شيء ان يصل الى المعرفة بوساطة افكار واضحة ومتمايزة وجلية. كما اراد ان يدرس العلاقة بين الروح والجسد. وهاتان مسألتان نجدهما في الفكر الفلسفي طوال المئة والخمسين سنة التي تلته.

– لقد كان متقدما على عصره، إذن؟

– كانت هذه المسائل مطروحة في فضاء ذلك العصر واتخذ الكثيرون موقفا بالغ التشاؤم من امكانية الوصول الى معرفة أكيدة بشأنها،

معتبرين ان على الانسان ان يكتفي بوعيه لجهله. لكن هذا الموقف لم يُرض ديكارت، كما لم يُرض سقراط الذي هاجم تشاؤمية السفسطائيين في عصره. وامام تطوّر عِلْم الطبيعة الجديد، فقد نجح في ارساء منهج، يسمح بفهم الظواهر الطبيعية، بدقة كبيرة، تساءل ديكارت لماذا لا يكون من الممكن ايجاد منهج دقيق وموثوق به، للتفكير الفلسفي.

– فهمت.

– من جهة أخرى، طرحت الفيزياء الجديدة مسألة طبيعة المادة.. اي ما يحدد الظواهر الفيزيائية في الطبيعة. واكثر فأكثر، أخذ بعضهم يؤمنون بتفسير ميكانيكي للعالم. لكنهم يتساءلون عن العلاقة بين الروح والجسد، ذاك ان ما كان شائعاً قبل القرن السابع عشر، هو اعتبار الروح «نفخة حياة» تحرك كل الكائنات الحية، وهذا هو ايضا المعنى الأصلي للروح وللفكر («نسمة حية» او نفخة)، الذي نجده في كل اللغات الأوروبية. والنفس برأي ارسطو هي شيء موجود في كل الكيان كـ«مبدأ حياة»، وهي بذلك غير قابلة للانفصال عن الجسد. لذلك كان يتحدث عن «نفس نباتية» و«نفس حسية». هكذا لم يميز الفلاسفة بين الروح والجسد تمييزا جذريا الاّ في القرن السابع عشر: ان لكل الأجسام الفيزيائية، سواء كانت جسد انسان ام حيوان، تفسيرا ماديا، لكن لا يمكن ان تكون الروح جزءا من هذه «الآلية الجسدية». ما هي الروح اذن؟ وكيف يمكن ان نفسر وجود شيء روحي في اساس ظاهرة فيزيائية؟

– هذا محير، في النتيجة.

– ماذا تقصدين؟

– أنا اقرر ان ارفع ذراعي.. هوب! وها هي ترتفع! أو انني اقرر ان اعدو وراء الحافلة، واذا بي اقطع مئة متر. قد يحدث لي ان افكر بشيء حزين، واذ بالدموع تطفر الى عيني. من الواضح ان هناك علاقة غريبة بين الجسد والشعور.

– من هذه المُسلّمة، تحديدا، انطلق ديكارت فقد كان مقتنعا، كافلاطون، بأن «الروح» مختلفة عن «المادة». أما كيف تؤثر الروح على المادة والعكس، فذاك ما لم يأت افلاطون بأي جواب عنه.

- ولا انا.. كلي فضول لمعرفة كيف توصل ديكارت الى الجواب.
- لنتبع تفكيرنا نحن.

اشار البرتو بأصبعه الى الكتاب الموضوع على الطاولة متابعا:

- في هذا الكتاب «خطاب المادة» يطرح ديكارت مسألة المنهج الفلسفي الذي يجب اتباعه ازاء اية مشكلة فلسفية، فقد وجد علم الطبيعة منهجه الخاص.
- لقد قلت هذا..
- ركز ديكارت فكرة اننا لا نعتبر «حقيقة»، الا ما هو معترف به بوضوح وتمييز، على انه كذلك. وقد يكون من الضروري لذلك تقسيم المسألة الى مسائل صغيرة، قدر الامكان. فنبدأ بالافكار الأكثر بساطة «نزن ونقيس» كلا منها. تماما كما اراد غاليلو ان يقيس كل شيء، ويجعل ما لم يكن قابلا للقياس، قابلا له.

وتنطلق فلسفة ديكارت العقلانية من الأكثر بساطة لتصل الى الأكثر تعقيدا، مُركِّزا على دور الحدس، وهو حسّ ذهنٍ نقيّ ويقظ يسمح بالتقاط الفكرة في حالة نقائها، وفي كل مرحلة، يجب التأكد، والضبط، بحيث لا نترك شيئا يفلت من يقظة الفكر. وهكذا نصبح قادرين على الخلوص باستنتاج فلسفي.

- كأنك تتحدث عن تمرين حسابي!
- اجل لقد اراد ديكارت ان يطبق منهجا رياضيا لاثبات صحة بعض الافكار الفلسفية، تماما كما نبرهن مسألة رياضية.

كان يريد اللجوء الى الأداة ذاتها التي نستعملها في حالة الارقام، وهي *العقل*.. لا يجوز لنا ان نثق بحواسنا، كما قال افلاطون.

- ولكن هل يمكن حل المسائل الفلسفية بهذه الطريقة؟
- لنعد الى طريقة تفكير ديكارت.. فلكي يجد حقيقة طبيعة الوجود، بدأ بالشك بكل شيء. كان يريد ان يبني منهجه الفلسفي على أسس صلبة...
- ... ذاك انه اذا انهارت الأسس، سقط البيت كله...
- لطيف منك ان تحاولي مساعدتي، يا ابنتي.

لم يقل ديكارت انه من الجيد ان نشك في كل شيء، لكنه قال انه يمكن لنا ان نشك في كل شيء. وفيما يخص معرفتنا اكثر بالعالم، فلن نتقدم كثيرا بقراءة ارسطو او افلاطون؛ بل ان اكثر ما نحصّله هو تعميق معرفتنا التاريخية. من هنا ضرورة البدء من مسح الماضي كله.

– كان يريد ان يكنس الأرض تماما، قبل ان يبدأ بناء منزله الجديد.. أليس كذلك؟

– نعم، ليكون على ثقة من ان اسس الفكر هي صلبة تماما. كما انه لم يرد ان يستعمل الاّ المواد الجديدة. وتجاوز شك ديكارت ذلك الى القول إننا لا نستطيع الاعتماد على حواسنا، فمن يدري ان كانت لا تسخر منا؟

– كيف؟

– عندما نحلم، نعتقد اننا نعيش شيئا حقيقيا، فما الذي يجعل فهمنا للأمور في حالة الصحو، يختلف عنه في حالة الحلم؟ «عندما انظر الى ذلك بانتباه، لا اجد صفة واحدة تفصل بوضوح بين الحلم واليقظة». كتب ديكارت.. وتابع: «كيف يمكن لنا ان نتأكد من أن الحياة ليست حلما».

– كان، (جيب) وهو على الجبل يعتقد انه حلم بأنه ينام في سرير البارون.

– وعندما كان في سرير البارون، اعتقد ان حياته كفلاح فقير، لم تكن الاّ حلما. لذلك يفضل ديكارت ان يشك بكل شيء ككتلة واحدة.. وكان فلاسفة كثيرون قبله قد توقفوا هنا.

– لم يكن من شأن هذا ان يمضي بهم الى ابعد من هذا الحد.

– لكن ديكارت كان يريد الانطلاق من الصفر، وكان هذا الشك الأساسي، قناعته الثابتة الوحيدة. لكنه اذ يشك، يتأكد من انه يفكر، واذ يفكر، يتأكد من انه كائن مفكر، او كما قال هو: انا افكر، اذن انا موجود.

– لا نستطيع القول ان هذا استنتاج مذهل.

– صحيح. ولكن سَجِّلي، مع ذلك، بأية حتمية حدسية، ادرك وجوده ككائن مفكر. وكما كان افلاطون يعتقد بأن ما ندركه بعقلنا هو اكثر

واقعية وحقيقية مما ندركه بحواسنا، فقد ادرك ديكارت ان هذه «الانا المفكرة» هي اكثر واقعية وحقيقية من العالم المادي الذي ندركه بحواسنا ولم يتوقف هنا.

– اذن، لا تتوقف انت ايضا.

– بعد ذلك تساءل ديكارت عما اذا كان يدرك اشياء اخرى، بالحتمية الحدسية ذاتها التي ادرك بها كونه كائناً مفكراً. وكان يعي بوضوح كامل، وجود كائن كامل؛ فكرة فرضت نفسها عليه باستمرار مما جعله يستنتج انها لا يمكن ان تأتي من تلقاء نفسها. ان فكرة الكمال هذه لا يمكن ان تأتي الاّ من كائن كامل، اي الله. فوجود الله بالنسبة لديكارت حقيقة مباشرة كحقيقة وجود مخلوق مفكر.

– ارى انه بدأ يخرج باستنتاجات متسرعة، فقد كان اكثر حذرا في البداية.

– صحيح. وقد اعتبر كثيرون ان هذه هي نقطة ضعف ديكارت.. لكنك استعملت مصطلح «استنتاجات» والواقع، انه ليست هناك اية دلائل واقعية.

ببساطة ان لدينا فكرة كائن كامل، اذن فهذا الكائن موجود بالضرورة، طالما اننا نتخيله. وهو لا يكون كاملا ان لم يكن موجودا. ولا يمكن لنا نحن ان نتخيل كائنا كهذا لو لم يكن موجودا، لاننا غير كاملين، وبالتالي غير قادرين على تكوين فكرة الكمال. وبرأي ديكارت: ان فكرة الله، فطرية، مطبوعة في طبيعتنا، «كما تحمل اللوحة توقيع الفنان».

– لكنني اذا كنت استطيع تخيل وجود حيوان مركب من الفيل والتمساح (تمفيل) فهذا لا يعني ان هذا الحيوان موجود في الحقيقة.

– ولكان ديكارت سيجيبك، بأن وجوده ليس مضمونا ضمن سياق «التمفيل». في حين انه في سياق «الكائن الكامل»، هناك ثقة بوجود كائن كهذا، وكان هذا حقيقيا برأي ديكارت، كما انه حقيقي في فكرة الدائرة، وجود كل نقاط المحيط على بعد متساو من المركز. واذا لم يتحقق هذا الشرط، لا تكون هناك دائرة. هكذا لا يمكن الكلام عن كائن كامل، اذا لم تتحقق اهم صفاته، اي الوجود.

- هذا تفكير غريب.

- انها محاجّة «عقلانية» نموذجية. وهو يرى، كافلاطون وارسطو، ان هناك رابطا بين الفكر والوجود. فبقدر ما يكون الشيء واضحا للفكر، بقدر ما نكون واثقين من وجوده.

- حسنا، الى هنا، أثبت انه كائن مفكر، واثبت وجود كائن كامل.

- انطلاقا من هذا، بنى المحاجة التالية:

يمكن التفكير بأن كل صور العالم الخارجي، كالشمس والقمر، ما هي الاّ خيالات، لكن الواقع الخارجي يمتلك صفات نستطيع التعرف اليها بوساطة العقل، ويتعلق الأمر بنسب رياضية: الطول، العرض، الارتفاع، الحجم... هذه الميزات «الكمية» واضحة لعقلي، وضوح واقع كوني كائناً مفكراً، من جهة اخرى، ترتبط الميزات «النوعية» كاللون، والرائحة، والذوق، بجهازنا الحسي، ولا تصف الواقع الخارجي بعمق.

- ليست الطبيعة، اذن، حلما؟

- لا.. وفي هذا الموضوع يعود ديكارت الى مفهوم الكائن الكامل. فعندما يتوصل عقلنا إلى معرفة شيء ما بوضوح كامل، كما هو الحال في النّسب الرياضية، فلا بد أن يكون الأمر كذلك. ويعود ديكارت ليذكر بأن إلها كاملاً لا يمكن أن يسخر منا، بل يعطينا «ضمانات» عندما نتوصل الى معرفة الواقع بمساعدة العقل.

- حسنا.. لننتقل الى نقطة أخرى. فقد عرفنا حتى الآن، ان الانسان كائن مفكر، ان الله موجود، وان هناك ايضا حقيقة خارجية.

- لكن الحقيقة الخارجية، هي ذات طبيعة مختلفة عن حقيقة الفكر. فقد اكد ديكارت على وجود شكلين مختلفين للحقيقة، او «مادتين».. المادة الأولى هي الفكر، او «النفس» والمادة الثانية هي «الامتداد» او المادة.

والروح تعني نفسها، لذلك فهي لا تأخذ مكانا، ولا تنقسم الى جزيئات اصغر. اما المادة، فهي على العكس من ذلك، تتمدد، وتحتل مكانا في الفضاء، وتنقسم الى مالا نهاية.. لكنها من الله، لان الله وحده، موجود بطريقة مستقلة.

لذا فان كلا من هاتين المادتين مستقلة عن الأخرى. فالفكر حر تماما

بدون المادة، والعكس صحيح، إذ يمكن ان تحصل السيرورات المادية بشكل مستقل عن الفكر.

- انه اذن يقسم خَلْق الله الى قسمين.

- تماما. نحن نقول ان ديكارت *«ثنائي»*، اي انه يميز الواقع المادي عن الواقع الروحي. والروح للانسان وحده، اذ ان الحيوان ينتمي الى الواقع المادي طالما ان حياته وحركته تخضعان لقوانين ميكانيكية. لقد كان ديكارت يعتبر الحيوانات نوعا من انسان آلي متقن ومتطور.

- أنا اعترض بشدة على اعتبار هرمز مجرد آلة او انسان آلي. واضح ان ديكارت لم يحب حيواناً يوماً. ونحن اذن، هل نحن انساناً آلياً؟

- نعم ولا. فالانسان، برأيه، كائن «ثنائي»، طالما انه يفكر ويحتل حيزاً، اي انه يمتلك روحاً وجسداً. وهذا شبيه بما قاله القديس توما الاكويني والقديس اغسطينوس من قبل بأن للانسان جسداً كالحيوان، وروحاً كالملائكة. وجاء ديكارت يقول ان جسد الانسان هو آلة متقدمة، بينما تستطيع روحه ان تعيش بشكل مستقل عن الجسد. من هنا فان العمليات الجسدية لا تتمتع بهذه الحرية، وانما تتبع قوانينها الخاصة. ولكن ما نفكر به بوساطة عقلنا، لا يحصل في الجسد، إنما يحصل في الروح التي هي مستقلة تماماً عن الحقيقة الممتدة. غير ان ديكارت لا يستبعد امكانية كون الحيوانات قادرة على التفكير...

- لقد تحدثت عن ذلك.. اذا قررت ان الحق الحافلة، فان كل الانسان الآلي الذي فيَّ يجري وراءها، واذا لم ادركها، تصعد الدموع الى عيني...

- حتى ديكارت، لم يستطع ان ينكر تقاطع التفاعل والتأثير بين الجسد والروح.. فطالما تسكن الروح الجسد تكون مرتبطة به، بوساطة غدة موجودة في الدماغ، ولذا يمكن لها ان تتأثر بكل انواع المشاعر والمؤثرات المتعلقة بالحاجات الجسدية. لكن الروح تستطيع ان تتخلص من كل هذه الغرائز «الدنيا»، ومن المشاعر كالرغبة والحقد، والتحرك بشكل مستقل عن الجسد. والهدف هو ترك العقل يقود اللعبة. ذاك ان

مـجـمـوع درجـات المثلث يظل ١٨٠ درجـة، حـتى لو كـان بطني يؤلمني. فـالعـقل قـادر دائمـا على الارتفـاع فـوق هذه الحـدود المادية والعـمل «بعقلانية». من هذه الزاوية نرى العقل سلطاناً. فان ساقينا تصلان الى مرحلة تصبحان معها عاجزتين عن حملنا، وظهرنا يتقوس، ونفقد اسناننا دون ان تتوقف ٢+٢=٤. وذلك طالما اننا نمتلك هبة العقل.. ذاك ان العقل لا يشيخ كجسمنا، والعقل بالنسبة لديكارت هو ذاته الروح.

– مـهلا. رغم ذلك، ما زلت غير قـادرة على فهم كيف يقارن ديكارت الجسد بآلة او بانسان آلي.

– في زمن ديكارت كان الناس مبهورين بالآلات وبكل ميكانيكيات الساعات، التي تبدو وكـأنها تعمل من تلقاء ذاتها، وكـان مـصطلح «automate» يعني بالتحديد شيئا مزودا بحركة ذاتية اي «*من تلقاء نفسه*». لا شك ان ذلك مجرد وهم. وليست الساعة الفضائية الا شيئا من صنع الانسان. كما ان هذه الآلات الصناعية مؤلفة، في نهاية الأمر، من عدة قطع جمعت معا، في حين ان جسم الانسان والحيوان يجمع عددا لا حصر له من العظام، العضلات، الأعصاب، الشرايين والأوردة. ولكن لماذا لا يصنع الله جسدا حيوانيا او انسانيا على قاعدة القوانين الميكانيكية؟

– يدور الحديث هذه الأيام عن «*الذكاء الصناعي*».

– إنه الانسان الآلي المعاصر. لقد ابتكرنا آلات تتوصل الى جعلنا نعتقد بأنها ذكية حقا. ولو ان هذه الآلات وجدت في زمن ديكارت، لسببت له خوفا شديدا، ولجعلته يضع موضوع استقلال وحرية العقل البشري، موضع شك.

ومع ذلك فهناك فلاسفة يعتقدون بأن الحياة الفكرية تفتقر الى الحرية مثلها مثل السيرورات الجسدية. ولا شك ان نفس الانسان اكثر تعقيدا من برنامج معلوماتي. ولكن منهم من يعتقد رغم كل شيء بأننا لسنا اكثر حرية من بعض البرامج المعلوماتية. ولكن.. مهلا صوفي، سأبرهن لك شيئا.

أشار البرتو بأصبعه الى مكتب صغير في الطرف الآخر من الغرفة،

عليه جهاز حاسوب. ثم نهض الى الشاشة. وكتب: س: «ليلى» وقال:

– انه برنامج محادثة متقدم.

واذا بنص كامل يملأ الشاشة.

– صباح الخير، اسمي ليلى، هل انت مرتاحة من جلستك؟

ضربت صوفي ثلاثة احرف، فارتسمت كلمة «نعم» قبل ان تجلس، واسرع البرتو يقدم لها كرسيا.

– ما اسمك؟ ظهر على الشاشة.

– صوفي امندسون، كتبت صوفي.

فأجابتها الآلة:

– زقاق النفل. سعيدة بالتعرف اليك. صوفي، هل انت سعيدة بالاحتفال بعيد ميلادك.

ارتجفت صوفي. لكن البرتو وضع يده على كتفها مهدئا.

– لقد اعطيت الجهاز، اسمك، عنوانك وتاريخ ميلادك، كما يحصل عندما نقدم انفسنا لشخص آخر، المرة الأولى، وتكون لدينا بعض المعلومات البسيطة عنه.

– نعم انا سعيدة جدا. كتبت صوفي.

– ماذا حصل ارجو ان تكوني بخير يا صوفي؟ عليك ان تحاولي اعطائي جملة كاملة.

– شكرا. انا بخير تماما. هل استطيع ان اطلب منك شيئا؟

– حسنا.. إن كنت بخير.. ارجوك اسأليني شيئا.

– ما عمرك؟ كتبت صوفي

– صُمّمت في اطلنتا في ٨ آب ١٩٨٨م، ثم تُرجمت الى النرويجية في معهد البوليتكنيك في ٢٨ آذار ١٩٩٠م.

– Gosh

– قلت ان عليك ان تتكلمي بجملة مفيدة.

– لقد قلت «Gosh» فقط.

– أنا لا افهم لغة الارغو. انا اعرف اكثر من مئة الف كلمة. والكلمة الأقرب ل (Gosh) هي (غوسبيل)، ومعناها الانجيل. هل انت مؤمنة يا

صوفي؟

– لا ادري.

– كلمة لا ادري هي غالبا مرحلة على طريق المعرفة.

– ذاك ما قاله ديكارت، وقبله سقراط.

– كان سقراط فيلسوفا اغريقيا عاش بين ٤٧٠ و٣٩٩ ق.م واذا اردت ان تعرفي اكثر عنه، اضربي على (ف ٧). أما ديكارت فهو فيلسوف فرنسي عاش بين ١٥٩٦ و١٦٥٠م وإن اردت ان تعرفي عنه اكثر اضربي على (ف ٨).

– شكرا، هذا كاف. هل استطيع ان أسأل سؤالا آخر؟

– جيد! اذا كنت قد اكتفيت فما عليك الاّ ان تسألي.

كتم البرتو ضحكة مجنونة، عندما كتبت صوفي:

– من هي هيلد موللر كناغ؟

– هيلد موللر كناغ فتاة تسكن في ليلساند، وهي في عمر صوفي امندسون.

– كيف عرفت ذلك؟

– لا ادري، لكنني وجدت هذه المعلومة على احدى الاسطوانات.

احست صوفي بذراع البرتو تطوق كتفها وهو يقول:

– اعطيتُ الجهاز كل ما لدينا من معلومات عن هيلد.

– هل تعرف شيئا آخر عن هيلد. كتبت صوفي؟

– والدها مراقب في قوات الأمم المتحدة في لبنان. وهو برتبة مايجور، ويرسل باستمرار بطاقات بريدية لابنته.

– اود ان تجديه.

– لا استطيع فهو غير موجود على بطاقاتي وانا غير موصول بجهاز آخر.

– قلت. جِدْه !!!!!.

– صوفي هل انت غاضبة؟ ان هذا العدد من علامات التعجب يدل على انفعال قوي.

– اريد التحدث الى والد هيلد.

– انت تجدين صعوبة في السيطرة على رغبتك. اذا اردت ان تتحدث عن طفولتك اضربي (ف٩).

من جديد وضع البرتو يده على كتف صوفي:

– لها الحق. فهي ليست كرة بلور يا صغيرتي، وما «ليلى» الاّ برنامج معلوماتية.

– اقفال! كتبت صوفي.

– كما تريدين. لم يدم لقاؤنا الاّ ١٢ دقيقة و٥٢ ثانية. سأتذكر كل ما قلناه، والآن سوف اقطع البرنامج.

من جديد ظهر حرف (س) على الشاشة.

– تعالي نعود الى الجلوس هناك. قال البرتو. فظهرت على الشاشة كلمة «كناغ» ثم الجواب: «ها أنا». وجاء دور البرتو ليقشعر فسألت صوفي:

– من أنت؟

– المايجور البرت كناغ، في خدمتك. لقد وصلت مباشرة من لبنان، ما هي اوامرك؟

– لم أر هذا ابدا. لقد نجح هذا الخبيث في التسلل الى الاسطوانة. قال البرتو وهو يشير الى صوفي بأن تترك له الكرسي، ثم جلس امام الجهاز:

– كيف استطعت، ايها الشيطان ان تتسلل الى جهازي؟

– حيلة بسيطة، يا زميلي العزيز، انا استطيع ان اظهر حيث اريد، وعندما اريد.

– جرثومة (فايروس) قذرة.

– هدوء! الآن اظهر بشكل جرثومة تحت بند «عيد ميلاد خاص». هل يمكنني تمرير رسالة شخصية صغيرة؟

– شكرا. يكفينا رسائل.

– لكنني سأوجز:

كل هذا على شرفك عزيزتي هيلد. دعيني اهنئك مرة أخرى بمناسبة عيد ميلادك الخامس عشر. سامحيني بسبب الظروف، لكنني اتمنى ان ترافقك دعواتي وتمنياتي حيث كنت.

مع صداقتي
والدك الذي يتمنى ان يأخذك
بين ذراعيه

قبل ان يتسع الوقت لالبرتو كي يقول كلمة واحدة كان حرف (س) قد ظهر على الشاشة معلنا الاقفال.

ضرب البرتو كلمة «كناغ» فظهر ما يلي:

كناغ ليب ١٤٧ و٦٤٣ ١٥/٦/٩٠ – ١٢ , ٤٧

كناغ ليل. ٣٢٦-٤٣٩ ٢٣/٦/٩٠ – ٢٢ , ٣٤

فكتب البرتو: أزِلْ كناغ واطفأ الجهاز.

– حسنا اعتقد انني محوته من البرنامج. ولكن من يعرف متى وكيف يظهر من جديد.

وقف لحظة صامتا، يراقب الجهاز، قبل ان يضيف:

– اسوأ ما فيه اسمه:

البرت كناغ.

هنا انتبهت صوفي الى التشابه بين الاسمين البرت، والبرتو. لكن البرتو كنوكس، كان غاضبا الى حد جعلها لا تجرؤ على قول شيء. فعادا صامتين الى الكنبة.

سبينوزا

... ليس الله محرك دمى...

ظلا صامتين لفترة، حاولت صوفي بعدها ان تحول مجرى افكاره، فسألته:

– لا بد ان ديكارت شخصية غريبة. هل كان مشهوراً.

سحب البرتو نفسا طويلا قبل ان يجيب:

– كان له تأثير كبير، والأهم انه لعب دورا كبيرا، حاسما، في فكر فيلسوف كبير آخر، هو الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا، الذي عاش بين ١٦٣٢ و١٦٧٧م.

– هل ستحدثني عنه ايضا؟

– كنت انوي ذلك. وعلينا الاّ نترك استفزازات عسكرية، تحبطنا.

– كلي آذان صاغية.

– ولد سبينوزا في الطائفة اليهودية في امستردام، لكنه لم يلبث ان لُعن، وكُفّر، بسبب افكاره التي اعتبرت هدّامة. فنادرا ما تعرض فيلسوف للشتم، والملاحقة، مثله، حتى انه تعرض لمحاولة اغتيال. كل ذلك لأنه انتقد الديانة الرسمية. حين قال ان المسيحية واليهودية لا تستندان الاّ على عقائد جامدة، وطقوس مفرغة من معناها. وكان اول فيلسوف تبنى ما نسميه منظور «النقد التاريخي» للكتاب المقدس.

– كن أكثر وضوحا.

– لقد رفض فكرة ان الله اوحى بالكتاب المقدس حتى في ادق تفاصيله. وعلينا برأيه، ان نأخذ بعين الاعتبار، دائما، الزمن الذي كُتِب فيه التوراة والانجيل. وهكذا فان «قراءة نقدية» من هذاالنوع تسلط الضوء على سلسلة من التناقضات، بين النصوص المختلفة. فبين سطور الانجيل نلتقي بالمسيح الذي نستطيع ان نصفه بالناطق الرسمي باسم الله. وعلى لسانه تدعونا رسالة الله الى التخلي عن اليهودية التي

اصبحت محدودة وضيقة. لقد بشّر المسيح «بدين عقل» يعتبر المحبة الخير الاسمى؛ محبة تتجه الى الله كما تتجه للقريب «احبب قريبك كنفسك!». لكن المسيحية لم تلبث هي الاخرى ان سقطت في اغلال العقائد «الدوغماتية» المتشددة، والطقوس المفرغة من اي معنى.

– أفهم الا تتقبل الكنائس والكُنُس ذلك.

– غير ان العقاب الأسوأ الذي وقع على سبينوزا، هو ان عائلته انكرته، في محاولة لايقاع الجرم فيه باعتباره زنديقاً بهدف حرمانه من الارث. ومع ذلك، فالمفارقة، هي ان ما من فيلسوف قاتل كسبينوزا في سبيل حرية التعبير والتسامح الديني. لكن المقاومة التي لقيها، والحرب التي تعرض لها، جعلته يعيش منعزلا تماما، مكرسا وقته للفلسفة يكسب عيشه، بتصنيع وبيع عدسات نظر وهذه بعض من عدساته.

– هذا مؤثر!.

– يمكننا ان نرى شيئا من الرمزية في ذلك، اذ ان الفلاسفة يُعلّمون البشر كيف ينظرون الى العالم بشكل مختلف. وفي قلب فلسفته نجد فكرة رؤية العالم من «زاوية الأبدية».

– من زاوية الأبدية؟

– نعم يا صوفي. هل تتوصلين الى رؤية حياتك على المستوى الفضائي؟ يجب ان تغمضي عينيك وتتخيلي: انت وحياتك، هنا والآن...

– هس.. هذا ليس سهلا.

– تذكري انك تعيشين جزءا مطلق الصغر، من حياة الكون، انت جزء من شيء كبير يتجاوزك.

– اني أفهم ما تقصد...

– هل وصلت الى الاحساس بكل هذا؟ هل تتوصلين الى ضبط كل الطبيعة، اي كل الكون، بنظرة واحدة؟

– ربما يلزمني لذلك نظارات خاصة.

– انا لا افكر فقط بالفضاء اللامحدود، وانما ايضا بالزمن اللامحدود. فقبل ثلاثين الف سنة من الآن، عاش ولد في وادي الرين، كان جزءا صغيرا جدا من الطبيعة، ارتعاشةصغيرة تعدو على صفحة

المحيط اللامحدود. وليس ثمة فارق بين هذا الولد وبينك.

– الاّ انني، انا، لا ازال حية.

– نعم. ولكن هذا ما كان عليك ان تحاولي الاحساس به. فمن ستكونين انت بعد ثلاثين الف سنة؟

– هل كانت هذه افكاره الهدامة؟

– ليس تماما... فلم يكن يدعي فقط بأن كل ما هو موجود في العالم هو فعل الطبيعة، بل كان يضع الله في موازاة الطبيعة؛ كان يرى الله في كل موجود، وكل ما هو موجود في الله.

– اذن فقد كان «حلوليا».

– تماما. فبالنسبة لسبينوزا، ليس الله من يكتفي بخلق العالم لينظر اليه من علٍ، لا، بل ان الله هو العالم. ويعبر سبينوزا عن هذه الفكرة بقوله: ان العالم في الله. ويستشهد بقول بولس للأثينيين من على قمة الاريوباج: «لأننا به (نحيا) ونتحرك ونوجد» اعمال (٢٨:١٧) ولكن لنتبين فكر سبينوزا، كما يظهر في عمله الرئيس، الذي يحمل عنوان: «علم الاخلاق مبرهن تبع المنهج الهندسي». Ethica ordine geomatrico demonstrata.

– علم الأخلاق.... والمنهج الهندسي؟

– قد يبدو هذا غريبا، اعرف.. فعلم الأخلاق بالنسبة للفلاسفة، هو عقيدة مبادىء الأخلاق التي تقود الى حياة سعيدة. بهذا المعنى نتحدث عن علم الأخلاق لدى سقراط أو لدى ارسطو.

أما في ايامنا فقد حصر علم الاخلاق بمجموعة من القواعد التي يتوجب احترامها، كي لا ندوس على قدم جارنا... (أي كي لا نعتدي على الآخرين).

– اذن، ماذا بشأن السعادة الشخصية؟ هل باتت تعتبر شيئا من الأنانية؟

– تقريبا. اما عندما يستعمل سبينوزا تعبير علم الأخلاق، فيمكننا استبداله، بفن الحياة، او بالأخلاق فقط.

– هكذا.. «فن الحياة مبرهن هندسيا»!؟

– يرجع المنهج او النظام الهندسي الى المصطلح، او التقديم الذي

يستعمله. انت تذكرين ان ديكارت أراد تطبيق المنهج الرياضي على التفكير الفلسفي، لضمان شرعيته. واذ يحاول سبينوزا ان يبرهن على ان قوانين الطبيعة تحدد حياة الانسان، فانه ينضم الى التيار «العقلاني». ان علينا، برأيه، ان نتحرر من مشاعرنا وانفعالاتنا، كي نجد السلام والسعادة.

– لكن قوانين الطبيعة ليست وحدها ما يحكمنا ويحدد مصيرنا؟

– ليس الأمر بهذه البساطة.. فسبينوزا فيلسوف معقد اكثر مما يظهر. ولنأخذ الاشياء واحدا واحدا. تذكرين ان ديكارت كان يميز بين مادتين: الفكر، والامتداد.

– وكيف لي أن أنسى؟

– اذن، فقد رفض سبينوزا هذا التمييز. ذاك انه لا وجود – برأيه – الاّ لمادة واحدة في اساس كل الوجود. انها ما يسميه: الله او الطبيعة او المادة. فليس لديه مفهوم ثنائي كما لدى ديكارت، ولذا نقول انه «واحدي».

– لا ارى ان بينهما قاسماً مشتركاً كبيراً.

– في الواقع، ليس الفارق كبيرا كما نظن.. فبالنسبة لديكارت الله وحده اصل ذاته.. ولا يبتعد سبينوزا عن ديكارت الاّ عندما يمزج بين الله والطبيعة، او بين الطبيعة والله. وهو يبتعد بذلك ايضا عن المفهوم اليهودي والمسيحي.

– ذاك ان الطبيعة في هذه الحالة، هي الله. و... نقطة...

– لكن، عندما يستعمل سبينوزا كلمة «طبيعة» فانه لا يقصد الطبيعة في الفضاء، بل انه يقصد بالمادة او الطبيعة او الله، كل ما هو موجود، وحتى ما هو روحي.

– الفكر والامتداد، على ما اظن.

– اجل فسبينوزا يعتقد اننا نحن البشر، نعرف صفتين لله او شكلين من اشكال تجليه، هما «*توابعه*» اي: «*الفكر*» و«الامتداد» اللذان حددهما ديكارت. فالله – او الطبيعة– يظهر على شكل فكر او اشياء *في الفضاء*، ويمكن ان تكون لله توابع اخرى، لكن هذين هما فقط ما يستطيع

الانسان ادراكهما.

– لماذا نعقد الأمور عندما يكون بالامكان تبسيطها؟

– اعرف انه يلزمنا ان نتسلح بقوة قبل ان نتعرض للغة سبينوزا، لكن الأمر يستحق التعب. اذ ان الفكرة التي تتبلور، في النهاية جميلة وشفافة كحجر الماس.

– انت تثير فضولي...

– كل ما في الطبيعة هو اما من الفكر واما من الامتداد.. وكل اشياء واحداث حياتنا اليومية، سواء أكانت زهرة ام قصيدة هي *انماط* مختلفة من الفكر او من الامتداد. فالنمط (modus أو modi في حالة الجمع) هو تحول للمادة المطلقة التي هي الطبيعة. فالزهرة هي نمط من توابع الامتداد كما أن القصيدة هي نمط من توابع الفكر. وهكذا يبدو كل مخلوق خاص نمطا من انماط الله.

– انه رجل مجنون.

– لا، بل ان لغته فقط هي الملتبسة. فوراء هذه الصيغ اللاذعة بشكل حاسم، تختفي حقيقة باهرة جميلة، وقاطعة، بحيث لا تستطيع لغتنا اليومية ان تصفها.

– انا من جهتي، افضل اللغة اليومية.

– جيد. سأبدأ بك انت. عندما تصابين بآلام في البطن، من الذي يتألم؟

– لقد قلتها، أنا

– صحيح. وعندما تفكرين بعدئذ بأن بطنك آلمك، فمن الذي يفكر؟

– طبعا، انا ايضا.

– ذاك انك انسان واحد كان حيناً يحس بألم في بطنه، وحينا آخر، موضوعا لانفعال. وهكذا تكون كل الاشياء المحيطة بنا تعبيرا عن الله او الطبيعة. وكذلك افكارنا، ذاك ان الكل واحد؛ فليس هناك الا طبيعة واحدة، مادة واحدة، اله واحد.

– ولكنني عندما افكر بشيء أكون *أنا* التي تفكر، وعندما انتقل من مكان الى مكان، اكون *أنا* التي تنتقل فما دخل الله بذلك؟

– احب تورطك والتزامك، ولكن من انت؟ انت صوفي امندسون، لكنك ايضا التعبير عن شيء اكبر من هذا بكثير. يمكنك ان تؤكدي – اذا كان ذلك يسعدك – بانك انت التي تفكرين، وانت التي تتنقلين ولكن الا يمكن ان نقول ايضا ان الطبيعة هي التي تفكر افكارك، وتتنقل عبرك؟ والواقع ان الأمر ليس الا قضية عدسات رؤية، منظور.

– هل يعني ذلك انني لست انا من يقرر ماذا افعل؟

– بشكل ما. انت تملكين حرية تحريك اصبعك متى اردت، لكنه لن يتحرك الاّ وفق طبيعته الخاصة.. من غير الوارد اطلاقا ان يقفز من يدك ويركض في الغرفة. انت ايضا لك مكانك في الكرة الكبيرة. انت صوفي، ولكنك ايضا اصبع في يد الله.

– اذن. فالله هو الذي يقرر كل ما افعل.

– الله، او الطبيعة أو القوانين الطبيعية. والله، بالنسبة لسبينوزا، هو *العلة الدائمة* لكل ما يحصل. وهو ليس علة خارجية، ذاك انه لا يظهر الا عبر قوانينه الطبيعية.

– انا لم الحظ الفارق.

– ليس الله محرك دمى، يشد الخيوط، مقررا ما سيحصل، بل ان كل شيء في العالم يحصل بالضرورة. لقد كان لسبينوزا مفهوم جبري للحياة على الأرض.

– هذا يذكرني بشيء ذكرته سابقا...

– يذكرك بالرواقيين. فهم ايضا اعتبروا ان كل ما يحصل على الأرض يحصل بالضرورة، ومن هنا أهمية مواجهة الأحداث بروح رواقية، وعدم ترك انفسنا ننجر وراء الانفعالات. وهذا باختصار ما كان يعتقده سبينوزا.

– افهم ما تقصد، لكنني لا احب هذه الفكرة، فكرة اننا لسنا اسياد افعالنا.

– لنعد الى ذلك الولد، الذي عاش قبل ثلاثين الف سنة، في العصر الحجري، لقد تعلم وهو يكبر ان يستخدم اداة صوانية قاطعة لمواجهة الحيوانات ومارس الحب مع امرأة اصبحت ام اطفاله. ويمكن ان يكون

قد عبد آلهة قبيلته.. فهل تعتقدين انه قرر كل ذلك بنفسه؟

- لا اعرف.

- او تخيلي اسدا في افريقيا، أهو من يقرر ان يعيش كزعيم، وان ينقض على اول غزال يراه؟ اليس من الممكن انه كان يفضل ان يكون نباتيا؟

- لكن، لا.. يجب ان يعيش الاسد وفق طبيعته.

- وبتعبير آخر، وفق قوانين الطبيعة. مثلك تماما يا صوفي، لانك انت ايضا جزء من الطبيعة، مؤكد انك تستطيعين الاستناد إلى ديكارت، وتردين علي بأن الأسد حيوان لا انسان يتمتع بعقل حر، ولكن لنأخذ مولوداً جديداً كمثال: انه يبكي، واذالم نعطه الحليب، يروح يمص اصبعه. فهل لهذا الطفل برأيك ارادة حرة؟

- لا

- متى يمتلك ارادة حرة اذن؟ عندما يبلغ السنتين يتحرك في كل الاتجاهات مشيرا باصبعه الى الاشياء التي يراها. وفي الثالثة يبتز امه بدلعه، وفي الرابعة يحس بالخوف من الظلام. فأين هي الحرية في كل هذا؟

- لا ادري

- واذا كان هذا الطفل فتاة، فانها سوف تستمتع بتزيين نفسها امام المرآة، عندما تبلغ الخامسة عشرة. فهل تتخذ الآن قرارات شخصية، وتفعل ما تريد؟

- فهمت ما اردت قوله.

- انها تدعى صوفي امندسون، هذا تعرفه، لكنها تعيش ايضا وفق قوانين الطبيعة. ولكن كيف تستطيع ان تعي ذلك، طالما ان وراء اقل فعل من افعالها، عددا لا محدودا من العلل البالغة التعقيد.

- لم اعد ارغب في معرفة المزيد عن ذلك.

- يجب ان تجيبي عن سؤال أخير. تخيلي شجرتين مثمرتين زرعتا في الوقت ذاته، في حديقة كبيرة.. واحدة نمت في الشمس، واستفادت من تربة خصبة وغنية، والأخرى نمت في الظل وفي تربة فقيرة.. فأيهما

تكون الأكبر، والأكثر ثمارا؟

– طبعا تلك التي نعمت بالظروف المثلى للنمو.

– برأي سبينوزا ان هذه الشجرة حرة. ذاك انها تملك حرية تنمية كل الامكانات التي تحملها في ذاتها. مؤكد انها شجرة تفاح، وانها لن تثمر اذن اجاصاً او خوخاً.

كذلك هو الأمر بالنسبة لنا نحن البشر. فيمكن لنا ان نواجه عوائق، سياسية مثلا، تعيق نمونا الذاتي، وقد تستطيع ضغوط خارجية ان تشلنا، لذلك فاننا لا نعيش كبشر احرار الاّ عندما يتاح لنا ان ننمي «بحرية» كل امكاناتنا الكامنة. لكننا نظل مرتبطين بالوضع الذي انطلقنا منه، وبالظروف الخارجية، مثلنا في ذلك مثل طفل العصر الحجري او اسد افريقيا او شجرة التفاح في الحديقة.

– اعتقد ان هذا يكفيني...

– كائن واحد هو «علة ذاته» ويستطيع ان يتصرف بحرية مطلقة، انه الله اوالطبيعة، الذي يستطيع أن يتفتح بحرية. وقد يستطيع كائن بشري ان يقاتل للحصول على حرية تحرره من الضغوط الخارجية، لكنه لن يتمتع أبدا، بارادة حرة». فكيف نستطيع ان نقرر امراً ما يحصل في جسدنا، طالما ان هذا الجسد ليس الا نمطا من توابع الامتداد؟ وبالطريقة ذاتها لا نختار نحن ما نفكر به ايضا، فليس للانسان روح حرة، سجينة جسد آلي.

– هذه النقطة صعبة على الفهم.

– لا.. فسبينوزا يقصد ان أهواء النفس الجامحة، كالرغبة والادعاء، هي التي تمنعنا من بلوغ السعادة او التناغم. لكن الأمر يعني ان نرى في رؤية شمولية، ان كل شيء هو جزء من الطبيعة، ليتشكل كل كبير. وهكذا نعرف غبطة وسلام الروح، وذاك ما يسميه سبينوزا رؤية كل شيء. Sub specie externitatis

– ماذا يعني ذلك؟

– رؤية كل شيء «من زاوية الأبدية»، الم نبدأ من هنا؟

– وهنا يجب ان نتوقف، علي ان اعود بسرعة الى البيت.

نهض البرتو، ليأتي بسلة فاكهة وضعها على الطاولة.

– الا ترغبين في حبة فاكهة قبل ان تذهبي؟

تناولت صوفي موزة، والبرتو تفاحة. وما ان بدأت بتقشير الموزة، حتى رأت شيئا...

– انظر، ثمة كتابة هنا!

– اين؟

– هنا، على جسد الموزة، تحت القشرة.

انحنت صوفي باتجاه البرتو، ومدت اليه بالموزة، فقرأ بصوت عال:

«*كوكو.. هذا انا ايضا يا هيلد. انا في كل مكان يا ابنتي. تهاني بعيد ميلادك*».

– غريب... علقت صوفي

– انه يصبح اكثر فاكثر وقاحة.

– لكن الا تجدين ان الأمر غريب؟ هل يزرع الموز في لبنان؟

هز البرتو رأسه

– على أية حالة، انا لن آكلها.

– اتركيها. لا بد ان يكون الواحد مجنونا ليكتب لابنته على موزة.. ولكن من الواضح ان في جعبته اكثر من حيلة.

– هذا اقل ما يقال.

– هذا يسمح لنا بالاستنتاج بأن والد هيلد ليس أبله.

أنا لا أتوقف عن تكرار ذلك. ربما يكون هو الذي جعلك تناديني هيلد في المرة السابقة. ومن يدري انه ليس هو من يجعلنا نتكلم؟

– يجب عدم استبعاد اي توقع، كل شيء موضع شك.

– ذاك ان وجودنا قد لا يكون الا حلما.

– لا تستعجلي الأمور، لا بد أن هناك تفسيراً اكثر بساطة.

– اخيرا، يجب ان استعجل في العودة الى البيت، فأمي تنتظرني.

رافق البرتو صوفي حتى الباب، وما ان خرجت حتى فاجأها بقوله:

– وداعا، عزيزتي هيلد

وفي اللحظة التالية كان الباب يغلق وراءها.

لوك

... فارغٌ، وعارٍ كلوح أسود قبل دخـــــول الاســــتـــــاذ...

لم تعد صوفي الى البيت الاّ في الثامنة والنصف. متأخرة كثيرا عن موعدها. ولكن مع من كان موعدها؟ لقد تجاوزت موعد العشاء رغم انها تركت لأمها ورقة تقول انها قد تعود نحو السابعة.

– صـــوفي، لا يمكن ان تســتــمــر الأمــور هكذا. اضطررت لطلب استـعـلامـات الهـاتف، لأسـألهم عن رقم رجل يدعى البـرتو في المدينة القديمة، لكنهم ضحكوا مني.

– لم يكن من السـهل ان اعـود مـبكرا اكثـر، فـقـد كنا على حـافـة اكتشاف حل سر كبير.

– ما هذه القصص؟!

– صدقيني، اؤكد لك ذلك.

– هل فكرت بدعوته الى عيد ميلادك؟

– ايه! نسيت!

– اسمعي، عليك ان تعرفيني إليه، غدا. لا يجوز ان تتردد فتاة شابة صغيرة على رجل اكبر منها سنا، كما تفعلين.

– ليس هناك ما يجعلك تخافين من البرتو، بل عليك ان تحذري والد هيلد.

– أية هيلد هذه؟

– ابنة الرجل الموجود في لبنان.. أي لعين هذا! ربما يكون مسيطرا على كل العالم...

– اذا لم تعرفيني فورا بالبرتو هذا، سأمنعك من رؤيته. لن اهدأ الا بعد ان أراه.

لمعت في خاطر صوفي فكرة، فقفزت الى غرفتها..

– لكن.. الى اين تذهبين هكذا؟ صرخت بها امها.

ويسرعة كبيرة عادت صوفي الى قاعة الاستقبال.

– سترين الآن كيف هو شكله. وأمل ان تدعيني وشأني بعدها. قالت صوفي ذلك وهي تمد يدها بشريط فيديو.

– هل اعطاك شريط فيديو؟

– نعم، عن أثينا.

بدأت صور الاكروبول تتوالى، وراحت الأم تنظر وقد عقد الاعجاب لسانها، خصوصاً عندما ظهر البرتو على الشاشة موجها حديثه الى صوفي.

أما صوفي فقد لاحظت شيئا لم تنتبه له في المرة السابقة؛ كان الأكروبول يغص بالسياح، وقد حمل احدهم على صدره يافطة عليها اسم: هيلد. ثم يظهر البرتو، وهو يصعد الأكروبول، ليتوقف عند قمة الاريوباج، تلك التي تحدث من عليها القديس بولس الى الاثينيين، ثم يتوجه بحديثه الى صوفي.

بالكاد توصلت الأم الى التقاط جملتين متتاليتين.

– لكن هذا شيء لا يصدق... هذا هو البرتو؟ هه.وهذه قصة الأرنب تلك.. لكن..انه يتحدث اليك حقا.. كنت اجهل ان القديس بولس ذهب الى اثينا...

اقترب الشريط من لحظة انبعاث اثينا القديمة، فقامت صوفي توقفه. فليس ثمة فائدة من ظهور افلاطون، يكفي انها قدمت البرتو لأمها.

ساد صمت مطبق، سألت بعده صوفي امها ساخرة:

– ألا تجدين انه رجل جميل؟

– انه ولا بد شخص غريب، يصور نفسه في اثينا ويرسل الشريط الى فتاة شابة لا يكاد يعرفها، متى كان في اثينا؟

– ليست لدي اية فكرة ..

– ثم.. هناك أمر آخر..

– ما هو؟

– انه يشبه شبها عجيبا ذلك المايجور الذي كان يعيش هناك في الشاليه في الغابة.

– قد يكون هو نفسه..

– مضى اكثر من خمس عشرة سنة، على ذهابه، ولم نسمع أي شيء عنه.

– ربما ذهب في رحلة، الى اثينا مثلا.

هزت الأم رأسها:

– اذكر انني رأيته مرة في السبعينات. وكان يبدو اكبر سنا من هذا «الالبرتو» الذي رأيته اليوم، وكان يحمل اسما غريبا.

– كنوكس؟

– ممكن. ربما كان اسمه كنوكس.

– هل كان اسمه كنا غ، مصادفة؟

– لا.. ولكن عمن تتحدثين، من هما كنا غ وكنوكس؟

– البرتو ووالد هيلد

– لقد اختلطت علي الأمور

– هل بقي شيء للأكل؟

– ليس امامك الاّ ان تسخني اللحم.

انقضى اسبوعان دون ان يظهر البرتو، تلقت خلالهما بطاقة معايدة جديدة باسم هيلد، لكنها لم تتلق اية واحدة باسمها رغم اقتراب الموعد.

وبعد ظهر ذات يوم استقلت الباص الى المدينة القديمة، لتقرع باب البرتو. لكنه لم يكن موجودا وعلى الباب، وجدت الرسالة التالية:

«تمنياتي الخالصة بمناسبة عيد ميلادك، هيلد! اننا نقترب من اللحظة الحاسمة: لحظة الحقيقة يا ابنتي. كلما فكرت بذلك. غرقت في الضحك حتى لاكاد أبلل نفسي. لا بد أن ثمة علاقة مع بيركلي.

نزعت صوفي الرسالة، ووضعتها في صندوق رسائل البرتو، قبل ان تخرج.

حسنا! عساه لا يكون قد ذهب الى اثينا؟ كيف يمكن له ان يتركها وكل هذه الأسئلة تدور في رأسها دون جواب؟

في يوم الخميس ١٤ ايار، رأت عند عودتها من المدرسة، هرمز في الحديقة. ركضت اليه فقفز لملاقاتها، فطوقت عنقه بذراعها كأنه هو وحده من يملك القدرة على حل كل هذه الألغاز.

كتبت ملاحظة لأمها، حرصت فيها، هذه المرة، على ترك عنوان البرتو.

ولم تكن قادرة على التوقف عن التفكير بالغد وهي تعبر المدينة، ليس فقط لأنه عيد ميلادها، اذ انها لن تحتفل الاّ عشية عيد القديس يوحنا، بل لأنه ايضا عيد ميلاد هيلد. ثمة حدس يقول لها ان شيئا هاما سيحدث. على اية حال، سيضع العيد حدا لتلك البطاقات التي تأتي من لبنان.

في الطريق، ساحة لعب، توقف فيها هرمز، قرب بنك خشبي، وكأنه يريد من صوفي أن تجلس عليه، ففعلت.. وداعبت عنقه الاشقر، ناظرة في عينيه. احست بأنه سينبح اذ بدأ فكاه يرتجفان. لكنه لم ينبح، بل فتح فمه قائلا:

– عيد ميلاد سعيد *يا هيلد*

تجمدت صوفي من الخوف، هل الكلب هو الذي تكلم؟

لا، لا بد انه نوع من الهلوسة، اصابها نتيجة تفكيرها المستمر بهيلد. لكن صوتا في داخلها يؤكد انها سمعت الكلب ذاته يلفظ الكلمات الأربع، بل ان له صوتا أجشٌ جميلا.

لحظة اخرى، وراح هرمز ينبح بقوة كأنه يبدد احساسها بأنه تكلم اليها بصوت انسان.. ثم تابع طريقه الى منزل البرتو. في السماء كانت بضع غيوم كبيرة.. تقول ان الطقس يهدد بالتغير.

– ما كاد البرتو يفتح الباب حتى بادرته:

– هدنة من باب التهذيب، فقط.. لقد كذبوا عليك وكنت تعرف ذلك، اذهب.

– عما تتحدثين يا ابنتي؟

– لقد جعل المايجور هرمز يتكلم!

– أي، هل نجح في ذلك فعلا؟

– نعم
– وماذا قال؟
– احزر!
– عيد ميلاد سعيد، او شيئا من هذا القبيل.
– ربحت!

دعا البرتو صوفي للدخول، وكان يرتدي زيا لا يختلف كثيرا عن زي المرة السابقة، الاّ في كونه اقل تزيناً بالشرائط والدانتيل.

– هذا ليس كل شيء. قالت صوفي عندما اصبحتْ في الداخل.
– ماذا تقصدين؟
– الم تجد الرسالة في صندوق البريد؟
– بلى. ولكنني رميتها في القمامة.
– ولكن، ماذا فعل له بيركلي هذا، ليضحك بهذا الشكل؟
– لننتظر وسنرى.
– الن تحدثني عن ذلك اليوم؟
– بلى، اليوم ..

جلس البرتو باسترخاء وبدأ:

– في المرة الأخيرة، حدثتك عن ديكارت، وعن سبينوزا، اللذين يشتركان في كونهما «عقلانيين»

– والعقلاني، هو الذي يؤمن بسلطة العقل.

– اجل، العقلاني يعتقد ان العقل اساس المعرفة، كما يعتقد بأن الانسان يولد ومعه بعض الافكار (الافكار الفطرية)، التي تكون حاضرة في الوعي، سابقة لكل تجربة. وكلما كانت الفكرة اوضح، كلما تطابقت اكثر مع الواقع. هل تذكرين ان ديكارت استنتج من فكرة الكائن الكامل ان الله موجود بالضرورة؟

– هل تظن انني انسى بهذه السرعة؟

– اذن، فان هذا التقليد العقلاني، سيتعرض للنقض ابتداءً من القرن الثامن عشر، على يد اصحاب المذهب *«التجريبي»* الذين كانوا يتبنون وجهة نظر تقول إن اي وعي للاشياء او الاحداث لا يتكون لدينا قبل ان

ندركها بوساطة حواسنا.

– اذن ستحدثني اليوم عن التجريبية؟

– سأحاول. ان فلاسفة التجريبية الأساسيين هم لوك، بركلي وهيوم، وثلاثتهم انكليز. في حين كان العقلانيون الكبار: (ديكارت) فرنسي، (سبينوزا) هولندي و(ليبنيز) الماني. مما يجعل بعضهم يميزون بين *التجريبية الانكليزية والعقلانية القارية* (نسبة الى القارة الأوروبية).

– حسنا. لكن هل بامكانك ان تعيد تحديد التجريبية؟

– التجريبي هو الذي يستنتج كل معلوماته عن العالم، مما تنقله اليه حواسه. وهنا تجب العودة الى ارسطو لايجاد الصيغة الكلاسيكية:

«لا شيء يوجد في الوعي، دون أن يوجد قبلا في الحواس» وفي هذا نقد مباشر لنظرية الافكار العزيزة على قلب افلاطون ، والتي تقول إن الانسان يولد ومعه افكار آتية من عالم الافكار. وقد تبنى لوك جملة ارسطو ليستعملها ضد ديكارت هذه المرة.

– *«لا شيء يوجد في الوعي، دون أن يوجد قبلا في الحواس»*؟

– لا تكون لدينا أية فكرة مسبقة عن العالم الذي نولد فيه، قبل ان نراه. وإذا كانت لدينا فكرة او تصور لشيء لم نجربه، فهي فكرة خاطئة. والعقل يدور في فراغ، اذ يدور على مصطلحات مثل الله الابدية، او الجوهر. ذاك ان ما من احد «جرب» الله او الأبدية او ما سماه الفلاسفة: الجوهر او الماهية. ويمكننا ان نكتب في أوقات فراغنا اطروحات معرفية، لا تحمل في النهاية اي جديد للمعرفة الواقعية. انه نمط من المجادلة التي قد تبدو حكيمة، لكنها ليست في الواقع الا شكلا من اشكال الاعتصار الفكري، يحاول ان يعيد تمشيط كل شيء بالمشط الدقيق، كما نبحث عن الذهب في وسط الوحل والرمل، لنعثر في النهاية على بضع نترات من الذهب.

– وهذه النترات، أهي التجارب الحقيقية؟

– أو على الأقل، الافكار المرتبطة بتجارب البشر. ويقترح التجريبيون، اعادة النظر في كل افكار البشر، للتأكد من كونها مبنية على التجربة. ولنأخذهم فيلسوفا فيلسوفا.

– أنا مصغية.

– الأول هو الانكليـزي جـون *لوك* الذي عـاش بين ١٦٢٣ و١٧٠٤م، ونشر اهم كتبه عام ١٦٩٠م تحت عنوان «تجربة على الادراك البشري».. حـاول فـيـه ان يوضـح مـسـألتين: الأولى تتـسـاءل عن أصل الافكار والتصورات البشرية، والثانية تطرح مشكلة مصداقية حواسنا.

– مشروع طموح!

– لندرس النقطة الأولى: كـان لوك مـقـتنعـاً بأن كل الافكار والصـور التي في رؤوسنا هي ثمرة تجاربنا المختلفة.. فوعينا يكون، قبل ان يحس بالأشياء، صفحة بيضاء (Tabula Rasa).

– انت غير مضطر للتحدث باللاتينية.

– قـبل ان نرى شـيـئـا، يكون وعـينا كلوح اسـود فـارغ قـبل دخـول الاستـاذ الى الصف. كذلك شبه لوك الوعي بقـاعة دون أثاث. ونحن نبدأ بادراك العالم حولنا بفضل النظر، الشم، الذوق، اللمس والسمع. ويكون الاطفـال الصـغـار هم الأقوى في ذلك. هكذا يتولد ما يسمـيه لوك «*افكار حسية بسيطة*» لكن الوعي لا يتقبل هـذه الافكار بسلبية، بل يواجـهـا، ويخـضـعـهـا لمجـادلات وتحليـلات، يضـعـهـا مـوضـع شك الخ.. ومن هـذه الفـعالية الذهنية يتولد ما يسمـيه لوك «الافكار المنعكسة». مقيما تمييزا بين «الادراك» و«التفكير» وهنا يجب ان نكون حذرين.

– نكون حذرين؟

– يحـرص لوك على الاشارة الى ان حـواسنا تمكننا من الوصـول الى «*انطباعات بسيطة*» فعندما آكل تفاحة، على سبيل المثال، لا ارى التفاحة ككل، بل احس بسلسلة من الأحـاسيس المتتالية المتلاصقة، ارى شيـئـا اخـضـر، يثـيـر احـسـاسـا بالطراوة وطعـمـا حـادا قليلا. ولا اتوصل الى صـوغ واضح لفكرة انني آكل «تفـاحـة» الا بعد ان افعل ذلك عدة مرات. حيث يقول لوك اننا نحصل على «رؤية تركيبية» للتفاحة.

– على الأقل يمكننا ان نكون على ثقة من ان مـا رأيناه، سمـعناه، أو تذوقناه هو كما ادركناه.

– نعم ولا. فهل العالم هو فعلا كما نراه؟ هذا هو السؤال الثاني لدى

لوك، وليس هناك ما هو اقل تاكيدا.. علينا الاّ نكون مستعجلين. انه اول المطلوب من فيلسوف.

– احس ان علي ان اصبح خرساء.

– يميز لوك في مجال الحواس بين الصفات «الأولية» والصفات «الثانوية»، ويستشهد بمن سبقه، مثل ديكارت.

– كيف؟

– «الصفات الأولية» للحواس تعطي الحجم، الوزن، الشكل، الحركة، والعدد. ونستطيع ان نؤكد على ان حواسنا تعطينا ما يكفي من المعلومات عن هذه الصفات. لكننا نقول ايضا ان هذا الشيء حلو او حاد، اخضر او احمر، ساخن أو بارد، وهذا ما يسميه لوك «الصفات الثانوية» للحواس. وليست هذه الاحاسيس، كاللون، والرائحة، والطعم، والصوت، صفات ماثلة في الأشياء، بل انها لا تعكس الا التأثير الذي تركته على حواسنا.

– الذوق... هذا لا يناقش.

– بالضبط.. فالصفات الأولية كالحجم او الوزن هي غير قابلة للمناقشة لانها ماثلة في طبيعة الاشياء ذاتها، في حين ان الصفات الثانوية كاللون والذوق تختلف من حيوان الى آخر ومن انسان الى آخر، بحسب الجهاز الحسي لكل منهم.

– عندما تأكل جورون برتقالة، تحس ما يحس الآخرون عندما يأكلون ليمونة حامضة، فهي تأكلها حزا حزا وتقول انها حامضة.. بينما أجدها انا حلوة الطعم.

– وليست كل منكما على حق او على صواب. فأنتما لا تفعلان شيئا سوى وصف تأثير البرتقالة على حاسة الذوق عندكما، كذلك هو الأمر بالنسبة للون. لنفرض انك لا تحبين اللون الأحمر، ولبست جورون فستانا بهذا اللون، فسيكون عليك ان تحفظي ذوقك لنفسك. انتما لا تريا اللون بالطريقة ذاتها مما لا يعني ان الثوب جميل او بشع.

– لكن الناس يتفقون جميعا على ان البرتقالة مستديرة.

– نعم. اذا كان في يدك برتقالة، يكون من المستحيل ان «تحكمي»

بأن شكلها مكعب. بامكانك ان «تحكمي» بأنها تزن ثمانية كيلوغرامات، في حين انها لا تزن الاّ مئتي غرام. قد تستطيعين ان «تظني» بأنها تزن عدة كيلوغرامات، لكنك في هذه الحالة تخطئين تماما. واذ تكهن عدد من الناس، بوزن شيء معين، فسيكون بينهم واحد، يعطي الرقم الأقرب، ويكونون على حق اكثر من الآخرين. كذلك الأمر بالنسبة لعدد الاشياء او لكونها في حالة حركة أو لا. فاما ان تكون السيارة سائرة واما متوقفة.

– فهمت

– اما فيما يخص الواقع في الفضاء (الامتداد)، فان لوك ينضم الى ديكارت اذ يعترف بوجود بعض الصفات التي يستطيع العقل ادراكها.

– من الصعب الا يتفق الجميع على هذه النقطة.

– وعلى صعيد آخر، يفتح لوك الطريق امام معرفة حدسية، او «برهانية» ويرى ان بعض القواعد الأخلاقية الأساسية تصلح لكل شيء، كما يطرح نفسه داعية لما يسمى بـ *الحق الطبيعي*، وهو احد سمات الفلسفة العقلانية. كذلك يؤكد لوك ايضا على ان العقل البشري يحمل في ذاته فكرة الله.

– قد لا يكون على خطأ.

– في أية نقطة؟

– عندما يؤكد وجود الله.

– يمكن ان نتخيل كل شيء، لكن المسألة ليست بالنسبة له مسألة ايمان، بل مسألة عقل ملازم للانسان. ويفرض مفهوم الله هذا – والذي هو ايضا من ميزات العقلانيين – حرية الفكر والتسامح. كذلك اهتم لوك ايضا بالمساواة بين الجنسين، وكان يعتقد بأن وضع المرأة التابع بالنسبة للرجل ليس من معطيات الطبيعة، وانما من صنع البشر. مما يعني انه بامكاننا تغيير هذا الوضع.

– وهذا رأيي أنا، تماما.

– كان لوك واحدا من اول الذين اهتموا بدور الجنسين، واثر بذلك على مواطنه جون *ستيوارت ميل* الذي دافع بدوره عن المساواة بين الجنسين. والواقع ان لوك كان متقدما على عصره في الكثير من النقاط،

ولذلك اعيد تبني افكاره في فرنسا في القرن الثامن عشر، الذي يطلق عليه اسم عصر التنوير. يكفي اننا مدينون له بمبدأ *تقاسم السلطة*....

– تقصد تقاسم السلطة بين عدة مؤسسات سياسية؟

– هل تذكرين ما هي؟

– السلطة التشريعية او الجمعية العامة، السلطة القضائية ممثلة بالمحاكم، والسلطة التنفينية اي الحكومة.

–هذه التركيبة الثلاثية، هي من وضع مونتسكيو، لكن لوك اصر على الفصل بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية تفاديا للطغيان. وقد عاش هو في عصر لويس الرابع عشر الذي كان يجمع كل السلطات. ويقول: «*انا الدولة!*».. نقول انه كان ملكا مطلق السلطة، اي انه لا يبني سلطته على الحق. فلكي نبني دولة الحق – برأي لوك – يجب ان يشرع ممثلو الشعب القوانين، ويقوم الملك والحكومة بتطبيقها.

هيوم

... فلنرمه في النار اذن ...

توقف البرتو قليلاً لينظر من النافذة

– يبدو أن السماء تدلهمّ .. قالت صوفي

– أجل فالغيوم تتكاثف.

– هل ستحدثني الآن عن بيركلي.

– انه التجريبي الانكليزي الثاني الكبير، لكنه يختلف قليلاً عن الآخرين، لذلك أفضل أن أحدثك أولاً عن ديفيد هيوم. الذي عاش بين (١٧١١) و (١٧٧٦)م والذي لا يزال الأكثر تأثيراً من بين التجريبيين. ثم انه هو من جعل الفيلسوف الكبير *"كانت"*، يعثر على خطّه الفلسفي الخاص.

– واذا كنت أفضل ان تحدثني عن بيركلي؟

– لن يغير هذا شيئا في البرنامج الذي حددته لنفسي .. كنت أقول إن هيوم نشأ في سكوتلندا، في ضواحي ادنبورغ وكانت اسرته تريد أن يدرس القانون، اما هو، فكان يدعي بانه «يحس بنفور لا يقاوم ازاء كل ما ليس فلسفياً أو ثقافة عامة».

عاش هيوم في عصر فولتير وروسو، أي في عصر التنوير، وقضى جزءاً كبيراً من حياته مترحلاً في أوروبا، قبل أن يستقر في ادنبورغ. في الثامنة والعشرين من عمره، نشر كتابه الأهم «اطروحة في الطبيعة الانسانية»، لكنه كان يؤكد أن فكرة الكتاب كانت لديه منذ سن الخامسة عشرة.

– اذا كنت أفهم جيداً ما تقول، يكون من مصلحتي أن أسرع.

– انت تسيرين في الطريق الصحيح.

– لكن، اذا كان علي أن أبلور فلسفتي الخاصة، فستكون مختلفة عن كل ما سمعت حتى الآن.

– هل ترين أن هناك بعداً أهملناه؟

–أولاً: كل الفلاسفة الذين حدثتني عنهم حتى الآن هم رجال ويبدو أن الرجال يعيشون في عالمهم الخاص. وأنا أهتم أكثر بالواقع، بالزهور، بالحيوانات، بالأطفال الذين يولدون ويكبرون. أما فلاسفتك، فلا يتحدثون إلاّ عن «الإنسان»، وها انت تقدم لي فيلسوفاً آخر، يبدأ بأطروحة عن «الطبيعة الانسانية»! مما يجعلنا نحس باننا نتكلم عن رجل كبير، في حين ان الحياة تبدأ بالحمل والولادة، فلماذا يتم تجاهل صرخات الطفل الوليد؟ اذا لم نقل تجاهل الحب والصداقة.

– انت على حق، لكن لهيوم وجهة نظر مختلفة كثيراً عن الآخرين، فهو ينطلق من الحياة اليومية، ويتوصل بسرعة الى أن يضع نفسه مكان الأطفال، أي سكان العالم المقبلين.

– حسناً. اذن سأبذل جهداً لفهمه.

– كفيلسوف تجريبي، اهتم هيوم بتنظيم مفاهيم الفلاسفة الذين سبقوه، وبُناهم الفكرية، ذاك اننا كنا نجد في عصره، خليطاً من المفاهيم الموروثة من القرون الوسطى، ومن أفكار الفلاسفة العقلانيين في القرن السابع عشر، لذلك أراد هيوم أن يعود الى التجربة المباشرة الحساسة، لأن ما من فلسفة «تستطيع أن تقودنا الى أبعد من التجربة اليومية، أو ان تعطينا قواعد سلوكية مختلفة عن تلك التي يعطينا التفكير باليومي، فرصة ايجادها»، بحسب رأيه.

– الى هنا، والأمر جذاب! اليست لديك أمثلة واضحة؟

– كان وجود الملائكة، احدى المسلمات العامة في عصر هيوم. واذ يقال ملاك، فانما المقصود جسم رجل له جناحان، هل التقيت بأحدٍ شكله هكذا؟

– لا

– لكنك رأيت أجساد ذكور؟

– أي سؤال هذا!

– وهل رأيت جناحين؟

– طبعاً، ولكن ليس على كتفي انسان.

– يرى هيوم أن الملاك هو «تجمع أفكار»، أي أن خيال الانسان قد جمع، عشوائياً، تجربتين مختلفتين في واقع الحياة. وبتعبير أخر، انه تصور خاطىء يجب التخلص منه، بأسرع ما يمكن، ذاك اننا، كما يقول هيوم «اذا أخذنا أي كتاب حول مفهوم الله وعالم الماوراء، فسيكون علينا ان نطرح على أنفسنا السؤال التالي: هل يحتوي على أي تفكير تجريدي يتعلق بالعظمة أو العدد؟ لا، هل يحتوي أي تفكير مبني على التجربة المتعلقة بوقائع الوجود؟ لا .. اذن فلنرمه في النار، لأنه لا يمكن أن يحتوي إلاّ على ترهات السفسطائيين، وأحلام مجهضة».

– من الصعب ان يكون المرء أكثر مباشرة.

– كان هيوم يريد العودة الى الطريقة التي يرى بها الطفل العالم، قبل أن تجتاح الأفكار والتأملات دماغه، ألست أنت، من ترى أن الفلاسفة ينعزلون في عالمهم الصغير، بدلاً من أن ينفتحوا على العالم؟

– بلى، شيء من هذا القبيل.

– كان هيوم يرى ذلك بالضبط، وبدأ بتمييز نمطين من التمثل لدى الانسان: الأحاسيس والأفكار. فالأولى هي التصورات الحادة والمباشرة للعالم الخارجي، في حين ان الثانية هي الذكرى المتعلقة بهذه الأحاسيس.

– امثلة من فضلك.

– اذا احترقت يدك عند ملامسة طنجرة ساخنة، يتكون لديك على الفور «الاحساس». وبعدئذٍ ستفكرين به. وهذا ما يسميه هيوم «فكرة». والفارق هنا، هو أن الاحساس أقوى بكثير من الذكرى التي تأتي بعده، وبتعبير آخر ان احساس الحواس هو الأصلي، اما الذكرى فليست الا نسخة باهتة، لأن الاحساس هو السبب المباشر للفكرة التي تعشعش في الذاكرة.

– الى هنا .. وأنا معك.

– بعد ذلك يفسر هيوم، ان كلاً من الاحساس والفكرة، اما أن يكون *بسيطاً* وإما *تداعياً*. تذكرين اننا تحدثنا عن التفاحة عند حديثنا عن لوك، وقلنا انها «تداعي أحاسيس» ونستطيع أن نؤكد أيضاً أن التفاحة

هي فكرة «فكرة تداعية أو ترابطية».

– عفواً، المقاطعة، ولكن هل لهذا أهمية؟

– طبعاً. قد يبدو لك الامر هباءً، لكن عليك ألاّ تترددي في ان تتساءلي. لقد اعترف هيوم بان ديكارت كان على حق عندما أراد التأكد من حالة التأسيس، قبل أن ينمي أي تفكير.

– لم أعد أفهم.

– ما أراد هيوم قوله هو انه يمكن لنا أحياناً ان نربط بين عدة أفكار دون ان يأتي ذلك مطابقــاً لأي شيء في الواقع. وهكذا تتكون افكار خاطئة لا وجود لها في الطبيعة، مثل الملائكة، أو الحصان المجنح (بيجاس) أو غيرهما، وفي كل هذه الحالات يتسلى الذهن بنسج صور يعطيها فيما بعد مظهر الاحساس «الحقيقي». والواقع ان الذهن لم يخترع شيئاً – هنا – وانما هو مجرد مسرح، تتداعى اليه الاحاسيس، يستثير بعضها بعضاً، يجر بعضها بعضاً، دون أي تدخل ارادي. في جميع الحالات علينا أن نعترف بأن الوعي هو عبارة عن قص وجمع بإرادتنا: فنحن نأخذ الاجنحة من انطباع والحصان من آخر، وكلاهما عبارة عن فكرة دخلت وعينا كأنها حقيقة.

– بدأت أفهم مصدر الأهمية.

– لذا يتعرض هيوم لكل التصورات، ليجزئها الى احاسيس بسيطة، يرى ما اذا كانت تتطابق مع شيء من الواقع، وهكذا كان لدى معظم الناس في عصر هيوم افكار محددة تتعلق بالسماء أو باورشليم الجديدة. لكن ديكارت كان يؤكد على أن فكرة «واضحة ومميزة» تتطابق بالضرورة مع شيء من الواقع، هل تتذكرين ذلك؟

– قلت لك انني لست طائشة ..

– اذن، فمن الطبيعي ان السماء هي تداع لكل انواع الأفكار، نذكر بعضها على سبيل المثال: في السماء باب من اللؤلؤ، شوارع ملأى بالذهب، جمهور من الملائكة .. الخ .. لكن هذه الصور هي «تداعي» افكار وأحاسيس ويجب أن نجزئها الى عناصر بسيطة، «اللؤلؤ» «الباب» «الشارع» «الذهب» «مخلوقات تلبس الأبيض» ولها «أجنحة»، قبل ان

نرى ما اذا كانت تتطابق مع «احساس بسيط» متشكل لدينا.

– ولكن الامـــر هكذا تمامـــاً، المشكلة هي اننا نصـــوغ من هذه الاحاسيس البسيطة واقعاً خيالياً لا وجود له.

– ها انت تضعين يدك على الكلمة الصحيحة. اننا نطبق في الواقع، المخطط ذاته الذي نتبعـه في الحلم. فكل المواد الأساسـية في الحلم، تشكلت لدينا يوماً في شكل «أحاسيس بسيطة». فمن لم ير الذهب أبداً لا يستطيع تخيل شارع مليء به.

– هذا ذكي، ولكن ماذا فعل بديكارت وتصوره الواضح والمميز، لله؟

– يجيب هيوم على ذلك بأننا نرى في الله كائناً «ذكياً وطيباً» في المطلق. وهذا في الواقع، تداعي أفكار تجمع شيئاً من الذكاء وشيئاً من الطيبة. ولو اننا لم نعرف الطيبة أو الذكاء، لما استطعنا ان نبني هذا المفهوم لله. نحن نعتبر أيضاً انه «أب قاسٍ لكنه عادل» هنا أيضاً تتجمع أفكار ثلاث «الأب» «العدل» «القسوة». منذ هيوم رأى عدد من المفكرين في الدين نقداً نوجهه الى آبائنا نحن، الى صورتهم عندما كنا أطفالاً. وفي الحـالتين تكون صـورة الأب هي التي قـادتنا الى صـورة «أب في السماء».

– ربما يكون هذا صـحيـحـاً. لكنني لا أفـهم لماذا يكون الله كائناً مذكراً. أمي تقول أحياناً، في محاولة منها لاقامة التوازن: «أمنا التي في السماء».

– يقدم كل يوم في حياتنا برهاناً جديداً على حداثة هيوم. ذاك اننا غالباً ما نستعمل مفاهيم «تداعية» دون ان نتساءل لحظة واحدة عن قيمتها. ثم ما هو الموقف من «الأنا» في كل ذلك، أي من نواة الشخصية الانسانية؟ هذه التي بنى ديكارت كل فلسفته على التصور المتعلق بها.

– أتمنى ألاّ يحاول هيوم أن ينفي انني انا، لأنه عندئذ سيهوم طويلاً.

– اسمعي اذا كان هناك ما يجب أن تحفظيه من دروس الفلسفة، فهو عدم الخروج باستنتاجات متسرعة.

– تابع

– طبقي منهج هيوم على ما تعتبرينه «اناك» انت.

– حسناً، علي أن أبدأ بتبين ما اذا كانت تصوراً بسيطاً أو تداعياً
– وتستنتجين من ذلك ...
– انني أتصور نفسي، كمجموع معقد: فمزاجي متغير جداً، وأجد صعوبة في اتخاذ القرارات. وانا قادرة على أن أحب واكره الشخص نفسه.
– ان تصورك لاناك، هو اذن تداعي أفكار.
– تماماً، ثم ان علي أن أتساءل ما اذا كنت أملك احساساً تداعيّاً بنفسي، مطابقاً لذلك، لا بد ان لدي واحداً، ولكن هل هو هو نفسه دائماً؟
– لماذا تبدين مترددة حول هذه النقطة؟
– لأنني أتغير باستمرار. أنا لست اليوم نفسي قبل أربعة أعوام. ان مفهومي عن نفسي هو كمزاجي، يتغير من لحظة لأخرى. ويحصل لي ان أرى نفسي «كائناً جديداً بشكل جذري».
– اذن فالاحساس بامتلاك نواة شخصية ثابتة ودائمة هو وهمي. وتصورنا لـ «أنا» سلسلة طويلة من الاحاسيس المنفصلة، التي لم نعشها إلا بشكل متعاقب، «مجموعة محتويات مختلفة من الوعي، تتلاحق بتسارع وتتغير وتتحرك باستمرار» كما يقول هيوم، فليس لنا اذن شخصية أساسية تندرج فيها، وتتشابك متسلسلة كل الانفعالات والمفاهيم، انها اشبه بفيلم على شاشة: حيث تتوالى الصور بسرعة لا تجعلنا نلاحظ ان الفيلم مركب من عدد لا يحصى من الصور المنفصلة، والواقع ان الفيلم ليس سوى مجموعة من اللحظات.
– أعتقد أنني بدأت أضيع.
– تقصدين انك تُضيّعين التصور الخادع الذي كنت تحملينه عن «أناك» وتعتقدين انه ثابت؟
– اجدني مضطرة لذلك.
– اعترفي بانك لم تكوني مؤيدة لذلك في البداية! ومع ذلك فان شخصاً آخر، قد سبق هيوم بالفين وخمسمئة سنة، حلل وعي الإنسان، محطماً اسطورة الانا التي لا تقبل الاختزال.
– من هو؟

– بوذا. فالصيغة التي جاء بها بوذا، تتشابه مع هيوم الى حد مثير. اذ يعتبر ان حياة الانسان هي سلسلة متصلة من الدورات النفسية والفيزيائية، التي تجعل الكائن البشري يتغير في كل لحظة. فالطفل لا يظل هو نفسه عندما يصبح بالغاً، وأنا الآن غير الذي كنته أمس. يقول بوذا انه لا يمكنني أن أقول عن شيء «هذا لي»، وما من شيء يسمح لي بأن أقول «هذا، هو أنا»، لا وجود لـ «أنا» أو لنواة دائمة للشخصية.

– حقاً انه قريب جداً من هيوم.

– وفي سياق الفكر نفسه. أكدت الفلسفة العقلانية على خلود الروح.

– لكن هذه أيضاً خاطئة، اليس كذلك؟

– نعم، سواء برأي هيوم أم برأي بوذا، هل تعرفين ماذا قال بوذا لتلاميذه قبل أن يموت؟

– وكيف لي أن أعرف؟

– «كل ما هو مخلوق، محكوم بالزوال، لذلك فلنعمل لخلاصنا». هذا ما قاله، وكان يمكن لهيوم أن يقول الشيء نفسه، وربما ديمقريطس أيضاً. معروف أن هيوم رفض أن يحاول برهنة خلود الروح أو وجود الله. لا لأنه يستبعد امكانية ذلك، بل لاعتقاده بان تأسيس الايمان الديني بوساطة العقل البشري، هو من بِدَعِ العقلانيين. لم يكن هيوم مسيحياً، لكنه لم يكن أيضاً ملحداً، كان ما نطلق عليه تسمية *«اللا ادري»*.

– ما معنى ذلك؟

– اللا ادري هو واحد لا يعرف ما اذا كان الله موجوداً، فعندما عاد احد أصدقاء هيوم الفيلسوف وهو على سرير الموت، وسأله عما اذا كان يؤمن بوجود حياة بعد الموت، أجاب انه يمكن أن تلقى قطعة فحم في النار، ولا تشتعل.

– أه .. جيد ..

– يؤكد جوابه على حريته الكاملة في الحكم. فهو لا يعترف بصفة الحقيقي إلاّ لما أدركه كذلك بحواسه، وفيما عدا ذلك يترك الباب مفتوحاً أمام كل التوقعات. فلا يرفض الايمان المسيحي، أو الايمان بالمعجزات، لكن القضية برأيه، هي في الحالين، قضية *ايمان* لا معرفة أو *عقل*.

لذا يمكن لنا أن نؤكد على أن آخر خيط بين الفلسفة والايمان قد انقطع مع فلسفة هيوم.

– لكنك قلت انه لم يرفض المعجزات.

– هذا لا يعني انه كان يؤمن بها، بل العكس. غير أنه تفهم، فقط، حاجة البشر للايمان بظواهر واحداث، نَصِفُها نحن اليوم بأنها «فوق الطبيعة». لكنه ليس من قبيل المصادفة ان تحدث كل هذه المعجزات بعيداً جداً عنا مكاناً وزماناً. لقد رفض هيوم ان يؤمن بالمعجزات، لانه، ببساطة، لم يرها بعينيه، لكنه لم يقل انها غير موجودة، أو لم توجد، لانه لا يمتلك براهين قاطعة على ذلك.

– هل يمكن أن تعيد لي هذه النقطة الأخيرة؟

– يعتبر هيوم أن المعجزة هي خروج عن القوانين الطبيعية، أو قطيعة معها، لكنه من العبث القول ان لنا تجربة حسية مع هذه القوانين.

نحن نرى أن الحجر يسقط أرضاً، اذا أفلتناه، لكنه اذا لم يقع نكون قد اختبرنا ذلك أيضاً.

– مع ذلك، أقول أنا، في هذه الحالة، انها معجزة أو شيء ما فوق الطبيعة.

– هل تعتقدين اذن بوجود طبيعتين «الطبيعة» و«ما فوق الطبيعة»؟ ألا تشعرين انك تعودين الى الوقوع في آراء العقلانيين؟

– هذا ممكن، لكنني أعتقد أن الحجر سيعود فيسقط كلما رميناه.

– لماذا؟

– لا .. انك تبالغ.

– لا يا صوفي، الفيلسوف لا يتوقف عن طرح الأسئلة، ولا يكتفي أبداً، هذه نقطة أساسية في فكر هيوم. الآن أجيبيني: كيف تكونين متأكدة من ان الحجر يسقط دائما الى الأرض؟

– لقد رأيته ما يكفي من المرات لجعلي متأكدة:

– يقول هيوم انك رأيته مرات لا تحصى لكنك لم تقومي بذلك *لاختبار ان ذلك سيحصل دائماً*. من الشائع التأكيد على أن الحجر يسقط أرضاً بفعل «قانون الجاذبية»، لكننا لم نقم أبداً *باختبار* هذا القانون: نحن

نقف عند حد ملاحظة أن الأشياء تقع أرضاً.

– أليس الأمر نفسه في الحالين؟

– ليس تماماً، انت معتادة على حصول العملية، بحيث تعرفين مسبقاً ما سيحصل اذا تركت الحجر يقع أرضاً.. هكذا تتولد تصورات ما نسميه «القوانين الطبيعية».

– هل يعتقد هيوم انه يمكن للحجر ألاّ يقع؟

– لقد كان مقتنعاً مثلك بهذا الموضوع، لكنه يسجل انه لا يملك اي اختبار لكيفية حصول الأمر.

– ألم نبتعد قليلاً عن الأطفال والزهور؟

– لا، بل على العكس، الأطفال هم الشهود على الحقيقة، برأي هيوم، فمن الذي يصاب بالذهول أكثر، أمام رؤية حجر عالق في الهواء، انت أم طفل صغير؟

– أنا

– لماذا؟

– طبعاً لأن الطفل لا يعرف كم ان ذلك مخالف لقوانين الطبيعة.

– ولماذا لا يفهم الطفل ان ذلك مخالف لقوانين الطبيعة؟

– لأنه لم يتعلم بعد، كيف هي الطبيعة.

– أو.. لنقل ان الطبيعة لم تصبح له، بعد، *عادة*.

– آه، هذا ما تريد الوصول اليه! حسناً. ان هيوم يريد ان يحافظ البشر على حواسهم متيقظة.

– الآن سأعطيك تمريناً: اذا حضرت مع طفل صغير جلسة سحر، تريان فيها مثلاً جسماً يطير في الفضاء، فمن منكما سيتمتع أكثر؟

– أعتقد، أنا

– ولماذا، برأيك؟

– لأنني أستطيع أن الاحظ الى أي حد هو غريب ما يحصل.

– تماماً، فالطفل الصغير لا يجد أية متعة في رؤية قوانين الطبيعة، تتحطم، لانه لم يعرفها بعد، انه لم يصبح بعد عبداً لذلك الانتظار الذي تضعنا فيه العادة. الطفل لا يحمل افكاراً مسبقة، وتلك ميزة أساسية من

ميزات الفيلسوف الكبير، انه يرى العالم كما هو بدون الأفكار المسبقة، التي تشوه رؤيتنا نحن البالغين.

- صحيح، فكلما كانت لدي أفكار مسبقة، عدت فندمت عليها.

- عندما يناقش هيوم موضوع *العادة*، يركز بحثه على «قانون السببية» الذي يقول ان لكل حدث سبباً وهو يأخذ مثالاً على ذلك كرتي البليارد: ماذا يحصل اذا ما ضربت بالكرة البيضاء كرة سوداء متوقفة؟

- ستتحرك الأخيرة.

- لماذا؟

- أوه .. لان الكرة البيضاء ضربتها ..

- في هذه الحالة نقول ان البيضاء هي سبب حركة السوداء، اليس كذلك؟ لكن تذكري اننا لا نملك حق اعلان شيء إلاّ بعد ان نجري عليه التجربة.

- حسناً، لقد رأيت ذلك كثيراً، لأن لدى جورون طاولة بليارد في القبو.

- يقول هيوم، انك رأيت ان الكرة البيضاء هي سبب حركة الكرة السوداء، لكن ما لم تريه هو الصلة السببية، لقد استطعت أن تلاحظي أن هذين الحدثين قد تعاقبا زمنياً، لكنك لا تستطيعين ان تؤكدي -رغم ذلك- ان الحركة الثانية حصلت بسبب الأولى.

- اليس هذا مزعجاً بعض الشيء؟

- لا، انه مهم، فليس تتابع الاحداث هذا، مندرجاً في الأشياء بحد ذاتها، بل في وعينا، الذي ينتظر هذا التتابع. ومعنى الانتظار هنا: «لقد رأينا هذا سابقاً» أي «العادة». فان طفلاً صغيراً، لم يكن ليتعجب لو ان الكرتين لم تتحركا عندما اصطدمت احداهما بالأخرى. وهكذا يبرهن هيوم على أن ما نسميه «القوانين الطبيعية» ومثله «قوانين الفعل السببي»، هي قوانين نتجت عن العادة ولم تبن على العقل. فهي ليست منطقية أو غير منطقية، انما هي هكذا وكفى. نحن لا نولد ومعنا أفكار مسبقة عن مسيرة العالم، بل ان العالم يُقَدَّم لنا يوماً بعد يوم، ونحن نكتشفه يوماً بعد يوم بفضل حواسنا.

– وهل ثمة فارق كبير بين الحالتين؟

– أجل.. لأننا اذا كنا ضحايا حالات الانتظار، فسنقع في خطر الخروج باستنتاجات متسرعة.

– مثلاً؟

– مثلاً، اذا رأيت قطيعاً من الخراف السوداء فهذا لا يعني ان كل الخراف سوداء.

– بالطبع!

– وحتى اذا كنت لم تلتقي في حياتك إلا بغربان سوداء، فهذا لا يعني ان كل الغربان سوداء، او انه لا يوجد غراب أبيض. فالفيلسوف، كالعالم، يحرص على عدم استبعاد أي توقع، وبهذا المعنى يكون البحث عن «غراب أبيض» واجب رجل العلم.

– بدأت أفهم.

– نستطيع – في مجال الحديث عن العلاقة السببية – ان نورد ظاهرة العاصفة مثلاً، حيث يعتقد الكثيرون ان البرق هو سبب الرعد، لأن الأول يسبق الثاني ببضع ثوانٍ دائماً، ولا يختلف هذا المثال عن مثال كرتي البليارد، لذلك اسألك: هل البرق هو حقاً سبب الرعد؟

– لا، بل ان البرق والرعد يحصلان بالتتابع.

– ... لأن كليهما حصيلة شحنة كهربائية، وهكذا نرى أن عاملاً ثالثاً، هو السبب في الواقع.

– فهمت.

– لقد أعطى أحد الفلاسفة *التجريبيين* المعاصرين ويدعى *برتراند راسل* مثالاً أكبر: ان دجاجة، ترى كل يوم ان الحَبّ يعطى لها، بعد لحظات من مرور المزارع، لا بد ان تصل، في النهاية، الى تصور علاقة سببية بين مرور المزارع والطعام الذي يوضع في خمها.

– واذا لم تعط الطعام يوماً؟

– سيكون ذلك اليوم، اليوم الذي يعبر فيه المزارع ليقطع عنقها.

– أي رعب!

– ان تتابع شيئين في الطبيعة، لا يعني ان حدهما سبب الآخر، انه

أول واجبات الفيلسوف: تحذير الناس من الخروج باستنتاجات متسرعة، لأن ذلك يعني خطر الوقوع في الخرافات أو التطير.

– كيف؟

– ثمة هر أسود يقطع الشارع، بعد ذلك بدقائق تقعين وتتكسر ساقك. ومع ذلك فليس هناك اية علاقة سببية بين الحدثين. في المجال العلمي، يجب أن نكون أكثر تنبهاً، فحتى لو ان عدة أشخاص قد تماثلوا للشفاء بعد أن تناولوا دواءً معيناً، فان ذلك لا يثبت ان الدواء هو سبب شفائهم، قد لا يكون مكوناً في الحقيقة إلاّ من الماء والطحين. فإذا تماثلوا للشفاء يكون هناك سبب آخر لشفائهم: قد يكون الايمان بالدواء على سبيل المثال.

– أعتقد أنني بدأت أفهم المقصود بالتجريبية.

– في المجال الأخلاقي، يهاجم هيوم أيضاً نظرية العقلانيين التي تقول إن الفارق بين الخير والشر محفور في العقل البشري، ويدعم الرأي القائل إن العقل البشري ليس هو الذي يحدد ما نقول أو ما نفعل.

– ومن يفعل ذلك اذن؟

– أحاسيسنا. فإذا قررت مساعدة من يحتاجك، تكون أحاسيسك هي التي دفعتك لذلك لا عقلك.

– وإذا لم أفعل؟

– تكون القضية أيضاً قضية أحاسيس. فليس عدم مساعدة محتاج، أمراً صحيحاً أو غير صحيح، بل ببساطة أمر تخلٍّ.

– لا بد من وجود حد، كل الناس يتفقون على انه لا يجوز قتل انسان.

– برأي هيوم اننا كلنا نشعر، بأن خير الآخرين يعنينا.. ونحن نمتلك كل القدرة على الشفقة، لكن ليس لذلك علاقة بالعقل.

– لست على ثقة من ذلك.

– قد يبدو من المفيد أحياناً، ان نزيح أحدهم من الطريق، خصوصاً اذا كنا قد حددنا لأنفسنا هدفاً واضحاً. انها وصفة أثبتت فعاليتها، صدقيني.

– لا .. بهذا أنت تبالغ!

– اذن، فأخبريني، لماذا نترك شخصاً مزعجاً يعيش؟

– لكنه يحب الحياة، ونحن لا نملك حق حرمانه منها.

– هل هذا برهان منطقي؟

– لا أدري

– لقد بنيت على جملة وصفية «انه يحب الحياة» جملة استنتاجية «ليس لنا الحق في قتله» وذاك ما يعتبر من الناحية الشكلية، خللاً، كأن تقولي مثلاً «ان كثيراً من الناس يكذبون في تصريحهم عن دخلهم، لدائرة الضريبة، اذن فلي الحق في أن أغش مثلهم». وبعبارة أخرى: لا يجوز أبدا العبور من عبارة وصفية «هو هكذا» الى عبارة الزامية «يجب»، رغم ان ذلك ما نفعله يومياً في برامجنا السياسية، والاعلامية، حتى خطب المجلس النيابي، فهي محشوة بهذا النمط من التأويل، أتريدين بعض الأمثلة؟

– بالطبع.

– «يوماً فيوماً يزداد عدد الناس الذين يتمنون السفر بالطائرة، اذن يجب انشاء مطارات جديدة» هل هذا استنتاج جيد، برأيك؟

– لا، انه أي كلام، فأين قضية البيئة في كل ذلك؟ وإذا لزم الأمر، فلنطور شبكة القطارات.

– أو «ان حفر آبار نفطية جديدة، سيؤدي الى رفع مستوى المعيشة بنسبة عشرة بالمئة، لذلك علينا أن نسرع في حفرها».

– هذا بله، والبيئة أيضاً؟ أما مستوى الحياة فهو في النروج مرتفع بما يكفي.

– قد يحصل ان نقول «لقد أقر البرلمان هذا القانون، اذن فعلى الجميع أن يخضعوا له»، ومع ذلك فان هذا يتعارض مع رغبة كثيرين لا يريدون الخضوع لقوانين اعتباطية.

– أفهم ما تقصد.

– باختصار، لا يستطيع العقل أن يقول لنا كيف نتصرف، ونحن لا نتصرف كبالغين مسؤولين، بارهاق دماغنا، بل بالاستجابة لقلبنا فقط..

«ليس مخالفاً للعقل ان نفضل تدمير العالم على خمش اصبعنا».

– هذا مرعب!

– اسمعي اليس قلبنا هو الذي يدفعنا لمساعدة المتضررين من زلزال مدمر؟ وإذا لم تكن لدينا أحاسيس وتركنا «عقلنا البارد» يتكلم، ألا يمكن أن يقول لنا إنه ليس من السيىء اختصار عدة ملايين من سكان عالم مهدد بزيادة السكان؟

– ان مجرد التفكير بهذه الطريقة، يدفعني الى الجنون.

– هكذا ترين ان ما صدم ليس عقلك.

– شكراً ، لقد فهمت.

بيركلي

... ككرة سكرى تدور حول شمس
من نار...

نهض البرتو متجها الى النافذة وتبعته صوفي، ولم يلبثا ان شاهدا طائرة صغيرة تحلق فوق السطوح ترفرف عليها لافتة.

توقعت صوفي ان تقرأ عليها اعلانا عن حفل موسيقي لكن الطائرة اقتربت، ولشد دهشتها، قرأت:

« كل التهاني بعيد ميلادك، هيلد».

– انه على عناده.

علق البرتو.

كانت غيوم كبيرة سوداء قادمة من سهول الجنوب قد تجمعت فوق المدينة. فدخلت الطائرة احداها واختفت.

– ثمة عاصفة قادمة. قال البرتو.

– سأستقل الباص عائدة.

– لنأمل الاّ يكون ذلك ايضا من فعل المايجور.

– لكنه ليس كلي القدرة؟

قالت صوفي متسائلة، ولم يجب البرتو الذي عاد الى الجلوس، ليخرج بعد لحظات عن صمته:

– سنتكلم قليلا عن بيركلي.

– انتبهت صوفي، التي كانت قد عادت هي الأخرى الى مقعدها، الاّ انها تقضم اظافرها.

– كان جورج بيركلي اسقفا ايرلنديا... عاش بين عامي: (١٦٨٥-١٧٥٣)م.

– وفيلسوفا ايضا.

ظل البرتو صامتاً لفترة،إلى أن نبهته صوفي قائلة:

– وماذا بعد؟

– كان يحس بأن الفلسفة والعلم يضعان المفهوم المسيحي للعالم موضع الخطأ، وان المادية تتعرض للايمان الذي يقول كيف خلق الله الكون وحفظه حيا.

– حسنا. وبعد

– كان بيركلي الفيلسوف الاكثر تجريبية، الذي مضى الى ابعد الحدود في استنتاجاته.

– لأنه قال إننا لا نستطيع ان نتعرف الى العالم الاّ بحواسنا؟

– ليس ذلك فقط.. لقد برهن على ان الاشياء هي كما نراها تماما، ولكن مع فارق انها ليست «اشياء».

– كيف؟

– تذكرين ان لوك قد الح على اننا لا نستطيع ان نقول شيئا عن *الصفات الثانوية* للأشياء. نحن نستطيع ان نؤكد ان التفاحة خضراء وحامضة، لكن هذا لا يُلْزِم احدا سوانا. وعلى العكس فان الصفات الأولية، كالحجم، والوزن، والكثافة، تنتمي الى العالم الخارجي، الذي له «مادة» فيزيائية.

– انا لم افقد الذاكرة، على ما اظن!

– لقد فكر لوك، بعد ديكارت وسبينوزا، ان العالم الفيزيائي هو حقيقة.

– هكذا!

– اذن، فهذا ما سيضعه بيركلي – كتجريبي استنتاجي – موضع الشك. فبرأيه ان الشيء الوحيد الموجود، هو ما ندركه. ونحن لا ندرك «المادة» او «الجوهر» تحديدا. لا نستطيع ان نمسك العالم بأيدينا وكأنه «شيء» بسيط. وإذا ما انطلقنا من افتراض ان كل ما ندركه هو مظهر لمادة مخْفِيّة، فاننا نرتكب خطأ جسيما، لاننا لسنا بقادرين على تأسيس زعم كهذا.

– ولكن.. انظر.

ضربت صوفي قبضتها على الطاولة، وصرخت:

– آي. الا يكفي هذا برهانا على اننا امـام طاولة تتـألف من مـادة حقيقية؟

– بماذا احسست؟

– بشيء قاس، صلب..

– لديك ادراك جلي لشيء صلب، لكنك لم تحـسـي بمادة الطاولة، نفسها. وهكذا يمكن لك ان تحلمي بأنك اصطدمت بشيء صلب، دون ان يكون ذلك موجودا في حلمك.

– بالتأكيد.. ليس في الحلم.

– يمكن ايضـا التـأثير في ادراك انسـان، كـمـا فـي حـالة التنويم المغناطيسي، حيث يشعر المنوم بالحرارة والبرودة، بالملامسة الهادئة، كما باللكمات.. دون ان يكون شيء منها موجودا.

– لكن، اذا لم تكن الطاولة نفسها شيئا صلبا، فما الذي جعلني احس بالصلابة.

– كان بيركلي يدعي انه *الروح او الارادة*. فلكل افكارنا، بالنسبة له، سبب خارج عن وعينا، لكن هذا السبب هو ذو طبيعة روحية لا مادية.

عادت صوفي تقضم اظافرها. تابع البرتو:

– يرى بيـركلي ان روحي هـي سبب تصوراتي كما في حال الحلم، لكن لا يمكن ان يكون سبب الافكار التي تحدد العالم المادي، الاّ روحا اخرى،او ارادة اخـرى. كل شيء يفيض من الروح «التي تفعل في كل شيء، ويتمثل فيها كل شيء» هكذا كان يقول.

– واي نوع من الروح كان يقصد؟

– طبعا، كان يقصد الله. حتى انه مضى الى القول «إن ادراك وجود الله هو اوضح بكثير من ادراك وجود البشر».

– اذن نحن غير واثقين من وجودنا؟

– اسـمـعي.. كل ما نراه او نحسه هو «نتيجة لقدرة الله» يقول بيركلي، ذاك ان الله موجود في ضميرنا، وهو الذي يبعث هذه الافكار المتنوعة، وهذه التصورات التي نتعرض لها باستمرار».

فالعالم كله، ووجودنا كله، يسكنان بين يدي الله، وهو العلة الوحيدة

لكل ما هو موجود.

– أنت تفاجئني بكل هذا!

– اذن ليس تماماً السؤال «ان اكون او لا اكون» بل يجب ان نتساءل عما نحن، هل نحن كائنات بشرية حقيقية من لحم ودم؟ هل ان عالمنا مؤلف من اشياء حقيقية. ام اننا محاطون فقط بالضمير؟ هنا عادت صوفي تقضم أظافرها بينما أكمل البرتو:

– ذاك ان بيركلي لا يكتفي بالتشكيك بالحقيقة المادية، ولكن بالزمن والفضاء ايضا، اللذين لا وجود مستقلاً لهما. ان رؤيتنا بالزمن وبالفضاء هي شيء غير موجود في ضميرنا. فأسبوع أو أسبوعين لنا ليسا بالضرورة اسبوعا او اسبوعين عند الله...

– قلت ان بيركلي يرى ان هذا الروح الكامن في اصل كل شيء هو الله.

– اجل. لكن بالنسبة لنا...

– ماذا اذن؟

– ... بالنسبة لنا قد تكون هذه «الارادة» او هذه الروح التي تفعل في كل شيء، هي والد هيلد.

صمتت صوفي حائرة، وليس على وجهها كله الاّ تعبير واحد: علامة استفهام كبرى. ثم لملمت نفسها وسألت:

– هل تعتقد انت ذلك؟

– انا لا ارى توقعات اخرى. قد يبدو هذا التفسير الوحيد المقنع. انني افكر بكل ما حصل لنا: البطاقات البريدية، وكل الاحداث الغريبة التي جرت هنا وهناك، كنطق هرمز بالكلام، او كوقوعي انا في الخلط بين الاسمين.

– انا...

– هل انتبهت الى انني ناديتك، صوفي، عزيزتي هيلد.. في حين كنت اعرف منذ البداية ان اسمك ليس صوفي.

– ولكن.. ماذا تخرف؟ هل اضطربت دورة الاشياء عندك؟

– بل انها تدور وتدور، يا ابنتي، ككرة سكرى تدور حول شمس من نار.

– وهل هذه الشمس هي والد هيلد؟

– يمكن ان نفسر الاشياء هكذا.

– هل تقصد انه كان بالنسبة لنا نوعا من الاله ؟

– اجل ودون ان يزعجه ذلك اقل ازعاج.

– وهيلد. اين هي من كل هذا؟

– انها ملاك يا صوفي.

– ملاك؟

– إن هيلد هي من يخاطبه هذا «الروح».

– هل تقصد ان البرت كناغ يتحدث عنا الى هيلد؟

– أو انه يكتب عنا، وكما رأينا الان، كيف يمكن لنا ان ندرك مادة حقيقتنا نحن؟ نحن لا نستطيع ان نعرف ما اذا كان واقعنا الخارجي مكون من موجات صوتية او من ورق كتابة.. وبرأي بيركلي، ان اقصى ما تبلغه معرفتنا هو اننا متكونون من روح.

– وهيلد هي ملاك اذن..

– نعم. لنتوقف هنا.. عيد ميلاد سعيد يا هيلد!

عندها، لمع في الغرفة كلها ضوء ازرق، اعقبه الرعد الذي هز المنزل كله. وسكت البرتو، تائه النظرة.

– يجب ان اعود. قالت صوفي وهي تنهض كان هرمز ينام، كالعادة، تحت المشجب.. وخيل اليها وهي تفتح باب المدخل، انها سمعته يقول:

– الى اللقاء، هيلد.

نزلت السلم بسرعة، وحين وصلت إلى الشارع لم تجد فيه حتى ولا نملة..

بضع سيارات تنزلق على الرصيف المبلول، لكن ليس هناك اية حافلة ركاب.

ركضت حتى ساحة السوق، لتجتاز المدينة كلها، وفي رأسها فكرة واحدة:

غدا، عيد ميلادي. اليس من المؤلم ان يكتشف المرء عشية بلوغه الخامسة عشرة، ان العالم ليس سوى حلم؟

انه لشيء اشبه بأن يربح احدهم ورقة يانصيب قيمتها مليون ليرة، وما ان يمد يده للامساك بالمبلغ، حتى يكتشف انه لم يكن الاّ هواء..

اجتازت صوفي الملعب العائم ماءً ورأت احدهم يركض لملاقاتها. انها امها، والبرق يمزق السماء. شدتها الأم بقوة الى صدرها.

– ما الذي يحصل لنا يا حبيبتي؟

– لا ادري، ردت صوفي وهي تجهش بدموعها، لكأنه حلم سيىء.

بجوركلي

... مرآة سحرية قديمة، اشترتها
جدتها الكبرى من ساحرة...

استيقظت هيلد موللر كناغ في غرفتها المسقفة بالقرب من ليلساند، نظرت الى ساعتها، انها لا تزال السادسة .. رغم ذلك فالنور يملأ المكان، وشعاع الشمس يرسم امواجه على الجدار.

قفزت من سريرها وركضت الى النافذة، وعند مرورها بالمكتب، سلخت صفحة من الرزنامة الصغيرة: الخميس (١٤) حزيران ... جمعت الورقة، في يدها، ودعكتها قليلاً قبل أن ترميها في سلة المهملات.

الآن، اصبح بامكانها أن تقرأ: الجمعة (١٥) حزيران (١٩٩٠) وكانت قد كتبت على هذه الورقة، منذ بداية العام، «١٥ سنة». جميل ان تبلغ الخامسة عشرة في الخامس عشر من الشهر. فلن يتكرر ذلك مرة اخرى في حياتها.

خمس عشرة سنة! اليس هذا اليوم الأول في مرحلة البلوغ؟ اذن فلا مجال للتفكير في العودة الى النوم. ثم انه اليوم المدرسي الاخير قبل العطلة، وقد اتفق الجميع على اللقاء في الكنيسة الساعة الواحدة، لكن الأهم، ان والدها سيعود من لبنان خلال اسبوع. لقد وعدها بان يكون موجوداً في عيد القديس يوحنا.

من النافذة، نظرت هيلد الى الحديقة التي تنحدر نحو مرآب المركب الاحمر. لم يكن المركب قد جُهِّز بعد للفصل القادم، لكن القارب القديم كان مربوطاً على الشاطىء، عليها الا تنسى ان تنزحه بعد طوفان البارحة.

وبينما نظرها يجول في الخليج، لاح في ذهنها، كيف انها استطاعت وهي في السادسة أو السابعة من عمرها، أن تركب القارب بمفردها، وتجدف مبتعدة عن الشاطىء، لكنها لم تلبث أن وقعت في الماء، ولم تنج من الموت إلا

بمعجزة، لتعود الى البيت مبللة من راسها الى اخمص قدميها، عَبَرَتْ العيص الكثيف، وما ان وصلت الى الحديقة حتى وجدت امها تنتظرها بلهفة .. في حين ظل القارب والمجاذيف عائمين وسط البحيرة، لقد اثرت هذه الحادثة كثيراً في حياتها، الى حد انها كثيراً ما تحلم بها.

لم تكن الحديقة منسقة بعناية، ولا زهور تحيط بها، لكنها حديقة كبيرة، وهي حديقة هيلد . وحدها شجرة تفاح وبضع اشجار خوخ استطاعت ان تقاوم قسوة الشتاء.

على العشب الأخضر المقصوص، وبين بضعة صخور واعشاب برية، تنطرح الارجوحة المنسية، وقد جردت من مساندها واقمشتها، مما يزيد منظرها بؤساً، لا شك ان الام قد فعلت ذلك مع تباشير العاصفة.

كانت الحديقة كلها محاطة بالحور مما يحميها من انظار الفضوليين، لذلك اطلق عليها آل بجركلي وصف «في ظلال الحور».

لقد بنى الجد الاول لهيلد هذا البيت في آخر القرن التاسع عشر وكان نقيباً على احدى السفن الكبرى، لذلك ما زال الكثيرون يعرفون هذا المنزل باسم «سرادق النقيب».

اما في هذا الصباح فلا تزال الحديقة تحمل آثار عاصفة الامس التي جعلت هيلد تستيقظ عدة مرات في الليل على اصوات الرعد، لكن السماء تبدو الآن صافية تماماً وكان شيئاً لم يكن.

بعد مطر الصيف هذا، يصبح الهواء نقياً جداً بعد ان كان الطقس حاراً وجافاً طوال الاسابيع الماضية. وقد حملت اشجار الحور آثار ذلك حيث طغى اصفرارٌ خفيف على أطراف أوراقها. الآن يبدو العالم وكأنه نفخة جديدة وتشعر هيلد ان العاصفة قد غسلتها من كل طفولتها، «أجل، تتوجع البراعم عندما تتفتح»، يقول مطلع قصيدة سويدية مشهورة، اذا لم تكن هذه القصيدة فنلندية.

وقفت هيلد أمام المرآة البرونزية الكبيرة التي ورثتها عن جدتها. هل هي جميلة؟ انها على أية حال ليست بشعة. اه، عليها ان تصنف نفسها في

الوسط ... ان لها شعراً طويلاً اشقر لكنها تمنت دائما ان يكون لونه افتح أو اغمق من ذلك فهذا اللون المتوسط بين الاثنين غير مثير. لكن لشعرها بالمقابل تجعيدات عريضة تحسدها عليها معظم صديقاتها اللواتي يحاولن الحصول على ذلك باستعمال اللفافات، في حين تتمتع هيلد بهذه الحركة الطبيعية. اما عيناها فاي اخضرار غضٍ جميل:

«كيف امكن ان تكونا خضراوين لهذه الدرجة؟»

هذا هو السؤال الذي اعتادت أن تسمعه من عماتها وخالاتها واعمامها وهم يحتضنونها.

تحاول هيلد أن تتبين ما اذا كانت الصورة التي في المرآة صورة فتاة أو امرأة شابة، ووصلت الى انها ليست هذه ولا تلك .. فجسدها يمكن أن يكون جسد امرأة لكن وجهها لا يزال املس جداً ومستديراً جداً.

ثمة شيء في هذه المرآة يدفعها بعنف للتفكير بابيها. فقد كانت هذه المرآة سابقاً معلقة في المحترف، والمحترف هو تلك الغرفة الواقعة فوق مرآب المركب والتي كان الأب يستعملها مكتبة ومكان استقبالاً خاصاً ومكتباً. فقد كان البير، كما كانت تناديه هيلد عندما كان في البيت، يحلم دائما بان يكتب يوماً عملاً كبيراً. وقد بدأ فعلاً بمشروع رواية لكنه لم يلبث ان تخلى عنه، ورغم ذلك فقد نشر في احدى الصحف المحلية وعلى فترات متقطعة بعض القصائد والنصوص المتعلقة بالحياة في الارخبيل. وفي كل مرة كانت هيلد تشعر بالفخر وهي ترى اسمه مطبوعاً: البرت كناغ على اية حال ان لهذا الاسم وقعاً خاصاً في ليلساند مذ كان اسماً لجده الاول.

اه، هذه المرآة ... قبل سنوات قال لها ابوها مازحاً انه يمكن لنا ان نغمز باحدى عينينا لصورتنا في المرآة لكنه من غير الممكن ان نغمز بالعينين معاً. إلا ان هذه المرآة وحدها هي الاستثناء حسب علمه، لانها مرآة سحرية اشتراها جده الاول من امرأة ساحرة بعد زواجه مباشرة.

عبثاً حاولت هيلد ان تفعل ذلك. فلقد بدا من الصعوبة بمكان ان ترى نفسها وهي تغمز بعينيها، وانتهت الى أن تعلق المرآة عندها دون ان يمر

شهر واحد ولا تكرر المحاولة.

ليس من المستغرب ان تكون اليوم ساهمة مفكرة وأن تكون لديها الرغبة في ان تعرف من تكون ... خمسة عشر عاماً ..

اخيراً القت نظرة على طاولة المساء فرات طرداً كبيراً ملفوفاً بورقة زرقاء فاتحة جميلة ومربوطاً بشريط حريري احمر؛ انه ولا شك هدية عيد ميلادها!

أهذه هي «الهدية»؟ هذه الهدية الشهيرة التي اشار اليها عدة مرات؟ والتي المح اليها عدة مرات ايضاً في بطاقاته المرسلة من لبنان؟ ولكن الم يقل انه يفرض على نفسه رقابة قاسية»؟ لقد كتب يقول ان «الهدية هي شيء لا يتوقف عن النمو». وذكر فتاة سوف تتعرف اليها، وكان قد ارسل لها نسخاً مطابقة من البطاقات.

كثيراً ما حاولت هيلد ان تستنطق امها ولكن عبثاً اذ يبدو انها لا تعرف شيئاً.

الأكثر غرابة في الأمر تلك الملاحظة التي تقول إنه يمكن تقاسم هذه الهدية مع اشخاص آخرين. آه، ليس من قبيل المصادفة ان يختار ابوها العمل مع الأمم المتحدة، واذا كان ثمة فكرة ثابتة لديه فهي انه على الامم المتحدة ان تمارس مسؤولية تشمل العالم كله. «لو ان الامم المتحدة تستطيع ان تجمع البشر كلهم»، كتب لها يوماً على احدى بطاقاته!

لديها رغبة قوية في فتح الهدية قبل ان تأتيها امها بصينية الفطور متمنية لها عيداً سعيداً. لا بد ان لها الحق في ذلك وإلا فلماذا وضعوها هنا؟

تناولت هيلد الطرد الكبير، كم هو ثقيل! البطاقة التي عليه تقول: «من ابيك في عيد ميلادك الخامس عشر». جلست على السرير وراحت تفك بلطف الشريط الحريري الاحمر ثم الورقة الزرقاء، انها حافظة اوراق كبيرة!

اذا فهذه هي هديته! هذا ما اقلق الدنيا به! هذه هي الهدية الشهيرة التي لا تتوقف عن النمو، والتي تستطيع ان تتقاسمها مع الآخرين؟

لكن نظرة سريعة الى الحافظة جعلتها تنتبه إلى انها مليئة بورق مطبوع على الآلة الكاتبة، تعرفت فيه الى خط آلة ابيها التي حملها معه الى لبنان.

عساه لا يكون قد كتب لها كتاباً كاملاً!!! على الصفحة الأولى عنوان بخط اليد:

«عالم صوفي»

وتحته بقليل، وبخط الالة هذه المرة:

«الذي لا يعـــرف أن يتـــعلم دروس الثـــلاثة آلاف سنة الأخيرة، يبقى في العتمة!»

«غوته»

قلبت هيلد الصفحة ليبدأ في اعلى الصفحة التالية الفصل الأول بعنوان: «جنة عدن» جلست في سريرها واضعة الملف على ركبتيها وراحت تقرأ:

«عادت صوفي امندسون من المدرسة، وكانت قد قطعت شوطاً من الطريق برفقة جورون. تحدثتا عن الانسان الآلي وكانت جورون ترى أن الدماغ البشري هو جهاز منظم متطور، أما صوفي فتشعر أنها لا توافقها الرأي. فلا يمكن ان نحصر الكائن البشري بمجرد آلة، اليس كذلك؟»

تابعت هيلد القراءة ولم تلبث ان نسيت كل شيء آخر حتى عيد ميلادها إلاّ فكرة واحدة ظلت تقطع بين فينة واخرى حبل القراءة: «هل كتب والدها رواية؟ هل انه تفرّغ اخيراً لروايته الكبرى وانجزها في لبنان؟ لطالما تذمر من ساعات الفراغ الطويلة هناك.

كانت صوفي تسافر ايضاً عبر تاريخ العالم ولا شك انها هي التي أرادها أبوها ان تلتقيها ..

«عندما كانت تتقبل فكرة انه يمكن لحياتها ان تنتهي يوماً كانت تشعر على الفور كما لم تشعر أبداً من قبل، أيّ حظ استثنائي ان تكون حية ... من أين جاء العالم؟ ... كان لا بد في لحظة معينة أن ينبثق شيء

من العدم ولكن هل يمكن ادراك ذلك؟ أليس من المستحيل أيضاً تخيل فكرة عالم موجود منذ الأزل؟»

راحت هيلد تقلب الصفحات واحدة اثر اخرى، وقفزت عندما وصلت الى المقطع الذي تتلقى فيه صوفي بطاقة من لبنان مرسلة الى: «هيلد مولر كناغ، بوساطة صوفي امندسون، ٣ زقاق النفل ..»

«عزيزتي هيلد:

اتمنى لك اشياء كثيرة جيدة في عيد ميلادك الخامس عشر، وكما تعلمين انا احرص على أن أقدم لك هدية تجعلك تكبرين.

سامحيني اذا كنت أرسل البطاقة لصوفي، فذاك ملائم أكثر».

اقبلك، أبوك

الخبيث! كانت هيلد تعرف دائما ان في جعبة ابيها اكثر من حيلة، لكنه يفاجئها اليوم منذ ان فتحت عينيها وكيف؟! بدلاً من ان يدس البطاقة في الطرد فهو يدخلها في روايته، وصوفي المسكينة هذه، انه لشيء يفقد الصواب.

«ما هو هدف أبٍ ما من إرسال بطاقة معايدة إلى عنوان صوفي في حين انه من الواضح أن البطاقة مرسلة لفتاة أخرى؟ أي أب تراوده هذه الفكرة السيئة بحرمان ابنته من بطاقة عيد ميلادها بارسالها الى عنوان آخر؟ ولماذا كان الامر ملائماً اكثر هكذا، والاهم من ذلك كيف يمكن العثور على هيلد هذه؟»

كيف ستتدبر الامر؟ قلبت هيلد الصفحة وبدات بقراءة الفصل التالي المعنون «القبعة العالية»، وعندما وصلت الى المقطع الذي يكتب فيه الرجل المجهول رسالة طويلة الى صوفي حبست انفاسها.

«اذاً ليست الرغبة في معرفة لماذا نعيش اهتماماً عارضاً كالاهتمام بجمع الطوابع، والذي يطرح على نفسه هذا النوع من الاسئلة يلتقي بذلك مع اهتمامات كل الاجيال التي سبقته، اصيبت صوفي بدهشة عميقة ...

لكن هيلد لم تدهش، الم يكتف ابوها بتاليف كتاب لعيد ميلادها الخامس عشر، لقد كتب واحداً من اكثر الكتب غرابة وسحراً.

«باختصار: ان أرنباً أبيض يخرج من قبعة الساحر. ولأنه أرنب ضخم، فإن جلسة السحر هذه ستحتاج الى مليارات السنين. كل أطفال البشر يولدون على طرف الشعرات الدقيقة في فروته، مما يجعلهم يدهشون مباشرة من جلسة الشعوذة المستحيلة، ولكنهم يكبرون ويغرقون أكثر فأكثر في عمق فروة الأرنب حيث يمكثون».

لم تكن صوفي هي الوحيدة التي تشعر بانها تكاد تغرق في دفء فروة الأرنب الأبيض، ها هي هيلد تبلغ الخامسة عشرة وقد حان الوقت لتختار طريقها.

قرات الفصل الذي تناول فلاسفة ما قبل السقراطية، ولم يكن من المستغرب او الجديد ان يهتم ابوها بالفلسفة فقد سبق ونشر مقالاً في الصحيفة يطالب فيه بجعل الفلسفة مادة الزامية في المدارس تحت عنوان «لماذا يجب فرض الفلسفة في المناهج» ثم تجرا وطرح الموضوع علناً في اجتماع للاهالي في المدرسة.

نظرت هيلد الى ساعتها، انها السابعة والنصف، لحسن الحظ لا يزال امامها ساعة كاملة تتابع فيها مغامرات صوفي وتغرق في هذه المسائل الفلسفية قبل ان تحمل لها امها فطور العيد الى السرير .. هكذا استطاعت ان تقرا فصل ديمقريطس، حيث كان على صوفي ان تحل السؤال الأول: «لماذا تكون لعبة الليغو اللعبة الاكثر عبقرية في العالم؟» وحيث وجدت بعدها

مظروفاً كبيراً اصفر في صندوق البريد.

كان ديمقريطس متفقاً مع سابقيه في كون التغيرات المنظورة في الطبيعة، ليست نتيجة «تحول» طبيعي. وهو يفترض انه لا بد ان يكون كل شيء مركباً من عناصر صغيرة جداً، كل عنصر بمفرده هو دائم وابدي. وكان ديمقريطس يسمي هذه الاجزاء البالغة الدقة: ذرات.

أحست هيلد بالانزعاج عندما وصلت الى حيث تجد صوفي منديلها الاحمر على السرير. اه .. اذن فقد خبّىء هناك! لكن، لا يمكن ان يظهر منديل هكذا في قصة، اذ يجب ان يكون موجوداً في الحقيقة .. لقد بدا فصل سقراط بعبارة صحيفة كانت صوفي تقرؤها، بضعة اسطر عن الوحدة النرويجية في جنوب لبنان، وعليها توقيع «والدك»، حيلة اخرى! طالما تذمر من كون المواطنين النرويجيين لا يولون الاهتمام الكافي للدور السلمي الذي تقوم به الامم المتحدة ... ولا تخرج صوفي عن ذلك. انها واحدة من طرائق جذب اهتمام الاعلام.

لم تتمالك هيلد نفسها من الابتسام وهي تقرا الملاحظة الواردة في اخر رسالة الفيلسوف:

اذا كنت قد وجدت منديلاً حريرياً احمر، فأرجوك العناية به. اذ يحصل أحياناً أن تصل أشياء الى غير أصحابها، عن طريق الخطأ، خصوصاً في المدرسة أو في أماكن مشابهة، ولا تنسي أننا في مدرسة فلسفة.

سمعت هيلد حركة على السلم لا بد انها امها تصعد ومعها الفطور. عندما طرقت الباب كانت هيلد قد وصلت الى حيث تجد صوفي شريط الفيديو عن اثينا في الحديقة.

- «عيد ميلاد سعيد، عيد ميلاد سعيد»

وكانت الأم قد بدات تدندن وهي على السلم اغنية العيد التقليدية.

– تفضلي يا أمي.

قالت هيلد وهي تقرأ ما قاله استاذ الفلسفة لصوفي من على الاكروبول. وكان يشبه والد هيلد، شبهاً مذهلاً بلحيته السوداء المشذبة بعناية، وطاقيته الزرقاء.

– كل عام وانت بخير!

– ام .. همهمت هيلد دون أن تجيب.

– ما بك؟

– شكراً، ضعي الصينية هناك.

– الا تريدين الطعام؟

– الا ترين انني مشغولة؟

– انه عيد ميلادك، اليوم بلغت الخامسة عشرة!

– هل ذهبت يوماً الى اثينا يا أمي؟

– لا .. ولماذا هذا السؤال؟

– انه لمن المثير للعجب حقاً أن تصمد هذه الهياكل القديمة واقفة طوال الفين وخمسمئة سنة، المعبد الاكبر يسمى «مسكن العذراء».

– هل فتحت هدية ابيك؟

– اية هدية؟

– هيلد! انظري الي عندما أخاطبك! يبدو انك لست على ما يرام.

افلتت هيلد الملف الكبير على ركبتيها.

وانحنت الام على السرير، تضع صينية الافطار وعليها شمعة صغيرة مضاءة، الى جانب كاس العصير، والطعام، ورزمة صغيرة .. بينما حملت العلم النرويجي تحت ابطها.

– شكراً يا ماما، هذا لطف منك، لكنني فعلاً مشغولة ..

– ولكن اليس عليك ان تكوني في الكنيسة قبل الساعة الواحدة؟

لم تعد هيلد الى نفسها إلاّ عندما طرحت أمها السؤال الأخير، وهي تضع الصينية على الطاولة المجاورة للسرير.

– اعذريني، كنت غارقة في هذا ..

واشارت الى الملف مضيفة:

– انه من ابي ..

– حسناً، ماذا كتب لك؟ انا اكثر فضولاً منك، فمنذ عدة اشهر لم احصل منه على كلمة ملموسة.

– هذا ليس سوى قصة.

– قصة؟

– اجل قصة، وكتاب فلسفة في آن واحد، شيء من هذا القبيل.

– وهديتي انا، الا تريدين ان تعرفي ما هي؟

احست هيلد بانه من غير اللائق التعبير عن تفضيلها لهدية ابيها، فاسرعت تفتح الرزمة، واذ فيها اسورة ذهبية.

– آه انها رائعة. الف شكر!

قالت ذلك وهي تقفز الى عنق امها معانقة، قبل ان تستانف:

– امي، ارجوك ان تذهبي، انه يقف في هذه اللحظة على قمة الاكروبول.

– عم تتكلمين؟

– لا اعرفه. وصوفي مثلي. هنا تكمن الاثارة.

– حسناً، علي ان اذهب الى المكتب. لا تنسي ان تاكلي. فستانك في الطابق الاسفل.

اخيراً نزلت الام. وكان استاذ الفلسفة ينزل ايضاً من على الاكروبول، ويجلس على جبل الاريوباج قبل ان يظهر من جديد في الساحة العامة في اثينا؛ تذكرت فكرة ابيها الثابتة: «على كل الدول الاعضاء في الامم المتحدة ان تعيد معاً بناء نسخة كاملة لساحة اثينا، تكون مكاناً ملائماً تماماً لادارة الصراعات الفلسفية، وربما لمناقشة موضوع نزع السلاح. ويجعلنا نتوصل الى بناء ارصفة نفطية ومراكب فضائية تحملنا الى القمر»، هذا ما كان يعتقده.

بعدئذٍ قرات هيلد ما كتبه ابوها عن افلاطون ..

«على اجنحة الحب، تعود النفس الى مسكنها في عالم الافكار وتتحرر من سجن الجسد ...»

وكيف ان صوفي قد خرجت من مخبئها، اولاً للحاق بهرمن لكنها فقدت اثره، فعادت تقرأ افلاطون، ثم عادت مرة اخرى الى الغابة حيث اكتشفت بحيرة صغيرة، وعلى شاطئها منزل صغير احمر، في داخله لوحة لبجركلي، ولوحة اخرى تمثل رجلاً يدعى بيركلي. كان واضحاً انه منزل هيلد. اية مصادفة غريبة؟

وضعت هيلد الملف جانباً، ونهضت الى الموسوعة الفلسفية التي تلقتها هدية عيد ميلادها الرابع عشر. تبحث عن اسم بيركلي ... ها هو!

«بيركلي، جورج (١٦٨٥ - ١٧٥٣). فيلسوف انكليزي، اسقف مدينة كلوين. ينكر وجود عالم مادي، خارج الوعي الانساني، ويرى أن كل ادراكاتنا تأتي من الله، وهو معروف أيضاً بنقده للتجريد بكل أشكاله. اثره الرئيس: «اطروحة حول مبادىء المعرفة الانسانية ١٧١٠».

انه لشيء مثير ومربك حقاً، ظلت هيلد لفترة على الأرض تفكر، قبل ان تعود الى سريرها وتستانف القراءة.

ان اباها هو من علق هاتين اللوحتين. ولكن هل يقتصر التشابه على الأسماء؟

لقد كان بيركلي اذن فيلسوف ينكر وجود عالم مادي خارج عن الوعي الانساني. يمكن لنا ان نؤكد وجود كل الأشياء، ولكن ان ننكر وجودها فتلك قضية اخرى. ان صوفي هي خير مثال على ذلك طالما ان كل ادراكاتها للعالم الخارجي، ما هي إلا ثمرة خيال والد هيلد.

يجب ان تقرأ البقية بسرعة. وها هي تصل الى حيث تغمز الفتاة بعينيها معاً.

لكان الفتاة الاخرى غمزت بعينيها لصوفي، كأنما لتقول: انا اراك

صوفي! انا هنا من الجهة الاخرى.

وهنا عثرت على المحفظة الخضراء! ما الذي جاء بها الى هناك؟

انه لأمر غير معقول! ولمدة ثوان، اعتقدت هيلد ان صوفي قد عثرت فعلاً على محفظتها، لكن الامر مجرد خدعة .. تمنت ان تكون مكان صوفي، فكل شيء بالنسبة لها غير مفهوم، لكنه مبهر.

لأول مرة احست هيلد بالرغبة في رؤية وجه صوفي.

لكن هذه الاخيرة كانت مضطرة الى مغادرة الشاليه بسرعة كي لا تمسك بالجرم المشهود. ومعروف ان القارب قد انزلق الى البحيرة، مما يدل على انه لم ينس هذه الحكاية هو الآخر!

شربت هيلد جرعة من العصير، وبدات تلتهم ساندويشتها، وهي تتابع القراءة عن ارسطو «رجل النظام» الذي تجرأ على انتقاد نظرية الافكار لدى افلاطون.

يرى ارسطو ان ما من شيء يمكن أن يوجد في الوعي قبل أن تكون حواسنا قد أدركته. لقد قال افلاطون ان ما من شيء في الطبيعة إلا وكان موجوداً قبلاً في عالم الأفكار. ويرى أرسطو ان افلاطون انما يضاعف بذلك عدد الأشياء.

اما بالنسبة للعبة تصنيف الكائنات فان هيلد لم تشك لحظة، بانها مدينة بها لارسطو، طالما انه هو من أرسى التمييز بين «العالم النباتي، العالم الحيواني والمعدني».

لقد كان أرسطو يريد إعادة ترتيب غرفة الصبية – الطبيعة، واهتم بان يبرهن على أن كل الأشياء في الطبيعة تنتمي الى مجموعات مقسمة بدورها الى مجموعات أصغر.

اما بالنسبة لنظرة ارسطو الى المراة، فقد احست انها تصدمها بقدر ما

تستفزها. كيف يمكن لفيلسوف بهذا الاتساع ان يتبنى تفاهات كهذه!؟

لكنه استطاع، رغم ذلك، ان يحرك رغبة صوفي في اعادة ترتيب غرفتها، وهكذا وجدت فردة الجوارب التي اضاعتها صوفي من خزانتها قبل شهر.

كانت صوفي قد جمعت كل اوراق البرتو في ملف - اكثر من خمسين صفحة - اما هي، هيلد، فقد وصلت الى الصفحة (١٢٤)، لان عليها ان تقرا قصة صوفي كلها، اضافة الى دروس البرتو كنوكس.

«الهللينية» عنوان الفصل التالي. لقد بدأ كل شيء باكتشاف صوفي لبطاقة بريدية عليها صورة سيارة جيب تابعة للامم المتحدة. وكان ختم البريد يشير الى (٦/١٥) وحدة الامم المتحدة. اه. بطاقة اخرى، فضل ابوها ان يدسها في القصة بدلا من ان يرسلها لها بالبريد.

عزيزتي هيلد

افترض ان عيد ميلادك لم يمر. وإلاّ يكون موعده غداً! أتمنى أن تصلك بطاقتي في اليوم ذاته، وليس المهم معرفة كم من الوقت ستستفيدين من هذه الهدية، لأن ذلك سيدوم طوال حياتك. انن دعيني أتمنى لك عيداً سعيداً. أعتقد أنك فهمت لماذا أرسل البطاقات الى صوفي، لأنني على ثقة عميقة من انها ستنقلها لك.

ملاحظة: قالت لي أمك انك أضعت محفظتك، وأعدك بأن أعطيك (١٥٠) كوروناً سويدياً لشراء غيرها. اما بالنسبة لبطاقتك المدرسية فيمكنك ان تحصلي بسهولة على بدل منها من المدرسة قبل العطلة الصيفية.

والدك الذي يقبلك بحنان

لا باس، فقد ربحت بهذه اللعبة مئة وخمسين كوروناً. ولا شك انه فكر في ان هديته لن تكون كافية.

ان (١٥) حزيران هو يوم عيد ميلادها، لكن صوفي لا تزال في (١٥) ايار. ولا بد ان اباها قد حرر هذا الفصل في ذلك الوقت. لكنه ارخ بطاقة المعايدة لهيلد.

مسكينة صوفي، انها تركض للقاء جورون امام المركز التجاري:

من هي هيلد؟ كيف يستطيع أبوها ان يكون واثقاً من ان صوفي ستجدها؟ على أية حال انه لأمر عبثي ان يرسل الاب البطاقات اليها بدلاً من ارسالها الى ابنته.

احست هيلد، ايضاً، بانها تحلق في الهواء وهي تقرا عن افلوطين:

ان كل ما هو موجود يشترك في السر الالهي. ونحن نرى شيئاً يلتمع في أعماق زهرة دوار الشمس، أو زهرة لا «تنسني»، برية. ومثلهما تجعلنا فراشة تطير من زهرة الى أخرى، أو سمكة حمراء تسبح في إناء، نحس بهذا السر الخفي. لكننا نستطيع، بفضل روحنا، أن نقترب أكثر ما يمكن من الله. وعندها نتوحد مع سر الحياة الكبير. وقد يحصل لنا أحياناً أن نشعر بأننا نحن هذا السر الالهي ذاته.

ان هذا هو الاكثر غرابة في كل ما قرأته هيلد حتى الآن. لكنه ايضاً الاكثر بساطة. الكل واحد وهذا هو سر الهي يشارك فيه الكل.

اننا لسنا بحاجة حقيقية للايمان به. انه هكذا، نقطة وكفى. ويظل لكل مطلق الحرية في تفسير هذا «السر الالهي كما يفهمه».

بسرعة قلبت الفصل التالي، حيث ذهبت صوفي وجورون للتخييم عشية العيد الوطني وزارتا شاليه مايجور.

بعد بضع صفحات، قفزت من سريرها غاضبة، وراحت تذرع الغرفة حاملة الملف تحت ابطها:

هنا الطامة الكبرى، لقد جعل ابوها الفتاتين تعثران في الشاليه على نسخ من كل البطاقات التي تلقتها في الايام الخمسة عشر الأولى من شهر ايار. اعادت هيلد قراءة البطاقات عدة مرات: انها عبارات ابيها التي تعرفها جيداً..

عزيزتي هيلد

مللت من كل هذا التكتم حول هدية عيد ميلادك، بحيث صرت أقاوم رغبة تراودني عدة مرات في اليوم الواحد، في أن أكلمك هاتفياً لأوضح لك، انها شيء لا يتوقف عن النمو، وككل شيء يصبح أكبر فأكبر، فإنه يصبح من الصعب الاحتفاظ به لأنفسنا فقط ...

بعد هذه الرسالة، درس جديد لصوفي عن اليهود، اليونان والثقافة اليهودية – المسيحية. احست هيلد بالسعادة وهي تنظر الى التاريخ من هذه الزاوية. كما لا يُدرّس ابداً في المدرسة. فهناك يُدرّس كتراكم بسيط لتفاصيل، تستدعي تفاصيل اخرى الى ما لا نهاية. ومع نهاية هذا الفصل احست بانها تفهم الآن اهمية المسيح والمسيحية.

كانت تحب كثيراً عبارة غوته القائلة بان «الذي لا يعرف ان يتعلم دروس الثلاثة آلاف سنة الأخيرة، يبقى في العتمة».

الفصل التالي، بدأ بالورقة التي حملها الهواء، والصقها بزجاج نافذة صوفي، انها بدون شك بطاقة معايدة جديدة موجهة لهيلد:

عزيزتي هيلد

لا أدري ما اذا كنت ستقرئين هذه الرسالة يوم عيد ميلادك.

على أية حال أمل ألا تصل بعد هذا الموعد بكثير.

ومع ذلك فان مرور أسبوع أو أكثر عليه لا يعني انها الاسابيع ذاتها التي تمر بالنسبة لنا، سأعود مساء عيد القديس يوحنا وسنجلس معاً على الأرجوحة في الحديقة نتأمل البحر.

هيلد ان لدينا كلاماً كثيراً نقوله.

ثم جاءت مكالمة البرتو الهاتفية مع صوفي، حيث سمعت صوته للمرة الأولى.

– من يسمعك تتكلم يظن انك تتكلم عن حرب.

– بل أقول صراع أفكار. علينا أن نحاول اثارة اهتمام هيلد. وان نجعلها في صف قضيتنا، قبل ان يعود والدها الى ليلساند.

بعدها تلتقي صوفي بالبرتو كنوكس متنكراً في زي راهب من القرون الوسطى، في الكنيسة القديمة العائدة للقرن الثاني عشر.

اه. الكنيسة .. نظرت هيلد الى ساعتها .. انها الواحدة والربع .. لقد فقدت حسها بالزمن.

الحق، انه ليس في الامر ماساة، اذا ما تخلفت عن الكنيسة يوم عيد ميلادها. لا، ثمة شيء آخر يعكر مزاجها: انها تضيق بكل هذه التهاني بالعيد .. هذا كثير!

تابعت قراءة عظة البرتو الطويلة. ولم تجد اية مشكلة في ارتدائه ثوب الراهب.

عندما قرأت المقطع الذي يتحدث عن تجلي صوفيا لهيلدغارد، اضطرت الى العودة الى الموسوعة. لكنها لم تجد اثراً لأي من هذين الاسمين. هكذا هو الحال دائماً، فكلما تعلق الامر بامرأة او بشيء مؤنث، اصيبت الموسوعة بالخرس. فهل ان مجلسا للحماية الذكورية، قد قام بمراقبة الموسوعة؟

لقد كانت هيلد غارد دو بينجن راهبة، كاتبة، طبيبة، عالمة نبات، وعالمة طبيعة. وكانت اضافة الى ذلك «رمزاً للدور المميز للمرأة، الاكثر قرباً من اشياء الطبيعة، على الصعيد العلمي، خلال القرون الوسطى» ورغم ذلك فلا يوجد سطر واحد عنها في الموسوعة. اية فضيحة!

لم تسمع هيلد ابداً، اي حديث عن «الجانب الانثوي» في الله، او عن «طبيعة الأمومة» فما يسمى «صوفيا» لم يستحق سطراً واحداً. اللهم إلاّ ذكر كنيسة «ايا صوفيا» في القسطنطينية، وتعني «ايا صوفيا» «الحكمة المقدسة». ورغم ان عاصمة وعدة ملكات قد حملوا اسمها، و«حكمتها» بشكل ما، فليس ثمة كلمة تذكر ان هذه الحكمة هي في الاساس انثوية. ونقول ان تلك ليست رقابة؟

انها لصيغة جيدة أن نقول ان صوفي هي «النظرة الداخلية» لهيلد. ان هيلد تشعر باستمرار انها ترى امامها هذه الفتاة ذات الشعر الأسود ...

بعد ليلة كنيسة القديسة مريم، عادت صوفي لتقف امام المراة التي اخذتها سابقاً من الشاليه.

«في البدء لم تر إلاّ وجهها بملامحه المشدودة، ثم لم يلبث أن خيل لها ان وجهاً آخر يرتسم بملامحه الغامضة من خلال وجهها.

تنفست شهقتين عميقتين محاولة ان تبقي رأسها هادئاً.

لكن صورة فتاة أخرى، كانت تطل من وراء وجهها الشاحب، المحاط بشعر أسود، مستعصٍ على أية تسريحة إلاّ تلك التي منحته اياها الطبيعة: شعر أملس يتهدل مستقيماً، بكل طاقتها راحت الفتاة المجهولة تغمز بعينيها كأنها تريد بذلك ان تنبه الى حضورها، لحظة، اختفت بعدها بسرعة».

كم من المرات حاولت هيلد ان ترى في المراة صورة غير صورتها؟ ولكن، يا للشيطان! كيف استطاع ابوها ان يعرف كل ذلك؟ الم تكن هي تبحث عن امراة ذات شعر أسود؟ لقد اشترت جدتها الكبرى هذه المراة من امراة ساحرة ..

عندها امسكت هيلد بالملف من جديد، اخذت يداها ترتجفان: وبدا لها ان صوفي موجودة في مكان ما، من الجهة الأخرى.

وصلت الى حيث تحلم صوفي بهيلد وبـ بجركلي .. وها هي تكتشف سلسلة وصليب هيلد في الحلم ثم تعود لتجدهما تحت مخدتها، بعد أن تستيقظ ..

ان هذا يستحق التامل .. هل اضاعت هي سلسلتها وصليبها؟

نهضت الى علبة مجوهراتها، ووجدت فعلاً أن السلسلة والصليب اللذين اهدتهما لها جدتها بمناسبة عمادها، غير موجودين! ولكن كيف عرف والدها ذلك في حين لم تكن هي نفسها تعرف!

لم يكن هذا كل شيء: لقد حلمت صوفي بعودة والد هيلد من لبنان، ولا يزال على موعده اسبوع واحد. فهل يعني ذلك ان صوفي ستكون هنا حين ياتي؟ لقد كتب مرة شيئاً عن صديقة جديدة ..

فجاة احست هيلد ان صوفي ليست كائناً من ورق وحبر وانما من لحم ودم: انها موجودة فعلاً.

عصور التنوير

... من طريقـــة صنع ابرة، الى
طريقـــة تنويب مـــدافع...

شرعت هيلد بقراءة فصل عصر النهضة. عندها سمعت خطوات امها العائدة الى البيت، فنظرت الى ساعتها واذا هي الرابعة.

صعدت الأم السلم بسرعة كبيرة، ودفعت الباب قائلة:

– الم تذهبي الى الكنيسة؟

– بلى

– وماذا ارتديت؟

– ما ارتديه الآن ..

– ماذا.. لن تقولي لي انك ذهبت بقميص النوم؟

– امي .. لقد ذهبت الى كنيسة العذراء مريم ..

– كنيسة العذراء؟ ..

– اجل، انها كنيسة حجرية كبيرة تعود الى القرون الوسطى.

– هيلد!

تركت الملف على ركبتيها، ونظرت الى امها بهدوء:

– لم انتبه ابداً لمرور الوقت .. انا آسفة يا امي، لكن عليك ان تفهمي انني اقرا شيئاً مثيراً للغاية.

ارتسمت ابتسامة على وجه الأم، وتابعت هيلد:

– انه كتاب سحري.

– حسناً، عيد ميلاد سعيد يا هيلد!

– اف .. لقد بدات اضيق بكل هذه التهاني.

– حسناً .. سانزل لاتمدد قليلاً قبل ان ابدا بتحضير الطعام، لقد وجدت فراولة جيدة في السوق.

– وانا ساتابع القراءة.

اختفت الأم من جديد، وتابعت هيلد القراءة.

وصلت الى حين تتبع صوفي هرمز في شوارع المدينة، ثم تعثر على بطاقة جديدة مرسلة من لبنان في سلم بيت البرتو، ومؤرخة بتاريخ (٦/١٥).

اخيراً فهمت نظام التواريخ: فكل البطاقات المؤرخة بما قبل (١٥) حزيران، هي نسخ عن بطاقات تلقتها هيلد. اما تلك المؤرخة بتاريخ اليوم (١٥)، فهي تقرأها الآن للمرة الاولى.

عزيزتي هيلد

الآن تصل صوفي الى منزل أستاذ الفلسفة.. وستبلغ قريباً الخامسة عشرة من عمرها، في حين بلغتها انتِ أمس. اذا لم يكن اليوم، صغيرتي هيلد؟

اذا كان اليوم، ففي ساعة متأخرة من النهار، ذاك ان ساعاتنا ليست مضبوطة على التوقيت ذاته...

قرأت هيلد كيف قدم البرتو لصوفي عصر النهضة، الفلاسفة العقلانيين في القرن السابع عشر، والتجريبيين البريطانيين. وكانت تقفز كلما مرت ببطاقة جديدة، أو بتمنٍ يتعلق بعيد ميلادها، اوصلها ابوها بالحيلة والسحر بدءاً من تلك التي دسها في دفتر المدرسة او الموزة وانتهاءاً بالحاسوب.

كما توصل الى السيطرة على لسان البرتو، وجعله يقول هيلد بدلاً من صوفي. وقمة الغرابة انه جعل هرمز ينطق ليقول «عيد ميلاد سعيد يا هيلد!».

أحست انها تتفق مع البرتو في اعتباره ان اباها يبالغ عندما يقارن نفسه بالله والعناية الالهية. لكنها لم تدر مع من تتفق هي في اعماقها؟ أليس ابوها هو الذي وضع عبارات اللوم هذه على لسان البرتو؟ واخيراً أليس هذا التوازي مع الله مضحكاً، طالما ان والدها يلعب في نظر صوفي دور اله كلي القدرة.

عندما وصلت الى بيركلي احست بالاهتمام ذاته الذي احست به صوفي قبلها. ما الذي سيحدث الآن؟ لقد ذكر اسمها عدة مرات، مما يعني ان شيئاً حاسماً يحصل، مع هذا الفيلسوف الذي انكر وجود عالم مادي خارج الوعي

الانسـاني. وهنا حـاولت هيلد ان تبحث من جديد في الموسـوعة، لكن عبثـاً فليس هناك ما يثير الاهتمام.

لتاتي قصة الطائرة، واللافتة التي تحمل تمنيات العيد، ثم الغيوم الكثيفة والمطر ...

اذن ليس كل السؤال «ان اكون أو لا اكون»، بل يجب أن نتساءل عما نحن. هل نحن كائنات بشرية حقيقية من لحم ودم؟ هل عالمنا مؤلف من اشياء حقيقية، ام اننا محاطون فقط بالوعي؟

لا غرابة في ان صوفي قد راحت تقضم اظافرها. فرغم ان هيلد لم تعرف هذه العادة السيئة ابداً، إلاّ انها تفعل ذلك الآن.

بالنسبة لنا، قد تكون هذه «الارادة» او هذه الروح التي تفعل في كل شيء، هي والد هيلد.

وبعد اسطر قرأت:

– هل تقصد انه كان بالنسبة لنا نوعا من الاله ؟
– اجل ودون ان يزعجه ذلك اقل ازعاج.
– وهيلد. اين هي من كل هذا؟
– انها ملاك يا صوفي.
– ملاك؟
– إن هيلد هي من يخاطبه هذا «الروح».

هنا تركت صوفي البرتو، وخرجت تحت المطر المنهمر. الا يمكن ان تكون هذه العاصفة، هي ذاتها التي هبت على بجركلي، بعد ساعات من اجتياز صوفي المدينة عدواً؟

«غدا، عيد ميلادي. اليس من المؤلم ان يكتشف المرء عشية بلوغه الخامسة عشرة، ان العالم ليس سوى حلم؟

انه لشيء اشبه بأن يربح احدهم ورقة يانصيب قيمتها مليون ليرة، وما ان يمد يده للامساك بالمبلغ، حتى يكتشف انه لم يكن الاّ هواء..

اجتازت صوفي الملعب العائم ماءً ورأت احدهم يركض لملاقاتها. انها امها، والبرق يمزق السماء. شدتها الأم بقوة الى صدرها.

– ما الذي يحصل لنا يا حبيبتي؟

– لا ادري، ردت صوفي وهي تجهش بدموعها، لكأنه حلم سيىء.»

اغرورقت عينا هيلد بالدمع: «ان اكون او لا اكون تلك هي المشكلة».

رمت الملف على السرير وراحت تذرع الغرفة ذهاباً واياباً، الى ان توقفت امام المراة، وهناك فاجاتها امها التي جاءت تدعوها للغداء. عندها فقط انتبهت الى ان وقتاً قد مضى عليها وهي على هذه الوقفة، لكنها كانت واثقة من شيء واحد: انها رات، للمرة الاولى، وجهها في المراة وهي تغمز بعينيها معاً.

خلال الغداء حاولت ان تظهر عرفانها بالجهد الذي بذلته امها للاحتفال بعيدها. لكن ذهنها كان شارداً، بعيداً، مع البرتو وصوفي.

ما الذي سيحصل لهما الآن، وقد عرفا ان والد هيلد يمسك بكل خطوط اللعبة؟ .. وقد جعلهما يعتقدان بانهما يعرفان اشياء كثيرة، في حين انهما لا يعرفان شيئاً كبيراً. غير ان المشكلة تظل هي هي: الآن وقد عرف البرتو وصوفي ما يحدث، لا بد ان تتجه القصة نحو خاتمة سريعة. حاولت ان تقطع التفكير، بالتهام قطعة كبيرة من البطاطا. عندها انتبهت الى ان المسالة نفسها تطرح بالنسبة لعالمها. لقد تطور البشر باستمرار من خلال فهمهم لقوانين الطبيعة. ولكن هل يمكن ان تستمر القصة الى ما لا نهاية، عندما يوضع اخر حجر في بناء الفلسفة والعلم؟ الا يقترب البشر عندها من نهاية التاريخ؟ ومع ذلك فثمة تقابل بين تطور الفكر والعلم من جهة، وتاثير البيوت البلاستيكية الزراعية وموت الغابات بسبب المطر المشبع بالحوامض من جهة اخرى. لذلك ربما، لا يكون من قبيل الغباء ان يرى بعضهم في هذه الحاجة

المستمرة المتجددة الى المعرفة، شكلاً من اشكال «السقوط الأصلي»؟

سؤال بدا من الاهمية بحيث اخاف هيلد، فحاولت نسيانه. ثم، الن تعرف عنه أكثر بمتابعة القراءة؟

- «قولي لي ماذا تريدين» سألتها امها مدللة بعد ان انتهتا من تناول الفراولة الايطالية. «انت من تقرر، اليوم»

- لا تسألني مني يا اماه، اريد ان اتابع قراءة الكتاب الذي أهداني اياه ابي.

- كما تريدين، شرط الا يجعلك مجنونة.

- لا .....

- بعدها يمكننا ان نتناول فطيرة (بيتزا) ونحن نشاهد «ديريك»

- ولم لا ...

لاحت فكرة في ذهن هيلد: الصورة التي رسمتها صوفي لأمها، وكيفية كلامها معها. فهل يكون ابوها قد استوحى شخصية امها ليرسم شخصية ام صوفي؟ على اية حال، من الافضل عدم التحدث عن الأرنب الابيض الذي يخرج من قبعة الكون، (على الاقل اليوم).

- على فكرة .. قالت وهي تغادر المائدة.

- ماذا؟

- لقد اضعت صليبي الذهبي.

حدجتها الأم بنظرة ذات دلالة:

- لقد وجدته تحت، في الممر، قبل عدة اسابيع. هناك أضعْتِهِ. ايتها الطائشة!

- هل حدثت ابي بذلك؟

- لا أدري .. ممكن ..

- حسناً، اين هو الآن؟

نهضت الأم تبحث في علبة مجوهراتها، ولم تلبث ان اطلقت صرخة تعجب.

- لم اجده ابداً .. مستحيل أن تمتد يد غريبة الى علبتي .. قالت الأم وهي تعود الى الصالة.

- اشك في ذلك. قالت هيلد، وهي تعانق امها بسرعة وتعود الى غرفتها، اخيراً تستطيع ان تتابع قراءة مغامرات صوفي.

في صباح اليوم التالي، ايقظت الأم صوفي وهي تحمل طبقاً مليئاً بالهدايا، وبينها علم نرويجي شكته في قنينة صودا فارغة.

- كل عام وانت بخير.

فركت صوفي عينيها محاولة طرد النعاس المتحكم. حاولت ان تستعيد كل أحداث البارحة، لكنها لم تكن إلا قطع لعبة «تركيب الصور»، لا تتوصل الى جمعها. كان هناك البرتو، هيلد، المايجور، بيركلي، اما القطعة الاكثر قتامة في لعبة «تركيب الصور» فهي العاصفة العنيفة. وضربها شيء أشبه بالنوبة العصبية، فراحت أمها تفرك جسدها بعنف، ومن ثم وضعتها في سريرها حيث سقتها كوب حليب ساخن بالعسل جعلها تغفو على الفور.

- أعتقد أنني ما زلت على قيد الحياة. تمتمت بصعوبة.

- أولاً، ما هذه الأفكار، انت تدخلين اليوم عامك الخامس عشر.

- هل انت متأكدة من ذلك؟

- حتماً. هل تعتقدين انه يمكن ان تنسى أم تاريخ ميلاد ابنتها الوحيدة؟ (١٥ حزيران ١٩٧٥) الساعة الواحدة والنصف. اعتقد انها كانت أجمل لحظة في حياتي.

- واذا لم يكن ذلك كله إلا حلماً؟

- انه ليس حلماً سيئاً، على أية حال، ان نستفيق فنجد أنفسنا محاطين بلفائف الخبز والزبدة، وعصير البرتقال، وطبق من الهدايا.

قالت هذا، ووضعت طبق الهدايا على كرسي، لتخرج وتعود بطبق الطعام.

ثم بدأ فتح الهدايا التقليدي، الذي يعود بها الى سنواتها الأولى، وصرخات الطفلة التي كانتها.

هدية أمها مضرب كرة، هي لا تعرف ان تلعب كرة المضرب، لكن ثمة دروس في هذه الرياضة، تعطى على بعد خمس دقائق من ممر النفل،

اما أبوها فقد أرسل لها جهازاً مع شاشة تلفزيون لا تتجاوز مساحتها مساحة صورة عادية، وشريط (F.M.).

اضافة الى ذلك، كَمّ من هدايا العمّات والخالات وأصدقاء العائلة.

– هل تريدين أن أبقى اليوم في البيت؟

– لا، لماذا؟

– لم تكوني، على ما يرام، أمس، واذا ما استمر ذلك، فاعتقد انه من الحكمة استشارة طبيب.

– لا، لا أعتقد ذلك ضرورياً.

– هل العاصفة هي السبب .. ام هذا الالبرتو؟

– وانت؟ ألم تقولي بنفسك: ما الذي يحصل لنا يا صغيرتي؟

– أعتقد، انك اذا ما رحت تتسكعين في المدينة وتلتقين أناساً غريبين، فذاك ذنبي.

– ليس الذنب ذنب أحد، اذا ما كنت أتابع درساً في الفلسفة، في أوقات فراغي. اذهبي الى عملك فعلينا نحن ان نكون في المدرسة، في الساعة الثانية، اذ ستوزع علينا الشهادات، في حفلة صغيرة.

– هل عرفت علاماتك؟

– على كل حال، أفضل من علامات الفصل السابق.

لم يمضِ إلا وقت قصير على ذهاب الأم، حتى رن جرس الهاتف.

– ألو. من؟

– انا البرتو ..

– آه

– لم يقتّر المايجور فيما رمانا به من ذخيرة، أمس.

– لا أفهم قصدك ...

– اقصد العاصفة، صوفي.

– لا أعرف ماذا علي أن أعتقد.

– انه الواجب الأول المترتب على فيلسوف حقيقي، أتدرين؟ أنا فخور جداً بكل ما تعلمته في هذا الوقت القصير.

– اخشى ألاّ يكون في كل هذا، شيء حقيقي ...

– هذا ما نسميه «القلق الوجودي» الذي لا يكون في الغالب، إلاّ مرحلة على طريق المعرفة.

– أعتقد انني بحاجة لوقفة استراحة، من الدروس.

– هل في حديقتك الكثير من الضفادع، هذه الأيام؟

لم تتمالك صوفي نفسها من الضحك، وتابع البرتو:

– أعتقد انه من الأفضل لنا ان نتابع. كل عام وانت بخير. لكن علينا أن ننهي دروسنا قبل عيد القديس يوحنا، هذا أملنا الأخير.

– أملنا الأخير؟

– هل انت جالسة في وضع جيد؟ سيتطلب هذا بعض الوقت، أتفهمين؟

– حسنا، أنا مستوية.

– أتذكرين ديكارت؟

– «أنا أفكر اذن أنا موجود».

– اذا ما تابعنا هذا الامتحان المنهجي، سنصل الى مأزق. فبالاستمرار في الشك لا نعود نعرف ما اذا كنا نفكر، ومن يدري اننا لا ننتهي الى اقناع أنفسنا بأننا لسنا إلاّ أفكاراً، وان لا علاقة لذلك بفعل التفكير بأنفسنا؟

ان لدينا أسباباً كثيرة، تجعلنا نعتقد بأننا ثمرة خيال والد هيلد، الذي يقدم بهذه الطريقة لابنته الموجودة في ليساند، تسلية صغيرة بمناسبة عيد ميلادها. هل تتابعينني؟

– نعم ...

– لكن ثمة تناقض هنا أيضاً: اذا لم نكن إلاّ مخلوقات «خيالية»، لا يكون لنا الحق في «الايمان» بأي شيء كان. وفي هذه الحال، لا تكون هذه المكالمة الهاتفية إلاّ وهماً.

– ولا تكون لنا أقل قدرة حرة على الحكم، أو اقل ارادة. ويكون المايجور هو الذي يملي علينا أقوالنا وأفعالنا. اذن يمكننا ان نقفل الخط فوراً.

- لا، انت هنا تبسطين الأشياء أكثر مما يجب.

- أوضح.

- هل تريدين أن تقولي ان هناك رجلاً يخطط ويصمم كل ما نحلم به؟ من الممكن أن يعرف والد هليد كل ما نفعل. فالإفلات من الضمير، صعب كالإفلات من الخيال، ومع ذلك فأنا أضع الآن خطة تنطلق من هذه النقطة تحديداً - ولا شيء يؤكد ان المايجور قد توقع كل الاحداث قبل حصولها. وربما انه لا يقرر إلاّ في اللحظة الأخيرة، عندما يشرع في كتابة أفكاره. في هذه الفسحة من الزمن فقط، قد نستطيع أن نتخيل بأننا نتمتع بحرية نسبية في أقوالنا وأفعالنا، من الواضح ان هامش الفعل عندنا محدود جداً بالمقارنة مع قدرة المايجور المطلقة. فنحن نخضع للمؤثرات الخارجية، مثلنا مثل ذلك الكلب الذي راح ينطق، وتلك الطائرة التي تخفق رايتها حاملة تهاني العيد، وتلك الموزة المحملة بالرسائل. ومع ذلك علينا أن لا ننفي واقع اننا نتمتع بإرادة حرة، مهما تكن صغيرة.

- كيف؟

- يعرف المايجور كل شيء عن عالمنا، هذا مفهوم، ولكن ذلك لا يعني انه يملك قدرة مطلقة. وعلينا في كل الأحوال ان نحاول أن نعيش وكأنه غير موجود.

- أعتقد أنني أفهم ما تقول.

- الغاية النهائية، تكمن في ان ننجح في فعل شيء ما دون ان يلاحظه المايجور.

- ولكن كيف نفعل ذلك، اذا كنا غير موجودين فعلاً.

- من قال اننا غير موجودين؟ ليست المسألة ان نعرف ما اذا كنا موجودين، بل معرفة ماذا نفعل، ومن نحن. حتى ولو اعترفنا بأننا لسنا إلاّ غرائز تندفع من وعي المايجور، فان ذلك لا يجردنا من وجودنا الصغير.

- ولا من ارادتنا الحرة؟

- هذه هي النقطة التي أعمل عليها يا صوفي.

– لكن والد هيلد لن يثمن عملك عليها بالذات.

– لا بالطبع، لكنه لا يعرف خطتي تماماً، أنا أحاول ان اجد نقطة ارخميدس.

– نقطة أرخميدس؟

– كان أرخميدس عالماً يونانياً، عرف بقوله: «أعطني نقطة ثابتة، لأرفع العالم». وهذه النقطة هي ما يجب العثور عليه، لخلخلة التوازن الداخلي للمايجور.

– ليس هذا مشروعاً بسيطاً.

– لكننا لا نملك أي أمل في الوصول اليه، قبل الانتهاء من دروس الفلسفة. انه يمارس علينا حتى الآن ضغطاً قوياً جداً، ويبدو انه قرر ان أقوم أنا بدور الدليل الذي يقودك عبر العصور. لكن لم يتبق أمامنا إلا أيام قليلة قبل أن يستقل طائرته من مكان ما في الشرق الأوسط، وإذا لم نستطع ان نتحرر من خياله المتملك قبل وصوله الى بجركلي، فسنضيع.

– انت تخيفني.

– هناك أولاً، عدد من المعلومات يجب أن تعرفيها عن عصور التنوير في فرنسا، قبل ان ننتقل الى معرفة الخطوط العريضة لفلسفة «كانت»، ونعبر الى الرومانسية .. ومن ثم سنرى كيف شكل هيغل مرحلة حاسمة، مما يقودنا الى الحديث عن نقد كيركيغارد للفلسفة الهيغلية. كذلك لا بد من ان نقول شيئاً عن ماركس، داروين، وفرويد. واذا ما انتهينا الى سارتر والوجودية، تكون خطتنا قد اكتملت، وقد تنجح.

– هذا برنامج طموح جداً، لأسبوع واحد!

– اذن فلنبدأ دون تأخير، هل يمكنك المجيء الآن، فوراً؟

– علي أن أمر أولاً بالمدرسة، حيث ستوزع علينا الشهادات ونقيم حفلة صغيرة.

– دعك من ذلك، اذا لم نكن نحن إلاّ ضميراً بحتاً، فلن يكون طعم الليموناضة والكعك إلاّ ثمرة خيالنا.

– وشهادتي؟

– اسمعي يا صوفي .. ان تعيشي في كون رائع على نقطة بالغة الدقة، على كوكب ليس إلاّ واحداً من مئات مليارات الكواكب الأخرى، وأن تكوني انبثاق غرائز كهرامغناطيسية في ضمير مايجور. ثم تحدثينني عن «شهادة»! لو كنت مكانك لخجلت!

– عذراً.

– حسناً، اذهبي الى المدرسة قبل أن تأتي، فقد يسيء غيابك الى هيلد .. انها من النوع الذي يذهب حتى في يوم عيد ميلاده، لأنها ملاك.

– اذن أذهب بسرعة وأوافيك على الفور.

– نلتقي في شاليه مايجور.

– في شاليه مايجور؟

– تك ...

تركت هيلد الملف يسقط على ركبتيها، هكذا نجح والدها في اشعارها بالذنب لأنها غابت عن يوم المدرسة الاخير. آه .. الخبيث!

تساءلت عما يمكن ان تكون خطة البرتو، هل تقلب الى الصفحة الأخيرة؟ لا.. الأفضل ان تستعجل في القراءة دون قفزات.

ثمة نقطة كانت توافق البرتو عليها تماماً، وهي ان والدها يسيطر تماماً على ما يحصل لصوفي والبرتو، لكنه لا يعرف، رغم ذلك، كل ما سيحصل. ربما ترك قلمه يركض عن الصفحة، ولم ينتبه إلاّ بعد فترة طويلة الى ما كتبه وما حصل لبطليه. صحيح انهما يمارسان حريتهما في هذه الفسحة الزمنية.

من جديد احست هيلد بان البرتو وصوفي موجودان حقاً، وقالت في نفسها ان كل انواع الظواهر قد تجري في اعماق المحيط، مع بقاء سطحه هادىء.

لماذا جاءتها هذه الصورة؟

انها ليست فكرة سطحية.

في المدرسة، هنأ الجميع صوفي بعيد ميلادها وأنشدوا لها الأغنية

التقليدية. كان الجو مرحاً تماماً خصوصاً مع توزيع الشهادات ووقائع الحفلة.

بعد المراسم العادية، ترك الطلاب الحديقة، فأسرعت صوفي عائدة الى المنزل، عبثاً حاولت جوروون استبقاءها، إلا انها صرخت بها ان لديها عملاً ملحاً.

في صندوق البريد وجدت بطاقتين من لبنان عليهما العبارة ذاتها: «عيد ميلاد سعيد – ١٥ سنة»، بطاقات معايدة تافهة!

البطاقة الأولى موجهة الى هيلد موللر كناغ بوساطة صوفي امندسون، اما الثانية فالى صوفي شخصياً وعلى الاثنتين ختم الوحدة النرويجية التابعة للأمم المتحدة.

بدأت صوفي بقراءة بطاقتها:

عزيزتي صوفي امندسون

انه يوم عيد ميلادك انت ايضاً، اذن فلك مني كل التهاني.

اشكرك على كل ما فعلته من أجل هيلد، حتى الآن.

مع صداقتي

المايجور البرت كناغ.

لم تدر صوفي ما اذا كان عليها أن تفرح ام لا، لكون المايجور قد راسلها مباشرة، أخيراً. ان ذلك شيء مؤثر، بمعنى ما.

أما نص بطاقة هيلد فيقول:

صغيرتي العزيزة هيلد

لا أدري كم الساعة الآن، أو ما هو اليوم في ليلساند، لكن ما أهمية ذلك؟ واذا لم أكن على خطأ، فأعتقد انه لم يصبح الوقت متأخراً بعد على توجيه تمنيات لك بعيد ميلاد سعيد، (للمرة الأخيرة أو قبل الأخيرة من هنا). لكن عليك ألا تتأخري كثيراً في النوم، فسيعطيك البرتو أفكاراً عن عصور التنوير في فرنسا، تتوزع على النقاط السبع التالية:

١- *التمرد على السلطة.*
٢- *العقلانية.*
٣- *فكر عصور التنوير.*
٤- *التفاؤل الثقافي.*
٥- *العودة الى الطبيعة.*
٦- *الديانة الطبيعية.*
٧- *حقوق الإنسان.*

واضح ان المايجور لا يحيد نظره عنهما. دخلت صوفي المنزل ووضعت شهادتها بكل ما فيها من «جيد جدا» على طاولة المطبخ، ثم خرجت لتعبر العيص الى الغابة، ومنها الى البحيرة التي اجتازتها بالقارب.

كان البرتو ينتظرها عند الباب، وأشار اليها ان تجلس قربه. نسيم رطب يصعد من البحيرة، رغم صفاء الجو وشمسه، كأن وقتاً طويلاً لم يمضِ على هبوب العاصفة.

– لنتجه مباشرة الى هدفنا، قال البرتو. بعد هيوم، كان المنهج الفلسفي الرئيس هو منهج «كانت»، لكن فرنسا عرفت في القرن الثامن عشر عدة مفكرين. ويمكننا ايجاز الوضع بقولنا ان مركز الفلسفة الأوروبية هو انكلترا في البداية، فرنسا في الوسط، وألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر.

– حركة دائرية .. اذا كنت قد فهمت.

– تماماً، الآن سوف أعرض لبعض الأفكار المشتركة بين فلاسفة عصور التنوير، الفرنسيين، من مثل الكبار مونتسكيو، فولتير، روسو وغيرهم.

وقد أخذت سبع نقاط أساسية ..

– شكراً، أعرف ذلك .. قالت صوفي وهي تتاوله البطاقة المرسلة من والد هيلد.

– كان بامكانه ان يوفر على نفسه هذا التعب! قال البرتو متنهداً، ثم

استأنف:

حسناً. المفهوم الرئيس الأول هو التمرد على السطة:

لقد لجأ عدد من الفلاسفة الفرنسيين الى بريطانيا، التي كانت تنعم في ذلك العصر، وعلى عدة صُعُد، بحرية أوسع مما في بلدهم، وبهرهم العلم التجريبي البريطاني، خصوصاً نيوتن وفيزياؤه الكونية، وكذلك فلسفة لوك، ونظرته السياسية، مما جعلهم يثورون، بدورهم، عند عودتهم الى بلادهم، على السلطة القائمة القديمة. وكان من المهم جداً تبني موقفٍ نقدي من الفلسفة التقليدية.

وكانت الفكرة الرئيسة ان للفرد وحده ان يجيب عن الأسئلة التي يطرحها على نفسه، وقد أوجد مثال ديكارت، منافسين، كما سنرى.

– ديكارت اعاد كل شيء الى البداية، وبدأ من الأساس.

– تماماً.. اتجه هذا التمرد ضد السلطة بكل أشكالها، الى الكنيسة، الملك، والنبلاء. ويجب أن نسجل ان المؤسسات المختلفة، كانت في القرن الثامن عشر، اقوى في فرنسا منها في انكلترا.

– فكانت الثورة، اذن.

– في عام (١٧٨٩) لكن الافكار الجديدة انتشرت قبل ذلك بكثير. لنبدأ بالعقلانية.

– أعتقد أن موت هيوم، شكَّل نهاية العقلانية.

– لم يمت هيوم إلاّ عام (١٧٧٦)، أي بعد مونتسكيو بعشرين سنة وقبل فولتير وروسو بسنتين (اذ ماتا معاً في العام ١٧٧٨). وقد عاش ثلاثتهم في بريطانيا، وعرفوا جيداً أفكار لوك، الذي، لم يكن أبداً تجريبياً محضاً وقاسياً، كما تذكرين. اذ كان يرى ان الله وبعض العقائد الأخلاقية موجودون بالفطرة في عقل الانسان، وهذا ما نجده في صلب فلسفة عصور التنوير في فرنسا.

– لقد قلت مرة ان الفرنسيين كانوا أكثر عقلانية من البريطانيين.

– هذا يعود الى القرون الوسطى. فعندما يتحدث الانكليز عن الأمور البديهية، يفضل الفرنسيون التحدث عن الدليل المحسوس ويمكن ان نترجم ذلك بـ «ما يفرض نفسه بوضوح على الفكر» أي العقل.

– فهمت.

– يندرج فلاسفة عصور التنوير في خط الفلاسفة الانسانيين في العصور القديمة، مثل سقراط والرواقيين، من حيث ايمانهم المطلق بعقل الانسان .. وذاك ما يجعل الكثيرين يطلقون على عصور التنوير لقب عصر« العقلانية». فبعد ان ارسى العلم التجريبي مبدأ كون الطبيعة تسير وفق قواعد دقيقة تماماً، اخذ الفلاسفة على عاتقهم مهمة ارساء قواعد الاخلاق والدين. ويقودنا هذا الى فكر عصور التنوير بمعناه الحقيقي.

– هذه هي النقطة الثالثة، اليس كذلك؟

– نعم .. هنا أصبح المقصود «تنوير» طبقات الشعب الدنيا، كشرط أساسي لبناء مجتمع أفضل، ولم يكن البؤس والاضطهاد بنظرهم إلاّ نتيجة الجهل والشعوذة المنتشرة بكثرة بين الناس .. لذلك علق فلاسفة هذه المرحلة أهمية قصوى على تربية الشعب والأطفال، مما لا يجعل من قبيل المصادفة ان يعود علم التربية الى عصور التنوير.

– إذا كنت قد فهمت جيداً، فإن تأسيس المدارس يعود الى القرون الوسطى وعلم التربية الى عصور التنوير.

– أجل، فالعمل الرئيس الذي ميز عصور التنوير، هو موسوعة كبيرة، ولهذا دلالة واضحة. لقد صدرت هذه الموسوعة بين عامي (١٧٥١-١٧٧٢)م، في ثمانية وعشرين جزءاً، ويتعاون جميع فلاسفة عصور التنوير، «فيها نجد كل شيء؛ من طريقة صنع ابرة الى طريقة تذويب مدفع».

– كنت تريد ان تحدثني ايضاً عن التفاؤل الثقافي.

– ألا يمكن أن تدعي البطاقة جانباً، حين أتحدث؟

– عفواً.

– كان هؤلاء الفلاسفة يعتقدون بانه يكفي ان ننشر العقل والمعرفة، لتتقدم البشرية بخطى عريضة،. ولتصبح مسألة ايجاد حلول انسانية «مستنيرة» مكان الجهل والشعوذة، مسألة وقت فقط، كما اعتقدوا بأن التقدم هو شيء جيد اذا ما تبع نور العقل الطبيعي. هكذا أصبحت

العبارة الشائعة هي: العودة الى الطبيعة .. لكن كلمة «طبيعة» كانت مرادفة بنظر هؤلاء الفلاسفة لكلمة «عقل». اذ ان عقل الانسان هو عطاء من الطبيعة. وشاع اعطاء مثال «الانسان الهمجي الطيب» الذي لم تفسده الحضارة. وكان شعار جان جاك روسو هو: «علينا ان نعود الى الطبيعة»، ذاك ان الطبيعة خيِّرة والانسان بطبيعته خيِّر، والشر كله يكمن في المجتمع. ويجب، برأيه، ان يكون للطفل الحق في ان يعيش في حالة البراءة «الطبيعة»، اطول فترة ممكنة. وعليه، يعود طرح فهم خاص للطفولة الى عصور التنوير، في حين لم تكن الطفولة في السابق إلاّ مرحلة تهيؤ لحياة البلوغ. اننا بشر، نعيش حياتنا على الأرض، حتى ونحن أطفال.

– هذا أمر حتمي ومسلم به.

– اما الدين أيضاً فيجب ان يعود «طبيعياً».

– كيف؟

–كان على الدين ان يعيد اكتشاف جذوره العقلانية وهكذا ناضل الكثيرون لفرض ما يمكن تسميته «ديانة طبيعية» .. انها نقطتي السادسة. ففي حين كان عدد من الفلاسفة الطبيعيين الحقيقيين لا يؤمنون بأي اله، ويعلنون الحادهم الواضح، وجد فلاسفة عصور التنوير انه لا يمكن تصور العالم بدون الله، لانه خاضع للعقل بحيث لا يترك مجالاً لتصور كهذا، وكان نيوتن يشاركهم وجهة النظر هذه. لقد كان الاعتقاد بخلود الروح شيئاً من امر العقل اكثر منه من أمر الايمان، تماماً كما كان رأي ديكارت.

– هذا غريب بالنسبة لي، لأنني أجد فيه مثالاً نموذجياً لما يتعلق بالايمان لا بالعقل.

– لكنك لا تعيشين في القرن الثامن عشر. فما اراده فلاسفة عصور التنوير، هو ازالة الغبار عن المسيحية، وعن كل تلك المعتقدات الاعتباطية، وتلك التعاليم الايمانية التي حلت محل رسالة السيد المسيح، عبر تاريخ الكنيسة.

– في هذا، اتفق معك.

– كثيرون أعلنوا ايمانهم بما اسموه «التأليهية».

– وما هي «التأليهية»؟

– انها نظرة تعتبر ان الله قد خلق الكون منذ أمد بعيد، بعيد.. ومنذها لم يعد الى التجلي. وبذاك يتحول الله الى «كائن أعلى» لا يتجلى إلاّ عبر الطبيعة وقوانينها، وبطريقة ليست «فوق الطبيعة». لقد رأينا عند ارسطو مفهوم «اله فلسفي» حيث كان الله «العلة الأولى» أو «المحرك الأول» للكون.

– لم يعد أمامنا إلا نقطة واحدة: حقوق الانسان.

– ربما تكون النقطة الأهم .. فالواقع ان الفلاسفة الفرنسيين في عصور التنوير، امتلكوا حساً تطبيقياً اكثر تطوراً من معاصريهم الانكليز.

– هل كانوا يضعون نظرياتهم الفلسفية موضع التطبيق؟

– أجل، كانوا يناضلون في سبيل الاعتراف بـ «الحقوق الطبيعية» للمواطن. بدءاً من الرقابة، أي حق «حرية التعبير»، في مجال الدين، الاخلاق والسياسة. يجب أن يتمكن كل فرد من التفكير بحرية، والتعبير عن آرائه بحرية .. وانتقالاً الى النضال ضد العبودية، والى تخفيف معاملة المجرمين.

– أعتقد انه من الصعب ألاّ نوافقهم على كل هذا.

– لقد عرض مبدأ «تحريم انتهاك حرية أي فرد» في نهاية اعلان حقوق الانسان والمواطن، الذي شرعته الجمعية الوطنية الفرنسية عام (١٧٨٩)، والذي استوحاه كثيراً الدستور النرويجي الصادر عام (١٨١٤).

– ومع ذلك، فهناك كثيرون ما زالوا يناضلون، في ايامنا، للحصول على الاعتراف بحقوقهم.

– نعم، لسوء الحظ.

لقد أراد فلاسفة عصور التنوير ان يقروا الحقوق الثابتة لكل فرد، والتي لا يجوز التصرف بها، والمترتبة له لمجرد كونه وُلد انساناً. هذا ما نسميه «الحقوق الطبيعية» .. التي غالباً، ما تتعارض مع القوانين

السارية في هذا البلد أو ذاك، والتي يثور باسمها (الحقوق الطبيعية) اناس أو طبقات، لانتزاع مزيد من الحريات أو الاستقلال.

– وماذا عن حقوق المرأة، هنا؟

– لقد رسخت ثورة (١٧٨٩) عدداً من الحقوق التي تنطبق على كل «مواطن»، واضح ان المقصود في الدرجة الأولى، هو الرجل. ولكن ذلك لا يمنع كوننا قد رأينا أول حركات تحرر المرأة، تبرز في ظل الثورة الفرنسية تحديداً.

– لم يكن ذلك مبكراً ..

– في عام (١٧٨٧)، نشر الفيلسوف كوندورسي رسالة حول حقوق المرأة، أعلن فيها ان للنساء «الحقوق الطبيعية» ذاتها التي للرجال. وقد كانت النساء خلال الثورة نشيطات جداً في النضال ضد النظام القديم، فكُنَّ على رأس المظاهرات التي اجبرت الملك على الهرب من قصر فرساي. وفي باريس، عرفت عدة «صالونات» تديرها نساء تطالبن بالحقوق السياسية ذاتها التي يطالب بها الرجال، ولكنهن تطالبن أيضاً باصلاحات تتعلق بالزواج والوضع الاجتماعي للمرأة.

– وهل حققن مكاسب لقضيتهن؟

– لا، كما يحصل في الغالب،اذ ارتبطت هذه القضايا بالسياق العام للثورة، وما ان استقرت الأمور حتى عدنا الى النظام الاجتماعي التقليدي، والهيمنة الذكورية المعتادة.

– دائماً يحصل الشيء ذاته ..

– واحدة من المناضلات في سبيل المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، كانت تدعى اوليمب دو غوج، وقد نشرت عام (١٧٩١)، اي بعد سنتين من الثورة، إعلاناً حول حقوق المرأة، لأن هذه الحقوق لم تجد مكاناً لها في فصل محدد، في إعلان حقوق الانسان والمواطن.

– وبعدها؟

– تم اعدامها عام (١٧٩٣)، ومنذها حُظِرّ على المرأة القيام بأي عمل سياسي.

– هذا غير معقول!

- كان لا بد من الانتظار حتى القرن التاسع عشر، لتقوم في أوروبا كلها حركة نسائية. ومنذها راحت النساء تكسبن المعركة، شيئاً فشيئاً. فحصلت النرويجية مثلاً، على حق الاقتراع عام (١٩١٣). لكننا عندما نرى ما يحصل في بعض البلدان، نشعر انه لا يزال امامنا طريق طويل.

- في هذا المجال، نعم.

صمت البرتو حيناً وهو ينظر الى البحيرة، ثم قال:

- هذه هي الخطوط العريضة لما أردت أن تعرفيه عن عصور التنوير.

- لماذا «الخطوط العريضة»؟

- أعتقد انه لم يعد لدي أشياء هامة، حول الموضوع.

ثمة شيء ما كان يحدث، هناك في البحيرة، بينما كان البرتو يقول جملته الأخيرة، كان الماء يتماوج ويفور، ثم ينبثق من الأعماق جسم ضخم وبشع.

- حية ماء! صرخت صوفي.

قفزت الحية عدة مرات متتالية من مقر الماء الى سطحه قبل أن تغطس نهائياً في الأعماق، تاركة سطح البحيرة يستعيد هدوءه.

أشاح البرتو بنظره قائلاً؟

- هيا بنا! لنعد.

نهضا معاً، ودخلا الشاليه، حيث توقفت صوفي أمام لوحتي بيركلي وبجركلي، لتقول وهي تشير باصبعها الى الثانية:

- أعتقد ان هيلد تسكن في مكان ما هنا، داخل اللوحة.

بين اللوحتين، علقت سجادة كتب عليها:

حرية، مساواة، اخوة.

- هل انت من علقها هنا؟

سألَتْ البرتو، الذي اكتفى بان هز رأسه نافياً، وهو يرسم تكشيرة استنكار على وجهه.

وانتبهت صوفي الى وجود ظرف على طرف المدخنة وعليه: الى هيلد وصوفي، لا فائدة من السؤال عمن أرسله. ولكن مجرد وجود اسمها

عليه، شيء مفاجيء.

فتحته وقرأت بصوت عالٍ:

صغيرتيّ العزيزتين:

لا بد ان استاذ الفلسفة قد ركز على ان الامم المتحدة تستند الى المبادىء والمثل التي ارساها فلاسفة عصور التنوير في فرنسا، فالذي صهر الشعب الفرنسي كله في بوتقة واحدة هو هذا الشعار «حرية، مساواة، اخوة» واليوم، يجب أن تُوحّد هذه الكلمات، ذاتها، العالم كله، وأكثر من أي وقت مضى، يجب ألا تشكل الأرض كلها، الا أسْرة واحدة .. فأي عالم سيرثه أولادنا واحفادنا؟

ام هيلد تنادي ابنتها قائلة ان برنامج ديريك سيبدا بعد عشر دقائق.. وانها وضعت البيتزا في الفرن. وهيلد تشعر بانها منهكة تماماً بعد كل ما قراته. خصوصاً وانها استيقظت منذ الساعة السادسة.

قررت أن تمضي بقية النهار مع امها تاركة لها تنظيم قضاء يوم العيد. ولكن بعد ان تتحقق من شيء واحد في موسوعتها.

غوج .. لا دو غوج؟ لا شيء

اوليمب دو غوج؟ لا شيء أيضاً.

ان الموسوعة لا تخون ذكوريتها ابداً، وتقول كلمة واحدة عن المراة التي اعدمت بسبب التزامها السياسي، لتحرير المراة، اليس هذا فضيحة؟

قفزت هيلد الى الطابق الاسفل حيث القاموس الكبير، عساه يقول شيئاً.

– أريد أن اتاكد من شيء واحد. قالت لامها. ثم حملت الجزء المتضمن حرف الغين، عائدة الى الغرفة:

غوج! .. اخيرا.

«غوج، ماري اوليمب (١٧٤٨ – ١٧٩٣) كاتبة فرنسية، لعبت دوراً كبيراً في الثورة، ونشرت كتيبات عديدة حول القضايا الاجتماعية، وعدة مسرحيات. وكانت واحدة من النساء النادرات اللواتي طالبن بالمساواة بين الجنسين،

حيث نشرت عام (١٧٩١) اعلاناً عن حقوق المراة. اعدمت عام (١٧٩٣) لانها تجرات ودافعت عن لويس السادس عشر، وانتقدت روبسبيير. (ل. لاكور. مصادر النسوية المعاصرة ١٩٠٠)».

كانْت

... السماء المضاءة بالنجوم فوق رأسي،
والقانون الأخلاقي في داخلي ...

في منتصف الليل، اتصل المايجور البرت كناغ بمنزله متمنياً عيداً سعيداً لابنته هيلد.

كانت الأم هي التي ردت، ونادت ابنتها:

– المكالمة لك هيلد

– الو؟

– انا والدك

– اليس من غير المناسب ان تظل حتى الآن لتتصل، انه منتصف الليل.

– أردت فقط ان اتمنى لك عيداً سعيداً.

– لكنك لم تفعل ذلك طوال النهار.

– أردت ان انتظر اخر اليوم.

– لماذا؟

– هل وصلتك هديتي؟

– آه، اجل. شكراً جزيلاً.

– هل اعجبتك؟

– انها فكرة عبقرية، حقاً شيء مثير لدرجة انني لم استطع تناول الطعام طوال النهار.

– لكن عليك ان تاكلي

– كلّي رغبة لمعرفة البقية.

– اين وصلت؟ قولي لي.

–حسناً، لقد دخلا الشاليه لانك رحت تنكافهما بحية ماء ..

– آه، عصور التنوير.

– اذن، انا لم اخطىء كثيراً.

– لم «تخطىء»؟ بماذا؟

– ساتمنى لك مرة بعد مرة، عيداً سعيداً، لكنها ستكون هذه المرة بالموسيقى.

– ساتابع القراءة في سريري هذا المساء.

– هل تفهمين شيئاً مما تقرأين؟

– لقد تعلمت في يوم واحد اكثر من كل ما تعلمته في حياتي! لا اكاد اصدق انه لم تمض الا اربع وعشرون ساعة على وصول اول ظرف الى صوفي.

– احياناً تكفينا اشياء قليلة.

– لكنني اشعر بالشفقة عليها ..

– على أمك؟

– لا، على صوفي امندسون.

– آه

انها لم تعد تعرف اين هي، المسكينة!

– لكنها ليست إلا .. اقصد ..

– إلاّ شخصية متخيلة، ومركبة تركيباً .. اليس كذلك؟

– نعم، تقريباً.

– انا اعتقد ان صوفي والبرتو موجودان في مكان ما.

– سنتحدث في ذلك عند عودتي.

– اتفقنا.

– نهار سعيد، هيلد.

– ماذا تقول؟

– عفواً، ليلة سعيدة.

– ليلة سعيدة.

عندما خلدت الى النوم، كانت السماء مضيئة لدرجة تمكنها من رؤية الحديقة، واشجارها. فالشمس لا تغيب كلياً في هذه الفترة من السنة.

واستمتعت بتخيل صورتها في لوحة زيتية معلقة على جدار شاليه في الغابة. هل يمكن الخروج من الاطار والقاء نظرة على الخارج؟

قبل ان تنام، عادت لتفتح الملف الكبير.

وضعت صوفي رسالة هيلد على المدخنة. فقال البرتو:

– ليس ما يقوله عن الامم المتحدة، سخيفاً. لكنني لا أحب أن يتدخل في طريقتي في تقديم الأشياء.

– لا تهتم بذلك كثيرا ..

– حسناً، سأنسى الظواهر الغريبة، من نوع حية الماء، تعالي نجلس أمام النافذة، سأحدثك عن "كانت".

لاحظت صوفي وجود نظارات على طاولة صغيرة بين كرسيين، وكانت عدساتها حمراء .. فهل هي نظارات شمسية غامقة اللون بهذا الشكل؟

– انها الساعة الثانية تقريباً .. يجب أن أعود قبل الخامسة، اذ لا بد ان تكون امي قد اعدت شيئاً لعيد ميلادي.

– ما زال أمامنا ثلاث ساعات.

– اني مصغية.

– «امانويل كانت»، ولد من اب برادعي، عام (١٧٢٤) في كينغسبرغ (كالييننغراد اليوم) في بروسيا الشرقية، حيث عاش كل حياته الى ان توفي في الثمانين من عمره. تلقى تربية قاسية ومتدينة مما شكل عاملاً حاسماً في كل فلسفته، حيث كان يرى – كبيركلي – انه من المهم جداً انقاذ اسس الايمان المسيحي.

– بيركلي. فهمته، شكراً.

– كان «كانت» اول فيلسوف شغل كرسياً للفلسفة في الجامعة، لقد كان بذلك «فيلسوفاً محترفاً».

– فيلسوفاً محترفاً؟

– ان مصطلح «فيلسوف» يغطي في ايامنا مَعْنَيَيْن مختلفين قليلاً: فيلسوف تعني انساناً يحاول ان يجد اجوبته الخاصة على المسائل الفلسفية التي يطرحها عن نفسه. لكنه يمكن ان يعني ايضاً مختصاً في تاريخ الفلسفة لا يمتلك فلسفته الخاصة.

– وهل كان «كانت» واحداً من هذين؟

– لا، كان الاثنين معاً. فلو انه كان استاذاً جيداً، فقط، اي مختصاً في فكر الفلاسفة الآخرين، لما كان قد احتل موقعاً في تاريخ الفلسفة.

لكن ذلك لا يمنع انه كان يعرف جيداً ويعمق التراث الفلسفي الانساني الذي سبقه، يعرف فكر العقلانيين، كديكارت وسبينوزا، والتجريبيين من مثل لوك، بيركلي، أو هيوم.

– قلت لك، لا تحدثني بعد عن بيركلي.

– تذكرين ان عقل الانسان، يشكل أساس كل معرفة، برأي العقلانيين .. في حين يرى التجريبيون ان حواسنا هي التي تسمح لنا بمعرفة العالم. وقد دل هيوم بوضوح على حدود الاستنتاجات التي يمكن ان توصلنا اليها مشاعرنا.

– و«*كانت*»، مع من كان يتفق؟

– كان يرى ان الاثنين على خطأ وعلى صواب. القضية هي قضية معرفة: اية معرفة للعالم يمكننا ان نحصّل. هذا هو المشروع المشترك بين الفلاسفة منذ ديكارت. لكنّ القضية الآن هي معرفة هل ان الكون هو كما تدركه حواسنا، أو انه كما يدركه عقلنا؟

– اذن، ما هو رأي «*كانت*»؟

– تلعب ادراكات الحواس والعقل، برأيه، دوراً كبيراً، لكن ما حصل هو ان العقلانيين بالغوا في دور العقل، كما بالغ التجريبيون في الوقوف عند تجاربهم الحسية.

– ألا يمكنك ان تعطيني مثالاً ملموساً اكثر؟

– لقد قبل «*كانت*» من هيوم والتجريبيين فكرة ان تجربة الحواس هي اساس كل معرفة، لكنه اضاف ان العقل هو وحده الذي يملك الشروط اللازمة لتحليل كيفية ادراكنا للعالم.

– أهذا هو مثالك؟

– لنعبر الى التطبيق العملي، خذي النظارات من على الطاولة .. ضعيها على عينيك.

وضعت صوفي النظارات فأصبح كل شيء حولها احمر .. الألوان الفاتحة أصبحت كلها وردية، والغامقة حمراء.

– ماذا ترين؟

– ما كنت أراه في السابق، لكنه أحمر.

– ذاك لأن النظارات حددت لك كيف ترين العالم، كل ما نراه يأتي من العالم الخارجي. لكن: كيف نراه؟ تلك قضية نظارات. لذا لا يمكنك ان تؤكدي ان العالم أحمر فقط لانك ترينه هكذا.

– طبعاً، لا.

– اذا مشيت في الغابة، أو عدت الى منزلك، سترين كل شيء كما كنت ترينه سابقاً مع فارق اللون الاحمر.

– اجل، اذا لم أرفع النظارات.

– حسناً، بهذه الطريقة نفسها، كان «*كانت*» يعتقد ان عقلنا يمتلك قدرات تحدد كل تجاربنا الحسية.

– ما هي هذه القدرات؟

– أياً تكن تجربتنا الحسية، فانها تندرج حتماً ضمن الفضاء والزمن، ويطلق «*كانت*» على الفضاء والزمن اسم «الأشكال الأولى» للاحساس البشري، اي ان هذه الأشكال تسبق أية تجربة. ويعني هذا اننا نعرف مسبقاً ان أية تجربة ستندرج ضمن الفضاء والزمن. لذلك لا نستطيع ان نخلع نظارات العقل.

– هل كان يعتقد ان تصور الأشياء في الزمن والفضاء، هو فطري؟

– نعم، بطريقة ما. فان ما نراه يتوقف حتماً على ما اذا كنا نعيش في الهند أو في غرينلند. ولكن العالم لا يكون، اينما كنا، الا مجموعة من الظواهر المندرجة في الفضاء والزمن.

– لكن الفضاء والزمن موجودان خارجنا؟

–لا. يصر «كانت» على هذه النقطة: الفضاء والزمن هما عنصران مكونان للانسان، انهما قبل كل شيء بنى حسية لا تتأتى من العالم.

– انها طريقة مختلفة في النظر الى الأشياء.

– ليس الوعي الانساني ورقة بيضاء، تنطبع عليها بطريقة «سلبية» انطباعات حواسنا. بل هو ، على العكس، مرافعة حيوية للغاية، طالما انه هو من يحدد رؤيتنا للعالم، ويمكن أن تقارني ذلك بقنينة ماء: لقد جاء

الماء ليملأ شكل القنينة .. هكذا تأتي ادراكاتنا لتتخذ شكل «الشكلين الأولين» للحدسية.

– بدأت أفهم، قولك إن كلاً من العقلانيين والتجريبيين على شيء من الحق! فقد نسي العقلانيون اهمية الحس، كما نسي التجريبيون أهمية العقل.

– يؤكد «كانت» على انه اذا كان الوعي يتشكل انطلاقاً من الأشياء، فان الأشياء بدورها، تتشكل انطلاقاً من الوعي. وهذه النقطة هي ما أسماه كانت «ثورته الكوبرنيكية» في مجال المعرفة. وكان يريد ان يقول بذلك، انها طريقة للتفكير بطريقة جديدة جذرياً. كما كانت نظرية كوبرنيكوس في عصره، يوم اكد ان الأرض تدور حول الشمس لا العكس. أما بالنسبة لـ قانون السببية، الذي يرى هيوم ان المرء لا يستطيع معرفته بالتجربة، فان «*كانت*» يعتبر انه يشكل جزءاً من العقل.

– اوضح.

– تذكرين ما قاله هيوم من ان العادة هي وحدها التي تجعلنا نعتقد بتسلسل منطقي بين الظواهر الطبيعية. أما «*كانت*» فيعتبر ان ما كان متعذراً على البرهنة لدى هيوم، هو ميزة فطرية من ميزات العقل. ويظل قانون السببية دائماً صالحاً، لسبب بسيط وهو ان فهم الانسان يتناول كل حدث في اطار علاقة السبب بالنتيجة.

– اميل الى الاعتقاد بان قانون السببية موجود في أصل الأشياء، اكثر منه في أصل البشر.

– لا يداخل «*كانت*» أي شك في ذلك: اننا نحمل هذا القانون داخلنا. وهو يريد ان يسلم، مثل هيوم، باننا لا نستطيع ان نمتلك اي يقين حول حقيقة طبيعة العالم «بذاته». ما نستطيعه هو فقط معرفة كيف هو العالم «بالنسبة لي» اي بالنسبة لنا، نحن البشر.

das Ding an sich وdas Ding fur mich ويشكل هذا التمييز النقطة الأساسية في فلسفة «كانت».

– تعرف أنني لا أفهم اللغة الألمانية

– يميز «*كانت*» بين «الشيء بذاته» و«الشيء بالنسبة للأنا». ويدون أن

نتقدم على صعيد «الشيء بذاته» لا يمكننا ان نقول كيف نتصور العالم بعد كل تجربة.

– هل تعتقد ذلك؟

– قبل أن تخرجي صباحاً، تعرفين ان ما ستفعلينه سيكون مندرجاً في الفضاء والزمن، حتى ولو لم تكن لديك أية فكرة عما سترينه أو تعيشينه طوال النهار. اما قانون السببية فانت تعرفين انه يشكل جزءاً من ذهنك.

– هل تقصد انه كان من الممكن ان نُخْلق على شكل مختلف؟

– بالتأكيد .. فقد كان يمكن ان يكون لنا نظام ادراك حسي مختلف تماماً، مما يغير تجربتنا للزمن والفضاء. وكان يمكن أيضاً ألا نهتم بعلاقات العلة والنتيجة في العالم المحيط بنا.

– اليس لديك أمثلة؟

– تخيلي هراً ينام في الصالة، ثم تتدحرج كرة على الأرض .. ماذا سيفعل؟

– هذا بسيط، سيركض وراءها.

– اتفقنا. تخيلي انك انت أيضاً في الصالة، هل تكون لك ردة الفعل ذاتها التي كانت للهر، فتجرين وراء الكرة؟

– اولاً، أعتقد انني كنت سالتفت لأرى من أين جاءت الكرة.

– لأنك كائن بشري، يتساءل عن سبب كل حدث. ان قانون السببية أساسي في تركيبة الكائن البشري.

– حقاً؟

– كان هيوم يرى انه من المستحيل الاحساس بهذه القوانين الطبيعية أو برهنتها. لكن كانت كان يرفض القبول بذلك. وهذه القوانين موجودة بالنسبة له، لان قدرتنا على المعرفة، هي التي تنظم المعرفة، لا الأشياء التي تحددها.

– هل ان طفلاً صغيراً، في مكاني، كان سيلتفت ليرى من أين جاءت الكرة.

– ربما لا .. لكن «كانت» يقول ان العقل لا يكون نامياً ومتطوراً، بما

فيه الكفاية لدى طفل صغير، لم يتعرض بعد لحقل تجارب. فكيف نتحدث عن عقل فارغ، من أية أدوات؟

– لا، سيكون هذا غير معقول.

– فلنختصر: من جهة لدينا العناصر الخارجية التي لا نستطيع معرفتها قبل ان نجربها، وهذا ما نسميه مادة المعرفة .. من جهة أخرى لدينا خصائص العقل البشري، من مثل تصور كل حدث في اطار الفضاء والزمن. أو وضعه ضمن اطار علاقة السببية: وهذا ما نسميه شكل المعرفة.

صمت البرتو، وظل فترة ينظر مع صوفي عبر النافذة. فجأة ظهرت فتاة صغيرة بين أشجار الغابة، من الجهة الأخرى للبحيرة.

– انظر – صرخت صوفي – من هذه؟

– ليست لدي أية فكرة عنها.

– بعد لحظات اختفت الفتاة، لكن صوفي لاحظت أن على رأسها غطاءً أحمر.

– على أية حال، علينا ألاّ نشرد في هذا النوع من الظواهر.

– حسناً .. تابع اذن.

– يعتبر «كانت» ان للمعرفة الانسانية حدوداً دقيقة. ان «نظارات العقل» اذا صح التعبير، تفرض بعض الحدود.

– كيف؟

– تذكرين ان الفلاسفة قبل «كانت»، طرحوا على أنفسهم الأسئلة «الفلسفية» الكبرى من مثل معرفة ما اذا كانت للانسان روح خالدة، ما اذا كان الله موجوداً، ما اذا كانت الطبيعة مؤلفة من جزيئات صغيرة، واذا كان الكون زائلاً أم خالداً .. الخ ..

– أجل.

– لكن «كانت» كان يعتقد بان الاجابة عن هذه التساؤلات ليست من اختصاص الانسان .. دون ان يعني ذلك انه يرفضها، لانه لا يكون في هذه الحالة فيلسوفاً حقيقياً.

– وماذا اذن؟

– صبراً .. يعتقد «*كانت*» انه عندما يتعلق الأمر بقضايا على هذا القدر من الأهمية، فان العقل يعمل خارج حقل المعرفة. لكنه من ملامح خصوصية الطبيعة البشرية – او العقل البشري – ان تحس بالحاجة الى طرح هذا النوع من الأسئلة. وهكذا، فعندما نطرح السؤال حول ما اذا كان العالم زائلاً أم خالداً، فانما نطرح السؤال عن كلٍ، نحن أجزاء صغيرة فيه. لذلك لا يمكننا ان ندعي التوصل الى معرفة هذا الكل.

– ولم لا؟

– عندما نتساءل عن أصل الكون، ونروح نطرح افتراضات، فان العقل يدور في فراغ، في الواقع .. ذاك اننا لا نمتلك «ظواهر» حسية بكل معنى الكلمة، أو تجارب تشكل مرجعاً، لا يمكننا أبداً أن نختبر الكل المحيط بنا والذي يتضمننا. فما نحن إلا جزء من الكرة التي تتدحرج على الأرض، دون أن نتمكن من معرفة من أين جاءت. لكن عقلنا مكوّن بطريقة تجعلنا نتساءل دائماً عن مصدر الكرة، وعن كل أنواع المسائل، حتى ولو لم يكن في يدنا اي شيء ملموس.

– شكراً .. انا افهم جيداً هذا الاحساس.

– يلحظ «*كانت*» ان العقل يُنتج دائماً – عندما يواجه مسائل أساسية– فرضيتين متوقعتين أو غير متوقعتين، تتواجهان.

– مثلاً؟ ...

– يمكن أن نؤكد في أن واحد ان العالم قد بدأ يوماً وانه كان موجوداً منذ الأزل. والتوقعان غير قابلين للتخيل بالنسبة للعقل البشري. يمكننا أن نؤكد ان العالم موجود منذ الأزل، ولكن هل من الممكن ان يكون شيء ما موجوداً منذ الأزل ولا تكون له بداية في يوم من الأيام؟

اما اذا تبعنا المجادلة المعكوسة، فنقول انه كان للعالم بداية، مما يعني انه ولد من العدم .. ولكن هل يمكن ان يولد شيء من العدم يا صوفي؟

– لا، نحن في الحالين في مأزق، ومع ذلك لا بد ان يكون احد الافتراضين هو الصحيح!

– كذلك، تذكرين ان ديمقريطس والفلاسفة الماديين، كانوا يعتقدون

بان الطبيعة مكونة من عناصر دقيقة، تتجمع فيما بينها لتشكل شيئاً. بينما يفكر غيرهم، مثل ديكارت، ان الامتداد يمكن ان ينقسم على ذاته دائماً. فمن منهم على حق؟

– الاثنان ... أو لا هذا ولا ذاك.

– لقد اكد فلاسفة آخرون على ان الحرية هي واحدة من القدرات الاكثر أهمية عند الانسان، لكن الرواقيين وسبينوزا – وغيرهم – لا يؤمنون إلا باتباع قوانين الطبيعة. هنا أيضاً يرى *«كانت»* ان العقل غير قادر على حسم الجدل.

– كل موقف يدافع عن نفسه.

– ينطبق الشيء نفسه على برهنة وجود الله. فالعقلانيون، وعلى رأسهم ديكارت، يحاولون اثبات وجوده، بالقول ان لدينا فكرة «كائن كامل»، في حين يرى توما الاكويني وارسطو مثلاً ان الله هو العلة الأولى لكل الموجودات.

– و«كانت» .. ماذا كان يقول؟

– لقد رفض هذين البرهانين معاً، لان التجربة لا تستطيع أبداً– برأيه– أن تقدم لنا أي اساس للتاكيد على ان الله موجود أو لا.

– لكنك قلت في البداية ان *«كانت»* حرص على انقاذ اسس الدين المسيحي!

– اجل لقد فتح الطريق أمام بعد ديني جديد: يغوص فيه الايمان في الفضاء الذي افرغته التجربة.

– وهل كان ينوي انقاذ المسيحية بهذا؟

– ان اردت. لا تنسي ان «كانت» كان بروتستانتياً، ومنذ الاصلاح الديني تميزت البروتستانتية بايمانها، في حين ان الكاثوليكية، كانت تلجأ، منذ القرون الوسطى، الى العقل، لتأكيد ايمانها.

– افهم.

– لكن *«كانت»* لم يكتف برمي هذه الأسئلة على عاتق الايمان، فقد كان يرى أنه من الضروري للأخلاق، أن نفترض أن يكون للإنسان روحاً خالدة، وأن الله موجود وأن للإنسان ضميراً حياً.

– انه مثل ديكارت تقريباً! انه يبدأ بالتعبير عن شكوكه في قدرتنا على المعرفة. ثم يعود ليدخل خلسة، الله وما حوله.

– لكنه يختلف عن ديكارت في انه يقول ان الايمان هو الذي قاده الى هذه الاستنتاجات، وليس العقل. فالايمان بخلود الروح، بوجود الله، بالضمير الحي، هو بالنسبة له «مسلمات عملية».

– ما معنى ذلك؟

– المسلمة هي شيء نؤكده دون برهان، والمسلمة العملية هي شيء يتعلق بسلوك الانسان، أو بتعبير آخر بأخلاقه. «ان قبول فكرة وجود الله هي ضرورة أخلاقية» يقول "كانت".

فجأة قرع الباب، فانتفضت صوفي، لكنها عندما رأت ان البرتو لم يتحرك، سألته:

– ألن نفتح؟

– هز كتفيه، متردداً، وأخيراً نهض الى الباب. وإذ بفتاة صغيرة ترتدي ثوباً صيفياً، وقبعة حمراء، انها الفتاة التي رأياها على الضفة الأخرى للبحيرة. كانت تحمل في يدها سلة ملأى بالأطعمة.

– مرحباً – قالت صوفي– من أنت؟

– ألا ترين انني «ليلى الحمراء»؟

نظرت صوفي الى البرتو الذي أومأ اليها قائلاً:

– ألم تسمعي ما قالته؟

– أبحث عن بيت جدتي، انها عجوز ومريضة، وقد جئت لها بالطعام.

– بيتها ليس هنا. هيا في سبيلك.

قال العبارة الأخيرة وكأنه يطرد ذبابة من طريقه.

– لكن معي أيضاً رسالة، علي أن أسلمها لها.

– قالت ذلك وهي تمد يدها بالرسالة الى صوفي، ولم تلبث ان اختفت.

– حاذري من الذئب – صرخت بها صوفي – ثم لحقت بالبرتو، الذي كان قد سبقها الى الداخل.

– هكذا اذن، انها ليلى الحمراء. قالت صوفي بتعجب وهي تجلس.
– ولماذا تحذرينها، ستذهب الى جدتها، حيث ينتظرها الذئب ليأكلها. لن تتعلم أبداً، هذا شيء سيتكرر الى الأبد!
– ولكن. هل كنت تعرف انها ستتوقف امام منزل آخر قبل أن تمضي الى منزل جدتها؟
– دعك منها.
فتحت صوفي الظرف المعنون الى هيلد وقرأت بصوت عال:

عزيزتي هيلد
لو كان العقل البشري بسيط التكوين، بحيث يسهل فهمه، لكنا جد بلهاء أمام فهمه.

أبوك الذي يُقَبلك.

هز البرتو رأسه موافقاً، ثم تابع:
– ثمة صحة في هذا القول. اعتقد ان «كانت» كان سيقول العبارة ذاتها، يجب أن نأمل في فهم من نحن .. تماماً كما لا يمكننا ان نفهم بعمق ما هي فراشة أو حشرة، لا يمكننا ان نفهم انفسنا، فكيف بالأحرى، ان نفهم ما هو الكون.
اعادت صوفي قراءة العبارة الواردة في الرسالة، مرات عديدة .. بينما البرتو يتابع:
– علينا ألا نترك حية الماء، وغيرها من الحوادث تربكنا. فأمامنا اليوم كل علم الأخلاق لدى «كانت».
– اذن أسرع، اذ علي ان اعود الى البيت.
– ان حَذْرَ وشَكّ هيوم ازاء ما يقوله عقلنا أو حواسنا، قد قاد «كانت» الى ان يطرح على نفسه مرة أخرى، كل الأسئلة الأساسية. وبهذا لم تكن قضية الأخلاق، قضية كمالية أبداً. فقد أعلن هيوم انه لا يمكن فصل الخطأ عن الصواب، طالما ان «ما هو حاصل» لا يفرض «ما يجب

ان يحصل». وبرأيه انه لا عقلنا ولا تجربتنا الحسية، يسمحان لنا بتمييز الصح من الخطأ. القضية بالنسبة له، قضية احساس بحت. وهذا ما وجده «كانت»، مائعاً، وغير منطقي، كأساس لنظرية فلسفية.

– وانا اتفق معه.

– لقد أحس «*كانت*» دائماً ان التمييز بين الخير والشر هو شيء من الواقع. وهو ينضم بذلك الى العقلانيين الذين كانوا يؤمنون بان العقل قادر على التمييز والحكم. فكل البشر يعرفون ما هو الخير وما هو الشر، لا لأنهم تعلموه، بل لانه محفور في عقلهم. فلقد وُهبوا جميعاً عقلاً عملياً، اي قدرة خاصة بالعقل، تسمح لهم بالتمييز بين الخير والشر، على صعيد الأخلاق.

– انه شيء فطري اذن.

– اجل. ان القدرة على تمييز الخير من الشر، هي فطرية، ككل قدرات العقل. وكما ان كل البشر يقبلون مبدأ السببية داخل الكون، فانهم قادرون جميعاً على بلوغ القانون الطبيعي الكوني ذاته. وهذا القانون هو قانون مطلق، كما هي القوانين الفيزيائية بالنسبة للظواهر الطبيعية. انها اسس حياتنا الأخلاقية، كما هو مبدأ السببية بالنسبة لِفَهْم الأمور أو كما هي معادلة

٧ + ٥ = ١٢.

– وماذا يقول هذا القانون الأخلاقي؟

– انه «قطعي»، لانه يسبق أية تجربة. وبعبارة أخرى، انه غير مرتبط بأي وضع خاص، نطرح فيه مشكلة الاختيار. وهو يصلح لكل البشر أياً يكن زمنهم أو مجتمعهم. لا يقول ما يجب أو لا يجب فعله في هذا الظرف أو ذاك، وانما ما هو مناسب ان يفعل في كل الظروف.

– ولكن، ما الفائدة من قانون أخلاقي بذاته، اذا لم يقل لنا ما يجب أن نفعله في ظرف محدد؟

– يصوغ «*كانت*» هذا القانون الأخلاقي كـ «أمر مطلق نوعي»، أي انه صالح لكل الأوضاع وانه «أمر»، أي انه يعطي أمراً لا يمكننا إلاّ أن نخضع له.

– هم ...

– يصوغ «كانت» هذا الأمر النوعي بطرائق مختلفة. يبدأ بالقول: تصرف فقط بحسب الحكمة التي تجعلك تتمنى تحويلها الى قانون كوني.

– أي انني عندما افعل شيئاً، يجب أن أتمنى أن يفعل الجميع، – إذا كانوا في وضع مشابه– مثلي؟

– بالضبط. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلك، تتصرفين بانسجام مع القانون الأخلاقي الموجود في داخلك. ويصوغ «كانت» هذا الأمر النوعي بقوله: تصرف وكأنك تتعامل مع البشرية كلها مُمَثَّلة بشخصك، كما لو أنها ممثَّلة بكل شخص آخر.. دائماً كهدف،لا كوسيلة.

– هذا يعني انه لا يجوز ان نستعمل «الآخرين» لتحقيق مصلحة ذاتية.

– اجل، ذاك ان كل انسان هو غاية بذاته. وينطبق هذا على كل الآخرين، وعليك انت أيضاً. فليس لك الحق في ان تستعملي نفسك وسيلة للحصول على شيء.

– هذا يذكرني بما قرقعوا رأسنا به: لا تفعل للآخرين ما لا تريد أن يفعله الآخرون لك.

– نعم، هذا مبدأ ينطبق على كل الحالات، وفيه نجد القانون الأخلاقي الذي صاغه «كانت».

– على ان هذه ليست سوى تأكيدات. فقد كان هيوم على حق عندما قال ان العقل لا يستطيع ان يميز ما هو صحيح مما هو خطأ.

– يرى «كانت» ان القانون الأخلاقي هو كوني ومطلق، كقانون السببية، مثلاً. لذا يعجز العقل عن برهنته، لكن ذلك لا يعني امكان تجاوزه، ولا يستطيع أحد انكاره.

– أشعر كأننا نتحدث عن الضمير، فلكل الناس ضمير واحد.. أليس كذلك؟

– بلى .. عندما يصف «كانت» القانون الأخلاقي، فهو انما يصف ضمير الانسان. فنحن لا نستطيع تقديم البرهان على ما يقوله ضميرنا

الأخلاقي، لكننا رغم ذلك، نعرفه جيداً.

– انا احاول أحياناً ان أبدو في احسن حالاتي، في سبيل هدف محدد كاكتساب أصدقاء مثلاً.

– في هذه الحالة، انت لا تتصرفين بحسب القانون الأخلاقي، حتى ولو كان سلوكك متفقاً معه، وذاك شيء جيد. لكن يجب أن يكون سلوكك نتيجة انتصار على ذاتك، كي يستحق صفة «عمل أخلاقي»، وان تحسي بانه من واجبك أن تتصرفي على هذا النحو .. لذلك غالباً ما نتحدث عن علم أخلاق الواجب، عند «كانت».

– يمكن أن أشعر ان من واجبي ان اجمع تبرعات للصليب الأحمر، أو للمطاعم الخيرية.

– نعم، لكن المهم أن تقومي بذلك، وانت تشعرين انك تفعلين شيئاً صحيحاً. حتى ولو ان جزءاً من المال الذي جمعته، لم يستعمل للهدف الذي اردت، المهم انك اتبعت واجب الأخلاق، لقد قمت بما يفرضه الواجب .. وذاك هو الشيء الأساسي الوحيد بنظر «كانت»، لا نتائج عملك. ان علم الأخلاق عند «كانت» يقوم على أخلاق الإرادة الطيبة، وعمل الخير.

– لماذا يهتم كثيراً بمعرفة ما اذا كنا نتصرف بحسب القانون الأخلاقي؟ اليس المهم ان نتصرف لخير الآخرين؟

– بالتأكيد .. يتفق «كانت» معك على هذه النقطة لكنه يقول اننا لا نتصرف بحرية إلا عندما نكون واعين اننا انما نتصرف بحسب القانون الأخلاقي.

– ماذا؟ لا نكون أحراراً إلا عندما نتبع قانوناً؟ هذا متناقض.

– لا، ليس برأي "كانت". انت تذكرين انه يؤكد ان الإنسان يمتلك ارادة حرة، مستقلة، ويعتبر ذلك «مسلمة». لكن «كانت» يعترف بان كل شيء يخضع لقانون السببية، اذن كيف يمكن للإرادة ان تكون حرة؟

– هل تطرح السؤال علي أنا؟

– يُقَسّم "كانت" الانسان الى اثنين – مما يذكرنا بفكر الثنائية بين الجسد والروح. وهو يرى اننا كائنات حساسة، خاضعة لقانون السببية

الأزلي، لا نستطيع ان نختار ما تدركه حواسنا، لذلك فان ثمة تجارب تطبع آثارها فينا، بصرف النظر عن ارادتنا، لكننا لسنا محصورين بهذه الصورة فقط، لأننا نتمتع بالعقل.

– أوضح!

– نحن ككائنات حساسة نشكل جزءاً لا يتجزأ من نظام الطبيعة، لذلك لا يمكننا ممارسة أية ارادة.

لكننا، ككائنات تنعم بالعقل، ننتمي الى ما يسميه «كانت» (das Ding an sich) أي «العالم كما هو»، بصرف النظر عن ادراكاتنا، ونحن نمارس حريتنا، باتباع «عقلنا التطبيقي» الذي يسمح لنا باتخاذ خياراتنا الأخلاقية. ذاك اننا بالخضوع للقانون الأخلاقي، انما نخضع لقانون فرضناه نحن على أنفسنا.

– هذا صحيح، الى حد ما.. انني انا، أو صوت ما فيّ أنا، من يقول انه لا يجوز لي ان اكسر ساق صديقتي.

– وعندما تقررين ذلك، حتى ولو لم يكن في مصلحتك، تكونين قد تصرفت بحرية.

– على أي حال، نحن لا نكون أحراراً أو مستقلين اذا ما اتبعنا غرائزنا.

– بل ننتهي الى أن نصبح عبيد رغباتنا وانانيتنا مثلاً. اننا نحتاج الى قدر كبير من الحرية والاستقلال كي نتخلص من رغباتنا وغرائزنا.

– والحيوانات؟ انها لا تعيش إلاّ لارضاء غرائزها وحاجاتها. فكيف يمكن لها ان تكون حرة باتباع القانون الأخلاقي؟

– لذا ... فان هذه الحرية هي وحدها التي تجعل منا بشرا.

– الآن فهمت.

– وختاماً نقول ان «كانت» قد نجح في اخراج الفلسفة من المأزق الذي كانت فيه بين العقلانيين والتجريبيين. لذلك اعتبر، نهاية مرحلة في تاريخ الفلسفة. ومات عام (١٨٠٤)، مع بزوغ فجر مرحلة جديدة، اطلق عليها مصطلح «الرومانسية».

وعلى قبره في كينفسبرغ، حفرت واحدة من أشهر مقولاته:

«شيئان لا ينيان يملآن قلبي بالاعجاب والاحترام، ويزداد فكري تعلقاً بهما، وتطبيقاً لهما: السماء المضاءة بالنجوم فوق رأسي، والقانون الاخلاقي في داخلي».

غرق البرتو في مقعده.

– لن نمضي اليوم الى ما هو ابعد، لقد استعرضنا المهم.

– ثم انها الساعة الرابعة والربع.

– انتظري لحظة، من فضلك.

– ليس من عادتي ان اترك الدرس قبل ان ينتهي.

– هل قلت لك ان «كانت» يعتقد بأننا ككائنات حساسة لا نملك، اية حرية؟

– نعم، قلت شيئاً من هذا القبيل.

– لكننا نكون أحراراً اذا تبعنا العقل الكوني.

– هل تريد أن تعيد كل الدرس؟

انحنى البرتو باتجاه صوفي، محدقاً في عينيها، ثم اسر في اذنها:

– لا تثقي بما ترين، يا صوفي.

– ماذا تقصد؟

– ما عليك إلاّ أن تستديري يا ابنتي ..

– لا افهم شيئاً مما تقول.

– غالباً ما يقال، انه يجب أن لا نصدق شيئاً إلاّ بعد أن نراه بأم عيننا. لكن هذا خطأ.

– لقد سبق وقلت لي ذلك، ان لم أكن مخطئة.

– عندما كنا نتحدث عن بارمينيدس.

– لا افهم، الى ما تريد ان تصل.

– بل تعرفين. لقد كنا نتحدث في الخارج عندما خرجت حية ضخمة من البحيرة.

– أجل، كان ذلك غريباً.

– لا ليس غريباً. ثم جاءت ليلى الحمراء تدق الباب، وتقول انها تبحث عن بيت جدتها. لقد بدأ الأمر يصبح متعباً. وكل تحرشات المايجور

هذه.. هل تذكرين الرسالة المكتوبة على الموزة، والعاصفة المفتعلة؟ ..

– هل تعتقد؟ ..

– قلت لك ان لدي خطة، ولن ينجح في تتويهنا طالما اننا نتبع العقل.. نحن احرار، بطريقة ما. يمكنه ان يجعلنا ندرك كل شيء في الكون، دون أن يثير أدنى تعجب عندنا، حتى ولو اعجبه ان يجعل فيلاً يطير، فلن يحصد منا إلاّ ابتسامة. في حين تظل (٧+٥=١٢) دائماً. انها معرفة تتجاوز هذه التأثيرات الاشبه بالرسوم المتحركة. ان الفلسفة هي عكس الحكاية تماماً.

ظلت صوفي صامتة وهي تنظر اليه متعجبة.

– حسناً، آن لك ان تعودي الى المنزل، وسأرسل لك اشارة، لنلتقي ونستأنف حديثنا عن الرومانسية، وعن هيغل وكيركيغارد. فلم يتبق إلاّ اسبوع على عودة المايجور، يجب علينا ان نظل فيه متحررين من خياله الجامح، لن أقول لك اكثر. ولكن اعلمي انني ابلور خطة خرافية لنا، نحن الاثنين.

– اذن، فسأذهب.

– انتظري، لقد نسيت الشيء الأهم.

– ما هو؟

– اغنية عيد الميلاد، صوفي. لا تنسي ان هيلد قد بلغت الخامسة عشرة اليوم.

– وأنا أيضاً.

– اذن، هيا نغني:

– سنة حلوة يا جميل .. سنة حلوة يا هيلد .. سنة حلوة يا جميل.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف، فركضت صوفي الى البحيرة، تجدف باتجاه الضفة الأخرى .. ثم جرت القارب الى الشط، وركضت عبر الغابة.

فجأة، رأت في الممر شيئاً يتحرك بين جذوع الشجر. تذكرت ليلى الحمراء التي كانت في طريقها الى جدتها، لكن الخيال الذي رأته بدا أصغر من أن يكون ذئباً.

اقتربت منه، واذا هو لعبة سمراء، تضع قبعة حمراء، وتسمرت في مكانها حين رأت انه دب صوفيّ صغير.

اليس من المستغرب ان يترك احدهم دباً صوفياً في الغابة؟

لكنه دب حي، ويتحرك بعيداً.

– صباح الخير. قالت له ..

فاستدار نحوها قائلاً:

– اسمي ويني الدب. لقد تهت في الغابة، ولولا ذلك لكان نهاري جميلاً. لكن انت .. انا لم أرك من قبل.

– ربما انني لم آت الى هنا سابقاً. وانت هل هذا مكانك، في غابة المئة وستين صباحاً؟

– لا، أنا لا أعرف ان اعد حتى هذا الرقم، لا تنسي انني دب صغير لا يملك دماغاً كبيراً.

– لقد سمعت عنك.

– اذن .. انت «أليسْ»! لقد حدثني «كريستوفر روبن»، عنك يوماً، واذا التقينا. لقد شربت زجاجة فصغر حجمك اكثر فاكثر. يجب ان ننتبه الى ما نضعه في فمنا. في احد الأيام، ظللت آكل الى ان تعذر علي الخروج من جحري.

– أنا لست «أليسْ»..

– ليس من المهم ان نعرف من نكون، المهم ان نوجد. هذا ما تقوله البومة الصماء، وهي ذكية جداً وقد قالت أيضاً، سبعة + خمسة = اثني عشر. في حين لم نكن انا واياها نعرف ان نحسبها. ان التنبؤ بحالة الجو، أسهل علي.

– اسمي صوفي.

– سعيد بمعرفتك. لا بد انك جديدة على المنطقة، لكن علي ان اذهب لاجد طريقي للقاء صديقي الخنزير. فهناك حفلة كبيرة في حديقة الأرنب تَجْمَعُ كلّ الأصدقاء.

رفع احدى قوائمه مودعاً.. عندها لاحظت صوفي ان في الأخرى، ورقة مطوية.

– ما الذي تحمله هنا؟ سألته.

تناول ويني الورقة قائلاً:

– هذه سبب ضياعي في الغابة.

– لكنها ليست سوى ورقة.

– لا، ليست هكذا فقط .. انها رسالة (لهيلد من الجهة الأخرى للمرآة).

– في هذه الحال، آخذها.

– ولكن .. الست انت الفتاة التي من الجهة الأخرى للمرآة؟

– لا .. لكن ..

– لا. علي أن أسلم الرسالة باليد، وشخصياً. لقد كرر لي كريستوفر روبن ذلك بما يكفي، امس.

– لكنني أعرف هيلد.

– ليس لهذا أهمية، فلا يكفي ان تعرفي احدهم، لتقرأي بريده.

– قصدت انني استطيع أن أوصله لها.

– في هذه الحالة .. خذي .. فما ان اتخلص من هذه الرسالة حتى يصبح بامكاني استعادة طريقي للقاء صديقي الخنزير. ولكن لا بد لك من مرآة كبيرة، لتجدي هيلد من الجهة الأخرى للمرآة.

ناول الدب الرسالة لصوفي، وراح يقفز مبتعداً في الغابة، الى أن اختفى تماماً عن نظرها، وعندها فتحت الرسالة.

عزيزتي هيلد

من المخجل ان البرتو لم يقل لصوفي ان «كانت» اعلن على الملأ انه يؤيد انشاء «جمعية وطنية للشعوب»، ففي مشروعه للسلام الدائم كتب يقول ان على كل الدول ان تتحد لتشكل «جمعية شعوب» تسهر على السلام بين كل الأمم. وقد احتاج الأمر الى (١٢٥) سنة بعد ظهور هذا النص، كي تنشأ عصبة الأمم، بعد الحرب العالمية الأولى.. ولتحل محلها، من ثم، الأمم المتحدة، بعد الحرب العالمية الثانية. بهذا كان «كانت»، عرّاب فكرة الأمم المتحدة. وقد كان يرى ان «العقل العملي» هو وحده القادر على اخراج الدول من حالة طبيعية تدفعها الى حروب مستمرة، الى خلق نظام دولي يمنع

الحروب. ولم تكن الطريق المؤدية الى ذلك واضحة ومرسومة، لكنه كان يفرض على الانسان ان يعمل في هذا الاتجاه كي «يؤمن السلام الدائم والعالمي» وقد كان انشاء تنظيم كهذا، في نظريات «كانت»، هدفاً بعيداً. بل انه الهدف النهائي للفلسفة.

عدا هذا، انا ما زلت حتى الآن في لبنان.

قبلاتي

ابوك

دسّت صوفي الرسالة في جيبها وعادت الى البيت. لقد حذرها البرتو من لقاءات كهذه، في الغابة.. لكن لم يكن بامكانها ان تترك الدب الصغير تائهاً في الغابة، يبحث عن هيلد – من الجهة الأخرى للمرآة.

الرومانسية

... انما يتجه الطريق السحري نحو الداخل ...

تركت هيلد الملف الكبير يسقط على ركبتيها، ثم على الأرض. كان الضوء قد ملأ الغرفة. نظرت الى ساعتها فإذا هي الساعة الثالثة تقريباً. استدارت في السرير وحاولت النوم. لماذا ادخل ابوها «ليلى الحمراء» والدب الصغير إلى القصة؟

عندما استيقظت في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، كانت تحس انها ظلت تحلم طوال الليل، لكنها لا تستطيع ان تتذكر شيئاً من احلامها، كانها كانت في عالم اخر.

نزلت تحضر فطورها ووجدت ان امها قد ارتدت سروال العمل، استعداداً لتفقد المركب وصيانته، كي يكون جاهزاً عندما يعود الأب من لبنان، حتى ولو انها لن تبحر به قبل ذلك.

- هلاّ ساعدتني؟

- يجب أن اقرا قليلاً قبل ذلك. ولكن هل تريدين ان احمل لك الشاي وبعض الشطائر للفطور؟

- الفطور؟ ...

التهمت هيلد اي شيء وجدته بسرعة، لتعود الى غرفتها، الى سريرها، والى ملفها.

تسللت صوفي من تحت العيص، لتجد نفسها في الحديقة التي قارنتها يوماً بجنة عدن.

وهناك رأت خليطاً من الأغصان والأوراق التي اسقطتها عاصفة الأمس. ثمة علاقة بين العاصفة والأغصان المكسورة، ولقائها مع ليلى الحمراء والدب الصغيرويني.

اتجهت صوفي الى الارجوحة، ونفضت عنها كل الأوراق والأغصان

التي تغطيها. لحسن الحظ ان التكايا من البلاستيك، مما لا يستدعي نزعها عند كل عاصفة.

ثم عادت الى المنزل، حيث وجدت ان امها قد عادت من العمل، وكانت تضع بضع زجاجات ليموناضة في الثلاجة، وعلى الطاولة كعكة ولفافة معكرونة.

– هل تنتظرين زيارة؟ سألتها صوفي.

– لا، أعرف ان لديك حفلة يوم السبت القادم، لكنني حملت هذا لاحتفال اليوم.

– اليوم؟

– اجل دعوت جورون وأبويها.

هزت صوفي كتفيها قائلة:

– حسناً، اذا كان ذلك يسعدك.

وصل المدعوون في السابعة مساءً، وكان اللقاء رسمياً الى حد ما، لان ام صوفي واهل جورون قلما يلتقون. لكن الفتاتين انسحبتا جانباً بحجة كتابة دعوات يوم السبت. وبما انهما قررتا دعوة البرتو كنوكس، فقد اطلقتا على الحفلة اسم «استقبال فلسفي في الحديقة». كان ذلك اقتراح صوفي، لان اقامة حفلات تحت عنوان ما، اصبحت شيئاً شائعاً.

وبعد ساعتين من المحاولات، والضحك المجنون توصلتا الى صوغ الدعوة التالية:

عزيزي (عزيزتي) ...

ندعوكم الى حفل استقبال فلسفي صغير في الحديقة يوم (٢٣ حزيران) (عشية عيد القديس يوحنا) في الساعة التاسعة عشرة – ٣ – زقاق التفل.

نحن نأمل ان نحل خلال السهرة، لغز الحياة.

من المطلوب احضار سترات دافئة، وافكار نيرة تسمح لنا بان نجد بسرعة، حلولاً للألغاز التي تطرحها الفلسفة. ويؤسفنا انه سيكون من الممنوع اشعال أي نار، خوفاً من امتدادها للغابة. لكن نيران

الخيال ستكون حرة في الارتفاع عالياً في الفضاء. وسيكون بين المدعوين فيلسوف حقيقي، لذلك تكون الحفلة خاصة تماماً.

(ممنوع حضور الصحفيين!)

مع المودة

جورون انجبريجستين (اللجنة المنظمة)

صوفي امندسون (المضيفة)

حملت الفتاتان نص الدعوة عائدتين الى الأهل الذين برد جو لقائهم في غيابهما، وناولت صوفي امها البطاقة التي كتبتها بالريشة، قائلة:

– ثماني عشرة نسخة، من فضلك.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تطلب فيها من أمها ان تسحب لها نسخاً على الآلة، في مكان عملها. قرأت الأم النص، ثم ناولته للمستشار انجبريجستين.

– احكم بنفسك، ان ذهنها مضطرب تماماً.

– هذا يبدو لي مسلياً. قال الرجل وهو يناول البطاقة لزوجته مضيفاً:

– كنت أتمنى ان اكون بين المدعوين.

ثم جاء دور ام جورون لتصرخ معجبة:

– أنا أرغب حقاً في رؤية هذا. هيا دعينا نشارككم يا صوفي.

– حسناً، اذن فأنا بحاجة لعشرين نسخة يا أمي.

– هل انت مجنونة؟ صاحت بها جورون.

قبل أن تخلد صوفي الى النوم، وقفت تنظر قليلاً عبر نافذتها، وتذكرت شكل البرتو كنوكس عندما رأته للمرة الأولى، في الظلمة، قبل شهر. كانت الساعة متأخرة جداً، لكن الليل في أيام الصيف هذه يظل صيفياً مضيئاً.

لم تصدر أية اشارة عن البرتو قبل صباح الثلاثاء، عندما اتصل هاتفياً، بعد ذهاب الأم الى العمل، بقليل.

– الو صوفي، انا البرتو كنوكس.

– لا اشك في ذلك.

– أسف لأنني لم أتصل خلال الأيام الماضية، لكنني كنت أضع اللمسات الأخيرة على خطتنا. فعندما ينشغل المايجور بك وحدك، استطيع انا ان أعمل وأركز دون ازعاجات.

– غريب!

– اعني انني استطيع ان اختبىء، هل تفهمين؟ حتى أفضل جهاز سري في العالم، يعرف حدوده، خصوصاً عندما لا يكون لديه إلاّ عميل واحد .. والواقع انني تلقيت بطاقتك.

– تقصد بطاقة الدعوة.

– وهل تتجرئين حقاً؟

– لما لا؟

– لا نعرف ما يمكن ان يحصل خلال سهرات من هذا النوع.

– اذن ستأتي؟

– بالتأكيد. ولكن هل فكرت بانه سيكون النهار ذاته الذي سيعود فيه والد هيلد من لبنان؟

– اوه .. لا.

– أعتقد انه ليس من قبيل المصادفة ان يجعلك تنظمين حفلة استقبال فلسفي في يوم عودته الى بجركلي.

– قلت لك انني لم انتبه لذلك.

– اما هو .. سنتحدث في ذلك .. هل بامكانك المجيء الى الشاليه هذا الصباح؟

– علي أن أنزع عشب المساكب في الحديقة.

– اذن، لنقل في نحو الثانية .. هل هذا مناسب؟

– حسناً.

كان البرتو ينتظرها مقتعداً المدخل، كما في المرة السابقة:

– اجلسي هنا. لقد تحدثنا عن عصر النهضة، عن الباروك، وعن عصر التنوير، وسنتحدث اليوم عن الرومانسية، التي ربما تكون آخر مرحلة ثقافية كبيرة عرفتها اوروبا. اننا نقترب من النهاية يا بنيتي.

– وهل طالت المرحلة الرومانسية الى هذا الحد؟

– لقد بدأت في آخر القرن الثامن عشر، واستمرت حتى منتصف التاسع عشر. ولكن بعد ١٨٥٠، لم يعد هناك أي معنى للكلام عن الحركات الكبرى التي تشمل الأدب والفلسفة والفن والعلوم، والموسيقى.

– وهل كانت الرومانسية واحدة من هذه الحركات الكبيرة؟

– قيل ان الرومانسية كانت آخر حركة حددت نمط حياة. وقد بدأت في ألمانيا، كردة فعل، على السلطة المطلقة للعقل خلال عصور التنوير. فبعد «كانت»، وفلسفته الصارمة القائمة على العقل، وجد الشباب أنفسهم بحاجة الى هواء نقي.

– وماذا طرحوا؟

– كلمات وعناوين جديدة، كمثل.. «الشعور» «خيال» «تجربة» و«حنين». صحيح ان فلسفة عصور التنوير لم تهمل «الشعور»، ولنتذكر روسو مثلاً .. لكنه لم يكن ليُثار إلا لإقامة توازن مع العقل. فما كان «كماليا» في الفلسفة الألمانية، أصبح «أساسيا».

– لم يعد «كانت» على الموضة؟

– نعم ولا. فكثيرون من الرومانسيين يعتبرون انفسهم ورثته، أو احفاده. لقد أوضح «كانت» ان هناك حدوداً لما يمكن للعقل ان يعرفه عن «الشيء بذاته»، كما ركز على أهمية الموضوع في مجال المعرفة. مما يعني ان كل شخص يستطيع ان يعيد تحديد علاقته بالعالم، على هواه، وان يعطي تفسيره الخاص للواقع وللحقيقي. وقد جاء الرومانسيون ليبالغوا في ممارسة «عبادة الأنا» هذه، مما أدى هذا الى فكرة العبقرية الفنية كجوهر للروح الرومانسي.

– وهل كانت هناك عبقريات كثيرة؟

– بيتهوفن مثلاً .. فموسيقاه تترجم عواطف ورغبات الكائن البشري، وهو يتصدى بذلك لكبار موسيقيي الباروك من مثل باخ وهاندل، اللذين الفا موسيقاهما لتمجيد الله، وبناءً على قواعد محددة ودقيقة.

– أعرف فقط معزوفتين له: سوناتا في ضوء القمر، والسمفونية التاسعة.

– لكنك تحسين بالرومانسية في هذه السوناتا، وبالجو المأساوي في

السمفونية التاسعة التي تحمل اسم «سمفونية القدر».

– لكنك قلت لي ان الفلاسفة الانسانيين في عصر النهضة كانوا هم أيضاً «فرديين».

– نعم، هناك الكثير من الملامح المشتركة بين عصر النهضة والرومانسية، منها، المكانة الخاصة المعطاة للفن كوسيلة للمعرفة. وليس «كانت» بغريب عن ذلك، طالما انه قد تساءل في علم الجمال، عن مصدر متعتنا ازاء شيء جميل من مثل عمل فني. وهو يرى، اننا اذا ما تركنا انفسنا للتأمل الفني، دون أن نبحث عن شيء إلا عن تجربة فنية، فإننا انما نقترب من شكل من أشكال تجربة «الشيء بذاته»، اذ اننا نتجاوز الاطار المحدد لتفكيرنا.

– اذن، فالفنان يستطيع ان يمرر شيئاً لا يستطيع الفيلسوف التعبير عنه؟

– هذا هو على الأقل تصور الرومانسيين. فالفنان يمارس بحرية –برأي «كانت»– قوة المعرفة لديه ويلعب بها. وقد نمّى الشاعر الألماني شيللر افكار كانت بقوله ان النشاط الفني هو اشبه بلعبة يكون الانسان فيها حراً تماماً لانه يضع قواعده بنفسه. لذا كان الرومانسيون يعتقدون بان الفن هو وحده الذي يسمح لنا بأن نحيط بما يضيق عن الوصف، ونبلغ لبّه. ومضى بعضهم الى حد مقارنة الفنان بالله.

– ليس هذا غريباً، طالما ان الفنان يخلق واقعه الخاص، تماماً كما خلق الله الكون.

– ان للفنان خيالاً مبدعاً. وهو يلغي، بقدرته على الابداع، الحدود بين الحلم والواقع. لقد اعلن نوفاليس الذي يعتبر احد عباقرة الرومانسية ان «العالم يصبح حلماً، والحلم عالماً». وعندما مات عام (١٨٠١)، ترك وراءه رواية غير مكتملة، بعنوان «هنريك فون اوفتر دينجن»، لقيت صدى كبيراً. وهي تحكي عن هنريك الشاب، الذي مضى يبحث عن «الزهرة الزرقاء» التي رآها في الحلم يوماً، ولم يعد يتمنى إلاّ ان يجدها. انها الفكرة ذاتها التي عبر عنها الشاعر الانكليزي كوليردج بقوله:

واذا كنت نائماً؟

واذا حلمت في نومك؟

واذا ما ذهبت، في حلمك، الى السماء، تقطف زهرة جميلة وغريبة.

واذا ما وجدت الزهرة في يدك بعد استيقاظك ..

فماذا تقول؟

– هذا جميل.

– هذا الحنين، هذا البحث عن شيء بعيد، ومستعصٍ، هو ميزة الذهنية الرومانسية. كان ثمة حنين للمراحل السابقة، المنتهية، مثل القرون الوسطى، أو عصور التنوير، كما أراد الرومانسيون تتبع اثار ثقافات اكثر بعداً، مثل الثقافة والروحانيات الشرقية. وكان الليل يجتذبهم ومثله أضواء في الغسق والاطلال، وما فوق الطبيعة، وكل الظواهر الليلية للوجود، اي الغريبة والسحرية.

– تبدو هذه مرحلة جذابة. ولكن من هم هؤلاء الرومانسيون؟

– لقد بدأت الرومانسية كظاهرة مدنية، مما يترافق مع تفتح الثقافة في اكثر المدن الأوروبية الكبرى، في النصف الأول من القرن التاسع عشر خصوصاً في ألمانيا. وكان الرومانسي النمطي، شاباً هو في الغالب طالب. قد لا يلمع كثيراً في دروسه، يحمل رؤية للحياة، مضادة بعنف للبورجوازية، الى حد تجعله ينعت الآخرين (كالبوليس مثلاً أو السيدة التي يسكن عندها) بـ «بورجوازي صغير قذر» وربما بـ «عدو».

– اذن، فما كنت أنا لأتجرأ على استضافة طالب رومانسي، لو عشت في ذلك العصر.

– في عام ١٨٠٠ كان الجيل الرومانسي الأول في العشرين من عمره. ويمكن القول بان الرومانسية هي أول ثورة للشباب في أوروبا. كما يمكن ايجاد ملامح مشتركة بينهم وبين الهيبيين بعد مئة وخمسين سنة.

– الزهور، الشعر الطويل، العزف على الغيتار، وتمجيد الكسل؟

– نعم. اعتبر الرومانسيون الفراغ مثال العبقرية، والكسل فضيلة الرومانسية. كما اعتبروا ان من واجبهم ان يقوموا بكل أشكال التجارب،

وان يفلتوا من العالم بالهرب الى الحلم. اما الروتين فهو مناسب للبورجوازيين الصغار.

– هل هناك رومانسيون نرويجيون؟

– نعم، ويرجيلاند و ويلهافن مثلاً. لقد جسد ويرجيلاند حياة الرومانسي. فقد عاش عاشقاً، لكن حبيبته «ستيلا» التي نظم لها كل قصائده الغزلية، ظلت دائماً، صورة بعيدة، صعبة المنال، كالزهرة الزرقاء لدى نوفاليس. (وهذا ملمح مميز للرومانسية) اذ نجد ان نوفاليس قد خطب فتاة لم تتعد الرابعة عشرة، ثم ماتت بعد بلوغها الخامسة عشرة بأيام، لكنه ظل وفياً لها طوال حياته.

– هل قلت انها ماتت بعد أيام من بلوغها الخامسة عشرة؟

– نعم

– أنا أيضاً عمري خمس عشرة سنة وأربعة أيام.

– هذا صحيح.

– وماذا عن اسمها؟

– صوفي.

– ماذا؟

– هكذا ...

– انت تخيفني، هذه مصادفة مزعجة.

– لا أدري .. الذي حصل ان اسمها كان صوفي.

– تابع.

– لم يعش نوفاليس الا تسعة وعشرين عاماً. فكان واحداً من هؤلاء الموتى الشباب، الذين تفخر بهم الرومانسية، والذين مات معظمهم بالسل، وبعضهم انتحاراً.

– اف .. يا الهي!

– الذين لم يموتوا قبل الثلاثين، تخلوا عن الرومانسية، واصبحوا بورجوازيين محافظين.

– باختصار، انتقلوا الى المعسكر المعادي.

– ان اردتِ، لكن لنعد الى المفهوم الرومانسي للحب.. حيث نجد

صورة الحب المستحيل هذه عند غوته في روايته «عذابات الشاب ويرزر»، التي صدرت عام (١٧٧٤)، والتي تنتهي بانتحار ويرزر الشاب، لأنه لم يستطع ان يحصل على الفتاة التي يحبها.

– اليس في هذا بعض المبالغة؟

– لقد جرّت هذه الرواية سلسلة من حوادث الانتحار، لدرجة جعلتها تُمنع في النرويج والسويد. اذن فلم يكن من غير المؤذي ان تكون رومانسياً .. ذاك ان عواطف وانفعالات عنيفة تدخل اللعبة.

– عندما تتحدث عن الرومانسية، افكر انا بلوحات المناظر الطبيعية: أتخيل غابات سوداء قاتمة، طبيعة بكراً، ضائعة قليلاً في الضباب.

– لقد كانت احدى ميزات الرومانسية، تتمثل تحديداً في الحنين الى طبيعة بكر وغامضة. وهذا تصور مركب من عدة رؤى سابقة. تذكرين روسو و«العودة الى الطبيعة»، وقد جاءت الرومانسية لتعطي أبعاداً واقعية لهذه العبارة، طالما ان هذه الحركة تتعارض مع مفهوم عصور التنوير، الآلي للعالم. وتعود لتتواصل مع تقليد «وعينا اننا في العالم».

– اوضح!

– هذا يفترض فهم الطبيعة ككل .. وهنا يقف الرومانسيون في خط سبينوزا، افلاطون، وفلاسفة النهضة مثل جاكوب بوم، جوردانو دو برونو. حيث ان كل هؤلاء قد أكدوا على انهم اختبروا وجود «أنا» الهية في الطبيعة.

– هل كانوا حلوليين؟

– لقد ميز ديكارت وهيوم، تمييزاً واضحاً بين «أنا» الموضوع و«امتداد» الواقع. وكان «كانت» قد اقام أيضاً هذا الفصل بين «الأنا العارفة» والطبيعة بذاتها». وهكذا قيل ان الطبيعة ليست إلا «أنا» كبيرة! ويستخدم الرومانسيون أيضاً تعبير «روح العالم» أو «نفس العالم».

– افهم.

– اول فيلسوف رومانسي كبير هو فريدريك ويلهالم شيلنغ، الذي عاش بين (١٧٧٥ و ١٨٥٤) والذي حاول ان يلغي التمييز بين «المادة» و «الروح» .. فما الطبيعة كلها، بالنسبة له، إلاّ التعبير عن مطلق أو عن

«روح العالم».

– هذا يذكرنا بـ سبينوزا.

– «الطبيعة هي الروح المرئي» والروح هو الطبيعة اللامرئية» يقول شيلنغ. ذاك اننا نستطيع ان نحس، في كل مكان من الطبيعة، بوجود «روح ينظم ويركب». اما المادة فهي، برأيه، «ذكاء نائم».

– هل يمكن ان تحدد اكثر، من فضلك؟

– كان شيلنغ يرى ان الطبيعة روح العالم، لكنه كان يرى ايضاً هذا الروح، عاملاً، في وعي الإنسان، ومن هذه الزاوية تكون الطبيعة والوعي الانساني، شكلين من التعبير عن شيء واحد.

– ولم لا؟

– اذن فيمكننا ان نبحث عن «روح العالم» في الطبيعة كما في داخلنا، لذلك كتب نوفاليس يقول «ان الطريق الخفي يمضي نحو الداخل» ويقصد بذلك ان الانسان يحمل الكون في داخله، وانه انما يستطيع الاحساس بسر الكون، بالغوص داخل نفسه.

– هذه ليست فكرة سيئة.

– يرى الرومانسيون ان الآداب والعلوم التطبيقية والفلسفة هي كلها أجزاء من كل كبير. فسواء الفنا قصائد على مكتبنا؛ أو درسنا حياة الزهور وتشكل الصخور، لا فرق .. ذاك ان الطبيعة ليست آلية ميتة بل روحاً حياً للعالم.

– سأنتهي الى أن أصبح رومانسية، فيما لو تابعت.

– لاحظ شيلنغ حصول تطور في الطبيعة، ينطلق من الأرض والحجر حتى الوعي الانساني. وقد حدد المراحل المختلفة التي تسمح بتجاوز كل المراحل التي تبدأ من الطبيعة الجامدة حتى اشكال الحياة الأكثر وضوحاً. وكان الرومانسيون ينظرون الى الطبيعة كجسم، أي ككل يترك امكانياته الداخلية تتفتح، أو كزهرة تتفتح مظهرة أوراقها وتويجاتها، أو كشاعر يستحضر قصائده.

– الا يذكرنا هذا قليلاً بأرسطو؟

– طبعاً، تشترك الفلسفة الرومانسية حول الطبيعة، في الكثير من

ملامحها، مع الافلاطونية الجديدة وارسطو، الذي كان ينظر الى الظواهر الطبيعية من وجهة نظر عضوية، اكثر مما كان يفعل الماديون الآليون.

– افهم ما تقصد.

– ينطبق التحليل نفسه على التاريخ، والذي لعب دوراً حاسماً – في هذا المجال – من بين الرومانسيين، هو جوهان جوتفريد هيردير، الذي عاش بين (١٧٤٤ و ١٨٠٣)، ويرى ان مسيرة التاريخ هي ثمرة مشروع يتجه الى هدف محدد. ونقول انه كان يمتلك رؤية «ديناميكية» في مواجهة الرؤية «الساكنة» التي كانت لفلاسفة عصور التنوير، وقد اعترف هيردير بقيمة كل مرحلة، كما بخصوصية كل شعب، وهذا ما أسماه «روح الشعب». وتكمن كل القضية في معرفة ما اذا كنا قادرين على التنقل، وتبديل أماكننا في هذه الثقافات المختلفة.

– وكما يكون علينا ان نضع أنفسنا في مكان شخص آخر كي نفهم وضعه أفضل، يكون علينا ان نتخيل أننا نعيش في ثقافات أخرى كي نتمكن من فهمها.

– لقد أصبح هذا شائعاً في أيامنا، لكنه كان شيئاً جديداً، في المرحلة الرومانسية، ونتيجة لذلك ساهمت الرومانسية في تعزيز الهوية الثقافية لكل أمة. وليس من قبيل المصادفة ان يكون نضال النرويج في سبيل التحرر قد بلغ ذروته عام (١٨١٤).

– الآن فهمت أفضل.

– لكن يجب تمييز شكلين من أشكال الرومانسية: ما اطلق عليه اسم الرومانسية الكونية، والتي ارتبطت بمفهوم الطبيعة –روح العالم– والعبقرية الفنية، ونمت في (ايينا) في ألمانيا، نحو العام (١٨٠٠).

– والشكل الآخر؟

– الآخر هو الرومانسية القومية: والتي انطلقت بعد ذلك ببضع سنوات في هيدلبرغ. وقد اهتم الرومانسيون القوميون بالتاريخ، بلغة «الشعب»، اي بكل ما يتصل بالثقافة الشعبية. ذاك انها اعتبرت الشعب أيضاً، جسماً عليه ان ينمي طاقاته الداخلية، مثله مثل الطبيعة أو التاريخ.

– قل لي أين تعيش، أقل لك من أنت ..

– ان ما يربط مفهوميّ الرومانسية هذين، مفهوم الجسم، الكيان. اذ يعتبر كل شيء كياناً حياً، سواء كان الشعب أو القصيدة، أو الطبيعة كلها. وروح العالم موجودة في الثقافة الشعبية كما في الطبيعة والفن.

– فهمت

– قام هيردير بجمع أغانٍ شعبية من عدة بلدان، ونشرها في كتاب بعنوان «مجموعة من الأغاني التقليدية». وفي هيدلبرغ، بدأ المهتمون يجمعون الحكايات والألحان الشعبية. هل سمعت بـ حكايات الاخوة غريم؟

– اجل.. قطر الندى، ليلى الحمراء، سندريللا، هانسل وغريتل.

– وكثيرون غيرهم، كذلك في النرويج قام اسبيورنسن ومُو برحلات عبر البلاد ليجمعا «اداب الشعب الحقيقية». وتم اكتشاف الأساطير القديمة والأشعار الوثنية. وأخذ بعض الموسيقيين يدخلون الألحان الشعبية في موسيقاهم، محاولين بذلك التقريب بين الموسيقى الشعبية والموسيقى «العالمة».

– الموسيقى العالمة؟

– أي التي وضعها مؤلف واحد، وفق قواعد دقيقة، بيتهوفن مثلاً، في حين تأتي الموسيقى الشعبية من الشعب نفسه، لا من فرد واحد. كذلك فانه من الصعب جداً تأريخ الموسيقى الشعبية، وينطبق الحال نفسه على الآداب الشعبية والآداب العالمة.

– الآداب العالمة؟

– نعم، أدب يكتبه شخص واحد أيضاً. مثلاً هـ. س. أندرسون. في حين جمع الرومانسيون الحكايات. ونذكر هنا الكاتب الألماني الكبير أ.ت.أ هوفمن الذي اعتبر سيد هذا النوع من الأدب.

– اعرف شيئاً عن حكايات هوفمن ..

– لقد كان شكل الحكاية، هو الشكل المفضل لدى الكتاب الرومانسيين، كما كان المسرح بالنسبة لكتاب الباروك. ذاك ان الحكاية تفتح المجال للكاتب ليطلق العنان لخياله.

– يستطيع ان يعتقد نفسه إلهاً لعالم شكّله من أشياء كثيرة.

– بالضبط. حسناً اعتقد اننا نستطيع الآن ان نختصر.

– ارجوك.

– كان فلاسفة الرومانسية يتصورون «روح العالم» «أنا» تستطيع في حالة حلمية ان تعيد خلق العالم. ويوضح الفيلسوف الألماني جوهان غوتليب فيخت، ان الطبيعة ما هي إلاّ تجلي أو فيض لحكمة عليا، تأخذ لا شعورياً هذا الشكل. ويرى شيلنغ أيضاً، ان العالم موجود «في الله» وان الله يعي ما يخلق، لكن في الطبيعة وجوه مخفية، تمثل ما هو لا واع عند الله .. ذاك ان لله أيضاً «وجهه الليلي» المعتم.

– انها فكرة مخيفة وجذابة في آن واحد، تذكرني بـ بيركلي.

– الحال نفسه ينطبق على الكاتب وابداعه. والحكاية تترك المجال حراً للخيال مما يسمح لفعل الخلق أو الابداع بالإفلات من وعي الكاتب، كأنما يكتب العمل نفسه. ويمكن أن يكتب كاتب وكأنه في حالة تنويم مغناطيسي.

– حسناً.

– لكن الكاتب يستطيع في كل لحظة ان يكسر الحالة الجميلة، بتمرير بضعة تعليقات ساخرة الى القارىء، في محاولة لتذكيره بان ما يقرأه ليس سوى حكاية.

– فهمت.

– بهذه الطريقة يستطيع الكاتب ان يقول للقارىء ان وجوده هو رائع. وقد وصف هذا النوع من «قطع الوهم» بـ «السخرية الرومانسية» فنرى لدى المسرحي الرومانسي النروجي هنريك ابسن في مسرحية Peer Gynt عبارة: «ما من أحد يموت في منتصف الفصل الخامس».

– أرى جيداً ما في هذا التعليق من سخرية، حيث انها تلغي كلياً الايهام المسرحي.

– هذه الصيغة متناقضة لدرجة تجعل من المناسب القفز عن سطر لاحق بعدها.

– ماذا تقصد؟

– لا شيء يا صوفي. لكننا تحدثنا عن خطيبة نوفاليس التي كان اسمها صوفي والتي ماتت عندما بلغت اليوم الرابع بعد الخامسة عشرة.

– هل تفهم ان ذلك أخافني؟

تسمرت عينا البرتو لحظة قبل أن يجيب:

– عليك ألا تخافي من مصير مماثل لمصير خطيبة نوفاليس.

– ولم؟

– لأنه لا يزال أمامنا بضعة فصول.

– لكن .. ماذا تخرف؟

– أقول ان تلك التي تقرأ الآن قصة البرتو وصوفي، تشعر انه لا تزال هناك عدة صفحات لم تقلبها بعد، لأننا لا نزال في الرومانسية.

– انت تدوخني.

– الواقع ان المايجور هو الذي يحاول أن يدوخ هيلد. ألا تجدين ان ذلك عمل جبان؟

– هيا، انها نهاية الفقرة.

لم يكد البرتو يلفظ هذه الكلمات حتى أطل شاب صغير من الغابة حاملاً مصباحاً زيتياً في يده.

شدت صوفي على ذراع البرتو، وسألته:

– من هذا؟

وكان الشاب هو الذي اجابها:

– اسمي علاء الدين، وانا قادم من لبنان مباشرة.

– وماذا في مصباحك الزيتي يا بني؟

ففرك الشاب قنديله، ليتصاعد منه دخان كثيف ملأ الفضاء وليظهر، من ثم، من خلال الدخان، خيال رجل له لحية كلحية البرتو، ويضع على رأسه قبعة زرقاء.

– هل تسمعينني يا هيلد. سأل جني المصباح وهو يطير في الهواء، لقد تأخرت هذه المرة لأتمنى لك عيداً سعيداً. وأردت أن أقول لك ان بجركلي، والشاطىء الجنوبي للنرويج لا يبدوان اكثر جمالاً منهما في حكاية. أخيراً، سنلتقي خلال أيام.

ثم طار الجني في الهواء، وعاد الدخان كله الى المصباح، الذي حمله الشاب الصغير تحت ابطه وركض باتجاه الغابة، حيث اختفى.

– هذا ... هذا لا يصدق ... حقا ... قالت صوفي بصعوبة ...

– كل هذا سينما ... فقط.

– لقد نطق الجني كوالد هيلد تماماً.

– ما هذا إلاّ فيض منه ...

– لكن ...

– انا .. وانت ... وكل ما حولنا، غير موجودين إلاّ في أعماق وعي المايجور. الساعة الآن متأخرة، هناك. وكل جنود الأمم المتحدة ينامون باستثناء آمر الوحدة، رغم انه يغالب النعاس. فعليه ان يسرع في انهاء الكتاب، اذا ما أراد أن يرسله هدية لابنته هيلد في عيد ميلادها، لذلك يضطر الرجل المسكين الى اختصار ساعات نومه.

– أعتقد انني سأستسلم!

ترك البرتو وصوفي نظرهما يجول في البحيرة وكان البرتو متجمداً ككتلة حجرية الى ان تجرأت صوفي ولكزته قائلة: هل غفوت، فأجابها:

– لا أبداً، لقد عادت الحيوية الى والد هيلد و«هو» يملي الفقرات الأخيرة حتى في أدق تفاصيلها. فكيف نقول انه ليس له ما يفعله!

أخيراً، خلع القناع، ووقف عارياً. ويتنا نعرف اننا لسنا سوى شخصيتين، تعيشان في كتاب ارسله والد هيلد لابنته. هل سمعت جيداً انني قلت «أخيرا»؟ لست «أنا» من يقول هذا ..

– اذا كان هذه صحيحاً، فانا أريد أن أفلت من الكتاب، وأطير بجناحي.

– هذه هي بالضبط، خطتي السرية. لكن علينا قبل ذلك ان نتحدث الى هيلد، فهي لا تفوت الآن كلمة واحدة مما نقول.

لكن الاتصال بها سيصبح صعباً جداً اذا ما خرجنا من هنا. لذلك علينا الافادة من الفرصة الآن.

– ماذا سنقول لها؟

– اعتقد ان المايجور يكاد يغفو فوق آلته الكاتبة، رغم ان اصابعه لا تزال تركض محمومة على حروفها.

– انه لمن المزعج التفكير بذلك.

– في هذه اللحظة تحديداً، يروح يكتب أشياء قد يعود فيندم عليها فيما بعد. خصوصاً انه لا يملك ممحاة. وهذا عنصر مهم في خطتي. فويل لمن يعطي ممحاة للمايجور كنا غ!

– لن أكون أنا من تفعل ذلك، على أية حال.

– أنا آمر الفتاة بأن تتمرد على أبيها، عليها أن تشعر بالخجل لكونها لعبة راضخة لرغباته. لو انه يمتلك جرأة المثول أمامنا بلحمه وعظمه لرأى ..

– لكنه ليس هنا.

– روحه وفكره هنا، حتى ولو كان جسده في لبنان. كل ما حولنا يأتي من «انا» المايجور.

– لكنه لا يتحدد فقط بما نراه حولنا.

– نحن لسنا سوى ظلال في نفس المايجور. وليس من السهل على الظل ان يتحدى على سيده، هذا يتطلب ذكاء وحذراً. لكننا نستطيع التأثير على هيلد. وحده الملاك يستطيع التمرد على الله.

– يمكننا ان نطلب من هيلد ان تثور في وجهه بمجرد ان يعود. ان تصرخ في وجهه انه محتال، ان تُغْرِق مركبه، أو تُكسر نظاراته.

– يمكنها أن تتركه، هذا أسهل عليها مما هو علينا، يمكنها ان تهرب الى بيت المايجور، ولا تعود الى الظهور أبداً. وسيكون ذلك عقاباً مناسباً لمن يجد متعة في التحليق بخياله، على حسابنا.

– أتخيل المشهد .. الضابط، يجول العالم بحثاً عن ابنته، التي تركت المنزل لأنها لم تعد تحتمل ان يتسلى أبوها على حساب البرتو وصوفي.

– عن كونه يتسلى .. اجل .. انه يتسلى. وهذا ما قصدتُه بقولي انه يستعملنا كتسلية عيد ميلاد. لكنه من المستحسن ان نحذر .. نحن، وهيلد أيضاً.

– ماذا تقصد؟

– هل انتِ بخير؟

– طالما انه لا جنّي آخر في الفضاء، نعم.

– حاولي أن تتخيلي ان كل ما نعيشه يحصل في وعي احدهم، اذن فنحن هذا الوعي. نحن لا نملك نفْساً خاصة بنا، نحن لسنا إلاّ نفس انسان آخر. الى هنا، ولا غرابة من الناحية الفلسفية. لكن شيلنغ وبيركلي يصيخان السمع.

– حسناً؟

– لنا ان نعتقد انها نفس والد هيلد موللر كناغ، الموجود في لبنان، والذي يكتب رواية لابنته، التي تكتشف الكتاب على المنضدة فوق سريرها، وتأخذ بقراءته. لقد أشار لها عدة مرات بأن الهدية هي من النوع الذي يمكن أن تتقاسمه مع آخرين.

– اذكر ذلك ..

– ما أقوله لك: ان هيلد تقرأ الآن، بينما لا يزال أبوها في لبنان يتخيلني أروي لك انه في لبنان.

لم تعد صوفي تدري شيئاً .. حاولت أن تتذكر ما سمعته عن بيركلي والرومانسية، لكن البرتو كنوكس تابع قائلاً:

– يجب ألا يصدقا ذلك وألاّ يتخيلا انهما يستطيعان الخروج منه كله بضحكة: فقد يبقى عالقاً في الحلق.

– عمن تتحدث؟

– هيلد وأبوها، من غيرهما؟

– ولماذا تقول انه يجب ألاّ يصدقا ذلك؟

– لأن ما من شيء يقول لنا انهما ليسا بدورهما، من انتاج وعي آخر.

– كيف؟

– اذا كان الأمر ممكناً بالنسبة لبيركلي والرومانسيين فانه يكون ممكناً بالنسبة لهما. فقد يكون المايجور مخلوقاً مركباً، في رواية تتحدث عنه وعن هيلد، وعنا نحن، طالما اننا نشكل جزءاً من حياتهما.

– سيكون الأمر أسوأ. اذ لا نكون إلا دمى متحركة، في يد دمى

متحركة أخرى!

– ليس ما يمنعنا من تخيل ان كاتباً يكتب كتاباً عن المايجور البرت كناغ، الذي يكتب بدوره كتاباً لابنته هيلد، ويتحدث هذا الكتاب عن واحد يدعى «البرتو كنوكس»، يرسل دروساً في الفلسفة لصوفي امندسون، ٣، زقاق النفل.

– أتعتقد ذلك؟

– أقول انه ممكن، وسيكون هذا الكاتب مثل إله «مخبّأ»، بالنسبة لنا. فلن نعرف شيئاً عنه، حتى ولو كنا نحن وكل ما نفعله من صنعه. اننا آخر الدّمى في مسرح العرائس.

صمتا طويلاً قبل أن تقول صوفي:

– لكن هناك حقاً كاتب تخيل كل هذه القصة حول والد هيلد، الذي أوحى له بهذه القصة عنا نحن.

– نعم .. وماذا بعد ..؟

– يمكن أن نفكر بأن ذلك لن يكبر رأسه.

– ماذا تقصدين؟

– انه يتخيلنا نحن، ولكن من يدري انه ليس بدوره لعبة خيال وعي آخر؟

هز البرتو رأسه.

– حتماً يا صوفي، كل شيء ممكن. واذا كان هذا صحيحاً، يكون قد جعلنا نخوض في هذا النقاش الفلسفي، بهدف واحد هو اثارة هذا الافتراض، ويكون قد أراد أن يبرهن لنا انه ليس، هو أيضاً، إلاّ دمية بريئة، وان هذا الكتاب الذي تعيش فيه هيلد وصوفي، ليس سوى دليل فلسفي.

– كتاب مدرسي؟

– ذاك ان كل المناقشات التي دارت بيننا، كل تلك الحوارات، صوفي ...

– ماذا ...؟

– ما هي، في الواقع، إلا مونولوج.

–أحس وكأن كل شيء قد تحول الى وعي وروح. لحسن الحظ انه لا

يزال أمامنا بضعة فلاسفة، فلا يمكن للفلسفة التي بدأت مع طاليس، امفيدوكليس وديمقريطس، ان تنتهي هناك.

– لا، طبعاً. سأحدثك عن هيغل، الذي كان أول من حاول أن يجد نقطة ارتكاز للفلسفة، بعد أن أذابت الرومانسية كل شيء في الفكر والروح.

– كلي فضول لمعرفة المزيد.

– اقترح ان نجلس في الداخل، كي لا نتعرض لجنيٍّ آخر، أو لأي ارسال فكري.

– لقد بدأ الجو يبرد ..

– توقف!

هيغل

... ان ما هو معقول، هو ما يمتلك امكانية الحياة ...

تركت هيلد الملف الكبير يقع ارضاً، وتمددت على سريرها تراقب السقف. كانت تحس بالدوخة وترى الصور تتراقص امام عينيها.

هكذا نجح ابوها في اصابة الهدف! ولكن كيف فعل؟

لقد حاولت صوفي ان توجه لها الكلام مباشرة طالبة منها التمرد على ابيها. وقد توصلت فعلاً الى زرع الشك في راسها .. وماذا لو تبعت خطة صوفي والبرتو؟ ..

انهما عاجزان عن لمس شعرة من راس ابيها. ولكن .. هيلد.. عبر هيلد تستطيع صوفي ان تقترب منه.

اعترفتْ بان البرتو وصوفي لم يكونا على خطأ عندما اخذا على ابيها كونه قد ذهب بعيداً مع شخصياته. صحيح انه اخترعهما، وكونهما من قطع مختلفة، لكن ثمة حدودٍ لما يمكنه ان يفعل بهما.

مسكينان صوفي والبرتو! لقد كانا بدون اي دفاع في وجه خيال المايجور، كما تكون الشاشة مجردة من الدفاع في وجه من يبث عليها.

لهذا .. ستريه العجب عندما يعود! انها تتخيل الخطوط العريضة للمقلب الذي ستهيئه له.

نهضت الى النافذة، نظرت الى الشاطىء .. كانت الساعة قرابة الثانية، ففتحت النافذة ونادت باتجاه مرآب القارب:

– أمي!

خرجت الأم على الفور

– هل يناسبك أن آتي لك ببعض الشطائر خلال ساعة؟

– نعم، هذا جيد.

– بعد أن اقرا قليلاً عن هيغل.

كان البرتو وصوفي قد جلسا، كل في مقعده، بالقرب من النافذة المطلة على البحيرة. وبدأ البرتو كلامه:

– كان جورج ويلهلم فردريك هيغل، ابناً باراً للرومانسية، تابع كل عملية تطور الفكر الألماني. ولد في شتوتغارت عام (١٧٧٠)، وفي الثامنة عشرة من عمره، بدأ بقراءة علم اللاهوت في توبنجن. ومنذ عام (١٧٩٩)، راح يعمل مع شيلنغ في ايينا، في الوقت الذي كانت فيه الحركة الرومانسية في ذروتها. وبعد ان علم في ايينا حصل على كرسي استاذ في جامعة هيدلبرغ، التي كانت مركز الرومانسية القومية الألمانية–. وفي عام (١٨١٨) حصل على كرسي في جامعة برلين، التي كانت في طريقها لأن تصبح العاصمة الثقافية لألمانيا كلها. مات عام (١٨٣١) بمرض الكوليرا، لكن بعد ان كانت الهيغلية قد اكتسبت جمهوراً عريضاً في أكثر الجامعات الألمانية.

– الخلاصة، انه نجح.

– خصوصاً في دوره كفيلسوف، حيث جمع هيغل التيارات الفكرية الرومانسية الرئيسة، وطورها. ولم يتردد في توجيه نقد قاس لفلسفة شيلنغ.

– ما الذي كان ينتقده؟

– كان شيلنغ والاخرون، يرون في «روح العالم» مصدراً للوجود. وقد استعمل هيغل ايضاً عبارة «روح العالم» لكنه أعطاها معنى مختلفاً كلياً. فعندما يقول «فكر» العالم» أو «عقل العالم» فانما يعني مجمل الظواهر ذات الطابع الانساني. ذاك ان الانسان وحده هو الذي يمتلك «فكراً». وبهذا المعنى نستطيع أن نتحدث عن تطور فكر العالم عبر التاريخ. علينا ألاّ ننسى أبداً اننا نتحدث عن الحياة، الأفكار، والثقافات الانسانية.

– كما أفهم، أصبح هذا الفكر أقل ضبابية، وشبحية. فهو لم يعد قابعاً في الأحجار والأشجار كذكاء كامن، نائم.

– تذكرين ان «كانت» تحدث عن شيء اسماه «الشيء بذاته» .. حتى ولو ان الانسان لا يستطيع، برأيه، ان يسبر غور سر الطبيعة، ومع ذلك

يوجد نوع من «الحقيقة» المستعصية على الادراك. ويقول هيغل ان الحقيقة ذاتية بشكل أساسي، ولا يعتقد بامكان وجود حقيقة خارج أو فوق العقل البشري، فكل معرفة هي برأيه معرفة انسانية.

– باختصار، لقد أراد ان ينزل الفلاسفة الى الأرض.

– يمكن أن نقول ذلك. لكن، وبما ان فلسفة هيغل معقدة جداً، ومتعددة الوجوه، فسنكتفي بان نشير الى بضع نقاط أساسية. انه لمن الصعب ان نؤكد ان هيغل امتلك «فلسفته» الخاصة، ذاك ان مصطلح الفلسفة يعني عند هيغل، منهجاً لفهم حركة التاريخ، قبل كل شيء. لذلك يبدو من شبه المستحيل أن نتحدث عن هيغل، دون أن نتحدث عن تاريخ البشر. ففلسفته لا تقول لنا شيئاً عما يدعى طبيعة الوجود الحميمة، لكنها تُعلّمُنا ان نفكر بطريقة فعالة.

– ربما لا يكون هذا شيئاً أسوأ.

– تشترك كل الأنظمة الفلسفية، قبل هيغل، بأنها تحاول ايجاد معايير أبدية، يمكن لها ان تحدد مجال المعرفة عند الانسان. وينطبق هذا على ديكارت وسبينوزا، كما ينطبق على هيوم و«كانت». حيث حاول كل منهم أن يحدد أسس المعرفة الانسانية، ولكن بوضع نفسه في ظروف غير مؤقتة.

– اليس هذا واحداً من أول واجبات الفيلسوف؟

– كان هيغل يعتقد بأننا لا نستطيع ان نجمّد الآتي، ذاك ان ما هو قائم في أساس المعرفة الانسانية يتغير ويتطور عبر الأجيال. لذلك لا نستطيع الكلام عن «حقائق أبدية»؛ لا وجود لعقل لازمني. ولذلك فان القاعدة الصلبة الوحيدة التي يستطيع الفيلسوف أن يعمل انطلاقاً منها، هي التاريخ نفسه.

– انتظر، يجب أن توضح لي أكثر. ان التاريخ في تغير مستمر، فكيف يمكن أن يشكل قاعدة صلبة؟

– النهر أيضاً في تغير مستمر، ومع ذلك نستطيع أن نتحدث عنه، لكنه يكون من العبث ان نتساءل، عند أية نقطة يستحق أكثر تسمية «نهر».

– لا، لأنه يظل نهراً على طول مجراه.

– حسناً. يرى هيغل ان التاريخ أشبه بنهر، وتتحدد اقل حركة للماء، في هذه النقطة أو تلك من النهر، بقوة السقوط، وبالتيارات المائية، على امتداد النهر، كما انها تتحدد بالحصى والطمي ومستوى النهر الذي تقفين عنده وانت تنظرين.

– بدأت أفهم.

– ان كل تاريخ الفكر – لنقل تاريخ العقل – هو اشبه بمجرى النهر، وتتضافر كل الأفكار التي تجرفها الذات علينا، من جهة، مع الشروط المادية التي تحدد حاضرنا، من جهة أخرى، لتحديد نمط تفكيرنا. فلا يمكنك الإدعاء بأي حال، ان هذه الفكرة أو تلك صحيحة وأبدية، بل يمكن ان تبدو لك صحيحة حيث انت.

– اذن فليس من المهم ان يكون الأمـر خطـأً أو صـواباً، طالما ان النتيجة هي ذاتها!

– لا، يمكن لكل شيء ان يكون خطأً أم صـواباً بحـسب السيـاق الأسطوري. فإذا ما دافعت عن فكرة العبودية، في آخر القرن العشرين، لَنُظِرَ اليك – في احسن الأحوال – كمهرِّج.

لكن لم يكن يُنظر الى الامر هكذا قبل الفين وخمسمئة سنة، رغم وجود بعض الافكار النيرة التي وقفت ضد هذا السلوك.

لنأخذ مثالاً أقرب الينا: قبل مئة سنة أو أقل، لم يكن يعتبر ان من الخطأ احراق مئات الكيلو مترات من الغابات، لتوسيع رقعة الأراضي الزراعية. بينما غيرنا رأينا اليوم، لسبب واحد، هو اننا أصبحنا نمتلك عناصر أخرى – أفضل للحكم على عمل كهذا.

– حسناً، فهمت الآن.

– أوضح هيغل ان الشيء نفسه ينطبق على التفكير الفلسفي، علماً بأن العقل هو شيء ديناميكي، أي مشروع أو «سيرورة» .. والحقيقة هي هذه السيرورة بعينها. ولا يوجد بالتالي، أي معيار خارجي لهذه السيرورة التاريخية، لتحديد ما يمثل الدرجة الأعلى من «الحقيقة» أو «العقل».

– أمثلة!

– لا يمكن ان نُخْرِجَ أفكاراً مختلفة –من أفكار العصور القديمة، أو القرون الوسطى أو عصور التنوير– من سياقها التاريخي، ونرتبها قائلين: هذا صح وهذا خطأ. لا نستطيع أن نقول ان ارسطو كان على خطأ وأفلاطون على صواب، او ان هيوم أخطأ بينما اصاب «كانت» وشيلنغ. انها طريقة غير تاريخية، بل مضادة للتاريخ، في تحليل المشكلة.

– لا، لا يبدو ان هذا من باب العبقرية.

– كقاعدة عامة، لا يمكن فصل اي فيلسوف أو أية فكرة – أياً تكن – عن سياقها التاريخي. لكنني أصل هنا الى فكرة اساسية: طالما ان جديداً يحصل دائماً، اذن فالعقل «تقدمي»، أي ان معرفة الانسان هي في تطور مستمر، ومن هذه الزاوية، نرى انها تتجه «دائماً الى الأمام».

– بهذا المعنى تكون فلسفة «كانت» اكثر صحة من فلسفة افلاطون، اليس كذلك؟

– نعم، لقد تطور فكر العالم – توسع – من افلاطون الى «كانت»، وهذا اقل الأشياء. واذا ما عدنا الى صورة النهر، نقول ان الماء فيه تزايد اكثر فأكثر، اذ مرت اكثر من الفي سنة. وعلى «كانت» ألاّ يخطىء ويظن ان هذه الحقائق، ستقبع بهدوء على الشاطىء، لتصبح صخوراً راسخة، لأن أفكاره، «عقله»، هي أيضاً ستخضع لنقد الأجيال التي تليه، وهذا ما حصل بالضبط.

– لكن .. هذا النهر الذي حدثتني عنه.

– ما به؟

– الى أين يمضي؟

– يقول هيغل ان فكر العالم سينمو ليصل الى وعي اكبر فأكبر، لذاته. تماماً كما تصبح الأنهار أوسع مجرى كلما اقتربت من المحيط. فليس التاريخ، برأي هيغل، إلاّ سلسلة من الصحوات البطيئة لوعي العالم على نفسه. لقد وُجد العالم دائماً، ولكن عبر ثقافات البشر وتطورهم .. أصبح فكر العالم يعي خصوصيته أكثر فأكثر.

– كيف استطاع ان يكون واثقاً من ذلك؟

– انها حقيقة تاريخية، بالنسبة له، وليست نبوءة، فكل من يدرس التاريخ يرى ان البشرية تتجه نحو معرفة أكبر. ويشهد التاريخ، بالتالي، على ان البشرية تتطور باتجاه قدر اكبر من العقلانية والحرية. ورغم كل العوائق تتجه سيرورة التاريخ «الى الأمام»، فنقول ان للتاريخ هدفاً واحداً: انه يتجاوز نفسه.

– حسنا، لنقبل ان هناك تطوراً كما تقول.

– نعم، فما التاريخ إلاّ سلسلة طويلة من الأفكار ويحدد هيغل القواعد التي تحكم هذه السلسلة. ويكفي ان ندرس التاريخ قليلاً لنرى كيف تبنى كل فكرة على فكرة أخرى أقدم منها، لكنها ما تكاد تطرح، حتى تأتي فكرة أخرى، جديدة، ليستمر التوتر بين خطين فكريين، الى أن تزيله فكرة ثالثة تحافظ على الأفضل في سابقتيها .. وهذا ما يسميه هيغل بالتطور الجدلي.

– أعطني مثلاً؟ ..

– هل تذكرين مناقشات فلاسفة ما قبل السقراطية حول المادة الأولية وتحولاتها.

– نعم، بشكل عام.

– ثم جاء الايليّون الذين رفضوا فكرة التحول، مؤكدين انه لا يمكن للمادة ان تتحول. حتى انهم رفضوا التغيرات التي كانت تدركها حواسهم في الطبيعة. وقد صاغ الايليّون هذا التأكيد في طرح فلسفي محدد. هذا النوع من وجهات النظر، هو ما يسميه هيغل موقفاً.

– آه؟

– ولكن ما ان يُحدَّد موقفٌ ما تحديداً دقيقاً، حتى يجتذب نقيضه. وهذا ما يسميه هيغل النفي. فنفي فلسفة الايليّين، هو هيراقليطس الذي أعلن ان «كل شيء يجري». ومن هذه النقطة بدأ التوتر بين اسلوبي رؤية، متناقضين تماماً. لكن هذا التوتر قد حُفِظ، نُفي، ثم تم تجاوزه، عندما أكّد امفيدوكليس ان لدى الاثنيين ما هو صواب وما هو خطأ.

– بدأت أرى الأمور أوضح.

– كـان الايليّـون على حق عندمـا أكـدوا ان مـا من شيء يتـغـيـر، جـوهـرياً، لكنهم كـانوا على خطأ في قـولهم اننا لا نسـتطيع الوثوق بحواسنا.

كذلك كـان هيـراقليطس على حق عندمـا قـال إننا نسـتطيع الوثوق بحواسنا، لكنه كان على خطأ عندما قال ان كل شيء يجري.

– ذاك انه ليس هناك إلاّ مادة أولية واحدة، والتركيبة هي التي تتغير باستمرار، لا العناصر نفسها.

– صح. وجهة نظر امفيدوكليس، التي اشتركت فيها نقطتان، من وجهتي نظري متعاكستان، هي ما يسميه هيغل نفي النفي.

–يا إلهي ... أي مصطلح!

– وقد وصف مراحل المعرفة الثلاث بـ: الطريحة، النقيضة، والجميعة، هكذا يمكن القـول ان عقـلانيـة ديكارت هي طريحـة قـابلتـهـا كنقـيضـة، تجريبية هيوم، لكن هذا التناقض، هذا التوتر بين نمطي تفكير مـختلفين، قد تم نفيه وحفظه في جميعة «كانت». اذ يعطي هذا الاخير بعض الحق للعقلانيين وبعضه للتجريبيين، في نقاط محددة، كما يظهر أخطاء الاثنين في نقـاط أخرى. لكن التاريخ لا يتوقف عند "كانت"، فـفلسـفتـه بدورها نقطة انطلاق لسلسلة جديدة تتـألف بدورها من العناصـر الثـلاثة ذاتهـا التي يصـفـهـا هيـغل بالثـالوث. حيث تصبح كل جـمـيـعـة بدورها طريـحـة تستدعي نقيضة جديدة، وهلم جراً.

– هذا نظري جداً.

– هو في الواقع نظري جـداً. لكن هيـغل لا يريد ان يطبق، مـخططاً مـعـيناً للتـاريخ، بل انه اكتـفى بكشف بعض القـوانين التي تحكم تطور العقل – أو روح العالم – عبر التاريخ.

يظل ان جـدلية هيـغل لا تنطبق على التـاريخ فقط. فـعندمـا نريد أن نناقش أو نوضح شيئاً نجدنا نفكر بطريقة جدلية، مـحاولين تَبيُن اخطاء المجادلة، وهذا ما يسميه هيغل: «التفكير السلبي». لكننا، نـحاول، ونحن ننقد نمط تفكير، ان نحفظ ما هو جيّد.

– مثلاً.

– عندما يجلس اشتراكي ويميني على طاولة واحدة، ليحلا مشكلة اجتماعية، يكون هناك، حتماً، توتر بين اسلوبين مختلفين في النظر الى الحياة، وهذا لا يعني ان احدهما مخطىء كلياً، والآخر مصيب كلياً، وانما العكس. فلدى كل منهما بعض الخطأ وبعض الصواب .. ولذلك فإننا لا نحفظ من المناقشة إلاّ العناصر الايجابية في وجهة نظر كل منهما.

– آمل ذلك.

– على انه لا توجد ضمانات، عندما نحاول اتخاذ موقف، ان نتخذ موقف المصيب. لكن التاريخ، هو الذي يثبت في النهاية من كان على خطأ ومن كان على صواب. والصحيح هو وحده الذي يبقى «القادر على الحياة».

– الذي يستمر حياً، هو الصحيح، اليس كذلك؟

– او العكس .. ما هو صحيح يستمر حياً.

– إن لم أزعجك، ارغب في مثال.

– حسنا .. قبل مئة وخمسين سنة طالب عدد من الأشخاص بالمساواة في الحقوق بين المرأة والرجل، لكن كثيرين رفضوا ذلك. واذ عدنا اليوم الى حجج الطرفين نجد انه من الصعب علينا ان نقول اي منهما كان على حق. ولا ننسى انه يصبح من السهل جداً، بعد انقضاء الأمور ان نقول: «كان يجب أن يصار الى كذا، في الوضع كذا» فمن جهة، يتضح ان الذين دعوا الى المساواة كانوا على حق، ومع ذلك فسينزعج كثيرون عند قراءة وجهة نظر أجدادهم في الموضوع.

– لا عجب في ذلك. وماذا كان رأي هيغل؟

– عن المساواة بين الجنسين؟

– نعم، الم تكن تتحدث عن ذلك؟

– هل تريدين ان اسرد لك ما يقول نصاً؟

– بكل سرور.

– «ان الفارق الموجود بين المرأة والرجل، هو نفسه بين الحيوان والنبات، فالحيوان يماثل الطبع المذكر، أما النبات فيماثل الطبع المؤنث..

فالمرأة كالنبتة تنمو بهدوء، ومبدأ نموها موجود في الشعور الكلي اللامحدود. فإذا أصبحت النساء على رأس السلطة، تصبح الدولة في خطر، لأنهن لا يتصرفن وفق المبادىء الكونية، وانما بحسب الميول، والآراء الممكنة. ويتكون تشكل المرأة عن طريق التشبع بالجو الذي تنشره التصورات القائمة، اي بفعل ظروف الحياة، اكثر منه بفعل اكتساب المعارف. أما الرجل، فإنه على العكس من ذلك، لا يستطيع فرض نفسه إلاّ بتحصيل الفكر، وبمجهودات أخرى عديدة ذات طابع تقني.».

– شكراً .. لم أرد اكثر من هذا.

– لكن هذا النص لهيغل، يقدم أفضل مثال على مدى كون مفهوم «المحق» هو في تطور مستمر. كما انه يكشف عن ان هيغل كان ابن عصره، مثلنا جميعاً. فمفاهيمنا، التي تبدو الآن «حتمية» و«قطعية» جداً، لن تصمد بدورها امام اختبار الزمن.

– اليس هناك مثال؟

– لا

– ولماذا؟

– لأنني اتحدث عن شيء يتغير. لا أستطيع أن اقول انه من البله ان نقود سيارة لأنها تلوث الجو، فقد قالها كثيرون قبلي. والتاريخ هو نفسه الكفيل بأن يبرهن ان حتمياتنا ومسلماتنا لا تصمد أمام حكم الزمن.

– فهمت.

– كملاحظة معترضة، نقول ان حركة تحرير المرأة قد رأت النور، لأن الرجال، في زمن هيغل، كانوا ينادون بقوة، بدونية المرأة.

– كيف؟

– لقد طرح الرجل، برأي هيغل، فرضية، واذا كانوا قد اضطروا لذلك، فلأن حركة تحرير المرأة كانت قد بدأت. اذ لا فائدة من الدفاع عن نقطة يتفق عليها الجميع؟ وبقدر ما كان طرحهم حاداً، بقدر ما كان «النقيض» قوياً.

– أفهم.

– اذن يمكن ان تؤكدي على ان ما من شيء افضل للتقدم من وجود

معارضين أقوياء. وكلما كان المعارضون أقوياء كلما كانت ردة الفعل التي يثيرونها عنيفة. وهذا ما يسمى «سكب الماء في الطاحونة».

– اشعر الآن ان طاحونتي تدور بأقصى طاقتها الآن.

– من وجهة فلسفية أو منطقية بحت، هناك غالباً توتر جدلي بين مفهومين.

– مثلاً، من فضلك.

– اذا فكرت بمفهوم «ان اكون»، اجدني مضطراً للتفكير بالمفهوم المعاكس «أن لا أكون»، فمن المستحيل ان نفكر بما نحن، دون ان نفكر في الوقت ذاته، بأننا لسنا خالدين. والتوتر بين «ان اكون» و«ان لا أكون» يحل في مفهوم «اصبح». فلكي «يصير» أي شيء، يجب أن يكون ولا يكون.

– فهمت.

– لذلك نقول ان عقل هيغل هو عقل ديناميكي، وبما ان الواقع مكون من التناقضات فانه لمن المنطق ان يكون وضعه، على صورته، متناقضاً. خذي مثالاً:

يقال ان الباحث الشهير في الفيزياء النووية نيلز بوهر كان يضع فوق بابه حدوة حصان.

– هذا فأل خير.

– لكنه شيء من الخرافات أو الشعوذة، في حين ان نيلز بوهر هو أبعد الناس عن ذلك. وفي أحد الأيام جاء احد اصدقائه لزيارته ودار بينهما الحوار التالي:

– لا تقل لي انك تؤمن بهذه الأشياء!

– لا، أجاب بوهر، لكنني لم أسمع أحداً يقول انه غير ملائم.

– هذا يحبس الانفاس.

– لقد كان الجواب جدلياً، بل حتى متناقضاً. لقد قال نيلز بوهر يوما انه يوجد نوعان من الحقائق: الحقائق السطحية التي يكون المفهوم المتناقض لها، خاطئاً حتماً، والحقائق العميقة التي يمكن ان يكون عكسها صحيحاً أيضاً.

– أي نوع من الحقائق؟
– كأن اقول مثلاً ان الحياة قصيرة ....
– وأنا أوافقك.
– لكنني قد أمد في وقت آخر يدي في الهواء وأقول ان الحياة طويلة.
– هذا صحيح أيضاً.
– أخيراً .. سأعطيك مثالاً، يمكن للتناقض الجدلي فيه ان يسبب فعلاً مباشراً، يؤدي بدوره الى تغيير.
– اسمعك.
– تخيلي فتاة لا تتوقف عن القول: «نعم يا أمي» «حسنا يا أمي» «كما تريدين يا أمي» «سأفعل ما تقولين حالاً».
– هذا يجعلني أقشعر ..
– ثم يأتي يوم تمل فيه الأم من كون ابنتها مطيعة الى هذا الحد، فتصرخ بها بضيق: «كفاك، نعم» وتجيب الفتاة «لا يا أمي».
– لو كنت أنا لصفعتها كفين ..
– هكذا؟ وماذا كنت ستفعلين لو انها أجابت: «نعم يا أمي»؟
– لكان هذا جواباً غريباً. ربما كنت صفعتها أيضاً.
– بمعنى آخر نقول ان الوضع أصبح مجمداً، اذ بلغ التناقض اقصاه، بحيث لا يمكن ان تنتهي المسألة إلا بحدث خارجي.
– تقصد الصفعة؟
– اجل. تبقى نقطة أخيرة في فلسفة هيغل لا بد من ذكرها.
– تعرف انني مصغية.
– تذكرين اننا قلنا ان الرومانسيين كانوا فرديين.
– «الطريق السري يتجه نحو الداخل».
– حسناً. تجد هذه الفردية «نفيها» أو نقيضها، في فلسفة هيغل، الذي يبين أهمية «القوى الموضوعية»، التي تعني عنده، الأسرة والدولة. لا شك في ان هيغل لم يهمل الفرد بحد ذاته، لكنه يدرجه في المجموعة، كجزء عضوي فيها. فلا يتجلى عقل أو فكر العالم إلا في علاقات الناس فيما بينهم.

- أوضح.

- يتجلى العقل أولاً في اللغة، فنحن نولد ومعنا لغة. تستطيع اللغة الفرنسية أن تعيش بدون السيد دوبون، لكن السيد دوبون لا يستطيع أن يعيش بدون اللغة. فليس الفرد هو الذي يخلق اللغة وانما اللغة هي التي تخلق الفرد.

- من هذه الزاوية ..

- كما ان الفرد يأتي الى العالم، ضمن لغة محددة، فانه يولد ايضاً ضمن سياق تاريخي معين، لا يستطيع اي انسان ان يكون حراً في علاقته معه. والذي لا يجد موقعه في الدولة هو شخص لا تاريخي.

تذكرين ان هذه الفكرة كانت مهمة لدى كبار فلاسفة اثينا. فكما اننا لا نستطيع تصور دولة بدون مواطنين كذلك لا يمكن تصور مواطنين بدون دولة.

- فهمت.

- يرى هيغل ان الدولة هي «اكثر» من مواطن بسيط، بل اكثر من مجموع المواطنين. والخروج من المجتمع هو شيء مستحيل، برأيه. اما الذي يكتفي بهز كتفيه عندما نحدثه عن المجتمع الذي يعيش فيه، ويفضل ان يعيش لنفسه فقط، فهو انسان تافه.

- لا أدري ما اذا كنت أوافقه تماماً، لكن حسناً، فلنكمل.

- ليس الفرد هو الذي يجد نفسه برأي هيغل، وانما روح العالم.

- روح العالم يجد نفسه؟

- يقول هيغل ان روح العالم يرتدّ على نفسه على ثلاث مراحل متتالية. وهو يقصد بذلك ان روح العالم يعي نفسه على ثلاث مراحل.

- كيف؟

- أولا، يعي روح العالم نفسه في الفرد، أو هذا ما يسميه هيغل العقل الذاتي. ثم تأتي الدرجة الأعلى، أي الأسرة والدولة، وهذا ما يسميه هيغل العقل الموضوعي، لأنه عقل يتجلى من خلال تواصل الناس فيما بينهم. وتظل الدرجة الأخيرة ...

- كلي فضول لمعرفتها ..

– ان روح العالم يبلغ أعلى شكل المعرفة بذاتها في الوعي المطلق، والوعي المطلق هو الفن، الدين والفلسفة، حيث تمثل هذه الأخيرة الشكل الأكثر سمواً للعقل. طالما ان روح العالم انما يفكر، فيها، بنشاطه الخاص على امتداد التاريخ، اذن فان روح العالم لا يتحقق ويبلغ مساواته الكاملة مع نفسه، إلاّ في الفلسفة. ويمكن أن نمضي إلى حد قول ان الفلسفة هي «مرآة» روح العالم.

– ما تقوله غريب. بحيث احتاج الى وقت كي أهضمه. لكنني أحببت كثيراً الصورة الأخيرة التي استعملتها.

– اجل انها جميلة. هل تعتقدين ان لها علاقة بالمرآة البرونزية العتيقة؟

– ماذا تقصد؟

– أعتقد أن لهذه المرآة دلالة خاصة، على اعتبار اننا نصادفها دائماً في طريقنا.

– هل لديك اذن فكرة عما تعنيه؟

– لا، لا، كل ما أقوله انه لا يمكن ان يتكرر حضور المرآة دائماً، ان لم يكن لها دلالة خاصة لدى هيلد وأبيها. اما ما هي هذه الدلالة؟ فهيلد وحدها هي التي يمكنها ان تعرف.

– أهذا من باب السخرية الرومانسية؟

– هذا سؤال لا جواب له، يا صوفي.

– لماذا؟

– لسنا نحن من يقود اللعبة، ما نحن إلاّ ضحايا لهذا النوع من السخرية. اذا ما قام ولد متخلف بخربشة شيء على ورقة، فان الورقة لن تتمكن من أن تقول لك، ما يعنيه الرسم.

– أشعر بالبرد في ظهري ..

كيركيغارد

... ان اوروبا تسـيـر ببطء نحـو الافلاس ...

نظرت هيلد الى ساعتها، كان الوقت قد تجاوز الرابعة، فوضعت الملف على المكتب لتسرع الى المطبخ. عليها ان تسرع ان كانت تريد الأ تفقد امها كل امل في مساعدتها، لكنها القت في طريقها نظرة على المرآة.

في انتظار ان يغلي الماء دهنت على عجل بضع قطع من الخبز بالزبدة.

لقد اتخذت قرارها، سوف ترد لوالدها الكيل! فهي تشعر بانها تصبح اكثر فاكثر حليفة لصوفي والبرتو، وستبدأ الامور من كوبنهاغن..

بعد وقت قصير جداً كانت تقف قرب مرآب القارب حاملة طبقاً كبيرا.. وتنادي امها:

– هاك فطورك!

رفعت الأم يدها القابضة على ورقة الصنفرة، الى جبينها، تمسح عرقه بظاهر الكف.

ثم جلستا على العشب تاكلان.

– متى سيعود ابي؟ سالت هيلد.

– السبت، انت تعرفين ذلك.

– لكنك قلت لي انه سيمر اولاً بكوبنهاغن.

– وإذاً ...

كانت الأم تاكل شطيرة من الكبد مع شرحة خيار.

– .... سيهبط في كوبنهاغن نحو الخامسة، ثم تقلع طائرة كريستيانستاد في الثامنة والربع. اتوقع ان يصل الى كجيفيك في التاسعة والنصف.

– اذن سيضطر للانتظار بضع ساعات في مطار كوبنهاغن.

– ولماذا تساليننى عن كل هذا؟

– لاعرف فقط. كنت اتساءل: كيف سيعود.

تابعنا تناول الطعام الى ان شعرت هيلد، بانه اصبح مناسباً ان تطرح السؤال الذي يلح عليها.

– هل سمعت شيئاً عن آن وبيتر، مؤخراً؟

– نعم، هاتفاني مرتين او ثلاثاً، وسيعودان من الاجازة خلال تموز.

– ليس قبله؟

– لا، لا اعتقد.

– اذن سيكونان، في كوبنهاغن، هذا الاسبوع ..

– هل تخفين عني شيئاً يا هيلد؟

– لا، لا شيء البتة.

– لقد حدثتني مرتين عن كوبنهاغن ..

– حقاً؟

– قلت لك اولاً أن اباك سيهبط هناك.

– لا شك ان ذلك ما جعلني اتذكر. آن وبيتر كفامسدال.

ما ان انتهتا من تناول الطعام حتى جمعت هيلد الصحون والاكواب الفارغة، قائلة:

– يجب ان اصعد لأتابع القراءة .. يا امي ..

– انت قلت ..

اليس في تعليق الأم نبرة لوم؟ صحيح انه كان يجب ان تتعاونا معاً في تنظيف القارب، قبل ان يعود الأب.

– لقد وعدني ابي – بطريقة ما – بان ينهي كتابه قبل عودته.

– أرى أن الأمر غير معقول. فان يكون غائباً، ذاك شانه، اما ان يتدخل في كل ما يجري في المنزل في غيابه، ويحاول ان يدير كل شيء من هناك...

– لو كنت تعرفين كل ما يديره .. – قالت هيلد بصوت حالم – انت لا تتخيلين الى اي حد يعشق هذا.

ثم صعدت الى غرفتها، واستانفت القراءة.

فجأة سمعت صوفي طرقاً على الباب، فنظر اليها البرتو نظرة صارمة:

– لن ندع أحداً يلهينا.

عادت الطرقات تتكرر .. لكن البرتو بدأ كلامه:

– سأحدثك عن فيلسوف دانمركي تأثر كثيراً بفلسفة هيغل.

أصبحت الطرقات بالغة العنف، لدرجة جعلت الباب كله يرتج.

– انها ولا شك حيلة جديدة من المايجور الذي يرسل لنا احدى هذه الشخصيات السخيفة ليمتحننا، دون ان يتطلب ذلك منه جهداً.

– ولكن، قد تتملكه رغبة في تدمير الشاليه كله، اذا لم نفتح.

– ربما انك على حق، فلنفتح.

اتجها الى الباب، وظنت صوفي – بناءً على عنف الطرقات – انها ستجد أمامها رجلاً ضخما، لكنها فوجئت بفتاة صغيرة ذات شعر أشقر طويل، وفستان صيفي مورد، تحمل بيديها زجاجتين: الأولى حمراء، والثانية زرقاء.

– صباح الخير، من انت؟ بادرتها صوفي.

– اسمي اليس. قالت الفتاة وهي تنحني احتراماً.

– كنت أشك في ذلك، انها اليس في بلاد العجائب.

– ولكن كيف جاءت الى هنا؟

عندها قالت اليس:

– بلد العجائب هو بلد لا يعرف الحدود، مما يعني انه في كل مكان، كالأمم المتحدة تقريباً .. لذلك يجب أن يكون عضو شرف فيها، ويجب أن يكون لنا ممثلون في كل الوفود.

– آه، من هذا المايجور؟ همهم البرتو.

– وما الذي جاء بك الى هنا؟

– كُلفت بأن أعطي زُجاجَتَيْ الفلسفة هاتين لصوفي.

قالت وهي تمد يدها بهما.

كانتا من زجاج غير مصقول، ولا تختلفان إلاّ في لون السائل. على الزجاجة الحمراء كتب «اشربني» وعلى الزرقاء «اشربني انا أيضاً».

وبعد قليل مر أرنب أبيض بسرعة البرق من أمام الشاليه، كان يركض على قائمتين ويلبس صديرياً وسترة، اخرج منها ساعة جيب وهو يقول:

– يا الهي، سأصل متأخراً.

ثم استأنف ركضه وتبعته اليس. بعد أن أدت حركة انحناء أخرى أمام صوفي، قائلة:

– حسناً، سيتكرر هذا.

– سلمي لي على دينا والملكة، صاحت بها صوفي، قبل ان تختفي في الغابة. واذ أصبح البرتو وصوفي وحدهما، راحا يتفحصان الزجاجتين.

– اشربيني، اشربيني انا ايضاً، قرأت صوفي بصوت عالٍ، ثم اضافت: «لا أدري ما اذا كنت سأتجرأ على ذلك».

واكتفى البرتو بان هز كتفيه.

– المايجور هو الذي ارسلهما لنا، وكل ما يأتي منه هو من باب الوعي. انها ليست اذن إلاّ «عصير فكر».

فتحت صوفي الزجاجة الحمراء، وقربتها بحذر من شفتيها. كان طعم السائل حلواً وغريباً .. لكن .. فجأة، أصبح كل ما حولها مختلفاً.

لكأن البحيرة والغابة والشاليه، تذوب كلها في عنصر واحد. واحست بانها لم تعد ترى إلاّ شخصاً واحداً، هو صوفي امندسون. رفعت نظرها الى البرتو، لكنه هو أيضاً بدا جزءاً من روح صوفي.

– انه لتأثير غريب – قالت – أرى كل الأشياء كما في السابق، لكن كأن كل شيء هو جزء من كل، أحس ان كل شيء ما هو إلاّ وعي واحد ووحيد.

حك البرتو رأسه، فأحست صوفي انها هي أيضاً تحك رأسها.

– انها الحلولية، أو فلسفة الكلية. انه فكر العالم لدى الرومانسيين، فالعالم كله – برأيهم – ما هو إلا «أنا» واسعة. هيغل أيضاً، لم ينس الفرد لكنه رأى في العالم التعبير عن عقل كوني واحد ووحيد.

– هل علي أن أشرب من الزجاجة الثانية؟

– هذا ما هو مكتوب.

فتحت صوفي الزجاجة الزرقاء وشربت جرعة كبيرة .. كان الطعم أكثر حدة لكنه منعش أكثر. وعندها، أيضاً، تغير كل ما حولها، فجأة.

فقد تبدد الاحساس الذي سببه السائل الأحمر، وعاد كل شيء الى ما كان عليه سابقاً: البرتو عاد البرتو، اشجار الغابة عادت أشجاراً، والبحيرة الصغيرة بحيرة.

لكن هذا لم يدم إلاّ ثانية، استمرت بعدها الأشياء في الانفصال بعضها عن بعض، أمام عيني صوفي المدهوشتين، فلم تعد الغابة غابة، وأصبحت أصغر الشجيرات عالماً بذاتها، بل أصغر الأغصان كونا رائعاً يمكننا ان ننسج منه الف حكاية.

مرة واحدة، اصبحت البحيرة الصغيرة بحراً لا متناهياً، لا في عمقه واتساعه، وانما بسبب لعبة الأضواء التي دارت فيه، ودقة خطوط شواطئه. وفهمت صوفي بأن حياتها تكفي لتأمل هذه البحيرة التي ستظل، حتى بعد موتها هي، سراً، لا يمكن سبر غوره.

رفعت نظرها نحو قمة شجرة، حيث تتناجى ثلاثة عصافير. كانت قد لاحظت وجودها بعد أن شربت من الزجاجة الحمراء، لكن دون ان تتوقف عنده، لأن تلك الجرعة قد محت كل التقابلات والاختلافات الفردية.

نزلت صوفي عبر الممر الحجري، ثم انحنت فوق العشب، واذا بها تكتشف عالماً لم تكن تتوقعه. تماماً كما يحصل عندما نغوص تحت ماء البحر للمرة الأولى، ونفتح عينينا تحت الماء. لقد كانت الحياة تضج بين أوراق الأعشاب والقش. ورأت صوفي عنكبوتاً تشق طريقها بصعوبة، عبر العشب، وحشرة حمراء صغيرة تصعد وتنزل بسرعة على غصن صغير، وجيشاً من النمل يعمل بجد. لكنها لاحظت ان لكل نملة طريقة خاصة في رفع قوائمها.

لكن الطامة الكبرى، كانت، عندما نهضت لتنظر الى البرتو الذي ظل واقفاً على المصطبة، اذ رأت فيه شخصاً غريباً، نوعاً من المخلوقات ما فوق الأرضية، أو شخصية من شخصيات الحكاية، تخرج من كتاب غير كتابها. هي أيضاً كانت كائناً متميزاً: لم تكن فقط مجرد كائن بشري،

فتاة في الخامسة عشرة، بل صوفي امندسون الوحيدة والفريدة.

– ماذا ترين؟ سألها البرتو.

– أرى أنك رجل غريب.

– هكذا؟

– اعتقد أنني لن أفهم أبداً تاثير أن أكون شخصاً آخر، فليس في العالم، اثنان متشابهان.

– والغابة؟

– لم تعد تشكل «كلاًّ» لكنها محيط رائع، تدور فيه مغامرات غريبة.

– هذا يؤكد ما كنت أفكر به. الزجاجة الزرقاء هي الفردية، وهي تميز ردة فعل سورين كيركيفارد على الحلولية الرومانسية.

دانمركي آخر عاش في عصر كيركيفارد، هو الروائي المشهور هـ.س. اندرسون، الذي اكتشف في الطبيعة أسرارها التي لا تحصى، وقيّم ثراءها اللامحدود، متفقاً في ذلك مع الفيلسوف الألماني ليبنيز، الذي عاش قبله بقرن، وكانت له النظرة الطبيعية نفسها، منتقداً بذلك فلسفة سبينوزا الحلولية، كما انتقد كيركفارد فلسفة هيغل، فيما بعد.

– أنا أسمعك. لكنك تبدو غريباً لدرجة تضحكني.

– افهم ذلك. خذي جرعة أخرى من الزجاجةالحمراء، وتعالي اجلسي قربي. فلا يزال لدينا ما نقوله عن كيركيفارد، قبل أن نختم اليوم.

عادت صوفي الى الجلوس قرب البرتو، بعد أن شربت جرعة من القنينة الحمراء، وذابت الأشياء من جديد، بعضها ببعض. بل انها ربما شربت كثيراً، لأن كل التفاصيل قد اختفت مما اضطرها لأن تلحس قليلاً من القنينة الزرقاء، كي يعود العالم كما كان قبل مجيء اليس.

– لكن .. ما هي الحقيقة؟ تساءلت صوفي. أي من القنينتين الزرقاء أم الحمراء، يعطي تجربة حقيقية للعالم؟

– الاثنتان معاً يا صوفي. لا نستطيع أن نقول ان الرومانسيين اخطأوا، لأنه لا وجود إلاّ لحقيقة واحدة، وقد رأوا هم مظهراً واحداً من مظاهرها.

– والقنينة الزرقاء؟

– لا بد ان كيركيغارد قد شرب منها جرعة كبيرة، فقد كان يدافع بحدة عن المفهوم الفردي. فنحن لسنا فقط «أبناء عصرنا» برأيه، وانما كل واحد منا، هو شخصية فريدة لا تعيش إلاّ مرة واحدة.

– وهيغل، ألم يهتم بهذه المسألة اهتماماً خاصاً؟

– لا، كان يفضل ان ينظر الى الخطوط العريضة للتاريخ. وهذا ما أثار حساسية كيركيغارد. فحلولية الرومانسيين، مثلها مثل تاريخية هيغل، تُعَوِّم المسؤولية الفردية؛ لذلك يرى كيركيغارد ان هيغل والرومانسيين يتشابهان في النهاية.

– افهم كيف جعله ذلك مريضاً.

– ولد سورين كيركيغارد عام (١٨١٣)، ورباه أبوه تربية قاسية، كما أورثه حساً دينياً عميقاً.

– لا يبدو هذا مشجعاً.

– هذا الحس الديني هو الذي جعله يفسخ خطوبته، وذلك ما لم يرق أبداً لبورجوازية كوبنهاغن، ذات الثقل الاجتماعي الكبير، مما جعله يتحمل الكثير من السخرية والانتقادات، وشيئاً فشيئاً تعلم ان يرد على منتقديه، وان يدافع عن نفسه، لكنه أصبح «عدو الشعب»، كما لقبه إبسن.

– كل هذا، لانه فسخ خطوبته؟!

– ليس ذلك فقط .. ففي المرحلة الأخيرة من حياته، راح يوجه انتقادات شديدة للثقافة الأوروبية: «ان اوروبا كلها تتجه نحو الافلاس» كان يقول. ويعتبر ان مرحلته كلها تفتقر الى الحماسة والالتزام، ولم يكن يتحمل فتور الكنيسة الدانمركية اللوثرية، وافتقارها الى الشدة، فيما كان يسميه ساخراً، غاضباً «مسيحية يوم الأحد».

– اليوم أيضاً يدين بعضهم «مسيحية الاحتفالات الكبرى بالقربان الأول» علماً بان بعضهم لا يحتفلون بقربانهم إلاّ بهدف تلقي الهدايا.

– هنا يوضع الاصبع على الجرح. فكيركيغارد يرى أن الدين يفرض نفسه بحتمية ويتعارض مع العقل، مما يجعلنا مجبرين على الاختيار: اما هذا واما ذاك. فلا يمكن ان نكون «مسيحيين قليلاً» أو «الى حد ما».

فاما ان المسيح قام في الفصح، واما انه لم يقم. واذا كان قد قام من بين الأموات، فانه قد مات حقاً لخلاصنا. وقد كان هذا أمراً استثنائياً بحيث يستحق ان يقود حياتنا كلها.

– افهم.

– لكن كيركيغارد انتبه الى ان الكنيسة، ومعظم المسيحيين ينظرون بطريقة مدرسية الى القضايا الدينية. فالدين والعقل، هما برأيه، كالماء والنار، ولا يكفي ان نؤمن بأن المسيحية «صح»، بل ان الايمان الحقيقي يتمثل في اتباع خطى السيد المسيح.

– وما علاقة هيغل بذلك كله؟

– حسناً، ربما كان علينا ألاّ نبدأ من هنا.

– اذن، لنعد الى الوراء، ونبدأ من جديد.

– بدأ كيركيغارد بدراسة علم اللاهوت وهو في السابعة عشرة من عمره، لكن اهتمامه راح يتجه أكثر فأكثر نحو القضايا الفلسفية، وفي السابعة والعشرين من عمره نال الدبلوم في الفلسفة عن بحث بعنوان «حول مفهوم السخرية وعلاقته بسقراط» حيث هاجم المفهوم الرومانسي للسخرية، وللايهام، ورأى في «السخرية السقراطية» نقيض هذا المفهوم، اذ يستعمل سقراط السخرية كوسيلة فعل، كي يبرز قيمة الجانبية العميقة للحياة. ويرى كيركيغارد ان سقراط، وعلى العكس من الرومانسيين، هو «مفكر وجودي» اي ان الوجود يشكل جزءاً أساسياً من فلسفته.

– اذا كنت تقول ذلك فـ ...

– بعد ان فسخ خطوبته على ريجين اولسن، سافر كيركيغارد عام (١٨٤١) الى برلين حيث تابع دروس شيلنغ.

– وهل التقى هيغل؟

– لا .. كان هيغل قد توفي قبل ذلك بعشر سنوات، لكن أفكاره كانت تعم، لا برلين وحدها، وانما اوروبا كلها تقريباً. واصبح «منهجه» نموذجاً يستخدم لتفسير مسائل مختلفة. وكان يرى ان «الحقائق الموضوعية» التي تنادي بها الفلسفة الهيغلية، لا يمكن ان تطبق على الوجود الفردي.

– اذن، أي نوع من الحقائق هو المهم؟

– ليس المهم ان نجد «الحقيقة» كاسم علم واحد، وانما ان نجد «حقائق» تتعلق بحياة كل فرد .. المهم ان اجد ما هو «صحيح لي». بهذا يضع كيركيغارد الفرد، في مواجهة «المنهج»، ويري ان هيغل قد نسي انه هو أيضاً رجل فرد. وان الأستاذ الهيغلي النموذجي، هو الذي يوضح، من أعلى برجه العاجي، سر الحياة الكبير، وينسى حتى اسمه، وواقع انه ببساطة، انسان، لا عنوان لامع لفصل.

– وما هو الانسان برأي كيركيغارد؟

– من الصعب ان اجيبك جواباً عاماً. فكيركيغارد لا يرى فائدة من وصف عام للطبيعة العميقة أو للانسان «الكائن». فالمهم هو وجود كل فرد، ولا يمكن للانسان ان يعي وجوده، من وراء مكتب. فبالفعل، وتحديداً، امام الاختيارات، نكتشف علاقتنا بوجودنا الخاص، ويمكن تمثيل ذلك بالقصة التي تروى عن بوذا.

– بوذا؟

– اجل، ففلسفة بوذا، تنطلق أيضاً من وجود الانسان.

كان هناك راهب يرى ان بوذا لا يعطي اي جواب مرضٍ عن اسئلة هامة جداً، من مثل طبيعة العالم والانسان. وقد اجابه بوذا، بان أشار باصبعه الى رجل مصاب بسهم مسموم .. لم يكن هذا الرجل المصاب يسأل أبداً – من زاوية نظرية بحت – مما هو مصنوع السهم، أو ما هو نوع السهم، أو من أية زاوية أطلق؟

– ما يريده هو ان نسحب السهم ونداوي جرحه.

– اجل، اليس كذلك؟ هذا ما يبدو مهماً بشكل وجودي، بالنسبة له.

– لقد كان بوذا يشعر بعمق، ككيركيغارد، ان وجوده لن يدوم الا لحظة قصيرة، لذلك لا يجد فائدة – والحال هذه – من الجلوس وراء مكتبه، لمناقشة طبيعة «فكر العالم».

– افهم.

– كذلك يقول كيركيغارد، ان الحقيقة «ذاتية» مما لا يعني، برأيه، ان كل الآراء متساوية، بل ان الحقائق المهمة فعلاً، هي شخصية ذاتية،

وهذه الحقائق، هي فقط التي ينطبق عليها ما هو «حقيقة لي».

– هل يمكنك ان تعطيني مثالاً على هذه الحقائق الذاتية؟

– مثال أساسي، هو مثال حقيقة المسيحية، حيث انه من المستحيل ان نجيب عنها بطريقة نظرية أو جامعية. لأن القضية هي بالنسبة لمن يرى نفسه «كائناً في الوجود»، قضية حياة أو موت، لا يمكن ان تكون موضوعاً للمناقشة، لمجرد الرغبة والمتعة في المناقشة، بل شيئاً نحاول الاقتراب منه بكل حماسة، وبروحنا وضميرنا.

– افهم.

– اذا ما وقعت في الماء، فانك لا تطرحين على نفسك أسئلة نظرية لمعرفة ما اذا كنت ستغرقين أم لا. كما لا يكون من «المهم» أو «غير المهم» معرفة ما اذا كان في الماء تماسيح، لأن القضية تكون ببساطة قضية حياة أو موت.

– شكراً للتوضيح.

– يجب اذن التمييز بين السؤال الفلسفي عن وجود الله، والموقف الفردي من السؤال نفسه. اذ يجد كل انسان نفسه وحيداً، ازاء الاجابة عن سؤال من هذا النوع. وحده الإيمان يساعدنا على الاقتراب من هذه القضايا الأساسية، اما القضايا التي نستطيع أن نعرفها بعقلنا، فهي، برأي كيركيغارد، اضافية، تابعة.

– لا .. لم أفهم، يجب أن توضح لي.

– (٨ + ٤ = ١٢)، هذا ما نستطيع ان نكون واثقين منه تماماً. هذا مثال على هذا النوع من الحقائق، التي تحدث عنها كل الفلاسفة، منذ ديكارت. ولكن ما علاقته بصلاة المساء؟

– والإيمان، أين الإيمان في كل هذا؟

– لا يمكنك ان تعرفي ما اذا كان احدهم قد غفر لك عملاً سيئاً، ولهذا يكون من المهم جداً بالنسبة لك أن تعرفي. انها مسألة يمكن ان ترافقك طوال حياتك. كذلك يكون من المستحيل ان تعرفي ما اذا كان احدهم يحبك، واكثر ما تستطيعينه هو ان تأملي ذلك أو تتمنيه. لكنه يظل اكثر اهمية بالنسبة لك من معرفة ان مجموع زوايا المثلث يساوي

مئة وثمانين درجة. أو لنقل، انه لا يمكن ان تتساءلي عن «قانون السببية» أو «الأشكال التقريبية للحساسية» وانت تتلقين قبلتك الأولى.

– والاّ اكون مختلة تماماً.

– أولاً، الايمان مهم جداً لكل ما يتعلق بالقضايا الدينية. «اذا كنت استطيع أن أمسك بالله موضوعياً، لا يكون لدي ايمان .. لكنني مضطرة للإيمان، لأنني، تحديداً، لا أستطيع ذلك. واذا كنت أريد ان احافظ على الايمان، فعلي ان احرص على البقاء في الجهل الموضوعي، والحفاظ، رغم ذلك، على ايماني».

– هذه صيغة ثقيلة قليلاً على الفهم.

– حاول كثيرون قبل ذلك، اثبات وجود الله، أو ادراكه بالعقل، على الأقل. ولكن اذا قبلنا هذا النوع من الدليل على وجود الله، ومن حجج العقل نفقد الايمان الحقيقي، وبالتالي كل احساس ديني حميم. اذ ليس المهم ان اعرف ما اذا كانت المسيحية صح أم خطأ، بل ما اذا كانت صحيحة بالنسبة لي أنا. ففي القرون الوسطى كان لا يزال شائعاً، القول: Credo quia absurdum.

– ما معناه؟

– أي: «أنا أؤمن لأن ذلك مناقض للعقل». فلو ان المسيحية قد خاطبت عقلنا، دون الظواهر الأخرى لشخصيتنا، لما احتجنا للايمان.

– هذا .. افهمه.

– هكذا نرى ما يعنيه كيركيغارد بالمفاهيم «وجود»، «حقيقة ذاتية»، وما يغطيه مفهوم «الايمان» برأيه. وتحدّد هذه المفاهيم الثلاثة، نقد التراث الفلسفي، بدءاً من هيغل، بل «نقد الحضارة» أيضاً؛ اذ ان الانسان، قد أصبح، في المجتمع الحديث، هو «الجمهور» أو «العامة»، وميزته انه لا يستطيع ان «يتحدث» عن كل شيء وعن لا شيء. وربما قلنا اليوم ان «الامتثالية» هي التي تسيطر، اي ان الجميع يفكرون بالشيء نفسه، ويدافعون عنه، دون ان يكون لديهم اقل التزام حقيقي ازاءه.

– كنت أتساءل عما اذا لم يكن ثمة خيط يربط كيركيغارد بأبوي

جورون.

– اقل ما يمكن قوله، انه لم يكن لا مبالياً بالآخرين، فقد كان قلمه قاسياً، وكان يعرف كيف يحبك السخرية .. ويستطيع أن يطلق صيغاً مستقلة من نوع «الجمهور عدو الحقيقة» أو «الحقيقة هي دائما في صف الأقلية». اذ يعتقد بأن أكثر الناس يكتفون بأن يلعبوا الحياة، دون ان يطرحوا على أنفسهم أي سؤال.

– سيىء ان نجمع دمى باربي، لكن الأسوأ، ان نكون نحن أنفسنا دمية باربي ...

– يقودنا هذا الى الحديث عن «المراحل الثلاث على طريق الحياة».

– عفواً؟

– اعتبر كيركيغارد ان هناك ثلاثة مواقف ممكنة ازاء الوجود، اطلق عليها مصطلح «مراحل»: «المرحلة الجمالية»، «المرحلة الأخلاقية» و«المرحلة الدينية». وكان يقصد باستعمال مصطلح «مرحلة» ان يقول انه يمكن لنا ان نتوقف عند المرحلتين الأوليتين، ثم «نجتاز» فجأة، الهوة التي تفصلنا عن الثالثة، رغم ان اكثر الناس يظلون طوال حياتهم في المرحلة ذاتها.

– أعتقد انني بحاجة الى توضيح، أود ان أعرف في أية مرحلة أقف أنا.

– الذي يعيش في المرحلة الجمالية، يعيش في اللحظة، ويبحث في كل دقيقة، عن متعته، ويرى الخير فيما هو جميل وممتع. ومن هذه الزاوية، يعيش دائماً في عالم الحواس. فمدعي الفن أو متذوق الجمال هو لعبة أهوائه ورغباته، وهو يرفض كل ما هو مضجر أو ما «يخيف»، كما يقال اليوم.

– شكراً .. أنا أعرف هذا النوع من الناس.

– الرومانسي النموذجي، هو اذن هذا النمط من متذوق الجمال أو مدعي الفن. فما يحدد المرحلة الجمالية، ليس فقط متعة الحواس، وانما ايضاً الموقف اللعبي من حقيقة الفن والفلسفة. حتى انه يمكن النظر الى الهموم والعذابات، وعيشها، من وجهة نظر جمالية .. وعندها يسيطر

الادعاء والتبجح. ويصف ابسن في Peer Gynt شخصية متذوق جمال، أو مدعي فن، محضة.

– افهم ما تقوله.

– هل تذكرت احداً؟

– ليس بالتحديد. لكن هذا قد ينطبق على المايجور.

– نعم، ثم، ان عليك ان تقفلي فمك، رغم ان ذلك يقدم مثالاً جيداً على السخرية الرومانسية.

– ماذا تقول؟

– لا شيء، ليس هذا خطأك.

– تابع.

– الذي يعيش المرحلة الجمالية فقط، يداهمه بسرعة، شعور بالقلق والفراغ .. لكن ذلك يمثل شيئاً ايجابياً، فالقلق، برأي كيركيغارد، شيء ايجابي قليلاً، لانه تعبير عن كوننا في «مرحلة وجودية». ويمكن لمتذوق الجمال ان يختار «القفزة» الكبرى التي توصله الى المرحلة العليا، لكن يمكن ألا يحصل شيء. فلا فائدة من عبور العتبة، اذا لم نمض حتى النهاية. والقضية هنا قضية «مبادرة» لا يستطيع أحد أن يتخذها بدلاً منك. عليك وحدك ان تختاري.

– هذا يذكرني بقرار التوقف عن التدخين.

– قليلاً. عندما يتحدث كيركيغارد عن ذلك، فهو انما يذكرنا بسقراط، الذي كان يقول ان كل وعي حقيقي، يأتي من الداخل ولا بد ان يأتي الخيار الذي يدفع الانسان للعبور من المرحلة الجمالية، الى المرحلة الأخلاقية، ومن ثم الى اتخاذ موقف ديني، من الداخل. هذا ما وصفه ابسن في Peer Gynt، ومثله الكاتب الروسي فيودور دوستويوفسكي، الذي قدم لنا وصفاً متفوقاً لهذا الخيار، الذي ينبثق من أعماق شدة حقيقية كان يواجهها أبطال الجريمة والعقاب.

– هل تريد ان تقول: انه في أفضل الحالات، يتم اختيار رؤية أخرى للحياة؟

– نعم .. هكذا نعبر الى المرحلة الأخلاقية، وهي مرحلة

مشبعةبالجاذبية، نحاول فيها أن نعيش وفق معايير أخلاقية. وهي تذكرنا بأخلاقيات الواجب لدى «كانت»، حيث يقول ان علينا أن نتبع القانون الأخلاقي الكامن في داخلنا. ويتوجه كيركيغارد، مثل «كانت»، الى الجزء الحساس في الانسان: ليس المهم ان نعرف ما هو صح وما هو خطأ، وانما ان نختار ونتصرف، وفق هذا التمييز. في حين ان «متذوق الجمال» لا يهتم إلاّ بمعرفة ما هو ممتع ومسلّ، ليترك جانباً كل ما هو ممل.

– ولكن، اذا ما قررنا ان نعيش كذلك، ألا نصبح جادين أكثر مما يجب؟

– نعم، بالتأكيد. ومع ذُلك لا يرى كيركيغارد ان المرحلة الأخلاقية كافية، اذ ان رجل الواجب، يمل في النهاية من التنبه الدائم لواجبه، ومن عدم انتهاك القواعد الحياتية التي وضعها لنفسه، وهو ملل يصل اليه معظم البالغين. فيقعون من جديد في المرحلة الجمالية حيث الحياة أشبه بلعبة. بينما يتجاوز آخرون المرحلة الأخلاقية، الى المرحلة الأخيرة، الدينية. ويتجرأون على القفزة الكبيرة الى أعماق الايمان، مفضلين الايمان، على متع الحواس، واتمام الواجب الذي يمليه العقل.

وحتى لو بدا «مرعباً أن نقع أحياء بين يديّ الله» بحسب تعبير كيركيغارد، فان الانسان يجد بذلك، التصالح المأمول، مع نفسه.

– عن طريق المسيحية، اذن.

– نعم، المرحلة الدينية، هي برأي كيركيغارد، المسيحية. لكن فكره ترك تأثيراً كبيراً على فكر فلاسفة غير مسيحيين. وفي القرن العشرين ازدهرت فلسفة جديدة اسمها «الوجودية» استوحت من كيركيغارد كثيراً.

نظرت صوفي الى ساعتها

– يجب أن أعود، وإلاّ فان أمي ستثير مشكلة.

قالت هذا، وأومأت بيدها محيية الفيلسوف قبل أن تركض مسرعة نحو البحيرة والقارب.

ماركس

... شــــــــــــبح يــلازم اوروبــا ...

نهضت هيلد من سريرها، ووقفت قرب النافذة المطلة على الخليج. لقد بدات نهارها، يوم السبت، بقراءة قصة صوفي، وامس احتفلت بعيد ميلادها الخامس عشر.

لو ان اباها تخيل انها ستصل في القراءة، حتى عيد ميلاد صوفي، لرفع المستوى اكثر.

فهي لم تفعل شيئاً نهار الامس، إلاّ التهام الكتاب! وحصلت على آخر تمنٍّ بعيد سعيد عندما انشد البرتو وصوفي Happy Birthday دون ان يعجبها ذلك كثيراً.

هكذا، قررت صوفي ان تدعو الجميع الى «حفلة فلسفية في الحديقة»، في اليوم ذاته الذي سيعود فيه والد هيلد من لبنان ... لقد باتت هيلد مقتنعة بان شيئاً ما، غير متوقع، سيحدث لها، ولوالدها ايضاً.

على اية حال، انها الآن واثقة من شيء واحد هو ان والدها سيتلقى مفاجاة غير سارة، هي اقل ما تستطيع ان تقدمه لصوفي والبرتو، الم يطلبا مساعدتها. كانت امها لا تزال منهمكة في مرآب القارب. فنزلت هيلد الى الطابق الارضي، لتتصل تلفونياً بان وبيتر في كوبنهاغن:

– الو .. من على الخط؟

– صباح الخير، هذه انا، هيلد!

– كم هو لطيف ان تفكري بنا. هل كل شيء على ما يرام عندكم؟

– اجل .. اجل، ثم ها هي العطلة تبدأ .. وبعد اسبوع يعود ابي من لبنان.

– لا بد ان ذلك سيسعدك كثيراً .. يا هيلد.

– طبعاً يسعدني .. ولكنني انما اتصل بخصوص ذلك.

– آه؟

– اعتقد انه سيهبط في كوبنهاغن يوم السبت ٢٣ في الساعة الخامسة، فهل ستكونان هناك في هذا الموعد؟

– على الأرجح .. لماذا؟

– اسأل ما اذا كان بامكانكما ان تؤديا لي خدمة صغيرة؟

– بالتاكيد .. هات

– انها خدمة خاصة .. لا ادري ما اذا كانت ممكنة.

– اثرت فضولي لمعرفة ماهيتها.

هنا راحت هيلد تشرح كل قصتها مع الملف الهدية، وقصة صوفي والبرتو .. واضطرت عدة مرات للإعادة، بسبب غرقها مرات في الضحك، ومثلها عمتها. لكنها لم تقفل إلاّ وقد اوضحت خطتها، واستكملتها تماماً.

لم يبق عليها إلاّ اتخاذ بعض الاجراءات الخاصة بالبيت .. ولا يزال امامها متسع من الوقت، بضعة ايام ..

أما بقية النهار فقد قضتها مع والدتها، حيث استقلّتا، بعد الظهر، السيارة الى السينما في كريستيانسند. وعند مرورهما بالقرب من مطار كجيفيك، لمعت في خاطرها فكرة اكتملت بها تركيبة اللوحة التي تشغلها. وكانت تنتظر الليل، والايواء الى السرير لتكمل القراءة.

عندما عادت صوفي الى كوخها، كانت الساعة نحو الثامنة، وكانت أمها تعمل على ازالة الأعشاب من بعض المساكب، قرب المدخل.

– من أين خرجت، هكذا؟

– من العيص.

– من العيص؟

– ألا تعرفين ان هناك طريقاً آخر من هناك؟

– لكن، الى أين ذهبت يا صوفي؟ ليست هذه هي المرة الأولى التي تختفين فيها طوال بعد الظهر، دون ابلاغي.

– عفواً، كان الطقس جميلاً جداً في الخارج، فقمت بنزهة طويلة.

انقبضت الأم ونظرت اليها باتهام:

- أراهن على أنك كنت مع فيلسوفك.
- لقد قلت لك انه يحب التنزه.
- هل سيأتي الى عيد ميلادك؟
- طبعاً، هذا يسعده.
- وأنا أيضاً، أعد الأيام حتى ذلك الموعد يا صوفي!

لم يكن صوت الأم طبيعياً فرأت صوفي ان تضيف: أنا سعيدة لأنني دعوت والدي جورون والا لبدا الجو صعباً.

- على أية حال لدي كلمتان اقولهما لهذا الالبرتو؛ كلام اثنين بالغين.
- سأعيرك غرفتي، ان أردت، وأنا واثقة من انه سيعجبك.
- على فكرة .. لقد وصلتك رسالة.
- آه، حسناً.
- ختم البريد يقول انها من «وحدات الأمم المتحدة».
- هي اذن من شقيق البرتو.
- اسمعي .. كفى ..

احست صوفي بالخوف، لكن جواباً مقنعاً قفز الى ذهنها، بعد ثانية واحدة. كأن روحاً منقذة جاءت لمساعدتها.

- قلت لالبرتو انني اهوى جمع الطوابع النادرة، ويبدو انه من المفيد أن يكون للمرء أخ.

أخيراً اقتنعت الأم، وقالت بنبرة مصالحة:

- ستجدين وجبتك في الثلاجة.
- والرسالة، أين وضعتها؟
- على الثلاجة.

أسرعت صوفي الى الظرف الذي يحمل تاريخ (١٩٩٠/٦/١٥) ففتحته ووجدت فيه ورقة، قرأت عليها:

ما معنى الخلق الأزلي، اذن؟

أهو حمل الكائن المخلوق، وإعادته الى العدم؟

لا، لم تجد صوفي جواباً عن هذا السؤال، فطوت الورقة ودستها مع سقط الأشياء المتنوعة التي وجدتها في الأسابيع الأخيرة، قائلة لنفسها، إنها ستهتدي يوماً الى معرفة سبب طرح هذه الأسئلة عليها.

في صباح اليوم التالي جاءت جورون لزيارتها، لعبتا قليلاً، ثم تابعتا التحضير للحفلة، عليهما أن تجدا حلولاً بديلة، في حال بدأ المدعوون يملون. وعندما عادت الأم من العمل انضمت اليهما في المناقشة حيث رددت مراراً «لا داعي للتوفير هنا!»، لقد كانت تعني ما تقول، لان هذه الحفلة الفلسفية هي وسيلتها الوحيدة لإعادة صوفي «الى الأرض» بعد التحليق لأسابيع في عالم الفلسفة.

اتفقتا على كل شيء، من كعكة العيد، الى قناديل الاضاءة داخل الأشجار، مروراً بالحزازير الفلسفية بعد سحب يانصيب على كتاب مقدمة في علم الفلسفة (شرط العثور على كتاب كهذا).

في يوم الخميس ٢١ حزيران - أي قبل يومين من عيد القديس يوحنا، اتصل البرتو هاتفياً.

- ألو صوفي.

- كيف حالك؟

- بخير. شكراً. أعتقد انني وجدت حلاً، للخروج.

- للخروج من ماذا؟

- من هذه العبودية الفكرية التي عشنا فيها طويلاً ..

- آه ..

- لكنني لا أستطيع أن أكشف لك شيئاً من الخطة، قبل أن أبدأ بتنفيذها.

- ألم نتأخر قليلاً؟ ومع ذلك يجب أن أكون على علم بكل شيء.

- لا، انت الساذجة الآن .. ألا تعرفين ان الخط مراقب؟ لذلك فالأفضل لنا أن نصمت.

- هل الأمر مخيف حقاً، الى هذا الحد؟

- بالطبع يا ابنتي، فاهم ما يحدث، يحدث عندما نصمت.

- آه ...

– اننا نعيش حياتنا، في واقع مثيل موجود عبر كلمات رواية طويلة، يطبع المايجور كل فصل منها على الآلة الكاتبة ويعيده ثلاث مرات، مما لا يترك مجالاً لأية كلمة مطبوعة لأن تفلت من انتباهه.

– افهم ذلك جيداً. لكن، كيف يمكن لنا، والحال هذه، ان نختبىء عن نظره؟

– هس ...

– ماذا؟

– ثمة ما يحدث بين السطور، وهناك أحاول أن أدس ما أمكن من الجمل التي تحمل أكثر من معنى، وما شابه من حيل.

– اتفقنا!

لكن علينا أن نستفيد من نهار اليوم والغد، لان بعد غد هو عيد القديس يوحنا. هل يمكنك المجيء حالاً؟

– اجل، انا قادمة.

قدمت صوفي الطعام للعصافير والسمكات، وأعطت ورقة خضار لجوفيندا، وفتحت علبة لشيريكان.

ثم تسللت عبر العيص، الى الطريق الذي من الجهة الأخرى .. وما ان مشت فيه لحظات حتى رأت مكتباً كبيراً وسط الضباب، ووراءه رجل عجوز، يبدو وكأنه يحسب شيئاً. اتجهت صوفي اليه، وسألته عن اسمه: فأجابها، وهو يكاد يرفع نظره اليها:

– سكرووج ...

ثم عاد الى أوراقه.

– أنا صوفي، هل أنت رجل اعمال؟

– اجابها وهو يهز رأسه موافقاً:

– وأنا ثري مثل قارون. ولا أبذر مليماً واحداً، لذلك علي أن أركز جيداً على حساباتي.

– حسناً!

حيته صوفي بيدها، وتابعت طريقها. لكنها ما ان قطعت بضعة أمتار، حتى رأت فتاة صغيرة، شاحبة، ترتدي الاسمال، وتجلس على

جذع شجرة باسقة. وعندما وصلت صوفي الى محاذاتها، اخرجت علبة ثقاب، من كيس صغير تحمله وسألتها:

– ألا تريدين أن تشتري مني؟

بحثت صوفي في جيبها عن قطعة نقود ولحسن الحظ وجدت كروناً واحداً.

– كم ثمن العلبة؟

– كورون واحد.

– اعطتها الكورون، فناولتها العلبة قائلة:

– انت أول من يشتري مني شيئاً منذ أكثر من مئة عام .. أحياناً أموت من الجوع، أو أتجمد من البرد.

فكرت صوفي، بأنه ليس من المستغرب ألا تجد الفتاة مشترين، في قلب الغابة. لكنها لم تلبث أن تذكرت الرجل العجوز، وأحست بانه من غير الطبيعي أن يكون لهذا الرجل كل هذا الثراء، وتموت هذه الفتاة على بعد أمتار منه، من الجوع.

– تعالي معي. قالت صوفي وهي تمسك الفتاة من يدها وتجرها الى حيث رجل الأعمال.

– عليك أن تساعد على التخفيف من قسوة الحياة عليها – قالت صوفي بحزم – لكنه رفع نظره عن أوراقه، وأجاب مقطباً جبينه:

– هذا يكلف مالاً، وأنا قلت لك انني لا أبذر قرشاً واحداً.

– لكنه من غير العدل ان تكون انت على هذا القدر من الثراء، في حين تكون هذه الفتاة على هذا القدر من الفقر.

– اي بله، العدالة لا توجد إلاّ بين الناس الذين ينتمون الى عالم واحد.

– ماذا تقصد؟

– لقد بنيت نفسي بنفسي، وكل عمل يستحق أجراً، اليس كذلك؟ هذا ما يسمى «التقدم».

– هذه الطامة الكبرى ...

– اذا لم تساعدني، سأموت. قالت الصغيرة الفقيرة. فرفع الرجل

نظره مرة أخرى، وضرب المكتب بقلمه، صائحاً:

– لست مذكورة تحت أي بند، في دفاتر حساباتي .. اذهبي الى الجحيم.

– ان لم تساعدني، سأشعل حريقاً في الغابة.

نهض الرجل عن مكتبه، لكن الفتاة كانت قد أشعلت عود ثقاب ورمته، فعلاً، فدبت النار في العشب اليابس.

عندها راح الرجل يلوح بذراعه ويصيح:

– النجدة! النجدة! الحمر عائدون!

والفتاة تنظر اليه ساخرة وتقول:

– ألا تعرف انني شيوعية.

ولم يلبث الرجل ومكتبه، والفتاة، ان اختفوا تماماً، وظلت صوفي وحدها، تنظر الى النار تمتد في العشب، فتحركت محاولة اطفاءها بشتى الوسائل، الى أن تمكنت من ذلك اخيراً.

– الحمد لله!

قالت وهي تقبض على حفنة من العشب المحروق، وباليد الأخرى على علبة الثقاب.

على أي حال. ليست هي من اشعل النار؟! ..

عندما وصلت الى البرتو، روت له ما حدث لها فقال:

– سكرووج، هو الرأسمالي السيىء في «احد قصص الميلاد» لشارلز ديكنز. اما الفتاة الصغيرة فهي من حكاية هـ. س. اندرسون.

– لكن، اليس من الغريب أن التقيهما هنا في الغابة؟

– أبداً، لأنها ليست غابة كالأخريات.

– هيّا .. فلنتحدث الآن عن كارل ماركس. لم يكن مستغرباً أن نلتقي، في القرن الماضي، بنموذجين، لأقصى الفقر واقصى الثروة. تعالي ندخل، لنكون بمأمن، قليلاً، من نظرات المايجور.

جلسا الى الطاولة قرب النافذة المطلة على البحيرة. وكان جسد صوفي لا يزال يحتفظ بكل ما اختزنه بعد شرب الزجاجة الزرقاء.

الزجاجتان ما تزالان فوق المدفأة، بينما يجثم على الطاولة مجسم

هيكل اغريقي.

– ما هذا؟ سألت صوفي.

– كل شيء في أوانه يا ابنتي.

ثم تابع

– عندما ذهب كيركيغارد الى برلين عام ١٨٤١، تابع دروس شلينغ، وربما شاركه ذلك كارل ماركس.

وعندما كان كيركيغارد يكتب اطروحته عن سقراط، كان ماركس يقدم اطروحته للدكتوراه عن ديمقريطس وابيقور، اي عن المادية في العصور القديمة. وانطلاقاً من هنا، طور كل منهما خطه الفلسفي.

– فأصبح كيركيغارد فيلسوفاً وجودياً، وماركس مادياً .. اليس كذلك؟

– اصبح ماركس، ما اتفق على تسميته، بفيلسوف المادية التاريخية. لكن لندع هذا جانباً، الآن.

– تابع.

– انطلق الاثنان من فلسفة هيغل، ولكن كل بطريقته. فقد تأثر كلاهما بفكره، لكنهما تحفظا على «روح العالم»، اي على مثالية هيغل.

– لا بد انه بدا لهما ضبابياً، وغامضاً.

– بالضبط. فبشكل عام، يقال ان هيغل يعتبر نهاية الانساق الفلسفية الكبرى، حيث اتجهت الفلسفة بعده، اتجاهاً جديداً مختلفاً، وحلت «فلسفة الوجود» أو «فلسفة الفعل» محل الانساق النظرية الكبرى.

هذا هو أساس فلسفة ماركس الذي يعتبر ان «الفلاسفة يكتفون بتفسير العالم، في حين ان المطلوب، تغييره».

هذه الجملة، هي التي شكلت منعطفاً اساسياً في تاريخ الفلسفة.

– الآن، وقد التقيت سكرووج والفتاة الصغيرة، افهم افضل ما يعنيه ماركس بقوله هذا.

– لفكر ماركس أيضاً، هدف عملي وسياسي. وعلينا أن لا ننسى أنه لم يكن مجرد فيلسوف، بل كان أيضاً عالم اقتصاد، واجتماع، ومؤرخاً.

– وهل كان رائداً في كل هذه المجالات؟

– أياً يكن الحال، فان احداً لم يلعب الدور الذي لعبه ماركس من حيث التطبيق العملي السياسي، الفلسفة.

لكن .. هنا يجب الانتباه الى عدم الخلط بين كل ما يدعى «الماركسية» وبين فكر ماركس نفسه. فرغم انه اعلن عام ١٨٤٠ انه «ماركسي»، الاّ انه عاد فاضطر الى التبرؤ من بعض التفسيرات التي اعطيت لفكره.

– بهذا المعنى، هل كان المسيح مسيحياً؟

– هذا يقبل المناقشة أيضاً.

– حسناً .. تابع.

– منذ البداية، شاركه صديقه وزميله فردريك انجلز، بلورة النظرية «الماركسية». وفي قرننا هذا، جاء لينين، ستالين وماوتسي تونغ، وغيرهم، يضيفون مساهماتهم الى الماركسية أو «الماركسية اللينينية».

– لو نكتفي بماركس، من فضلك. لقد قلت انه فيلسوف «المادية التاريخية».

– لم يكن فيلسوفاً «ماديا»، بالمعنى الذي اطلقناه على فلاسفة «الذرات» في العصور القديمة، أو بمعنى «المادية الآلية»، التي عرفناها في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فهو يرى ان الشروط المادية في المجتمع هي التي تحدد، جذرياً، نمط تفكيرنا، وهي التي تقع في أساس كل تطور تاريخي.

– هذا مختلف جداً عن «فكر العالم» عند هيغل.

– لقد اوضح هيغل ان التطور التاريخي يتأتى من التوتر بين عناصر متناقضة، تختفي تحت وقع تغير فجائي. ويتفق ماركس معه في ذلك، لكنه يرى أن هيغل العجوز الطيب يفسر الأمور بشكل خاطىء.

– ليس دائماً ..

– كان هيغل يسمي هذه القوة المحركة: «فكر العالم» أو «العقل الكوني»، ويرى ماركس أن رؤية الأشياء بهذه الطريقة، انما تنجم عن اخذ الأمور بالمقلوب. ويسعى لأن يبرهن على أن المحرك الحقيقي للتاريخ هو تغير ظروف الحياة المادية. فليست الظروف الروحية هي أساس تغيرات الظروف المادية في الوجود، وانما العكس: فالظروف المادية،

تحدد ظروفاً روحية جديدة. لذلك يشدد ماركس على وزن القوى الاقتصادية داخل المجتمع؛ هذه القوى التي تسبب كل أنواع التغيير، وتحقق بذلك تقدم التاريخ.

– اليس لديك مثال؟

– لقد كان للفلسفة والعلم في العصور القديمة، رؤية نظرية بحت. ولم يكن احد يهتم بالتطبيقات العملية لهذه المعارف، رغم ان هذه التطبيقات كانت ستحقق تحسينات هامة.

– آه؟

– ويرتبط كل هذا بتنظيم الحياة اليومية على الصعيد الاقتصادي .. ذاك ان كل الحياة الانتاجية، كانت قائمة على عمل العبيد، لذلك لم يكن المواطنون الأحرار يهتمون، يومها، بتحسين العمل عن طريق اختراعات علمية. هذا مثال على كيفية تحديد الظروف المادية، للتفكير الفلسفي، داخل المجتمع.

– فهمت.

– يطلق ماركس مصطلح «البنية التحتية» على هذه الظروف المادية، الاقتصادية، والاجتماعية. في حين يطلق مصطلح «البنية الفوقية» على نمط تفكير المجتمع، مؤسساته السياسية، قوانينه، دينه، فنونه، اخلاقه، فلسفته وعلومه.

– البنية التحتية، والبنية الفوقية.

– الآن، أعطني الهيكل الاغريقي!

– تفضل.

– هذا مُجسّم مُصغّر البانتيون في الاكروبول، وقد رأيته على حقيقته.

– تقصد في الفيديو.

– ترين ان لهذا الهيكل، سقفاً بالغ الاناقة، ولعل واجهته هي التي تجذب النظر، للوهلة الأولى، انها بمعنى ما: «البنية الفوقية».

لكن لا يمكن لهذا السقف أن يطير في الهواء.

– هناك أعمدة تحمله.

– المبنى كله أساس صلب تماماً؛ «بنية تحتية» تحمله كله. وهكذا

يرى ماركس ان البنية التحتية أو الظروف المادية، تحمل كل نتاج الفكر، في المجتمع. لذلك فان البنية الفوقية، ليست، من هذه الزاوية، إلا انعكاس البنية التحتية.

– هل تريد أن تقول ان نظرية الأفكار لدى افلاطون هي انعكاس لانتاج الخزف والخمر في أثينا، في تلك المرحلة؟

– لا، ليست الأمور بهذه البساطة. وماركس نفسه يحذرنا من هذا النوع من التفسير. فهناك تفاعل، وتأثير متبادل بين البنى التحتية والبنى الفوقية في المجتمع. ولو انه انكر هذا التفاعل لكان فيلسوفاً «مادياً ميكانيكياً»، لكنه يأخذ بعين الاعتبار العلاقة الديالكتيكية بين البنية التحتية والبنية الفوقية. لذلك نقول انه يبشر بفلسفة مادية ديالكتيكية. ولنقل ان افلاطون لم يكن خزافاً ولا كراماً ...

– فهمت. هل لا يزال لديك شيء عن الهيكل؟

– نعم، القليل. تفحصي جيداً أسس الهيكل، وقولي لي: ماذا ترين؟

– تستند الاعمدة الى قاعدة مؤلفة من ثلاثة مستويات.

– يماثل هذا المستويات، أو الطبقات الثلاث التي تتألف منها البنية التحتية في المجتمع. ففي الأساس الأول نجد ظروف الانتاج اي الظروف أو المصادر الطبيعية .. وبتعبير آخر، كل ما له علاقة بالمناخ والمواد الأولية، وهو ما يسمح بوضع اسس المجتمع، وتحديد نمط الانتاج الصالح لهذا المجتمع، مما يحدد كذلك، بوضوح، نوع المجتمع والثقافة.

– واضح اننا لا نستطيع صيد السمك في الصحراء ولا ان نزرع نخلاً في القطب الجنوبي.

– هاك قد التقطت الفكرة. كذلك فان نمط التفكير لا يكون واحداً بين راع في الصحراء، وصياد في لابونيا. لأنه لا يمكن أن نصطاد سمكاً في الصحراء أو أن نربي النخيل في شمالي النرويج.

المرحلة الثانية من البنية التحتية تتعلق بوسائل الانتاج. ويقصد ماركس بذلك الأدوات والآلات والاجهزة التي يستعملها الناس في المجتمع.

– قديماً، كان الصيادون يستعملون القوارب، أما اليوم فأصبحت

هناك سفن الصيد الفخمة التي تقوم آلياً بمعظم العمل.

– ها انت تضعين اصبعك على المرحلة الثالثة من البنية التحتية، المتعلقة بمن يمتلك وسائل الانتاج هذه. فتنظيم العمل، أي توزيع العمل، ووضع المالكين وأرباب العمل هو ما يسميه ماركس علاقات الانتاج.

– فهمت.

– يمكن أن نستنتج اذن ان نمط الانتاج داخل مجتمع معين، هو الذي يحدد المظهر الايديولوجي والسياسي لهذا المجتمع، فليس من المستغرب مثلاً أن تكون طريقتنا في التفكير ومعاييرنا الاخلاقية، مختلفة اليوم، عما كانت عليه مثيلتها في مجتمع القرون الوسطى مثلاً.

– لم يكن ماركس يؤمن اذن بحق طبيعي صالح لكل الأزمان؟

– لا، فقضية معرفة ما هو جيد من الوجهة الأخلاقية، تتوقف، برأي ماركس، على طبيعة البنية التحتية للمجتمع. فليس من قبيل المصادفة، أن يحدد الأهل، في المجتمع الزراعي القديم، ممن يتزوج أبناؤهم، ذاك أن هذا يعني أيضاً تحديد من سيرث المزرعة، أما في مدينة كبيرة حديثة، فان العلاقات الاجتماعية تكون جد مختلفة: يحصل اللقاء في حفلة أو في ناد، واذا كان الاثنان متحابين حقاً، وجدا مكاناً يعيشان فيه معاً.

– أنا لا أقبل ان يقول لي أهلي من أتزوج.

– لا، طبعاً، لأنك ابنة عصرك.

يقول ماركس ان الطبقة المسيطرة هي التي تحدد الخير والشر، فما التاريخ كله إلاّ تاريخ صراع طبقات، ولا يفعل التاريخ إلاّ رسم خط هذا الصراع على امتلاك وسائل الانتاج.

– لكن، ألا تساهم افكار الناس ايضاً في تغيير التاريخ؟

– نعم ولا. كان ماركس يعي ان البنية الفوقية قد تؤثر في البنية التحتية، لكنه لا يعترف لها (أي للفوقية) بتاريخ مستقل. فكل التحولات التاريخية، منذ المجتمع العبودي في العصور القديمة، حتى المجتمع الصناعي في أيامنا، تعود الى تحولات في البنى التحتية للمجتمع.

– لقد سبق وقلت هذا...

– تتميز كل المراحل التاريخية، برأي ماركس، بمواجهة بين طبقتين اجتماعيتين .. هما في العصور القديمة، طبقة العبيد وطبقة المواطنين الأحرار، وفي المجتمع الاقطاعي: الفلاحون والسادة، ومن ثم النبلاء والبورجوازيون، أما في زمن ماركس، فقد اصبح المجتمع بورجوازياً أو رأسمالياً، وأصبح التعارض بين الرأسماليين والعمال أو البروليتاريا. فهناك، من جهة، من يمتلك وسائل الانتاج، ومن جهة أخرى، الذين لا يمتلكونها. وبما انه لا يمكن ان تتخلى الطبقة المسيطرة عن سلطتها، فان الثورة وحدها، هي التي تستطيع اجبارها على ذلك.

– واذا كان النظام شيوعياً؟

– اهتم ماركس، بشكل خاص، بالعبور من الحالة الرأسمالية الى المجتمع الشيوعي. وهو يحلل بطريقة مفصلة نمط الانتاج الرأسمالي. لكن علينا، قبل ان نتناول هذه النقطة، أن نمر قليلاً بمفهومه لعمل الانسان.

– اني أسمع.

– قبل أن يكون شيوعياً، تساءل ماركس عما يحصل عندما يعمل الانسان. وقد اهتم هيغل بهذه المشكلة ووجد ان هناك علاقة متبادلة أو «جدلية» بين الانسان والطبيعة. فعندما يعمل الانسان على الطبيعة، يؤثر فيه هذا العمل ويطوره هو أيضاً. وبعبارة أخرى: عندما يعمل الانسان على الطبيعة، تمارس، في اثناء ذلك، فعلها في الانسان، وتترك طابعها في وعيه.

– قُلْ لي ماذا تعملْ اقلْ لك من انت ..

– لقد احسنت اختصار ما أراد ماركس قوله عن تأثرنا بطريقة عملنا. ثمة علاقة جدلية بين «اليد» و«الفكر»، لذلك فان معرفة الانسان تظل على صلة دقيقة بعمله.

– اذن فالبطالة شيء مخيف ..

– الذي يعيش بدون عمل يدور في فراغ. وقد لاحظ هيغل ذلك واعتبر، ومثله ماركس، ان العمل شيء ايجابي، ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بكون الانسان انساناً.

– في هذه الحال، جيد أن يكون الواحد عاملاً.

– في الأساس، نعم. لكن .. هنا يدخل نقد ماركس اللاذع، لنمط الانتاج الرأسمالي.

– أوضح.

– في النظام الرأسمالي، يعمل العامل لسواه، ويصبح عمله شيئاً خارجياً، شيئاً لا يمتلكه .. يصبح غريباً عن عمله، وبالتالي غريباً عن نفسه. فيفقد واقعيته وحقيقته كشخص. وهنا يستعمل ماركس تعبير هيغل ليقول ان العامل هو موضوع سيرورة تغريب.

لي عمة تعمل منذ عشرين سنة في احد المصانع، في تغليف الشوكولاته. ولذلك افهم جيداً ما تقوله .. لقد قالت لي انها تشعر كل صباح بكره شديد لعملها.

– لكنها ستنتهي الى كره نفسها، اذا كانت تكره عملها.

– على أية حال، انها تكره الشوكولاته.

– في المجتمع الرأسمالي، ينظم العمل بطريقة تجعل العامل، في نهاية الأمر، يقوم بعمل العبد، لحساب طبقة أخرى حيث يقدم العامل كل قوته العاملة – وبالتالي كل وجوده كإنسان – للبورجوازية.

– هل الأمر بهذه الخطورة، حقاً؟

– نحن ننقل رؤية ماركس للأمور، ولا بد من وضع ذلك كله ضمن السياق الاجتماعي للقرن التاسع عشر .. عندها نجد أننا نجيب بقوة: نعم.

فقد كان العمال يعملون – حينئذ اثنتي عشرة ساعة يومياً، وفي مستودعات شديدة البرودة، وكانت الاجور منخفضة جداً، بحيث تضطر النساء والأطفال الى العمل أيضاً، كما كان البؤس الاجتماعي فوق الوصف. وفي أماكن كثيرة كان أرباب العمل يعطون العامل، ليترات من العرق الرديء، بدل الاجر، ويجبرون العاملات على البغاء، مع «رجال المدينة». باختصار: ان ما يفترض فيه أن يرفع من قيمة الانسان، أي العمل، كان يحوله الى حيوان.

– هذا يدفع الى الثورة ..

– وهكذا كانت ردة فعل ماركس. لقد كان يحصل ذلك بينما يأخذ أولاد البورجوازيين حماماً منعشاً، ينصرفون بعده الى غرف البيانو أو الكمان في صالون فسيح دافيء، قبل تناول عشاء مكون من أربعة اصناف شهية، والقيام من ثم بنزهة على ظهر جواد.

– هذا مؤثر! وغير عادل!

– لقد كان هذا رأي ماركس. وفي عام ١٨٤٨، نشر، مع فريدريك انجلز بيان الحزب الشيوعي. (المانيفستو) الشهير، الذي يبدأ بجملة «ان شبحاً يتهدد اوروبا – شبح الشيوعية».

– توقف، هذا مخيف.

– ويخيف البورجوازية أيضاً. ذاك ان البروليتاريا بدأت تثور. هل تريدين الاستماع الى آخر البيان؟

– بكل سرور.

– «يرفض الشيوعيون التستر على مفاهيمهم وخططهم، وهم يوضحون بجلاء انه لا يمكن تحقيق اهدافهم الاّ بقلب كل نظام اجتماعي سابق بالعنف.

فلترتجف الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية.

ليس أمام البروليتاريا ما تخسره إلاّ أغلالها! انها ستربح العالم. يا عمال العالم اتحدوا».

– في الوضع السيء الذي وصفته لي، اعتقد انني كنت ساكون أول من يوقع. لكن الأمور تحسنت كثيراً بعدئذ. اليس كذلك.

– في النرويج، نعم، ولكن ليس في كل مكان، فلا يزال الكثيرون يعيشون في ظروف غير انسانية، وينتجون في الوقت نفسه، بضائع تجعل الرأسماليين اكثر غنى. هذا ما كان ماركس يسميه الاستغلال.

– هل يمكنك ان توضح لي اكثر معنى هذه الكلمة؟

– عندما ينتج العامل سلعة معينة، يكون لها ثمن مبيع محدد.

– حسناً.

– اذا ما طرحت من هذا الثمن أجر العامل، وتكاليف الانتاج، يبقى مبلغ جيد، يسميه ماركس «فائض القيمة» وهذا يعني أن الرأسمالي

يحول لفائدته، لحسابه، قيمة انتجها العامل وحده .. هذا هو الاستغلال.

– افهم.

– ويستطيع الرأسمالي ان يعيد توظيف هذا الفائض في رأسمال جديد (في تحديث وسائل الانتاج، مثلاً)، لكن الهدف الوحيد يكون تخفيض تكاليف الانتاج، لتحقيق أرباح أعلى.

– هذا منطقي.

– أجل قد يبدو هذا منطقيا .. لكن الأمور لا تسير، على المدى الطويل، كما يريد الرأسمالي، سواء في هذا المجال أم في سواه.

– كيف؟

– كان ماركس يعتقد أن لنمط الانتاج الرأسمالي تناقضاته الداخلية. فالرأسمالية نظام اقتصادي يدمر نفسه بنفسه لانه لا يسير على هدى العقل.

– هذا احسن للمظلومين.

– اجل. يحمل النظام الرأسمالي نهايته في داخله. ومن هذه الزاوية، تصبح الرأسمالية عنصر تقدم، اي مرحلة ضرورية على طريق الشيوعية.

– هل تستطيع أن تعطيني مثالاً عن الطبيعة المدمرة ذاتياً للرأسمالية؟

– قلنا ان الرأسمالي يحقق ربحاً، يستخدم جزءاً منه لتحسين وسائل الانتاج، وتحديث المصنع. في حين ينفق الباقي على متع أولاده، ومظاهر زوجته.

– اجل؟

– يشتري آلات جديدة، ويخفض عدد العمال، وذلك لتحسين موقعه امام المضاربة في السوق.

– افهم.

– لكنه لن يكون الوحيد الذي يفكر كذلك. فكل حلقات سلسلة الانتاج يجب أن تصبح اكثر مردوداً. وتكبر المصانع، وتصبح ملكاً لحفنة من الرجال. فما الذي سيحدث اذن، يا صوفي؟

– ايه ...

– تتناقص أكثر فأكثر، الحاجة الى العمال، وتحل البطالة، وتصبح المشكلات الاجتماعية اكثر أهمية. وتكون هذه الازمات العلامة على أن الرأسمالية تسير الى نهايتها. لكن هناك ايضاً ملامح اخرى، مدمرة ذاتية، للنظام الرأسمالي. ما الذي سيحصل عندما يرتبط الربح كله بنظام الانتاج دون ان يخلق فائض انتاج كافياً للاحتفاظ بالقدرة على المضاربة؟ ما الذي سيفعله الرأسمالي .. برأيك؟ هل يمكنك الاجابة؟

– لا. انا لا أعرف حقاً.

– تخيلي انك صاحبة مصنع، وانك تجدين صعوبة في وصل الطرفين، وانك مهددة بالإفلاس .. اذن ستطرحين على نفسك السؤال: ماذا أفعل لأوفر بعض المال؟

– يمكن أن أخفض الأجور.

– ممكن، هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفعليه.

لكن اذا كان كل الرأسماليين ماكرين مثلك، وهم كذلك فعلاً، فسيصبح العمال فقراء الى حد يجعلهم عاجزين عن شراء ضروريات حياتهم .. نقول: تنخفض القدرة الشرائية، وتستمر الحلقة المفرغة.

هذه هي، برأي ماركس، الاشارة الى أن ساعة الملكية الفردية الرأسمالية قد أزُفت .. ونكون في حالة ما قبل الثورة، مباشرة.

– فهمت.

– باختصار، نقول ان البروليتاريا تنتهي الى ان تثور وتمتلك وسائل الانتاج.

– وما الذي يحدث اذن؟

– خلال فترة ما، تنشأ طبقة جديدة، هي طبقة البروليتاريا السابقة، التي وصلت الى السلطة، وتسيطر على البورجوازية. هذا ما يسميه ماركس ديكتاتورية البروليتاريا. ولكن، بعد فترة انتقالية، ينشأ «مجتمع بدون طبقات» ملغياً ديكتاتورية البروليتاريا. هذا المجتمع هو الشيوعية، حيث تصبح وسائل الانتاج ملك «الكل» اي الشعب نفسه. وفي مجتمع كهذا، يكون لكل «موقعه بحسب قدراته» ويتلقى أجراً بحسب «حاجاته»، ويصبح العمل ملك الشعب، فلا يعود هناك اغتراب.

– رائع ان يستمع المرء اليك! لكن هل حصل ذلك حقاً؟

– نعم ولا. فعلماء الاقتصاد المعاصرون يعتبرون أن ماركس قد أخطأ في عدة نقاط هامة، من مثل تحليل أزمات النظام الرأسمالي، كما أهمل ظاهرة استغلال الطبيعة، التي نأخذها نحن اليوم على محمل الجد. ولكن .. رغم ذلك كله ..

– ماذا؟

– لقد جرت الماركسية انقلابات كبيرة. ولا يمكن انكار ان الماركسية ساهمت في جعل المجتمع أكثر انسانية، على الأقل في أوروبا، حيث صرنا نعيش في مجتمع اكثر عدالة وتضامناً. وذلك ما ندين به لماركس ولكل الحركة الشيوعية.

– ما الذي حصل اذن؟

– بعد ماركس انشقت الحركة الى شقين: الماركسية اللينينية، من جهة، والاشتراكية الديمقراطية، من جهة أخرى.

فالاشتراكية الديمقراطية، التي تميل الى إرساء مجتمع اشتراكي، ببطء وبهدوء، انتشرت في أوروبا الغربية. انها «الثورة البطيئة». اما الماركسية اللينينية، التي حافظت على ايمان ماركس بان الثورة هي وحدها القادرة على تقويض مجتمع الطبقات القديم، فقد انتشرت في أوروبا الشرقية، واسيا وافريقيا.

لكن الحركتين، قاتلتا، كل على طريقتها، البؤس والظلم.

– لكن، الا يفتح هذا، المجال أمام شكل جديد من أشكال القمع؟ اقول هذا وفي ذهني الاتحاد السوفييتي ودول اوروبا الشرقية، مثلاً؟

– دون أدنى شك.

وعليه نلاحظ أن كل شيء يتحول، عندما يصل الى يد الانسان، الى مزيج من الخير والشر، بمعنى أننا لا يمكن أن نحمل ماركس مسؤولية الأخطاء التي ارتكبت باسمه، بعد خمسين أو مئة سنة من وفاته، في هذه الدول التي تدعي الشيوعية، أو الاشتراكية. ربما انه لم يفكر بأن الذين سيديرون الشيوعية، هم أيضاً بشر، وان لكل البشر مساوئ، وبأن الجنة لن تتحقق على الأرض، غداً. فالبشر يعرفون دائماً كيف يخلقون

مشاكل جديدة.

– صحيح!

– سنعتبر اننا انتهينا من ماركس.

– انتظر، انت قلت انه لا عدالة إلا بين الناس الذين ينتمون الى العالم ذاته؟

– بل هو سكرووج، من قال ذلك.

– وكيف عرفت انه هو القائل؟

– حسناً .. انا وانت يكتبنا كاتب واحد، ولذلك نحن مرتبطان أحدنا بالآخر، اكثر مما يمكن التصور.

– انت .. وسخريتك ..!

– سخرية ذات معنيين: ظاهر وباطن يا صوفي.

– لنعد الى قصة العدالة هذه. انت قلت ان ماركس يعتبر ان الرأسمالية خلقت مجتمعاً غير عادل، فكيف تحدد المجتمع العادل؟

– لقد أعطى احد الفلاسفة الاخلاقيين، المتأثرين بماركس، ويدعى جون رولس، المثال التالي للتأمل: تخيلي انك عضو في جمعية عمومية عليا، تحدد كل القوانين التي تحكم المجتمع.

– أعتقد ان ذلك يروق لي كثيراً.

– سيكون الأعضاء مجبرين على التفكير بكل شيء، مرة واحدة، أي عندما يتوصلون، في النهاية، الى اتفاق، ويصوتون على كل القوانين، يسقطون موتى.

– أي رعب!

– لكنهم يعودون، فيستفيقون في المجتمع الذي شرّعوا قوانينه. ويُفاجأون بان ما لا يعرفونه هو الموقع الذي سيجدونه في هذا المجتمع.

– واضح.

– سيكون هذا المجتمع مجتمعاً عادلاً، لانه تصور بشر «متساوين».

– والنساء؟

– تشكل هذه النقطة جزءاً من اللعبة، فلا يعرف الشخص ما اذا كان سيستيقظ في جسد رجل ام في جسد امرأة. وبما ان الامكانيتين

واردتان، فسيكون هناك مجال للاعتقاد بان هذا المجتمع عادل للرجال وللنساء على حد سواء.

– هذه فكرة جذابة جداً.

– أجيبيني الآن: هل كان المجتمع الأوروبي، ايام ماركس، مجتمعاً من هذا النمط؟

– لا.

– هل تعرفين مجتمعاً من هذا النمط في عالمنا اليوم؟

– هذا غير أكيد.

– سأدعك تفكرين .. وسنقفل فصل ماركس الآن.

– ماذا قلت؟

– لا شيء! فلنتوقف الآن.

داروين

... سفينة محملة بالجينات تبحر عـــــبـــــر الحـــــيـــــاة...

استيقظت هيلد صباح الاحد على صوت ارتطام عالٍ؛ صوت حافظة الاوراق تقع على الأرض. فبالأمس استلقت في الفراش تقرأ حوار صوفي والبرتو عن ماركس الى ان غرقت في النوم، وظل مصباح القراءة قرب السرير مشتعلاً طوال الليل. الأرقام الخضراء الصغيرة المضيئة في منبّه المكتبة تشير الى الثامنة وتسع وخمسين دقيقة.

كانت تحلم بمصانع ضخمة ومدن ملوّثة؛ بنت صغيرة تجلس في زاوية الشارع تبيع الكبريت، لاناس انيقي الملابس بمعاطف طويلة يمرون قربها دون اية التفاتة.

عندما جلست هيلد في الفراش تذكرت المشرّعين الذين كان لهم ان يستيقظوا في مجتمع صنعوه هم انفسهم. على كل حال، انها سعيدة لاستيقاظها في بجركلي. هل كانت ستجرؤ على الاستيقاظ في النرويج دون ان تعرف في اية منطقة من النرويج هي؟ لكن السؤال لم يكن فقط «اين» تستيقظ .. الم يكن من السهولة بمكان ان تستيقظ في عصر اخر؟ في العصور الوسطى، مثلاً - او في العصر الحجري قبل عشرة او عشرين الف عام؟ حاولت ان تتخيل نفسها جالسة في مدخل كهف مترصدة .. ربما.

كيف كان الامر سيكون بالنسبة لابنة خمسة عشر عاماً قبل وجود اي شيء يسمى حضارة؟ كيف كانت ستفكر؟ هل كان من الممكن ان تكون لها افكار اصلاً؟

ارتَدَتْ سترة، ثم طرحت حافظة الاوراق على السرير، واستلقت لتكمل قراءة الفصل التالي.

لم يكد البرتو يقول «وقف!» حتى قرع أحدهم باب الشاليه.

– ليس لدينا أي خيار، اليس كذلك؟ قالت صوفي.

– لا أعتقد انه ليس لدينا، قال البرتو.

على العتبة في الخارج وقف رجل عجوز ذو شعر ابيض طويل ولحية، كان يحمل عصاً باحدى يديه وبالاخرى لوحاً رُسم عليه قارب مزدحم بكل أنواع الحيوانات.

– من هو هذا السيد الكهل؟ سأل البرتو.

– اسمي نوح.

– هكذا تصورت.

– جدك الاكبر، يا بُنيّ. لكن يبدو انه لم يعد دارجاً ان يتعرف المرء إلى أسلافه.

– ما هذا الذي في يدك؟ سألت صوفي.

– انها صورة لكل الحيوانات التي أنقذت من الطوفان. هاكِ يا ابنتي، انها لك.

اخذت صوفي اللوح الكبير.

– حسناً،من الأفضل أن اعود الى البيت لأعتني بالكروم، قال الرجل العجوز، وبقفزة صغيرة عقد كعبيه في الهواء وغاب مرحاً في الغابة، بطريقة غريبة لرجل في مثل سنه.

عاد البرتو وصوفي الى الداخل ليجلسا ثانية، حاولت أن تتأمل الصورة، ولكن البرتو انتزعها من يدها قبل ان تتمكن من التمعن فيها.

وقال: «سنركز على الخطوط العريضة أولاً.»

– حسناً، حسناً.

– نسيت أن أذكر ان ماركس عاش اخر خمس وثلاثين سنة من عمره في لندن، انتقل اليها عام (١٨٤٩) وتوفي عام (١٨٨٣). وطوال ذلك الوقت كان تشارلز داروين يعيش خارج لندن الى أن توفي عام (١٨٨٢) ودفن بأبهة ومراسم عظيمة في ويستمنستر أبي كأحد أبناء انجلترا البارزين. وهكذا التقى طريقا ماركس وداروين، ولكن ليس في المكان والزمان فقط. اراد ماركس ان يهدي النسخة الانجليزية من أعظم أعماله «رأس المال» الى داروين، ولكن الاخير رفض هذا الشرف: وعندما توفي

ماركس بعد داروين بسنة، قال صديقه فريدريك انجلز: كما اكتشف داروين نظرية النشوء النوعي، اكتشف ماركس نظرية التطور التاريخي للانسان.

ـ آه، فهمت.

– مفكر عظيم اخر ربط عمله بداروين هو العالم النفساني سيجموند فرويد، الذي عاش أيضاً آخر سنواته في لندن. يقول فرويد ان كلا النظريتين، نظرية النشوء والارتقاء عند داروين ونظريته هو في التحليل النفسي، قد أدتا الى تحدي الغرور الساذج عند الانسان.

– كانت هذه اسماء كثيرة في وقت واحد. هل نتكلم عن ماركس، داروين أم فرويد؟

– بمفهوم اوسع يمكننا التكلم عن التيار «الطبيعي» من منتصف القرن التاسع عشر وحتى هذا القرن. ونعني «بالطبيعة» حساً بالواقعية لا يقبل أية حقيقة غير الطبيعة والعالم المدرك، والعالم الطبيعي حساً يعتمد حصراً على الظواهر الطبيعية – لا على افتراضات منطقية ولا على أي شكل من أشكال الوحي الالهي.

– هل هذا ينطبق على ماركس، داروين، وفرويد؟

– تماماً، الكلمات المصطلح عليها في منتصف القرن الماضي كانت: البيئة، التاريخ، النشوء، النمو. أشار ماركس الى أن الايديولوجيات الانسانية هي نتاج الظروف المادية للمجتمع، وأوضح داروين ان الجنس البشري هو ارتقاء بيولوجي بطيء، وكشفت دراسات فرويد عن اللاوعي ان تحركات الناس وتصرفاتهم في معظمها تنتج عن دوافع أو غرائز حيوانية.

– أظن أنني افهم، نوعاً ما، ما تقصد بالطبيعة، ولكن اليس من الأفضل أن نتكلم عنهم واحداً واحداً؟

– سنتحدث عن داروين، صوفي. يمكن ان تستذكري ان من سبقوا سقراط بحثوا عن تفسيرات طبيعية لعمليات الطبيعة وبالطريقة ذاتها التي أبعدوا بها انفسهم عن التفسيرات الاسطورية القديمة، ابعد داروين نفسه عن نظرة الكنيسة لخلق الانسان والحيوان.

– ولكن هل كان فيلسوفا حقا؟

– كان داروين عالم أحياء وعالماً طبيعياً، ولكنه كان أيضاً العالم الحديث الذي تحدى بصراحة نظرة الكتاب المقدس الى موقع الانسان من الخليقة.

– اذن، عليك أن تقول شيئا عن نظرية داروين في النشوء.

– لنبدأ بـ داروين الانسان، ولد في بلده شروزبيري الصغيرة عام (١٨٠٩) والده، د. روبرت داروين وهو طبيب محلي معروف ، وصارم جداً في تربية ولده. عندما كان تشارلز تلميذاً في المدرسة الثانوية المحلية وصفه مديره بانه دائم الحركة، لاهٍ بالاشياء وعابث، لا يقوم بأي عمل ذي نفع ولو ضئيل. وكان العمل النافع عند المدير يعني حشو الدماغ بالأفعال اليونانية واللاتينية. اما كثرة الحركة واللهو بالأشياء فقد كانت تعني من بين عدة أشياء ملاحقة تشارلز لجميع أنواع الخنافس وتجميعها.

– أراهن على ان (المدير) عاد فندم على ما قال.

– وعندما درس اللاهوت، كان تشارلز أكثر اهتماماً بمراقبة الطيور وتجميع الحشرات، فلم يحصل على درجات جيدة في اللاهوت. لكنه اكتسب وهو لا يزال في الكلية، شهرة كعالم طبيعي، اضافة الى اهتمامه بالجيولوجيا، التي كانت أوسع علوم العصر انتشاراً، وحال تخرجه من مدرسة اللاهوت في كامبريدج في نيسان (١٨٣١)، ذهب الى شمالي ويلز ليدرس تشكل الصخور ويبحث عن المستحاثّات. في آب من السنة نفسها كان لا يزال في الثانية والعشرين من عمره عندما تلقى رسالة غيرت مجرى حياته كلها ..

– وعمّ كانت الرسالة؟

– كانت من صديقه ومعلمه، جون ستيفن هينسلو. كتب فيها: «لقد طُلب مني أن .. أوصيَ بأحد (العلماء) الطبيعيين ليذهب كمرافق للقبطان فيتزروي، الذي ارسل في بعثة من الحكومة لمسح الشواطىء الجنوبية لاميركا الجنوبية. وقد أجبت بأنني اعتبرك أكثر الذين أعرفهم أهلية وتقبلاً لهذه المهمة. اما فيما يخص التمويل فليس لدي أية معلومات.

ستستغرق الرحلة سنتين».

– كيف تستطيع تذكر كل هذا عن ظهر قلب؟

– شيء تافه، صوفي.

– بماذا أجاب؟

– كان متحمساً لاستغلال الفرصة، ولكن في تلك الايام، لم يكن الشباب يفعلون شيئا دون استشارة الأهل. وبعد جهد جهيد حصل على موافقة أبيه الذي موّل رحلة ولده، اذ انه لم يتلق أي أجر.

– أوه.

– أما السفينة فكانت الناقلة البحرية (H. M. S BEAGLE) ابحرت من بلايموث في السابع والعشرين من كانون الأول (١٨٣١)، متوجهة الى اميركا الجنوبية، ولم تعد حتى تشرين الأول من عام (١٨٣٦)، وبذا أصبحت السنتان خمساً، وتحولت رحلة اميركا الجنوبية الى رحلة حول العالم. لتكون واحدة من أهم الرحلات الاستكشافية في العصور الحديثة.

– هل أبحروا كل المسافة حول العالم؟

– نعم، بمعنى الكلمة. من اميركا الجنوبية ابحروا عبر الهادي الى نيوزيلنده، استراليا، وجنوب افريقية، ثم ابحروا عائدين الى اميركا الجنوبية قبل الانطلاق الى انجلترا. وكتب داروين: «ان الرحلة على متن البيجل كانت بلا شك أهم حدث في حياتي».

– لا يمكن أن يكون من السهل على المرء ان يكون طبيعياً في وسط البحر.

– في السنوات الأولى، ابحرت البيجل ذهاباً واياباً على ساحل اميركا الجنوبية، وقد مكّن هذا داروين من ان يألف القارب، داخل الأرض ايضاً.. وقد كان لغزوات البعثة داخل جزر الجالاباغوس في المحيط الهادىء غربي أميركا الجنوبية دور مهم، حيث مكنته من جمع كميات ضخمة من المواد الخام وارسالها الى انجلترا. ومع ذلك فقد احتفظ داروين بملاحظاته عن الطبيعة ونشوء الحياة لنفسه. وعندما عاد الى وطنه في السابعة والعشرين من عمره وجد ان صيته كعالم قد ذاع.

وكان قد وضع تصوراً واضحاً لما سيصبح لاحقاً نظريته في النشوء، لكنه لم ينشر عمله الرئيس إلا بعد عدة سنوات من رجوعه، لأنه كان رجلاً حذراً، كما يجب أن يكون العالم.

– وما هو عمله الرئيس؟

– في الواقع، عدة أعمال: ولكن الكتاب الذي اثار النقاش الاكثر حدة في انجلترا كان «أصل الاجناس» الذي نشر عام (١٨٥٩). وعنوانه الكامل كان: «في أصل الاجناس بطرائق الانتخاب الطبيعي»، أو «حفظ الأعراق الاكثر ملاءمة في صراع البقاء». وهذا العنوان الطويل هو في الحقيقة خلاصة تامة لنظرية داروين.

– حقاً انه وضع الكثير في عنوان واحد.

– لنأخذها جزءاً جزءاً .. في أصل الاجناس طوّر داروين نظريتين أو فكرتين رئيستين، أولاً:

لقد طرح ان كل الاشكال الحيوانية والنباتية الموجودة تتحدر من اشكال سابقة اكثر بدائية عن طريق النشوء والارتقاء البيولوجي. ثانياً: ان النشوء كان نتيجة الانتخاب الطبيعي.

– البقاء للأصلح، اليس كذلك؟

– هذا صحيح، ولكن فلنركز أولا على فكرة النشوء. هذه بحد ذاتها لم تكن مبتكرة، اذ ان فكرة الارتقاء البيولوجي كانت قد بدأت تلاقي قبولاً وكان المروج الأول لها هو عالم الحيوان الفرنسي لامارك. وحتى قبله، فان جد داروين نفسه، ايراسموس داروين، قد طرح فكرة ان النباتات والحيوانات نشأت من قلة من الاجناس البدائية. ولكن أياً منهم لم يأت بتفسير مقبول لكيفية حدوث هذا النشوء، ولهذا لم يعتبرهم رجال الكنيسة تهديداً خطيراً.

– لكنهم اعتبروا داروين كذلك؟

– اجل، ولكن ليس بدون سبب فقد كانت كل الحلقات الاكليريكية والعلمية ملتزمة بشدة بالعقيدة التوراتية القائلة بعدم قابلية الاجناس النباتية والحيوانية للتغير فكل نوع من الحياة الحيوانية قد خلق لوحده مرة والى الأبد. وهي نظرة اكثر انسجاماً مع تعاليم أفلاطون وأرسطو.

– كيف؟

– افترضت نظرية أفلاطون عن الافكار، مسبقاً، ان كل الاجناس الحيوانية غير قابلة للتغير لأنها صنعت طبقاً لنماذج عن افكار أو اشكال ازلية. كذلك فان عدم قابلية هذه الاجناس للتغير هو ايضاً احد اركان فلسفة ارسطو. ولكن في زمن داروين اصبح هناك عدد من المعاينات والموجودات التي تضع المعتقدات التقليدية أمام اختبار.

– أي نوع من المعاينات والموجودات؟

– حسنا، لنبدأ بعدد متزايد من المستحاثات التي استخرجت منها عظام ضخمة لمستحاثات حيوانات منقرضة. داروين نفسه أربكه العثور على آثار مخلوقات بحرية على مسافة بعيدة داخل البر، كتلك التي اكتشفها في جبال الإندير. في أعلى أميركا الجنوبية.

ماذا يفعل مخلوق بحري في الانديز يا صوفي؟ هل تستطيعين أن تشرحي لي هذا؟

– لا

– اعتقد بعضهم انها ببساطة قد القيت من قبل بعض الناس أو الحيوانات واعتقد بعضهم الآخر ان الله قد خلق هذه المستحاثات وآثار المخلوقات البحرية ليقود الضالين غير المؤمنين.

– ولكن ماذا اعتقد العلماء؟

– أكد معظم الجيولوجيين «نظرية الكوارث»، التي تقول بتعرض الأرض لطوفانات ضخمة، زلازل، وكوارث أخرى دمرت كل أنوا ع الحياة. ونحن نقرأ عن واحد منها في الكتاب المقدس – الطوفان وسفينة نوح – بعد كل كارثة كان الله يجدد الحياة على الأرض بخلق نباتات وحيوانات جديدة وأكثر كمالاً.

– اذن كانت المستحاثات بصمات من أشكال حياة سابقة قد مُحيت بعد هذه الكوارث الضخمة؟

– بالضبط. مثلاً، اعتقد ان المستحاثات كانت دمغات من حيوانات لم تقدر على الصعود الى سفينة نوح، ولكن عندما انطلق داروين على متن البيجل، كان يحمل نسخة من كتاب العالم البيولوجي الانجليزي سير

تشارلز ليل، «مبادىء الجيولوجيا»، وقد أكد تشارلز ليل أن جيولوجية الأرض الحالية، بجبالها ووديانها، كانت نتيجة تطور تدريجي طويل ولا متناه. وكان يرى أنه حتى التغيرات الصغيرة قد تؤدي الى ارتفاعات جيولوجية كبيرة تصيب سطح الأرض، مع الأخذ بعين الاعتبار الدهور الطويلة التي انقضت.

– بأي نوع من التغيرات كان يفكر؟

– كان يفكر بالقوى نفسها السائدة اليوم: الطقس والرياح، ذوبان الثلوج، الهزات الأرضية، وارتفاعات مستوى سطح الأرض. لقد سمعت مقولة ان قطرة ماء تذوّب حجراً، ليس بقوة ماسية ولكن بالاحتكاك المستمر. اعتقد تشارلز ليل ان مثل هذه التغيرات الصغيرة والتدريجية قد تغير وجه الطبيعة كلياً. ومع ذلك لم تستطع نظريته لوحدها ان تفسر لماذا وجد داروين بقايا مخلوقات بحرية في أعالي الانديز. لكن داروين تذكر دائماً أن «التغيرات الصغيرة التدريجية» قد تؤدي الى تغييرات كبيرة اذا أعطيت الوقت الكافي».

– أظن انه اعتقد ان التفسير نفسه قد يصلح لارتقاء الحيوانات.

– نعم، هذه كانت فكرته. ولكن كما قلت سابقاً، كان داروين رجلاً حذراً. لقد طرح الأسئلة طويلاً قبل ان يجازف بالإجابة عنها. وبهذا فقد استعمل منهج جميع الفلاسفة: من الضروري ان نسأل ولكن لا مبرر للاستعجال في تقديم الجواب.

– نعم، فهمت.

– من العوامل الحاسمة في نظرية تشارلز ليل عمر الأرض. في زمن داروين، كان الاعتقاد الشائع بان الله خلق الأرض منذ ستة آلاف سنة وهذا الرقم هو حاصل جمع الاجيال منذ آدم وحواء حتى اليوم.

– يا للسذاجة!

– حسنا، من السهل ان ننتقد الأمور بعد حصولها. لقد توصل داروين الى تقرير عمر الأرض بثلاثمئة مليون سنة. لأن شيئاً واحداً على الأقل كان واضحاً، وهو انه ليس لنظرية ليل عن التطور الجيولوجي التدريجي، ولا لنظرية داروين في النشوء والارتقاء أية شرعية، ما لم

تحتسب بفترات طويلة جداً من الزمن.

– كم يبلغ عمر الأرض؟

– نعرف اليوم أن عمر الأرض (٤,٦) بليون سنة.

– يا للهول!

– لقد ركزنا، حتى الآن، على واحدة من براهين داروين على الارتقاء البيولوجي، وهو تحديداً، الرواسب الطبقية للمستحاثات في طبقات مختلفة من الصخور. لكن ثمة برهان آخر قدمه التوزيع الجغرافي للأجناس الحية، هنا عادت رحلة داروين بمعلومات جديدة وشاملة للغاية، لقد رأى بأم عينه ان افراد النوع الواحد من الحيوانات ضمن نطاق المنطقة نفسها قد تختلف في التفاصيل الدقيقة فقط. كذلك دوّن ملاحظات مهمة جداً في جزر الجالاباغوس، غربي الاكوادور، بالتحديد.

– اخبرني عنها.

– جزر الجالاباغوس هي مجموعة جزر بركانية، ولهذا لم تكن هناك اختلافات كبيرة في الحياة النباتية والحيوانية هناك. ولكن داروين كان مهتماً بالاختلافات الصغيرة، وقد عثر على سلاحف ضخمة في جميع الجزر كانت تختلف قليلاً من جزيرة لأخرى. هل خلق الله حقاً عرقاً منفصلاً من السلاحف لكل واحدة من هذه الجزر.

– أشك في هذا.

أما مشاهدات داروين لحياة الطيور في الجالاباغوس فكانت اكثر غرابة حيث تنوعت عصافير الجالاباغوس وبوضوح من جزيرة لأخرى، خصوصاً فيما يتعلق بشكل المنقار. وقد أوضح داروين ان هذه التنوعات ارتبطت بالطريقة التي تجد فيها العصافير طعامها على كل من هذه الجزر. فعصافير الدوري بمناقيرها المدببة ذات الجوانب المنحدرة تقتات على حبوب اكواز الصنوبر، وطيور الهازجة الصغيرة تعيش على الحشرات، بينما تعيش حساسين الأشجار على النمل الأبيض الذي يعيش على لحاء الأشجار والأغصان.

كان لكل هذه الانواع منقار متكيف تماماً مع طريقة غذائه فهل يمكن أن تكون جميع هذه العصافير متحدرة من النوع الواحد نفسه؟ وهل

تكيفت مع ما يحيط بها على الجزر المختلفة على مر العصور بطريقة أدت الى نشوء أنواع جديدة من العصافير؟

– كان هذا هو الاستنتاج الذي توصل اليه، اليس كذلك؟

– نعم. ربما ان داروين اصبح «داروينيا» – على جزر الجالاباغوس، حيث لاحظ أيضاً أن حيوانات تلك المنطقة تشبه الى حد كبير عدة أنواع رآها في اميركا الجنوبية، فهل خلق الله مرة واحدة والى الأبد كل هذه الحيوانات باختلافاتها البسيطة، أم ان نشوءاً قد حصل.

لقد بدأ شكه في أن عدد الانواع غير القابلة للتغير يتزايد. لكنه حتى الآن لم يجد تفسيراً تطبيقياً لكيفية حدوث هذا النشوء، رغم أن عاملاً آخر يشير الى ان كل الأنواع على الأرض يمكن أن تكون مـرتبطة ببعضها.

– وما هو هذا العامل؟

– تطور الجنين عند الثدييات. فإذا قارنا أجنّة الكلاب، الخفافيش، الأرانب، والانسان في مرحلة مبكرة، لوجدنا انها تتشابه لدرجة يصعب فيها التفريق بينها. لا يمكن أن نميز جنين انسان عن جنين أرنب حتى مرحلة متقدمة جداً. ألا يشير هذا الى أننا أقارب متباعدون؟

– ولكنه لم يجد حتى الآن تفسيراً لكيفية حدوث النشوء؟

– فكر داروين ملياً بنظرية تشارلز ليل عن التغيرات الدقيقة التي قد يكون لها تأثير كبير بعد فترة طويلة من الزمن، ولكنه لم يستطع أن يجد تفسيراً يمكن تطبيقه كقاعدة عامة. وكان حسن الاطلاع على نظرية عالم الحيوان الفرنسي لامارك الذي أظهر ان الاجناس المختلفة قد طورت الصفات التي تحتاجها، فالزرافة مثلاً قد طورت رقاباً طويلة لأنها وعلى مدى أجيال قد اضطرت الى الوصول الى أوراق الأشجار. وقد اعتقد لامارك أن الصفات التي يكتسبها كل فرد بجهوده الخاصة تُمرّر للجيل التالي، لكن داروين رفض هذه النظرية عن وراثة «الصفات المكتسبة»، خصوصاً أن لامارك لم يمتلك دليلاً على ادعاءاته الجريئة. من ناحية ثانية، كان داروين قد بدأ يتابع خط فكر آخر، اكثر جلاءً ووضوحاً بحيث يمكننا أن نقول تقريباً ان الآلية الفعلية لنشوء الأنواع أصبحت أمام

عينيه.

– اذن، كيف هي نظريته؟

– أفضل لو استنتجتها بنفسك. ولهذا اسأل: اذا كانت لديك ثلاث بقرات، وعلفٌ يكفي بقرتين فقط، فماذا تفعلين؟

– أظن أنني قد أذبح بقرة منها.

– حسنا .. وأيها تذبحين؟

– اظن اني اذبح التي تدر حليباً أقل.

– أتفعلين ذلك؟

– نعم، هذا منطقي، اليس كذلك؟

– هذا هو بالضبط ما كان الجنس البشري يفعله لآلاف السنين. ولكننا لم ننته من البقرتين بعد. لنفرض انك أردت أن تجيء احداها بعجلة، أيها تختارين؟

– اختار الاحسن ادراراً للحليب، فعجلتها ستكون حلوباً مثلها.

– تفضلين البقرات الحلوب على غيرها اذن. والآن هناك سؤال أخير: اذا كنت صياداً وكان لديك كلبا صيد، ولكنك اضطررت الى التخلي عن احدهما، فبأيهما تحتفظين؟

– احتفظ بالذي يعثر على فريستي بشكل أفضل، طبعاً.

– تماماً، تفضلي كلب الصيد الأفضل. هكذا بالضبط ربىّ الناس الحيوانات الداجنة لأكثر من عشرة آلاف عام، صوفي. لم تكن تلك الدجاجات تطرح خمس بيضات في الأسبوع دائماً، ولم تكن الخراف تنتج كمية الصوف هذه، ولم تكن الخيول قوية رشيقة كما هي الآن. لقد مارس المربّون انتخاباً مصطنعاً. وينطبق القول على المملكة النباتية، فنحن لا نزرع البطاطا غير الجيدة اذا كانت لدينا بطاطا جيدة البذار، ولا نضيع الوقت في حصاد الحنطة التي لا تحمل بذوراً. وقد أوضح داروين انه ليس هناك أبقار أو سنابل قمح أو كلاب أو عصافير متشابهة تماماً. فالطبيعة تعطي سعة كبيرة من التنوع، حتى ضمن النوع الواحد، لا يوجد فردان متشابهان تماماً. وأرجح انك اختبرت هذا بنفسك عندما شربت السائل الأزرق.

– هكذا أقول.

– وهنا اضطر داروين الى أن يسأل نفسه: كيف يمكن ان تطبق آلية متشابهة في الطبيعة؟ هل يمكن أن تقوم الطبيعة «بانتخاب طبيعي» يبقي أفراد العائلة أحياء وِفْقَهُ؟ وهل يمكن ان يَخْلِقَ مثل هذا الانتخاب أنواعاً جديدة من الحياة النباتية والحيوانات.

– أعتقد أن الجواب نعم.

– غير ان داروين لم يتوصل، حتى ذلك الحين، الى تصور كيفية امكان حدوث هذا الانتخاب الطبيعي، الى أن وقع في يده مصادفة، في تشرين الأول (١٨٣٨)، أي بعد سنتين بالضبط من عودته على البيجل، كتاب لمختص في الدراسات السكانية، توماس مالتوس. اسم الكتاب مقالة في المبادىء السكانية. أخذ مالتوس فكرة هذه المقالة من بنجامين فرانكلين، الاميريكي الذي اخترع مانعة الصواعق وغيرها، وفيه أوضح فرانكلين انه اذا لم تكن هناك عوامل محددة في الطبيعة فان جنساً واحداً من الحيوانات أو النباتات قد يمتد على الكرة الأرضية كلها، ولكن لأن هناك الكثير من الأجناس، فانها تحتفظ بالتوازن فيما بينها.

– أرى ذلك.

– طور مالتوس هذه الفكرة وطبقها على السكان في العالم، فاعتقد ان قدرة الانسان على التناسل كبيرة بحيث ان الاطفال الذين يولدون أكثر من الذين يستطيعون البقاء. وبما ان نسبة انتاج الطعام لا تستطيع موازنة الزيادة السكانية، فان اعداداً كبيرة قد قُدِّر لها الموت في صراع البقاء.

– هذا يبدو منطقياً.

– وهو ما شكل بالفعل الآلية الكونية التي كان داروين يبحث عنها، في تفسير كيفية حدوث النشوء. فسبب حدوثه هو الانتخاب الطبيعي في صراع البقاء، بحيث يبقى أولئك الذين يتكيفون بشكل أفضل مع بيئتهم ويحافظون على عرقهم. كانت هذه النظرية الثانية التي طرحها داروين في «أصل الأجناس». فقد كتب: «يعد الفيل أبطأ الحيوانات تناسلاً، ولكن اذا كان له ستة صغار وعاشت للمئة، فبعد فترة من

(٧٤٠الى٧٥٠) سنة يكون هناك تسعة عشر مليون فيل على قيد الحياة، منحدرين من الجد الأول».

– هذا دون ذكر آلاف البيضات التي تضعها سمكة واحدة من سمك القد.

– لقد ذهب داروين الى أن صراع البقاء كثيراً ما يكون أقسى بين الأجناس التي تتشابه أكثر، فعليها أن تتصارع على غذاء واحد، مما يبرز اقل افضلية، أي أدق اختلاف، وكلما كان صراع البقاء أشد قسوة، كلما كان نشوء أجناس جديدة أسرع، بحيث يبقى فقط افضل الأفضل، ويهلك الباقون.

– كلما قل الطعام وزادت الحضنة (الفقسة)، كلما أصبح النشوء أسرع؟

– نعم، ولكن المسألة ليست مسألة طعام فقط، اذ لا يقل أهمية عنه تجنب الوقوع فريسة لحيوانات أخرى مما يجعل بعض الأمور تبدو ميزات، مثلا: اكتساب لون يساعد على التمويه للحماية، والقدرة على الركض برشاقة، وتمييز الحيوانات العدائية، أو في أسوء الحالات ان يكون للحيوانات مذاق مقزّز، فالسم الذي يقتل الحيوانات المفترسة مفيد جداً أيضاً. ولهذا فان أنواعاً كثيرة من الصبار سامة، صوفي. عملياً، لا يمكن لشيء آخر النمو في الصحراء، فهذه النباتات ضعيفة أمام الحيوانات أكلة النباتات.

– معظم انواع الصبار شائكة أيضاً.

– من الواضح ان للقدرة على التكاثر أهمية اساسية. قد درس داروين براعة تلقيح النبات بتفصيل كبير .. الزهور تزهو بدرجات الوان متألقة وتطلق روائح هاذية لتجذب الحشرات التي لها دور فاعل في التلقيح. والحفاظ على نوعها تردد الطيور ألحانها. فان ثورا هادئاً منقبضاً غير مهتم بالبقرات لن يكون مهماً لتاريخ الأنواع، لأن نسله سينقطع بمثل هذه الصفات .. ذاك ان غاية الثور الوحيدة في الحياة هي النمو حتى البلوغ الجنسي والتكاثر للحفاظ على النسل. فالأمر اشبه بسباق بدل أو تناوب. وأولئك الذين لا يستطيعون لسبب أو لآخر أن

يمرروا جيناتهم، يُنْبَذون دائماً، هكذا يتحسن النوع باستمرار، ولذلك فان مقاومة الامراض هي واحدة من أهم الصفات التي تكتسب وتحفظ في الأنواع التي تبقى.

– اذن فكل شيء يتحسن ويتحسن باستمرار؟

– نتيجة هذا الانتخاب المستمر هي ان الذين يتكيفون مع بيئة معينة – أو بيئة حياتية ملائمة – سيحافظون على بقاء عرقهم فيها على المدى الطويل، ولكن ما يعتبر ميزة حسنة في بيئة ما قد لا يكون ميزة في بيئة أخرى. فقد كانت القدرة على الطيران ضرورية لبعض عصافير الجالاباغوس لكنها ليست كذلك اذا كان الطعام يؤخذ من الأرض دون وجود آكلات الحيوانات. وسبب نشوء الكثير من أنواع الحيوانات على مر العصور هو تحديداً وجود هذه البيئات المختلفة في البيئة الطبيعية.

– ولكن مع هذا، يوجد جنس بشري واحد.

– هذا لأن للانسان قدرة فريدة على التكيف مع ظروف الحياة المختلفة. أحد الأشياء التي أذهلت داروين كانت قدرة هنود تييرا ديل فيوجو (أرض النار) على العيش تحت ظروف مناخية قاسية الى درجة فظيعة، ولكن هذا لا يعني ان كل البشر متشابهون، فالذين يعيشون قرب خط الاستواء لهم جلد داكن أكثر من الذين يعيشون في المناطق الشمالية لأن جلدهم الداكن يحميهم من الشمس. فالناس البيض الذين يعرضون أجسادهم للشمس لفترات طويلة معرضون للاصابة بسرطان الجلد أكثر.

– هل هي ميزة ايجابية أن يكون للذين يعيشون في البلدان الشمالية جلد أبيض؟

– نعم، وإلا كان جميع سكان الأرض داكني البشرة. ولكن الجلد الأبيض يكوّن فيتامينات الشمس بطريقة أسهل، وهذا مهم في المناطق التي قلما تضربها الشمس. هذه الأيام لم يعد هذا مهماً جداً لأننا يمكن أن نتأكد من وجود فيتامينات الشمس في غذائنا. ولكن لا شيء في الطبيعة عشوائي، كل شيء يعود الى تغيرات دقيقة جداً كان لها تأثير على أجيال عديدة.

– في الحقيقة، انه لأمر رائع تخيله.

– حقاً. حتى الآن اذن نستطيع تلخيص نظرية داروين في النشوء بجمل قليلة.

– إفعل!

– نستطيع القول إن «المادة الخام» لنشوء وارتقاء الحياة على الأرض هي التنوع المستمر بين أفراد الجنس الواحد، إضافةً الى عدد كبير من الذرية، مما يعني ان جزءاً صغيراً بقي، فالانتخاب الطبيعي من صراع البقاء هو اذن القوة الدافعة الكافية وراء النشوء والارتقاء وهو الذي ضمن بقاء الأقوى أو الأصلح.

– يبدو هذا منطقياً كمسألة رياضيات. كيف كان تَقَبُلْ الناس لكتاب «أصل الأجناس»؟.

– كان سبباً لجدالات مريرة، فالكنيسة اعترضت بشدة، وانقسم العالم العلمي بحدة. لم يكن هذا مفاجئاً في الحقيقة، فقد أبعد داروين الله بشكل كبير عن عملية الخلق، مع انه يجب الاقرار بأن بعضهم ادعى ان خلق شيء له قدرة مخلوقة معه على التطور والنشوء هو أعظم من مجرد خلق كينونة ثابتة.

فجأة قفزت صوفي من كرسيها صارخة:

– انظر هناك في الخارج!

أشارت الى النافذة، قرب البحيرة تحت، كان رجل وامرأة يتمشيان يداً بيد .. كانا عاريين تماماً.

– انهما «آدم وحوا». قال البرتو، «لقد اضطرا تدريجياً الى وضع قصتهما في صف «ليلى الحمرا» و «أليس في بلاد العجائب»، ولهذا صارا هنا».

ذهبت صوفي الى الشباك لمشاهدتهما، ولكنهما سرعان ما اختفيا بين الأشجار.

– ألأنّ داروين اعتقد ان الجنس البشري منحدر من الحيوانات؟

– في عام (١٨٧١) نشر داروين «أصل الانسان والانتخاب الجنسي» ، وهو كتاب في علم الجينات، شد فيه الانتباه الى تماثلات كبيرة بين

البشر والحيوانات، مطوراً نظرية ان الانسان والقرد الشبيه بالانسان نشأ في أحد الأوقات عن سلف واحد. وفي هذه الاثناء كانت قد وجدت أول جمجمة مستحاثة لطراز منقرض من البشر، أولاً في جبل طارق، وبعد عدة سنوات في تيندرثال في ألمانيا. والملفت للنظر ان الاحتجاجات عام (١٨٧١) كانت أقل منها عام (١٨٥٩) عندما نشر داروين «أصل الاجناس»، لكن تحدر الانسان من الحيوانات كان موجوداً ضمنيا في الكتاب الأول أيضاً.

وكما قلت: عندما توفي داروين عام (١٨٨٢)، دفن بمراسم تليق برائد في العلوم.

– اذن حصل في النهاية على الإجلال والاحترام.

– تدريجياً، نعم. ولكن ليس قبل وصفه «بأخطر رجل في انكلترا».

– هكذا!

– «لنأمل أن لا يكون الأمر صحيحاً، ولكن ان كان كذلك، فلنأمل ألا يعرف للعموم». هكذا كتبت سيدة من الطبقة العليا، كذلك عبر عالم معروف عن فكرة مشابهة بقوله: «اكتشاف محرج، وكلما قلّ الكلام عنه كان أفضل».

– يكاد يكون هذا دليلاً على قرابة الانسان والنعامة!

– نقطة جيدة، ولكن يسهل علينا قول ذلك الآن. فقد وجد الناس أنفسهم فجأة ملزمين بمراجعة موقفهم الكامل من سِفْر التكوين. وذاك ما عبر عنه الكاتب الشاب جون روسكن قائلا: «لو يتركني الجيولوجيون لوحدي. فبعد كل آية من الكتاب المقدس اسمع ضربات مطارقهم». وكانت ضربات المطارق هذه شكوكه بكلمة الله؟

لقد كان هذا فرضياً ما عنى، لأن ما تداعى للسقوط كان أكثر من مجرد التفسير الحرفي لقصة الخلق. جوهر نظرية داروين كان التنويع والاختلاف العشوائي الذي أدى في النهاية الى نشوء الانسان. وأكثر من هذا ان داروين حول الانسان الى نتاج لشيء غير وجداني أو عاطفي كصراع البقاء.

– هل كان لدى داروين ما يقوله عن كيفية ظهور هذه التنويعات؟

– لقد وضعت اصبعك على أضعف نقطة في نظريته، فأكثر افكار داروين غموضاً هي فكرته عن الوراثة. فقد يحدث بالتزاوج، ان لا يعطي أب وأم معينان ذرتين متشابهتين تماماً .. هناك دائما فرق طفيف، ومن جهة أخرى، من الصعب انتاج شيء جديد حقاً بتلك الطريقة. اضافة الى ذلك هناك نباتات وحيوانات تتكاثر بالبرعمة أو بانقسام الخلية البسيط. وعن سؤال كيفية ظهور التنوعات فقد دعمت نظرية داروين بما سمي «الداروينية الجديدة».

– ما هذا؟

– كل الحياة والتكاثر في الاساس مسألة انقسام خلايا. عندما تنقسم الخلية الى اثنتين تنتج خليتين متطابقتين بالعوامل الوراثية نفسها، ففي انقسام الخلية نقول ان الخلية تتناسخ.

– نعم؟

– ولكن أحيانا تظهر أخطاء دقيقة جداً في العملية، بحيث تختلف الخلية الناتجة بشكل طفيف عن الخلية الأم. وهذا ما يسمى بالتعبير البيولوجي الحديث: طفرة. والطفرات اما ألا تكون مؤثرة أبداً، أو قد تقود الى تغيرات فارقة في سلوك الفرد. قد تكون الطفرات مؤذية بشكل مباشر، وعندها ينبذ الأفراد المختلفون من المجموعة العرقية الكبيرة، ويعود الكثير من الأمراض الى الطفرات. ولكن أحياناً يمكن ان تعطي الطفرة الفرد الصفة الايجابية الاضافية اللازمة له للحفاظ على جنسه في صراع البقاء.

– كرقبة أطول، مثلا؟

– كانت تفسيرات لامارك لوجود رقاب طويلة للزرافات هو انها كانت تحاول باستمرار الوصول الى الغصون العالية. ولكن حسب الداروينية لا يمكن تمرير اي نوع من هذه الصفات وراثياً. فقد اعتقد داروين أن رقبة الزرافة الطويلة تعود للتنوع. وقد دعمت الداروينية الجديدة هذا باظهار سبب جليّ لذلك التنوع المعين بالذات.

– الطفرات؟

– نعم. فتغيرات عشوائية بحت في عوامل الوراثة أعطت احد اسلاف

الزرافة رقبة أطول من المعتاد. وحين كانت هناك كمية محدودة من الطعام، تكون هذه الميزة مهمة جداً للحياة، فالزرافة التي تستطيع الوصول الى أعلى الأشجار تدبرت نفسها جيداً. ونستطيع تصور كيف استطاعت مثل هذه الزرافات البدائية تطوير القدرة على الحفر في الأرض من أجل الطعام. فعلى مدى فترة طويلة من الزمن، يمكن ان يكون نوع معين، ربما كان منقرضاً الآن، قد انقسم الى نوعين مختلفين. ويمكننا أن نتناول امثلة حالية على الطريقة التي يأخذ فيها الانتخاب الطبيعي مجراه.

– نعم، اذا تفضّلت.

– في بريطانيا هناك نوع معين من الفراش يسمى «الفَراش المرقط» يعيش على جذوع شجر الحور الفضي. في القرن الثامن عشر كانت معظم الفراشات المرقطة رمادية فضية، هل تحزرين لماذا، صوفي؟

– كي لا تتمكن العصافير الجائعة من ملاحظتها بسهولة.

– ولكن من وقت لآخر، وبسبب طفرات حدثت بمحض المصادفة، ولدت فراشات غامقة اللون، فكيف تعتقدين كان حالها؟

– كانت رؤيتها أسهل، فالتقطتها الطيور بسهولة.

– نعم، ففي تلك البيئة، حيث كانت جنوع الحور فضية لم يكن اللون الغامق ميزة مستحسنة، لهذا كان عدد الفراشات المرقطة الفاتحة اللون هو الذي يتزايد. ولكن شيئاً ما حدث في تلك البيئة، إذ أصبحت الجذوع الفضية مسودّة بسبب السناج الصناعي، فماذا تظنين حصل للفراشات المرقطة؟

– الفراشات الغامقة حافظت على بقائها بشكل أفضل.

– نعم، ولم يمض وقت كثير حتى تزايدت أعدادها. من عام (١٨٤٨) وحتى (١٩٤٨) زادت نسبة الفراشات المرقطة الغامقة من واحد الى (٩٩٪) في أمكنة معينة، حيث تغيرت البيئة، ولم يعد اللون الفاتح ميزة، وانما قضت الطيور على آخر الفراشات البيضاء الخاسرة، اذ كانت تأكلها حالما تظهر على جنوع الحور. لكن تغيراً مهماً في البيئة عاد ليحدث من جديد، اذ تناقص استخدام الفحم وأدى استخدام معدات

أفضل في المصانع، الى بيئة أنقى.

– فعادت الحور فضية من جديد؟

– وهكذا دخلت الفراشات المرقطة عملية الرجوع الى اللون الرمادي. هذا ما نسميه التكيف، وهو قانون طبيعي.

– نعم، فهمت.

– ولكن هناك أمثلة عدة على كيفية تدخل الانسان في الطبيعة.

– مثل ماذا؟

– مثلاً، حاول الناس محو الحشرات بمبيدات عديدة. في البداية، أدى هذا الى نتائج ممتازة، ولكن عندما ترش حقلاً أو بستاناً بالمبيدات فانت تسبب كارثة بيئية للحشرات التي تحاول ابادتها. وبفعل الطفرات المتواصلة ينشأ نوع من الحشرات يستطيع مقاومة المبيد المستعمل. وعندها تصبح ابادة أنواع معينة من الحشرات صعبة جداً، والأنواع الأكثر قدرة على المقاومة هي التي تبقى، بالطبع.

– هذا مخيف حقاً.

– وهو يستحق التفكير، ونحن أيضاً نحاول القضاء على الطفيليات في أجسامنا أي على البكتيريا.

– نستعمل البنسلين وأنواع أخرى من المضادات الحيوية.

– نعم، فالبنسلين أيضاً «كارثة بيئية» للشياطين الصغيرة. ومع ذلك، فمع متابعتنا استعمال البنسلين نساعد على نشوء أنواع مقاومة من البكتيريا. ونجد أن علينا أن نستعمل أنواعاً أقوى وأقوى من المضادات الحيوية، حتى ...

– حتى تزحف هذه من أفواهنا؟ ربما يصبح علينا ان نبدأ باطلاق النار عليها؟

– ربما يكون في هذا مبالغة. ولكن من الواضح أن الطب الحديث خلق مأزقاً خطراً، والمشكلة ليست فقط في ان نوعاً من البكتيريا اصبح خبيثاً، في الماضي كان عدد كبير من الأطفال يموتون بسبب امراض متنوعة، وأحيانا كانت الأقلية فقط هي التي تعيش. لكن الطب الحديث، بطريقة ما، وضع الانتخاب الطبيعي خارج القضية. ولكن ما يساعد

فرداً ما على تخطي مرض خطير قد يساهم في اضعاف مقاومة كامل الجنس البشري ضد أمراض معينة، واذا لم نعر اهتماماً لما يسمى الصحة الموروثة، فقد نجد أنفسنا نواجه انحدار الجنس البشري اذ ستضعف مقدرة الانسان الموروثة على مقاومة الامراض الخطيرة.

– يا له من توقع مخيف.

– لكن الفيلسوف الحقيقي يجب ألا يحجم عن توضيح شيء مخيف اذا اعتقد انه حقيقة. فلنحاول تلخيصاً آخر.

– حسناً.

– يمكنك القول ان الحياة هي يانصيب كبير، نرى فيه الأرقام الرابحة فقط.

– ماذا تقصد، بحق السماء؟

– أولئك الذين خسروا في صراع البقاء، اختفوا، كما ترين. فالأمر يحتاج الى ملايين السنين لاختيار الرقم الرابح في كل نوع من أنواع النباتات والحيوانات على الأرض. والأرقام الخاسرة، حسنا، تظهر مرة واحدة فقط. فليس هناك أي نوع من أنواع نبات أو حيوان موجود اليوم إلا وهو من الأرقام الرابحة في يانصيب الحياة.

– لأن الأفضل فقط هم الذين عاشوا.

– نعم، هذه طريقة أخرى لقول ذلك، والآن، هلا تفضلت ومررت لي الصورة التي احضرها لنا ذلك الشخص – صاحب حديقة الحيوان –.

أعطته صوفي الصورة التي غطت سفينة نوح جانباً منها بينما خصص الجانب الآخر لرسم بياني على شكل شجرة لكل أنواع الحيوانات المختلفة. وكانت هذه هي الجهة التي أشار البرتو اليها الآن.

– نوح الدارويني احضر لنا أيضاً رسماً يبين توزيع الأنواع النباتية والحيوانية المتنوعة. وترين كيف ترجع الأنواع المختلفة الى مجموعات، وطوائف وممالك فرعية مختلفة.

– نعم.

– الى جانب القردة ينتمي الانسان الى ما يسمى بالرئيسات، الرئيسات من الثدييات، والثدييات تنتمي للفقاريات، التي تنتمي الى

الحيوانات متعددة الخلايا.

– هذا يذكرني بأرسطو.

– نعم، هذا صحيح. ولكن الرسم البياني لا يبين توزيع الأنواع المختلفة اليوم فقط انه يروي شيئاً عن تاريخ النشوء أيضاً. ترين على سبيل المثال ان الطيور في نقطة معينة انفصلت عن الزواحف، وتلك الزواحف انفصلت في نقطة معينة عن البرمائيات، والبرمائيات انفصلت عن الاسماك.

– نعم هذا واضح جداً.

– في كل مرة ينقسم فيها الخط الى اثنين، تكون الطفرات قد أدت الى ظهور انواع جديدة. وهكذا نشأت الطوائف والممالك الفرعية الحيوانية على مدى العصور. في الحقيقة هناك اكثر من مليون نوع حيواني في العالم اليوم، وهذا المليون هو جزء صغير فقط من الأنواع التي عاشت في وقت ما على الأرض. ترين، مثلاً، ان مجموعة حيوانية، كالمفصليات الثلاثية الفصوص، منقرضة تماماً اليوم.

– وفي القاع هناك حيوانات وحيدة الخلية.

– بعض هذه الحيوانات لم تتغير خلال بليوني عام. ترين أيضاً ان هناك خطاً من هذه الحيوانات لم تتغير خلال بليوني عام. كما ترين أن هناك خطاً يمتد من هذه الحيوانات الى المملكة النباتية، لأن النباتات تنشأ، في كل الأحوال من الخلية البدائية ذاتها للحيوانات.

– نعم أرى ذلك. لكن شيئاً يحيرني.

– ما هو؟

– من أين أتت هذه الخلية البدائية؟ هل كان لدى داروين جواب عن ذلك؟

– لقد قلت انه كان رجلاً حذراً جداً، اليس كذلك. ولكن فيما يخص هذا السؤال فقد سمح لنفسه ان يقدم افتراضاً محدداً، هو التالي:

اذا، (ويا لها من اذا) استطعنا أن نصور بركة صغيرة حارة فيها كل أنواع أملاح الأمونياك والفوسفور والضوء والحرارة والكهرباء، وما الى ذلك، وتكوّن فيها كيميائياً مركّب بروتيني، مؤهل للاستمرار في المرور

بتغيرات اكثر تعقيداً..

– عندها ماذا؟

– يفلسف داروين هنا كيف يمكن ان تكون أول خلية قد تكونت من مواد غير عضوية. وهو بذلك يدق المسمار ثانية. وقد بات العلم المعاصر ينطلق تحديداً من فكرة ان أول نوع من أنواع الحياة قد نشأ في ما يشبه تماما البركة الصغيرة الحارة التي صورها داروين.

– أنا مرتابة، هل يعرف احد حقاً كيف بدأت الحياة؟

– ربما لا، ولكن بتنا نمتلك اكثر فاكثر من العناصر التي تكمل الصورة، مما يسمح لنا بتفسير ذلك.

– حسنا؟

– لنقر أولا بأن كل الحياة على الأرض – الحيوانية والنباتية – مكونة من المواد نفسها. وأبسط تعريف للحياة انها مادة اذا وضعت في محلول مغذ تكون لها القدرة على تقسيم نفسها الى اقسام متطابقة. وهذه العملية محكومة بمادة ندعوها DNA نعني بالـ DNA الكروموسومات، أو البنى الوراثية الموجودة في كل الخلايا الحية. ونستعمل مصطلح جزيء الـ DNA لأن الـ DNA جزيء معقد أو جزيء ضخم. فالسؤال اذن كيف ظهر الجزيء الأول؟

– نعم؟

– تكونت الأرض مع تكوين المجموعة الشمسية قبل (٤ر٦) بليون سنة. بدأت كتلة ملتهبة بردت تدريجياً. هنا يعتقد العلم الحديث ان الحياة بدأت قبل ثلاثة أو أربعة بلايين عام.

– يبدو هذا توقعاً بعيداً.

– لا تقولي هذا قبل أن تسمعي البقية، أولاً لم يكن كوكبنا ما نراه اليوم. وبما انه لم تكن هناك حياة، لم يكن هناك اكسجين في الجو. تكون الاكسجين الحر أولاً بفضل التركيب الضوئي في النباتات، وحقيقة انه لم يكن هناك اكسجين هي حقيقة مهمة، فمن غير المرجح ان تكون الخلايا الحية، التي يمكن ان تشكل الـ (DNA) قد نشأت في جو يحتوي على الأكسجين.

– لماذا؟

– لأن الأكسجين يتفاعل بسرعة، فبوجوده قبل أن تتشكل أي جزيئات مثل الـ (DNA) تكون خلايا الـ (DNA) قد تأكسدت.

– حقاً.

– وهكذا نعرف تأكيدا ان لا حياة جديدة يمكن أن تنشأ اليوم، ولا حتى بكتيريا أو فيروس. فكل أنواع الحياة على الأرض لها العمر نفسه تماماً. فيمكن القول ان فيلاً، أو انساناً، هو في الحقيقة مستعمرة ملتحمة من كائنات وحيدة الخلية، لأن كل خلية في جسمنا تحمل المادة الوراثية نفسها .. فالصيغة الكاملة لما نحن، تختبىء في كل خلية صغيرة.

– انها فكرة غريبة.

– احد الغاز الحياة الكبيرة هو ان خلايا الحيوانات متعددة الخلايا لها القدرة على تخصيص عملها بالرغم من ان الصفات الوراثية المختلفة ليست فاعلة أو نشيطة في جميع الخلايا، بعض هذه الصفات أو الجينات تُفَعَّل وبعضها «لا تُفَعَّل». فخلية الكبد لا تنتج البروتين نفسه الذي تنتجه خلية عصبية أو جلدية. ولكن الخلايا الثلاث جميعها تحمل جزيء الـ (DNA) نفسه، الذي يحتوي على الصيغة الحياتية الكاملة للكائن المقصود.

وبما انه لم يكن هناك اكسجين في الجو، فلم يكن هناك غلاف أوزون حام حول الأرض. هذا يعني انه لم يكن هناك شيء يوقف الأشعة الكونية. وهذا مهم أيضاً اذ من الممكن انه كان لهذه الاشعة دور في تشكيل جزيء معقد. الأشعة الكونية من هذه الطبيعة كانت الطاقة الفعلية التي دفعت المواد الكيماوية المختلفة على الأرض للاتحاد وتشكيل جزيئات كبيرة.

دعيني ألخص ما قلت: قبل أن تتمكن مثل هذه الجزيئات المعقدة، التي تتكون منها الحياة، من التشكل، يجب توافر شرطين على الأقل وهما: عدم وجود الاكسجين في الجو، وفتح المجال للأشعة الكونية.

– فهمت.

– في هذه البركة الصغيرة الحارة، أو الحساء البدائي، كما يسميه العلماء الحديثون، تكون جزيء كبير معقد جداً، كانت له القدرة العجيبة على الانقسام الى جزئين متشابهين، وهكذا بدأت عملية النشوء الطويلة، صوفي. اذا بسّطناها قليلاً يمكننا القول اننا نتحدث الآن عن أول مادة وراثية، أول (DNA) أو أول خلية حية. فقد انقسمت مجددا ومجددا – ولكن من المرحلة الأولى كان التحول يحدث. وبعد دهور من الزمن اتصلت احدى هذه الكائنات وحيدة الخلية بكائن وحيد الخلية أكثر تعقيداً. وهكذا أيضاً بدأ التركيب الضوئي عند النبات، وهكذا أصبح الجو يحتوي على الأكسجين. كان لهذا نتيجتان: أولا، سمح الجو لنشوء الحيوانات التي تتنفس بمساعدة الرئات. ثانياً: حمى الجو الحياة من الأشعة الكونية، والغريب في الأمر ان هذه الأشعة التي كانت شرارة مهمة في تكون أول خلية، هي أيضاً مؤذية لكل أنوا ع الحياة.

– ولكن الغلاف الجوي لا يمكن أن يكون قد تشكل بين ليلة وضحاها، فكيف عاشت أولى أنوا ع الحياة؟

– بدأت الحياة في البحار البدائية – وهي ما نعنيه بالحساء البدائي، هناك يمكن أن تعيش كمية من الأشعة المؤذية. ولم تزحف البرمائيات الى الأرض حتى وقت طويل لاحق، عندما كونت الحياة في المحيطات غلافاً جوياً. والباقي قد تكلمنا عنه. وها نحن الآن، نجلس في كوخ في الغابة، وننظر الى الوراء الى عملية استغرقت ثلاثة أو أربعة بلايين عام. وأدركت هذه العملية نفسها، أخيراً، فينا.

– ومع هذا، فأنت لا تظن ان كل هذا حصل بمحض المصادفة؟

– لم أقل هذا. تبين الصورة على هذا اللوح ان النشوء كان له اتجاه فعلي. وعلى مدى دهور طويلة نشأت الحيوانات بأجهزة عصبية اكثر وأكثر تعقيداً، ودما غ أكبر وأكبر. شخصياً، لا أعتقد ان ذلك يمكن ان يكون مصادفة. ماذا تعتقدين؟

– من الطريف هنا ان تطور العين حيّر داروين أيضاً. فلم يستطع أن يألف فكرة أن شيئاً حساساً ودقيقاً كالعين يمكن ان يكون سببه مقتصراً على الانتخاب الطبيعي.

جلست صوفي تنظر الى البرتو وهي تفكر: كم هو غريب ان تكون على قيد الحياة الآن، وانها عاشت هذه المرة فقط، وانها لن تعود الى هذه الحياة مرة أخرى.

وفجأة صرخت:

– ما قيمة الخلق الأزلي اذن طالما، بلحظة يعاد المخلوق الى العدم؟

رماها البرتو بنظرة حادة وقال:

– عليك ألا تتكلمي هكذا، فانت تتلفظين بعبارات الشيطان.

– الشيطان؟

– أجل عبارات (مفيستوفيليس) في (فاوست) غوته.

– ولكن ما معنى هذا تحديداً؟

– في لحظة النزع القى غوته نظرة أخيرة على كل ما فعله في حياته، وأعلن بصوت منتصر:

– هكذا أستطيع أن أقول للحظة:

ابقي، فانت جد جميلة!
لا يمكن ان تزول آثار حياتي الأرضية..
ومهما تناهت الدهور ..
وفي احساس هذا الرضى الكلي
انعم الآن باللحظة الأسمى.

– لقد عبر بطريقة جميلة.

– لكن، بعده جاء دور الشيطان ليتكلم، فقال انه لم يعد أمام فاوست متسع من الحياة:

«انتهى! كلمة عبثية
لماذا انتهى؟
انتهى. والعدم المحض، متطابقتان تماماً.
ان تحمل الكائن المخلوق وتعيده الى العدم؟

«انتهى!» ماذا يجب أن نفهم من ذلك؟ كأنه لم يكن أبداً.
ومع ذلك فانه يتحرك داخل الدائرة كأنه كان موجوداً.
افَضِّل اكثر، الفراغ الأزلي».

– أي تشاؤم! انا افضل النص الأول. فان فاوست يرى معنى في الاثار التي تركها وراءه، حتى ولو انتهت حياته.

– اليس ذلك، في الواقع، احد نتائج نظرية داروين حول التطور، وخاصة اذا ما سلمنا بان كل شكل من أشكال الحياة، مهما كان صغيراً، يساهم بطريقته بشيء أكبر؟ ان الكوكب الحي هو نحن يا صوفي! نحن المركب الحي الكبير الذي يدور حول شمس مستقلة داخل الكون. لكن كلاً منا هو أيضاً مركب يجتاز الحياة بحمولته من الجينات. فإذا ما توصلنا الى تسليم البضاعة في المرفأ المناسب. لا تكون حياتنا عبثاً. ويعبر الشاعر النرويجي بيرنْشيرْني بيرْنسون Bjornstjerne Bjornson الذي عاش في القرن التاسع عشر عن الفكرة ذاتها بقوله:

بجِّلْ ربيع الحياة القصير
الكامن في أصل كل شيء على الأرض!
فالأكثر صغراً، سيعرف هو أيضاً، يوماً،
انبعاثاً
وحدها الأشكال تضيع.
فالأجيال، تنسل اجيالاً جديدة
تاركة الانسانية تتفتح قبلها:
النوع ينسل النوع
طوال ملايين السنين
والعوالم تخبو وتُبعث
تتعاطى متعة الحياة
انت من يمكن ان يذبل
في عز ربيعه،

عالم صوفي

تذوقْ كل لحظة، كتكريم للابدي
الذي جبت به الانسانية
قدمْ مساهمتك البسيطة
في الدوامة اللامتناهية
انتشِ،
وان ضعيفاً، ولا معنى لك،
بأبدية هذا النهار..

- *كم هو جميل هذا!*
- *حسناً، يكفي كلاماً، لنتوقف.*
- *توقف عن سخريتك. هيا!*
- *قلت كفى .. وعليك أن تطيعي.*

فرويد

... هذه الرغبة الأنانية وغير المعلنة التي انبـــثـــقت فـي داخلـهــــا ...

قفزت هيلد موللر كناغ من السرير وهي تضم الملف بين ذراعيها. وضعته على المكتب، واخذت ملابسها متجهة الى الحمام، حيث استحمت في دقيقتين فقط، وارتدت ملابسها بالسرعة ذاتها. ثم نزلت.

– الفطور جاهز يا هيلد.

– اريد القيام بجولة في القارب اولا.

– وبعد ... يا هيلد ...

خرجت تعبر الحديقة ركضاً الى القارب، ففكت مرساته وقفزت اليه. ثم راحت تجوب البحيرة وهي تجذف بحيوية كبيرة، الى ان احست بالهدوء يعود الى نفسها.

«الكوكب الحي هو نحن يا صوفيا نحن المركب الكبير الذي يبحر حول شمس مستقلة، في قلب الكون. لكن كل واحد فينا هو ايضاً مركب يجتاز الحياة بحمولته من الجينات. فاذا ما توصلنا الى تفريغ الحمولة في المرفا المناسب، لا نكون قد عشنا عبثاً ...»

تحفظ ذلك عن ظهر قلب، وتعرف انه موجه اليها هي وليس الى صوفي. وضعت المجذافين جانباً مستسلمة للامواج تؤرجحها على هواها.

مثلها مثل هذا القارب المتواضع الذي يطوف على سطح خليج صغير في ليلساند، تشعر انها ليست إلاّ قشرة جوز تعوم على سطح الحياة. ما هو مصير صوفي والبرتو في هذه الصورة؟ نعم اين هما الآن؟

انها عاجزة عن تقبل فكرة ان هذين الكائنين ما هما إلاّ «اندفاعات كهرومغناطيسية» في ذهن ابيها، ومجرد مخلوقات من حبر وورق، افرزتهما الآلة الكاتبة التي يحملها. افليست هي ايضاً، من هذا المنظور، مجرد حصيلة

من البروتينات المندمجة فيما بينها والتي اخذت يوماً شكلاً معيناً، في «مستنقع صغير فاتر المياه »؟ لكنها .. شيء اخر ايضاً. انها هيلد موللر كناغ!

من المؤكد ان الملف الكبير كان هدية رائعة في عيد ميلادها. وعليها ان تعترف بان اباها قد لمس وتراً حساساً في نفسها، لكنها لا تحب اسلوبه في السخرية من البرتو وصوفي.

لذلك، ستفعل ما يربكه ويحيره في طريق عودته. انه اقل ما يجب عليها فعله من اجلهما .. وراحت تتخيل والدها «يذرع» الممرات في مطار كوبنهاغن، ضائعاً، حائراً.

احست هيلد بانها هدأت تماماً، فتناولت المجانيف، عائدة الى الشاطىء. اخيراً .. اصبحت قادرة ان تاخذ الوقت الكافي لتناول الافطار بهدوء مع امها. كم هو مريح ان نتحدث في التفاهات، من مثل: البيض شهي، لكن حبذا لو طال سلقه دقيقة اخرى ..

لم تعد الى ملفها إلاّ في اخر السهرة، اذ لم تبق امامها صفحات كثيرة للقراءة.

ثمة من يطرق من جديد على الباب.

– اذا صممنا آذاننا، سينتهي الطارق الى الملل، ويذهب. قال البرتو.

– لا، أنا أرغب في معرفة من يكون.

– نهضت صوفي وتبعها البرتو.

ليجدا عند المدخل، رجلاً عارياً، يقف بشكل محترم، ويحمل تاجاً على رأسه.

– وبعد؟ ما رأي المجلس النبيل، بالزي الجديد للامبراطور؟

وقفت صوفي والبرتو والذهول يعقد لسانيهما. مما أثار الرجل العاري، وجعله يصرخ بهما:

– حتى التحية، لا تؤديانها!

استجمع البرتو شجاعته وأجاب:

– هذا حق، لكن الامبراطور عارٍ كدودة.

غير أن الرجل اكتفى بالحفاظ على وقفته المتعالية، دون أن يعلق. فانحنى البرتو يهمس في اذن صوفي.

– يتخيل انه رجل كما يجب أن يكون.

فجأة تحرك الرجل، قائلاً:

– هل تمارسون رقابة ما في هذا المنزل؟

– لسوء الحظ اننا نمتلك ذهناً صافياً، ونصغي الى حواسنا أكثر من أي وقت مضى. – اجاب البرتو، متابعاً – لذلك لا أمل للامبراطور بعبور هذه العتبة وهو على هذه الهيئة الفضائحية.

احست صوفي بان وضع الرجل مضحك بحيث لم تتمالك نفسها من الضحك عالياً. وكأن ذلك قد شكل اشارة سرية، جعلت الرجل ينتبه اخيراً الى أنه عارٍ تماماً، فوضع يده على عورته، واسرع يعود باتجاه الغابة. ربما التقي هناك آدم وحواء، نوح، ليلى الحمراء، ويني الدب.

ظل البرتو وصوفي فترة عند المدخل يضحكان.

– هيا، فلنعد، قال البرتو. سأحدثك عن فرويد ونظريته في اللاوعي.

ما ان جلسا، قرب النافذة، حتى نظرت صوفي الى ساعتها، وقالت:

– اصبحت الساعة الثانية، ولا تزال أمامي ترتيبات كثيرة لحفلة المساء.

– وأنا كذلك. لذا فلن أحدثك إلا قليلاً عن سيجموند فرويد.

– أهو فيلسوف؟

– بشكل من الأشكال. لقد ولد فرويد عام ١٨٥٦، ودرس الطب في جامعة فيينا، حيث عاش معظم حياته، في الوقت الذي كانت فيه هذه المدينة، احدى أهم مراكز الثقافة الأوروبية. ولم يلبث أن اختص بطب الأعصاب . ومنذ نحو نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، تقريباً، عكف يعمل على علم نفس الاعماق البشرية، أو ما يسمى التحليل النفسي.

– اعتمد على توضيحاتك، لأفهم.

– يغطي مصطلح «التحليل النفسي» وصف النفس الانسانية بشكل عام، كما يغطي منهجاً وطريقة لعلاج الآلام النفسية والعصبية. وأنا لا

أنوي ان ارسم لك صورة كاملة لفرويد ونشاطه، لكن نظريته في اللاوعي هي ضرورية لفهم ماهية الإنسان.

– اثرت فضولي .. اكمل.

– كان فرويد يعتقد بوجود علاقة صراعية دائمة بين الانسان ومحيطه. وتحديداً بين رغبات الانسان وغرائزه، من جهة، ومتطلبات ومحرمات العالم المحيط به. ويمكن أن نقول، دون مبالغة، ان فرويد هو اول من اكتشف الحياة الغرائزية للإنسان.

ومما يجعله احد ممثلي اهم الحركات الطبيعية التي طبعت نهاية القرن التاسع عشر.

– ما الذي تقصده بالحياة الغريزية للانسان؟

– ليس العقل وحده هو الذي يقود أفعالنا، لأن الانسان ليس كائنا عقلانياً بحتاً، كما أراد الفلاسفة العقلانيون في القرن الثامن عشر، ان يقنعونا. فغالباً ما تحدد اندفاعات لا عقلانية، ما نفكر به أو نحلم به أو نفعله. ويمكن أن تكون هذه الاندفاعات اللاعقلانية تعبيراً عن غرائز أو رغبات عميقة. فالرغبة الجنسية لدى الانسان، مثلاً، هي شيء لا يقل أساسية، عن الحاجة للرضاعة لدى الطفل.

– افهم.

– ليس هذا شيئاً جديداً بذاته. لكن فرويد برهن ان هذا النوع من الحاجات الأساسية قد يظل مقنّعاً، مكبوتاً، متنكراً، لكنه يدير بذلك أفعالنا دون أن نعي، كما برهن ان للاطفال أيضاً نوعاً من الحياة الجنسية. وقد ازعج حديثه هذا عن «الجنسية لدى الأطفال» النخبة المثقفة في فيينا، وقلص شعبيته الى اقصى الحدود.

– لا يثير هذا استغرابي.

– نحن نتحدث عن المرحلة «الفكتورية» (أي مرحلة حكم فكتوريا) يوم كان كل ما له علاقة بالجنس، شيئاً محرماً (تابو). وقد اكتشف فرويد وجود الجنس لدى الأطفال، في اطار عمله كطبيب نفسي، كما وضع يده على عدة عناصر تجريبية، اذ لاحظ عدة أشكال من الآلام النفسية والحالات العصبية تعود لأزمات عاشها المريض في طفولته.

وهكذا راح يضع، شيئاً فشيئاً، طريقته العلاجية الخاصة، ممارساً ما يمكن ان نسميه «التنقيب الاثري في النفس البشرية».

– ما معنى ذلك. بالضبط؟

– يحاول المنقب الأثري ان يجد آثار ماضٍ بعيد، باجراء تنقيبات عبر طبقات متتالية متعددة من الحضارات. وقد يقع على سكّين من القرن السابع عشر. ثم يحفر حتى طبقة اعمق، فيجد مشطاً من القرن الرابع عشر، وفي طبقة اعمق ابريقاً من القرن الخامس ..

– آه؟ ...

– هكذا يحفر المحلل النفسي، بمساعدة مريضه، في طبقات نفسية هذا الاخير، ليخرج منها التجارب التي سببت له يوماً، آلاماً نفسية.

ذاك أننا نحتفظ في أعمق أعماقنا، بحسب فرويد، بكل ذكريات الماضي مخبوءة.

– الآن فهمت افضل.

– انه يعود فيصعّد من هذه الأعماق، الى وعي المريض، تجربة مؤلمة حاول ان ينساها طوال سنوات، لكنها ظلت قابعة في الأعماق، تحدد وتحرك قدرات هذا الانسان. ويجعل هذه «التجربة الصدمة» تنبثق من جديد، في حقل الوعي، وبتعبير آخر، بوضعها أمام عيني المريض، يتمكن هذا الأخير من «تصفية حساباته» معها، ويشفى.

– هذا يبدو منطقياً.

– لكنني احرقت مراحل. فلنعد ونتفحص وصف فرويد للنفس البشرية. هل سبق وشاهدت طفلاً وليداً؟

– لي ابن عم في الرابعة من عمره.

– عندما نأتي الى هذا العالم، نعبّر ببساطة، ومباشرة عن كل حاجاتنا النفسية والجسدية، وعن كل ما يزعجنا. اذا لم نُعط الحليب رحنا نصرخ، وكذلك نفعل اذا تبللنا. كما نعبّر أيضاً بوضوح ومباشرة عن حاجتنا للحنان والدفء.

ويطلق فرويد على «مبدأ الاندفاعات» و«المتعة» هذا، تسمية «الانفعال اللاواعي». وبذا لا يكون الوليد إلاّ شكلاً من أشكال هذا «الانفعال

اللاواعي».

– تابع.

– اننا نحتفظ بهذا «الانفعال اللاواعي» في داخلنا، طوال حياتنا، حتى بعد البلوغ. لكننا نتعلم تدريجياً ان نعتدل في رغباتنا، وان نتكيف مع قواعد العالم المحيط بنا. نتعلم أن نجعل «مبدأ المتعة» يتنحى لمصلحة «مبدأ الواقعية». ويعبر فرويد عن ذلك بقوله اننا نقوم ببناء «ذات» تمارس هذه المهمة المنظمة، المعدلة. لقد بتنا نعرف انه لا يجوز لنا، حتى ولو رغبنا في شيء، ان نأخذ في البكاء والصراخ، الى ان نحصل عليه. وعلى تلبية حاجاتنا ورغباتنا.

– طبعاً، لا.

– قد يحدث ان نرغب بحدة، بشيء يرفض العالم الخارجي، اعطاءنا اياه، عندها نكون مجبرين على كبت رغباتنا، فنحاول ابعادها عن ذهننا، ونسيانها.

– فهمت.

– لكن فرويد يؤكد على وجود فعالية اخرى في النفس البشرية. فمنذ طفولتنا نجد أنفسنا في مواجهة المفروضات الاخلاقية للكبار وللمحيط. فاذا ما فعلنا شيئاً «سيئاً» يصرخ الأهل بنا: «لا ليس هكذا!» أو «كم انت ابله»!. وهكذا نجر وراءنا، ونحن نكبر، كل هذه المفروضات والاحكام المسبقة الاخلاقية، وننتهي الى ادخالها في داخلنا، بحيث تصبح جزءاً منا، هذا ما يسميه فرويد الـ «انا المثالي».

– هل كان يقصد الضمير؟

– الضمير، بحسب فرويد، جزء من الأنا المثالي. لكن هذه الأنا تنذرنا عندما تكون لدينا «رغبات» قذرة، أو «غير مقبولة». وهي بشكل خاص الرغبات الجنسية، والغرائزية. وكما قلت يركز فرويد على واقع ان هذه الرغبات «المنحرفة» أو الضالة، تكون كامنة في مرحلة الطفولة.

– اوضح

– نعرف، ونلاحظ ان الأطفال الصغار جداً، يجدون متعة في لمس أعضائهم الجنسية، ويكفي ان تذهبي الى أي مسبح لتلاحظي ذلك.

في زمن فرويد، كان الطفل الذي يفعل ذلك، يتلقى صفعة على يده، مع تعنيف «يا الطفل الحقير!» أو «ألا تخجل؟!» أو «هيا .. ضع يدك فوق الغطاء!».

– لكن. هذا جنون!

– هكذا يتكون احساس بالذنب يطال كل ما له علاقة بالجنس أو بالأعضاء التناسلية. وبما ان هذا الاحساس يبقى في «الانا المثالي» فان معظم الناس، برأي فرويد، يعيشون حياتهم كلها وهم يشعرون بالذنب ازاء كل ما يرتبط بالجنس، في حين ان الرغبات والحاجات الجنسية تشكل جزءاً من جسد الانسان، كما يتكوّن. من هنا، الصراع الأبدي، يا صغيرتي، بين الرغبة والاحساس بالذنب.

– ألا تعتقد ان هذا الصراع قد اصبح اقل عنفاً بعد عصر فرويد؟

– بالتأكيد. لكن عدداً كبيراً من مرضى فرويد كان يعيش هذاالصراع بشكل مأساوي، وصل حد أمراض اسماها فرويد «العصاب النفسي». مثلاً كانت احدى هؤلاء المرضى، مغرمة في سرها، بزوج شقيقتها. وعندما ماتت اختها اثر مرض عضال، قالت في نفسها: «ها هو أخيراً حر في الزواج مني» لكن هذه الفكرة اصطدمت «بالأنا المثالي»، كبتها الى الداخل بسرعة، كما كتب فرويد، وكان يقصد انها اعادت هذه الفكرة الى لاوعيها. «ووقعت المرأة الشابة مريضة بالهستيريا. وفي اثناء علاجها لاحظت انها نسيت تماماً مشهد وقوفها امام نعش أختها، عندما، انبثق في داخلها ذلك الإحساس الاناني غير المعلن لكنه عاد الى ذكراها خلال العلاج: فاسترجعت هذه اللحظة بانفعال واضطراب كبيرين، وشفيت».

– الآن فهمت افضل ما عنيته بقولك «التنقيب الأثري في النفس».

– الآن يمكننا ان نرسم صورة كاملة للنفس البشرية، بشكل عام. اذ توصل فرويد، بعد سنوات من التجارب على مرضاه، الى استنتاج، ان وعي الانسان لا يشكل إلاّ جزءاً صغيراً من النفس البشرية. فما هو واعٍ هو كالجزء الظاهر من جبل الجليد. وتحت سطح الماء –أي تحت الوعي– هناك كل ما لا نعيه، الشعور الباطن ثم اللاشعور، الوعي الباطن ثم

اللاوعي.

– هل اللاوعي، هو ما هو موجود في داخلنا، لكننا نسيناه، ولم نعد نستطيع تذكره؟

– ليست تجاربنا كلها حاضرة، دائماً في وعينا. لكن كل الأفكار والتجارب التي يمكن أن تعود الى ذاكرتنا، دون أن نبذل جهداً كبيراً في التركيز، تشكل ما يسميه فرويد الـ «ما تحت الوعي». وهو لا يستعمل مصطلح اللاوعي إلاّ للتعبير عما كبتناه وأعدناه الى الداخل. أي كل تلك الافكار والأشياء. التي جهدنا في نسيانها لأنها غير مناسبة ومنحرفة ومرفوضة. فعندما يرفض الوعي أو الانا المثالي رغبة معينة، نقوم بنفيها الى الطابق الاسفل. تخلص جيدا!

– افهم.

– تعمل هذه الآلية، لدى كل الناس الأصحاء. لكن بعضهم يحتاج الى جهد كبير لكبت هذه الأفكار المزعجة أو الممنوعة، بحيث يصبح يعاني من آلام عصبية حقيقية. ذاك ان الحس المكبوت يحاول دائما ان يصعد من جديد الى الوعي، مما يجهد الانسان في الحفاظ على توازن مصطنع بين رغباته والواقع. وقد أورد فرويد مثالاً على هذه الآلية، في احدى محاضراته في الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٠٩.

– حسناً، انا مصغية.

– قال لجمهوره ان عليهم أن يتخيلوا وجود عنصر مشاغب في القاعة، يتدخل ضاجاً، ويدق برجليه، فيزعج الحضور ويجبر المحاضر على التوقف والسكوت. هنا قد ينهض بضعة رجال جريئين، ويجرون المشاغب بالقوة الى الممر الخارجي. هكذا يكون قد قمع أو كبت ويستطيع الخطيب أن يتابع محاضرته بسلام.

وكي يضمن هؤلاء الرجال عدم تكرار التدخل والشغب – أي كي يضمنوا نجاح الكبت – يجلس هؤلاء بكراسيهم أمام باب المدخل، مشكلين «حاجزاً».. ويكفي ان نسمي القاعة: «الوعي» والممر «اللاوعي» لنكون صورة واضحة لعملية الكبت.

– اعترف بأنها صورة جيدة.

– لكن الرجل المزعج لم يقل كلمته الأخيرة بعد. وهذا ما يحصل ايضاً للأفكار والاندفاعات المكبوتة، التي نعيش دائماً تحت ضغطها، اذ تحاول أن تشق طريقها الى الوعي، لذلك تحصل معنا دائماً «زلاّت اللسان».

وهكذا تقود ردات فعل لاشعورية مشاعرنا وأفعالنا.

– كيف؟

– كشف فرويد عن عدة آليات من هذا النوع. فهناك ما يسميه: ردات الفعل السيئة. اذ نفعل أو نقول من تلقاء انفسنا، شيئاً كنا قد حاولنا كبته في السابق. وهو يروي مثال عامل كان عليه أن يشرب كأس رب عمله، لكن المشكلة أن احداً لا يحب هذا السيد، حتى ان بعضهم يصفونه دون تردد بالوغد.

– اف ..

– اذن، رفع العامل الكأس، وأعلن بصوت احتفالي:

«فلنشرب الآن نخب وغدنا العزيز».

– هكذا!

– الواقع ان العامل لم يكذب نفسه لأنه قال في الواقع ما كان يفكر به حقاً، دون أن تكون لديه اية نية لقوله.

– هل تريدين مثالاً آخر؟

– بكل سرور.

– كانت أسْرَة واعظ، تضم عدداً من الفتيات الهادئات والجميلات، تنتظر زيارة الاسقف. وكان لهذا الرجل انف طويل بشكل لامعقول. أعطى الأب الأوامر لبناته، بعدم اعطاء أية ملاحظة على أنف الضيف. انت تعرفين انه ليس كالأطفال من يقذف الحقائق في وجه صاحبها، لسبب بسيط هو ان مبدأ الكبت لا يكون لدى الطفل قوياً مثله لدى الكبار.

جاء الأسقف، والتزمت الفتيات المؤدبات بعدم الاشارة ابداً الى انفه، بل بذلن جهداً في عدم النظر ابداً الى انفه، لكنهن لم يكن يفكرن إلا به. وعندما جاءت احداهن تقدم له السكر مع القهوة سألته بأدب: «هل تريد

قليلاً من السكر مع أنفك؟».

– يا إلهي! ... كم ان هذا قاسٍ!.

– مثل آخر يتمثل في التسويغ. أي اننا نعطي كل المبررات لتبرير افعالنا امام أنفسنا وأمام الآخرين، لسبب بسيط هو انه من الصعب جداً الاعتراف بالسبب الحقيقي.

– أعط مثلاً، من فضلك.

– استطيع أن اجعلك – وانت تحت تأثير التنويم المغناطيسي – تفتحين شباكاً. اذ انومك وأنا اقول إن عليك ان تنهضي وتفتحي الشباك، عندما أدق لك على الطاولة. تفعلين ذلك، وتبررينه بان الجو حار جداً. لكن هذا ليس السبب الحقيقي. وانت لا تريدين ان تعترفي انك نفذت احد اوامري وانت منومة .. انت «تبررين».

– افهم.

– هكذا تكون لنا يومياً «لغة مزدوجة».

– لقد حدثتك عن ابن عمي، ذي الرابعة، واعتقد انه ليس لديه الكثير من أصدقاء اللعب، لذلك يفرح بشكل غريب، عندما آتي لزيارتهم. مرة قلت له أن علي أن أعود الى أمي بسرعة. فهل تدرين بما أجابني؟

– ماذا؟

– ان امك بلهاء.

– هذا مثال جيد على ما قصدته بالتبرير. فالولد لم يكن يعني ما يقول، لأنه يريد أن يقول ان من البله أن تذهبي، لكنه يخجل.

هكذا يحصل أحياناً حين نقوم بالاسقاط.

– هل يمكن أن تفسر لي؟

– يعني هذا المصطلح اننا ننسب للآخرين مشاعر وأفكاراً، كبتناها في داخلنا. فقد نجد بخيلاً مقتراً، يُلفت النظر إلى البخل، عند سواه. كما نجد امرأة تخجل من الاعتراف باهتمامها بالجنس، تنعت الآخرين بانهم مهووسون أو مهووسات جنسياً.

– افهم ما تقصد.

– يقول فرويد ان حياتنا اليومية تزخر بامثلة على الأفعال

اللاشعورية. كأن ننسى دائماً اسم شخص ما، أو نبرم ملابسنا بأيدينا ونحن نتكلم، أو ننقل، أشياء من مكانها دون أن ننتبه. ولا ننسى كل زلاّت اللسان التي نقول فيها أشياء بريئة. وما هذا كله، برأي فرويد، إلاّ أعراض. اذ أن هذه الزلاّت في الفعل أو في القول، تخون أسرارنا الأكثر حميمية.

– من الآن وصاعداً، سوف انتبه لكل ما أقوله.

– لكنك لن تستطيعي الافلات بذلك، من الاندفاعات اللاشعورية. لذلك تمثل كل المهارة في عدم بذل جهد كبير لإعادة الافكار غير المعلنة الى اللاشعور. لان الأمر يشبه محاولة سد فتحة خُلد في تراب الحديقة، اذ تكون نتيجة تكرار المحاولة ونجاحها، لجوء الخلد الى فتح كوه جديدة من مكان آخر، لا يبعد كثيراً، ليس اكثر. لذلك فان ترك الباب مفتوحاً بين الوعي واللاوعي، هو اكثر صحية.

– واذا اغلقنا الباب. هل نواجه خطر امراض نفسية؟

– نعم. فالمصاب بالعصاب، هو انسان يفعل كل ما بوسعه، ليطرد من وعيه كل ما يعكر مزاجه. وغالباً ما يكون المطرود تجربة هامة جداً الى الحد الذي يجعل كبتها امراً حيوياً للمعني. على هذا النوع من التجارب الخاصة يطلق فرويد تسمية «الصدمة النفسية» ويعني الجذر الاغريقي للكلمة (Trauma)، الجرح.

– فهمت

– كان فرويد يحاول في علاجه لمرضاه ان يدفع هذا الباب المغلق ويفتحه، واذا فشل، ان يفتح سواه، محاولا ان يصعد الى الوعي، وبمساعدة المريض نفسه، إلى التجارب المكبوتة في اللاوعي، فالمريض لا يعرف مكبوتاته، لكنه يستطيع أن يشارك الطبيب، ويفهم مسعاه الهادف الى اطلاق هذه الصدمات المخفية.

– وكيف يفعل الطبيب؟

– وضع فرويد اسلوباً اسماه، تقنية المشاركة الحرة، حيث يتمدد المريض في وضع مسترخ، ويتحدث بحرية عن كل ما يخطر بباله، عن الأشياء التافهة، كما عن الخطيرة والمؤلمة. وهنا يتمثل فن المعالج، بكسر

هذا «الغطاء» او هذه «الرقابة» التي تحفظ الصدمة مقفلة. ذاك ان هذه الصدمات هي ما يشغل المريض، تحديداً .. وهي تؤثر فيه باستمرار دون ان يعي ذلك أو ينتبه اليه.

– كلما بذلنا جهداً اكبر كي لا نفكر بشيء ما، كلما فكر به اللاوعي اكثر. اليس كذلك؟

– بالضبط. لذلك يجب الاستماع الى اشارات اللاوعي. «فالطريق السلطاني» الذي يقود الى اللاوعي هو احلامنا. برأي فرويد، ولذلك فإن كتابه الصادر عام (١٩٠٠)، تحت عنوان «في تفسير الاحلام» يوضح اننا لا نحلم، هكذا، مصادفة. لأنه من خلال الأحلام، تحاول الأفكار اللاواعية ان تشق طريقها الى الوعي.

– تابع.

– بعد سنوات من علاج المرضى، وفي تحليل احلامهم، واحلامه هو ايضاً، وصل فرويد الى استنتاج ان كل الأحلام تسمح بتحقيق الرغبات فيكفي، برأيه، ان ننظر الى الأطفال واحلامهم، انهم يحلمون بالكرز والبوظة. اما الكبار فان المشكلة تكمن في ان رغباتهم، التي تساهم الاحلام في اشباعها، هي غالباً مقنعة. لأننا نمارس، حتى في النوم، رقابة قاسية على رغباتنا. لكنه من المؤكد ان هذه الرقابة وآلية الكبت، هما في حالة النوم، اضعف منهما في حالة الصحو، لكنهما تظلان قويتين بما يكفي لجعلنا ننقل، في الحلم، موضوع الرغبة الذي نرفض قبوله.

– من هنا ضرورة تفسير الاحلام؟

– يشير فرويد الى ضرورة التمييز بين الحلم كما نتذكره في الصباح، ومعناه العميق. فهو يسمي صور الحلم، أي «فيلم» أو «فيديو» احلامنا: «المحتوى الظاهر» للحلم. وهو يجد مصادره دائماً، في احداث اليقظة. لكنّ الحلم معنى مخبوءاً، يفلت من الوعي: وهو المحتوى الخفي الحلم. ويمكن ان تعود، هذه الأفكار المخبوءة التي يتحدث عنها الحلم، الى مراحل عميقة جداً، قد تصل إلى الطفولة المبكرة.

– اذن يجب تحليل الحلم، لنفهم موضوعه.

– نعم، وفي حالة المرض النفسي، يجب تنفيذ ذلك مع الطبيب المعالج. لكن الطبيب لا يقوم وحده بتفسير الحلم، وانما بمساعدة المريض نفسه، وفي هذه الحالة، يكون دور الطبيب النفسي، اشبه بدور القابلة، اي انه يساعد في ولادة او توليد تفسير الحلم.

– فهمت.

– ان تحويل «المحتوى الخفي» الى «محتوى ظاهر» هو ما يسميه فرويد عمل الحلم. حيث يمكن الحديث عن «لعبة الأقنعة» أو «لعبة الاشارات» فيما يخص الموضوع الحقيقي للحلم، والتي تقضي بان يعمد التفسير الى العمل في الاتجاه المعاكس، اي نزع الاقنعة، وايضاح كل الاشارات، لكشف «المعنى» المختفي وراءها.

– مثلاً؟

– كتاب فرويد محشو بالأمثلة، لكننا نستطيع ان نجد، نحن، مثالاً اكثر بساطة، وفرويدياً. فلنفترض ان شاباً صغيراً حلم بانه تلقى بالونين من ابنة عمه..

– وماذا بعد؟ ..

– هيا، حاولي ان تجدي تفسيراً!

– هم .. لنعد الى البداية: المحتوى الظاهر للحلم هو ما قلته بالضبط: ولد يتلقى بالونين من ابنة عمه.

– تابعي ..

– أنت قلت ان عناصر الحلم، مستقاة من اليوم السابق .. ويمكن لنا ان نقول انه كان بالأمس في حديقة ملاهٍ. او انه رأى صورة بالونات في الجريدة.

– هذا ممكن. لكن كلمة «بالون» كانت تكفي في هذه الحالة، أو أي شيء يذكر بالبالون.

– الآن يجب ان نستنبط المحتوى الخفي للحلم، أي معناه العميق. اليس كذلك؟

– نعم، عليك انت ان تفسري معنى الحلم.

– ربما انه، وببساطة، يرغب في الحصول على بالونات.

– لا، هذا تفسير ضعيف. انت على حق في اعتبار ان الحلم يخفي رغبة مخفية. لكن ما يرغب الشاب به هنا ليس بالونات حقيقية. ولو كان الامر كذلك، لما احتاج الى الحلم.

– أعتقد انني فهمت: انه يرغب في ابنة عمه، والبالونات هما ثدياها.

– هذا تفسير معقول اكثر، اذ يمكن ان الشاب يشعر بالانزعاج والخجل، لاحساسه برغبة من هذا النوع.

– هكذا تسلك الاحلام دائماً طرائق ملتوية، كصورة البالونات، مثلاً؟

– نعم. فقد رأى فرويد في الاحلام اشباعاً مقنعاً للرغبات المكبوتة. واذا كانت طبيعة ما نكبُتُه اليوم، قد تغيرت حتماً عما كانت عليه ايام فرويد، فان مسيرة تشكل الحلم وتبلوره لا تزال هي هي.

– فهمت.

– لقد عرف التحليل النفسي، الذي جاء به فرويد صدى كبيراً في سنوات العشرينات، خصوصاً في أوساط الطب النفسي، وفي أوساط أخرى أيضاً، مثل الفن والأدب.

– هل تقصد ان الفنانين راحوا يهتمون بالحياة اللاشعورية للانسان؟

– بالضبط، فالأدب في آخر القرن التاسع عشر لم ينتظر فرويد والتحليل النفسي، كي ينكب على الحياة الداخلية للإنسان، ولم يكن من قبيل المصادفة ان يضع فرويد نظريته في اللاشعور، في نحو عام (١٨٩٠).

– هل كان ذلك هو الجو السائد بشكل عام؟

– لم يدَّع فرويد أبداً انه «اكتشف» الظواهر النفسية التي تحدث عنها، مثل «الكبت» «الافعال اللا مقصودة» التسويغ الخ ... لكنه كان اول من توصل الى توظيف هذه التجارب في الطب النفسي. وقد وفق بامتياز في تدعيم اطروحته بأمثلة أدبية، توضح نظريته الخاصة. لكن تأثيره الكبير على الأدب والفن، بدأ – كما قلت – منذ عام (١٩٢٠).

– كيف؟

– لقد راح الكتاب والفنانون يحاولون استنباط هذه القوى اللاشعورية في عملهم الابداعي. وينطبق هذا على السورياليين بشكل

خاص،

– من؟

– تثير «السوريالية» كما يدل اسمها عالماً فوق الواقع. ففي عام (١٩٢٤)، نشر اندريه بروتون، بيان السوريالية الاول (المانيفستو) واعلن فيه ان على الفن ان ينبثق من اللاوعي، وعلى الفنان ان يجد في الايحاء الاكثر حرية، صوراً حلمية وان يميل نحو «سوريالية» لا حدود فيها بين الحلم والواقع، وعلى الفنان ان يتجاوز الرقابة التي يفرضها الوعي، ليترك المجال حراً امام خياله، ويستقبل الكلمات والصور التي تأتيه.

– فهمت.

– لقد برهن فرويد، ان كل الناس هم، بشكل ما، فنانون. فالحلم هو بحد ذاته، عمل فني، ونحن نحلم كل ليلة. وقد اضطر الى اللجوء الى سلسلة من الرموز، ليتمكن من تفسير احلام مرضاه. كما نفعل عندما نحلل لوحة فنية أو نصاً أدبياً.

– هل صحيح اننا نحلم كل ليلة، دون استثناء؟

– دلت آخر الابحاث في هذا المجال، على أننا نحلم طوال عشرين بالمئة من وقت نومنا، اي من ساعتين الى ثلاث يومياً. واذا ما تعرضنا لازعاج ونحن في احدى مراحل الحلم، صحونا عصبيين ومستفزين. مما يعني ان كل الناس قد ولدوا ومعهم الحاجة الى اعطاء تعبير فني لوضعهم الوجودي. ذاك اننا نحن انفسنا مادة أحلامنا، فنحن من يبحث في حياتنا اليومية عن عناصر نستخدمها في بناء الحلم، ونحن من يلعب كل الأدوار. وبتعبير آخر، فان الذي يقول انه لا يهتم بالفن، هو انسان لا يعرف نفسه جيداً.

– واضح.

– اضافة الى ذلك برهن فرويد، بطريقة متقنة أهمية الوعي لدى الانسان. حيث انتهت ممارساته العلاجية التطبيقية الى اقناعه باننا نخبىء في مكان ما من وعينا كل ما رأيناه وعشناه. بحيث يمكن له ان يصعد من جديد الى السطح. فعندما نقول ان «هذا يذكرنا بشيء ما»، أو ان هذه العبارة «على طرف لساني» او ان «هذا يعود الى ذاكرتي»،

فاننا لا نفعل شيئاً اكثر من التعبير عن الطريق التي يسلكها كل ما كان كامناً في اللاوعي، ووجد اخيراً، باباً مفتوحاً يعبر منه الى الوعي.

- احياناً، لا تسير الأمور على ما يرام ...

- يعرف كل الفنانين ذلك جيداً، ولكن قد يحصل ان تنفتح كل أدراج وأبواب الارشيف، وتتدفق الأشياء تلقائياً فنجد الصور والكلمات تفرض نفسها بنفسها. يكفي ان نرفع الغطاء الذي يجثم على اللاوعي، هذا ما تطلق عليه تسمية الوحي، حيث يخيل لنا ان ما نكتبه او نرسمه لا يأتي منا نحن.

- لا شك انه شعور رائع.

- لا بد انك عشته. يكفي ان نراقب سلوك الاطفال عندما يسقطون من التعب. بحيث يعطون انطباعاً بانهم ينامون مفتوحي العينين .. عندها يروحون يتحدثون مستعملين كلمات لم يكونوا قد تعلموها بعد. والواقع ان هذه الكلمات وهذه الأفكار لم تكن حاضرة في وعيهم إلاّ في الحالة المخبوءة، وهي لا تخرج إلاّ عندما ينسون كل الممنوعات وكل الحذر.

تشبه الحالة نفسها، حالة الفنان: فلا يجب أن يمنع عقله أو تفكيره، تَفتّح انفعال لاواع عنده. هل تريدين مثالاً يجسد ذلك؟

- بكل سرور.

- انها قصة خطيرة جداً، وحزينة جداً.

- كلي اصغاء ..

- مرة، كانت هناك ام اربع واربعين، تتقن الرقص بكل قوائمها هذه، فاذا رقصت، جاءت كل حيوانات الغابة تتفرج، وتعبر عن اعجابها، باستثناء واحدة فقط هي السلحفاة ..

- انها غيورة، ببساطة.

- كيف العمل، كي لا تعود ام الأربع واربعين الى الرقص؟ تساءلت السلحفاة.

لا يكفيها ان تقول انها لا تحب طريقتها في الرقص، ولا يمكنها ابداً ان تدعي انها ترقص افضل منها، اذ ستبدو مثار سخرية. اذن، لا بد من وضع خطة جهنمية.

– قل بسرعة .. ما هي ..

– كتبت رسالة لام اربع واربعين، تقول فيها: «أيتها الأم اربع وأربعين، الفريدة! انا معجبة متحمسة، بفنك الحاذق في الرقص. واسمح لنفسي بان أسألك: كيف تفعلين عندما ترقصين؟ هل تبدئين برفع القائمة اليسرى رقم كذا أم القائمة اليمنى رقم كذا؟ ام بسرعة.

مع احترامي
السلحفاة

– هكذا اذن!

– عندما تلقت ام الاربع واربعين الرسالة، راحت تتساءل فعلاً عما تفعله بدقة عندما ترقص، اية قائمة ترفع أولاً؟ ثم أية أخرى ثانياً؟

فماذا تعتقدين انه حصل؟

– اعتقد انها لم تعد تستطيع الرقص.

– هكذا بالضبط ما حصل، وهذا ما يحصل عندما يقيد الفكر والعقل الخيال.

– لك الحق في القول انها قصة مأساوية!

– انه لشيء أساسي لكل فنان، «ان يتحرر»، أي أن يكون في وضع تبدو فيه الأشياء وكأنها تأتي من تلقاء ذاتها. فيجلس الى ورقة بيضاء، ويضع عليها كل ما يخطر بباله. ويطلق على ذلك مصطلح الكتابة الآلية، وهو تعبير مأخوذ من «الارواحية» التي تقول بان روح الميت تظل حاضرة، ويمكنها ان تعود فتملي ارادتها، بوساطة الوسطاء. لكنني اعتقد اننا سنعود الى هذا الموضوع غداً.

– كما تريد.

– الفنان السوريالي، هو أيضاً، وعلى طريقته، حلقة وصل أو «وسيط» لوعيه هو، ومما لا شك فيه وجود عنصر لا واعٍ في كل عملية ابداع. فما هو «الابداع» في الحقيقة؟

– لا أعرف تماماً. لكن أليس هو كل جديد نبتدعه؟

– صح، تماماً، وهذا الخلق هو بالضبط، نتيجة تعاون ذكي بين الخيال والعقل. لكن العقل يخنق الخيال أحياناً، وهذا خطر كبير، لانه لا

يمكن، بدون الخيال، أن ينتج اي شيء جديد حقاً. فالخيال يبدو، في الواقع، كنسق دارويني.

– عفواً، هنا لم أعد افهم ..

– تبرهن الداروينية على ان الطبيعة ما هي إلاّ سلسلة غير منطقية من التحولات التي يتمكن بعضها فقط من البقاء، لان الطبيعة تكون بحاجة لها، في ذلك الوقت بالذات.

– حسناً. وبعد ..

– هكذا يحصل عندما نفكر، وتغمرنا أفكار جديدة. اذ تقوم فكرة، بطرد اخرى متغيرة» في فوج الوعي، شرط ألاّ نمارس على أنفسنا رقابة قاسية.

ومع ذلك فان بعض هذه الافكار، فقط، تستطيع ان تفيدنا. لذلك يستعيد العقل حقوقه، ويلعب دوراً حاسماً، على هذا المستوى.

فعندما نفرد على الطاولة حصاد يوم، لا بد من عملية انتقاء واختيار.

– هذه مقارنة لا بأس بها.

– تخيلي لحظة، اننا نقول بصوت عالٍ، كل ما يمر في رأسنا، او ننشر كل الملاحظات التي نكتبها في دفتر يومياتنا، أو نرميها في قعر احد ادراجنا، عندها سينهار العالم تحت تأثير الافكار العابرة. ولن تكون هناك اية عملية «انتقاء».

– والعقل هو الذي يقوم بعملية الانتقاء هذه، من بين كل الافكار التي ترد الى ذهننا؟

– نعم، الا تعتقدين ذلك؟

من المؤكد ان الخيال هو الذي يخلق شيئاً جديداً، لكنه ليس هو الذي يقرر ما الذي يجب الاحتفاظ به. ليس هو الذي «يشكّل»فالتشكيل– وهو حقيقة كل عمل فني– هو ثمرة تعاون جميل بين الخيال والعقل، بين الشعور والتفكير. ففي كل مشروع ابداعي، عنصر مصادفة. ولذلك يكون من المهم في مرحلة معينة، ان نترك الحرية للخيال. فنحن مجبرون على ترك خرافنا تعدو، اذا ما اردنا الاحتفاظ بها.

صمت البرتو قليلاً، ثم نظر من النافذة.. فتبعته صوفي لترى جمهوراً

هائجاً على شاطيء البحيرة. كان ذلك استعراضاً حقيقياً لشخصيات والت دزني. جعلها تصرخ.

– هذا غوفي .. وهذا دونالد واولاد اخيه.. وديزني وأبطال عالمه.. هل تسمع البرتو؟ .. هذا ميكي ماوس ..

– هذا كئيب جداً .. قال البرتو وهو يستدير نحوها.

– ماذا تريد ان تقول؟

– ها نحن نصبح مجرد ضحايا لمايجور يطلق خرافه. لكنه خطأي .. انا من بدأ بقول كل ما يخطر بباله.

– لا تلقي الخطأ على نفسك.

– اردت ان اقول ان الخيال مهم ايضاً لنا نحن الفلاسفة، اذ يجب ان نتجرأ على الانطلاق، كي نتمكن من ايجاد افكار جديدة. اما الآن فقد افلتت الأمور ..

– لا تهتم.

– انا اردتُ ان اتحدث عن أهمية التفكير برأس مرتاح. وها هو يرسل لنا عرائسه! لا ينقصه المزاج .. هذا الرجل! ..

– هل تقول هذا ساخراً؟

– هو الساخر، لا أنا، لكن لدي عزاء واحد، بنيت عليه خطتي.

– لا افهم قصدك ..

– لقد تحدثنا عن الأحلام .. وفي هذا شيء من السخرية، فما نحن سوى مخلوقات استيهامية في خيال المايجور؟

– اف ..

– عبثاً فعل .. ولكنه نسي شيئاً هاماً.

– ما هو؟

– ربما انه يعي حلمه جيداً، لانه مطلع على كل مناقشاتنا وافعالنا. كما يتذكر الحالم المحتوى الظاهر لحلمه. انه هو من يمسك القلم، لكن ذلك لا يعني انه مستيقظ دائماً.

– انتظر! ماذا تقصد بهذا؟

– انه لا يعرف الافكار المخبوءة للحلم .. وهو ينسى ان كل هذا ليس

إلا حلماً مقنعاً.

– تقول اشياء غريبة.

– هذا رأي المايجور ايضاً. لكنه يتبناه لانه لا يعرف لغة حلمه الخاصة. وهذا افضل لنا اذ يمنحنا حداً ادنى من حرية الحركة. نستطيع بفضله الافلات من وعي الميجور. كتلك الخلدات التي ستتمكن اخيراً من الخروج من جحرها، ورؤية وجه الشمس في يوم صيفي جميل.

– هل تعتقد اننا سنتوصل الى ذلك؟

– يجب ان نتوصل. فخلال ايام سأعطيك فضاءً جديداً، وعندها لن يتمكن المايجور من معرفة مكان خلداته ومتى ستظهر من جديد.

– ولكن، حتى لو اننا لم نكن إلاّ صور حلم، الا اظل انا ابنة انسان ما. الساعة تقارب الخامسة، وعلي ان اعود الى البيت لاحضر لحفلة المساء.

– هل يمكنك ان تؤدي لي خدمة صغيرة في طريق عودتك؟

– ما هي؟

– حاولي ان تجذبي انتباهه، فسيكون جيداً ان استطعت ان تجبريه على متابعتك بنظره طوال الطريق، حاولي ان تفكري به، وسيكون مجبراً، عندها، على التفكير بك.

– وما نفع ذلك؟

– سيترك لي، الساحة فارغة، لوضع اللمسات الأخيرة على خطتنا السرية.

سأغوص في لاوعي المايجور، واقبع هناك حتى لقائنا المقبل.

الحقبة المعاصرة

... الانسان محكوم بان يكون
حراً ...

لم يبق على منتصف الليل إلاّ خمس دقائق، وهيلد تتمدد في سريرها ونظرها مثبت على السقف، تحاول ان تجنح بافكارها، وكلما توقفت في اخر سلسلة من جمع الافكار، تساءلت لماذا لا تستطيع أن تكمل. هل انها تحاول، مصادفة، ان تكبت شيئاً؟ ان ترسله الى اللاوعي؟

لو انها تتمكن من عدم مراقبة شيء، لتمكنت بالتالي من ان تحلم مفتوحة العينين. لكن مجرد التفكير في ذلك كان يجعلها ترتعش.

وكلما كانت تسترخي، وتترك افكارها تجول، كلما كانت تتخيل نفسها، على شاطىء البحيرة، في شاليه مايجور، والغابة من حولها.

ما الذي يحاول البرتو ان يطبخه؟ مؤكد ان اباها هو الذي قرر ان يهيىء لالبرتو شيئاً. فهل يعرف ما يهيئه البرتو؟ وبعد. من يدري انه لن يترك قليلاً من الحرية لشخصياته، على أمل ان يحظى هو ايضاً بمفاجأة؟

لم تبق صفحات كثيرة للقراءة. ماذا لو القت نظرة على الصفحة الأخيرة؟ لا سيكون هذا غشاً، اضافة الى انها ليست على ثقة من ان الخاتمة قد قررت بعد.

انها فكرة غريبة، في الحقيقة! فالملف هنا، وبالتالي فانه من غير الوارد، ان يستطيع ابوها تغيير اي شيء فيه.. شرط الا ينجح البرتو في القيام بمبادرة ما وقلب الوضع ..

هيلد .. من جهتها، ستتكفل بتحضير بعض مفاجآت له. انه لا يمارس اية رقابة عليها، ولكن هل تملك هي الرقابة الكاملة على نفسها؟ ما هو الوعي؟ الا يلامس هنا واحداً من اكبر اسرار الكون؟ والذاكرة؟ ما الذي يجعلنا نتذكر كل ما رأيناه او عشناه؟

باية آلية غريبة، نترك عرضاً سينمائياً شخصياً يدور في احلامنا كل ليلة؟

كانت هيلد تستمتع، وهي غارقة في افكارها، في فتح واغلاق عينيها.. الى ان انتهت الى نسيان فتحهما، وغرقت في نوم عميق.

عندما استيقظت على صرخات النوارس الجائعة، كانت الساعة تشير الى السادسة وست وستين دقيقة. اي رقم غريب! نهضت هيلد، واتجهت، كالعادة، الى النافذة ترقب البحيرة .. انه طقسها، تمارسه صيفاً وشتاءً. كانت، هناك، تحلم، عندما احست فجاة بان راسها يضج بالألوان... لقد عاد اليها حلمها في اليقظة. لكنه اكثر من حلم بسيط انها لا تزال قادرة على تبين الوانه وخطوطه، بوضوح.

لقد حلمت بان اباها قد عاد من لبنان، وكان حلمها كله امتداداً لحلم صوفي، عندما وجدت صليبها الذهبي على رصيف المرفا.

كانت هيلد جالسة على حافة الرصيف – كما في حلم صوفي – وسمعت صوتاً خفيفاً يهمس لها: «هيلد! هذا انا صوفي!» فحرصت على الا تتحرك، آملاً في تحديد مكان صدور الصوت، الذي تكرر بشكل ازين، وكان صاحبته حشرة: «هل تسمعينني يا هيلد، اين انت، صماء ام عمياء؟» بعد لحظة واحدة، ظهر والدها في الحديقة، مرتدياً زي الامم المتحدة: «يا صغيرتي العزيزة هيلد!» صاح بها، فركضت ترمي بنفسها بين ذراعيه ...» وانتهى الحلم.

فجاة عادت الى ذهنها ابيات للشاعر النرويجي ارنولف اوفرلاند:

ليلة، حلمت حلماً غريباً،
صوت مجهول كان يكلمني
-بعيداً، كنبع في جوف الأرض-
نهضتُ وسالتُ
ماذا تريد مني؟

كانت هيلد لا تزال امام النافذة عندما دخلت الأم الى الغرفة:

– ماذا! هل انت مستيقظة؟

– هذا ما لست متأكدة منه ...

– ساعود عند الساعة الرابعة .. كالعادة.

– حسناً.

– امل ان تستفيدي جيداً من يوم عطلتك يا هيلد.

– شكراً. مع السلامة!

ما ان سمعت صوت اغلاق باب المدخل، حتى اسرعت تعود الى سريرها وتفتح الملف من جديد.

ساغوص في لا وعي المايجور، واظل فيه حتى لقائنا المقبل.

من هنا! تابعت القراءة، وهي تتحسس بسبابتها اليمنى، انه لم يعد امامها إلا صفحات قليلة.

عندما خرجت صوفي من شاليه المايجور، رأت بضع شخصيات من شخصيات والت دزني، لا تزال عند شاطىء البحيرة.. لكنها كانت تذوب كلما اقتربت منها، الى ان اختفت تماماً مع بلوغها القارب.

وقد حرصت، طوال الطريق، وعندما كانت تربط القارب الى الشاطىء، على القيام بحركات بوجهها ويدها، كي تلفت انتباه المايجور، وتعطي البرتو فرصة للبقاء سراً في الشاليه.

وللغاية نفسها راحت تقوم بشقلبات جريئة، وهي تعدو على طريق العودة، ثم تحاول ان تمشي كالرجل الآلي، وتغني بصوت منخفض.

لكنها توقفت فترة، حاولت فيها ان تتكهن بما عساه يضمر ويدبر البرتو. لكنها احست بالخطأ فتمالكت نفسها بسرعة، وتسلقت احدى الأشجار؛ تسلقت الى أعلى ما تستطيع، لكنها عندما وصلت الى القمة اكتشفت انها لم تعد قادرة على النزول .. لا بد من المحاولة .. ولكن لا بد ايضاً من فعل شيء ما، كي لا يمل المايجور، وينتبه الى البرتو.

راحت تحرك ذراعيها، وكأنها تُصفق بجناحين، وتطلق صيحات «كوكوكو» كالديك، ثم صيحات اخرى. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحاول فيها ان تنغم هكذا، وأحست بالرضى عن النتيجة.

أرادت ان تنزل من طريق آخر، لكنها لم تستطع وظلت عالقة

محاصرة. واذا بذكر اوز يحط أمامها على احد الأغصان. لم تعجب صوفي، بعد استعراض شخصيات والت ديزني، من سماعه يتكلم.

– اسمي مارتن.. وانا اوز اليف، لكنني جئت مع اوزات لبنان البرية، خصيصاً، لأننا سمعنا انك بحاجة الى المساعدة على النزول.

– لكنك صغير جداً، فكيف تساعدني؟

– استنتاج متسرع يا سيدتي. انت هي الكبيرة جداً.

– والنتيجة واحدة.

– على سبيل العلم، اخبرك بانني حملت فتى صغيراً، في مثل سنك يسكن احدى المزارع، عبر أراضي السويد كلها. ويدعى نيلس هولجرسن.

– أنا في الخامسة عشرة من عمري.

– نيلس كان في الرابعة عشرة. لا أهمية إن كان سنك اكثر او أقل.

– وكيف نجحت في حمله؟

– تلقى ضربة على رأسه، فاغمي عليه، وعندما استعاد وعيه، كان حجمه لا يتعدى البوصة.

– اذن، ما عليك الا ان تضربني على رأسي، لأنني لا أريد أن أظل على هذه الشجرة، الى ما لا نهاية.. اضافة الى أنني احضر لحفلة فلسفية كبيرة يوم السبت القادم.

– هه! ما قلته يهمني كثيرا! وسأفترض ان هذا كتاب فلسفة. فعندما كنت احلق فوق السويد ومعي نيلس هولجرسن، التقى نيلس امرأة عجوز، ظلت تحلم طوال حياتها، بتأليف كتاب عن السويد، موجه للطلاب. مما يقتضي ان يكون كتاباً تعليمياً وواقعياً، وعندما استمعت الى نيلس يروي مغامراته قررت ان يكون كتابها عن رحلته على ظهر الاوز.

– فكرة لا بأس بها.

– اعترف ان في ذلك شيئاً من السخرية، لأننا كنا نحن الاثنين، في هذا الكتاب.

احست صوفي بصفعة صغيرة على خدها، راحت بعدها تصغر

واصبحت الشجرة غابة ضخمة، والاوز بحجم حصان.

– هيا، تعالي! بإمكانك الآن ان تركبي فوق ظهري. قال الاوز.

خطت عدة خطوات فوق الغصن، ثم اعتلت ظهر الأوز. ورغم ان ريشه كان ناعماً، إلاّ انه وخزها قليلاً، لكونها اصبحت صغيرة جداً.

لم تكد تستوي جيداً، حتى طار الاوز، محلقاً عالياً جداً فوق الأشجار، وكانت هي تنحني من حين لآخر، لترى البحيرة والشاليه، حيث يعكف البرتو على وضع اللمسات الأخيرة على خطته السرية جداً.

– سنقوم بنزهة صغيرة. قال الاوز وهو يصفق بجناحيه. ثم حط عند ساق الشجرة التي كانت صوفي عليها. وعندما لامست قوائمه الأرض، ترك صوفي تنزلق على ظهره، لتتشقلب بضع مرات على العشب قبل ان تنهض، وتفاجأ بانها استعادت حجمها الطبيعي.

دار الاوز حولها مرات. وقالت له:

– شكراً على مساعدتك.

– لم يكن الأمر صعباً جداً.. هل قلت لي انه كتاب فلسفة؟

– لا أعتقد. إنك انتَ من قال ذلك.

– على أية حال، النتيجة واحدة، فلو ان الامر كان متوقفاً عليَّ وحدي، لاصطحبتك عبر كل تاريخ الفلسفة، كما اجتزت السويد مع نيلس هولجرسن. ولكنا حلّقنا فوق ميلي، اثينا – القدس، الاسكندرية، روما، فلورنسا، لندن، باريس، اينا، هيدلبرغ، برلين، كوبنهاغن .. وغيرها ..

– شكراً، هذا كاف.

– هذا لا يعني ان عبور العصور، هو قضية بسيطة، حتى بالنسبة لأوز ساخر جداً، لكنه يظل اسهل من التحليق فوق المقاطعات السويدية.

قال ذلك، وانطلق محلقاً.

احست صوفي بالإرهاق التام، لكنها رأت، وهي تعود الى كوخها، بانه لا بد من أن يكون البرتو، راضياً، عن مناوراتها التضليلية. فكيف يمكن ان يكون المايجور قد وجد دقيقة واحدة، للتفكير بالبرتو؟

إلاّ إذا كان مصاباً بالانفصام التام!

استطاعت صوفي ان تصل الى البيت قبل عودة امها من العمل.

وهذا ما يوفر عليها الاضطرار لتفسير كيف ساعدها اوز داجن على النزول عن الشجرة.

بعد الغداء بدأتا التحضير للحفلة: اخرجتا من المخزن، لوحاً خشبياً بطول ثلاثة أو أربعة أمتار، ووضعتاه في الحديقة، ثم صعدتا للإتيان بالقواعد التي ستضعانه عليها.

هكذا استطاعتا ترتيب طاولة كبيرة تحت الأشجار المثمرة. كانت آخر مرة اخرج فيها هذا اللوح، يوم الاحتفال بالعيد العاشر لزواج أبوي صوفي؛ التي لم تكن قد تجاوزت الثامنة من عمرها، وهي تذكر جيداً تلك الحفلة الكبيرة التي تجمع فيها كل الأهل والأصدقاء، صغاراً، وكباراً.

المرصد الجوي يبشر بنهار صافٍ. فمنذ العاصفة التي هبت عشية ميلاد صوفي، لم تهبط نقطة مطر واحدة. لكنهما فضلتا، رغم ذلك انتظار صباح السبت، لإكمال تزيين المائدة. فنصْبها في الحديقة، كافٍ اليوم، برأي الأم.

خلال السهرة، قامتا بتحضير نوعين من العجينة: قطع صغيرة بالحليب، وكعكة بيضاء مجدولة. اضافة الى الدجاج والسلطة، ولم تنسيا الليموناضة. واذا كان هناك ما تخافه صوفي، فهو ان يحمل احد زملائها معه بيرة، فهي لا تريد مشاكل.

عندما نهضت الى النوم، سألتها امها مرة أخرى عما إذا كان البرتو سيأتي الى الحفلة.

– بكل تاكيد، بل انه وعدني بأن ينفذ أمامنا جلسة حوارية فلسفية.

– حوارية فلسفية؟ ماذا يعني ذلك؟

– لو انه حاوٍ عادي، لكان تسلى باخراج أرنب من قبعته العالية ..

– لن تقولي ذلك مرة أخرى! ...

– ... لكن، وبما انه فيلسوف ... اليست الحفلة حفلة فلسفية؟

– أرى أنك لا «تلمّين» لسانك أبداً!

– وانت، هل فكرت بمساهمتك الشخصية في ذلك؟

– بالطبع، لدي فكرة صغيرة خاصة.

– أهي خطبة؟

– لا فائدة من الإلحاح، فلن أخبرك شيئاً عنها. هيا، تصبحين على خير.

باكراً، أيقظت الأم ابنتها، لتودعها قبل الذهاب الى العمل، ولتعطيها قائمة بآخر المشتريات اللازمة للحفلة والتي يجب جلبها من المدينة. وما ان خرجت، حتى رن جرس الهاتف.. كان البرتو على الطرف الآخر، كأنه يعرف بدقة متى تكون وحدها.

– اذن .. هل تسير مؤامرتك الصغيرة على ما يرام؟

– هس، اية كلمة! لا تعطه فرصة أن يحزر نوايانا.

– اعتقد انني عرفت كيف اجذب انتباهه أمس.

– جيد.

– ألا تزال هناك دروس في الفلسفة؟

– لهذا، تحديداً، اهاتفك. لقد وصلنا الى المرحلة المعاصرة، واعتقد انه بامكانك ان تتدبري أمرك لوحدك، من الآن فصاعداً. الأهم هو الأسس. لكنني احب ان نلتقي لنتحدث عنها قليلاً.

– لكن علي ان اذهب الى المدينة ..

– هذا جيد. لأننا سنتحدث عن المرحلة المعاصرة.

– اوه؟

– مناسب اذن ان نلتقي في المدينة

– هل تريد ان آتي اليك؟

– لا. فعندي بلبلة وفوضى! لقد قلبت كل شيء رأساً على عقب لأتأكد من عدم وجود سماعة مخبوءة.

– آه ..

– هناك مقهى جديد، فتح مؤخراً أمام ساحة السوق: مقهى بيير. هل رأيته؟

– نعم عرفته، متى نلتقي هناك؟

– لنقل .. الثانية عشرة ظهراً.

– اتفقنا .. في المقهى.

– عندها سنتحدث اكثر ..

– سلام!

وصلت صوفي متأخرة قليلاً. كان المقهى واحداً من هذه الأماكن الحديثة، بطاولاته، وباراته وكراسيه السوداء، وقناني الكحول المتنوعة المصفوفة وراء مكتب المحاسبة، عنقها الى الأسفل، وعليها الحنفية وتحتها صف آخر من اطباق السلطات المتنوعة، والخبز المدهون بالزبدة.

لم تكن القاعة كبيرة. واول ما فوجئت به صوفي هو عدم وجود البرتو. فالقاعة تغص بالزبائن، وهي تتفحصهم واحداً واحداً، على أن تكتشفه بينهم.

لم تكن معتادة ان تذهب بمفردها الى المقهى، فهل سيكون من الانسب أن تخرج وتعود بعد قليل، علّه يأتي؟

لا .. ستتجه الى الصندوق، وتطلب شاياً بالليمون. حملته وجلست الى طاولة فارغة تسمح لها بمراقبة المدخل، الذي عبره الكثيرون، دون ان يكون البرتو بينهم.

لو ان معها صحيفة، على الأقل!

كي تشغل نفسها، راحت تجيل نظرها فيمن حولها. فبادلها بعضهم النظرات. واحست فجأة انها في صف النساء الشابات، صحيح انها لم تتجاوز الخامسة عشرة، لكنها تبدو في السابعة عشرة أو السادسة عشرة والنصف على الأقل ...

كل هؤلاء الناس، ماذا عساهم يفكرون بوجودهم؟ كأنهم موجودون هنا مصادفة. رأوا الباب مفتوحاً فدخلوا. انهم يتناقشون، ويؤشرون بأيديهم، لكن مواضيع مناقشاتهم تبدو تافهة.

تذكرت عبارة لكيركيغارد، يقول فيها ان احدى اكثر صفات الجمهور دلالة، هي هذا «الهذر». فهل يعيش كل هؤلاء الناس في مرحلة ركود؟ ام ان ثمة شيئاً وجودياً هاماً يعيشون لأجله، بالنسبة لهم؟

في احدى رسائله الأولى، قال البرتو، ان ثمة قرابة بين الطفل والفيلسوف. وصوفي تحس الآن، من جديد، انها تخاف من ان تصبح بالغة. وماذا لو اختارت ان تعيش مختبئة في فروة الأرنب الأبيض، الذي اخرج من قبعة الكون العالية؟

عيناها لا تحيدان عن المدخل، ها هو أخيراً البرتو يندفع الى الداخل. لا فائدة من كوننا في فصل الصيف .. فهو لم يتخل عن طاقيته السوداء، ويلبس سترة طويلة مطبوعة باللون الرمادي.. اصلح وضعها وهو متجه الى صوفي، التي انتبهت الى أنهما لم يلتقيا، حتى الآن، في مكان عام.

– هل نظرت الى الساعة؟ انها الثانية عشرة والربع.

– أليس هذا ما نسميه «ربع الساعة المسموح بها»؟

– هل لي أن اقدم للآنسة شيئاً من الطعام؟

جلس ونظر في عينيها، فاكتفت بان هزت كتفيها.

– شطيرة ان اردت.

نهض الى المقصف، ثم عاد حاملاً فنجاناً من القهوة وشطيرتين بالجبن والجامبون.

– أهي غالية الثمن؟

– لا تهتمي .. لا شيء يذكر.

– هل لديك عذر عن هذا التأخير؟

– لا .. لانني فعلت ذلك عن قصد. انتظري وسأوضح لك.

قضم قطعة من الشطيرة، ثم تابع:

– سنتحدث عن عصرنا نحن.

– هل فيه شيء مهم على الصعيد الفلسفي؟

– اجل، أشياء كثيرة، الى حد انها تسير في كل الاتجاهات. وسنبدأ بتيار حاسم هو الوجودية. ويجمع هذا المصطلح حركات عديدة، تجد جذورها في الوضع الوجودي للإنسان. لذلك سنتحدث عن فلسفة الوجود في القرن العشرين، حيث انطلق عدد من هؤلاء الفلاسفة الوجوديين من كيركيغارد، وايضاً من هيغل وماركس.

– افهم.

– الفيلسوف الذي لعب دوراً اساسياً في القرن العشرين كله، هو فردريك نيتشه. وهو الماني عاش بين (١٨٤٤–١٩٠٠)، وقف، هو أيضاً، ضد فلسفة هيغل و«التاريخية» الألمانية. فطرح مقابل هذا الاهتمام

المطلق بالتاريخ، وما أسماه «أخلاقيات العبد المسيحي»، الحياة نفسها. لقد أراد ان يقوم بعملية «احالة لكل القيم» كي لا يعيق الضعفاء تفتح الأقوياء. وهو يرى ان المسيحية، والتراث الفلسفي، قد حولا نظرهما عن العالم الواقعي، ليبيِّنا «السماء» و«عالم الأفكار». لكن العالم الذي أريد له ان يبدو العالم الحقيقي، هو الذي تكشف عالماً وهمياً. كن وفياً للأرض- قال نيتشه- ولا تصغِ لمن يعدك بحياة افضل في العالم الآخر».

– اذن...

– مفكر آخر تأثر كثيراً بكيركيغارد ونيتشه، هو الوجودي مارتن هيدجر. لكنني افضل ان احدثك عن الوجودي الفرنسي، جان بول سارتر، الذي عاش بين (١٩٠٥ و ١٩٨٠). لانه يعتبر زعيم التيار الوجودي، على الأقل في نظر الجمهور. وقد طور نظريته في الوجودية بعد الحرب العالمية، وتحديداً في الأربعينات، كما انه كان قريباً من الماركسية دون ان يكون منتمياً لأي حزب سياسي.

– الهذا اعطيتني موعداً في مقهى فرنسي؟

– لم يكن ذلك مصادفة. فقد كان سارتر يرتاد المقاهي كثيراً، وفي احدها التقى رفيقته سيمون دو بوفوار، التي كانت، هي ايضاً، فيلسوفة وجودية.

– امرأة فيلسوفة؟

– لقد سمعت جيداً ما قلت ..

– يسرني ان اجد اخيراً، ان البشرية بدأت تتحضر.

– في حين ان مرحلتنا قد عرفت اهتمامات كثيرة مختلفة تماماً.- ستحدثني عن الوجودية.

– «الوجودية فلسفة انسانية» اعلن سارتر. وكان يقصد بذلك انه ليس لدى الوجوديين إلاّ نقطة انطلاق واحدة، هي الإنسان. لكن السيرورة في هذا الشكل من الانسانية، هي اكثر قتامة منها في عصر النهضة.

– ولماذا؟

– كان كيركيغارد مسيحياً، كاكثر الفلاسفة الوجوديين في عصرنا.

لكن سارتر كان واحداً من الجناح الملحد للوجودية. ويمكن ان نعتبر فلسفته تحليلاً لا يرحم لحالة الإنسان بعد موت الله، بحسب تعبير نيتشه.

– تابع ....

– الكلمة – المفتاح في فلسفة سارتر وكيركيغارد، هي كلمة «وجود». لكن هذا المصطلح لا يعكس فقط فعل الوجود. فالنباتات والحيوانات موجودة، هي ايضاً تعيش، مع فارق انها لا تهتم بما يعنيه ذلك. اما الإنسان فهو الكائن الحي الوحيد الذي يعي وجوده. فان تكون انساناً، لشيء مختلف عن ان تكون شيئاً.

– هذا معروف، وحتمي.

– وبالطريقة نفسها يرى سارتر ان الوجود يسبق كل تفسير نحاول اعطاءه له. فواقع أو فعل انني موجود يسبق السؤال: ما انا، «الوجود يسبق الجوهر». يقول سارتر.

– اف، هذه جملة معقدة.

– نقصد بالجوهر، ماهية الشيء، ما يتشكل منه؛ اي «طبيعته» او «كيانه». لكن سارتر لا يعتقد بان للإنسان طبيعة فطرية من هذا النوع، لذلك عليه ان يخلق نفسه؛ ان يخلق طبيعته، جوهره، لانها لا تكون معطاة منذ البداية.

– اعتقد انني افهم ما تقصد.

– طوال تاريخ الفلسفة، تساءل الفلاسفة عن جوهر الإنسان؛ عن طبيعته. لكن سارتر يعتقد بان الانسان لا يملك طبيعة ابدية من هذا النوع، لذلك لا معنى لطرح اسئلة عن معنى الحياة بشكل عام. وبعبارة أخرى، نحن محكومون بالارتجال. فنحن أولئك الممثلون الذين دفع بهم المسرح، دون اعطائهم دوراً محدداً، دون مخطوطة في اليد، ودون ملقن يهمس لهم بما عليهم ان يفعلوا. ان علينا وحدنا ان نختار كيف نعيش حياتنا.

في الواقع، هذا صحيح. اذ سنكون خائفين لو اكتفينا بان نفتح الكتاب المقدس، أو احد كتب الفلسفة لنعرف كيف يتوجب علينا أن

نعيش.

– لقد فهمت كل شيء، ولكن عندما يعي الإنسان وجوده، والموت الذي ينتظره يوماً ما، وعندما لا يجد تفسيراً يتعلق به، يتملكه القلق، على حد قول سارتر. ربما ما زلت تذكرين ان كيركيغارد ايضاً كان يصف القلق كخاصية مميزة للوضع الوجودي الانساني.

– نعم.

– يضيف سارتر ان الانسان يشعر بنفسه غريباً، جداً، في عالم يفتقر الى المعنى. وعندما يصف هذه «الغربة» عن العالم، يلتقي مع طروحات هيغل وماركس. فهذا الإحساس بالغربة على الأرض، يخلق احساساً باليأس، بالضجر، بالقرف، وبالعبثية.

– لا يزال هناك كثيرون ممن يعتقدون بأن كل شيء «فاسد» وبأن العالم «تافه».

– نعم، يصف سارتر انسان المدينة في القرن العشرين. تذكرين ان عصر النهضة قد ابرز بطريقة احتفالية، حرية الانسان واستقلاليته، في حين يرى سارتر ان الحرية ثقل مرعب.

«الإنسان محكوم بان يكون حراً. يقول – محكوم، لانه لم يخلق نفسه، ومع ذلك فهو حر. ذاك انه ما ان يُرمى في العالم، حتى يصبح مسؤولاً عن كل ما يفعل».

– نحن لم نطلب من احد ان يخلقنا، افراداً احراراً.

– هذا هو رأي سارتر. ولكننا بحكم الواقع افراد احرار، وحريتنا تجعلنا محكومين طوال حياتنا باتخاذ الخيارات، ولا وجود لأية قيمة أو عقيدة أزلية، تهدينا. من هنا أهمية الخيار نحن مسؤولون كلياً عن أعمالنا. وهذا ما يركز عليه سارتر بالحاح: لا يمكن للإنسان ان يرمي مسؤولية افعاله على غيره أو على اي شيء. علينا ان نتحمل مسؤولية خياراتنا لا أن ندعي ان «علينا» ان نذهب الى العمل، أو ان «علينا» ان نأخذ بعين الاعتبار لياقات المجتمع البورجوازي لنعرف كيف يتوجب علينا أن نعيش. والذي يتقبل هذه الضغوط الخارجية يصبح كائناً مجهولاً ويذوب في الجمهور. هذا الإنسان يكذب على نفسه، ليدخل

القالب، ويلجأ الى سوء النية. اما الحرية، فانها على العكس، تدفعنا لأن نصبح شيئاً، شيئاً آخر غير الدمى المتحركة، لأن نوجد فعلاً، بطريقة «حقيقية».

– افهم.

– يتعلق هذا أولاً بخياراتنا الأخلاقية، حيث لا يجوز رمي الخطأ على «الطبيعة البشرية» أو «بؤس الإنسان» وما شابه.

قد يحصل أن يتصرف الإنسان كخنزير ثم يلقي اللوم على آدم لكن لا وجود حقيقياً لآدم هذا. انها مجرد وسيلة للتخلص من اللوم بالقائه على الآخرين.

– ومع هذا يجب أن تكون هناك حدود لرمي هذا اللوم على الغير.

– لكن، اذا كان سارتر يؤكد على أن لا معنى للوجود بذاته، فهذا لا يعني انه سعيد بذلك. فهو ليس واحداً من أولئك العدميين.

– ما معنى هذا؟

– العدمي انسان يرى أن لا معنى لشيء، وان كل شيء جائز، ومسموح به.. في حين يرى سارتر ان الحياة يجب ان تأخذ معنى. هذا مُلزِم، لكنه لنا نحن ان نعطي معنى لحياتنا. ان توجد، هو ان تخلق وجودك الخاص.

– هل يمكنك تطوير الفكرة اكثر؟

– حاول سارتر ان يبرهن على أن الوعي ليس شيئاً بذاته، قبل أن يدرك شيئاً. لأن الوعي هو دائماً وعي شيء ما. وهذا «الشيء ما» يعود لنا نحن اكثر مما يعود الى العوامل الخارجية. نحن من نستطيع، بقدر ما، ان نقرر ما نريد ادراكه، باختيار ما له معنى بالنسبة لنا.

– أما من مثال، على سبيل المصادفة؟

– يمكن أن يوجد شخصان في مقهى واحد، ويحسان بأشياء مختلفة تماماً. والسبب هو اننا نعطي معنانا الخاص للأشياء التي تهمنا، من بين كل ما حولنا. فالمرأة الحامل تشعر وكأنها ترى النساء الحوامل في كل مكان. لقد كانت هؤلاء النسوة موجودات قبلاً، ولكنها لم تنتبه اليهن إلاّ عندما اصبحت هي حاملاً. ومن يدري ما اذا كان المريض، لا يرى

حوله إلاّ الناس المرضى ..

– فهمت.

– ان وجودنا الخاص يحدد اذن طريقتنا في رؤية ما حولنا. فاذا كان ثمة شيء لا معنى له بالنسبة لي، يكون هناك توقع كبير في أن لا أراه.

حسناً. الآن، ربما بت قادراً على أن أفسر لك لماذا جئت متأخراً.

– قلت انك تعمدت ذلك..

– لكن، قولي لي أولاً، ما الذي لفت نظرك عندما دخلت الى هنا؟

– انتبهت أولاً الى أنك لست هنا.

– ألا ترين انه من الغريب ان اول ما رأيته هو شيء «ليس موجوداً» هنا.

– ربما، ولكنني على موعد معك انت.

– سمي هذا، تمريناً تطبيقياً.

– انت تبالغ.

– اذا كنت مغرمة، وتنتظرين مكالمة هاتفية ممن تحبين، فقد «تسمعين» طوال السهرة، انه لم يتصل. ومهما بدا هذا متناقضاً وغريباً، فان صمت الهاتف هو ما تسمعينه. كذلك اذا ذهبت لملاقاته في المحطة، ونزل جمهور الناس من القطار دون ان يكون هو بينهم، فانك لن ترينهم جميعاً. لن تجدي فيهم إلاّ ازعاجك لانهم لا يمثلون شيئاً بالنسبة لك. بل من يدري، انك لن تجدينهم منفرين وثقلاء؟ الشيء الوحيد الذي سينطبع في ذهنك، هو انه هو ليس هنا.

– افهم.

– حاولت سيمون دوبوفوار ان تطبق الوجودية على تحليل الادوار الجنسية، بعد ان برهن سارتر على أنه لا يمكن للإنسان ان يستند الى أية طبيعة «أزلية»، ولأننا نحن من يقرر ماذا نكون.

– اذاً؟

– ينطبق الشيء ذاته على الصورة التي لدينا عن الجنسين. فليس هناك، برأي دوبوفوار، «طبيعة مؤنثة» ابدية، أو «طبيعة مذكرة» ابدية، بل

ان هذا ما تحاول الرؤية التقليدية ان تجعلنا نؤمن به. فمن الشائع تماماً التأكيد على أن للرجل طبيعة تحب ان «تخرق»، طبيعة «متفوقة»، لذلك يبحث دائماً عن معنى وهدف، خارج بيته. في حين تصور المرأة على أن لها توجهاً حياتياً مناقضاً كلياً. فهي «ملازمة» أي انها تحب دائماً ان تكون حيث هي، ومجالها هو العائلة، الطبيعية، وكل الأشياء الحميمة التي تحيط بها. ونحن نقول ان المرأة تهتم بـ «قيم هادئة» اكثر من الرجل.

– أهذا ما كانت تعتقده سيمون دوبوفوار؟

– لا، انت لم تسمعي جيداً. كانت تعتقد انه لا وجود لطبيعة مؤنثة وطبيعة مذكرة. بل على العكس: من واجب الرجال، برأيها، ان يتحرروا من هذه الآراء المسبقة، ومن هذه المثل المتجذرة بقوة.

– في هذا اتفق معها.

– ظهر كتابها الأهم عام (١٩٤٩) تحت عنوان «الجنس الثاني».

– وماذا كانت تقصد بهذا العنوان؟

– كانت تفكر بالمرأة. فهي التي وضعتها ثقافتنا في الموقع «الثاني»، حيث لا تكون النساء إلاّ أدوات بيد الرجال، الذين يبدون وحدهم كذات، وهكذا تفقد المرأة المسؤولية عن حياتها.

– أه

– هذه المسؤولية، هي ما يجب استرجاعه. عليها ان تجد نفسها والا تربط هويتها بهوية الرجل. ذاك ان الرجل ليس وحده من يقمع المرأة، فهي تقمع نفسها ايضاً عندما لا تتحمل مسؤولية حياتها.

– هل تريد أن تقول اننا نحن من نقرر ما اذا كنا نريد ان نكون احراراً ومستقلين؟

– ان شئت. لقد تركت الوجودية تأثيراً على الأدب منذ الأربعينات وحتى الآن، وكذلك على المسرح، فقد كتب سارتر روايات ومسرحيات، كما لا بد من ذكر البيركامو والإيرلندي صموئيل بيكيت، والروماني اوجين أيونسكو. والبولوني جومبروفيكس "Gombrowicz".

أما النقطة المشتركة بين كل هؤلاء، وبين كثيرين غيرهم من الكتاب

المعاصرين، هي ما يسمى بـ العبثية، فمسرحهم هو مسرح العبث.

– حسناً.

– انت تفهمين ما معنى «العبثية»؟

– أعتقد انه يعني شيئاً لا معنى له، شيئاً مناقضاً للعقل.

– تماماً، «فالمسرح العبثي»، هو نقيض «المسرح الواقعي». وهدفه اظهار عبثية الوجود على المسرح، لدفع الجمهور الى الثورة. ليس هدفه تنمية العبث من اجل العبث، بل على العكس: فان عرض، وتعرية، الجانب العبثي لبعض أحداث الحياة اليومية، يجعل الجمهور مجبراً على ايجاد شكل اكثر صدقاً وحقيقية للوجود.

– تابع.

– غالباً ما يقدم مسرح العبث هذا، حالات ولا اتفه، وبذا امكن نعته بانه شكل من أشكال «المبالغة في الواقعية». حيث يقدم الإنسان كما هو تماماً. ولكن لو قدمت على خشبة مسرح، ما يحصل تماماً في حمام انسان عادي، صباح يوم عادي، ككل الأيام، فانني أراهنك على ان المشاهدين سيغرقون في الضحك. ويمكن تفسير هذا الضحك بانه نوع من الحماية التي تجنب كلاً منهم التعرف إلى نفسه عارياً، على المسرح.

– فهمت.

– يقدم مسرح العبث، أحياناً، ملامح سوريالية، حيث تجد الشخصيات نفسها على المسرح في أوضاع غير معقولة، كما في الحلم. وبرؤية هؤلاء الممثلين يتحركون ويتطورون وفق ظروف مفروضة عليهم، دون ان يتمكنوا من التعبير عن اعتراضهم، سيجد الجمهور نفسه مضطرا لأن يتعجب، ولأن يرد على غياب ردة الفعل هذه. الشيء نفسه ينطبق على أفلام شارلي شابلن الصامتة. حيث يكمن العنصر الكوميدي كله، في كون شابلن لا يفاجأ أدنى مفاجأة، اذ يجد نفسه في أوضاع غير معقولة وغير واقعية. وعبر الضحك، يجد المشاهدون انفسهم مضطرين للتساؤل عن وجودهم، الذي تمكنوا اخيراً من النظر اليه، من مسافة ما.

– صحيح انه كثيراً ما تنشأ أوضاع لا تصدق دون ان يعترض احد!

– من المهم أن نعي وجود الانسلاخ عن كل هذا، حتى ولو كنا لا نعرف ماذا سنفعل، والى أين سنذهب.

– كما هو الحال عندما يحترق بيت: اذ يجب أن نخرج ونهرب حتى ولو لم يكن لنا بيت آخر نسكنه.

– حسناً. والآن هل تريدين فنجاناً آخر من الشاي، أو كأس مرطبات؟

– شكراً، ارى أنك تحاول التعويض عن تركي انتظر طويلاً!

– انت حرة في ان تفكري كما شئت.

بسرعة عاد البرتو ومعه فنجان شاي وكأس عصير. وكانت صوفي قد بدأت تتذوق حياة المقهى، رغم انها كانت مقتنعة تماماً بأن المناقشات التي تدور على الطاولات الأخرى سطحية تماماً.

وضع البرتو الكأس على الطاولة بقوة، أحدث صوتاً جعل، بعض الزبائن يرفعون رؤوسهم.

– ها نحن في آخر طريقنا! قال لها.

– هل تريد ان تقول ان تاريخ الفلسفة سيقف عند سارتر والوجودية؟

– لا، في هذا بعض المبالغة. صحيح ان الطروحات الوجودية تركت تأثيرها في العالم كله، وكما رأينا، يمكن ان نجد افكاراً مشابهة لدى كيركيغارد، وحتى سقراط..

لكن القرن العشرين، شهد تفتح تيارات فلسفية اخرى، سبق وتحدثنا عنها.

– مثلاً؟

– هناك (التومية الجديدة) التي أعادت تبني افكار توما الاكويني. وهناك الفلسفة التحليلية أو التجريبية المنطقية، التي تعود الى هيوم والتجريبية البريطانية، وأيضاً الى منطق أرسطو. دون ان ننسى الماركسية – الجديدة وتياراتها المتعددة. كذلك تحدثنا عن الداروينية الجديدة. وتوقفنا عند أهمية التحليل النفسي.

– افهم.

– مع ذلك يجب ان نتوقف لحظة عند حركة اخرى هي المادية،

المتجذرة، بدورها في تاريخ الفلسفة، فالعلم الحديث يدين بالكثير لمرحلة ما قبل السقراطية، التي بدأت البحث الذي استمر حتى اليوم عن تلك «الجزئية الأساسية» الكامنة في اصل المادة، دون ان يتوصل احد الى ان يفسر ما هي «المادة» في الحقيقة. فالعلم الحديث المعاصر، كالفيزياء النووية أو الكيمياء البيولوجية، هو مبهر الى حد كونه يشكل جزءاً لا يتجزأ من حياة الكثيرين.

– هناك اذن تواصل بين النظريات القديمة والجديدة؟

– يمكن ان نقول ذلك. فالأسئلة التي طرحتها عليك في الدروس الأولى، لا تزال دون اجابات. لقد كان سارتر على حق عندما اكد على أن المسائل الوجودية لا يمكن ان تُحَلّ نهائياً. فالمسألة الفلسفية هي، تحديداً، شيء يظل يواجهه كل جيل، بل كل فرد.

– هذا شيء غير مريح أبداً.

– انا لا أوافقك. افليس طرحنا لهذه الأسئلة هو ما يشعرنا بأننا احياء؟ ولا ننسى أن الانسان انما يجد اجابات محددة ونهائية لكل أنواع المشاكل التي تعترضه، في مجال بحثه عن اجابات لأسئلة مستعصية. فالعلم، والبحث، والتقنيات، كلها تنبع من التفكير الفلسفي. أفليس انبهار الانسان امام الكون، هو في الواقع، ما دفعه لأن يسير على القمر؟

– اجل هذا صحيح.

– عندما وطأ رائد الفضاء نيل ارمسترونغ القمر، قال: «انها خطوة صغيرة للإنسان، لكنها خطوة كبيرة للإنسانية». وكانت هذه العبارة طريقة لشمول كل البشر الذين سبقوه، ومكّنوه – بطريقة ما – من ان يطأ القمر، فالفضل لا يعود له وحده.

– بالتأكيد، لا..

– على مرحلتنا المعاصرة ان تواجه قضايا اخرى جديدة، أولها قضايا البيئة. ولذلك نجد ان للتيار البيئي أهمية كبرى في القرن العشرين، حيث يدق عدة فلاسفة ناقوس الخطر، ويظهرون ان الحضارة الغربية تسير في طريق سيىء خطر، وتتعدى ما يمكن لكوكبنا ان

يتحمله، ويحاولون ان يقدموا مقترحات عملية ملموسة لتطويق التلوث والكوارث البيئية، ويؤكدون على أن نمطنا الغربي في التفكير بات مريضاً.

– انهم على حق، برأيي.

– لقد أثار فلاسفة البيئة مثلاً، اشكالية فكر التطور، حيث تكمن في اساسه فكرة ان الإنسان هو «متفوق»، بحيث انه سيد الطبيعة. ويتضح ان هذه الفكرة بالغة الخطورة على استمرار الحياة على الأرض.

– ان التفكير بذلك يجعلني مريضة.

– لقد استند كثير من الفلاسفة على فكر وافكار ثقافات اخرى لتدعيم نقدهم، بالتمثل بالثقافة الهندية مثلاً، كما انهم درسوا افكار وعادات الشعوب التقليدية والتجمعات البدائية كالهنود الحمر، للعثور على آثار ما فقدناه.

– افهم.

– في قلب الأوساط العلمية ارتفعت اصوات باحثين تقول ان السلوك العلمي يجد نفسه في مواجهة تغير النموذج؛ اي ان الباحثين يعيدون النظر جذرياً في نمط التفكير العلمي. وقد أتى هذا التفكير ثماره في مجالات عدة من مثل ظهور الحركات المتعاقبة التي تؤيد التناول الشامل للقضايا وتحاول ان تخلق نمطاً جديداً للحياة».

– اليس هذا ايجابيا؟

– لسوء الحظ ان الانسان هكذا، ما ان يهتم بشيء حتى يؤدي ذلك الى الأفضل والأسوأ معا. فيعلن بعضهم اننا دخلنا في عصر جديد. ولكن ليس كل ما هو جديد مهم بالضرورة، ولا يفترض ان نرمي كل ما هو قديم. لقد كان هذا سبباً من الأسباب التي جعلتني اعطيك دروس الفلسفة هذه. انت تملكين الآن الخلفية التاريخية الضرورية لاختيار توجهك في الحياة!!

– لقد كانت هذه لفتة لطيفة منك.

– اعتقد انك ستجدين ان كثيراً من الأشياء التي تنسب للعصر الجديد، هي خِدَع فظة. فلقد اجتاحنا خلال السنوات الأخيرة ما يمكن

ان نطلق عليه «التدين الجديد» و«التنجيم الجديد» و«الشعوذة الحديثة»، واصبحت هذه كلها صناعة حقيقية فما ان انخفضت ارقام المسيحية في استطلاعات الرأي حتى نمت هذه العقائد كالفطريات مدّعية اعطاء البشر فناً جديداً للحياة.

– مثل ماذا؟

– القائمة طويلة بحيث لا أعرف من أين أبدأ. فليس من السهل ان يصف الإنسان حقبته اذ تنقصه دائماً النظرة الى الوراء. هيا، ما رأيك بجولة في المدينة؟ احب ان اريك شيئاً.

هزت صوفي كتفيها قائلة:

– لا أستطيع البقاء طويلاً، ارجو ألاّ تكون قد نسيت حفلة الحديقة غداً.

– لا بالتأكيد. فهناك سيحدث شيء رائع. يجب ان ننهي دروس هيلد في الفلسفة. لم يفكر المايجر في أبعد من ذلك، وفي هذا يكمن حظّنا في تجاوزه.

من جديد رفع زجاجة العصير الفارغة واعادها بضربة قوية الى الطاولة.

خرجا ومشيا بضع خطوات. كان الشارع يضج بالناس كخلية نمل تفيض حيوية، وكانت صوفي تتشوق بفضول لمعرفة ما يريد البرتو ان يريها.

مرا أمام مخزن كبير متخصص بالأجهزة التلفزيونية والهوائيات والهواتف اللاسلكية والمتنقلة واجهزة الحاسوب وغيرها.

– أمامك صوفي كل القرن العشرين» قال البرتو وهو يشير باصبعه الى الواجهة. «منذ عصر النهضة والعالم يتفجر، فلقد بدأ الأوروبيون منذ مرحلة الكشوف الكبرى يطوفون العالم كله، اما اليوم فإن ما يحدث هو العكس، انه بمعنى ما انفجار بالاتجاه المعاكس.

– انتظر، ماذا تعني بهذا؟

– اعني ان العالم كله قد وقع في شباك شبكة ضخمة من الاتصالات. فقبل وقت ليس ببعيد كثيراً كان على الفلاسفة ان يسافروا

عدة أيام على الحصان أو بالسيارة ليتنقلوا ويلتقوا بمفكرين آخرين، أما اليوم فيكفينا ان نضغط على زر في الحاسوب لنحصل مباشرة على حصيلة المعارف البشرية على شاشته.

– هذا شيء خرافي عندما نفكر به، حتى انه يخيفنا قليلاً.

– كل المسألة تكمن في معرفة ما اذا كان التاريخ يتجه نحو نهايته أو ما اذا كنا، على العكس، على مشارف حقبة جديدة، نحن لم نعد مواطني مدينة أو دولة، لقد أصبحنا نعيش في نطاق كوكبي.

– هذا صحيح.

– لقد عرف التطور التقني –(ويكفي ان نفكر بتطور وسائل الاتصال)– انطلاقة اكثر اهمية خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة، مما عرفه طوال التاريخ، وربما لا يكون ذلك إلا بداية معرفة.

– اهذا ما أردت أن تريني اياه؟؟

– لا، تعالي انه هناك من الجهة الأخرى الكنيسة ..

في اللحظة التي همّا فيها للذهاب ظهرت مجموعة من جنود الأمم المتحدة على شاشة التلفزيون.

– آه انظر! صرخت صوفي.

كانت الكاميرا تقترب من احد الجنود، له لحية سوداء كلحية البرتو تماماً، ثم انتقلت فجأة الى لافتة كتب عليها أعود قريباً يا هيلدا! ثم لوح بيده واختفى.

– آه، ايّ مشعوذ هذا! أهو المايجور؟

اجتازا الحديقة التي امام الكنيسة، الى ممر عريض، وأشار باصبعه الى مكتبة كبيرة. كتب فوق بابها (ليبريس) وهي اكبر مكتبة في المدينة.

– هنا؟

– فلندخل.

عندما أصبحا في الداخل، اشار البرتو الى الجدار الذي يحمل اكبر كمية من الكتب، وكان مقسماً الى ثلاثة اجنحة: العصر الجديد، الحركات المتعاقبة، السحر. أما العناوين فكانت مثيرة: «هل ثمة حياة بعد الموت؟» «اسرار استحضار الأرواح»، «عودة الآلهة»، «الحياة السابقة»، «ما هو

علم التنجيم؟» «الشفاء»، الخ .....

وكان هناك مئات مثلها. وعلى رف فوق الأجنحة كمية كبيرة من نسخ هذه الكتب.

– هذا هو قرننا العشرون. انه هيكل عصرنا.

– ألا تؤمن بهذه الأشياء؟

– صحيح ان فيها الكثير من الاغراء، لكنها تباع بنسبة عالية مثلها مثل كتب الجنس، والسبب واحد، في العمق. اذ يروي كلاهما ما يثير. لكن الصلة بين الفلسفة الحقيقية وهذه الكتب هي كالصلة بين الحب الحقيقي وكتب الجنس.

– ألا تعتقد انك تبالغ؟

– تعالي، سنجلس في الحديقة.

خرجا من المكتبة، ووجدا مقعداً فارغاً أمام الكنيسة. كانت الحمائم تطير تحت الأشجار وبينها عصفور أو عصفوران سوداوان منهمكان.

– هذا ما يسمى بعلم النفس التخاطري – قال البرتو – يمكن ان نسميه ايضاً ملَكة الرؤيا أو التخاطر أو البصيرة أو علم التنجيم، استحضار الأرواح الخ .. للمدلّين دائماً عدة أسماء.

– لكن قل لي، هل تعتقد حقاً، ان هذا كله هذر؟

– لا يليق بالفيلسوف الحقيقي ان يضع كل شيء على خط واحد. لكنني اعتقد ان كل هذه المواضيع الكبيرة لا تفعل شيئاً، سوى رسم مشهد لا وجود له. انها على اية حال، محشوة بـ «اجنة الخيال» تلك التي كان هيوم يرميها في النار. فنحن لا نجد في أكثر هذه الكتب، أي منطلق قائم على تجربة واقعية.

– اذن كيف تفسر ان يكتب هذا العدد من الكتب عن الموضوع ذاته؟

– لانها تجلب المال، هذا ما يرغب الناس بقراءته.

– ولماذا، برأيك؟

– واضح ان لديهم حنيناً الى شكل من «السحري»، شيء «مختلف» يسمح لهم بالإفلات من واقعيّة اليوميّ القاسية. لكنهم يبحثون عن القمر في النهار.

– ماذا تقصد؟

– لقد القي بنا في خضم مغامرة رائعة. ومن حين لآخر، يدور عند قدمينا عمل فني جميل، في وضح النهار.. صوفي اليس هذا غير قابل للتصديق؟

– بلى.

– الى أين ستدفعنا حاجتنا: للذهاب الى قارئات البخت، او لارتياد ممرات الجامعة لاكتساب تجارب «مثيرة» أو «محدودة»؟

– هل تعتقد بأن الذين يكتبون هذه الكتب ما هم إلاّ كاذبون ومشعوذون؟

– لا، أنا لم أقل ذلك. ولكننا نحتاج هنا الى نسق دارويني.

– تخيلي كل ما يحدث في نهار واحد، نهار من حياتك انت. تخيلي كل ما ترينه وما يحدث لك.

– حسناً، وبعد ...

– قد تحدث مصادفات غريبة. فقد تدخلين الى متجر وتشترين شيئاً بعشرين كوروناً. وبعد قليل تعيد لك جورون عشرين كوروناً كانت قد اقترضتها منك، ثم تذهبان معاً الى السينما، وتجدان مقعداً يحمل الرقم عشرين.

– حقاً، انها مصادفة غريبة.

– مصادفة، اجل. لكن المشكلة ان الناس يجمعون هذا النوع من المصادفات، يجمعون كل التجارب الخفية أو التي لا تفسير لها. وعندما يضعون في كتاب واحد هذا النمط من التجارب المأخوذة من حياة مليارات البشر، تكون النتيجة توهم الناس الإمساك ببراهين مقنعة، بل وينشأ الإحساس باكتشاف براهين أخرى جديدة، اكثر فأكثر. لكن الأمر يكون أشبه بلعبة يانصيب لا تظهر فيها إلاّ الأرقام الرابحة.

– ومع ذلك فهناك أناس يملكون موهبة العرافة. ألم يكن، في كل العصور، وسطاء يجربون ذلك؟

– بلى بالتأكيد. ولكن عندما نضع المشعوذين جانباً، نستطيع ان نجد تفسيراً مقنعاً نسبياً، لهذا النوع من الظواهر «الخفية».

– صحيح؟

– هل تذكرين اننا تحدثنا عن نظرية اللاوعي عند فرويد؟

– وهل تتعمد ان تعتقد بانني انسى كل شيء؟

– لقد قال فرويد بأننا نستطيع ان نلعب دور الوسيط الروحي، ازاء لاوعينا، ويمكن ان نفاجأ بأنفسنا، ونحن نفكر أو نفعل أشياء، دون ان نعرف لماذا. والسبب اننا نكون قد كدسنا في داخلنا عدداً لا يحصى من الأفكار والمعارف والتجارب، عدداً اكبر بكثير مما نعيه.

– حسناً، ولكن ماذا يغير ذلك في الأمر؟

– يحصل ان يتحدث بعضهم أو يسيرون في نومهم.

ويمكن ان نسمي هذه الظاهرة، نوعاً من «الآلية الذهنية». كذلك هو الحال، تحت التنويم المغناطيسي، حيث يقول الناس أو يفعلون أشياء تلقائية. ويمكن ان نفكر ايضاً بالكتابة التلقائية لدى السورياليين: انها طريقتهم في ان يكونوا وسطاء أنفسهم، وفي أن يجعلوا لا وعيهم يتحدث.

– انكر ذلك.

– على فترات متقطعة، شهد القرن العشرون «صحوات فكرية» مختلفة. والفكرة هنا تكمن من تمكن الوسيط من التواصل مع روح ميت، سواء بالتحدث الى صوته أو باستدعائه للكتابة التلقائية. وبذلك يستطيع الوسيط ان يلتقط رسالة ميت عاش قبل عصور.

ولقد استند كثيرون الى هذه الفكرة لإثبات وجود حياة بعد الموت، أو وجود عدة حيوات للإنسان.

– افهم.

– لا اقول ان كل هؤلاء الوسطاء دجالون، فبعضهم حسن النية، ولكنهم اذا كانوا قد لعبوا دور الوسيط، فإنما ازاء لاوعيهم هم. ولقد اثبتت تجارب عديدة ان الوسطاء، في حالة ثانية، يعبرون عن معارف ومواهب، يجهلون هم كما يجهل الآخرون، مصدرها. فلقد نقلت امرأة رسالة بلغة لا تعرف منها حرفاً واحداً. فهل يعني ذلك انها عاشت حياة سابقة، او انها على اتصال بروح ميت؟

– وما هو رأيك؟

– لقد علم فيما بعد، انه كانت لها مرضعة تتحدث هذه اللغة.

– آه.

– هل أصبت بالإحباط؟

– عليك، على العكس، ان تعجبي بقدرة بعض الناس على الغوص الى أعماق لاوعيهم، لاستحضار معلومات مبكرة الى هذا الحد.

– افهم وجهة نظرك.

– يمكن تفسير الكثير من المصادفات التي تحصل في الحياة اليومية، بفضل نظرية فرويد حول اللاوعي. فإذا تلقيت مثلاً مكالمة هاتفية من صديق، في الوقت الذي كنت أبحث فيه عن رقم هاتفه ...

– هذا يبعث القشعريرة ..

– قد يفسر ذلك بأننا سمعنا، كلانا، على الراديو، اغنية ذكرتنا بالأيام الماضية. والمسألة كلها تكمن في ان هذا الرابط الخفي لم يكن واعياً.

– اذن فالأمر اما ان يكون شعوذة أو نوعاً من لعبة اليانصيب التي لا تحمل إلاّ الأرقام الرابحة، أو لعبة من اللاوعي الشهير؟

– الأفضل، تناول هذه الكتب بمنتهى التحفظ. خصوصاً عندما يكون المرء فيلسوفاً. ففي انكلترا نادٍ خاص للمتشككين، اعلن اعضاؤه قبل سنوات عن جائزة لمن يستطيع أن يريهم ظاهرة فوق الطبيعة. ولم يكونوا يطلبون المعجزات، وانما مثال بسيط لنقل الأفكار، لكنهم ما زالوا ينتظرون.

– افهم.

– من جهة أخرى، يجب ان نعترف بانه لا يزال هناك أشياء كثيرة تستعصي على فهمنا، فربما اننا لا نعرف كل القوانين الطبيعية، ففي القرن السابق، كانت بعض الظواهر كالكهرباء والمغناطيسية تبدو من قبيل السحر. وأراهنك على أن جدة أبي، كانت ستفتح عينيها ذاهلة لو انني حدثتها عن التلفزيون، أو الحاسوب.

– ألا تؤمن انت اذن بوجود شيء وراء الطبيعة؟

– لقد تحدثنا عن ذلك بل ان كلمة «وراء الطبيعة» هي كلمة غريبة. لا، انا مقتنع بأنه لا توجد إلا طبيعة واحدة، لكنها بالمقابل مذهلة تماماً.

– وكل الظواهر الغريبة التي تتحدث عنها هذه الكتب. ماذا تفعل بها؟

– يجب على كل فيلسوف يستحق لقبه ان يكون حذراً ازاءها. فسنظل نبحث عن غراب أبيض، حتى لو أننا لم نر مثله حتى الآن، وربما اضطر متشكك مثلي، الى أن يقبل يوماً ظاهرة لم يؤمن بها حتى الآن. ولو انني لم اترك هذا التوقع مفتوحاً، لكنت دوغماتياً. ولما كنت بالتالي فيلسوفاً حقيقياً.

بعد هذا الحديث، جلس البرتو وصوفي صامتين. كانت الحمائم تمد أعناقها، وتهدل، عند أقدامهما، لا تخاف إلاّ من صوت محرك قوي أو حركة عنيفة مفاجئة. الى أن قالت صوفي:

– علي أن أعود لأحضر للحفلة.

– ولكني اريد، قبل أن نفترق، ان اريك غراباً أبيض، انها تكون أحياناً اقرب مما نتصور.

نهض، وأشار الى صوفي بان تعود معه الى المكتبة.

هذه المرة، مرّا امام جناح علوم السحر والتنجيم، الى أن توقف البرتو امام خزانة رفوف دقيقة في آخر المكان، وفوقها لافتة كتب عليها: «فلسفة».

أشار البرتو الى كتاب، لم تفاجأ صوفي عندما اكتشفت ان عنوانه: «عالم صوفي».

– هل تريدني أن أشتريه؟

– لا أدري ما اذا كنت أمتلك الجرأة على ذلك بعد؟

بعد لحظات كانت تسلك طريق العودة الى المنزل، والكتاب في يدها، وبضائع العيد في اليد الأخرى.

الاستقبال في الهواء الطلق

... غـــــــــراب ابـيـض ...

احست هيلد انها مسمرة في السرير، ذراعاها نَمِلَتان، ويداها اللتان تمسكان الملف الكبير، ترتجفان.

فالساعة تقارب الحادية عشرة، اي ان ساعتين مضتا وهي تقرأ. احياناً كانت ترفع نظرها وتغرق في الضحك، ومرات اخرى تستدير جانباً وتئن، من حسن حظها ان لا احد في البيت!

جنون كل هذا الذي قرأته في ساعتين!

كيف ارادت صوفي ان تشد انتباه المايجور اليها، مما دفعها لتسلق شجرة، علقت في أعلاها، لكن الاوز مارتن جاء ينقذها، كملاك قادم من لبنان.

ما زالت هيلد تذكر تماماً، رغم مرور سنوات طويلة، يوم جعلها والدها تقرأ رحلة نيلس هولجرسن العجيبة وتذكر كيف ظلت تلك الحكاية، كلمة سر بينهما، لفترة طويلة. وها هو الآن يستعمل الاوز العجوز الطيب من جديد.

وكيف وجدت صوفي نفسها وحيدة في المقهى. لقد حرصت هيلد على ان تحفظ كل ما قاله البرتو عن سارتر والوجودية. ونجح تقريباً، في اقناعها بان هذا الموقف هو الموقف الوحيد المناسب. ولكنها سبق وان اعتقدت بانها اقتنعت بفلسفات أخرى.

قبل سنة، اشترت هيلد كتاباً عن علم التنجيم، وبعدها عادت يوماً تحمل لعبة حظ، واخيراً اشترت كتاباً عن استحضار الأرواح. وفي كل مرة، كان ابوها يحذرها من ذلك، مستعملاً كلمات مثل «شعوذة» و«حِسّ الانتقاد» لكنه كان يخبيء لها انتقامه، وضرب ضربته بقوة. واضح انه لم يكن يريد ان تكبر ابنته دون تحصين ازاء هذه الأمور، وكي يكون واثقاً من ذلك سمح

لنفسه بان يحييها على شاشـة جهـاز تلفزيون في مـتجـر. لا.. انه هنا يبالغ!

اما اكثر ما كان يثير استغرابها، فهو هذه الفتاة ذات الشعر الاسود.

صـوفي .. من انت؟ من اين جئت؟ لماذا دخلت حيـاتي؟ في آخر الفصل، وجدت صوفي في المكتبة كتاباً عنها.. فهل هو الكتاب ذاته الذي بين يدي هيلد؟ انه ليس سوى ملف. ولكن ما هم: فكيف يكون ممكناً ان تجد كتاباً عن نفسها في كتاب نفسها؟ وماذا يحصل لو راحت صوفي تقرا هذا الكتاب؟

تحسست هيلد الجزء المتبقي، واحست انه لا يتجاوز بضع صفحات.

التقت صوفي بأمها في حافلة العودة الى المنزل. يا لسوء الحظ! ماذا ستقول لها عندما ترى الكتاب الذي تحمله؟

حاولت أن تدسـه في الكيس مع البالونات والأشياء التي اشتـرتها للعيد، لكنها لم تفلح.

– هه .. ها نحن نعود في الحافلة نفسها، مصادفة جميلة!

– ايه ...

– هل اشتريت كتاباً؟

– لا. ليس تماماً ..

عالم صوفي ... اية مصادفة!

ادركت صوفي بسرعة، انها لن تستطيع التخلص من الموقف، بكذبة، هذه المرة.

– لقد أهداني اياه البرتو.

– لا عجب. انا فعلاً أستعجل التعرف الى هذا الرجل، هل تسمحين لي بالكتاب؟

– ألا يمكنك الانتظار الى أن نصل البيت، انه كتابي يا أمي.

– هيا.. أعرف انه كتابك، ولكن دعيني القي نظرة على الصفحة الأولى، اذن..

«عادت صوفي امندسون من المدرسة، وكانت قد قطعت شوطاً من

الطريق مع جورون، وتحدثنا عن الإنسان الآلي»

– أهذا ما هو مكتوب فيه حقاً؟

– نعم، كتبه واحد يدعى البرت كناغ، لا بد انه مبتدىء. بالمناسبة ما هي كنية صديقك البرتو؟

– كنوكس.

– انا اراهن ان هذا الرجل الغريب هو الذي كتب هذا الكتاب عنك. واستعمل ما نسميه «اسماً مستعاراً».

– دعك من ذلك يا أمي. لا ليس هو. ثم انك لا تفهمين شيئاً من الأمر، على أية حال.

– انت تقولين ذلك؟ .. لا بأس! فغداً موعد حفلة الحديقة، وستوضع جميع الأمور في نصابها، اخيراً!

– يعيش البرت كناغ، في واقع آخر. لذلك يشبه هذا الكتاب، غراباً أبيض.

– حسناً، يكفي هذا الآن، اعتقد اننا كنا مع ارنب البيض! ..

– حسناً، فلندع ذلك.

كانت الحافلة قد وصلت الى زقاق النفل، فنزلتا لتفاجآ بمظاهرة صاخبة.

– اوه – صاحت الأم – كنت أعتقد أننا، في هذه الزاوية، بمأمن من هذه الاضطرابات!

لم تكن المظاهرة تضم إلاّ بضع عشرات من الناس، يحملون لافتات كتب عليها:

المايجور يعود قريباً

نعم، في حفل عشاء عيد القديس يوحنا

إعطاء سلْطة أكبر للأمم المتحدة

أحست صوفي بما يشبه الشفقة على أمها، وقالت:

– تصرفي كأنهم ليسوا هنا.

- انها مظاهرة غريبة يا صوفي، انها لامعقولة.
- لا تقلقي، ليست شيئاً ...
- العالم يتغير بسرعة أكثر فأكثر، وهذا لا يثير استغرابي في الواقع.
- عليك بالتحديد، ان تتعجبي لكونك لا تتعجبين.
- لكنهم لم يكونوا عنيفين، لم يدوسوا أو يخربوا الورود. لكني لا أرى فائدة لهم في عبور حديقة خاصة! هيا فلنسرع بالدخول الى المنزل!
- انها مظاهرة فلسفية يا أمي، والفلاسفة لا يخربون الورود.
- أحقاً. صوفي؟ ألا يزال هناك فلاسفة حقيقيون؟ انا لم أعد اثق بذلك فقد تحول كل شيء، في أيامنا، الى الاستغلال والتجارة.

الساعات المتبقية من النهار، والسهرة خصصت لتحضيرات الحفلة، التي اكملتاها في صباح الغد، حيث جاءت جورون لمساعدتهما في تزيين المائدة والحديقة.

- آخر خبر: سيأتي والداي مع الآخرين، وهذا خطأك يا صوفي.

قبل موعد وصول المدعويين بنصف ساعة، كان كل شيء جاهزاً، في الأشجار علقت زهور جميلة وقناديل يابانية من الورق، كما زينت البوابة والأشجار وواجهة البيت بالبالونات التي امضت صوفي وجورون ساعتين كاملتين في نفخها.

وعلى المائدة: دجاج بارد، اطباق سلطة، خبز بالحليب، وخبز مجدول. بينما وضعت الحلويات على اصنافها: كعك، كريما، تمر، كعكة الشوكولاته، في المطبخ، باستثناء كعكة عيد الميلاد، التي توسطت المائدة. وكانت مشكلة من اربع وعشرين حلقة فوقها تمثال صغير لفتاة تتناول قربانتها الأولى، ورغم أن أم صوفي قد أصرت على ان التمثال قد يكون لفتاة في الخامسة عشرة لم تتناول قربانتها الأولى بعد، فقد كانت صوفي تدرك ان أمها تحاول ان تحول الحفلة الى نوع من الاحتفال بالقربانة الأولى.

- ترين أنني لم أبخل بشيء. كانت الأم تردد لابنتها.

أول المدعوين الذين وصلوا، ثلاث فتيات من صف صوفي، يرتدين

قمصاناً صيفية مع تنانير طويلة، وستر خفيفة، وعلى عيونهن كحل خفيف.

ثم جاء دور الشابين يورجن ولارس، اللذين اجتازا باب الحديقة بشيء من الغطرسة الذكورية.

– مرحبا. عيد سعيد.

– ها انتِ اصبحت بالغة الآن.

لاحظت صوفي ان جورون ويورجن يسترقان النظر كل إلى وجه الآخر. وكان الجو ثقيلاً، مساء عيد القديس يوحنا. الجميع جاء بالهدايا. وبما ان الحفلة، حفلة فلسفية، فقد تساءل الجميع قبل مجيئهم عن ماهية الفلسفة. واذا لم يجدوا هدايا فلسفية، فقد جهدوا في ان يكتبوا عبارات فلسفية على البطاقة. وتلقت صوفي قاموساً فلسفياً مع دفتر صغير يقفل بمفتاح، وقد كتب عليه: «ملاحظات فلسفية شخصية».

كلما كان عدد المدعوين يزداد في الحديقة، كانت تدور من جديد، كؤوس عصير التفاح، وكانت ام صوفي هي التي تهتم بالضيافة.

– أهلاً وسهلاً بكم جميعاً، اسمك ايها الشاب؟ لا اعتقد انني التقيتك من قبل.

آه سيسيل! كم هو لطيف منك أن تأتي!

كان الشباب كلهم قد تجمعوا، وراحوا يتبادلون الاحاديث، وفي ايديهم كؤوس الشراب، عندما توقفت سيارة والديّ جورون أمام الباب، ونزل منها المستشار الاقتصادي مرتدياً بذلة رمادية، ذات تفصيلة دقيقة وانيقة.. وزوجته، مرتدية سروالاً احمر مطرزاً بالبرق والترتر النبيذيين. تخيلت صوفي انه لم يكن غريباً أن تشتري دمية (باربي) وتطلب من خياط ان يصنع لها ثوباً كهذا .. أو ان يكون هذا الرجل قد اشترى الدمية وطلب من ساحر ان يحولها الى امرأة من لحم ودم.

وعندما نزلا من المارسيديس البيضاء، وتوجها الى الداخل، راح جميع الشباب ينظرون اليهما باستغراب. وقدم المستشار هدية باسم اسرة انجبريجستن لصوفي التي بذلت جهداً جباراً كي لا تنفجر عندما فتحتها واكتشفت انها دمية باربي! إلاّ أن جورون خرجت عن طورها:

– هل انتما مجنونان؟ هل تعتقدان ان صوفي لا تزال تلهو بالدمى؟
فردت السيدة انجبريجستن، وسط خشخشة برق فستانها:
– انها لتزيين غرفة النوم، يا جورون.
– شكراً جزيلاً على أية حال –قالت صوفي لحسم الجدل– فربما بدأت اجمع مجموعة منها.
التأمت الحلقة حول المائدة.
– حسناً، لكننا ننتظر البرتو. قالت الأم بصوت شاءته خفيفاً، لكنه لم يستطع ان يخفي قلقها.
ودارت الوشوشات حول الضيف المهم.
– لقد وعد بالمجيء، اذاً فسيأتي.
– ألا يمكن ان نبدأ بدونه؟
– هيا، فلنجلس.
دعت الأم كل ضيف الى كرسيه، حريصة على أن تترك كرسياً فارغاً بينها وبين صوفي. وراحت تثرثر بضع جمل حول الطقس، والطعام، وبلوغ صوفي سن الأنسات.
بعد نحو نصف ساعة، عبر مدخل الحديقة رجل في الأربعين من عمره، وذو لحية سوداء، على رأسه طاقية، وفي يده باقة تضم خمس عشرة وردة حمراء.
– البرتو!
– نهضت صوفي، وركضت لملاقاته، تعلقت بعنقه، ثم اخذت باقة الورد من يده. اما ردة فعله الوحيدة، فكانت انه راح يفتش في جيوبه، وأخرج منها مفرقعة، اشعلها ورماها في الجو، ثم اشعل شمعة سحرية غرزها في أعلى الكعكة، قبل ان يقترب من الكرسي الفارغ قائلاً:
– أنا سعيد جداً بوجودي هنا!
كان الجميع في ذهول، ونظرت السيدة انجبريجستن الى زوجها نظرة ذات مغزى. في حين احست ام صوفي براحة، تكفي لجعلها تسامحه على كل شيء. اما صوفي فقد وجدت صعوبة في كبح ضحكة مجنونة.
ضربت الأم عدة دقات بملعقتها على الكأس، اشارة لطلب الصمت.

ثم قالت:

– اقترح ان نرحب جميعاً بالبرتو كنوكس، الذي تلطف وشاركنا حفلنا الفلسفي الصغير، كما أوضّح بأنه ليس صديقي الجديد. فرغم ان زوجي غائب دائماً، إلاّ انني لم أتخذ صديقاً، حتى الآن، هذا الرجل العجيب هو استاذ صوفي الجديد في الفلسفة، اذن فهو يعرف ان يفعل أشياء أخرى، غير اشعال المفرقعات، من مثل اخراج ارنب أبيض من قبعة الساحر العالية السوداء،أم انه كان غراباً يا صوفي؟

– شكراً. شكراً. قال البرتو وهو يجلس.

– في صحتك! قالت صوفي مجبرة الجميع على رفع كؤوس الخمر المليئة بالكولا.

مر وقت على الجميع، وهم منهمكون في الاكل، وفجأة نهضت جورون من مكانها، اتجهت الى يورجن، وقبلته على شفتيه، فضمها اليه، وانحنى كي يتمكن من ان يبادلها قبلتها من فوق الطاولة.

– أعتقد انه سيغمى علي! صاحت السيدة انجبريجستن.

– رجاء! ليس من فوق الطاولة! علقت أم صوفي.

– ولم لا؟ سأل البرتو وهو يستدير نحوها.

– اي سؤال!

– كل الأسئلة تصلح عند فيلسوف حقيقي.

هنا راح بعض الشباب الذين لم يتلقوا قبلات يرمون عظام الدجاج على سطح المنزل.

– اوه، كونوا لطفاء، ولا تفعلوا هذا! فمن المزعج ان اجد عظام الدجاج في مزراب السطح. قالت أم صوفي.

– آسف. رد احد الشباب.

وراح الجميع يقذفون العظام من فوق الحديقة الى الساحة العامة.

– أعتقد انه اصبح مناسباً، ان نرفع الطعام ونأتي بالحلوى. قالت الأم، مضيفة: من يريد قهوة؟

فرفع البرتو ووالدا جورون وبعض المدعوين ايديهم.

– لو تأتي صوفي وجورون لمساعدتي ...

استغلت الصديقتان فرصة الذهاب الى المطبخ للحديث قليلاً:

– لماذا قبّلته؟

– كنت هادئة وانا انظر الى فمه، فجأة أحسست برغبة هائلة، ألا تجدينه صاعقاً؟

– .. وكيف وجدت القبلة؟

– ليس كما تخيلتها تماماً، لكن ...

– أهي المرة الأولى؟

– لكنها لن تكون الأخيرة.

وُزعت القهوة ووُضعت الحلوى كلها على الطاولة. وبدأ البرتو بتوزيع مفرقعات على الشباب، عندما سمعت من جديد طرقات ملعقة ام صوفي على كأسها:

– لا أريد أن القي خطاباً طويلاً، ولكن ليس لي إلاّ ابنة واحدة، وقد بلغت الخامسة عشرة منذ اسبوع ويوم. وكما تلاحظون، في الكعكة اربع وعشرون حلقة. هكذا يكون لكل منكم حلقة على الأقل، والذين سيأخذون حصتهم أولاً، يستطيعون الحصول على حلقة ثانية. وكما تعرفون فان الحلقات تكبر كلما استعملت، مثلها مثل حياتنا، فعندما كانت صوفي صغيرة صغيرة، كانت تنطنط راسمة دوائر صغيرة. وعندما كبرت كبرت معها دوائرها، من المنزل الى المدينة القديمة، عدا عن انها تبلغ العالم كله هاتفياً، مع أب يعيش في سفر دائم. هيا. كل عام وانت بخير يا صوفي.

– رائعة! صاحت السيدة انجبريجستن.

وتساءلت صوفي ما اذا كانت تقصد بتعليقها، الأم وخطابها، ام كعكة اللوز ام صوفي نفسها.

صفق الجميع، واطلق احد الفتيان مفرقعة في شجرة الإجاص. وبدورها، نهضت جورون، وجرّت يورجن من يده، الى العشب، حيث راحا يتعانقان، ويتدحرجان، الى ان اختفيا خلف اشجار المشمش.

– في أيامنا، اصبحت الفتيات هن اللواتي يبادرن .. قال المستشار الاقتصادي.

ثم نهض ومشى نحو الأشجار ليرى عن قرب ما يحدث، فتبعه

الجميع، ما عدا صوفي والبرتو. وتحلقوا حول جورون ويورجن اللذين كانا قد تجاوزا القبلة الأولى الى حركات اقل براءة.

– اعتقد انه لم يعد باستطاعتنا ايقافهما، قالت السيدة انجبريجستن.

– لا، فالجنس يتبع نداء الجنس. اجاب زوجها، ثم نظر حوله، آملاً في الحصول على تأييد لكلماته المنتقاه بعناية. وعندما لم يجد إلاّ وجوهاً تعبر عن موافقتها صامتة، أضاف:

– لا مجال للتدخل في هذا.

نظرت صوفي يائسة الى البرتو، الذي قال: كل شيء يحدث بأسرع مما توقعت، علي أن أذهب من هنا بسرعة، لكنني أود أن أقول بضع كلمات قبل ذلك.

فأسرعت صوفي تصفق بيديها:

– هيا. عودوا الى الجلوس، البرتو يريد ان يقول لكم شيئاً.

عاد الجميع باستثناء جورون ويورجن.

– قل، صحيح انك ستلقي فينا خطاباً؟ – سألت ام صوفي – كم هو لطيف منك!

– أشكرك على اهتمامك!

– يبدو انك تحب التنزه كثيراً؟ يقال ان ذلك مهم للحفاظ على الرشاقة. لكنني اجد انه من اللطف بمكان ان تصحب كلبك معك، اسمه هرمز، اليس كذلك؟

نهض البرتو، طرق فنجان القهوة بالملعقة:

– عزيزتي صوفي. يهمني أن اذكركم بأنها حفلة فلسفية، لذلك سيكون خطابي فلسفياً.

بالتصفيق الحاد استقبلت كلماته، فتابع:

– في هذا الحفل الذي يتجه الى الفسق، يبدو لي انه من الضروري ان نعود الى العقل. وان لا ننسى اننا نحتفل بعيد ميلاد فتاة بلغت الخامسة عشرة.

لم يكد يلفظ هذه الكلمات حتى سمع صوت محرك طائرة صغيرة، راحت تقترب، وتهبط حتى ارتفاع منخفض فوق الحديقة، ثم تنشر لافتة

كتب عليها: عيد ميلاد سعيد.

مما أثار تصفيقاً اكثر حرارة.

– كما ترون، يعرف هذا الرجل ان يفعل اشياء اخرى، غير اطلاق المفرقعات. قالت ام صوفي.

– شكراً. لم يكن هذا شيئاً عظيماً، لقد تابعنا أنا وصوفي بحثاً كبيراً في الفلسفة، خلال الأسابيع الاخيرة، ونود الآن ان نعلن لكم ثمن نتائج عملنا، سنكشف لكم عن السر الكبير المتعلق بوجودنا.

كان الجميع قد صمت، واصبح من الممكن سماع صوت العصافير، عدا عن بعض الأصوات المخنوقة المنبعثة من وراء أشجار المشمش.

– تابع. قالت صوفي.

– بعد ابحاث فلسفية معمقة، امتدت من فلاسفة الاغريق الأوائل حتى اليوم، يمكننا ان نؤكد ان حيواتنا تدور في خيال مايجور، يعمل الآن كمراقب في وحدة الأمم المتحدة في جنوب لبنان. لكنه كتب من هناك، كتاباً لابنته التي تعيش في ليلساند، وتدعى هيلد موللر كناغ، وقد بلغت الخامسة عشرة يوم بلغتها صوفي. وقد وجدت هذا الكتاب الذي يتحدث عنا، على المنضدة قرب سريرها، صبيحة عيد ميلادها في (١٥) حزيران. ولأكن أكثر دقة، وجدت حافظة ورق كبيرة. وهي تشعر، في هذه اللحظة، بأصابعها، انه لم يعد أمامها إلاّ بضع أوراق للقراءة.

اجتاحت الحضور موجة من العصبية، لكن البرتو اكمل:

– ليس وجودنا اذن اكثر من شكل ممتع لهدية عيد ميلاد هيلد موللر كناغ، وقد تم اختراعنا كلنا، كمجرد ديكور لدروس في الفلسفة. مما يعني ان المرسيدس البيضاء الواقفة امام الباب لا تساوي قرشاً واحداً. صحيح ان لا قيمة لهذا بذاته. فهي ككل سيارات المرسيدس التي تعبر رأس هذا المايجور المسكين، الذي يجلس تحت شجرة في جنوب لبنان، ليتجنب ضربة الشمس. فنهارات جنوب لبنان حارة يا أصدقائي.

– هذا غير معقول. صاح المستشار الاقتصادي – ما هذه الحكايات، المملة.

– الكل له الحرية في التعبير، لكن الحقيقة ان كل هذا الحفل قصة

مملة. واونصة العقل الوحيدة، موجودة في خطابي أنا – قال البرتو دون أن يأبه للمقاطعة.

هنا نهض المستشار الاقتصادي قائلاً:

– جيد ان نحاول تحصين أنفسنا «بتأمين ضد المخاطر» لأنكم سترون ان هذا الرجل يريد ان يدمر كل شيء باسم ما يدعي انه اثباتات فلسفية.

أشار البرتو موافقاً وتابع:

– لا شيء يثبت امام هذا النوع من التحليل الفلسفي، نحن نتحدث عن شيء أسوأ من الكوارث الطبيعية، يا سيدي المستشار. تلك لا تغطيها شركات التأمين.

– الأمر هنا، لا يخص ابداً كوارث طبيعية.

– لا بل هي كارثة وجودية. ويكفي ان نلقي نظرة على ما يحدث وراء اشجار المشمش لنقتنع. كذلك لا يمكن لنا ان نجري تأميناً ضد انهيار وجودنا كله يوماً، كما لا يمكن ان نبرم عقد تأمين يضمن عدم انطفاء الشمس.

– وهل نحن مضطرون لقبول ذلك؟ سأل والد جورون زوجته، فهزت رأسها ومثلها أم صوفي التي قالت:

– كم هذا حزين، ونحن الذين اعتقدنا أننا أحسنا التصرف!

لم يكن الفتية يحيدون انظارهم عن البرتو. صحيح ان الشباب، هم دائماً اكثر انفتاحاً على التيارات الفكرية الجديدة، ممن هم أكبر سناً.

– نحب ان نعرف عن ذلك اكثر. – قال شاب اشقر، اجعد الشعر، ويضع نظارات على عينيه.

– أشكركم، لكنني اعتقد انني قلت كل شيء. فعندما نصل، اخيراً، الى استنتاج اننا لسنا شيئاً سوى صورة وهمية في وعي ناعس، لإنسان آخر، يصبح من الأفضل لنا أن نصمت. ومع ذلك فأنا أفضل أن أختم بتقديم نصيحة لكل هؤلاء الشباب، بدراسة تاريخ الفلسفة، مما يؤهلكم لاتخاذ موقف نقدي ازاء العالم الذي تعيشون فيه، ويسمح لكم بأن تقفوا على مسافة معقولة من القيم السائدة. فإذا كانت صوفي قد

تعلمت شيئاً بفضلي، فهو امتلاك حس نقدي. وهذا ما كان هيغل يسميه «الفكر السلبي».

كان المستشار الاقتصادي لا يزال واقفاً، يدق بيده، بعصبية على الطاولة.

– يحاول هذا المبلبل ان يلغي كل المواقف الصحيحة التي حاولنا، بمساعدة المدرسة والكنيسة، ان نزرعها في ذهن الأجيال الجديدة. فهذه الأجيال هي المستقبل الذي سيرث أملاكنا. فإذا لم نبعده، فوراً، من هنا، سأستدعي محامي الخاص. فهو يعرف كيف يتدبر القضية.

– اية قيمة يمكن ان تكون للقضية، طالما انك لست سوى ظل؟ على أية حال. لن نتأخر أنا وصوفي في الذهاب. فلم تكن دروس الفلسفة مجرد مشروع نظري، بل كان لها جانبها التطبيقي، وعندما يحين الوقت سانفذ امامكم تجربة نطير فيها نحن الاثنان، ونفلت بذلك من وعي المايجور.

امسكت ام صوفي بذراع ابنتها ..

– لن تتركيني، يا صوفي، رغم كل شيء؟

وجاء دور صوفي لتعانقها، وترفع نظرها الى البرتو ..

– امي حزينة جداً ..

– لا. هذه كوميديا، لا تنسي ما علمتك اياه. فانما نريد أن نتحرر من كل هذه الأكاذيب. امك سيدة صغيرة لطيفة، تماماً كسلة ليلى الحمراء المليئة بالأطعمة لجدتها، ولكنها ليست أكثر حزناً من هذه الطائرة التي مرت الآن والتي تحتاج الى محروقات لتقديم التهاني.

– افهم ما تقول ..

استدارت نحو امها قائلة:

– يجب أن أفعل ما يقوله لي. لا بد من ان اتركك يوماً يا أمي.

– سأفتقدك كثيراً، لكن ثمة سماء فوق سمائنا، وليس أمامك إلاّ أن تطيري. اعدك بالسهر على جوفيندا، هل يلزمها ورقة أو ورقتا خضار يومياً؟

وضع البرتو كفه على كتفها:

– لن تفتقدينا، لا انت ولا سواك. لأنكم ببساطة، غير موجودين، ولذلك فليس لديكم ما يلزم للافتقاد.

– هذه أسوأ اهانة سمعتها في حياتي! صاحت السيدة انجبريجستن. ووافقها زوجها بهزه رأسه.

– على أية حال، سيدفع ثمن هذه الاهانات. أراهنكم على أنه شيوعي، يريد أن يسرق منا كل ما هو غالٍ علينا، انه من الرعاع، سوقي من النوع الأسوأ.

بعد تبادل الشتائم، عاد البرتو والمستشار الى الجلوس، وكان وجه الأخير محتقناً من الغيظ.

وعاد يورجن وجورون الى المائدة، وثيابهما متسخة، معفرة، وعلى شعر جورون ووجهها بقع من الوحل والعشب.

نظر البرتو الى صوفي نظرة خطرة، قائلاً:

– حان الوقت.

– ألا يمكنك ان تأتينا ببعض القهوة قبل ذهابك؟ سألت الأم.

– بكل تأكيد، يا أمي.

حملت ابريق القهوة، وبينما كانت تنتظره أن يمتلىء من آلة القهوة في المطبخ، قدمت الطعام للعصافير والسمكات، ثم ذهبت ووضعت ورقة خضراء للسلحفاة. لم تجد الهر، لكنها ملأت صحنه، ووضعته قرب الباب. فعلت كل ذلك والدموع تملأ عينيها.

عندما عادت بالقهوة، كان العيد قد أصبح أشبه بحفلة أطفال، لا بعيد فتاة في الخامسة عشرة، فالقناني مبعثرة على الطاولة، ومفرش الطاولة ملوث بالشوكولاته. والصحون والحلوى مقلوبة، بينما يحاول احد الفتيان أن يدس مفرقعة في كعكة الكريما، واذا بها تنفجر وتطرطش الطاولة والمدعوين. وكانت حصة الأسد من نصيب سروال السيدة انجبريجستن الاحمر.

اما الغرابة، فكانت الهدوء الذي تقبلوا به ذلك.

تناولت جورون قطعة من الكعك بالكريما، ومرغت بها وجه يورجن. ثم راحت تنظفه بلسانها.

كانت أم صوفي والبرتو يجلسان في الأرجوحة، بعيداً عن الآخرين، وأومأ الى صوفي أن تنضم اليهما.

– هل استطعتما ان توضحا الأمور فيما بينكما. أخيراً؟ سألت صوفي.

– وانت على حق تماماً. اجابت الأم بسعادة. فالبرتو رجل طيب، وانا اعهد بك الى ذراعيه القويتين.

جلست صوفي بينهما.

بينما نجح فتيان في تسلق السقف، وراحت فتاة أخرى تجوب الحديقة، مفجرة البالونات بدبوس في يدها. وفجأة وصل فتى لم توجه له الدعوة، على دراجته النارية، وخلفه حقيبة مليئة بعلب البيرة وقناني الكحول. فتقدم بعض الشباب لاستقباله.

واذ رأى المستشار الاقتصادي ذلك نادى على الجميع.

– أيها الأولاد، ماذا لو قمنا نلعب؟

ثم أخذ علبة بيرة، افرغها على العشب، ثم تناول الحلقات الخمس التي كانت لا تزال في كعكة اللوز، وراح يستعرض امام المدعوين كيف يصوب ويرميها، فتاتي حول العلبة.

– انها أخر الارتعاشات – قال البرتو – يجب أن نذهب قبل أن يضع المايجور نقطة الوقف النهائية، وتقفل هيلد الملف.

– سأتركك تعيدين ترتيب كل شيء بمفردك يا أمي.

– ليس لهذا أهمية يا ابنتي. في كل الأحوال، لا حياة لك هنا، واذا ما استطاع البرتو ان يقدم لك وجوداً أفضل، اكون اسعد ام في الكون. الم تقولي لي انه يمتلك حصاناً ابيض؟

نظرت صوفي حولها. كانت الحديقة قد فقدت معالمها: علب فارغة، عظام دجاج، قطع كعك، وبالونات مشقوقة تملأ العشب.

– كانت هذه جنتي الصغيرة، سابقاً.

– وستطردين الآن من الجنة. قال البرتو.

صعد احد الفتيان الى سيارة المرسيدس البيضاء، أدار المحرك، واقتحم باب الحديقة، وممر الحصى، لينتهي في الحديقة.

احست صوفي بأن أحداً يشد ذراعها، ويجرها الى كوخها، وسمعت صوت البرتو:

– الآن! ..

في اللحظة ذاتها، اصدمت المرسيدس البيضاء بشجرة تفاح، ثم تدحرجت كل ثمار التفاح عليها.

– هذا تجاوز كبير – صاح المستشار المالي – سأطالب بتعويضات عن الأضرار.

وتدخلت زوجته لدعم مطلبه:

– انه خطأ ذلك التافه، بالمناسبة أين هو؟

– كأن الأرض انشقت وابتلعته. قالت أم صوفي بنبرة زهو، ثم نهضت وراحت تلملم ما تبقى من الحفلة الفلسفية.

– هل من يريد مزيداً من القهوة؟

طباق

... نشيدان أو اكثر، تتعاقب
خطوطهما النغمية ...

استوت هيلد في سريرها. هكذا تنتهي اذن قصة صوفي والبرتو. فما الذي حصل حقاً؟

لماذا كتب والدها هذا الفصل الأخير؟ اليظهر فقط السلطة التي يملكها على عالم صوفي؟

نهضت ترتدي ملابسها في الحمام، وهي لا تزال غارقة في هذه الافكار. التهمت فطورها بسرعة، ونزلت الى الحديقة، حيث جلست مسترخية في الأرجوحة.

انها توافق البرتو على أن الشيء الوحيد المعتبر في الحفلة هو خطابه. هل أراد ابوها ان يشير الى ان عالم هيلد هو بمثل فوضى حفلة صوفي؟ ام ان عالمها هي، سينتهي ايضاً بالطيران؟

اجل، وهذان الاثنان: صوفي والبرتو .. ماذا جرى لخطتهما السرية؟

هل على هيلد ان تتابع اختراع القصة؟ ام انهما نجحا فعلاً في الإفلات من الرواية؟

ولكن اين هما الآن اذن؟ ثم انتبهت الى فكرة تفصيلية: اذا كان البرتو وصوفي قد نجحا في الإفلات من السرد، فلن يكون هناك شيء منهما فيما تبقى في الملف. ذلك ان اباها يحفظ عن غيب كل ما فيه.

ولكن هل يمكن ان يكون هناك شيء مكتوب بين السطور؟ بدا لها انها قرات هذه الجملة في مكان ما في الرواية، وفهمت ان عليها ان تعيد قراءتها عدة مرات.

بينما كانت المرسيدس البيضاء تقتحم الحديقة، كان البرتو يجر صوفي الى كوخها، ثم يعبران الغابة ركضاً نحو الشاليه.

– اسرعي! يجب أن نفعل ذلك، قبل ان يبدأ في البحث عنا.

– هل افلتنا من دائرة انتباه المايجور، الآن؟

– نحن في القطاع الحدودي.

راحا يجذفان حتى الجهة الأخرى من البحيرة، ثم قفزا الى داخل الشاليه. حيث فتح البرتو باباً في القبو، ودفع صوفي الى المغارة، ثم اصبح كل شيء اسود.

في الأيام التالية، وضعت هيلد اللمسات الاخيرة على خطتها. فارسلت بضع رسائل الى آن كفامسدال في كوبنهاغن، كما اتصلت بها تلفونياً عدة مرّات. وفي ليلساند طلبت مساعدة جميع اصدقائها ومعارفها، وورطت اكثر من نصف صفها في المشاركة.

من حين لآخر، كانت تعود الى عالم صوفي، اذ انها ليست من نوع الروايات التي نستطيع ان نستوعبها من القراءة الاولى. وفي كل مرة كانت تتخيل رواية اخرى لما يمكن ان يحصل لالبرتو وصوفي، بعد اختفائهما من الحفلة.

يوم السبت (٢٣) حزيران، استيقظت في نحو التاسعة. كانت تعرف ان اباها قد اقلع من لبنان، ولم يبق امامها إلاّ الانتظار. فاحداث الوقت المتبقي من النهار موزعة بتوقيت دقيق، وفي ادق التفاصيل.

خلال ساعات الصباح، راحت تحضر لعيد القديس يوحنا مع امها، ولم تستطع ان تبعد عن ذهنها، كيف ساعدت صوفي امها في تحضير حفلة العيد.

لكن كل هذا اصبح ماضياً! ام انهما توضبان المائدة في هذه اللحظة بالذات؟

جلس البرتو وصوفي على عشب حديقة، امام مبنيين كبيرين، في واجهتهما مروحتان هائلتان، وعدة فتحات للتهوية، وإذا بامرأة ورجل شابين يخرجان من احد المبنيين، يحمل هو كيساً بنياً، وتتدلى في كتفها حقيبة حمراء. وفي شارع صغير خلفهما، مرت سيارة.

– ما الذي حصل؟ سألت صوفي.

– لقد نجحنا!

– ولكن اين نحن؟

– في مايجورستوجا.

– لكن مايجورستوجا .. هي شاليه المايجور.

– انها هنا في اوسلو.

– أأنت واثق؟

– تماماً، وهذا المبنى يدعى «القصر – الجديد»، وفيه تدرس الموسيقى. اما هذه فكلية علم اللاهوت. وهناك، على التلة كلية العلوم التطبيقية، وفي الأعلى الآداب والفلسفة.

– هل خرجنا من كتاب هيلد، وافلتنا من سيطرة المايجور؟

أجل، لن يستطيع أبداً أن يعثر علينا هنا.

– ولكن أين كنا، ونحن نعبر الغابة جرياً؟

– عندما كان المايجور منشغلاً بصدم المرسيدس البيضاء بأشجار التفاح، اغتنمنا نحن الفرصة، واختبأنا في الكوخ. كنا في لحظة الصفر يا صوفي. ننتمي الى العالمين، القديم والجديد، معاً. لكنه من المستحيل ان يكون المايجور قد فكر باخفائنا هنا.

– ولماذا؟

– لم يكن ليتخلى عنا بهذه السهولة. لقد سارت الأمور كأنها على عجلات. ومع ذلك .. يمكن دائماً أن نتخيل أنه على علم بكل شيء، ويدير اللعبة.

– ماذا تقصد بهذا؟

– انه هو من حرك السيارة البيضاء. وربما انه فعل كل ما بوسعه، لنضيع عن نظره. ربما يكون قد أصيب بالإرهاق بعد كل ما حصل ..

كان الثنائي الشاب، قد اصبح على بعد خطوات قليلة منهما. وأحست صوفي بالخجل لأنها تجلس على العشب مع رجل أكبر منها سناً بكثير. كانت لديها رغبة قوية في أن يؤكد لها احد كلام البرتو. فسألتهما:

– عفواً. ما اسم المكان هنا؟

– لكنهما لم يجيباها بشيء. وبدا كأنهما لم يرياها. فأحست

بالاستفزاز، الذي جعلها تستدرك:

– علي أن أعرف. ليس ثمة غرابة في الإجابة عن سؤال:

لكنه كان من الواضح ان الشاب غارق في نقاش مع الفتاة.

– ان شكل التأليف الطباقي، يعمل على صعيدين: افقي، اي ميلودي، وعامودي اي هارموني، اذن فالمقصود لحنان أو ثلاثة تتطابق خطوطها الميلودية.

– عفواً للمقاطعة. لكن ...

– تختلط الميلوديات، بحيث تنمو بأكبر قدر ممكن من الاستقلالية عن تأثير المجموعة. لكن، مع احترام قوانين الهارموني. وهذا ما نسميه: الطباق. ومعناه في الواقع «نوتتنا المضادة».

– أية وقاحة! ليسا أصمين ولا أعميين ..

كررت صوفي المحاولة، قاطعة طريقهما. لكنهما دفعاها بهدوء جانباً.

– كأن الريح بدأت تهب. قالت المرأة.

ركضت صوفي الى البرتو صائحة:

– انهما لا يسمعانني.

وفي اللحظة ذاتها عاد الى ذهنها حلمها بهيلد وصليبها الذهبي.

– اجل! هذا هو الثمن الذي يتعين علينا دفعه. فعندما نفلت من كتاب، يجب ألا نتوقع ان نعود الى الظهور في وضعية الكاتب ذاتها. لكن المهم. اننا هنا، ومنذ اليوم سنظل دائماً في السن الذي كنا فيها عندما تركنا الحفلة الفلسفية.

– لكن، ألن نستطيع أبداً أن نقيم علاقات مع الناس المحيطين بنا؟

– الفيلسوف الحقيقي لا يستعمل كلمة أبداً. ما هي الساعة الآن يا صوفي؟

– انها الثامنة.

– الساعة نفسها التي هربنا فيها من العيد.

– اليوم يعود والد هيلد من لبنان.

– اذن. فليس أمامنا وقت نضيعه.

– ماذا تريد أن تقول؟

– ألا ترغبين في معرفة ماذا سيحصل عندما يعود المايجور الى بجركلي؟

– بلى، بالتأكيد.

– اذن، تعالي بسرعة.

نزلا باتجاه مركز المدينة وفي طريقهما التقيا مراراً ببعض الناس، لكن الجميع كان يسير من امامهما وكأنهما ليسا إلاّ هواءً.

على امتداد الرصيف، كانت السيارات متوقفة واحدة بعد الأخرى. وفجأة توقف البرتو امام سيارة حمراء مكشوفة السقف. وقال:

– أعتقد ان هذه تنفع، يجب أن نتأكد تماماً انها سيارتنا.

– لم أعد فهم شيئاً.

– دعيني أوضح لك، ليس بإمكاننا ان نستقل اية سيارة، فكيف ستكون برأيك ردة فعل الناس عندما يرون سيارة تسير بدون سائق؟ شيء أخر، هو اننا سنجد صعوبة كبيرة في تحريكها.

– وسيارة السباق هذه؟

– أعتقد أنني رأيتها في فيلم قديم.

– اعذرني. لقد بدأت أمل من كل تلميحاتك، التي تفوق كل منها الأخرى غموضاً.

– انها سيارة وهمية، متخيلة يا صوفي. مثلنا تماماً. فالذين يمرون من هنا، لا يرون مكانها إلاّ فراغاً يمكن التوقف فيه. هذا هو الشيء الوحيد الذي احرص على التأكد منه قبل ذهابي.

انتظرا قليلاً. ثم شاهدا فتى، يركب دراجته على الرصيف، ثم يجتاز الشارع عبر مكان السيارة الحمراء.

– أرأيت؟ انها سيارتنا!

فتح البرتو الباب اليمين قائلاً:

– تفضلي. فلتكوني ضيفتي.

جلست صوفي في مقعدها، والبرتو وراء المقود. كانت المفاتيح في مكانها واقلعت السيارة على الفور.

نزلا زقاق الكنيسة ووصلا الى طريق درامين، الواسعة. عبر ليساكر

وسـاندفيكا. حيث بدأت أنوار عيد القديس يوحنا تظهر اكثر فاكثر، خصوصاً بعد اجتياز درامين.

– انها ليلة انقلاب الشمس الصيفي، يا صوفي.
اليس ذلك رائعاً؟

– جميل ان نسير في سيارة مكشوفة، ويضربنا الهواء الطري على وجهنا. هل تعتقد حقاً ان لا احد يستطيع رؤيتنا؟

– إلاّ الذين مثلنا، وقد نلتقي احداً منهم. كم الساعة الآن؟

– الثامنة والنصف.

– يجب ان نجد طريقاً أقصر، لا يمكن ان نظل وراء هذه الشاحنة.

قال هذا وانعطف عابراً حقلاً من القمح، التفتت صوفي الى الوراء ورأت عصبة من سنابل القمح قد نامت على الأرض.

– غداً يقولون ان الريح هي التي ضربت الحقل. قال البرتو.

في الساعة الرابعة والنصف من يوم (٢٣) حزيران، هبط الماجور البرت كناغ بطائرته في كوبنهاغن، بعد ان امضى نهاراً طويلاً. كانت روما آخر مراحله، قبل كوبنهاغن.

عبر شباك تدقيق الجوازات، وهو في بذلته العسكرية، الخاصة بالامم المتحدة، والتي طالما اعطته الاحساس بالفخر. فهو لا يمثل نفسه، او حتى بلده فقط وإنما مائة عام من تراث العدل الدولي الذي بات يضم كل الكرة الارضية.

كان يحمل حقيبة صغيرة في كتفه. اذ سجل بقية امتعته في روما. وكان يكفيه ان يلوح بجوازه الاحمر.

ليس لدي ما أبلغ عنه

عليه ان ينتظر نحو ثلاث ساعات حتى موعد الإقلاع الى ليلساند. فليشتري بضع هدايا لعائلته، الهدية الاكبر في حياته، هي تلك التي أرسلها لابنته هيلد قبل اسبوعين، حيث وضعتها زوجته مارين، على المنضدة قرب السرير، لتجدها هيلد عندما تستيقظ صباح عيد ميلادها.

لم يسمع صوت هيلد، منذ هاتفها مساء ذلك اليوم.

اشترى بعض الصحف النرويجية، ثم جلس الى البار وطلب فنجاناً من القهوة. وبينما هو يستعرض العناوين، انطلق نداء عبر مكبر الصوت يقول:

«رسالة شخصية للمايجور البرت كناغ.

يرجى منه الاتصال بمكتب س. ا. س»

ما الأمر؟ احس المايجور بالعرق البارد يغمره. عسى الاّ يطلبون منه العودة الى لبنان؟

او الاّ يكون مكروه قد حصل في البيت؟

بالسرعة القصوى، كان يقف امام المكتب:

- انا البرت كناغ

- حسناً، حسناً، الأمر ملح.

فتح المظروف، الذي ناوله اياه الموظف، ليجد في داخله ظرفاً اصفر، مكتوباً عليه:

لِيَد المايجور البرت كناغ، بوساطة مكتب الاستعلامات س.ا.س مطار كاستروب كوبنهاغن

بدات اعصابه تتوتر اكثر. وهو يفتح المظروف الصغير، ويتناول الورقة التي بداخله:

ابي العزيز،

اتمنى لك عودة سعيدة. اية سعادة ان تكون في البيت، بعد كل هذه الغيبة في لبنان، انت تفهم بسهولة انه لم يعد بامكاني الانتظار اكثر. اعذرني اذا اضطررت لان اناديك بمكبر الصوت، لكن الأمر اسهل هكذا.

ملاحظة: تنتظرك في البيت مطالبة بالعطل والضرر، من قبل المستشار المالي انجبريجستان، عن حادث تعرضت له سيارة مرسيدس مسروقة.

ملاحظة هامة:

قد اكون في الحديقة عندما تعود، ولكنك قد تسمع اخباراً عني قبل ذلك.

ملاحظة اهم:

فجاة، احس بالخوف من البقاء طويلاً في الحديقة. ففي امكنة كهذه، قد نختفي بسهولة تحت الارض.

صغيرتك هيلد التي اخذت كل ما يلزمها
من الوقت للتهيؤ لعودتك.

لم يستطع المايجور كناغ منع نفسه من الابتسام. لكنه لا يحب ان يشعر بان احداً يتلاعب به بهذا الشكل. فهو يحب أن يحتفظ بالسيطرة على نفسه. وهذه الصغيرة الغنوج الخبيثة، تدعي ادارة افعاله وحركاته من ليلساند! لكن كيف تدبرت الأمر؟

دس المظروف في جيبه، ثم راح يتسكع امام متاجر المطار، واذ هم بالدخول الى واحد منها يبيع المنتوجات الدانمركية، الغالية الثمن في النرويج، وقع نظره على ظرف صغير، ملصق على الزجاج، مكتوب عليه بالخط الاسود العريض: «مايجور كناغ». فضّه وقرا:

رسالة شخصية للمايجور البرت كناغ، بوساطة متجر التموين. مطار كاستروب. كوبنهاغن.

ابي العزيز
احب ان تشتري لنا قطعة سلامي كلغرام او اثنتين. اما امي فتفضل بالتاكيد النقانق بالكونياك.
ملاحظة: كذلك فان كافيار ليمفجورد ليس سيئاً.

هيلد التي تقبلك

نظر البرت كناغ حوله. هل يمكن ان تكون هيلد في الطرف الآخر من المطار؟ هل قدمت لها امها رحلة الى كوبنهاغن لملاقاته؟ الكتابة التي على الظرف بخطها ..

هكذا احس مراقب الامم المتحدة انه هو المراقب هذه المرة. كانما هناك من يتلاعب به من بعيد، كانه لعبة في يد طفل.

دخل المتجر واشترى قطعة سلامي تزن كيلوغرامين، ونقانق بالكونياك وثلاثة مرطبانات من كافيار ليمفجورد. ثم تابع طريقه، وفي نيته ان يشتري هدية اخرى لهيلد. ماذا تراها تقول في الة حاسبة؟ ام في جهاز راديو للرحلات .. الفكرة الثانية افضل ..

امام متجر الأجهزة الاكترونية، وجد هنا ايضاً، ظرفاً آخر، ملصقاً على الزجاج.

المايجور البرت كناغ، بوساطة اهم متجر في المطار.

وفي داخله ورقة صغيرة عليها:

ابي العزيز

لك تحية صوفي، التي يهمها ان تشكرك على جهاز الراديو، التلفزيون المصغر الذي تلقته في عيد ميلادها من اب كريم، كان ذلك جنوناً، بانني القاسم صوفي الميل الى هذا النوع من التفاهات.

ملاحظة:

اذا لم تكن قد ذهبت بعد الى متجر الماكولات ومتجر المشروبات الروحية والسجائر في السوق الحرة. فستجد تعليمات اخرى هناك.

ملاحظة أخرى

لقد تلقيت بعض النقود بمناسبة عيد ميلادي ويمكنني ان اساهم في شراء جهاز راديو – تلفزيون بمبلغ (٣٥٠) كوروناً.

هيلد

التي جهزت البطة المحشوة

وسلطة والدورف المفضلة لديك

كان سعر الجهاز المطلوب (٩٨٥) كوروناً دانمركياً. وليس هذا سيئاً بالمقارنة مع الحالة التي وجد المايجور نفسه فيها، مقذوفاً كالكرة، من مكان

الى اخر، بحسب ارادة ابنته. أهي هنا ام لا؟ راح يستدير ملتفتاً حوله كلما خطا بضع خطوات، يحس بانه دمية متحركة وجاسوس في ان واحد. الم تسرق منه حريته؟

عليه ان يذهب ايضاً الى السوق الحرة وهناك وجد ظرفاً اخر باسمه. واحس بان المطار كله قد أصبح شاشة كبيرة يلعب عليها دور الفار. كانت الرسالة تقول:

المايجور كناغ بوساطة المتجر المعفى من الضرائب.

كل ما ارغب به من هنا، هو علبة من العلكة وبضع اخريات من الشوكولاته انتون بيرغ. فهذه كلها اغلى ثمناً في النرويج. وإذا كانت ذاكرتي جيدة، فان امي تحب الكامباري.

حافظ على حواسك متنبهة في طريق العودة، فانا واثقة من انك لا تريد ان تفوتك بعض التعليمات الثمينة.

ابنتك هيلد

التي تعلمت الكثير كما ترى.

اطلق البرت كناغ زفرة ياس، ثم دخل المتجر ولم يشتر إلا ما طلب منه. ثم توجه الى الباب رقم (٢٨)، حاملاً ثلاثة اكياس كبيرة، وحقيبة في كتفه، لينتظر الاقلاع ولتكن لا تزال هناك بعض الرسائل هنا أو هناك.

لكن ظرفاً اخر ابيض كان ينتظره على احد اعمدة الباب رقم (٢٨).

المايجور كناغ، بوساطة الباب (٢٨)، مطار كاستروب. كوبنهاغن.

انه ايضاً خط هيلد. لكن كان رقم البوابة قد اضيف بخط اخر. ليست هناك اية وسيلة للتاكد من ذلك فكيف تمكن مقارنة احرف برقم؟ تناوله وفتحه، فلم يجد إلاّ عبارة واحدة.

لقد انتهى الامر.

غرق في احد المقاعد، مسنداً ظهره بشكل مريح، ومحتفظاً بالاكياس على

ركبتيه. وهكذا ظل المايجور الفخور جالساً، ينظر الى المسافرين كطفل يسافر للمرة الأولى في حياته، بمفرده. اذا كانت هيلد هنا، فلن يترك لها متعة ان تراه قبل ان يراها!

لذا راح يتفحص وجوه جميع المسافرين، بمجرد دخولهم. وانتابه شعور بانه عدو تراقبه الاجهزة السرية للبلاد. الى ان صعد الى الطائرة، فاحس ببعض الارتياح. وكان اخر الركاب. لكنه وجد، وهو يسلم بطاقة الإقلاع، ظرفاً اخر باسمه ملصقاً على المكتب.

قطع البرتو وصوفي جسر بريفيك ووصلا الى التفرع المؤدي الى كراجيرو.

– انت تسير بسرعة (١٨٠) كم – قالت صوفي.

ـ الساعة تقارب التاسعة. ولن يتأخر في الهبوط في مطار كجيفيك. على اية حال، لا يمكن ان تمسكنا شرطة السير، بمخالفة سرعة.

ـ وماذا لو تعرضنا لحادث؟

ـ ليس له اية اهمية، اذا ما اصطدمنا بسيارة عادية. اما اذا اصطدمنا بواحدة مثل سيارتنا...

ـ ماذا يحصل؟

ـ يجب ان ننتبه. فقط.

ـ لكنه ليس من السهل، ان نتجاوز هذه الحافلة السياحية، فالغابة تؤطر الطريق من الجهتين.

ـ لا بأس ياصوفي، يجب ان تتعودي.

قال ذلك وادار المقود مجتازاً الغابة الكثيفة، كأن شيئاً لم يكن.

ـ لقد اخفتني. قالت صوفي وهي تتنهد بارتياح.

ـ لن نحس بشيء حتى ولو اخترقنا جداراً من الفولاذ.

ـ هذا يعني اننا مجرد ارواح، في العالم المحيط بنا.

ـ لا. انت ترين الامور بالمقلوب. فالواقع الذي حولنا ماهو الا مغامرة للروح. لمن هم في نفس وضعنا.

ـ مهلاً. انا لم اعد قادرة على متابعتك.

ـ اذن اسمعي جيداً. انه لسوء فهم شائع جداً القول إن الروح ذو طبيعة اكثر «هوائية» من بخار الماء مثلاً. لأن العكس هو الصحيح، فالروح اكثر صلابة من الثلج

ـ انا لم افكر بذلك ابداً.

ـ اذن ساروي لك قصة، مرة كان هناك رجل لا يؤمن بوجود الملائكة. واذا بملاك، يأتي، يوماً لزيارته، وهو يعمل في الغابة.

ـ وبعد

ـ مشيا معاً فترة، قال بعدها الرجل: «نعم ها انا مضطر للاعتراف بان الملائكة موجودة. لكنكم لستم موجودين مثلنا»

«ماذا تقصد بذلك؟» ساله الملاك. فاجاب الرجل: «عندما اعترضت طريقنا صخرة. اضطررت للالتفاف حولها، اما انت فمررت عبرها. كذلك عندما اعترضنا جذع مقطوع، اضطررتُ انا لان اتعدى فوقه، اما انت فتابعت سيرك بشكل عادي.»

وقد فاجأ هذا الجواب الملاك الذي قال: «الم تلاحظ ايضاً، اننا اجتزنا مستنقعا؟ هناك استطعنا، نحن الاثنان، ان نمشي في الضباب. وذاك لان لنا نحن كياناً اكثر صلابة من الضباب»

ـ آه

ـ الشيء نفسه ينطبق علينا. صوفي. فيمكن للروح ان تجتاز باباً من الفولاذ، ولا تستطيع اية قذيفة او اي مدفع ان يدمرا شيئاً مكوناً من الروح.

ـ غريب تماماً ان نفكر بهذا..

ـ سنصل الآن الى ريزور. ولم تمض الا ساعة واحدة على مغادرتنا مايجورستوجا. ساتناول قهوة. فوق مرتفع فيان.

قبل سوندرليند تماماً، شاهدا مقهى الى اليسار، عليه اسم ساندريلا. فخرج البرتو عن الطريق، واوقف السيارة على العشب.

في المقهى، بذلت صوفي كل جهدها لرفع زجاجة كولا عن المقصف، ولكن عبثاً. ومثلها حدث لالبرتو وهو يضغط بكل قواه على آلة القهوة.

لكأن القنينة ملتصقة بالمقصف والآلة لا تتحرك.

استشاط غضبا. واستدار يطلب مساعدة الزبائن. لكن احداً لم ينتبه له، فراح يصرخ باعلى صوته الى حد جعل صوفي تسد اذنيها:

ـ اريد قهوة

لكن غضبه لم يلبث ان خمد، وانفجر ضاحكاً:

ـ لا يمكنهم ان يسمعونا. كما لا يمكننا ان نشرب من قهوتهم

كانا يهمان بالخروج عندما نهضت سيدة عجوز واتجهت نحوهما. كانت ترتدي تنورة حمراء فاقعة، وكنزة صوفية زرقاء مشغولة باليد، وعلى رأسها منديل ابيض.

الوانها هذه، وشخصيتها كلها، تتناقض مع بقية المقهى الداكن.

ـ مابك تصرخ هكذا، يا بني؟

ـ عذراً

ـ تريد قهوة. اليس كذالك؟

ـ نعم، ولكن...

ـ لدينا مؤسسة في مكان غير بعيد.

تبعا المرأة العجوز عبر ممر وراء المقهى. وفي الطريق سألتهما.

ـ هل انتما جديدان هنا؟

ـ نعم، يمكن ان نقول ذلك، تقريباً.. اجاب البرتو.

ـ اذن اهلاً بكما في مملكة الابدية، يا اولادي.

ـ وانت؟

ـ أنا آتية من احدى حكايات الاخوة غريم. منذ مئتي عام، وانتما، اخواي الصغيران، من اين اتيتما؟

ـ من كتاب فلسفة، انا استاذ فلسفة، وصوفي تلميذتي.

ـ حسناً! في هذا قليل من التغيير!

اخيراً وصلا الى باحة مضيئة، فيها عدة منازل بدت مضيافة. تتوسطها ساحة، تشتعل فيها نار عيد القديس يوحنا، وحولها حلقة من الراقصين المرحين. الذين تعرفت صوفي الى اكثرهم: قطر الندى، الايدي السبعة، سندريلا، شرلوك هولمز، بيتر بان، وجنان ذات الجورب الطويل.

كما تجمعت حول النار ايضاً كل تلك الكائنات التي نسميها: الشخصيات الخيالية.

ـ رائع! اية حيوية! قال البرتو بتعجب.

ـ انها ليلة عيد القديس يوحنا اوضحت العجوز. ونحن لم نعرف عيداً مشابهاً منذ سهرة عيد الربيع (فالبورغ)، في المانيا. انا لست هنا الا في زيارة عابرة. انت تريد قهوة. تفضل، هل هذا جيد؟

ـ اجل شكراً.

عندها فهمت صوفي ان كل البيوت من الكعك، والكراميل، والسكر الثلجي. اذ كان العديد من الشخصيات يقضم طرفاً من البيت، في حين تتجول امرأة طاهية بين تلك البيوت لترميم ما قضم. اخذت صوفي بدورها قطعة من اعلى احدى السقوف، واذا طعم لم تذق بلذته طوال حياتها.

بعد قليل عادت المرأة ومعها فنجان من القهوة.

ـ شكراً جزيلاً ـ قال البرتو.

ـ وماذا ستدفع؟

ـ كيف ادفع؟

ـ عادة، ندفع برواية حكاية، او قصة. اما مقابل فنجان القهوة، فيكفي مقطع قصير.

ـ بامكاننا ان نروي لكم قصة الانسانية المتقلبة، لكننا على عجلة من امرنا الآن، افلا يمكن ان نعود لندفع في وقت آخر؟

ـ بلى، ولكن لماذا انتم على عجل؟

شرح لها البرتو السبب فقالت:

ـ حسناً. لقد تعرفنا الى وجوه جديدة! ولكن عليكما منذ الآن ان تقطعا حبل الصرة مع اصولكم البشرية، فنحن لم نعد ننتمي الى اللحم والدم، اصبحنا من الشعب الذي لا يُرى.

بعد قليل، كان البرتو وصوفي قد عادا الى سيارتهما وبالقرب منها، كانت سيدة تساعد طفلها على التبول وراء سيارة اخرى.

وبسلوكهما عدة طرق مختصرة عبر الحقول والغابات وصلا بسرعة

الى ليلساند.

في الساعة التاسعة والنصف، هبطت طائرة اس ك ٨٧٦، القادمة من كوبنهاغن. وكان المايجور قد فتح، عند الاقلاع، الظرف الذي وجده ملصقاً على حاجز تفتيش البطاقات. وعليه:

الى المايجور كناغ. لدى عبوره حاجز الاقلاع، مساء عيد القديس يوحنا ١٩٩٠

وفي داخله قرأ:

ابي العزيز

ربما كنت تنتظر ان تراني بلحمي ودمي في كوبنهاغن لكن الضبط الذي امارسه على افعالك وحركاتك اذكى من ذلك. فانا اراك في كل مكان يا ابي، وبالمناسبة فقد قمت بزيارة اسرة من السحرة، الذين باعوا، منذ زمن بعيد، مراة برونزية لجدتي الكبرى. وحصلت معها على كرة من الكريستال. بامكاني الان ان ارى انك تجلس للتو في مقعدك. كذلك علي ان اذكرك بربط حزام الامان، والبقاء في مكانك الى ان تنطفىء الإشارة الضوئية. وعندما تستقر الطائرة في تحليقها، يمكنك ان تاخذ غفوة صغيرة، لانه من الافضل ان تصل مرتاحاً الى البيت. الطقس في ليلساند رائع، لكن الحرارة اقل بقليل منها في جنوب لبنان. اتمنى لك رحلة سعيدة.

ساحرتك الصغيرة المفضلة
ملكة المرح، وراعية التهكم
اقبلك.

لم يعد البرت يعرف ما اذا كان غاضباً ام منهكاً وراح يضحك بصوت عالٍ، الى حد جعل جميع المسافرين ينظرون اليه، باستغراب. ثم اقلعت الطائرة.

لقد ردت له هيلد من عملته ذاتها. لكنه تاثير غريب لم يكن يتوقعه. صحيح انه تلاعب بالبرتو وصوفي، لكنهما لم يكونا الا نتاج مخيلته.

فعل بنصيحة هيلد، ففتح ظهر المقعد، واستسلم للنوم. ولم يستيقظ تماماً

الا بعد ان عبر مكتب تدقيق الجوازات واصبح في القاعة ليجد مظاهرة حقيقية في استقباله.

كانوا نحو عشرة من عمر هيلد، يحملون لافتات كتب عليها: «اهلاً بك في البيت يا ابي» «هيلد تنتظرك في الحديقة» «المهزلة مستمرة»

الاسوا، انه لم يكن قادراً على الهرب الى سيارة اجرة. فعليه ان ينتظر حقائبه. وان يتحمّل رفاق ابنته يدورون حوله ويجبرونه على قراءة لافتاتهم. لكنه استسلم عندما تقدمت منه إحدى الفتيات وقدمت له باقة ورد، ففتح احد الاكياس التي يحملها ووزع عليهم الشوكولاته، بحيث لم يتبق الا حبتان لهيلد. عندما وصلت حقائبه، اخيراً، تقدم منه شاب قائلاً انه ينفذ اوامر ملكة المرآة التي كلفته باصطحابه الى بجركلي، وتفرق المتظاهرون الاخرون.

فوق كل الانفاق والجسور، كان يجد لافتات تقول: «اهلاً بك في البيت» «البطة تنتظرك» «اني اراك يا ابي»

وعندما وصلا اخيراً الى بجركلي، اطلق زفرة ارتياح، ودس في يد السائق مئة كورون وثلاث علب من البيرة.

على عشب المدخل، كانت زوجته مارين تنتظره، وبعد ان تعانقا طويلاً، سالها:

ـ وهي. اين هي؟

ـ انها على رصيف البحيرة، البرت.

اوقف البرتو وصوفي سيارة السباق الحمراء في ساحة السوق في ليلساند، امام فندق نورج. الساعة العاشرة الا ربعاً . وشاهدا اضواء الالعاب النارية والاحتفالات في احدى الجزر القريبة.

ـ كيف سنهتدي الى بجركلي؟ سألت صوفي.

ـ يكفي ان نبحث. هل تذكرين اللوحة التي في شاليه مايجور؟

ـ لكن علينا ان نسرع، اريد ان اصل قبله!

سلكا طرقاً صغيرة، قاطعين التلال والصخور. وكانا على ثقة منه، بأن بجركلي تقع على شاطيء البحر.

فجأة صاحت صوفي:

ـ انه هناك! لقد وجدناه!

ـ اعتقد انك على حق. لكن يجب ان لا تصيحي هكذا.

ـ هه! لن يسمعنا احد.

ـ يا عزيزتي صوفي ان هذه الاستنتاجات المتسرعة، بعد كل ما اعطيتك من دروس في الفلسفة، تحبطني.

ـ ولكن ...

ـ الا تعتقدين، ان هذا المكان خالٍ من الاقزام، وارواح الغابة، والجنيات الطيبات؟

ـ آه، عفواً...

عبرا باب الحديقة، واجتازا ممر الحصى. واوقف البرتو السيارة على العشب قرب الارجوحة في مكان آخر من الحديقة، رُتبت طاولة لثلاثة اشخاص.

ـ اني اراها، إنها هناك على الرصيف، تماماً كما رأيتها في حلم.

ـ اترين كم تشبه هذه الحديقة حديقتك، في زقاق النفل؟

ـ صحيح. حتى الارجوحة.. وكل شيء. هل يمكنني ان اذهب الى هيلد؟

ـ بالطبع. انا انتظرك هنا.

ركضت صوفي نحو الرصيف وكادت تتعثر بهيلد وتوقعها، لكنها هدأت وجلست الى جانبها. كانت هيلد تلعب بحبال مَرْكب مربوط الى الرصيف. وفي يدها اليسرى ورقة صغيرة. كان واضحاً انها تنتظر شيئاً، فهي تنظر مراراً الى ساعتها. وجدتها صوفي جميلة جداً! شعر طويل اشقر يتهدل متموجاً على كتفيها، عينان تلتمعان باخضر فاتح جميل. وتلبس ثوباً صيفياً اصفر. إنها تذكرها قليلاً بجورون.

حاولت صوفي ان تخاطبها، رغم معرفتها بأن ذلك مستحيل.

ـ هيلد. هذا انا صوفي.

ـ لا رد

ركعت على ركبتيها، وحاولت ان تصرخ في اذنها.

ـ هل تسمعينني يا هيلد؟ ام انت صماء وعمياء؟

خيل اليها انها رأت شيئاً من التعجب في عيني هيلد. اليست تلك اشارة الى انها قد سمعت شيئاً. ولو قليلاً؟

استدارت هيلد فجأة الى اليمين، ونظرت مباشرة في عيني صوفي. لكن نظرتها اخترقتها، بحثاً عن شيء آخر.

ـ ليس بهذه القوة! ياصوفي

قال لها البرتو من مكانه قرب السيارة الحمراء.

ـ لا اريد ان ارى جنيات البحر، يملأن الحديقة.

ظلت صوفي صامتة. كانت سعيدة بالجلوس اخيراً الى جانب هيلد فجأة سمعت صوت رجل يقول:

ـ يا صغيرتي الحبيبة. هيلد!

انه المايجور، ببذلته العسكرية، وطاقيته على رأسه. انه هناك في اعلى الحديقة.

قفزت هيلد لملاقاته، وبين الارجوحة والسيارة الحمراء ارتمت بين ذراعيه، ثم راح يدور بها في الهواء.

اخيراً، قررت هيلد ان تنتظر اباها على الرصيف. فمنذ ان هبط على الارض النروجية، وهي تتخيل، دقيقة فدقيقة، اقل حركاته وردات فعله. فقد سجلت توقيت كل تحركاته على ورقة لم تفلتها من يدها طوال النهار.

وماذا لو غضب؟ لكن لابد له ان يشك في ان الامر لا يمكن ان يبقى على ما كان عليه، بعد ان كتب لها هذا الكتاب السحري الغريب.

نظرت الى ساعتها مرة اخرى، انها العاشرة والربع. لابد ان يصل بين لحظة واخرى.

ولكن ما هذا؟ اهي صرخة ضعيفة ما تسمعه، كتلك التي في حلم صوفي؟

ادارت راسها. هناك حضور ما، حقاً، انها متاكدة. ولكن حضور ماذا؟

ربما لا يكون إلاّ الجمال السحري لليلة صيف؟

خلال بضعة ثوان، احست انها ترى الغيب.

ـ يا صغيرتي العزيزة هيلد.

استدارت نحو الجهة الاخرى. انه اباها! ينتظرها هناك، في الحديقة.

نهضت وركضت اليه، ارتمت بين ذراعيه، ووجدت نفسها تدور في الهواء.

اندفعت الدموع الى عينيها، ولم يستطع المايجور ايضاً ان يمنع دموعه.

– كم كبرت يا هيلد، اصبحت امراة صغيرة!

– وانت! اصبحت كاتباً حقيقياً. قالت هيلد وهي تمسح دموعها بكم فستانها.

– اذن نحن متساويان.

جلسا الى الطاولة، وكانت هيلد تريد ان تعرف بالتفصيل كل ما حدث في مطار كوبنهاغن وعلى الطريق، وغرقا في ضحك مجنون.

– اذن لم تأخذ الظرف الذي في المقهى؟

– لم أجد دقيقة للجلوس وتناول شيء. هيا ايتها الملعونة الصغيرة! انا ميت من الجوع.

– يا ابي الصغير المسكين

– قصة البطة المحشوة، مزحة، اليس كذلك؟

– لا ابداً، لقد حضرت كل شيء، صدقاً، لكن امي هي التي ستقدم الطعام اليوم.

ثم انتقل الحديث الى الملف وقصة البرتو وصوفي، وخلال ذلك جاءت الام بالبطة والسلطة والنبيذ الاحمر، والخبز المجدول.

كان يقول شيئاً عن افلاطون عندما قاطعته هيلد:

– هس ..

– ماذا هناك؟

– لقد سمعت شيئاً يشبه صوت فارة. انا واثقة!

– لكنك تعرفين، ان دروس الفلسفة لم تنته بعد.

– ماذا تقصد؟

– الليلة ساحدثك عن الكون.

قبل ان يبدأ تناول طعامه، اضاف:

– ربما ان هيلد اصبحت كبيرة على الجلوس على ركبتي، اما انتِ فلا

قال هذا وشد زوجته مارين الى حضنه لتبقى حيناً على ذلك الوضع قبل أن تمد يدها، هي الأخرى، الى الطعام.

– وتقول .. انك اقتربت من الاربعين! ...

صعدت الدموع الى عيني صوفي وهي ترى هيلد تركض الى ابيها. لن تستطيع اللحاق بها!

وأحست بأنها تغبطها لكونها كائن من لحم ودم.

عندما جلس المايجور وابنته الى الطاولة، سمعت صوفي زامور سيارة البرتو. فرفعت اليه نظرها، لنْ ولم تفعل هيلد مثلها.

قفزت الى جانب البرتو في السيارة.

– سنبقى قليلاً، لنرى كيف ستسير الأمور – قال البرتو. هزت صوفي رأسها موافقة.

– هل كنت تبكين؟

هزت رأسها مرة أخرى.

– ولكن ماذا حصل؟

– انها محظوظة لكونها موجودة حقاً .. ستكبر، وتصبح امرأة حقيقية .. وسيكون لها حتماً، اطفال، في يوم ما.

– ... واطفال صغار .. صوفي، لكن لكل شيء وجهين. هذا ما حاولت ان افهمك اياه منذ بداية دروسنا.

– بماذا تفكر؟

– اعترف مثلك بأنها محظوظة. لكن من يربح يانصيب الحياة الكبيرة، يربح يانصيب الموت الكبير ايضاً. ذاك الموت هو حظ الحياة.

– لكن اليس من الافضل ان نعيش، ولو حياة غير حقيقية، من ألا نعيش أبداً؟

–نحن لا نستطيع أن نعيش مثل هيلد .. او مثل المايجور. وبالمقابل نحن لا نموت أبداً. تذكري ما قالته المرأة العجوز في الغابة. نحن من الشعب الذي لا يُرى. كما قالت ان عمرها بلغ نحو مئتي سنة. لكنني التقيت في عيد القديس يوحنا بشخصيات بلغت اكثر من ثلاثة آلاف سنة.

– ربما يكون اكثر ما اغبط هيلد عليه، هو حياتها الأسرية.

– ولكن، انت ايضاً لك اسرة. ولك هر، وسلحفاة، وزوج عصافير.
– لقد غادرنا هذا الواقع.
– أبداً. المايجور غادرها، هذا شيء مختلف. لقد وضع نقطة الوقف الأخيرة يا ابنتي. ولم يعد يتخيل ان بامكانه ان يعثر علينا من جديد.
– هل تعني انه بامكاننا العودة اليه؟
– اذا أردنا. لكننا سنعود الى الغابة، ونكوّن صداقات جديدة، هناك خلف المقهى. في فيان.

جلست اسرة كناغ الى مائدة الطعام، وخافت صوفي ان تسوء الأمور كما حصل في عشائها *الفلسفي* في زقاق النقل. للحظة، بدا ان المايجور سيقلب زوجته على المائدة، لكنه لم يلبث ان اعادها مرحاً الى ركبتيه.

كانت السيارة بمنأى عن الأسرة المشغولة بعشائها، وفيها صوفي والبرتو، يراقبان الحديقة، ويسترجعان جميع احداث حفلة الحديقة البائسة.

عند منتصف الليل، نهضت الأسرة عن المائدة، واتجهت هيلد مع أبيها الى الأرجوحة، ملوحة بيدها لأمها التي مضت الى البيت:
– امي. اذهبي الى النوم! فلا تزال لدينا نحن أمور يجب أن نناقشها.

الانفجار البدئي

... نحن ايضاً غبار نجوم ...

استرخت هيلد في الارجوحة، الى جانب ابيها. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل. وطويلاً تركا نظرهما يبحر فوق البحر، بينما يلتمع في السماء ضوء النجوم الخفيف. واصطفاق الامواج الهادىء على الصخور يصعد اليها.

كان الاب اول من قطع الصمت:

ـ مزعج ان نفكر باننا نعيش على كوكب ضائع في الكون.

ـ اجل

ـ ليست الارض الا واحداً من الكواكب التي تدور حول الشمس. ومع ذلك فانها الكوكب الوحيد الحي.

ـ من كل الكون؟

ـ من يدري؟ ربما كان الكون يضج بالحياة لانه لامحدود الكبر. ومسافاته شاسعة بحيث تقاس بـ«الدقائق الضوئية» و«السنين الضوئية»

ـ ما معنى ذلك بالتحديد؟

ـ الدقيقة الضوئية، هي المسافة التي يجتازها الضوء في دقيقة. ونعرف حجمها عندما نعرف ان سرعة الضوء هي ثلاثمئة الف كيلو متر في الثانية الواحدة. مما يعني انه يقطع مئة الف ضرب ستين، اي ثمانية عشر مليون كيلو متر في الدقيقة.

ـ وما هي المسافة التي تفصلنا عن الشمس؟

ـ اكثر بقليل من ثماني دقائق ضوئية. فالاشعة التي تدفىء خدنا، في يوم صيفي جميل، تكون قد قطعت ثماني دقائق لتصل الينا.

ـ تابع

ـ لكن، الكوكب الاكثر بعداً عنا، في النظام الشمسي، يقع على بعد اكثر من

خمس سنوات ضوئية.

لذلك عندما يستطيع فلكي ان يمسك بلوتون في مقرابه، فانه يرى مشهداً يعود الى ما قبل خمس سنوات.

بتعبير آخر، ان صورة بلوتون تحتاج الى خمس سنوات كي تصلنا.

ـ هذا صعب قليلاً، لكنني افهم الخطوط العريضة.

ـ حسناً، لكاننا بدانا نحدد توجهنا.

ان شمسنا هي واحدة من اربعمئة مليار نجمة في هذه المجرة التي تسمى درب التبانة وتشبه اسطوانة كبيرة عليها عدة حلقات على شكل لولبي، وعلى احداها توجد شمسنا.

فاذا راقبنا السماء في ليلة شتاء صافية، نرى حزاماً عريضاً في النجوم، لان نظرنا يخترق كل هذه الحلقات نحو مركز درب التبانة.

ـ لهذا تسمى درب التبانة في اللغة السويدية «درب الشتاء»

ـ يقع الكوكب الاقرب الينا في هذه المجرة، على بعد اربع سنوات ضوئية. من يدري انه ليس تلك النجمة التي نراها هناك، فوق تلك الجزيرة؟ تخيلي ان فلكياً يراقبنا نحن من هناك، من على زحل. فسيرى بجركلي كما كانت قبل اربع سنوات وربما راى فتاه صغيرة في الحادية عشرة من عمرها تتأرجح مصفقة برجليها.

ـ هذا مذهل!

ـ مع انني لا احدثك الا عن الكوكب الاقرب منا. فكل تلك المجرات او ما نسميه «ضباب النجوم» تنتشر على امتداد تسعين الف سنة ضوئية. وهذا هو الوقت الذي يحتاجه الضوء ليعبر من طرف هذه المجرات الى طرفها الآخر. فعندما ننظر الى نجمة تقع في درب التبانة على بعد خمسين الف سنة من الشمس، فاننا انما ننظر الى ما قبل خمسين الف سنة.

ـ مجرد التفكير بذلك يصيبني بالصداع.

ـ عندما نراقب الكون، نكون ننظر الى الماضي. لا يمكننا ان نفعل شيئاً آخر. ليست لدينا معرفة الفضاء كما هو الآن، كل ما نستطيعه هو معرفته كما كان . فالنجمة التي نراها عن بعد آلاف السنوات الضوئية، تسمح لنا

بالتجول في ماضي الكون، عبر الزمن.

ـ هذا صعب على الادراك.

ـ اننا ندرك كل ما نراه، لان موجات ضوئية تصل الى عيوننا. لكن هذه الموجات تحتاج الى وقت لقطع الفضاء. ويمكن ان نجري مقارنة عبر حالة الرعد. فنحن نسمع دائماً صوت الرعد بعد ان نرى البرق. ذلك اننا نسمع ضجة شيء حدث قبل قليل. كذلك الامر بالنسبة للنجوم. فعندما ارى نجمة واقعة على بعد آلاف السنين الضوئية، فكانني ارى «الرعد» الذي حصل قبل آلاف السنين.

ـ افهم.

ـ لكننا لم نتحدث حتى الآن الا عن مجرتنا. بينما يعتقد الفلكيون بوجود مليارات المجرات في هذا الكون. تتألف كل واحدة منها من مليارات النجوم. والمجرة الاقرب من درب التبانة هي مجرة اندروميد، التي تقع على بعد مليوني سنة ضوئية من مجرتنا. وهذا يعني ـ كما رأينا ـ ان ضوءها يحتاج الى مليوني سنة ضوئية كي يصل الينا. كما يعني اننا ننظر مليوني سنة الى الوراء عندما ننظر الى غيوم اندروميد هناك في الفضاء.

واذا كان ممكناً، ان مراقباً يعيش هناك، وينظر الينا عبر مرصده، فانه لن يرانا نحن، وانما بعض اسلاف البشر، ذوي الادمغة الصغيرة.

ـ هذا مرعب

ـ الكواكب الاكثر بعداً، والمعروفة لدينا، تقع على مسافة عشرة مليارات سنة ضوئية. وعندما ننجح في التقاط ضوء من هذه المجرات، فاننا نرى عشرة مليارات سنة الى الوراء. اي ما يساوي ضعفي زمن وجود النظام الشمسي.

ـ هذا يدوخنني

ـ من الصعب جداً تمثل وحدات زمنية كهذه. والعودة الى الماضي بهذا القدر. لكن الفلكيين وجدوا شيئاً اكثر اهمية لفهمنا للعالم.

ـ ما هو؟

ـ يبدو انه ليس في الكون اية مجرة ثابتة. فكلها تنتقل وتتحرك بسرعة.

وكلما ابتعدت عنا، بدا انها تتحرك بسرعة اكبر. وبتعبير آخر فان المسافة بين الكواكب تتسع اكثر فاكثر.

ـ احاول ان اتمثل كل هذا.

ـ اذا ما رسمت نقاطاً سوداء على بالون، ثم نفخته، فانك ترى هذه النقاط تتباعد اكثر فاكثر وينطبق هذا على مجرات الكون. فنقول ان الكون يتمدد.

ـ وما السبب في ذلك؟

ـ يتفق معظم الفلكيين على تفسير واحد لتمدد الكون. قبل خمسة عشر مليار سنة، كانت مادة الكون كلها مجمعة في مساحة صغيرة. ولذلك كانت كثافتها تفوق الخيال. ثم انفجرت، فجاة. وهذا ما يطلق عليه اسم الانفجار البدئي وبالانكليزية: The Big Bang

ـ ان مجرد التفكير بذلك، يثير القشعريرة في جسدي.

ـ عندها تبعثرت المادة في كل الاتجاهات، وبتبردها تشكلت النجوم، والمجرات، والاقمار، والكواكب...

ـ لكنك قلت ان الكون مستمر في التمدد.

ـ هذه، بالضبط، نتيجة ما حدث قبل مليارات السنين. ذاك انه ليس للكون طوبوغرافيا ثابتة. انه حدث، انفجار. وتستمر الكواكب في التباعد بسرعة.

ـ وهل سيستمر الامر كذلك حتى آخر الزمن؟

ـ انه توقع من عدة توقعات. ربما كنت تذكرين ان البرتو كان يتحدث الى صوفي عن قوتين، اذا ما اجتمعتا، رسمت الكواكب خطاً ثابتاً حول الشمس؟

ـ نعم قانون الجاذبية وقانون الجمادية اليس كذلك؟

ـ ذاك ايضاً ما يحدث للمجرات . ذاك انه كلما استمر الكون في التمدد، كلما اتجه فعل الجاذبية اتجاهاً معاكساً. وخلال بضعة مليارات من السنين، عندما يبدأ تاثير الانفجار البدئي، بالتناقص، قد تعود الجاذبية لتقرب الاجسام السماوية بعضها من بعض، من جديد. ويحدث ما هو عكس الانفجار اي الانبجاس. لكن ذلك غير قريب، خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار مقياس الزمن الفضائي. انه اشبه بفيلم يسير وفق التباطؤ المطلق .تخيلي ان شئت بالونا ينفس ببطء لانهائي.

ـ هل ستضمر كل المجرات لتتركز من جديد في كتلة واحدة؟

ـ نعم. لقد فهمت جيداً. ولكن ماذا بعد؟

ـ ربما حصل انفجار جديد، سمح للكون بالتمدد. لأن القوانين الفيزيائية تظل هي هي، وهكذا تتشكل نجوم جديدة ومجرات جديدة.

ـ هذا تحليل جيد. فالفلكيون يرسمون توقعين فيما يخص صورة مستقبل الكون: اما ان تستمر المجرات في التمدد الى ما لانهاية، والتباعد اكثر فاكثر، واما ان يتجمع الكون من جديد. ما هو ثابت في هذه الحالة هو كتلة الكون، وهي لا تزال مجهولة للفيزيائيين الفلكيين.

ـ يمكننا اذن ان نتخيل ان الكون قد تمدد عدة مرات ثم عاد فتجمع من جديد؟

ـ هذه فكرة جذابة. لكن هنا ايضاً يبرز توقع آخر. وهو ان الكون لا يتمدد الا مرة واحدة. لانه اذا كان يستمر في التمدد الى الابد فان قضية اصل العالم تصبح موضع اعادة نظر كلية.

ـ ومن اين جاء ما انفجر؟

ـ المؤمن المسيحي يعتبر ان الانفجار البدئي، هو لحظة الخلق. فقد جاء في الكتاب ان الله قال «فليكن الضوء». تذكرين ان البرتو قد برهن على ان رؤية المسيحية للتاريخ هي رؤية خطّية. ولذلك، فانه من المنطقي، من وجهة النظر المسيحية، ان الكون يستمر في التمدد.

ـ واذن؟

ـ في الشرق، رؤية اخرى، دائرية للتاريخ. حيث يُعتقد بان التاريخ يتكرر الى ما نهاية. ففي الهند مثلاً اعتقاد قديم بان الكون يتمدد ابداً، الى ان يعود فيلتم على نفسه، وبهذا يتعاقب ما يسمونه بـ «نهار براهما» وليله.

كان البرتو وصوفي لا يزالان في السيارة، يصغيان الى حديث المايجور حول الكون. وبعد قليل سأل البرتو:

– هل انتبهت أن الادوار قد انقلبت الآن؟

– ماذا تقصد؟

– في السابق كانا هما من يراقباننا دون ان نستطيع رؤيتهما، اما الآن فنحن الذين نراقبهما دون أن يتمكنا من رؤيتنا.

– ليس هذا فقط.

– بماذا تفكرين؟

– في السابق لم نكن نحن نعلم بوجود واقع آخر، يعيش فيه المايجور وهيلد. الآن هما من يجهل واقعنا نحن.

– آه. جميل أن ننتقم قليلاً!

– لكن المايجور يستطيع أن يعود للتدخل في عالمنا.

– وأنا لا أستطيع أن افقد الأمل في التدخل في عالمهما.

– لكن ذلك مستحيل. ألا تذكر المشهد في مقهى ساندريلا، انا أراك الآن أمامي وانت تجهد في رفع زجاجة المرطبات.

صمتت صوفي، والمايجور يتحدث عن الانفجار البدئي. ثمة شيء ما في التعبير أوحى لها بفكرة.

راحت تفتش السيارة.

– ماذا هناك؟ سألها البرتو

– لا شيء.

– فتحت علبة الأدوات، تناولت منها مفتاحاً انكليزيا، ووقفت امام هيلد ووالدها، محاولة ان تلفت انتباه هيلد. لكن عبثاً. عندها رفعت المفتاح عالياً في الهواء وهوت بضربة عنيفة على جبين هيلد.

– آه .. صرخت هيلد.

– بسرعة، كررت الحركة مع المايجور، لكن اية ردة فعل لم تصدر عنه.

– ماذا حدث؟ سأل ابنته.

– أعتقد أن ذبابة قد لسعتني.

– من يدري انه ليس سقراط، يحاول اخراجك من غفلتك

جلست صوفي على العشب، وراحت تحاول ان ترفس الارجوحة بقدميها. لكنها لم تنجح في تحريكها بوصة واحدة. أو ربما تمكنت من تحريكها ملمتراً واحداً، على كل حال؟

ـ بدأت اشعر ببرودة في قدمي ـ قالت هيلد
ـ لكن الطقس جميل هذه الليلة.
ـ لم اقصد الطقس. اشعر وكأن هناك وجوداً ما.
ـ ليس سوانا هنا، في هذه الليلة الصيفية الحلوة.
ـ لا. ثمة شيء ما في الهواء.
ـ ماذا يمكن ان يكون؟
ـ هل تذكر خطة البرتو السرية؟
ـ وكيف يمكن ان انساها؟
ـ لقد اختفيا من العيد. كأن الارض انشقت وابتلعتهما.
ـ لكن...
ـ كأن الارض انشقت وابتلعتهما.
ـ لابد من ايقاف القصة عند نقطة ما. تعرفين انهما ليسا سوى كلمات.
ـ الكلمات.. اجل.. ولكن ليس ما حصل بعدئذ.. وماذا لو كانا هنا الآن؟...
ـ هل تعتقدين ذلك؟
ـ احسه.. يا ابي.
اسرعت صوفي تعدو عائدة الى السيارة.
ـ مؤثر!
قال البرتو بلهجة اعتراف وهي تصعد الى السيارة وبيدها المفتاح الانكليزي، ثم اضاف:
ـ لا بد ان لهذه الفتاة مواهب خاصة.

طوق المايجور ابنته بذراعه
ـ اتسمعين الضجة الغريبة التي تصدرها الامواج هذه الليلة؟
ـ اجل
ـ غداً، يجب انزال القارب الى الماء
ـ اتسمع. كان الهواء يتمتم بشيء؟

انظر كيف ترتجف اوراق شجرة الزان.

- انه كوكب حي!

- لقد كتبت شيئاً عما ينسج «بين السطور».

- حسناً؟

- ربما يكون في هذه الحديقة ايضاً، شيء ما بين السطور.

- على ية حال ، فالطبيعة مليئة بالالغاز. كنا نتحدث عن النجوم في السماء

- وهناك نجوم في الماء ايضاً.

- هذا ما كنت تسمينه ضوء النجوم، عندما كنت صغيرة. ولم تكوني على خطا، بمعنى من المعاني. ذاك ان كل الاجسام الموجودة على الارض، تاتي من مواد اولية كونت النجوم يوماً .

- ونحن ايضا؟

- نعم، نحن ايضاً غبار نجوم

- هذا كلام شعري

- عندما تلتقط المراصد الجوية الدقيقة، الاشعاعات التي تاتي من المجرات الواقعة على بعد مليارات السنوات الضوئية. فانها تستطيع رسم خريطة الكون كما كان في البدء. بعد الانفجار البدئي مباشرة. وكل ما يستطيع الانسان مراقبته في السماء، هو مجرد فجوات فضائية تعود الى الاف السنين وملايين السنوات.

والشيء الوحيد الذي يستطيع الفيزيائي -الفلكي فعله، هو قراءة الماضي.

- الآن تباعدت النجوم فيما بينها قبل ان يصلنا ضوؤها؟

- يكفي ان نعود بضعة آلاف من السنوات لنلاحظ ان النجوم كانت في مواقع مختلفة عن مواقعها اليوم.

- لم اعرف ذلك.

- عندما يكون الليل هادئاً نستطيع العودة ملايين بل مليارات السنين في الزمن، في تاريخ الكون. وننظر في اتجاه الموقع الذي اتينا منه.

ـ اوضح..

ـ نحن ايضاً، جئنا من الانفجار البدئي، ذلك ان كل مادة الكون، هي مادة عضوية. وعندما ننظر الى الفضاء، فانما نحاول ان نجد المواقع التي ولدنا فيها.

ـ هذه طريقة غريبة في التعبير عن الاشياء

ـ تتكون كل الكواكب والمجرات من المادة ذاتها. ويمكن ان تكون بين مجرة واخرى مليارات السنوات الضوئية. لكنها كلها من المصدر ذاته، كلها من اسرة واحدة.

ـ افهم..

ـ وما هي مادة الكون هذه؟ ماالذي تفجر يوماً قبل عدة مليارات من السنين؟ من اين جاءت هذه المادة؟

ـ يظل هذا هو اللغز الكبير؟

ـ لكن هناك ما يهمنا مباشرة، ذلك اننا مكونون من هذه المادة، اننا شعاع من هذه النار الكبيرة التي اشعلت الكون قبل مليارات السنين.

ـ هذا ايضاً، شاعري..

ـ لكن علينا الا نؤخذ بهذه الارقام. يكفي ان نمسك حجراً، لا يتجاوز حجمه حجم البرتقالة، ونفكر بانه لم يكن ممكناً ان نفهم العالم، حتى لو كان حجمه بحجم هذا الحجر. ولكان السؤال الجوهري سيظل هو، هو: من اين جاء هذا الحجر؟

فجأة وقفت صوفي مشيرة باصبعها الى البحيرة:

ـ بي رغبة لتجريب القارب

ـ انه مربوط الى الشاطيء، ونحن لا نستطيع ان نفك مراسيه.

ـ وماذا لو حاولنا، رغم ذلك؟

هيا. انه عيد القديس يوحنا يمكننا ان ننزل الى الشط.

خرجا من السيارة وعبرا الحديقة جرياً. وعلى الرصيف، راحا يحاولان فك المراسي المربوطة بحلقات فولاذية. لكنهما لا يستطيعان،

حتى رفع طرف الحبل. ـ لكأنه مسمر بالارض ـ قال البرتو .

ـ لكن امامنا وقت كافٍ

ـ الفيلسوف الحقيقي لا يعترف بالفشل النهائي ابداً... آه.. لو كان بامكاننا ان نرفع هذا...

ـ لا يزال في السماء، نجوم جديدة ـ قالت هيلد

ـ اجل، لأن الليل لن يعتم اكثر من هذا في منتصف الصيف.

ـ لكنها تلمع في الشتاء، لمعاناً خاصاً. هل تذكر الليلة التي سبقت ذهابك الى لبنان؟

كانت ليلة الاول من كانون الثاني.

ـ يومها، بالذات، قررت ان اكتب لك كتاباً في الفلسفة. اذ كنت قد ذهبت الى مكتبة كبيرة في كريستيانساند، والى المكتبة العامة، ولم اجد اي كتاب من هذا النوع، موجه للشباب.

ـ كاننا جلسنا على اخر طرف شعيرة دقيقة من شعيرات فروة الارنب الابيض.

ـ هل تعتقدين بان ثمة واحداً هناك، على بعد سنوات ضوئية منا؟

ـ انظر! انظر، لقد فك القارب!

ـ واذن؟

ـ مستحيل. لقد كنت تحته لتوي، وتاكدت من ان المراسي مربوطة باحكام!

ـ حقاً؟

ـ هذا يذكرني بصوفي عندما استعادت قارب البرتو، ثم تركته يتارجح وسط البحيرة. هل تذكر؟

ـ ومن يدريك انها لم تفعل ذلك ايضاً الآن؟

ـ انت تمزح؟ انا كنت احس طوال السهرة بوجود ما.

ـ يجب ان انزل الى الماء واسبح لاستعادة القارب.

ـ فلنسبح معاً يا ابي.

فهرس الكلمات

المحتويات

تتوجه دار المنى بالشكر الى كل من:
الأستاذ عامر اليازجي، الأستاذة روز الشوملي والآنسة أماني البيطار
لمساهمتهم في انجاز هذا الكتاب.

المترجمة حياة الحويك عطية، حقوقية، كاتبة، مترجمة، واعلامية.
عملت طيلة عشرين سنة في الاعلام المرئي والمكتوب في المجالين الثقافي والسياسي. وبشكل موازٍ في التدريس الثانوي والجامعي.
لها عدة مؤلفات في أدب الرحلات والمسرح والرواية والنقد.
تعمل باستمرار في الترجمة في جميع المجالات المذكورة، حيث صدرت لها اربعة كتب قبل «عالم صوفي».

ببساطة، رائعة لا يمكن مقاومتها

ديلي تلغراف

إذا أردنا مدخلاً سهلاً إلى تاريخ الفلسفة فهذا هو الكتاب المطلوب.

وول ستريت جورنال

عالم صوفي انتصر على كل الصعاب

أكثر الكتب مبيعاً في ألمانيا منذ ظهوره في عام (١٩٩٣).

دير شبيغل

تمثل رواية عالم صوفي بحق مدخلاً مثالياً لمعرفة الفلسفة. إنها تشرح المبادئ والمفاهيم الفلسفية كما تشرح الأفكار والتيارات الرئيسية

جريدة

